جمهورية مصر العربية
الهيئة العامة للاستعلامات
كتب مترجمة رقم ٧٣٧

DAVID HIRST

THE GUN AND THE OLIVE BRANCH

THE ROOTS OF VIOLENCE IN THE MIDDLE EAST



البندقية وغصن الزيتون

تأليف : داڤيد هيرست

جمهورية مصر العربية
الهيئة العامة للاستعلامات
كتب مترجمة رقم ٧٣٧

البندقية
وغصن الزيتون

تأليف: داڤيد هيرست

مقدمة

فى نوفمبر من عام ١٩٧٤ وقف ياسر عرفات ، رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ، على منبر الجمعية العامة للامم المتحدة ، وقال للعالم : ((جئت احمل غصن زيتون وبندقية المقاتل من أجل الحرية .. فلا تدعوا غصن الزيتون يسقط من يدى)) . وسرعان ما قذف به الاسرائيليون الى الأرض، فقد كان — كما قالوا — مجرد أوراق ضمر نبتها فبدت غريبة فى شكلها . وقدم عرفات عرضه للسلام فى ظروف مسرحية فذة ، ولكنه قوبل بنفس ما قوبلت به العروض التى سبقتـه من كلا الجانبين . انها البندقية ، لا غصن الزيتون ، هى التى لها السيطرة فى الشرق الأوسط .. وهكذا كانت دائما .

كانت هناك اربع حروب كاملة بين العرب والاسرائيليين — فى عام ١٩٤٨ عندما ظهرت الدولة اليهودية الى عالم الوجود ، وفى أعوام ١٩٥٦ و ١٩٦٧ و ١٩٧٣ . ولكن تاريخ واحدة من أكثر منازعات العالم قسوة واشدها خطورة ، يعود بنا الى عام ١٨٨٠ وما تلاه من أعوام ، عندما بدأ الرواد الصهيونيون الأوائل يستقرون بفلسطين . وكانت هذه هى بداية المنازعات مع ما صحبها من استمرار العنف .

وما أن تأخذ الحروب الواسعة النطاق مجراها حتى تميل الى اتخاذ طابعها الطائش وفيه يسيطر هاجس واحد على كل ما عداه من الهواجس ، وهو تحقيق النصر او الافلات من الهزيمة . أما صور العنف الاهون شأنا فغالبا ما توحى بالتبصر فى طبيعة النزاع وفى نوايا ودوافع ابطاله .

لقد تنوعت صور وأشكال هذا العنف : فكان عربيا ، وكان يهوديا ، كان فرديا تلقائيا أو واسع النطاق بايعاز من الدولة ، كان اغتيالا يختار فيه الضحايا أو مذابح بلا تمييز يروح ضحيتها الأبرياء ، وكان احتجاجا أهوج من جانب الفلاحين الأميين أو عملا جسورا لا رحمة فيه من جانب المتعصبين الثوريين .. وكانت هناك غارات الحدود والغارات الانتقامية ، وكان هناك الغوغاء الثائرون ، أو الاستئصال المتعمد لطوائف باكملها عن طريق الارهاب .. وكان العنف يلجأ تارة الى اساليب تقليدية جدا ، وتارة الى أساليب حاذقة لا تخطر على البال .

ورغم تنوع هذا العنف ، كان له منطقة ونماذجه الداخلية ، واطواره وأحداثه المميزة التى يمكن أن نلحظ الفرق بينها ، وان كانت أحيانا تمتزج بالاضطرابات الكبرى التى سجلها ربع القرن الأخير . وكتاب ((البندقية وغصن الزيتون)) محاولة للتعرف على أنواع هذا العنف فى سرد صريح للأحداث فى ترتيبها الزمنى . وقد ظهرت كتب عديدة حول مظاهر هذا الموضوع ، وتناول الكثير منها الفدائيين الفلسطينيين الذين هم أكثر مظاهر العنف اثارة فى الوقت المعاصر ، ولكن الدراسات التاريخية عن العنف اليهودى او العربى لا تزال نادرة . ولذلك ، فان مجرد عرض الأحداث وفقا لتسلسلها الزمنى يمكن ان يرتب حقا فى نوع من الابتكار فى حد ذاته . انه طبعا لا يدعى انه شامل ، والا لكان قائمة لا تنتهى . كما انه لا يمعن النظر فى نفس الأحداث دون غيرها ، بل هو يشمل أيضا المناخ المعنوى والسياسى والنفسانى الذى وقعت فيه هذه الأحداث .

ويرى المؤلف انه لا يمكن عرض الطبيعة الصادقة لأى نزاع الا بتتبع مراحله واحدة تلو الأخرى منذ نشأة هذا النزاع ، وهو ما كان حتى الآن عرضة للتحيز والدعاية على نحو غير مألوف ..

ومما لا شك فيه أن رد الفعل الأول من جانب الكثيرين من القراء ، اصدقاء اسرائيل ، هو انهم سيصيحون أنه اذا كانت هناك دعاية وتحيز فانهما موجودان هنا فى هذا الكتاب . ولكنهم قد يصلون بالتأمل الأكثر نضجا — كما يأمل المؤلف — الى نتيجة اخرى ، وهى : ان الكتب التى كانت فى متناول ايديهم حتى الآن يغلب عليها ، وخاصة اذا كانت امريكية ، الطابع الصهيونى ، تعاطفا أو ايحاء ، ولذلك من العدل والصواب اصلاح الميزان ، وسرد الجانب الآخر من القصة ولهذا أيضا أهميته الكبرى ، لأن اعمال العنف التى تعرض لها الكتاب لا تعدو أن تكون احداثا فى مأساة اخذت تتشعب فى غير رحمة ، وتثير — أكثر من أى نزاع آخر فى عالمنا اليوم — مشاعر الغضب فى نفوس الأشخاص العاديين .. فى الغرب والكتلة السوفيتية وآسيا ، الى ما هو أبعد بكثير من الساحة التى وقعت فيها المأساة .. انها لمأساة تكاد تكون ضئيلة فى نشأتها ، غير أن أبعادها التى ظلت تتسع دائما قد تدفع بالبشرية الى حرب عالمية ثالثة .

الفصـل الأول
بذور النزاع : ١٨٨٢ ــ ١٩٢٠
هيرتزل يطمئن العرب

« أناشدكم الله ، دعوا فلسطين في سلام »

كان الذى تلقى هذا النداء هو صدوق خان، حاخام فرنسا الأكبر ، وأما صاحب النداء فهو يوسف ضياء الخالدى ، عمدة القدس والنائب السابق بالبرلمان العثمانى ، بعث به من القسطنطينية في مارس من عام ١٨٩٩ . وقد جاء هذا النداء في ختام كتاب مطول ومنمق الحجة ، قال عنه ذلك العالم الذى يبلغ السبعين من العمر ان نداء مقدسا من الضمير قد أوحى اليه بكتابته .. انه يقول لصديقه فى باريس :

« إن المثل الأعلى الصهيونى ، من الناحية النظرية ، طبيعى تماما ، ورائع وعادل .. من ذا الذى يمكنه ان ينازع فى حقوق اليهود فى فلسطين ؟ الله يعلم ... انها حقا بلادكم من الناحية التاريخية » ... غير أنه من الناحية العملية يعتبر هذا الهدف غير عملى .. وكان لابد من ان تؤخذ فى الحسبان « القوة الوحشية » للحقيقة والواقع .. وأشار الخالدى فى كتابه الى ان فلسطين الآن جزء لا يتجزأ من الامبراطورية العثمانية وانها فعلا آهلة بسكانها وحذر من انه اذا ما أصر الصهيونيون على مطامعهم فسيواجهون ثورة شعبية قد يعجز الاتراك أنفسهم عن اخمادها . ولذلك ، على الصهيونيين ان يبحثوا لهم عن وطن فى مكان آخر .

وسرعان ما بعث صدوق خان بهذا الكتاب الى صديق شخصى له ، هو تيودور هيرتزل ويعتبر هيرتزل ــ ذلك الصحفى اليهودى والكاتب المسرحى كما نعلم اليوم ــ أبا للصهيونية وكتابه « الدولة اليهودية » هو انجيلها .. وكانت « الصهيونية السياسية » التى بشر بها هى الحل لما يسمى بالمسألة اليهودية التى كانت قد حيرت الحضارة المسيحية طوال عدة قرون ... لقد كانت هى رده على لعنة مناهضة السامية ، القديمة قدم الدهر ، والتى واجهها فى أشنع صورها فى موطنه بالمجر حيث كانت المذابح ومحاكمات القتل بسبب الطقوس والشعائر مازالت مستمرة ورغم ان الامور لم تكن سيئة بهذا القدر فى فيينا ، عاصمة الامبراطورية النمساوية المجرية التى دب

الضعف فى اركانها ، حيث بدأ مهنته ، الا أنه كان يكفى أن يكون المرء يهوديا ليكون ذلك عقبة أمام طموح وذكاء شاب مثل هيرتزل .. كم كا نيسره اعتناق المسيحية لولا خشيته من ان يكون فى ذلك إساءة لوالده . وفى عام ١٨٩١ ، وبعد سنوات عديدة من الصراع ، عين مراسلا فى باريس للصحيفة النمساوية الشهيرة «نيوفراى بريس» . واستطاع فى العاصمة الفرنسية تغطية قضية دريفوس المعروفة ، وهى المحاكمة المدبرة التى انتهت بادانة ذلك الضابط اليهودى بتهمة نقل الاسرار الى الالمان ، ورأى كيف أن التحيز لا يزال موجودا حتى فى ارض « الحرية والمساواة والاخاء » . كما علم ايضا أن اليهود فى المعاقل المعادية للسامية ، أى روسيا وأوروبا الشرقية ، كانوا يعانون من تجدد الاضطهاد الرهيب . ان هيرتزل الذى كان يلهو من قبل بفكرة الاندماج الكامل لليهود فى المجتمع غير اليهودى كرد على المسألة اليهودية العالمية ، قد تحول الى الاعتقاد بان معاداة السامية انما هى مرض عضال يصيب غير اليهود .. ووطد العزم على أن يقود شعبه ليخرج بهم من « ارض دائمة العداء لهم » ، وعلى أن يكون لليهود دولتهم ووطنهم .

ولعل هيرتزل نفسه كان مستعدا للتفكير فى أى أرض لهذا الغرض ، ولكن معظم الصهيونيين كانوا يشعرون بأن فلسطين هى الأرض الوحيدة الممكنة .. ففلسطين هى أرض أجدادهم .. وعلى مر القرون الطويلة من النفى والعناء ، لم تخمد أبدا فكرة العودة الى « صهيون » وكذلك شعار « العام القادم فى القدس » .. وكانت « الاسطورة القوية » لفلسطين هى وحدها الكفيلة بتحريك واثارة الجموع اليهودية .. حقا ، أن فكرة العودة أصبحت روحية فى مغزاها بصورة جوهرية ، فهى تعنى الخلاص والعفو امام الله . أضف الى ذلك أن الرابطة العنصرية بين يهود القرن التاسع عشر فى أوروبا والعبرانيين الأقدمين كانت مجرد خرافة . ولكن فلسطين كانت متأصلة فى التراث اليهودى الثقافى والعاطفى بحيث لم يكن من الصعب على « الصهيونيين السياسيين » أن يضفوا على العودة معنى دنيويا وطبيعيا . ولذلك أقروا فى أول مؤتمر لهم فى بازل عام ١٨٩٧ ، برنامجا رسميا كان هدفه « اقامة وطن للشعب اليهودى فى فلسطين يكفله القانون العام » وكان أول واهم بند فى هذا البرنامج هو « تشجيع استيطان فلسطين بواسطة عمال زراعيين وصناعيين يهود ، وفقا لمخططات ملائمة » .

وكان الرد الذى تلقاه الخالدى من مؤسس الصهيونية معتدلا وباعثا على الاطمئنان جدا حيث أكد فيه « انه ليس هناك على الاطلاق ما يبعث على الخوف من هجرة اليهود ، حيث لا يوجد من ورائهم قوة حربية ، كما انهم شخصيا غير مولعين بالحرب ، أنهم عنصر مسالم تماما ، ويرضيهم كل الرضا

ان يتركوا فى سلام . أما فيما يتعلق بعرب فلسطين ، فمن الذى يفكر فى طردهم ؟ ان رخاءهم وثراءهم الفردى سيزداد بازدياد رخائنا وثرائنا . وهل تعتقد ان العربى الذى يملك أرضا سيكون غاضبا اذا رأى ثمن أرضه قد ارتفع خلال وقت قصير ، وأن قيمتها ارتفعت الى خمسة أو عشرة أمثالها ، ربما خلال بضعة أشهر ؟ كلا .. ان العرب سيكسبون أخوة ممتازين فى شخص اليهود والرعايا المخلصين الصالحين لسلطان تركيا . وفلسطين اذ تستفيد من الذكاء اليهودى ومشاريع اليهود وفطنتهم المالية ستزدهر من اجل خير الجميع »(٢) .. وبعد اشهر قليلة بدأ هيرتزل يكتب قصة طويلة بعنوان « الارض الجديدة القديمة » ، وهى رؤيته لفلسطين كما يجب ان تكون — عن طريق الاستيطان الصهيونى ، خلال عشرين سنة فقط . وفى أحد مواضع القصة يقدم لأحد العرب البارزين جماعة من الزائرين المبتهجين لهذه المملكة اليهودية المثالية ، فيطوف بهم حول قرية يانعة وراضية ، يحدثهم عما يشعر به مواطنوها من حب لأشقائهم اليهود الذين يدينون لهم بالكثير .

ولكن الخالدى كان على حق ، وكان هيرتزل يعلم ذلك ... وعلينا أن نتذكر اذا بحثنا عن الظروف المخففة ، أن هيرتزل هو ابن عصره .. الذى بلغ فيه الاستعمار الاوروبى ذروته ، فقد كانت اوروبا قارة متقدمة تنفجر بالقوة والنشاط ، تتنافس دولها فى غزو الاراضى المتخلفة والتغلغل فيها . ولم تكن القوة ، التى تخدم الحضارة ، تبدو وقتئذ أنها معرضة للشجب كما هى اليوم وهل كانت فلسطين فى نظر هيرتزل سوى ركن فى الشرق ، يجتاحه الوباء والفساد ؟ وقد يجلب اليه اليهود ، « الذين يمثلون الحضارة الغربية ، النظافة والنظام وصفوة عادات الغرب (٣) » ؟ .

ولكن هيرتزل كان يعلم انه باقرار برنامج بازل سوف تجعل «قوة الواقع» الغاشمة « انشودة » الارض الجديدة القديمة » مجرد هراء ، وقد تتسبب فى تلك الثورة التى حذر منها الخالدى وكان يعلم — وكتب فعلا — ان الهجرة الى بلد مأهول فعلا بسكانه سرعان ما ستثير أبناءه ضد الوافدين ، وتغذى — فى اعتقاده — روح العداء للسامية وهو ما كان يستهدف محاربته ... انه « تسلسل مصيره أن ينتهى نهاية سيئة . انه يستمر الى أن تحين اللحظة المحتومة التى يشعر فيها أبناء البلد بأنهم مهددون ، ويجبرون الحكومة على وقف أى تدفق آخر لليهود . ومن ثم تعتبر الهجرة غير ذات جدوى ما لم تكن مبنية على أساس تفوق مؤكد . وهو ما لا يمكن أن يتأتى الا عن طريق قيام دولة (٤) .

لقد كان العنف ، اذن ، كامنا في الصهيونية منذ البداية . وتنبأ « نبي الصهيونية بأنه لا مفر من الاكراه والقوة البدنية . وقد عبر هيرتزل في مذكراته ، التي لم تنشر الا بعد سبعين وعشرين سنة من وفاته ، عن المعتقدات التي كان يحرص على عدم ذكرها في أحاديثه العلنية ، وهي : ان القوة العسكرية عنصر لا غنى عنه في استراتيجيته ، وان من الأمثل للصهيونيين أن يمتلكوا بالفتوحات المسلحة الأرض التي يقع عليها اختيارهم (٥) . حقيقة ، انه لم يكن لدى اليهود وسائل عسكرية خاصة بهم ، ولكن هرتزل سعى لأن يستعين بكفيل يملك هذه الوسائل من بين القوى الامبريالية في عصره . وتضمنت الأساليب التي أوصى بها لتحقيق ذلك ، الايحاء بالنفوذ اليهودي في الصحافة وفي مجال المال ، وتشجيع الخصومات ، واستغلال المطامع الاستعمارية المتنافسة . كما انه سعى ليغرس في أذهان غير اليهود الخوف من اليهود ، ومن نفوذهم ، وبخاصة من عقليتهم الثورية ، وعمد إلى تصوير اخوته في الدين بأنهم عشرة ملايين من العملاء السريين . وحاول أن يواجه الساسة الاوروبيين بمعضلة : اما الصهيونية واما ثورة يثيرها اليهود ، وعلى جميع أولئك الذين لا يرغبون في «أن يفسد اليهود كل شيء» ان يؤيدوا الصهيونية . . وأكد أن اية حرب أوروبية جديدة لا يمكن أن تضر بالصهيونية ، بل ستدفع بها الى الامام . أما فيما يتعلق بسكان فلسطين الوطنيين ، فعلى المستوطنين الجدد أن ينزعوا ملكيتهم « بهدوء » ، وأن يحاولوا تشجيع الاهالي المعدمين على اجتياز الحدود بايجاد عمل لهم فيما وراءها من بلاد ، بينما يحرمونهم من مزاولة أي عمل في بلادنا . وسيقف الملاك الى جانبنا ، ويجب أن تتم عملية نزع الملكية ونقل الفقراء في تكتم وحذر . . . دعوا أصحاب العقارات يعتقدون أنهم يخدعوننا ، وانهم يبيعون لنا الأشياء بما يزيد عن قيمتها ، ولكننا لن نبيع لهم ثانية ما اشتريناه منهم (١) . وعلى أية حال ، يجب قبل رحيل السكان الوطنيين استخدامهم في ابادة الحيوانات المتوحشة التي لا يألفها اليهود . مثل الثعابين ويقوم المستوطنون بدفع « الجوائز المتفقة » نظير جلود الثعابين وغيرها ، وكذلك بيض الأفاعي (٢) » .

وفي عام ١٩٠١ وصل هرتزل الى القسطنطينية في محاولة فاشلة للحصول على وثيقة لانشاء « جمعية للاستيطان اليهودي العثماني » في فلسطين . وكانت المادة الثالثة من هذه الوثيقة تتضمن منح اليهود حق ترحيل السكان الوطنيين بالقوة (٨) .

« أن الغاية تبرر الوسيلة » . . . هذه هي العبارة التي كان هيرتزل يرددها وهو مؤمن بها (٩) . ولكنه عندما اقترح هذه الغاية ، أي قيام دولة يهودية

في فلسطين وهذه الوسيلة انما كان يقترح خداعا كبيرا ويعرض حركته كلها لما اتهم به الصهيونيون بعد ذلك بانهم المعتدون الاصليون في الشرق الاوسط ، وبأنهم رواد العنف ، وأن العنف العربي مهما كان قاسيا أو متعصبا إنما هو رد فعل حتمي للعنف الصهيوني . ولعل بعض اتباعه لم يكن يعلم ما الذي ينتظره في فلسطين وكان يعتقد فعلا انها أرض تكاد تكون غير مأهولة وانها بالفعل كما وصفها اسرائيل زانجفيل ، أحد معاصري هيرتزل بسخرية لاذعة « ارض بلا شعب ، تنتظر شعبا بلا أرض » (١٠) .. ولعل الحقيقة عندما علموا بها ، أثارت قلقهم في البداية .. وعندما علم بها ماكس نوردو ، وهو من أوائل اتباع هيرتزل ، هرع الى استاذه وهو يصيح « انني لم أكن أعلم ذلك ، ولكننا الان نرتكب ظلما » ... ولكن يبدو أن هذا القلق لم يلازمهم طويلا ، فقد ساعد نوردو نفسه على تطوير نزعتين في التفكير الصهيوني ، وهما الحاجة الى القوة البدنية ، والحاجة الى الخداع والرياء ، وهما ما كان هيرتزل قد اقترحهما منذ البداية . ولا شك انه كان يعكس « طابع العصر العقلي » الالماني الذي كان كثيرون من الصهيونيين الاوائل قد اندفعوا اليه بحماس ، وذلك عندما دعا هيرتزل الى « يهودية مفتولة العضلات » من النوع الذي افتقده اليهود طوال ثمانية عشر قرنا من النفي والتشرد تكون جديدة « معنويا : عن طريق احياء المثل القومية ، وماديا : عن طريق التربية البدنية (١١) » .. ان على الشباب اليهودي الحديث أن يحاكوا الأبطال اليهود القدامى ، وأن يحذوا حذو « باركوخيا » الذي يعتبر آخر تجسيد لليهودية التي دافعت عن نفسها بحد السيف .. « باركوخيا » الذي رفض قبول الهزيمة ، وعندما تخلى عنه النصر عرف كيف ينهي حياته (١٢) .. وردد الشعراء وغيرهم من واضعي النظريات أقوال « نوردو » ، فكانوا في معالجتهم لفضائل الشجاعة بالأسلوب المثالي يثورون على سياسة المسالمة التي ظلت « اليهودية تنتهجها زهاء الألفي سنة » .

لقد كان « نوردو » الذي ظل على قيد الحياة تسع عشرة سنة بعد موت هيرتزل ، يحاول مثله ادخال الطمأنينة الى نفوس سكان فلسطين الاصليين ، بينما كان يفخر سرا بما يستتبعه ذلك من نفاق منظم .. وكان برنامج بازل قد ادخل تعبير « الوطن الذي يضمنه القانون العام » بدلا من تعبير « الدولة اليهودية » .. وكان التعبير الاول يتسم بالغموض المتعمد . وبعد ثلاث وعشرين سنة كتب « نوردو » انه هو الذي فكر في تعبير « الوطن » ، حيث يقول : « بذلت كل ما في وسعي لاقناع دعاة قيام دولة يهودية في فلسطين بان في وسعنا ان نجد من الكلمات ما ندور به حول المعنى ونعبر بها عما نعنيه ولكن نقولها بالطريقة التي نتجنب بها اثارة الحكام الاتراك للارض التي نشتهيها » .

فاقترحت كلمة «وطن» كمرادف لكلمة «دولة» .. وهذه هى قصة التعبير الذى كان محل الكثير من التعليق .. فقد كان ينطوى على غموض ، ولكننا جميعا كنا ندرك تماما ما الذى يعنيه .. لقد كان يعنى بالنسبة لنا «دولة يهودية» ، وهو اليوم يحمل نفس المعنى (١٢) .

ومنذ «بازل» أصبحت السياسة المدروسة تتمثل فى انكار أن هناك ، أو انه كان هناك من قبل، أية نية فى اقامة دولة يهودية . وعلى سبيل المثال، وبعد أربع عشرة سنة، افتتح رئيس الحركة الصهيونية المؤتمر العاشر بخطاب أعلن فيه بطريقة ساخطة « ان أولئك الذين يعانون من الجهل المطبق أو الذين يدفعهم الحقد ، هم وحدهم الذين قد يتهموننا بالرغبة فى اقامة مملكة يهودية مستقلة » (١٤) . ولكن فى الثالث من سبتمبر عام ١٨٩٨ ، أى بعد هذا المؤتمر كتب هيرتزل فى مذكراته :

« لو كان لى ان أوجز مؤتمر بازل فى كلمة ، وهى ما أحرص على عدم الافضاء بها علانية ، لكانت : فى بازل ، قمت بتأسيس الدولة اليهودية .. ولو كنت قلت ذلك بأعلى صوتى الآن لقوبلت بالسخرية من كل العالم . . ولعل الجميع سيدركون ذلك بعد خمس سنوات ، وبالتأكيد بعد خمسين سنة (١٥) » .

ان ما ذكره الخالدى يكاد يكون نبوءة ملهمة . فقد كان من الممكن بسهولة ادراك نذر الثورة النهائية، واذا أمكن على ضوء التقديرات السالفة، تحديد السنة التى بدأت فيها المغامرة الصهيونية الكبرى فيمكن القول بأنها قد بدأت فى عام ١٨٨٢ . وبديهى ان هذا يسبق تاريخ الصهيونية السياسية التى نادى بها هيرتزل بمعناها العتيق ولكنها السنة التى يحدد المؤرخون الصهيونيون أنها بداية أولى موجات الهجرة أو « الصعود » الى أرض اسرائيل ، فقد كان هناك وقتئذ حوالى أربعة وعشرين ألف يهودى فى فلسطين ، معظمهم من المهاجرين وخلال الجانب الأكبر من القرن التاسع عشر ظل طابع « اليشوف » — وهو الاصطلاح الذى كان يطلق على المهاجرين القدامى — على ما هو عليه . حيث كانوا قد جاءوا أساسا الى القدس والخليل وصفد وطبرية بهدف دينى وهو : أن يختموا حياتهم فى احدى هذه المدن المقدسة . وكانوا فى الغالب طاعنين فى السن، وكان الكثيرون منهم يقضون وقتهم فى دراسة التلمود .. وكان معظمهم يعيش فى فقر مدقع . أما الوافدون الجدد فكانوا غير ذلك ، كانوا يطلقون على أنفسهم « أحباء صهيون » ، وقد هاجروا الى فلسطين لاقامة مستوطنات زراعية فيها .. غير ان أفكارهم السياسية كانت لا تزال منهمة : فلم يكن لديهم مخططات واضحة المعالم

على غرار مخطط هيرتزل الكبير لاقامة دولة يهـــودية . وانمـا كانوا يبحثون عن ملجـأ يأوون اليه فرارا من نزعة « العـــداء للســامية » المنتشرة بين الأوروبيين والروس ويسعون وراء جـــلال العمـل الكادح والبعث الوطني والثقـــافي . وكانت أعدادهم قليلة ، فبعـد اثنين وثلاثين سنة ، أي في عام ١٩١٤ ، رفعوا ، مع من خلفوا هيرتزل ، عدد السكان اليهود الى خمسة وثمانين الفا . وكنتيجة للحرب العالمية الأولى انخفض المجموع الى ستة وخمسين الفا في عام ١٩١٨ . وكان المهاجرون قد نجحوا عندئذ في أن يمتلكوا ما يقرب من ١٦٢٥٠٠ فدان ، أي ما يقرب من ٢ ٪ من مساحة أراضي فلسطين (١٦) .»

وربما كان عددهم صغيرا ومطامعهم السياسية محدودة ، غير انه كان هناك منذ البداية رد فعل عربي يوازي ذلك التهـــديد الذي كان يبدو أن « احباء صهيون » يمثلونه . ولم يكن رد الفعل العربي يصدر عن أعيان البلاد او زعمائها السياسيين ، بقدر ما كان صادرا عن ادنى قطاعات المجتمع ، وهم الفلاحون الذين كانوا فعلا اول من شعر بهذا التهديد . . ففي هذا الوقت كان خمسة وسبعون في المائة من الفلسطينيين فلاحين ، وكانوا شديدي الارتباط بأرضهم .. وقد اعترف الزائرون الاوروبيون المعاصرون بالمهارة والاجتهاد اللذين كان يبذلهما الفلاحون في العناية بحقـــولهم وبساتينهم رغم مواردهم البدائية ، ورغم الاضطهاد السياسي والاجتماعي (١٧) .. وانتشرت شـهرة البرتقال اليافاوي في كل انحاء أوروبا . وهؤلاء الفلاحون الذين هم أول من خسروا أراضيهم وأرزاقهم ليستولي عليها المستوطنون من وراء البحار . كانوا يشعرون بالبديهة بالأبعاد النهائية للتهديد .. « هل يريد اليهود حقا أن يعودوا للاستيلاء على هذه البلاد ؟ » .. هذا هو السؤال الساذج الذي كان يردده القرويون الأميون ، والذي سجله « البرت انتيبي » ، وهو أحد المسئولين في « جمعية الاستيطان اليهودية (١٨) » قبل نهاية القرن الماضي .

الفلاحون يقاومون :

لم يلجأ الفلاحون الى العنف المادي ضد المستوطنين الابعد سنوات قليلة منذ موجة الهجرة الاولى في عام ١٨٨٢ . وكانت مقاومتهم ، رغم تلقائيتها وعدم تنظيمها ، تسير على نمط خاص . انهم لم يقاوموا البيع الفعلي للاراضي التي كان من المقدر ان يطردوا منها ، فقد كان البيع يتم في الغالب دون أن يعلموا اي شيء عنه لأنهم كانوا مستأجرين يفلحون أجزاء من أرض قد لا يكونون قد رأوا وجه صاحبها . ولكنهم كانوا يقاومون ما يترتب على البيع بعد ذلك من عملية الاستيلاء . وهذا ما حدث في عام ١٩٠١ عندما قام الفلاحون من

القرى المجاورة لطبرية بمهاجمة مساحة الاراضي الذين كانوا قد جاءوا لوضع علامات على حدود الارض المشتراة من أسرة « سرسق » ببيروت (١٩) . .
وكان طبيعيا ان يقاوموا نفس الحكم القضائي الخاص بطردهم من الارض .
وفي بعض الأحيان كانت القوات التركية تستدعى لتنفيذ مثل هذا الحكم . . .
وقد حدث هذا في عام ١٩١١ بمناسبة تنفيذ صفقة اخرى من أراضي « سرسق » حيث اعتقل المستأجرون من الجليل الأدنى والقى بهم في السجون (٢٠) . . وعندئذ ، قد يقومون هم أو بعض جيرانهم المهددين ، بعد هزيمتهم هذه ، بهجمات فردية مدبرة على مستعمرة جديدة ، أو يواصلون اغارتهم المتقطعة عليها بمختلف الطرق ، فيسرقون الماشية او المحاصيل ، وينصبون الكمائن ، واحيانا يقتلون بعض فلاحيها (٢١) .

ومن النادر العثور على أية تقارير عن العلاقات بين العرب واليهود في تلك الحقبة المبكرة اللهم الا تقرير واحد عن تأسيس منطقة « الخضيرة » ، وهو يصف في سخرية لاذعة مدى ازدراء الوافدين الجدد للسكان الأصليين وعدم مبالاتهم بأي أذى يلحقونه بهم . ويبدأ الاستيطان في عام ١٨٩١ ، وواضع هذا التقرير هو موشي سيميلانسكي ، وهو يهودي من كبار منتجي البرتقال المعروفين كما انه في نفس الوقت كاتب ، وهو من أوائل المستوطنين وكان في ذلك الوقت صبيا في السادسة عشرة من عمره . ويقول سيملانسكي انه حدث في احد أيام الشتاء أن علم بعض المهاجرين الذين نزلوا لتوهم في يافا بأنه تم شراء ثلاثين ألف « دونم » من الأراضي شمالي السهل الساحلي . . فتطوع بعض المتحمسين ، ومن بينهم رجال في أواسط العمر ولهم عائلاتهم ممن كانوا لا يزالون في دور الصبية ، بالاشتراك في هـــذه الاراضي . وسألهم مستوطن له خبرته عما اذا كانوا يعلمون السبب في تسمية القرية المجاورة بالخضيرة ، فبدا على مضيفنا شبه حيرة ، واجاب :

ان لم اكن مخطئا ، فان هذا يعني اللون الاخضر . فقال المستوطن :
« ان هذه دلالة سيئة ! أليس هناك نوع من العلاقة بين هذه التسمية وحمى « البول الاسود » التي يزعم العرب أنها منتشرة هنا في هـــذه المنطقة ؟ »
فأجاب : « يحتمل . ولكن من المؤكد أننا لن ندع قصص العرب عن هــذه الحمى وتدخل الخوف الى نفوسنا . . فنحن لسنا بعرب ، وسنجد وسيلة ما للقضاء على الملاريا . . » .

وعندما وصلت الافواج الأولى من المستوطنين الى « الخضيرة » ابتسم سائقهم في سخرية عندما لاحظ فرحتهم بالمظهر الاخضر لارضهم ، وقال :

« وهذه الوديان الخضراء مستنقعات . . (انها مصدر الملاريا . . تأملوا تماما حولكم . . ان كل هذا الوادي الفسيح لا توجد به قرية واحدة) هناك قرية

شركسية على حافة ارضكم ... ولكن معظم سكانها قد ماتوا ... اما القليلون الذين بقوا على قيد الحياة - فهم مشلولون » ... واجابه المستوطنون : « اننا لسنا بحاجة الى تلقين من أجانب » .

بدأ الرواد يعملون في نشاط ، فغرسوا الكروم ، وبذروا القمح .. وما ان حل فصل الصيف حتى انتشرت الحمى ، وسرعان ما اخذ المستوطنون يقضون نحبهم واحدا بعد الآخر ... وفي بعض الأحيان كانت الحمى تقضي على اسرة باكملها ، كما هو الحال بالنسبة للكاهن جاكوب ايدلبسون الذي حصدته الحمى مع زوجته وولديه .. ولازم الحماس المستوطنين خمس سنوات ، ولكن حلت لحظة بدا فيها بعد ان هزمهم المرض ، أن عليهم ان يهجروا المستوطنة .. غير انه في هذه اللحظة تدخل المليونير « البارون روتشيلد » من باريس ووعد بتقديم الاموال لتجفيف هذه المستنقعات ... وعلى ذلك ، جاء في صيف ١٨٩٦ « مئات من العمال السود من مصر لحفر الخنادق العريضة العميقة التي يستلزمها صرف وتجفيف المستنقعات » ... ولكن هؤلاء العمال ايضا كانوا يموتون بالعشرات .. ومع ذلك ، تم التجفيف في موعده ، واصبحت « الخضيرة » مستوطنة مزدهرة . ويقول سميلانسكي انه الى جانب الشراكسة كان بعض البدو يقيمون على مقربة من المستوطنة ، وكانوا احيانا يسرقون خيول المستوطنين . « وثارت ثائرة الجيران البدو ، من قبيلتي الاميرة والانفيات » ... اين يمكنهم رعي ماشيتهم واغنامهم ؟ ولكن المدير التركي حضر من « القيصرية » على رأس فصيلة من الشرطة وقام بتشتيت جموعهم .. ومنذ ذلك الوقت أخذ العمل يسير دون أن يعكره شغب أو اضطراب (٢٢) .

وتعليقا على هذا التقرير يوضح المؤرخ البريطاني بيفيلم باربور انه بينما كان حماس المستوطنين مثيرا للاعجاب ، كانت غطرستهم هي الاخرى واضحة بصورة مماثلة . فتجفيف المستنقعات لم يتم عن طريق مهارتهم المتفوقة بالمقارنة بمهارة الوطنيين « الهمجيين » بل عن طريق الاموال الوفيرة ، كذلك كانت هناك خاصية اخرى وهي اعتماد المستوطنين على الشرطة التركية لطرد جيرانهم الذين اضيروا في ارزاقهم على يد أولئك المستوطنين (٢٣) .

وفي هذا الوقت تقريبا قام « احاد هاعام » ضمير الصهيونية الأولى ، فرفع لاول مرة صوته بحدة وبلاغة ضد انحراف حركة كان قد فهمها من هرتزل على نحو يختلف عن ذلك كل الاختلاف . فالصهيونية ، في نظر هذا الرجل التمسك بمبادىء الاخلاق ، يجب ان تكون وسيلة في يد اليهود لاستعادة عظمتهم الروحية والثقافية ، وليصبحوا مرة اخرى ، في انبل معنى منارة للامم .. اما الصهيونية في شكلها السياسي الضيق ، والتي تسلطت

عليها فكرة الأرض ، صهيونية القوة ، ودبلوماسية المناورات والتلاعب ، فانها صهيونية ملعونة فى نظره . ولم يكن هناك أى اختيار أساسى وواضح يجب على ضوئه الحكم على الصهيونيين ، سوى الطريقة التى يعاملون بها جيرانهم الفلسطينيين . ويصر على القول بان التاريخ اليهودى قد أثبت الحاجة الى التآخى مع الجيران واحترامهم .

« ولكن ما الذى يفعله اخواننا فى فلسطين ؟ انهم لا يفعلون سوى عكس ذلك ! كانوا خدما فى أرض المنفى ، ثم وجدوا أنفسهم فجأة فى حالة من الحرية لا حدود لها ، حرية مطلقة على نحو لا يوجد الا فى تركيا وحدها .. وخلق هذا التحول فى نفوسهم ميلا الى الطغيان وهو ما يحدث عادة عندما يصبح الخادم سـيدا ! انهم يعاملون العرب بعداء وقسوة ، ويجردونهم بلا ضمير من حقوقهم ، ويهينونهم دون سبب ، بل ويتباهون بمثل هـذه الأفعال ، وليس هناك من يعارض هذا الميل الخسيس والخطير » (٢٤) .

كان ذلك فى عام ١٨٩١ . وفى تلك الأيام الأولى من نشأة الصهيونية كان المستوطنون محل أحكام قاسـية من جانب ذلك الرجـل الذى ظل طوال السنوات الثلاثين التالية يرثى للآثام التى ترتكب باسمها ومع ذلك ، كان المستوطنون أقل تشربا لتلك الأنانية العمياء التى اتسم بها من جاءوا بعده من الصهيونيين الذين كانوا نظريين أكثر منهم عمليين ، ونجحوا ولو من الناحية الظاهرية على الأقل فى اقامة علاقات مفيدة ، بل أيضا ودية ، مع جيرانهم العرب . ويقول « هـ.م. كالفاريسكى » : ان العرب واليهود :

« ... كانوا يلتقون فى بيوتهم وفى حقولهم ، وبدأ كل يعرف الآخر معرفة وثيقة . وعندما أقيمت المستوطنات اليهودية لأول مرة كان هنـاك طلب كبير على العمال . ولم يكن هناك عمال يهود بالبلاد . لذلك كان من الضرورى استخدام اليد العاملة العربية ، وبذلك أتيحت الفرصة للفلاحين اليهود والعمال العرب ليتعارفوا فيما بينهم . وكان الفلاحون من القرى المجاورة يعملون فى المستوطنات اليهودية ويعودون ليلا الى ديارهم . وهناك كانوا يقولون ان اليهودى و « الخواجة » أى المالك . أناس طيبون يجزلون لهم العطاء . وفى نفس الوقت أخذت العلاقات الوثيقة تتوطد بين المستوطنين اليهود وملاك الأراضى العرب . وأخذ الفلاحون اليهود يشترون الخيل للتربية والركوب بالمشاركة مع المشايخ العرب ، وغالبا ما كانوا يمتلكون قطعان الغنم والماشية بالمشاركة معهم أيضا (٢٥) » .

كان كالفاريسكى أحد وكلاء الدعاية ومديرا لجمعية الاستيطان الفلسطينية اليهودية ، ولكن انطباعاته كانت أساسا انطباعات صادقة أمينة رغم ما كانت

تتسم به من الافراط فى التفاؤل . لقد كان لدى المستوطنين الجدد الكثير مما يمكن أن يقدموه ، وكانوا يستخدمون الأساليب والآلات الحديثة ، وفى وسعهم توفير العمل المجزى ، وسوق للانتاج ، والعناية الطبية ، مع اعارة المهمات . والواقع ان المستوطنات كانت تستخدم من العرب عشرة أمثال من تستخدمهم من اليهود . وكان من الطبيعى أن يشعر الفلاحون بالاستياء ، على نحو يتسم بالعنت ، من ذلك التطفل المبدئى الذى أدى الى طردهم من أراضيهم ولكن عندما تبين لهم أن المستوطنات دائمة أصبح من الممكن تحقيق نوع من التعايش . وكان هذا الأسلوب ، أى الاستياء فى البداية ، ثم العداء المكبوت أو العلنى الذى يتلاشى ليحل محله الإذعان والاستمالة المادية ، يتكرر دائما كلما شرع اليهود فى تأسيس مستوطنة جديدة (٢٦) .

اقتحـام العمـل :

مع بداية القرن الجديد أخذت مواقف اليهود تزداد صلابة . وجلبت الموجة الثانية من الهجرة سلالة من المستوطنين أكثر خشونة ، مسلحة بالجهاز الايديولوجى الذى كان هيرتزل وتلاميذه قد عملوا على تنميته ، وكانوا ، على حد قول ليفيتيكوس ، مصممين على « استرداد الأرض » وأعلن « الصندوق القومى اليهودى » الذى تأسس فى عام ١٩٠١ ، ان كل الأراضى التى يمتلكها ستظل ملكية يهودية لا يمكن التنازل عنها ، ولا يمكن بيعها أو تأجيرها للغير وكانوا مصممين على « اقتحام العمل » . فاليهود وحدهم يجب أن يفلحوا الأرض التى تملكها اليهود . وكان العرب بالطبع هم الذين استرد اليهود منهم الأرض ، ومنهم أيضا انتزع اليهود العمل . وقد اتبع اليهود هذه الايديولوجية الى أبعادها الخرقاء ، فيتحدث المؤرخون الصهيونيون فى زهو وفخر عما حدث فى عام ١٩٠٨ فى مستوطنة « بن شمن » بالقرب من اللد ، فقد غرست احدى الغابات هناك تكريما لذكرى تيودور هرتزل ، ولكن عندما علم اليهود بأن العرب هم الذين غرسوا شجيراتها جاء العمال اليهود وأعادوا غرسها . . وعندئذ فقط شعروا بالارتياح ولكن مثل هذا التدقيق لم يكن دائما ممكنا . . اذ يقول دكتور روبين ، أول رئيس للمكتب الصهيونى فى فلسطين ، فى مذكراته انه حاول أن يبنى تل ابيب « باليد العاملة اليهودية » وحدها ولكنه سرعان ما اضطر لأن يلجأ الى العرب نظرا لخبرتهم (وأجورهم المنخفضة) . وقد انهار أول بيت بناه العمال اليهود وهو فى دور البناء (٢٧) . كان المستوطنون الاشتراكيين ، ملتزمين على نحو عميق بالمثل الاشتراكية ، ولكن كلما ازداد هذا الالتزام عمقا كلما بدا أن تطبيقه يزداد ضيقا . . ولم تمتد اشتراكيتهم الى رفاقهم من غير اليهود . . حقا انها كانت تتبرأ من

الاستعمار الأوروبي التقليدي الذي طالما استنكرته خلقيا ، ولكنها كانت مشربة بشدة بعقلية استعمارية أسوأ منه ، في واقعها ان لم تكن في أهدافها ، ذلك انها لم تعمد الى استغلال السكان الأصليين ولكنها عملت في غبطة على حرمانهم من أرزاقهم . وفي النهاية من بلادهم وديارهم .... انهم يقولون « ان الأخوة العالمية للعمال » انما تنطبق فقط على العمال المثبتين فعلا في عملهم . وانها لا تطبق على تلك الطبقة الكادحة المحتلة التي عليها أن تكافح لكي تجد عملا ، والتي لا تستطيع أن تكف عن محاربة أولئك العمال الذين يحتلون مكانها (٢٨) . ومن منطلق هذه الفلسفة ظهرت المزارع الجماعية اليهودية « الكيبوتز » التي قامت على العمل اليهودي وحده كما انها أدت الى طرد العمال العرب — الذين وصفهم أحد الباحثين اليهود بأنهم « جلدام اليم (٢٩) » من المستوطنات اليهودية ، وأدت في النهاية الى مقاطعة السلع العربية بمجرد أن استطاع اليهود انتاج ما يكفي من السلع اليهودية .

وكان اليهود من تلك الموجة الثانية من المهاجرين يعتقدون بأنه مع مرور الزمن سيغير العرب واليهود على السواء من العمل اليهودي . ولا شك أن البعض منهم كان صادقا في هذا الاعتقاد الذي كان متأصلا في النظريات الماركسية في ذلك الوقت . فقد كان الاشتراكيون الاوربيون المضللون يريدون عشية اكبر مذبحة عرفها التاريخ أن الحرب سوف تصبح بعيدة الاحتمال لأن عمال بلد ما سير فضون مقاتلة عمال البلد الآخر . وكان الصهيونيون الأوائل ، وهم ماركسيون من ذوي الفكر المحدود والمبسط يؤكدون أن هذا يجب أن ينطبق أيضا على فلسطين ، وادعوا انهم لا يرون أي تناقض بين مشروعاتهم العمالية ومصالح الأهالي المحليين الذين يتألفون أساسا من الفلاحين والعمال الذين تستغلهم صفوة فاسدة من الملاك الاقطاعيين . وانهم على ثقة من أن أولئك السكان سيضمون جهودهم سريعا الى جهود اخوانهم اليهود الكادحين .. ولو لم يكن هناك استغلال للعمال العرب لما استطاع العمال العرب « موضوعيا » معارضة الصهيونيين « ويقول المؤرخ الاسرائيلي عاموس ايلون « ان هناك سخرية عميقة ومثيرة تكمن في أن العمل اليهودي الذي قيل أنه وسيلة لتهدئة النزاع ، قد أدى بالفعل الى ذلك الشقاق التام بين الشعبين وجعله أمرا محتوما .. لقد كانت البداية عملية انعزال اقتصادي وسياسي وثقافي ونفساني (سيكولوجي) ، رد العرب عليها بانتقام . فمنذ تأسيس دولة اسرائيل وهي تحاول الخروج من تلك « العزلة الالزامية » القاسية التي فرضها من حولها العالم العربي بأسره .... ويختلف المدى بصورة لا حد لها .. ولكن هذا الحصار العربي ، وفقا لكل قوانين الوراثة ، ان هو الا نتيجة مباشرة لأول عملية طرد لعامل عربي من مزرعة يهودية .

بدء الإستعداد العسكرى العدوانى :

لم يكن من الممكن أن يتم « اقتحام العمل » ، كما تنطوى عليه التسمية، بدون عنف . وفى الواقع ، لم يكن الشاعر الصهيونى « شساوول تشسير نيشوفسكى » ليستطيع أن يتخيل أحدها دون الآخر حيث يقول . « اننا نستمد أيدينا لندفع العمل بقوة ، ذلك العمل المقدس ، بينما نقبض بيدنا على السيف .. ارفعوا الاعلام صهيون ، يا محاربى يهودا (٣٠) . ومنذ حلول عام ١٩٠٣ كان المهاجرون القدامى الأوسع أفقا قد أدركوا « أن أولئك العمال اليهود الروسى يشكلون مع مبدأ قصر العمل على اليهود وحدهم عاملا كبيرا فى اثارة عداء العرب الفلسطينيين » (٣١) .. وبدأت عملية الاستعداد العسكرى العدوانى التى تنبأ بها هرتزل طريقها تدريجيا . وفى عام ١٩٠٧ ظهرت الى الوجود منظمة تسمى نفسها « هاشومير » (أى الحارس) ومهمتها احلال الحراس اليهود محل الحراس العرب على أساس أن أملاك اليهود يجب أن تكون فى حماية اليهود . وهذا الاسم ـ هاشومير ـ الذى كان مجيبا الى الكثير من منظمات الشباب اليهود فى ذلك الوقت ، يمثل الروح النزاعة للقتال التى كانت تسود تشكيلاتهم . وهكذا كانت أيضا سمات الأسماء التى اختارها الكثير من منظمات الشباب اليهودى فى ذلك الوقت، يمثل الروح النزاعة للقتال بالذل الذى تعرضوا له فى مضيهم فى المنفى ، ومن أمثلة هذه الأسماء : « ياريف » (الخصم) ، أو « عوز » (القوة) ، أو « تامير » (الشامخ) أو « هود » (روعة) أو « باراك » (البرق) أو « تسور » (الضخرة) (٣٢) .

وكان الحارس يمثل أول نواة للقوة العسكرية . وفى عام ١٩٠٩ تم تكوين منظمة سرية للدفاع وكان من بين مؤسسيها اسحق بن زفى ، الذى اصبح فيما بعد رئيسا لاسرائيل . ويحفل وصفه لأول اجتماع للمنظمة ، الذى عقد فى مسكنه ، بكثير من التنبؤات عن المستقبل : « كانت أرضية المكان مغطاة بالحصير ، واتخذنا من بعض الصناديق مقاعد ومكاتب .. كان هناك شعور واحد يتملك الحاضرين .. لقد استجمعوا شجاعتهم ، وكانوا يعلمون أن الكلمات وحدها لاتجدى فى انقاذ أمة ، وان الخطب لا تجدى فى اعادة بناء دولة .. لقد سقطت يهودا وسط الدماء والنيران ، ووسط الدماء والنيران ستبعث من جديد (٣٣) .. « وفى نفس السنة رخص قائمقام طبرية بتكوين حرس يهودى مسلح خوفا من وقوع مذبحة » (٣٤) . وكان توفير وسائل الدفاع العسكرية قد سبقته مناقشة بين اثنين من الرواد الشبان فى مستعمرة « سجيرة ـ أى الشجرة » ـ وكان أحدهما ، وهو دافيد يريد تكوين منظمة يهودية للدفاع عن النفس ، ولكن الآخر ، وهو شلومو ،

كان يعارض هذه الفكرة ، وكانت حجته انهم عادوا الى ارض المعاد ليعيشوا في سلام ، وانهم لو اثاروا العرب فلن يكون هناك سلام ابدا . واصر دافيد على رأيه ، فهذا عالم لن يكون فيه احترام الا للقوة ، وللقوة وحدها . ورحل شلومو الى باريس ، وبقى دافيد .. دافيد بن جوريون .

واخذت مواقف العرب بدورها تزداد صلابة .. وكانت عملية بطيئة تتسم بالتردد ، فقد كان الزعماء الفلسطينيون أقل نزوعا من الناحية العقدية الى استخدام القوة من أقرانهم الصهيونيين فقد كان ذلك يخالف وجهة نظرهم الشاملة كممثلين لشعب مغلوب على أمره . ففى عام ١٨٩٠ عندما قام كبار الفلسطينيين ، على هيئة مجموعة من أعيان القدس ، فاتخذوا أول مبادرة رسمية فى الصراع الناشىء ، لم يتخذوا الا الاجراء القانونى الوحيد الذى كان فى وسعهم اتخاذه ، وهو الاحتجاج لدى سادتهم الامبراياليين ، أى الباب العالى بالقسطنطينية . وقد كانوا يظهرون بذلك ما جبلوا عليه من غريزة الاحترام التى ظلت ملازمة لهم ، وان كانت قوتها أخذت تتضاءل تدريجيا ، عبر السنين الأخيرة من الحكم العثمانى ، والثلاثين سنة التى استغرقها الانتداب البريطانى ، والسنين الخمس والعشرين منذ تشتتهم بعد عام ١٩٤٨ . فقد احتجوا على تعيين محافظ تركى كان يؤيد الصهيونيين علانية . وفى العام التالى رفعوا التماسا آخر يتضمن مطلبين : انهاء الهجرة اليهودية ووقف صفقات الأراضى . وفى عام ١٨٩٨ ، قام يوسف ضياء الخالدى باتصال مباشر مع الصهيونيين ولكن مثل هذه النداءات لم يكن لها أى أثر .. فقد كان الصهيونيون يتظاهرون بأنهم يصغون اليها أما الأتراك فكانوا يصغون ولكن بصورة غير منتظمة . بين الحين والآخر كان الباب العالى يفرض قيودا على الهجرة ، ولكن سرعان ما ترفع هذه القيود تحت الضغط الأوربى ، أو يسمح للمسئولون المرتشين هناك بأن يغمضوا أعينهم عن استمرار تحدى اليهود لتلك القيود .

ولذلك كان من المحتم مع مرور الوقت واستمرار الصهيونيين فى تقدمهم البطىء والثابت ، أن يفقد الأعيان الفلسطينيون تدريجيا احترام الشعب لهم ، وهو الاحترام الذى لابد منه لأية زعامة من أجل قيادة صراع وطنى.. ولو كان رجال آخرون من ذوى النفوذ والسلطة سلكوا نفس مسلك قائمقام طبرية — وفقا لوصف احد المراقبين اليهود له — لاختلفت الأمور عن ذلك كثيرا .. لقد كتب هذا المراقب عن طرد الفلاحين من الأراضى بالجليل الادنى يقول :

« هكذا أتيح لى أن أتصل لأول مرة بالقومية العربية . ولم يكن رشيد بك الوالى التركى يهتم فى كثير أو قليل بما اذا كانت منطقة طبرية يقطنها عرب أم يهود ، ومن ثم كان مستعدا لاصدار الأمر بطرد المستأجرين . ولكن الأمير أمين أرسلان قائمقام طبرية وهو عربى من الدروز ، لم يتمسك بدفع التعويض للعرب المطرودين فحسب بل انه كان أيضا ــ كما علمت يقاوم القضاء على الطابع العربى للمنطقة (٣٦) .

بائعو الأراضى :

لم يكن من بين الأعيان كثيرون ممن هم على شاكلة قائمقام طبرية . وكانت الجريمة الأولى فى نظر نقادهم هى استعداد الغالبية العظمى منهم لأن يحققوا ، كأفراد ، ثراء من صفقات بيع الاراضى للصهيونيين بالذات ، وكانوا مواطنين ، يرون فيها نذر كارثة قومية وكان الجانب الأكبر من الأراضى التى اشتراها الصهيونيون ، فى أغلبها أراضى الملاك الغائبين . ولما اخذت المقاومة تستفحل ، انخفضت نسبة مساحة الأراضى التى تخلى عنها صغار المزارعين الى ٣ر٤ فى المائة من عام ١٩٠٠ الى عام ١٩١٤ ، بعد أن كانت ٧ر٤٢ فى المائة فى الأعوام من ١٨٩١ الى ١٩٠٠ (٣٧) .

ويحتل اسم « سرسق » مكانه البغيض والمتكرر فى هذه القصة . وأسرة سرسق شرقية ذات أصل عريق ، وثراء ، طائل وكانت تقضى معظم أوقاتها فى اوروبا الغربية ، كما أنها تمتلك بعض اخصب الأراضى فى فلسطين .. وقد باعتها بأكملها بين عام ١٨٩١ وعام ١٩٢٠ الى الصهيونيين حيث لم تتأثر بتلك النداءات التى استهدفت احساسها بتاريخها العربى ، كما لم تؤثر فيها النداءات اليومية التى تناشدها العودة الى ضميرها . وفى عام ١٩١٠ باعت الأسرة منطقة « فولة » بما فيها من القلعة الصليبية التى كان صلاح الدين سببا فى ذيوع شهرتها بوادى اسرايلون الخصيب . وفى عام ١٩٢٠ باع آل سرسق ما كان قد تبقى لديهم من أملاك ، وكان يعمل بها ثمانية آلاف فلاح من اثنين وعشرين قرية ، وكانوا قد اشتروا كل المنطقة فى عام ١٨٨٢ من المسئولين العثمانيين المرتشين بمبلغ هزيل يتراوح بين الثمانية عشر الفا والعشرين الفا من الجنيهات وكانت تدر عليهم دخلا يتراوح بين الاثنتى عشر والأربعين ألفا من الجنيهات سنويا ، وباعوها بعشرة أضعاف الثمن الذى كانوا قد اشتروها به ، ولكنهم شكوا فيما بعد مر الشكوى من أنهم باعوها بهذا الثمن البخس .. وهذا فى الواقع ما فعلوه (٣٩) . أما مصير أولئك الفلاحين الثمانية آلاف فانه لم يتحدد اطلاقا ، ومن بينهم المستأجرون الذين حصلوا ــ دون العمال على تعويض قدره ثمانية وعشرون

الف جنيه ، أي بمعدل ثلاثة جنيهات ونصف للفرد الواحد .. وكانت صفقة سرسق من أشهر الصفقات ، وأكثرها مدعاة للاسى ، ولكن كانت هناك أيضا صفقات أخرى كثيرة .

وسرعان ما تعالت صيحات الاعتراض من الوطنيين . ولم تكف صحيفة « كرمل » التى كانت تصدر فى حيفا عن توجيه اللوم الى « الزعماء » « والأفندية » وسماسرتهم :

« انكم اليوم بأيديكم وبأختامكم، تبددون ثروتكم ، وتضعفون صفوفكم، بينما تزيدون من ثروات الغير وتقوون صفوفهم .. ما الذى نقوله فى شعب اخذ زعماؤه — وكثير منهم أبطال للاصلاح وحماة كما يقولون لأمن الأمة — يبيعون بلادهم للصهيونيين ويتصرفون كعملاء لهم .. زعماء يشبعون شهواتهم ويواصلون مشاحناتهم غير عابئين بالأخطار المحدقة بهم » ، ويدخلون فى خدمة الصهيونيين لتبديد الوطن » (٤٠) .

انتشار العداء للصهيونية :

ما هو المسلك الذى من المفروض أن يسلكه الزعماء الفلسطينيون ومن عداهم ؟ انه بطبيعة الحال نفس المسلك الذى كان يتبعه الصهيونيون أنفسهم . لم يمض وقت طويل حتى يشعر الفلسطينيون أن الصهيونيين عدو لهم ، وسرعان أيضا ما أدرك أولئك الذين شعروا بهذا بشدة أن خير طريقة لمحاربة العدو هى أن يتعلموا من ذلك العدو . فلم يكن نجيب نصار ، — وهو مسيحى من حيفا ومؤسس « صحيفته الكرمل » ليروج هذه الفكرة بين مواطنيه — وغيره من مدبرى الحملة ، يخفون اعجابهم بالصهيونيين .. وكان ذلك علامة على تغير مذهل فى الموقف ، حيث كان الفلسطينيون يتجهون الى احتقار أولئك اليهود الذين كانوا فى غالبيتهم معتدلين ، أتقياء ، أخنى عليهم الدهر ، جاءوا الى فلسطين قبل موجة الهجرة الأولى فى عام ١٨٨٢ ، بل كانوا أيضا يؤنبون الجفاة من بين صفوفهم وينعتونهم بكلمة « اشكنازى » . ويقول نصار : « لقد ظل اليهود مشتتين طوال ألفى سنة حتى ظهر هيرتزل وعقد مؤتمر بازل . وظهرت المنظمة الصهيونية بكل فروعها ، وفى غضون خمس عشرة سنة نشرت نظريتها على الأمة بأسرها ، واشترت خير الأراضى فى فلسطين ، وجعلت لليهود صوتا متحدا ، وفتحت المصارف لتمويل الفلاحين .. فاذا ما حاكيناهم فاننا سننجح (٤١) .. » .. لقد وجد هو وغيره أن اليهود شعب ذو عزم ، يعمل بجد واجتهاد ونشاط .. وكل من يشاهد القرى التى أنشأوها سيدرك أنه أمام شعب يصارع من أجل البقاء .. وانه لابد من ايقاظ

الشعب لكى يناقش اليهود ، والا سقط فريسة لجيرانه (٤٢) » .. وحددوا الطرق المتعددة التى يستطيع بها العرب الافادة من المثل الصهيونى : وذلك بعقد المؤتمرات ، وتنظيم المشروعات المشتركة ، ومساعدة الفلاحين ، والتعليم ، والاصلاح الاجتماعى وبوجه عام اللحاق بركب ذلك العالم الحديث الذى جلبه الصهيونيون معهم .. بل انهم تنبأوا بذلك الادعاء الصهيونى المعروف (وهو أن اليهود) على خلاف العرب الذين شردوهم — « قد جعلوا الصحراء يانعة » .. « فلنكن مثلهم فى الكد والاخلاص .. فقانون الحضارة العام هو أن الأرض لمن يفلحها (٤٣) » .

وعشية الحرب العظمى ، وبعد أن كانت معاداة الصهيونية فى البداية تتمثل فى ثورات غير سياسية ، وتلقائية يقوم بها الفلاحون ، اتسعت لتصبح القضية الرئيسية فى السياسة الفلسطينية وبعد الفلاحين ، كانت الطبقة الصغرى من تجار المدينة وأرباب الحرف هى التى قاومت بأقصى شدة هجرة اليهود .. وكانوا وراء أول احتجاج بعث به أعيان القدس الى الباب العالى فى عام ١٨٩١ ، فلقد كانوا يخشون من المنافسة الاقتصادية التى كانت ستقوم حتما نتيجة النمو المطرد لطائفة أجنبية على ما هى عليه من اتجاه عدوانى .

وكانت هذه الطبقة فى غالبيتها مسيحية . والواقع ان الصهيونيين كانوا يميلون فى بادىء الأمر الى الاعتقاد بأن عليهم ألا يخشوا المسلمين قدر خشيتهم المسيحيين . اذ « المصدر الوحيد لكراهية اليهود والذى يرفع صوته ضد الهجرة اليهودية هو المؤسسة المسيحية (٤٤) » ولعل مما عمل على تقوية المعارضة المسيحية نوعا من التحامل المذهبى ، كما أنهم وهم أكثر ثقافة من المواطنين المسلمين وأكثر تمرسا منهم بالأسفار قد تأثروا بالمواقف الأوروبية التقليدية من اليهود . وكثيرا ما شعرت الأقليات الشرقية التى يعتبر أفرادها من مواطنى الدرجة الثانية بنوع من الارتياح ازاء هزيمة الأغلبية المسلمة، ولكن بالرغم من أن مثل هذا الشعور لم يكن معدوما تماما، كانت هناك درجة غير مألوفة من التضامن الاسلامى المسيحى نشأت عن « جسامة الخطر الصهيونى .. وكان ذلك أحد المعالم الدائمة فى الصراع الفلسطينى . فلم يكن فى وسع التجار وأرباب الحرف وصفوة المثقفين ، ومعظمهم من المسيحيين ، أن يصموا آذانهم عما كشفه الصهيونيون الأوربيون من مخططاتهم فى أحاديثهم الخاصة التى لم يقصدوا بها أن تصل الى أسماع العرب . وبعد الاطاحة بالسلطان عبد الحميد فى عام ١٩٠٨ انتهز الناشرون الفلسطينيون فرصة الحريات الجديدة النسبية ، فنشر

نجيب نصار فى صحيفة « الكرمل » سلسلة من البحوث المطولة ، أعيد نشرها فيما بعد فى كتاب تحت عنوان « الصهيونية ، تاريخها وأهدافها وأهميتها » .. وكانت فى الواقع بحوثا بدائية ، لا تعدو أن تكون ترجمة محرفة بمهارة من جزء من دائرة المعارف اليهودية التى كان نصار قد حصل عليها من صديق انجليزى .. ولكن كان هذا أول عمل من نوعه باللغة العربية . وبعد صحيفة « الكرمل » قامت بعض أمهات الصحف فى بيروت ودمشق بتبنى معاداة الصهيونية ودعت الزعماء العرب للاعراب عن آرائهم ، وبدأت تظهر فى المجلات صور كاريكاتورية لليهود . وتبرعت صحيفة الكرمل باشتراكاتها للمكتبات المدرسية فى حيفا . وتكونت جمعيات معادية للصهيونية فى عدة مدن فلسطينية ، وفى القسطنطينية والقاهرة وبيروت وفى يافا تكونت منظمة سياسية ، هى « حزب الوطن » ، وجعلت من معاداة الصهيونية « علة وجودها » .. وأصبحت معاداة الصهيونية هى المناورة الناجحة لكسب الأصوات فى انتخابات البرلمان العثمانى . وخلال ذلك كله أصبح الفلاحون أكثر تمردا ، وبدأ الدخلاء عليهم من أمثال نجيب نصار فى تحديهم ، وقام بتكوين « جماعة أمن أهلية » لمراقبة التنفيذ الدقيق للقيود المفروضة على الهجرة اليهودية فى ميناء حيفا .. وكان الممثلون الصهيونيون يتعرضون للمضايقات وهم فى طريقهم الى الاجتماعات الرسمية، فكان عليهم أن يتسلحوا بالعصى والبنادق .. ويقول البرت أنتيبى ، أنه لم يكن هناك فى عام ١٩١٣ من بين أعيان القدس من يجرؤ على تريض مركزه السياسى للخطر بتأييد الصهيونية علانية (٤٥) ..

اجهاض محاولات التفاهم بين العرب والصهيونيين :

أخذ يظهر بوضوح أن الفلسطينيين يواجهون اختبارين أساسيين : أما التوصل الى نوع من التوفيق مع الصهيونيين الذين قد يضطرون ، فى مقابل بعض التنازلات ، لفرض حدود نهائية لمطامعهم ، واما أن يقاتلوهم بضراوة وعلى أية حال ، كان فشل الزعماء فى اظهار مقدرتهم ، أو حتى رغبتهم فى احتواء التهديد ، ـ يعنى فى النهاية ان الشعب سيتولى عنهم ذلك وبطريقته. وكانت أولى الاضطرابات العنيفة القروية نذيرا ببداية عنف شعبى مقبل . وفى عام ١٩١٤ ، قام رشيد رضا ، المفكر الاسلامى البارز فى ذلك الوقت بصياغة الاختيار وفقا لما يلى :

« من المحتم على زعماء العرب ، والأهالى المحليين ، أن يفعلوا أحد أمرين : اما التوصل الى اتفاق مع الزعماء الصهيونيين لتسوية الخلافات

بين مصالح الطرفين ، وأما تجميع قواهم لمقاومة الصهيونيين بكافة الطرق ، مبتدئين بتكوين الجمعيات والشركات ، ثم تكوين عصابات مسلحة لتواجههم بالقوة . يقول بعض العرب ان هذا هو أول ما يجب أن يفعلوه لأن « الكى » هو الطريق الوحيــد ، فالكى ، كما يقول المثــل العــربى ، هو العــلاج الأساسى (٤٦) .

وفى عامى ١٩١٣ و ١٩١٤ حاول الفلسطينيون التوصل الى تسوية مع الصهيونيين ، ولو اننا نكون قد ذهبنا الى أبعد مما هو متوقع لو أسميناها مبادرة تمثل الفلسطينيين ، حيث كانت القوة الدافعة الأصلية وراءها هى الأحزاب العربية القومية الناشئة فى سوريا التى كانت تسعى الى الحكم الذاتى أو الاستقلال للاقاليم العربية فى الامبراطورية العثمانية المختصرة .. وكان عدد اعضاء الأحزاب المنادية باللامركزية وهما حزبا « الفتح » و« العهد » قليلا نسبيا ، ويقدره البعض بما يتراوح بين التسعة والتسعين والمــائة والستة والعشرين ، من بينهم اثنا عشر أو اثنان وعشرون فلسطينيا (٤٧) ، ولمـا كان معظمهم من الشباب ، ذوى الاتجاه الغربى ، فانهم كانوا متحمسين للافادة من رؤوس الأموال والخبرة والقدرات التى اعتقدوا أن الصهيونيين سوف يدخلونها على الاقتصــــاد العربى .. ولمـا كان معظمهم من غير الفلسطينيين ، فانه لم تكن لديهم خبرة مباشرة وعملية بالصهيونية . فلم يدركوا مدى انانيتها . وكان رشيد رضا ، وهو من الأعضاء المؤسســين لحزب اللامركزية ، يعتقد انه اذا ما أمكن حمل الصهيونيين على التخلى عن مطامعهم السياسية فعلى العرب عندئذ أن يعقدوا اتفــاقا معهم وفى عام ١٩١٣ توصل الحزب فعلا ، عن طريق لجنته بالقاهرة ، الى اتفاق شفوى مع الممثل الصهيونى فى القسطنطينية .. وقد نص هذا الاتفاق على « أن لجنة القاهرة ، اذ توافق مبدئيا على الهجرة اليهودية الى سوريا وفلسطين ، تتعهد بأن تسعى من أجل التقارب بين العالمين العربى واليهودى . وأن تعمل عن طريق الصحافة والخطابة على ازالة ذلك التحامل الذى يسود العــالم العربى ضــد الهجرة اليهودية والذى يحول دون التقــارب بين العرب واليهود (٤٨) وكان لابد أن يخلف هذا الاتفاق الشفوى اتفاقا كاملا واتخذ « المؤتمر العربى الأول » الذى عقد بباريس فى يونية ١٩١٣ قرارا بتأييــد مثل هذه الهجرة اليهودية التى تستطيع افادة سوريا اقتصاديا .

وفى النهاية ، لم يتم أبدا التوصل الى أى اتفاق نهائى .. فالصهيونيون فى الواقع لم يكونوا يريدون أى اتفاق لأنه رغم ما يقدمه لهم من مزايا تكتيكية قصيرة الأجل فانه قــد ينطوى على أضرار اســتراتيجية بالغة : حيث

سيطالبون عنـدئذ بأن يأتوا مجردين من كل اطمـاع وأن يقرروا ما الذى يريدونه فعلا فى فلسطين . وكانت تلك هى المعضلة التى واجهتهم وذلك عندما قام الفلسطينيون فى عام ١٩١٤ ، تحت رعاية حزب اللامركزية ، بدور أكثر تمثيلا فى استئناف الجهود من أجل الوصول الى تسوية . ففى أحد الاجتماعات التى كان المفروض أن يعقدوها مع الممثلين الصهيونيين فى « رمانة » بلبنان ، قدم الجانب العربى جدول أعمال جاء فيه : « ان على الصهيونيين أن يوضحوا قدر الامكان، وعن طريق الادلة المدعمة بالمستندات، أهداف وأساليب الصهيونية ، وما يرتبط بها من استيطان فلسطين (٤٩) .. وأبى الصهيونيون قبول جدول أعمال العرب ، حيث ان أهدافهم كانت بلا حدود ، وعلى ضوء العقيدة الصهيونية الأساسية لم يكن فى وسعهم الا أن يكونوا كذلك ولكن الصهيونيين كانوا يدركون تماما ان هناك مجالا ضيقـا الى حد بعيد للوصول الى اتفـاق حول هاتين النقطتين بالذات : الهجرة وشراء الأراضى ، وهما النقطتان اللتان كان العرب يرغبون فى أن يكون هناك ما يطمئنهم بصددها . وأخـذ الصهيونيون يماطلون ، والواقع انهم لم يحاولوا أن يجردوا أنفسهم من هواها .. ثم جاءت الحرب العظمى فحالت دون عقد هذا الاجتماع .

وكانت هذه بالنسبة للفلسطينيين فرصة تاريخية ضائعة ، لأنه مهما كان وضوح عدم اهتمام الصهيونيين بالاتفـاق ، فان الفلسطينيين كانوا دائما فى وضع يفوزون فيه بمزية معنوية وسياسـية ضخمة ، أثبتوها لا تقبل الجدل وبالطريقة الوحيدة التى يستطيعون بها ، وهى مزية تحديهم للصهيونيين أن يتوصلوا لاتفاق ولعلهم ما كانوا بالطبع لينتهزوا الفرصـة حتى لو لم تنتزعها منهم الأحداث الكبرى ، وذلك لأن مجرد فكرة الوصول الى الاتفاق كانت دائما تثير مقاومة شرسة بين صفوفهم . وكان هذا صريحا، حتى فى تلك الأيام الاولى عندما كان « الخطر الصهيونى » لا يزال فى بدايته وعندما لم تكون التنازلات التى يتعين عليهم أن يقدموها مقابل تحديد واضح لحقوق والتزامات المستوطنين بعيدة المـدى .. ولذلك عنـدما توصـل « اللامركزيون » الى اتفاق شفوى مع الصهيونيين ، تعرضوا للنقد اللاذع من الناشرين من أمثال نصار ، الذى اقترح عقد مؤتمر آخر فى نابلس التى كانت معقلا تقليديا للمشاعر الوطنية ، وذلك لمناقشة خط سياسى أشـد صلابة ، وفى العام التالى وعند مناقشة موضوع عقد اجتمـاع فلسطينى صهيونى فى لبنان اضطر داعية عقد المؤتمر الى أن يضم الى المنـدوبين العرب العشرة ، نصارا ، وأربعة آخرين من المعروفين بعدائهم للصهيونية . ولم يمض غير قليـل حتى بدأ اللامركزيون أنفسهم يغيرون من أفكارهم .

وكتب حقى بك العظم الذى كان على خلاف مع زملائه الذين كانوا لا يزالون يؤيدون الوفاق ، الى احد أصدقائه يقول :

« عليك أنت تفهم ، يا أخى العـزيز ، ان هؤلاء القوم يتحركون نحو هدفهم بخطى سريعة » وانا على ثقة من انه ما لم تتخذ اجراء للتـأثير فى الوضع الراهن فان الصهيونيين سيحققون هدفهم بعد سنوات قليلة (فى فلسطين) حيث سيؤسسون دولة يهودية .. ولكن باستخـدام أساليب التهديد والمضايقة — وهذا الاسلوب هو الذى علينا أن نستخدمه — وبدفع الأهالى العرب الى تدمير مزارعهم واشعال النار فى مستوطناتهم ، وبتكوين عصابات لتنفيذ هذه المشروعات ، فلعلهم عنـدئذ يهاجرون لكى يفلتوا بجلودهم (٥٠) » ..

كانت النتيجة التى انتهى اليها هى أنه ما دام من المستحيل الوصـول الى اتفاق فان الرد الوحيد هو « الكى » ، أى العنف .

المحاربون اليهود :

أما فيما يتعلق بالصهيونيين ، فانهم كانوا يرون الآن أن الوفاق ليس ضروريا .. فالحرب فى أوروبا ، كمـا تنبـأ هيرتزل ، يمـكن أن تتحول لصالحهم . فلقد كانت تتيح فرصا رائعة ، سواء فى فلسطين أو فى خارجها . وفى أوائل الحـرب قام شـابان ، هما جوزيف ترومبلدور وفلاديمير جابوتنسكى ، بتكوين وحدة يهودية مقاتلة ، هى «فرقة البغالة الصهيونية» وعملت هذه الوحدة مع الجيش البريطانى فى جاليبولى . وخلال هـذه الحرب أيضا قام ثالث ، هو هارون ارنسون بتنظيم شـبكة تجسس ، اسمها البنك « وهى كلمة تتكون من الاحرف الأولى للعبارة التى تعنى « ان اليهودى الخالدى لن يخفق » ، وقد تعاونت هذه الشبكة مع المخابرات البريطانية .. وعندما أوشكت الحرب على نهايتها نجح جابوتنسكى فى تكوين « الفيلق اليهودى ، الذى تألف من أربع كتائب من حملتى البنادق الملكية تبلغ فى مجموعها خمسة آلاف جندى حاربوا مع البريطانيين تحت رايتهم . وكان هؤلاء الثلاثة محاربين مشهورين . ويعزى الى ترومبلدور ، الـذى يقال انه كان الضابط اليهودى الوحيد فى جيش القيصر ، هـذا الوصف البارد للصهيونى المثالى :

« اننا بحاجة الى رجال مستعدين لأن يفعلوا كل شىء .. وعلينا ان نربى جيلا من الرجال ليست لهم مصـالح وليست لهم عادات .. رجال يكونون مثل قضبان الحديد فهى مرنة ولكنها من حديد .. معـدن يمكن

تشكيله الى كل ما نحتاج اليه للالة الوطنية .. الى عجلة ، انني انا العجلة .. اذا كانت هناك حاجة الى مسمار فخذوني ! هل هناك حاجة الى من يحفر الأرض ؟ اني أحفرها .. هل هناك حاجة الى اطلاق النار .. أو الى جندى ؟ وانني جندى .. انني المثل الأعلى المجرد للخدمة المستعدة لكل شيء .

ان يرى أن القتال ضد العرب قد هدم ما لدى غير اليهود من مفهوم أو تصور عن اليهود :

« ولو كان أمثال جوجول ، ودستويفسكى ، وغيرهما من الكتاب الروس ، شاهدوا أولئك الفتية الشجعان ذوى العزم ، لكانوا قدموا النماذج اليهودية بصورة تختلف عما قدموها به .. صورة اربعين فتى شجاعا يرابطون فى موقعهم بلا خوف وهم يواجهون خصما هادرا من الثوار العرب » (٥١) .

وهو شلومو ، كان يعارض هذه الفكرة ، وكانت حجته انهم عادوا الى أرض الميعاد ليعيشوا فى سلام ، وانهم لو أثاروا العرب فلن يكون هناك سلام أبدا . وأصر دافيد على رأيه ، فهذا عالم لن يكون فيه احترام الا للقوة ، وللقوة وحدها . ورحل شلومو الى باريس ، وبقى دافيد .. دافيد بن جوريون .

واخذت مواقف العرب تزداد صلابة .. وكانت عملية بطيئة تتسم بالتردد ، فقد كان الزعماء الفلسطينيون أقل نزوعا من الناحية العقدية الى استخدام القوة من أقرانهم الصهيونيين فقد كان ذلك يخالف وجهة نظرهم الشاملة كممثلين لشعب مغلوب على أمره . ففى عام ١٨٩٠ عندما قام كبار الفلسطينيين ، على هيئة مجموعة من أعيان القدس ، فاتخذوا أول مبادرة رسمية فى الصراع الناشىء ، لم يتخذوا الا الاجراء القانونى الوحيد الذى كان فى وسعهم اتخاذه ، وهو الاحتجاج لدى سادتهم الامبرياليين ، أى الباب العالى بالقسطنطينية .. وقد كانوا يظهرون بذلك ما جبلوا عليه من غريزة الاحترام التى ظلت وقد زود ترومبيلدور « اليشوف » وهى الجماعات اليهودية التى تستوطن فلسطين لأغراض دينية والصهيونيين فى كل مكان بأولى أساطيرهم البطولية .. فقد سقط فى معركة مع المتمردين العرب فى الجليل ، وطبيعى انه لم يكن أول من يلقى حتفه على هذا النحو . ولكنه كان طرازا من الرجال يوحى بالرهبة وشخصية تنسج من حولها الأساطير الوطنية . وقد توج حياته القصيرة التى كرسها متفانيا لخدمة

قضيته فى بسالة واقدام ، بكلماته الأخيرة المشهودة : « كم هو جميل أن نموت فى سبيل بلادنا » .. ومع ذلك ، هناك من يقول بأن هذه الكلمات ليست الا نكتة لأن آخر ما نطق به فى الواقع ليس الا سبابا روسيا بذيئا » (٥٢) .

أما هارون أرونسون ، فقد اتخذ من العرب موقف السيد الاقطاعى(٥٣) ، ولا شك أنه كان فى ذلك يشارك أخاه الكسندر ، الذى كان يشاركه فى معيشته ، رأيه وهو : « ان العربى انسان ماكر ، لا يحترم سوى القوة الغاشمة .. انه هو نفسه يمارسها مع أية ضحية ممكنة ويتوقع نفس المعاملة من رؤسائه (٥٤) .

وأما حد جابوتنسكى ، فقد كان هدفه كما وصفه من كتب تاريخ حياته « واقعيا وصارما » . وهو : ان تأسيس وتوطيد أغلبية يهودية فى فلسطين يجب أن يتم ضد رغبة الأغلبية العربية الحالية ، وان « جدارا حديديا » من القوة المسلحة اليهودية يجب أن يحمى عملية تحقيق هذه الاغلبية (٥٥) . وتم تشكيل « الفيلق اليهودى الذى جاهد لتكوينه بهدف واضح هو احتلال فلسطين بعد استيلاء البريطانيين عليها ، وكانت نية مؤسسى الفيلق اليهودى أن يكون بمثابة العمود الفقرى العسكرى للدولة اليهودية المقبلة .. وقد سجل أحد المؤرخين المعاصرين ما كان عليه رجال الفيلق اليهودى من غطرسة ، وما كان لهم من تأثير مخدر على بعض الزعماء الصهيونيين ، « ومنهم من خرج بفكرة غريبة وهى اعادة توطين العرب الفلسطينيين فى المناطق التى يقال أن أسلافهم قد وفدوا منها منذ قرون (٥٦) » .

كانت الفكرة تبدو غريبة فعلا ، وكانت من الناحية الرسمية على الأقل جديرة بالاستنكار .. ولقد وصف حاييم وايزمان وهو أكبر الصهيونيين نفوذا فى ذلك الوقت ، جابوتنسكى بأنه « ذانونزيو اليهود (٥٧) » .. والواقع أنه كان فى هذه المرحلة يعتقد ان قوة الاندفاع الأصيلة يجب أن تكون دبلوماسية ، وهى اما أن تنجح أو تفشل وفقا لما تمارسه من نفوذ فى مراكز القوى العالمية المعاصرة ، ففيها اتاحت التغييرات العنيفة فى أوروبا أكثر مما أتاحه فى فلسطين فرصة حقيقية للصهيونية ، وانتهز هناك ذلك الدبلوماسى المحنك هذه الفرصة .. أن ما كان وايزمان بحاجة اليه هو ذلك الصك الدولى الذى ظل هيرتزل من قبله يطوف عشرين عاما بجميع دور المستشاريات الأوروبية سعيا وراء تحقيقه ، ولكن دون جدوى . والواقع أن قدرته الفائقة على الاقناع مكنته من أن يحصل على ذلك من الزعماء البريطانيين ابان الحرب

في صورة وعد بلفور وهو تلك الوثيقة المشهورة التى أدخلت الصهيونية منذ ١٠١٧ فى المخططات الامبريالية للدولة المسيطرة فى ذلك الحين ، وأحدثت تغييرات ثورية فى امكانياتها بين عشية وضحاها فأصبح أى اتفاق مع العرب غير ضرورى بالمرة .

وعــد بلفــور :

كان وعد بلفور أحد وثيقتين أساسيتين كان لهما دورهما فى تشكيل التاريخ الحديث للشرق الأوسط .. أما الوثيقة الأخرى فهى اتفاقية « سايكس ــ بيكو » المعقودة فى عام ١٩١٦ . وكان هذا الاتفاق السرى جزءاً من تفاهم قامت فيه الدول المتحالفة الثلاث الكبرى وهى بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية بتحديد مصالح كل واحدة منها فى الشرق الأوسط بعد الحرب ، فقد اتفق السير مارك سايكس وزير الخارجية البريطانيــة مع المبعوث السياسى الفرنسى جورج بيكو على أنه بعد تمزيق الامبراطورية العثمانية تقسيم بريطانيا وفرنسا ما كان لها من أقاليم عربية . ومما يدعو الى السخرية انهما سمحا لأكثر أجزاء العالم العربى تخلفا (وهى الآن المملكة العربية السعودية واليمن) بتكوين دول مستقلة ، بينما اتفقا على اخضاع أكثرهما تقدما ونضجا للحكم الأجنبى « المباشر أو غير المباشر » . وقضى الاتفاق بأن تستولى فرنسا على لبنان وسوريا ، وان تستولى بريطانيا على العراق وشرق الأردن . وأن توضع فلسطين « تحت ادارة دولية » من نوع يتقـرر تحديده فيما بعد . وكانت هذه الوثيقة قد أذاعت الحكومة البلسفية الجديدة مضمونها مدعاة لحرج بريطانيا لأنها تمثل انتهاكا للوعود التى كانت قد قطعتها على نفسها للعرب . ففى مقابل الاسهام العربى فى المجهود الحربى للحلفاء ، كانت بريطانيا قد تعهدت « بأن تعترف وتساند استقلال العرب فى شبه الجزيرة العربية وفلسطين وشرق الأردن وسوريا والعراق » ..

واذا كان تصريح بالفور قد ينتج عن اتفاق « سايكس ــ بيكو » ، فاننا بالرجوع الى الوراء نجد أنه يفوقه أهمية بكثير . والواقع أننا لا نجد لهذه الوثيقة مثيلا فى أحداث هذا التغيير التعسفى لمجرى التــاريخ . فالصراع العربى الاسرائيلى هو أكثر المشاكل المعاصرة فى العالم احتمــالا للتعجيل « بيوم الحساب » النووى . ومن المؤكد أن من سيكتب لهم البقــاء من المؤرخين سيذكرون أن منشأ كل ما حدث انما هو ذلك الخطاب الموجز البرىء فى مظهره والذى يتألف من مائة وسبع عشرة كلمة ، والموجه من آرثر بلفور ، وزير الخارجية البريطانية ، الى لورد روتشيلد فى الثانى من

نوفمبر من عام ١٩١٧ . وسوف يمكنهم الخروج على القواعد المألوفة فى الصياغة من أن يلفتوا النظر الى أن فلسطين التى كان الخطاب يتعلق بها ، كانت تبدو فى ذلك الوقت بقمة من سطح الأرض غارقة فى الظلام لا يكاد يقدر لها أن تلعب مثل هذا الدور الذى يتسم بالتغيير العنيف ، وانها بلد حافل برموز مؤثرة ، تقع فى قلبها تلال « هرمجدون » الجرداء . وفيما يلى نص هذا الكتاب :

عزيزى اللورد روتشيلد ،

يسرنى كثيرا أن أبعث اليكم ، باسم حكومة صاحب الجلالة ، بالتصريح التالى تعاطفا مع الأمانى الصهيونية اليهودية ، وهو التصريح الذى قدم الى الحكومة ونال موافقتها :

« ان حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف الى اقامة وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين ، وستبذل قصارى جهودها لتسهيل تحقيق هذا الهدف ، على أن يكون من المفهوم بوضوح انه لن يتم شىء من شأنه الاخلال بالحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية المقيمة بفلسطين ، أو بالحقوق والأوضاع السياسية التى يتمتع بها اليهود فى أى بلد آخد .

وأكون شاكرا اذا أحطتم الاتحاد الصهيونى علما بهذا التصريح .

المخلص
آرثر بلفور

وبدا أن هذا الكتاب ، تبعا للظواهر ، مبادرة بريطانية صرف ، نابعة بأكملها من حسن النية والأهداف الرشيدة من جانب حكومة صاحب الجلالة ومن المؤكد أن الصهيونيين على حق اذ يذكرون بلفور على أنه من أكبر المحسنين الى الشعب اليهودى . ولكنه لم يكن حب اليهود هو الذى دفع بلفور الى الاحسان الى اليهود بمبدأ عن بريطانيا .. ففى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر كانت بريطانيا تموج بطوفان من اللاجئين اليهود من أوروبا الشرقية .. وكانت هناك دائما مظاهرات ومشاغبات ضدهم فى شوارع لندن . وصدر قانون الأجانب ، فقيد الهجرة اليهودية . ولم يكن هناك من هو أقدر من بلفور على الدفاع عن القانون بأسلوب استنكره الصهيونيين ووصفوه بأنه « معاداة سافرة للسامية ضد كل الشعب اليهودى » :

« من السهل جدا أن نتخيل وضعا ، لن يكون فيه من صالح حضارة البلاد فى شىء أن تظل مجموعة ضخمة من الأفراد مهما كانت وظيفتها ومقدرتها

وجدها ، تعيش في عزلة وتعتنق دينا يختلف عن دين الأغلبية ولا يتزاوجون الا فيما بينهم (٥٨) » .

وتحمل الوثيقة اسم بلفور ، ولكن الواقع هو أن الصهيونيين أنفسهم هم الذين قاموا — الى حد كبير — بالايحاء بهذا التصريح بل قاموا أيضا بوضعه في صيغته هذه . ولا بد من اعتبار الوثيقة أعظم ازدهار للدبلوماسية الصهيونية التي تجمع بين النقائض بصورة بالغة التعقيد . وقد نحتاج الى فصل بأكمله لتقدير منشأ ومغزى هذه الكلمات القلائل . حق قدرهما والواقع انه قد كرست فصول كثيرة لهذا الموضوع ، ونكتفي بالقول هنا ، بناء على بحوث الآخرين ، بأن الصهيونيين الذين صاغوا هذا التصريح قد رأوا فيه « صكا » لدولة يهودية مقبلة ، وأنهم بتظاهرهم بالاهتمام بحقوق الطوائف « غير اليهودية » في فلسطين ، كانوا في الواقع يضعون أساسا قانونيا عن طريق ايراد هذه الألفاظ ، « المدنية » و « الدينية » و« السياسية » ، لسلب هذه الحقوق (٥٩) .

لم يكشف هذا النصر القناع تماما عن النوايا الصهيونية .. فقد كان من السابق لأوانه تماما أن يحدث ذلك . وظلوا ينكرون أطماعهم الأخيرة وهي قيام الدولة اليهودية ، التي كان ينسبها اليهم الاصدقاء والأعداء . وقد حذر وايزمان ممن كانوا أشد تطرفا منه من الصهيونيين بأنه يجب أن يتم اقامة فلسطين دون انتهاك الحقوق المشروعة للعرب .. ويجب الا تمس شعرة واحدة من رؤوسهم (٦٠) . وذهب الى فلسطين ليؤكد للعرب « اننا لا نهدف الى السيطرة على السياسة العليا لاقليم فلسطين .. كما أننا لم نستهدف اطلاقا طرد أي فرد من أملاكه (٦١) » . ولكنه حتى أثناء وجوده هناك لينشر هذه التأكيدات بين الأهالي ، كان ينقل رأيه الحقيقي فيهم ضمن رسائله الى بلفور !

« ان العرب ، الذين يبدون في الظاهر أذكياء سريعي الادراك يعبدون شيئا واحدا ، واحد فقط ، هو القوة والنجاح . ان السلطات البريطانية — وهي العليمة بالطبيعة القادرة للعرب — عليها أن تحرص تماما وباستمرار على الا يحدث أي شيء ينطوي على أدنى ضيم أو ظلم للعرب ، والا طعنوا الجيش من الخلف . ان العربي ، وقد أدرك سريعا هذا الموقف ، يحاول أن يستغله الى أقصى الحدود . انه يصرخ كلما استطاع ، ويساوم أيضا كلما استطاع . وكانت أول صرخة يوم اعلان تصريحكم .. لقد حملوا التصريح بكل أنواع سوء التغيير والاعتقاد الخاطيء . انهم يقولون أن الانجليز سيقومون بتسليم العرب الفقراء الى اليهود الأثرياء الذين ينتظرون في أعقاب جيش

الجنرال الليبى ، وهم مستعدون للانقضاض كالنسور على فريسة سهلة ولطرد كل شخص من أرضه (٦٢) .

ومع أن وايزمان كثيرا ما تمكن من أن يخفى آماله الحقيقية تحت قناع رقيق من التحفظ والمنطق المعسول . فانه بين الفينة والفينة كان يبدو أنه ، وهو ابلغ الخطباء ، ينسى نفسه تماما ، كما حدث عندما تحدث أمام مستمعيه فى لندن بعد عامين فقط من اعلان التصريح ، حيث قال :

« اننى اعتمد على الله فى قيام الدولة اليهودية . ولكنها لن تقوم بالتصريحات السياسية ، بل بعرق ودماء الشعب اليهودى . ان تصريح بلفور هو المفتاح الذهبى الذى سيفتح ابواب فلسطين ، ويتيح لك الفرصة لكى تضعوا كل جهودكم فى البلاد .. لقد طلب منا أن نصوغ رغباتنا ، فقلنا اننا نريد أن نخلق فى فلسطين الظروف السياسية والاقتصادية والادارية التى نستطيع معها عندما تمو البلاد أن تجلب اليها عددا كبيرا من المهاجرين ، ثم نقيم مجتمعنا فى فلسطين لتكون فلسطين يهودية مثلما أن انجلترا انجليزية ، وأمريكا أمريكية وآمل أن تصبح الحدود اليهودية لفلسطين متسعة بقدر اتساع الطاقة اليهودية للحصول على فلسطين (٦٣) » .

ويبدو أن المؤرخين الصهيونيين كانوا أكثر تحفظا من وايزمان ، فقد حذفت هذه الفقرات التى تفضح نوايا الصهيونية من الطبعات الأخيرة من الكتاب الذى ظهرت فيه .

اما عن الناحية العملية للموضوع ، فقد مهد لها وايزمان بفكرتين أساسيتين كانا منطلق السياسات الصهيونية منذ ذلك الوقت : أولاهما فكرة « الاطار الفارغ » .. وكما أوضح هو فيما بعد فى سرد تاريخ حياته ، « لم يكن تصريح بلفور الا مجرد اطار يتعين أن نملأه بجهودنا .. وهذا سيعنى تماما ما نعنيه نحن ، لا أكثر ولا أقل .. وسوف يتوقف ما يمكننا ان نجلعه يعنيه عن طريق العمل البطىء والباهظ والدائب ، على كوننا نستحق أن تكون لنا دولة ،ومتى يكون ذلك (٦٤) » . أما الفكرة الأخرى فهى فكرة المراحل ، ففى خطاب ألقاه أمام الاتحاد الصهيونى الانجليزى ،قبيل أشهر قليلة من اصدار التصريح ، طرح التحفظ جانبا ليوضحها :

« يجب تشييد الدول بخطى بطيئة وتدريجية ، بانتظام وصبر . ولذلك نقول إنه اذا كان انشاء كومنولث يهودى فى فلسطين هو مثلنا الأعلى النهائى ، فان تحقيق ذلك انما يتم من خلال عدة مراحل متداخلة . ومن بين هذه المراحل المتداخلة التى آمل أن تأتى كنتيجة للحرب هو أن أرض فلسطين

بأكملها ستكون فى حماية دولة قوية مثل بريطانيا العظمى .. وتحت جناح هذه الدولة القوية سيكون فى وسع اليهود أن يتقدموا ، وان يقيموا الجهاز الادارى الذى سيمكننا من تنفيذ المشروع الصهيونى (٦٥) » .

وكما كان للصهيونيين ان ينفذوا ما كان عليهم ان يفعلوه فى فلسطين الا وسط معارضة قوية ومتزايدة من جانب العرب الذين كانوا يعيشون هناك والا انتهاكا لنصوص وعد بلفور التى لو فسرت على الوجه الصحيح لحققت الحماية لمصالح اولئك العرب .. اما الاعتماد على بريطانيا القوية العادلة لمساعدة الصهيونيين على تنفيذ مخططهم فهو تفسير مفرط فى التفاؤل للنوايا البريطانية . والواقع ، هل هناك ما هو اكثر تأكيدا من ذلك التفسير الذى قدمه نفس صاحب التصريح ؟ لقد أكد رئيس الوزراء سرا لوايزمان ، وبحضور بلفور ان كلمة عبارة « الوطن القومى » ما هى الا تعبير مخفف للدولة اليهودية » . ولعله اطلع ايضا على مذكرة سرية صريحة مقدمة من بلفور الى الحكومة البريطانية ، يناقش فيها بلفور ميثاق عصبة الأمم ، ودفاعه عن مبدأ حق تقرير المصير للشعوب ، وتمسكه بأن « رغبات هذه الطوائف (الأمم المستقلة مثل سوريا وفلسطين التى تحتاج الى المشورة والمساعدة الادارية الى أن يتسنى لها الاعتماد على نفسها) يجب أن تمثل اعتبارا رئيسيا فى اختيار دولة منتدبة من جانب عصبة الامم » . فقد كتب بلفور يقول :

« هل نعنى ، فى حالة سوريا ، أن نراعى أساسا رغبات الأهالى ؟ اننا لا نعنى شيئا من هذا القبيل .. ان التناقض بين المعنى الحرفى للميثاق وسياسة الحلفاء لفاضح بالنسبة الى « امة فلسطين المستقلة » اكثر منه بالنسبة الى « امة سوريا المستقلة » ، لأننا فى فلسطين لا نقترح المضى حتى الى شكل مراعاة رغبات السكان الحاليين فيها .. وهناك التزام من جانب الدول الاربع الكبرى الصهيونية .. سواء أكانت الصهيونية على حق أم باطل ، وسواء أكانت خيرة أم شريرة ، فان لها جذور متأصلة فى تقاليد سرمدية . وفى احتياجاتها الحالية وفى آمالها المستقبلة، ذات مغزى أعمق من رغبات وتطلعات سبعمائة ألف عربى يسكنون اليوم هذه الأرض القديمة .. وقصارى القول، انه ــ فيما يتعلق بفلسطين ، لم تصدر الدول الكبرى أى بيان يوضح حقيقة الأمر ، وهذا باعتراف الجميع ، ليس بخطأ ، كما أنها لم تصدر أى تصريح بالسياسة التى لا تعتزم دائما انتهاكها ولو حرفيا .

ملاحظات ومراجع ((الفصل الأول)) :

(١) المحفوظات المركزية الصهيونية - أول مارس ١٨٩٩ - المرجو الاطلاع على ((الاتراك العرب والهجرة اليهودية الى فلسطين ، ١٨٨٢ - ١٩١٤)) بقلم فاندلك نيفيل ، ومطبوعات القديس انطونيو ((شئون الشرق الاوسط)) مطبعة جامعة اوكسفورد ١٩٠٥ .

(٢) الجمعية العامة للامم المتحدة ، واجتماعها في ٩ سبتمبر ١٩٤٧ - تقرير اللجنة الخاصة بشأن فلسطين - الجزء الثاني .

(٣) اليوميات الكاملة لثيودور هيرتزل - مطبعة هيرتزل وتوماس يوسلوف - نيويورك ١٩٦٠ - المجلد الاول صفحة ٢٤٣ .

(٤) هيرتزل ، الدولة اليهودية ، ريتا سبرلى ، لندن ١٩٤٦ ، صفحة ٢٩ .

(٥) هيرتزل ، مجموعة مخطوطات صهيونية ، دار النشر اليهودية - برلين ١٩٣٤ المجلد الاول/ صفحة ١١٤ والثاني ، الصفحات ٥٠ ، ٥٨ ، ٧٨ ، ١٠٢ ، والثالث صفحة ٥٢٦ .

(٦) اليوميات الكاملة ، نفس المرجع السابق ، المجلد الأول ، صفحة ٨٨ .

(٧) نفس المرجع ، صفحة ٩٨ .

(٨) الحركة الصهيونية ، بقلم أدولف بيم - برلين ١٩٣٥ - المجلد الاول صفحة ٧٠٦ .

(٩) هيرتزل - مجموعة مخطوطات صهيونية .. المجلد الثالث - صفحة ٧٧ .

(١٠) اسرائيل زوانجول ، ((العودة الى فلسطين)) - المجلة الليبرالية الجديدة ديسمبر ١٩٠١ ، صفحة ٦٢٧ .

(١١) ((مجموعة مخطوطات صهيونية)) - ماكس نورداو - برلين ١٩٢٣ - صفحة ٧٢ .

(١٢) نفس المرجع السابق ، صفحة ٤٢٥ .

(١٣) ((دراستان في الفضيلة)) - بقلم كريستوفر سايكس - لندن ١٩٥٣ - صفحة ١٦٠.

(١٤) نيفيل باربور ، لندن ١٩٤٦ - صفحة ٥٢ .

(١٥) اليوميات الكاملة - نفس المرجع المتقدم ذكره ، المجلد الثاني ، صفحة ٥٨١ .

(١٦) سامي هداوي ، ((الحصاد المر)) - نيويورك ١٩٦٧ ، صفحة ١١ .

(١٧) ((حيفا ، أو الحياة في فلسطين الحديثة)) - أدنبره ١٨٨٧ - صفحة ٦٠ . وفرانسيس نيوتون ((خمسون سنة في فلسطين)) - مطبعة كولد هاربور ، روتهام ، انجلترا ، ١٩٤٨ ، صفحة ٩٧ .

(١٨) مانديل ، صفحة ٩٠ .

(١٩) ((تاريخ فلسطين الحديثة)) ، عبد الوهاب الكيلاني (باللغة العربية) بيروت ١٩٧١ ، صفحة ٥٠ .

(٢٠) باربور ، نفس المرجع ، صفحة ١١٦ .

(٢١) مانديل ، نفس المرجع ، صفحة ٨٥ انظر أيضا ((الموقف الصهيوني من العرب ١٩٠٦/١٩١٤)) بقلم روى ياكوف - دراسات عن الشرق الاوسط لندن المجلد الرابع عدد ٣ ابريل ١٩٦٨ الصفحات من ١٩٨ الى ٢٤٢ .

(٢٢) هاديرا ، مكتبة الصندوق اليهودي الوطني ، رقم ٢ ، تل أبيب سنة ١٩٣٥ ، منقولة في نفس مرجع باربور في صفحتي ١١٥ و ١١٦ .

(٢٣) باربور، نفس المرجع، صفحة ١١٦ .

(٢٤) آهاد اهام - ١٩٢٣ - برلين - المجلد الاول صفحة ١٠٧ .

(٢٥) الشئون اليهودية العربية ١٩٣١ - صفحة ١١ ، نقلها باربور في نفس المرجع، صفحة ١٢٤ .

(٢٦) ماندل، نفس المرجع، صفحة ٨٦ .

(٢٧) جريس صبري، ((تشريع الكنيست الجديد)) - صحيفة الدراسات الفلسطينية معهد الدراسات الفلسطينية - بيروت . المجلد الأول صفحة ٥٧/٥٨ .

(٢٨) روى - نفس المرجع، صفحة ٢٢٣ .

(٢٩) ((اسرائيل بدون صهيونيون - نداء للسلام في الشرق الاوسط)) - مناحم الوسيشكيم - أورى افنيرى . نيويورك ١٩٦٨ صفحة ٨٦ .

(٣٠) ((تشيرنيشوفسكي واشعاره)) - ليونارد فيكتور سنومان وكالة هيزفر للاداب - لندن ١٩٢٩ - صفحة ٢٦ : ((العقل الصهيوني - نشأة وتطور الفكر الصهيوني بقلم ألان تيلور - معهد الدراسات الفلسطينية، بيروت ١٩٧٤ - الصفحات من ٤٧ الى ٨٠ .

(٣١) روى، نفس المرجع، صفحة ٢٢٣ .

(٣٢) ((الاسرائيليون المؤسسون والابناء)) - آموس ايلون، لندن ١٩٧٢ صفحة ١٣١ .

(٣٣) نفس المرجع، صفحة ١٢٤ .

(٣٤) ماندل، نفس المرجع، صفحة ٩٣ .

(٣٥) سان جون، روبرت، بن جوريون، نيويورك ١٩٥٩ - صفحة ٣١ .

(٣٦) باربور - نفس المرجع، صفحة ١١٧ .

(٣٧) ابراهام جرانوت ((نظام الارض في فلسطين)) - لندن ١٩٥٢ - صفحة ٢٨٠ .

(٣٨) نفس المرجع، صفحة ٨٠ .

(٣٩) حاييم وايزمان ((محاولة وخطأ)) ، لندن ١٩٤٠، صفحة ٤٥٧ .

(٤٠) خيرية قاسمية ((نجيب نصار وصحيفة كرمل، رواد معارضة الصهيونية)) - الشئون الفلسطينية (بالعربية) - مجلة شهرية تصدر ببيروت - عدد يولية ١٩٧٣ صفحة ١١١، نقلا عن كرمل في ١١ يناير و ٢٢ و ٢٦ اغسطس ١٩١٣ .

(٤١) نفس المرجع، نقلا عن كرمل، أول يولية ١٩١٤ .

(٤٢) نفس المرجع، نقلا عن ((المقتبس)) (صحيفة دمشقية) ١١ يناير ١٩١١

(٤٣) نفس العدد، نقلا عن ((المقطم)) (صحيفة قاهرية) أول مايو ١٩١٤ وكرمل ٥ مايو ١٩١٤ .

(٤٤) روى، نفس المرجع، صفحة ٢٢٥ .

(٤٥) نيفيل ماندل ((محاولة للوفاق بين العرب والصهيونيين - ١٩١٣/١٩١٤ دراسات عن الشرق الاوسط - لندن - المجلد الاول عدد ٣ ابريل ١٩٦٥ ص ٢٦٣ .

(٤٦) نفس المرجع، صفحة ٢٥٦، نقلا عن صحيفة المنار، المجلد ٢٧، سنة ١٩١٤ صفحة ٣٢٠ .

(٤٧) نفس المرجع، صفحة ٣٤٠ .

(٤٨) نفس المرجع، صفحة ٢٤٦ .

(٤٩) نفس المرجع، صفحة ٢٦٠ .

(٥٠) نفس المرجع ، صفحة ٢٦٥ ، ترجمة عن « صحيفة بيروت » ١٣٤ في أول سبتمبر ١٩١٥ .

(٥١) ايلون ، نفس المرجع ، صفحة ١٤٣ .

(٥٢) نفس المرجع ، صفحة ١٤٣ .

(٥٣) اسحق تابنكين : « طرق ومنعرجات النهضة اليهودية » ، باريس ١٩٤٨ ، صفحة ١٢٠/١٢٣ .

(٥٤) الكسندر آرونسون : « مع الاتراك في فلسطين » ـ لندن ١٩١٧ ، ص ٢٥ .

(٥٥) جوزيف شيشتمان « مقاتل ونبي » قصة فلاديمير جابوتنسكي ، نيويورك ـ ١٩٦١ ـ صفحة ٣٢٤ .

(٥٦) ابراهام ريفوسكي : « اليهود في فلسطين » ـ لندن ١٩٣٥ صفحات ٢٨٦ ٣١٧/٣١٨ .

(٥٧) ايلون ، نفس المرجع ، صفحة ١٦٣ .

(٥٨) أنظر رابينوفيتش « ونستون تشرشل ورأيه في المشاكل اليهودية » نيويورك ١٩٦٠ ، صفحة ١٦٧ .

(٥٩) انظر جيفريز « فلسطين : الحقيقة الواقعة » ـ لندن ١٩٣٠ الفصل الثاني .

(٦٠) خطاب امام المؤتمر الصهيوني الرابع عشر ، فيينا ، ١٩٢٥ .

(٦١) خالدي ، نفس المرجع ، صفحة ١٨٩ .

(٦٢) دورين انجرامز « أوراق فلسطينية ١٩١٧ ـ ١٩٢٢ ، بذور النزاع » لندن ١٩٧٢ ، صفحة ٣١ .

(٦٣) حاييم وايزمان : مقتطفات من بياناته التاريخية ، وكتاباته ، وخطبه . الوكالة اليهودية لفلسطين بنيويورك ، ١٩٥٢ ، صفحة ٤٨ .

(٦٤) وايزمان ، نفس المرجع صفحة ٣٠٢ .

(٦٥) فلسطين ، دراسات للسياسات اليهودية والعربية والبريطانية ، معهد « ايسكو » « الصهيوني ، مطبعة جامعة ييل ، المجلد الأول الصفحات ٩٨/٩٩ .

(٦٦) انجرامز ـ نفس المرجع ، صفحة ١٤٦ .

(٦٧) نفس المرجع ، صفحة ٧٣ .

الفصل الثانى
لاسلام فى صهيون
١٩٢١ ـ ١٩٣٥

مذبحة عام ١٩٢١ :

فى عام ١٩٢١ ، لم يكن هناك ما يميز مدينة يافا عن غيرها من الموانى البحرية مثل حيفا ، وصور ، وصيدا ـ الواقعة على امتداد الشواطىء الشرقية للبحر المتوسط .. فقد كانت تتألف من شبكة معقدة من الممرات والازقة فى مواجهة رصيف الميناء .. وكانت الروح المسيطرة عليها هى الحفاظ على القديم ومقاومة التغيير رغم ما تأثرت به من اتصالاتها بعالم أوروبا الحديث . وكانت طبقة التجار فيها تميل الى بريطانيا التى كانت سوقا هامة للبرتقال الشهير الذى يطلق عليه اسم البرتقال اليافاوى . وكان لها عالمها من البحارة والملاحين وعمال الموانى وارباب الحرف اليدوية والعمال ، الذين كانوا اجتماعى النزعة ، يسمون بالسذاجة وسرعة الانفعال على الطريقة الشرقية ، واذا ما وقع أى حادث سرعان ما تراهم يتجمهرون. وكما هو شأن أهل الموانى فى كل مكان ، كانت صفوفهم تضم عددا من المشاكسين وذوى الطباع السيئة . ولكنهم كانوا أكثر امتثالا للقانون والأكثر احتراما للسلطة من المجتمعات الغربية المتسمة بالعنف .

وفى أول مايو من تلك السنة تفجر فى فلسطين عنف لم يسبق له مثيل من قبل . وكان عيد العمال يثير عادة توقعات قلقة فى الكثير من الدول الغربية ؛ ولكن صراع الطبقة الكادحة لم يكن يعنى كثيرا بالنسبة لعرب فلسطين ؛ ولم يكن هناك ما يدعو لتوقع اية متاعب من جانبهم ولكن المتاعب وقعت وكان مسرحها العديد من النقاط ، غير أن يافا كانت هى بؤرتها لان الشيء الوحيد الذى كان يميز هذه المدينة الساحلية العربية خلال السنوات الأخيرة هو القلق والاثارة ، اذ كانت قد اصبحت النقطة الرئيسية لهجرة اليهود الى فلسطين .. وكانت هى أول مكان تطاه أقدام اللاجئين فى أرض الميلاد فى هجرتهم اليها من الاحياء اليهودية فى شرقى أوربا .. وفى شمالها مباشرة بدأت تظهر مدينة تل ابيب الجديدة ، وهي أكبر ميدان لتجمع اليهود بالبلاد ..

والعنف ينشأ عادة عن توافه الأمور . لقد جاء اليهود الى فلسطين مسلحين بالمبادىء السياسية والاجتماعية التى عرفوها فى منفاهم فى شرقى أوروبا ، ولما كان ذلك العهد مشحونا بالانتفاضات الثورية كان من الطبيعى أن يكون لهم نصيبهم كمتطرفين بلاشفة ومنذ ١٩٠٩ ، أخذ الحزب الاشتراكى الثورى يحاول استمالة مجموعات العمال اليهود الى مبادىء « الدولية الثالثة » ولكنه لم يحقق أبدا أى تقدم كبير فى هذه المحاولات « لاعداد تربة فلسطين للثورة الاجتماعية » وفى عام ١٩٢٠ تدعم الحزب بالوافدين الجدد من الاتحاد السوفيتى ، ولكنه فى أوج وجوده لم يتجاوز عدد أعضائه ثلاثمائة عضو . وفى عيد مايو اختار الحزب طبقا لتقاليده العمالية أن يعرض قوته الهزيلة .. وقاد العرض أولئك المهاجرون غير الشرعيين حيث أرادوا أن يعوضوا قلة عددهم بافتعال الضوضاء والاستفزاز وفى صباح أول مايو ، تجمع « المحاربون » فى مقر قيادتهم فى نادى بوروشوف فى أحد الأحياء العربية اليهودية بمدينة يافا . وانتشروا فى الشوارع متحدين بذلك حظرا رسميا ، ثم أفلتوا من حاجز البوليس وزحفوا الى تل أبيب .. كانوا يحملون ورودا صغيرة حمراء ولافتات كتبت عليها بعض الشعارات باللون الأحمر ، مثل « يعيش أول مايو » و « لتسقط الدولة الانجليزية المستبدة » و « تعيش الثورة الاشتراكية » و « تعيش فلسطين السوفيتية الاشتراكية » .. وفى لهجة عنيفة دعوا العمال اليهود والعرب للاشتراك فى الاطاحة بمن يضطهدونهم « القضاء على من يعذبونكم ويستبدون بكم » .. لقد كانت دعوة سافرة لحرب طبقية .. ولكن نفس أولئك المظلومين الذين كانوا يحاولون انقاذهم وهم أخوتهم فى الدين من ذوى الحظ العاثر ، كانوا هم الضحايا الأصليين لهذه الحرب أو بالاحرى لتلك المذابح الفاشمة التى أثارها الحزب .

بدأ العنف كصدام فيما بين اليهود وأنفسهم .. فقد اصطدم رجال الحزب الاشتراكى الثورى بمظاهرة أكبر كثيرا من مظاهرتهم كانت السلطات قد رخصت رسميا بقيامها .. نظمها حزب « أحدوت هاعفوداه » ــ اتحاد العمل ــ وهو حزب ديمقراطى اجتماعى .. وأخذوا يتبادلون الكلمات .. وحدثت بعض الاصابات ، وسقطت احدى النسوة وقد أصيبت بجرح خطير فى رأسها .. كانت قلاقل العمال اليهود لا تثير حتى ذلك الوقت سوى القليل من الفضول من جانب العرب .. ولكن الأمر فى هذه المرة كان مختلفا .. فقد بدأ العرب فجأة وكأنهم قد أصيبوا بهياج شديد .. وارتكب المواطنون الذين يحترمون القانون عادة أعمالا وحشية استمرت اسبوعا وامتدت الى

الريف المجاور .. وكان حشد قد تجمع ليراقب الشجار بين المتظاهرين اليهود .. ووقف رجال الشرطة التى يهيمن عليها البريطانيون ، ليحولوا بين المجموعتين اللتين كانتا تقفان عند طرفى مساحة رملية مكشوفة .. كان كل فريق يحملق فى وجه الاخر ، وارتفعت حدة التوتر .. ولم تتفرق اية مجموعة منهما .. وبدأ البعض يحطمون واجهات الحوانيت اليهودية فى حى المنشية المجاور .. وترك الحشد تلك المساحة الرملية وبدأوا وهم مسلحون بالعصى والقضبان الحديدية والمدى وكل ما وصلت اليه أيديهم ، فى مطاردة عامة لليهود .. أما رجال الشرطة المدنيون ، الذين تغلبت عليهم المشاعر المتحيزة ، فلم يحركوا ساكنا . وتطوع ثلاثة من الأعيان العرب لتهدئة الجماهير ، وقد وجدوا فى المنشية أن السوق اليهودية قد نهبت بأكملها ، وأن أعمال السلب تجرى فى كل مكان .. وأمكنهم تهدئة الاضطراب فى المواقع التى كانوا يأتون اليها فقط حتى اذا ما انصرفوا عنها استؤنف الشغب من جديد .. تم استدعاء الجيش ، ولكن أعمال الشغب استمرت تندلع من جديد ، وعندما تم اخمادها فى النهاية كان عدد الضحايا بين قتلى وجرحى مائتين من اليهود ومائة وعشرين من العرب .. وكان العرب هم الذين بدأوا بتحويل الاشتباكات الى معركة عنصرية ، ولكن اليهود ثأروا لأنفسهم بنفس الوحشية . وبعد فحص جثث القتلى فى اليوم الأول ذكر الدكتور بيدلز ، الطبيب الشرعى فى يافا ، انه « قد ذهل اشد الذهول لعدد الجراح فى كل جثة ولضراوة هذه الجراح .. اننى أتحدث بوجه خاص عن الجماجم المهشمة .. لقد كان بعض الضحايا مصابا بعشرات الجراح » (١) .. وكانت بعض هذه الفظائع البشعة متعمدة ..

وفى اليوم التالى ، انطلقت جماعات من اليهود سعيا وراء الانتقام الوحشى . وقامت احدى الجماعات التى كان يقودها فيما يبدو شرطى من تل أبيب ، بتحطيم باب أحد المنازل واطلقوا النار على رجل فأصابوه فى معدته وعندما أسرعت ابنته الصغيرة نحوه عاجلوها بضربة فأس أطاحت برأسها .. ولكن العرب لم يكونوا اقل وحشية ، ففى نفس اليوم وجد ستة من اليهود كانوا يعيشون فى منزل منعزل ، صرعى بالقرب من مسكنهم . منهم خمسة ضربوا أو طعنوا حتى الموت ، أما السادس الذى وجد بعيدا عن الاخرين فقد مات ويداه مكتوفتان خلف ظهره .. ولكن الذروة الرمزية قد ظهرت فعلا فى اليوم الأول عندما اقتحم الغوغاء العرب فندقا للمهاجرين الصهيونيين فى وسط المدينة .. والواقع أن رجال الشرطة العرب الذين

جلبت بهم نوبة الجنون العامة هم الذين قادوا هذا الهجوم . وقد توصلت لجنة التحقيق البريطانية الرسمية برئاسة سير توماس هايكرافت ، الى النتيجة الآتية :

« اننا مقتنعون من الشهادة التى أدلى بها الأب مارتن من الجمعية اليهودية بلندن وقد شاهد الكثير مما حدث ، من احدى النوافذ ، على الجانب المقابل من الشارع الرئيسى ، بأن الشرطة فى الشارع اقتحمت الباب وقادت جانبا من الغوغاء الى داخل فناء المبنى حيث اقتحموا الدور الأرضى من هذا المبنى وغيره . من المبانى . وكل من حاول أن ينجو بنفسه بالفرار الى الشارع كان الغوغاء ينهالون عليه ضربا حتى الموت . وقد لقى آخرون حتفهم داخل فناء المبنى – وعندما كان الدفاع ينهار كان الغوغاء يقتحمون المكان من كافة مداخله . ولم تقتل الا سيدة واحدة أصابتها رصاصة أطلقت عليها من احدى النوافذ .. أما النسوة اللاتى فررن الى الشارع فقد تعرضن لمعاملة خشنة وعنيفة ولكن لم تقتل منهن أية واحدة .. بل أصيبن بجراح غير خطيرة وتولى حمايتهن أحد الجيران العرب .. ولعل أشد الأحداث اثارة للغثيان هو مسلك أحد أفراد الشرطة العرب .. لقد ظنت النسوة أنه سيحميهن ، ولكنه انتهز فرصة حالة الذعر السائدة فسلبهن ما كن يحملنه ، وتقدم الى اثنتين منهن بعروض غير لائقة وبذيئة قائلا لهما أنه يهودى ، وهددهما باستعمال العنف معهما ان لم تذعنا لمطالبه .. ويبدو انهما تجنبتا هذه الوحشية البالغة بالفرار وقدم الرجل الى محكمة خاصة حكمت عليه بالسجن لمدة ثلاث عشرة سنة لمحاولته ارتكاب جرائم خلال الاضطرابات .. ويجب ألا نفترض أنه لم يكن هناك مقاومة من جانب اليهود .. فقد كانت حصيلة الموتى والجرحى فى ذلك الحادث الرهيب الذى وقع فى دار الهجرة كما يأتى : ثلاثة عشر يهوديا بين قتيل أو جريح بجراح قاتلة ، وأربعة وعشرين جريحا .. أما العرب فقد سقط من بينهم قتيل واحد وأربعة من الجرحى (٢) ولو كان هذا الحادث قد جاء بعد ثلاث سنوات من اكبر مذبحة عرفها التاريخ ووصفها بن جوريون « بأنها مذبحة ١٩٢١ » لبدا وكأنه حادث تافه .. ولكنه لم يكن كذلك فى نظر اليهود .. انهم قد يعتبرون أية انفجارات مناهضة للسامية فى شرق أوروبا نوعا من المحن الموسمية ، ولكن أن تقع مذبحة فى فلسطين وتحت الحكم البريطانى المستنير ، فهذا ما بدا فى نظر الكثيرين من اليهود أمرا مروعا لا يمكن ادراكه .

هايكرافت يبرىء العـرب :

ولكن المذبحة كان لها سـببها الخاص وسببها العـام ، ولم يكن من الصعب على سـير توماس هايكرافت ان يحددهما . لقـد رأى أن مظاهرة الحزب الاشتراكى الثورى كانت هى السبب الخاص وانها كانت المفجـر المباشر لهياج العرب ، بينما كان الخـوف من المهاجر اليهودى والشـعور بالكراهية له ولكل ما يرمز اليه ، هو السبب العـام .. لقد كان أعضـاء الحزب قليلين فى حد ذاتهم ، ويمثلون الفشل الذريع ، وكانوا أيضا موضع الاحتقار من جانب معظم أفراد طائفتهم وكذلك من جانب العـرب . ولكن نظرا للخصـومات الاعمق بين الطائفتين ، أحدثوا تأثيرا غـير متناسب مع عددهم الى حد بعيد وكان رأى العرب فيهم أنهم لا يختلفون اختلافا جوهريا عن رفاقهم الصهيونيين ، أنهم لا يمثلون الا غزوا اجنبيا عدوانيا ، له من طبيعتـه ما يجعلهم لا يطيقونه .. ولم يكن هؤلاء الأجانب يغون بلادهم فحسب ، بل هاهم يدنسونها بمعتقداتهم البغيضة الهدامة ، وبمشاحناتهم وعنفهم ، لقد لفظهم شعبهم ، وهاهم يحاولون تحويل الأهالى عن معتقداتهم ويستوردون الاداب الشيوعية باللغة العربية من فيينا لهذا الغرض .. ورأى العرب « مقدمات النضال الصناعى الذى لم يكن معروفا من قبل فى البلاد ، كما رأوا الاضرابات ومظـاهرات العمال فملات بالذعـر عقولهم المحافظة .. كما قرأوا المنشورات التى تدعو الناس الى الاشتراك فى الحرب الطبقية وتشجع الفوضى والثورة الاجتماعية (٣) .

لم تكن الاضطرابات العمالية الا جـزأ من مركب كامل من الوسـائل الأجنبية والمهنية : لقد شعر العرب أن الوافدين الجدد كانوا فى كل ما يفعلونه متغطرسين وعدوانيين ، كما رأوا فيهم أيضا بعدهم عن الاحتشام .. « وقد روى بعض الشـهود عن مسـلك مجموعات الشـباب والفتيات ، بملابسهم الخليعة وهم يطوفون بالشوارع كل يتأبط ذراع الاخر ، وترتفع أصواتهم بالغناء ، فيعطلون حركة المرور ، كل ذلك فى مسلك بعيـد عن أفكار العرب ، عن اللياقة والاذوق » (٤) وهناك تقارير معاصرة تتحدث عما شعر به العرب المتزمتون من صدمة من جراء هذا التطرف فى الاخذ بالنزعة العصرية كاختلاط الجنسين فى حمامات السباحة وهم عراة .. لقد شعروا ان اليهود قد جاءوا لافساد مجتمعهم وأسلوبهم فى الحياة .

وكثيرا ما كان ذلك العداء يشتد بسبب ما كان يتسلط على العقول من أفكار بلا تحفظ وكان العرب قد اكتسبوا بعض هذه الأفكار عندما تأثروا

بثقافة الغرب .. وادعوا الشيوعية والثورة والفوضى متأصلة فى كيان اليهود ذاته وان اليهود فى عديد من البلدان هم الذين « يبذرون بذور الخلاف والدمار » .. وكان العرب يعتبرون اليهود مثل الجراثيم ، واذا كانت بريطانيا وأمريكا قد عجزتا عن احتواء اليهود فكيف يتسنى ذلك لفلسطين ؟ وكانت للعرب ايضا أفكارهم الخاصة المتوارثة عن اليهود .. بل أن أحد كبار العلماء كتب يقول انه من المحظور تصديق اليهود الذين يدعون أن نواياهم طيبة ، حيث « أنهم أوغاد ، وأن القرآن ذاته حافل بالقصص عن خداعهم » (٥) .

لقد كانت احدى الحجج المفضلة التى تروجها الصهيونية أن اليهود بمجيئهم الى فلسطين سيساعدون فى تنميتها لصالح جميع سكانها ، ولكن العرب لم يتأثروا بذلك مطلقا خاصة عندما تبينت لهم حقيقة هؤلاء الناس الذين يزعمون أنهم جاءوا لتنمية البلاد .. وقال العرب عنهم انهم ليسوا بالاثرياء ولا بالتجار ولا من ذوى الاملاك بل هم جموع متباينة من المتشردين والمنبوذين من شتى انحاء العالم (٦) .

لقد كان صداما ثقافيا أساسيا ، وكان من الممكن أن يستوعب العرب هذه الثقافة لولا الفرضية المرفوضة تماما والتى تشكل أساس المشروع الصهيونى بأسره فلم يكن اليهود يعملون على ادخال ثقافة أجنبية فحسب ، بل كانوا يخططون لجعلها الثقافة الوحيدة فى البلاد .. ولم تكن محاولة السيطرة ثقافية فحسب ، بل كانت أيضا سياسية واقتصادية وسكانية . وكانت هذه المخاوف المتأصلة موضع الاهتمام المتعاطف من جانب لجنة هايكرافت وما تبعتها من لجان أخرى على مر السنين ، فقد جاء فى تقرير لها ما يأتى :

« من المهم أن ندرك ان كل ما يكتبه الصهيونيون والمتعاطفون معهم فى أوربا عن الصهيونية ، هو دائما محل الدراسة والمناقشة من جانب الفلسطينيين العرب لا فى المدن فحسب بل أيضا فى مختلف انحاء البلاد .. فهناك شاهد ما من طولكرم قد استشهد بفقرات من كتاب « انجلترا و فلسطين تأليف هـ . سيد بوثام ، كمثال على المقالات الاستفزازية ، حيث تقول : « من المرغوب فيه تشجيع الهجرة اليهودية بكافة الوسائل ، وفى نفس الوقت يجب عدم تشجيع الهجرة العربية » .

لقد نشر هذا الكتاب فى عام ١٩١٨ ، ولكن الذى استرعى انتباهنا هى تلك التصريحات التى وردت فى المطبوعات الصهيونية والتى لا تقل عن الفقرة السابقة اثارة واستفزازا .. فقد نشرت صحيفة « جويش كرونيكل » فى عددها رقم ٢٧٢٠ بتاريخ ٢٠ مايو ١٩٢١ مقالا افتتاحيا جاء فيه : « وعلى ذلك ، فان مفتاح الموقف الفلسطينى انما يوجد فى منح اليهود من الحقوق والامتيازات فى فلسطين ما يساعد اليهود على أن يجعلوها يهودية ، مثلما أن انجلترا انجليزية وكندا كندية .. وهذا هو المعنى المنطقى ، أو فى الواقع المعنى العملى للوطن القومى اليهودى فمن المستحيل على اليهود اقامته ما لم يمنح اليهود وضعا قوميا » .

وفى الرابع من يونيه ١٩٢١ ، نشرت صحيفة « فلسطين » ، وهى الصحيفة الرسمية للجنة البريطانية الفلسطينية ، مقالا تناقش فيه مسألة الهجرة اليهودية ، وفيه تصف فلسطين بأنها « أرض مهجورة ومنسية » .. ولكن من الصعب أن يتفق هذا الوصف مع الكثافة السكانية لفلسطين التى تقدر حسب الاحصائيات الصهيونية بخمسة وسبعين شخصا فى الميل المربع الواحد . وفى الرابع عشر من مايو نشرت صحيفة « التايمز » خطابا من مستر ف . جابوتنسكي ، يطلب فيه بالحاح نظرا للقلاقل التى نشبت فى يافا بضرورة أن يتمتع اليهود وحدهم بامتياز الخدمة العسكرية فى فلسطين ، مع حرمان العرب من حق حمل السلاح ..

وقبل أن تستجوب اللجنة الدكتور ايدير ، القائم بأعمال رئيس اللجنة الصهيونية ، لم تكن على علم بمدى ترخيص المسئولين الصهيونيين بمثل هذه التصريحات التى نقلناها هنا . كان ايدير شاهدا مستنيرا الى أبعد حد ، ولم يكن عدوانيا فى مسلكه ، بل كان مجردا من أية رغبة فى الادلاء بآراء قد تجرح مشاعر العرب . ولكنه عندما سئل حول بعض الامور الحيوية كان صريحا جدا فى الاعراب عن رأيه بصدد المثل الصهيونية .. وحمل على فكرة « الوطن القومى » التى عرضها وزير الخارجية والمندوب السامى .. فهو يرى أنه لا يمكن أن يكون هناك سوى وطن قومى واحد فى فلسطين ، وهو وطن قومى يهودى ، والا تكون هناك مساواة فى المشاركة بين اليهود والعرب بل تكون الغلبة والسيطرة لليهود بمجرد أن يزداد عددهم بالقدر الكافى . ولعل الدكتور ايدير بوصفه القائم بأعمال رئيس اللجنة الصهيونية ، قد يعبر فى جميع النقاط عن المعتقدات الصهيونية الرسمية ، لو كانت هناك بالفعل مثل هذه المعتقدات ، ومن هنا تأتى الأهمية الكبرى لتصريحاته .

ليست هناك مغالطة فيما يتعلق بالدكتور ايدير ، فقد كان واضحا فى قوله بأنه يجب أن يكون لليهود دون العرب حق حمل السلاح ، وأكد اعتقاده بأن هذه التفرقة من شأنها تحسين العلاقات بين العرب واليهود » (٧) ..

واستطرد هايكرافت يقول أن العرب كانوا مقتنعين تماما بأن الحكومة الفلسطينية كانت واقعة تحت تأثير النفوذ الصهيونى ، وبالتالى كانت تؤيد الاقلية على حساب الاغلبية الكبرى من الشعب . وعلى ضوء ذلك كله ، يبرىء الزعماء العرب ، حيث يقول :

« اننا مقتنعون بأن الاتهام الذى داب اليهود على توجيهه ضد العرب بأن الثورة كانت بتخطيط منهم أو من زعمائهم وأنهم دبروها من قبل ذلك لكى تقع فى الأول من مايو ، انما هو اتهام لا اساس له .. ويبدو واضحا فى أكثر من مناسبة أن بعض العرب الذين يرتدون الملابس الأوربية كانوا يحرضون الجماهير ، ولكن الأعيان من كلا الجانبين كانوا دائما مستعدين - مهما كانت مشاعرهم - لان يساعدوا السلطات فى استقرار النظام ، ونعتقد انه لولا مساعدتهم لكانت عواقب هذه الثورة أسوأ بكثير .. كانت مزاعم الشهود اليهود كثيرة حول تحريض الزعماء العرب لجماهير الشعب على أستخدام العنف .. واذا كان هذا لا يعنى أكثر من أنه بينما ينصرف المثقفون للحديث والكتابة يتحرك الغوغاء ، فعندما تكون هذه المزاعم صادقة ولكن اذا كان ذلك يعنى أنه لولا التحريض من جانب الأعيان والأفندية والشيوخ لما كانت هناك اضطرابات ، فان المزاعم فى هذه الحالة لن تجد دليلا تستند اليه : ان كل ما يمكن أن يقال حقا لصالح وجهة النظر اليهودية هو أن قادة الرأى العربى لا يخفون ما يفكرون فيه ، بل أيضا يقومون بحملة سياسية . الا أن الشعب يشارك الزعماء فى هذه الحملة، لانه يشعر أن مصالحه السياسية والمادية واحدة هذا ، وليس هناك دليل جدى يثبت أن الثورة كانت مخططة ومدبرة . وطالما أن الأمر كذلك نتردد فى التخمين بما كان يمكن أن تكون عليه العواقب » (٨) ..

وتحمل وثائق الحكومة البريطانية كثيرا من الآراء المماثلة التى بدأها المسؤولون الذين تقصوا الأحداث على الطبيعة . فقد ورد فى التقرير السياسى الشهرى من القدس أنه اذا كانت يافا هى المكان الذى اندلعت منه الثورة « فليس فى ذلك ما يدعو للدهشة » حيث تشتد حدة السخط فى الأماكن التى تكون فيها دوافع الاثارة المسببة لهذا السخط ، جلية جدا ، وبادية للعيان (٩) .. وقال السكرتير الأول للحكومة الفلسطينية « أن الهجرة

هى الدليل الملموس والمرئى على الصهيونية .. وهى المقياس الذى يمكن للعرب أن يحكموا على ضوئه (١٠) .. أما النزلاء المؤقتون بفندق الهجرة ، الوافدون الجدد الى أرض الميعاد العزل من السلاح ، فقد كان الأمر بالنسبة اليهم هو مصيرا قاسيا فى سخريته .. أما أولئك الذين عنوا ببحث الأمر فقد رأوا انه ما كان يمكن للعرب أن يختاروا طريقة أقسى وأشد لتحديد غايتهم ، وهى : أنه لن يقوم سلام فى صهيون ..

الصهيونيون يلومون « السياسيين » العرب

لم يكترث الصهيونيون ببحث الأمر ، فقد كانوا يعتبرون آراء الدكتور ايدير آراء سليمة وان آراء جابوتنسكى لا تعدو أن تكون صورة متطرفة منها ذلك أن من بين الخواص العديدة لاية حركة تولدت عن مقاومة الظلم والاضطهاد هو أن هذه الحركة لابد أن تكون متبلدة الشعور بالنسبة لنفس اللون من المقاومة التى تخلقها فى غيرها من الحركات .. ومع ذلك ليس فى هذا ما يثير الكثير من الدهشة .. لقد جاء الصهيونيون الى فلسطين وبين حناياهم التصميم الحماسى على النجاح ، وذلك ما جعلهم لا يلقون بالا للعقبات التى صادفوها لدى وصولهم ، معنوية كانت أم مادية ، والتى كانت تبدو أنها لا يمكن تذليلها .. لقد فضلوا أن يعيشوا على أوهام « المنفى » وهى أن أرض الميعاد اذا لم تكن فعلا مأهولة بسكانها فأنها من الممكن أن تسعهم بسهولة وأن تسبغ معهم كل أمانيهم .. ولكن اذا لم يجدوها كذلك ، فأنهم عندئذ يفضلون الخداع .. وهو أيضا خداع الذات من أجل تهدئة الضمير .. وهو أنه لن يكون هناك أبدا أى ضرر يلحق بالسكان مهما كثر عددهم ..

وقصارى القول ، انهم قد اختلقوا عالما زائفا لا يمكن أن تكون فيه مقاومة لأنه ليس هناك ما يجوز مقاومته .. ومنذ بداية القرن حتى يومنا هذا نجد أن الصهيونيين — وهم على ثقة تماما من دوافعهم السامية — قد أغمضوا أعينهم عن دوافع أعدائهم . ولن تكون هناك مبالغة اذا قلنا ان اليهود عندما واجهتهم المقاومة العربية وجدوا التفسيرات لها .. ولكن هذه التفسيرات فى رأى غير المتحيزين أو المغرضين ليست خاطئة فحسب ، بل أنها تكاد تكون مناقضة للتفسيرات الحقيقية . وعلى أساس تشخيصهم الزائف قاموا فى عناد دائب بالتوصية بأنواع من العلاج لا تؤدى الا الى تفاقم العلة التى كان من المفروض أن يعالجوها . فهم لا يملون القول بأن المسئول عن المتاعب هم السياسيون لا « الشعب » . ففى فلسطين الواقعة تحت

الانتداب كان الأعيان المحليون والزعماء « والأفندية » على حد زعمهم هم الذين يحرضون على الشغب ضد اليهود ، مثلما كان الرئيس عبد الناصر والزعماء الثوريون الآخرون هم الذين ينشرون ، على حد زعمهم كراهية دولة اسرائيل التي ظهرت حديثا الى الوجود ، في ارجاء العالم العربي بعد عام ١٩٤٨ . وكانوا يقولون ان خير وسيلة للتعامل مع السياسيين الذين يثيرون الغوغاء هي مقاومتهم مقاومة عنيدة ، وبمعنى آخر الضغط عليهم بشكل أكثر حزما عن ذي قبل بالمغامرة الصهيونية الكبرى وان المعاملة غير العادلة للعرب قد تساعد على تحسين الموقف بالنسبة للجميع ، ومن بينهم العرب طبعـــا ، وكلما ازدادت كراهيـــة العرب للتعصب كلمـــا ازدادوا معاناة له .

حقيقة أن هناك نفرا قليلا جدا من الصهيونيين رأوا في ذلك تحريضا شاذا للمنطق .. فكان حاييم أرلوزوروف يرى أن « مذبحة عام ١٩٢١ » تعني أن هناك حركة عربية موجودة فعلا ، وبصرف النظر عن طبيعتها ، ستكون ناجعا أن ننكر أهميتها أو نعتمد على أسنة الحراب ، بريطانية كانت أم يهودية ... فقد تكون هذه المساندة فعالة ساعة واحدة ، ولكنها لن تصلح لعشرات السنين .. وهيهات أن تحقق سياسة العنف هدفها (١١) .. وكان هذا الرأى متعارضا تماما مع التشخيص المألوف ، والذى قدم جيرشون أجرونسكى ، مؤسس صحيفة جيروزاليم بوست ، مثالا نموذجيا له ، فقال: « ان الاضطرابات التي وقعت في يافا هذا العام ، وثورة عيد الفصح بالقدس في العام الماضي ، لم تكونا نتيجة انتفاضة شعبية ، بل كان المسئول عنهما هم السياسيين العرب الذين استغلوا في حملتهم ضد السياسة البريطانيــة المعلنة تجاه الصهيونية ، سذاجة العربي الأمي الطيب القلب .. وينقسم أولئك السياسيون الى طبقتين : فهناك مواطنون فلســطينيون ذوو مكانة رفيعة ينتمون لطبقة ملاك الأراضي ممن كانوا أسعد حالا تحت حكم الأتراك ويشعرون بأن مصالحهم قد أصبحت مهددة بوجود حكومة غربية ذات أفكار غريبة عن العدالة .. كما انهم يخشون في نفس الوقت الهجرة اليهودية بسبب تأثير ارتفـاع مسـتوى معيشة اليهودى عن مستوى معيشة من يستغلونهم من مزارعين » . ويسلم بأن أعمال الشغب وغيره من الأفعال العلنية تبدو كأنها تشير الى عداء من جانب أحد قطاعات السكان الأصليين للهجرة الصهيونية . ولكن الكاتب يستطرد قائلا : « ولكن هذا العداء على أية حال قائم على أساس فكرة خاطئـة عن الأهداف الصهيونية ، ومن الممكن التغلب عليه . فأولئك الذين قضوا أى فترة من الوقت بالبلاد يعلمون ، كما يعلم العرب الذين تأثروا مباشرة بالعمل الصهيوني ، ان فلسطين ستكتسب

كثيرا ولن تخسر من وراء هجرة صهيونية كبيرة وقد قال ونستون تشرشل « حيثما تتجمع القرى العربية من حول المستوطنات اليهودية يبني العرب منازلهم من القرميد بعد أن كانت تبنى بالطين ، أي أن الثقافة قد انتشرت من هذا المركز الى المناطق المحيطة به » .. أن مستوى الأجور منخفض في فلسطين ، ولكنه يرتفع حيث يستخدم اليهود العرب . لقد هيأ العمل اليهودي دفعة قوية لتنظيم العمال العرب .. وعندئذ يأتي العلاج المتناقض سيتحقق السلام عندما توافق عصبة الأمم رسميا على الانتداب ، وعندما تحصل المنظمة الصهيونية على الوسائل لتنفيذ برنامجها .. ان أولئك الذين تحذوهم الرغبة الملحة في أن يروا السلام في فلسطين ، يريدون أن يتم التصديق على الانتداب ، ويريدون النجاح « للصندوق القومي اليهودي » ، ويريدون أيضا كنتيجة لهاتين الأمنيتين أن يتم استرضاء العربي .

وإذا جاز أن نلتمس العذر لذلك الصحفي الصهيوني الذي يعايش الأحداث لعجزه عن تكوين فكرة واضحة عن الموقف بأكمله ، فما بالك بذلك العالم البريطاني الذائع الصيت ريد كليفت سالمان ؟ لقد كان يؤمن « بأنه من الممكن لليهودي والعربي أن يتفقا تماما لو تركهما السياسيون وشأنهما .. فالمجال يتسع لهما معا . فالعربي عاجز تماما بمفرده عن تنمية الأرض ، واليهودي هو وحده الذي سيجلب رأس المال ، والعربي يعلم ذلك ... بل أنه في الوقت الذي أكتب فيه هذا الكلام ترد معلومات عن خطابات من رؤساء القرى من كافة أنحاء البلاد يرجون فيها هجرة اليهود الى قراهم » ، وانه لا وقت لديه ليضيعه مع حكومة اذعنت لحزب الوحدة العربية الصاخب التماسا للسلام والهدوء ، وسمحت لتحريض الحزب بأن ينمو أمام أعينها ، وانتزعت من أيدي البوليس اليهودي المتطوع في المستعمرات ما كان لديه من أسلحة قليلة ، كما سمحت للعرب بالقيام بعمليات واسعة لسرقة الأسلحة والذخيرة » .. ثم وصل ذلك العالم البريطاني الى هذه النتيجة غير العلمية وهي أنه كلما تبنت بريطانيا بكل قوة البرنامج الصهيوني — وهو البرنامج الذي يؤكد أنه يؤدي الى حكم الأغلبية اليهودية في فلسطين — كلما كان العرب أكثر سعادة : « اننا نستمع الآن عن صراعات ، وعن سفك الدماء في القدس ، ونسمع عن حملة صحفية صاخبة تقول للعالم أن الفلاح العربي يفزع لتدفق اليهود .. قد يكون من غير المجدي أن يقال بعدم وجود معارضة ولكن من الممكن أن نقول ذلك دون تردد : لو ان بريطانيا كانت قد تولت الانتداب بعد الهدنة مباشرة ونفذت وعدها كما تضمنه تصريح بالفور لما كانت هناك أية معارضة تذكر من جانب الفلاحين (١٢) » .

ومن المشكوك فيه بطبيعة الحال ، أن يكون أولئك الذين أعربوا عن هذا الرأى غير الواقعى يؤمنون به حقا . لا يوجد أثر مسجل لما صرح به بن جوريون علانية وقتذاك وكتبه بعد أربعين سنة : « كنت أعتقد — ولا أزال — أن التعاون بين اليهود والعرب ينطوى على مزايا هائلة لكلا الشعبين .. ولكننى كنت أدرك فى نفس الوقت أن معركة « تل حى » فى عام ١٩٢٠ ومذبحة عام ١٩٢١ لا يمكن مقارنتهما بما سيحدث مستقبلا من سفك الدماء (١٣) » .

ويميل العرب ، وخاصة أولئك المؤرخين المعاصرين اليساريين الى المغالاة فى تقدير الرأى العكسى وهو أن « الشعب » فى عدائه المباشر والبديهى للصهيونية كان وطنيا ، ولا مأخذ عليه فى ذلك ، بينما كان « الساسة » خونة بلا استثناء .. وعلى أية حال ، من المؤكد أن المقاومة قد استمدت قوتها الدافعة الأساسية من الشعب .. فهو الذى فرضها على الساسة وليس العكس .

الساسة العرب يختارون عدم العنف :

كانت المعضلة التى واجهها الزعماء الفلسطينيون معضلة خطيرة .. لقد كانت كامنة فى تصريح بلفور .. وقد رأينا معنى ذلك بالنسبة للصهيونيين .. كان فى امكانهم الاعتماد على البريطانيين ليساعدوهم على ملء هذا « الاطار » الذى يمثله ذلك التصريح ، على حد قول وايزمان .. ولم يخيب البريطانيون آمالهم ، وحصلوا على مساندة امبراطورية تكفى لأن يميل ميزان القوى لصالحهم . أما العرب ، فكان أمامهم دائما أن يختاروا بين المصالحة أو المقاومة وكانوا فى الفترة السابقة على تصريح بلفور يعالجون فكرة الصلح كوسيلة لاحتواء « الخطر الصهيونى » الناشىء .. أما الآن فقد اتخذ هذا الخطر أبعادا أشد خطورة . لقد كان الصلح يعنى التوصل الى تفاهم مع البريطانيين ، بينما كانت المقاومة تعنى محاربتهم .. وكان الاختيار صعبا .. وكان الفلسطينيون يقولون « ان من المستحيل تماما اقامة وطن قومى يهودى دون أن يستتبع ذلك الاضرار بالحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية الموجودة بفلسطين (١٤) » فكيف يتسنى لهم بعد ذلك أن يتعاونوا مع حكم أجنبى يسحق بحكم طبيعته المصالح الوطنية ؟ ومن ناحية أخرى ، كيف يتسني لهم قبول تحدى قوة عسكرية متفوقة ؟ ومن ثم كان اختيارهم للصلح ..

ومن الطبيعى أن الفلسطينيين لم يكونوا يميلون الى النظام الجديد الذى يجعل من بلادهم شبه مستعمرة بل كانوا ، شأن غيرهم من العرب ، يعتبرونه

نقضا للعهود . ولم يكن اهتمامهم المباشر منصبا على التخلص منه ـ فانهم سيتوصلون الى ذلك فى الوقت المناسب بل كان همهم الأول هو أن يضمنوا قبل تحقيق ذلك ان المصلحة الوطنية لن تتعرض لاضرار لا يمكن علاجها .. وحاولوا فعلا أن يتعاونوا مع حكامهم الجدد على أمل اقناعهم بالعدول نهائيا عن فكرة اقامة وطن يهودى . وفى عام ١٩٢١ ، وجه موسى كاظم الحسينى ، رئيس الهيئة التنفيذية العربية التى كانت تمثل الفلسطينيين فى التعامل مع السلطات البريطانية ، نداء ناشد فيه مواطنيه « أن يضعوا آمالهم فى حكومة بريطانيا العظمى ، المعروفة بعدالتها واهتمامها برخاء الأهالى ، وصيانتها لحقوقهم ، واستجابتها لمطالبهم الشرعية (١٥) » .. لقد كان أمامهم أسلوبان فى تناول المشكلة ، أحدهما مباشر ، وهو العمل على العدول رسميا عن تصريح بلفور أو على الاقل عدم تنفيذ نصوصه العملية « والآخر ، غير مباشرة ، وهو العمل على اقامة حكم نيابى فى فلسطين ، من شأنه أن يتيح لهم وهم الأغلبية الكبرى وقف مخططات الاقلية الصهيونية ومع ذلك ، ووفقا لميثاق عصبة الأمم ، اضطلعت بريطانيا بالانتداب باعتباره « كمسئولية مقدسة للحضارة » ، وكان أحد التزاماتها الأساسية تطوير نظم الحكم الذاتى .. ألم تمنح بريطانيا الحكم الذاتى لمناطق أكثر تخلفا الى حد بعيد فى الشرق الأوسط ؟

ولكنهم لم يقطعوا شوطا بعيدا فى تطبيق أى من هذين الأسلوبين . وعندما قام ونستون تشرشل ، وزير المستعمرات ، بزيارة للشرق الأوسط فى عام ١٩٢١ ، منع فعلا هذين الأسلوبين فعندما طلب منه وفد فلسطينى الغاء تصريح بلفور ، ووضع حد للهجرة اليهودية ، والموافقة على تكوين حكومة وطنية تكون مسئولة أمام مجلس منتخب شعبيا ، أجاب تشرشل « انكم تطلبون منى الغاء تصريح بلفور ووقف الهجرة ، ولكن هذا ليس من سلطتى ، كما أن هذه ليست رغبتى » . وبعد أن أطرى فكرة اقامة مركز قومى يهودى فى فلسطين ، انتقل الى النقطة الثانية ، وهى شرط « الحماية الوارد فى تصريح بلفور ، والذى وصفه تشرشل بأنه « تقديس الحقوق العربية والدينية » ، قال لسائليه : « يؤسفنى أنكم تعتبرون هذا الجزء الثانى غير ذى قيمة .. انه حيوى لكم ، وعليكم أن تتمسكوا به بقوة .. واذا كان هناك وعد سارى المفعول فان الوعد الآخر سارى المفعول أيضا .. وسوف نفى مخلصين بكلا الوعدين » ، أما فيما يتعلق بقيام برلمان فلسطينى ، فقد التزم هنا على الأقل جانب الصراحة ، حيث قال « ان هذا الشكل الحالى للحكومة سيستمر لعدة سنوات ، وخطوة بخطوة سنقوم بتطوير النظم التمثيلية

المؤدية الى الحكم الذاتى ، ولكن سيكون أحفادنا قد قضوا نحبهم قبل أن يتم تحقيق ذلك » ..

وهنا ، فى اجابة تشرشل ، تكمن المعضلة التى أخذت تواجه الفلسطينيين معظم فترة الانتداب .. لقد وقعوا فى شراك طريق دستورى مسدود .. لقد أساءوا صنعا بالاتجاه مباشرة الى لب الموضوع ، وهو عدم فعالية الانتداب ، حيث لم تكن لدى بريطانيا « الرغبة » فى أو « القدرة » على التخلى عنه انها لم تكن ترغب فى ذلك ، لأن هذه هى السياسة البريطانية ، كما أنه لم تكن لديهاالقدرة على ذلك لانها ، كما كانت تدعى ، انما كانت تضطلع « بالمسئولية المقدسة » التى عهدت بها اليها عصبة الأمم .. وكانت هذه الهيئة الجليلة قد قضت بأن « الالتزامين المفروضين على دولة الانتداب ليس بينهما أى تناقض .. وتذرعت بريطانيا بهذا الحكم فى ردها على اعتراض العرب . واستطاع العرب طبعا أن يتخطوا بريطانيا وأن يعرضوا قضيتهم على عصبة الأمم ، لكى يكتشفوا عدم اختصاص لجنة الانتداب الدائمة ببحث النصوص الأساسية للانتداب .

ولم يقطعوا شوطا أبعد فى أسلوب المواجهة غير المباشرة ، لأنه حتى مع التماس العذر لبلاغة تشرشل ، كان من الواضح من نية الحكومة البريطانية أن عليهم أن ينتظروا فترة طويلة جدا للوصول الى نظم الحكم الذاتى .. ولذلك ، كان كل ما وسعهم هو وضع ثقتهم فى النص الخاص « بالحماية » ؟ وفيما وعدت به بريطانيا من أنها ستفى مخلصة بالتزاماتها لكل من اليهود والعرب .. ولم يكن هناك تعارض بين هذه الالتزامات ، وهذا ما اعترفت به رسميا فى عام ١٩٣٧ لجنة بريطانية ملكية .. ولكن طالما أن بريطانيا قد دأبت فى نفس الوقت على الوفاء بالتزامها الأول على حساب التزامها الثانى، أصبح العرب فعلا يعتبرون النص الخاص بالحماية « لا قيمة له » ..

وقد استغرق الأمر ستة عشر عاما لكى تعترف بريطانيا بذلك رسميا ، ولكن لابد أن « مذبحة عام ١٩٢١ » كانت نذيرا كافيا : اذا لم يجد أى مجتمع الوسيلة للاعراب عن رأيه بالطرق الدستورية المشروعة فانه يلجأ الى وسائل أخرى من المؤكد انه نفسه يشجبها اذا ما توفرت له .. والواقع انه على حد قول أحد ضباط المخابرات البريطانية فى فلسطين ، كانت زيارة تشرشل واصراره الصريح على أنه يعتزم حرمان العرب من الامتيازات الديمقراطية التى يعتبرها حقا ثابتا لكل انجليزى ، هما السبب فى اشعال فتيل انفجار يافا .. « لقد أيد القضية الصهيونية ، وتناول المطالب العربية

كما لو كانت صادرة عن معارضة تافهة يمكن اسكاتها بالقليل من العبارات المهذبة ومعاملتها معاملة أطفال مشاغبين .. واذا لم تتغير السياسة فان انتفاضة اليوم ستتحول الى ثورة فى الغد » ..

والواقع انه يبدو ان تشرشل توصل الى رأى جديد .. ففى يونيه من عام ١٩٢٢ ، أى بعد ثمانية أشهر من نشر لجنة هايكرافت لنتائج ما قامت به من تحقيق ، طرح تشرشل أمام الممثلين الصهيونيين والفلسطينيين فى لندن مقترحات لاقامة مجلس تشريعى .. وهو ما يهيىء بالتأكيد بديلا دستوريا للعنف . وجاءت هذه المقترحات فى صورة « كتاب أبيض » ينطوى على بعض التسليم بوجهة النظر العربية .. وأكد من جديد تصريح بلفور وتمسك بتأسيس وطن قومى يهودى فى فلسطين ، باعتباره حقا ، ولا تسليما ناتجا عن عدم القدرة على الاعتراض، وادعى الكتاب الأبيض أن مخاوف العرب انما ترجع فى جانب منهما الى المغالاة فى تفسير « التصريح ولكن لا ريب فى أنه لن تكون هناك دولة يهودية ، أو اخضاع للشعب العربى أو لغته أو ثقافته ولكن ما نوع هذا المجلس التشريعى ؟ من الواضح أن آخر ما كان يريده الصهيونيون هو أن يتمتع أهالى فلسطين بالمساواة فى التعبير عن رأيهم فى ادارة شئون البلاد .. وكان هذا باعثا على حيرتهم ، اذ من المفروض انهم جاؤا الى فلسطين باعتبارهم رواد الحضارة الغربية . ومن المؤكد انهم لم يرفضوا صراحة نظم الحكم الذاتى ، وحثوا حماتهم الاستعماريين على أن يعرضوا شكلا محدودا جدا لهذه النظم . وبمساندة من جانب لويد جورج ، رئيس الوزراء ، ولورد بلفور ، استطاع وايزمان أن يدخل فى روع تشرشل أن الحكومة التمثيلية قد تعنى نهاية الوطن القومى اليهودى فى فلسطين .. ولذلك ، يجب أن يضم المجلس الى جانب اعضائه الاثنى عشر المنتخبين (ثمانية مسلمين، واثنين مسيحيين، واثنين يهوديين) أحد عشر موظفا بالتعيين ورفض الفلسطينيون الاقتراح .. فبصرف النظر عن الاعتراضات الأساسية على المبدأ ، كانوا يرون أن هذا التركيب قد تتمخض عنه اغلبيه دائمة مؤيدة للسياسات الحكومية وهذا يعتبرونه بالرغم من تأكيدات الكتاب الأبيض — غير مقبول بتاتا .. وقد رأوا أن كل ما تعنيه المقترحات أن « السياسة الصهيونية للحكومة سيتم تنفيذها تحت ستار دستورى ، بينما هى الآن غير شرعية ، وتتعارض مع حقوق ورغبات الشعب ولا يحافظ على استمرارها الا قوة السلاح (١٩) ..

كان هذا أول مثل هام لموقف طالما رأى فيه الناس ، حتى المتعاطفون من الخارج أنه قد أسهم أكثر من أى شىء آخر فى الكوارث التى منى بهـا

الشعب الفلسطيني في نهاية المطاف . فهذا الموقف من حيث المبدأ — مهما كانت عدالة هذا المبدأ — وهذا الرفض للحل الوسط ، وهذا الرفض المستمر ، كان أشد العناد غباء .. وبصفة المؤرخ البريطاني كريستوفر سايكس بانه « تخبط مرعب » .. ويقول ان عناد الفلسطينيين المحزن كان من شأنه انهم لم يحصلوا أبدا على تمثيلية ولو في ابسط أشكالها ، ونتيجة ذلك أنهم لم يستطيعوا تجنب مساوىء الحكم التعسفي (٢٠) » .. أما العالم الاسرائيلي المعاصر ، الجنرال يهوشافاط هاركابي ، فانه يذهب الى أبعد من ذلك .. اذ يعتقد بأنه «لو كان العرب قد وافقوا على ما عرض عليهم من اقامة المجلس التشريعي في العشرينات ، لما قامت دولة اسرائيل .. » .. ويستطرد قائلا «ان عناد العرب هو الذى فرض التقسيم واقامة الدولة اليهودية» . ولعل من سخرية التاريخ أن يعتبر العرب بين الآباء المؤسسين للدولة اليهودية (٢١) ويمكن بالتأكيد مناقشة ما يقال من أنه لو كان الزعماء الفلسطينيين قد وافقوا على قيام المجلس لكانت ظروفهم قد أصبحت أفضل .. فقد كان هناك شعور بالعداء للصهيونية في صفوف الادارة البريطانية ، وربما كان بعض الأعضاء على الاقل بين الاحد عشر موظف قد انحاز الى العرب .. وهي حجة لا يمكن دحضها ، ولكنها بالتأكيد فكرة جائزة غير منصفة . فما كان في وسع الفلسطينيين أن يعلموا وقتئذ — رغم دقة حدسهم — أن الحوادث اللاحقة ستخلق حجة مضادة مؤثرة . وعندما عرضت الحكومة البريطانية في عام ١٩٣٥ قدرا محدودا من الحكم الذاتي ، — ولم يكن هذا الحكم الذاتي رغم عدم خلوه من التحيز تماما ، في صالح الصهيونيين في كثير — ، كانوا هم الذين بادروا بدفن هذه التجربة الديمقراطية المهتزة فأعلن المؤتمر الصهيوني « رفضه القاطع (٢٢) » . لهذا العرض ، وعندما رفضه ايضا « أبو البرلمانات » في ويستنمستر ، هللت الصحافة الصهيونية لذلك « باعتباره » نصرا يهوديا كبيرا (٢٣) » .. وكان العرب مستعدين على الأقل للنظر في العرض . والواقع أن « الرفض العربي » المشهور قوبل على الدوام بترحاب من جانب الصهيونيين ، حيث أتاح لهم ذريعة معنوية فعالة للغاية وهي أنه ليس هناك من خيار سوى مقاتلة العرب ، ومقاتلتهم مرارا .. واذا زادت مكاسبهم خلال ذلك عما كانوا يخططون أو يأملون ، فسيكون هذا من حسن حظهم .. وقالوا إنه يجب على العرب الا يلوموا الا انفسهم .. ويبدو أن الجنرال هاركابي قد عاد بعد مرور اثنتين وخمسين سنة على رفض العرب ، وفي أعقاب الحرب العربية الاسرائيلية الرابعة في غضون جيل واحد ، لينصح بعدم تسوية ذلك النزاع الممتد على الدوام في الشرق الأوسط ، اذ يقول :

.. « يجب علينا أن نحدد موقفنا وأن نضع المبادىء الأساسية للتسوية .. يجب أن تكون مطالبنا معتدلة ومتوازنة وأن تبدو معقولة .. ولكنها يجب أن تنطوى فى الواقع على الشروط الكفيلة بأن يرفضها العدو .. ثم نناور ونسمح له بأن يحدد موقفه ، ويرفض تسوية على أساس حل وسط . وعندئذ يجب علينا أن ننشر مطالبه على أنها تتضمن تطرفا غير معقول (٢٤) » .

ولم يكن الفلسطينيون برفضهم للمجلس يرفضون التوفيق . فالمقاومة ، وهى مجرد عصيان مدنى أو عنف صريح ، لم تكن تبدو فى رأيهم بديلا جادا . ولكن هذا لا يعنى انهم لم يفكروا فيه ويبحثوه .. ولم يفلح الفلسطينيون اطلاقا فى خلق وابراز نوع الزعامة التى يمكنهم أن يضعوا فيها قدرا كبيرا من الثقة . ولكن الحاج أمين الحسينى كان قد واجه المحاكمة من جانب البريطانيين فى عام ١٩٢٠ بتهمة التحريض على العنف قبل أن يصبح مفتى فلسطين وأكثر زعمائها نفوذا وكان هناك من يقول بأن للعنف فائدته .. وقبل حدوث الشغب فى يافا كتب الشيخ ارسلان وهو زعيم سورى فى المنفى ــ الى أصدقائه بالمدينة يقول ان مجرد تفجر هذا الهياج فى فلسطين سيكون أبعد أثرا من ارسال وفد الى الغرب (٢٥) .. أما الهيئة التنفيذية العربية التى تعتبر المتحدث شبه الرسمى بلسان الطائفة الفلسطينية ، فقد ادانت أعمال الشغب ولكنها استغلتها لأغراض الدعاية ، كمظهر للكراهية التى أثارتها الصهيونية بين صفوف الشعب . وكانت هناك محاولة ، وان كانت بدائية وقصيرة الأجل ، ترمى الى تنظيم حركة حرب العصابات . فقد تأثر الفلسطينيون أعمق التأثر بكمال أتاتورك ورفضه الظافر لما كان الحلفاء يريدون املاءه على بلاده بعد الحرب .. وكان المعجبون به يرددون : « تعلموا من كمال ، واتبعوا خطاه (٢٦) » .. وما كان ليغيب عن بال احد أن سياسة رسمية للحد من الهجرة وفقا لما يسمى بالقدرة الاقتصادية للاستيعاب انما هى نتيجة مباشرة للاضطرابات التى نشبت فى يافا .. رغم أن هذه السياسة قد أسيء استعمالها وثبت عدم صلاحيتها عمليا ..

وفى المؤتمر العربى الرابع فى عام ١٩٢١ تقرر اســتخدام الوسائل السياسية لا الوسائل العنيفة ، للاصرار على المطالب الفلسطينية . . وقد اعترض على ذلك المجاهدون الشبان ، ولكن أعضاء الهيئة التنفيذية العربية والزعماء التقليديين طالبوا باتباع القانون والنظام ، ووعدوا الحكومة بانهم سيسعون من أجل ذلك . فقد استمعوا الى نصائح مجموعة من السياسيين البريطانيين ذوى الميول العربية ممن كان لهم دور بارز فى عام ١٩٢١ .. لقد نصحوا ــ وكان لنصيحتهم آثارها ــ بان العنف سيجعل الفلسطينيين محل

كراهية العالم الخارجي ، ومن ثم لن يكونوا جديرين بالحكم الذاتي الذي كانوا يطالبون بريطانيا ان تمنحهم اياه . وما ان أصبح الحاج أمين مفتيا ورئيسا للمجلس الاسلامي الأعلى حتى غير موقفه تماما فيما يتعلق بالعنف. وبوجه عام ، وضعت بقية الصفوة الحاكمة ـ رغم ما هي عليه من منافسة مريرة وما تتخذه من مواقف نضالية ـ وضعت ثقتها في قدرتها على الاقناع في معاملاتها الشخصية مع سلطات الانتداب . ولم تكن هذه الثقة في محلها. وقد توفر لديها الدليل الكافي على ذلك في عام ١٩٢٣ .. فكلما اخذت المقاومة تثبت وجودها كانت تتدخل عادة في محاولة لكبح جماحها . ولم تكن اضطرابات يافا سوى المناسبة الاولى من بين مناسبات عديدة خرج فيها الاعيان مع قوات الامن ينادون بالتزام الهدوء . كما نسفوا العديد من أشكال المقاومة السلبية المنظمة (كالاضرابات ومقاطعة السلع اليهودية والامتناع عن دفع الضرائب ، وحظر قبول العمل الحكومي) ـ التي كانت أغلبية الشعب تميل لتأييدها (٢٧) . وفي عام ١٩٢٣ قال جمال الحسيني (٢٨) سكرتير الهيئة التنفيذية العربية ، لأحد المسئولين البريطانيين أن هناك طريقتين لضمان الحقوق السياسية الفلسطينية « اما بالوسائل الدستورية ، واما بالثورة ، وان الاختيار وقع على الأولى رغم أن الثانية قد تمنحهم خلال ستة أشهر ما يطالبون به بحق (٢٩) » .. وحتى خلال ازدياد التوتر في أوائل الثلاثينات أثنى المندوب السامي سير آرثر ووشوب ، ثناء حارا على المفتي لما اظهره من اعتدال بالرغم من « مخاوفه من ان ما يوجهه اليه خصومه الكثيرون من نقد ووصفهم اياه بأنه ذو ميول بريطانية ، قد يضعف من نفوذه في البلاد (٣٠) » .

انهم لم يقاوموا العنف فحسب ولكنهم ، وقد شجعهم الى حد ما ما واجهته الصهيونية من صعوبات في أواخر العشرينات ، أصبحوا أكثر ميلا للتوفيق وبدا أنهم على استعداد لقبول مقترحات لحكم ذاتي محدود مع أنهم سبق أن رفضوا في حزم مقترحات مماثلة لها في عام ١٩٢٢ . وفي أوائل ١٩٢٩ ، تأثر المندوب السامي بهذا الاعتدال ، فبعث الى لندن ينصح بأنه سيكون من الصعب مقاومة المطالب الخاصة بقيام مجلس تشريعي .. وقال ان العرب لم يعودوا يطالبون بالغاء تصريح بلفور والانتداب ، وان خوفهم من الصهيونية قد تناقض (٣١) . ومن وجهة النظر التمثيلية والديمقراطية كان المجلس التشريعي الذي اقترحه أقل جاذبية من الصيغة المقترحة في عام ١٩٢٢ ، ولكن الهيئة التنفيذية العربية وافقت عليه ، وفي مفاوضات ممتدة معه ناقشت المسائل الدقيقة المتعلقة بقيام المجلس .

الشعب يختار العنف :

وتفجر العنف رغم ذلك .. فقضى على المفاوضات . وحدث ذلك فى فلسطين من عام ١٩٢٩ وكان ، هذا العنف مفاجئا وأعمى من جانب الغوغاء، شأنه شأن انفجار يافا الذى حدث قبله بثمانية أعوام وقد تفجر بالرغم من رجال السياسة ، فكان الرد الغريزى للشعب على ما اعتبره عنفا من الجانب الآخر . ألم يكن البرنامج الصهيونى الذى فرض بلا رحمة فى ظل النظام البريطانى ، صورة من صور العنف ؟ حقيقة أن الصهيونيين لم يعتمدوا على القوة المسلحة بل كانوا يعتمدون على البريطانيين .. وكانت قدرتهم على الاقناع تؤتى ثمرتها بينما كان العرب يخفقون .. ومع ذلك ، كانوا يعملون على تطوير المنظمات العسكرية . وكان البريطانيون قد قاموا بتسريح الفيلق اليهودى الذى أنشأه جابوتنسكى . ولكنه فى السنوات الأولى من الانتداب انشأ ميليشيا للدفاع عن المستوطنات اليهودية ـ تلك هى « الهاجاناه » التى تكون منها الجيش الاسرائيلى وازدهرت أيضا مثل « بيتار » .. (وبيتار أسم القلعة التى وقف فيها بار كوخيا موقفه الاخير من الرومان) .. وكان ذلك أيضا من عمل جابوتنسكى .. وكانت منظمة البيتار منظمة للشباب تستهدف القيام بأعمال الشرف والفروسية ، وكان لها أثرها العميق فى نفوس الشباب . وكان احد زعمائها يكتب عمودا باحدى الصحف تحت عنوان « يوميات فاشستى » .

ولكن اذا لم يكن هناك فى تلك المرحلة عنف صريح ، أو قتال فعلى فان تهويد فلسطين بكافة الوسائل الاخرى لم يتوقف .. وتم التوسع فى الأساليب القديمة مع تركيزها وصقلها ..

والواقع أن الهجرة ، وهى حجر الزاوية فى هذا الصرح باكمله كانت قد أفلتت من رقابة الادارة البريطانية وانتقلت الى ايدى « اتحاد العمال الصهيونى » ، وكان هذا الاتحاد يمثل ثلاثة فى المائة من شعب فلسطين وقد خلق حالة من الشذوذ قال عنها زائر بريطانى خبير ان « السلطة تكاد تكون منفصلة تماما عن المسئولية » .. وتضاعفت الجماعات اليهودية التى كانت تستوطن فلسطين خلال عشر سنوات ، وكانت قد وصلت فى عام ١٩٢٩ الى مائة وستة وخمسين الفا وسجلت هذه البلاد الصغيرة نسبيا ، أعلى نسبة فى ازدياد عدد السكان فى العالم ، وتجاوزت فى ذلك حتى من سبقها من البلدان مثل استراليا والارجنتين وأصبحت نسبة الاربعة فى المائة ، أو ما يقرب منها، التى كان اليهود يمتلكونها ، من ارض فلسطين ، تمثل اربعة عشر فى المائة

من الاراضى الصالحة للزراعة (٣٢) .. ولم تكن انجازات الوافدين الجدد هى التى اثارت مخاوف العرب بل ، كان ما اثار مخاوفهم الدليل الذى أخذ يظهر للعيان بصورة مطردة، على اكتمال نمو تلك الدولةاليهودية التى كانوا يخططون لها : ومن مظاهره اقتحام الارض والعمل، وتمسكهم باللغة العبرية ومدارسهم ومستشفياتهم الخاصـــة بهم ، وعزلتهم الذاتية من النـــواحى السكنية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، وطـــردهم العرب من كل مؤسسة يقيمونها ... وفيما يلى صورة حية بقلم أحد الساسة المخضرمين يصف فيها جو السنوات الأولى للانتداب :

« اذكر اننى كنت من أوائل الرفاق الذين ذهبوا الى لندن بعد الحرب العالمية الاولى وهناك أصبحت اشتراكيا .. وعندما انضممت الى الطلبـــة الاشتراكيين ، من انجليز وايرلنديين ويهود وصينيين وهنود وافريقيين ، وجدنا اننا جميعا خاضعون لسيطرة الانجليز أو حكمهم . وحتى هنا ، فى هذه البيئة الخاصة ، كان على أن اخوض معركة مع أصدقائى حول مشكلة الاشتراكية اليهوذية وأن ادافع عن واقعة عدم السماح بقبول العرب فى اتحاد العمال اليهودى « الهستدروت » وان ادافع عن واقعة الايحاء لربات البيوت بالا يشترين من المتاجر الغربية ، وأن أدافع عن واقعة اننا كنا نقف حراسا على البساتين لنمنع العمال العرب من الحصـــول على عمل فيها . ونلقى بالكيروسين على طماطم العرب ، ونهـــاجم ربات البيوت اليهوديات فى الأسواق ونكسر البيض الذى قمن بشرائه من العرب ، ونسبح بحمـــد « الصندوق القومى اليهودى » لأنه قام بايفاد هانكين الى بيروت لشراء أراضى من الأفندية الذين هجروها ولطرد الفلاحين من الأرض .. وكان شراء عشرات الافدنة من عربى أمرا مسموحا به ، أما بيع دونم واحـــد يهـــودى — لا قـــدر الله الى عربى فمحظور . وكنـــا نعتبر روتشيلد ، الذى كان يجسد الرأسمالية تماما ، اشتراكيا ، ونطلق عليه « فاعل الخير » .. ولم يكن ذلك كله بالأمر الهين وبالرغم من اننا كنا نفعل ذلك — ولعله لم يكن أمامنا من خيار سواه — لم أكن سعيدا به (٣٤) » .

تلك هى الأسباب العامة الاساسية للعنف الذى تفجر . لقـــد كانت ، أساسا ، مماثلة للاسباب التى أدت الى « مذبحة عام ١٩٢١ » .. اما السبب المحدد الذى أطلق العنف منعقاله فيختلف عن ذلك .

يعتبر حائط المبكى ، وهو الاثر الوحيد الباقى من الهيكل ، أقـــدس المقدسات اليهودية .. ولكن الحائط رمز للعرب كذلك .. ولا يمكن ان يكون غير ذلك ، لأن القاعدة الكبرى التى اقام هيرود فوقها الهيكل الذى دمره

الرومان سنة ٧٠ ميلادية ، هى نفس القاعدة التى يقـــوم عليها المسجدان العظيمان : المسجد الاقصى ومسجد قبة الصخرة . والواقع أن حائط المبكى مقدس بالنسبة للمسلمين الذين يسمونه « البراق » ، وهو اسم لفرس النبى ويعتقدون بأنه انطلق منه فى رحلة الاسراء .. ورقعة الأرض المحيطة بحائط المبكى هى أيضا ملك للمسلمين .

كانت حقوق اليهود فى العبادة عند الحائط يحكمها منـــذ زمن سحيق ما يسمى « بالوضع الراهن » ممثلا فى مجموعـــة من الاتفاقات والتعديلات المتبادلة بين الديانات الثلاث الكبرى القائمة بالمدينة .. وكانت تشرف على ذلك الوضع الراهن السلطات الزمنية الاسلامية . وبازدياد عدد الاهالى اليهود أخذت تنتشر عند حائط المبكى عبادات تتسم بمزيد من الصورية والطائفية .. وكان أولئك المصلون يحاولون الخروج على « الوضع الراهن » فيدخلون بعض التجديدات هناك ، باحضار المقاعد والكراسى وغيرها ، أو يحاولون الحصول على حق وصف الممر أسفل الحائط للايحاء بحق الملكية .. ولكن ما أن قامت الصهيونية حتى بدأوا الضغط علانية من أجل الاستيلاء عليـه بالكامل اذ كان الصهيونيون يرون أن يكون الحائط أقل تذكيرا ــ وخاصة من الناحية الدينية ــ بأمجاد ومعاناة الماضى ، وأن يكون باطراد هو الرمز السـيـاسى للامة اليهودية الناهضـــة ، أو أن يكون ، كما قالت صحيفة « جويش كرونيـكل » « معيـــارا للهيبـة اليهـــودية فى فلسطين (٢٥) » . وكان من المحتم أن يضفى العـرب على الحفـاظ على « الوضع الراهن » كل تصميمهم على أن تظل فلسـطين لهم ، بينما رأى اليهود فى تآكل الوضع الراهن دليلا على تقدمهم فى اغتصابها منهم .

عندما دخلت القوات البريطانية فلسطين فى عام ١٩١٧ ، أعلن قائدها الجنرال اللينبى رسميا بأن « الوضـع الراهن » هو الأساس الوحيد لكل ما يتعلق بالامور الدينية .. ولكن سرعان ما تحدى الصهيونيون هذا الاعلان وكان أول ما أقدمت عليه فصيلة يهودية ملحقة بالجيش البريطانى ان اخذت تقوم « بالخدمة العامة » عند الحائط . وكتب وايزمان الى لورد بلفور يطالب بتسليم حائط المبكى مؤكدا « ان أقدس آثارنا ، فى أكثر مدننا قداسة ، هو الآن فى ايدى طائفة دينية مغربية مشكوك فيها (٢٥) » . ولكن كل المحاولات المتزايدة التى بذلها الصهيونيون لشراء الارض والمساكن المجاورة للحائط باءت بالفشل .. فالاوقاف المرتبطة بثالث أقدس الاماكن الاسلامية لايمكن أن تباع لليهود الذين كانت لهم مخططاتهم بالنسبة للحائط الغربى للحـرم الشريف .. ولكن الصهيونيين لم يجدوا من يصدهم ، ففى الذكرى الاولى

التصريح بلفور أصروا على القيام بمظاهرة عامة فى القدس .. وكان مسلك الفصيلة اليهودية الملحقة بالجيش البريطانى مسلكا استفزازيا خلال زيارتها للحائط ، الامر الذى دعا السلطات العسكرية البريطانية لإن تمنعها من الدخول . وعندما عصى بعض الجنود اليهود هذه الأوامر، وساروا متجهين نحو الحائط حوكموا امام مجلس عسكرى ، كما تم تسريح الفصيلة بأكملها .. وفى ابريل ١٩٢٠ قتل عرب ويهود فى أول صدام كبير فى القدس .. ولم تنقض فترة طويلة حتى صرح سير الفريد مونذ (الذى أصبح فيما بعد لورد ميلشيت) بأنه « سيكرس كل ما بقى له من جهد لتشييد صرح كبير فى المكان الذى كان يقوم عليه هيكل سليمان (٣٦) » .. وذاعت شهرة هذا التصريح بين العرب ، الذين وجدوا فيه ما يؤكد مخاوفهم من أن هذا المشروع ، رغم ما قد يبدو من غرابته ، هو المطمع الأخير للصهيونيين .. وتلت ذلك سلسلة لا نهاية لها من الحوادث التى كان كل جانب يحاول بها رغم صبيانيتها ، أن يفرض على الجانب الآخر الاعتراف بحقوقه فى الأرض المحيطة بالحائط وذلك على حساب الجانب الآخر . وبوجه عام ، كانت المشكلة الأساسية هى الملكية .. ووقف اليهود موقف الهجوم ، محاولين اثبات ملكيتهم لما لا يملكون .. وكان العرب يثأرون لذلك بمختلف المبادرات التى كانت تثير غضب اليهود والتى كانت تهدف الى تأكيد أن المكان ملك لهم وانه سيظل ملكا لهم .. اما بريطانيا فكانت فى تمسكها بالوضع الراهن تساند العرب .. وفى عيد الكفارة فى عام ١٩٢٨ حاول المصلون اليهود أن يضعوا هناك ستارا فاصلا .. والواقع انهم أرادوا بذلك تحدى سلطات الانتداب .. وقد ازداد سخط اليهود بعد هذا الحادث وثارت ثائرة الطائف بأكملها .. وكان أعلى أصوات الثائرين ارتفاعا الاغلبية غير المتمسكة بأهداب الدين وخاصة من الشباب .. وكان فى الطليعة جابوتنسكى وانصاره من اليمنيين . وقامت صحيفة « دورهايوم » ، الناطقة بلسانهم والواسعة الانتشار ، بالدعوة الى « التمرد والعصيان (٣٨) » وكانت الصحافة العربية تحرض ايضا على العصيان .. وخلال صيف ١٩٢٩ أخذ التوتر يتزايد بصورة تنذر بالخطر ، وكتب فنسنت شيهان ، وهو صحفى أمريكى كان يقيم بالمدينة فى هذه الفترة ، يقول « لو مددت يدك فى الهواء لشعرت انه يرتفع » ، كما أنه يسجل فى كتابه « التاريخ الشخصى » ما حدث عندما وصل الموقف فى النهاية الى درجة الغليان .. ويبدأ يومياته بالخامس عشر من اغسطس :

« كان بالأمس عشية يوم الصيام الذى يبدأ اليوم .. انه تخليد لذكرى هدم المعبد ويرتبط هذا اليوم بوجه خاص بحائط المبكى .. والان وقد تم

تكوين الوكالة اليهودية اخذت دعاية حائط المبكى تســير باقصى سرعتها ، واصبح العرب فى حالة قلق نادر ، واصبح الموقف مهيأ لاى شيء .. القلاقل والقلاقل ، والمزيد من القلاقل .. وسيكون هناك الكثير منها . لم اكن أعلم بشيء من كل هذا ، ولا حتى باقتراب التاسع من آب ، الا بعد أن وصلت الى المنزل في الثالثة ، عصرا ، الآنسة « س » (وهى صحيفة يهودية أمريكية ناشئة) .. وقالت لى انه يتعين عليها ان تذهب الى حائط المبكى وان تبعث ببرقية منه الى صحيفة التايمز وسألتنى هل اود أصحبها واساعدها .. ولم أستطع ان أفهم السر فى ذلك ، ولكنها قالت لى انه سيحدث «انفجار» فى الموقف . وقالت ان هذا يتردد فى كل مكان ، وأن مئات الرواد الشبان سيحضرون من المستوطنات الزراعية ومن تل ابيب بعد الظهر وفى المساء ، وكلهم مستعدون للقتال .. والواقع اننى لم استطع تصديق كل ذلك .. واضافت ان هؤلاء الشبان سيكونون مسلحين .. ثلاثة ارباعهم على الاقل .. وحبذا لو وقع شجار عند المبكى « لاثبات اننا هنا » ... ولم افهم كلمة واحدة مما قالته فهو بالغ الغرابة .. ولكنى اجبتها باننى ساكون مستعدا لمصاحبتها فى الساعة الخامسة اذا ما عادت .. ولكنها كانت ساخرة على نحو لا يمكن تصديقه كما كانت ثرثارة فيما يتعلق بالموضـوع بأكمله ... وقالت انه لو وقع شجار فسيكون ذلك من مصلحة القضية الصهيونية ، ويثير يهود العالم ، ويزيد من التبرعات للوكالة الجديدة . وقبل أن نصل الى الحائط ، كان واضحا ان الشرطة اتخذت أهبتها تماما . لم تكن هناك اية اثارة .. وانما كان هناك حوالى ستة من اليهود واليهوديات (من الشرقيين) يصلون ويبكـون امام الحائط . وحوالى الساعة السادسة ، أو قبلها بقليل ، انصرفنا الى فندق سانت جون لنحتسى كوبا من الجعة ، وجلسنا قليلا نتبادل الحديث ولم اكن أفهم وجهة نظرها بالمرة ، وحاولت ان استكشفها .. وعندما عدنا الى الحائط قبل السابعة بقليل ، كان كل شيء قد تغير . كان هناك حشد ضخم ،معظمهم من شباب المستوطنات الزراعية وقد تجمع فى الساحة الصغيرة الواقعة امام الحائط . وكان أحد يهود اليمن ينشد المراثى من كتاب فى يده ، بينما جلس حوله اربعة آخرون من اليمنيين وقد ارتفع عويلهم واهتزت أجسامهم . . وبدا أنهم أكثر المصلين صدقا فى عبادتهم ، اذ لم يكونوا يلقون بالا لمن حولهم .. وانما كانوا منصرفين الى مناحتهم .. اما بقية الحشد فكانوا يتحرقون شوقا للقتال .. وأما الجمع الذى كنت أقف وسط صفوفه ، أى بعيدا عن غيرهم ، عند نهاية الحائط امام دار المفتى الكبير ، فقد كان فيه هناك منشـد يرتل الصلاة (واعتقد انه من اليهود السفارديين) وكان يتوقف ويتلفت حوله

يغضب اذا سمع أذني ضوضاء .. وبما ان الضوضاء كانت مستمرة ، فانه كان هو الآخر يتوقف باستمرار .. ولكن كان عليه دائما أن يبدأ من جديد حيث اكتشفت ان الضوضاء صادرة عن شباب المستوطنات المتحمسين رغم ضعف ايمانهم .. وبدا أن الجموع التي غص بها المكان اما اناس مثلى ممن دفعهم الى الحضور الفضول او الاهتمام بما يجرى ، واما من شباب المستوطنات الذين كانوا مثل الآنسة « س » ـ متلهفين على الحضور .. واستمر اليمنيون في نحيبهم وصلاتهم ، ولم يكونوا يلقون بالا بأحد ، كما ان أحدا لم يكن يكترث بهم .. انه مشهد غريب !

رأيت هالكين ، الشاعر ، وكان مهتاجا .. شأن كل من تحدثت اليهم (كان هناك فارشافير ، أكثر الناس هدوءا ، ولكنه هو الآخر كان غاضبا) .. ويبدو أن الذى أثارهم الى هذا الحد هو الباب الجديد في الحائط .. وأذكر اننى رأيت مسدسا ولكنى لا أعرف الرجل الذى كان يحمله في جيبه . ولقد وقع فعلا حادثان فقط ، اتهم في أولهما أحد المسيحيين العرب ـ الذى لم أشاهده ـ بأنه كان يهزأ بالصلاة .. وسمعت صيحات تقول « نصرانى » ، ورأيت شباب المستوطنات يتدافعون نحوه ، ولكن تمكنت الشرطة من اخراج الرجل سالما .. ثم جاء عربى يرتدى الملابس البيضاء وأخذ يتجول في المكان ثلاث مرات .. ولم يفعل أى شىء وانما كان يمشى فقط .. واعتقد ان أحدا لم يتحرش به في المرة الاولى ، رغم ارتفاع همهمات الغضب .. وفي المرة الثانية خرج سالما بدون مشقة .. ولكن عندما ظهر في المرة الثالثة لم يسمح له رجال الشرطة بالدخول واعادوه من حيث أتى .. وكان هذا التصرف منتهى الحكمة منهم حيث لم يكن ذلك الحشد في حالة تجعله يقاوم أى نوع من « الحوادث » دون أن تقع متاعب خطيرة .. ولكن صيحات الشباب اليهودى في هذه الحوادث كانت أكثر ازعاجا لصلوات اليهود مما كان يمكن أن يحدثه مرور العربى في الشارع .

وعاد اليهود اليوم يسيرون في مواكب .. انه استفزاز بالغ ، ولكن العرب لا يفعلون شيئا .. منذ نصف ساعة مر ، جيش صغير من الرواد في طريقهم الى الحائط وهم يحملون العلم القومى الصهيونى ، على ما أعتقد .. ولكننى لم أتمكن من رؤيته حيث كان ملفوفا .. وتتردد الهتافات من كل جانب فيثير أعصابى .. وكان الابطال الشبان الذين مروا من هنا منذ لحظة ، يسيرون تحت حراسة مشددة من الشرطة ، فكان يتقدمهم ضباط الشرطة على خيولهم ، كما كانوا أيضا وراءهم ، وكانت تسير الى جانبهم قوة من الشرطة المشاة .. انها العدة لحرب ثلاثية الأركان .. ياله من عرض للغباء ، ذلك الذى يتمثل في هذا الموقف بأجمعه !

السبت ١٧ من أغسطس مر العيد اليهودى المقدس دون كوارث ولكننا الآن وسط عيد اسلامى هو مولد النبى . وقد حضر بالأمس جمع غفير من المسلمين الى ساحة حائط المبكى ، ومزقوا الكتب المقدسة ، وانتزعوا الالتماسات والشكاوى من صخور الحائط .. ولعل هذا كان متوقعا ، ولكنه فى الواقع كان امرا محتوما .. لم يكن هناك اى يهودى ، ولم يصب أحد .. سيصاب اليهود بحالة رهيبة من الهياج .

الاحد ١٨ من اغسطس . اصيب صبى يهودى فى شجار نشب بالامس بين العرب واليهود .. يسوء الجو العام كل لحظة ..

الأربعاء ٢١ من اغسطس — توفى الصبى بالامس .. سيجعلون منه شهيدا .. هذا أمر مؤكد ، كالقضاء والقدر .

الجمعة ٢٣ من اغسطس الموقف هنا رهيب .. وكل يوم اتوقع ما هو أسوأ .. ولا يمكن أن يستمر الوضع هكذا دون أن تحدث ثورة .. لقد توفى يوم الثلاثاء الصبى اليهودى الذى طعنه عربى عقب مشاجرة فى ملعب كرة القدم (ويبدو ان اليهود هم الذين بدأوا الشجار .. أو هكذا قيل لى) .. واقيمت جنازته يوم الأربعاء .. وكان على الأبطال الشبان بطبيعة الحال أن ينتهزوا هذه الفرصة .. انها فرصة رائعة لكى يربطوا كل شيء بحائط المبكى وبالهياج العام . وتجمع ألفان أو ثلاثة آلاف من أولئك الأبطال الشبان ، يحملون أعلامهم ويحاولون ان يشقوا طريقهم عبر بوابة يافا للوصول الى المدينة العربية . وكانت مشاعر العرب تتأجج منذ أن رفع اولئك الاغبياء علمهم على حائط المسجد ، ولذلك كان من المتوقع ان يحدث أى شيء . . وقامت الشرطة بسد مسالك الطريق فاندفع اليهود نحو نطاق الشرطة يحاولون أقتحامه ، وردهم رجال الشرطة على اعقابهم باستخدام الهراوات . . فأصيب حوالى خمسة وعشرين يهوديا ، ولم تكن اصابة أى منهم خطيرة جدا .

وبعد أن انتهيت من تسجيل يومياتى ، نزلت الى الطابق الأول لتناول الغذاء ، وهناك سمعت مجموعة جديدة من الشائعات المثيرة للقلق . وقرابة منتصف الثانية خرجت لشراء بعض السجاير ، فأخبرنى البواب العربى بالمنزل أن المفتى الاكبر قد مر منذ لحظات متجها ليخطب فى الجموع المحتشدة حول أسوار المدينة .. ولما كان المفتى لا يميل كثيرا للظهور على الملأ واننى لم أشاهده ولو مرة واحدة رغم اننى أقيم على مسيرة خمس دقائق من الحرم ومن داره، فقد عدت مسرعا الى الفندق لآخذ قبعتى ، ووجدت أحد

اصدقائى (وهو موظف بريطانى) وخرجت معــــه لنرى ما ينبغى ان نراه وأجتزنا الشارع الضيق وسط جموع من الشعب بين مهتاج وخائف ، متجهين الى بوابة دمشق .. وهناك وجدت انفسنا وسط حشد من القرويين العرب بدا انهم كانوا فى نوبة من الاهتيـاج .. وقد تعـالت صيحاتهم يهتفون « اسلامية » .. واخترقنا صفوفهم دون اية متاعب .. فقد كان رفيقى يجيد التحدث بالعربية ، ووصلنا الى ناحية شارع أعتقد أن اسمه شــارع النبى .. كان الغوغاء يتجمعون أمامنا مباشرة، وكان من المؤكد أن شخصا ما ، فى مكان ما ، سيقوم بعد فترة قصـــيرة جدا بسفك الدماء .. كانت المنازل على الجانب الآخر من هذا الحشد ، والمواجهه لنا ، ملكا لجماعة من يهود جورجيا ، وهذا ما علمته فيما بعد .. وكان اهتمام المحتشــدين منصرفا اليهم .. وامام منازل اليهود اصطف ســــتة من رجال الشرطة لا يحملون سوى هراوات قصــيرة وتجمع الغوغاء بسرعة مذهلة ، اذ لم يستغرقوا سوى دقيقتين او ثلاث دقائق ليحتشــدوا امامنــا . وكانت الصيحات التى تعالت فى الجو كافية لكى تثير الرعب والخوف .

ولاحظ رجل يرتدى الملابس التى يرتديها عرب المدينة وقوفنا هذا فدفع بنا بقوة الى مدخل احد المساكن وقال « قفا هنا » قفا هنا .. بالله عليكم .. ان هؤلاء الفلاحين سيقتلونكما فوقفنا فى مدخل المبنى ، واتخذ موقفه أمامنا وصاح بخشونة فى الغوغاء ، وطلب اليهم العودة لان كل شىء على ما يرام .. فلم يكترثوا له ، واندفعوا نحو رجال الشرطة الذين انهالوا عليهم فى شجاعة بعصيهم القصيرة .. ولكن ماذا تجدى مثل هذه العصى فى مثل هذا الوقت كان الفلاحون يلوحون بالعصى والهراوات والمدى ، وباسلوب الغوغاء اخذوا يتدافعون غير آبين لمحاولات وقفهم .. واندفع بعضهم من تحت بطون الخيل، وانسل آخرون من بين رجال الشرطة الستة ، وفى لحظة سمعنا فرقعة مدوية ، وسمعنا صرخة طويلة .. ولم يكن فى وسعنا سوى أن نجرى ، فانطلقنا نجــرى .

عدت الى بوابة دمشق بعد ربع ساعة من مغادرتها ، وعندما وصلت اليها كان الغوغاء العرب قد اختفوا (فكثير من الاعمال التى لايمكن تغييرها لايتطلبه تنفيذها سوى قليل من الوقت) .. وجدت زجاجا مهشما ، وخشبا محطما وحطاما من كل نوع يغطى الشارع وشاهدت دماء أمام منازل يهود جورجيا وعلى عتبات بيوتهم .

كان يهود القدس يفوقون العرب فى عددهم بنسبة الضعف . وكان من المعروف للجميع ان اليهود لديهم أسلحة نارية ، بينما لم يكن لدى العرب

شيء منها . وفي هذه الأحوال بدا انه من المحتمل أن تفوق اليهود عددا وعدة الى جانب تنظيمهم وتركيزهم ، قد يتيح لهم الحاق ضرر كبير بالعرب لمدة يوم أو يومين ، ان ارادوا ذلك وشعرت مما رايته وسمعته فى الاسبوع السابق بأن هذه قد تكون رغبة جانب كبير منهم .

أسفرت الاضطرابات التى نشبت يوم الجمعة عن مقتل الكثيرين ، بين العرب واليهود واستمرت نزوة القتل لمدة أسبوع . وبعد انتهاء هذا الارهاب كان التقدير الرسمي للخسائر التى وقعت فى القدس هو مقتل ٢٩ يهوديا و٣٨ عربيا ، واصابة ٤٣ يهوديا وواحد وخمسين عربيا بجراح .. وهنا ، وكما حدث فى حيفا ، كانت خسارة العرب أسوأ الى حد بعيد ، ولكن يبدو واضحا ان الخسائر التى الحقها اليهود بالعرب كانت أساسا فى مجال الدفاع عن النفس .

وفى أعقاب أهوال الجمعة فى القدس ، وقع ما هو أسوأ بكثير .. فقد نشبت ثورة مروعة فى الخليل راح ضحيتها اربعة وستون يهوديا من الطائفة الدينية المحافظة وسقط فيها اربعة وخمسون جريحا .. وكانت الخليل واحدة من المدن اليهودية المقدسة ، وكانت تضم دائما عددا صغيرا من السكان اليهود منذ القرون الوسطى ، ولم يكونوا صهيونيين على الاطلاق ولم تعرف فلسطين من هم أكثر منهم براءة وبعدا عن الايذاء .. وكان كثيرون من بينهم من اليهود الشرقيين ، وكانوا جميعهم متدينين ، ولم تكن لهم أية صلة بالتطرف الصهيوني بل كانوا يعيشون فى سلام ومودة مع جيرانهم العرب الى ان جاء هذا اليوم .. ولكن عندما علم العرب فى الخليل بأن اليهود يقتلون العرب فى القدس وأن مسجد عمر أصبح مهددا جن جنونهم . لم تكن قوة الشرطة البريطانية فى الخليل كافية ، بل لا يكاد يمكن القول بانه كان لها وجود حيث لم يكن هناك سوى ضابط واحد بريطاني مع عدد هزيل من رجال الشرطة المحليين . وبالرغم من جهود وشجاعة هذا الضابط الوحيد (مستر ر.و. كافيراتا) اقتحم بالغوغاء مساكن اليهود ، ومرت ساعة حافلة بالقتل والطعن والحريق والسلب والنهب وكان من بين الضحايا اليهود بعض الصبية الأمريكيين الذين كانوا قد وصلوا منذ وقت قصير للالتحاق بالكلية الحاخامية ، ومات منهم ثمانية او تسعة فى الخليل ، وأصيب مثل هذا العدد بجراح خطيرة .

لا يسعني في هذا التاريخ المتاخر الدخول فى تفاصيل كل قصص ذلك الأسبوع فقد رويت مرارا ولم تتكرر أهوال الخليل فى أى مكان آخر ، غير ان هجوما قام به الغوغاء العرب على اليهود المتدينين فى صفد يوم الخميس التالى .

كان من البشاعة بحيث يمكن وصفه بأنه مذبحة أخرى .. وفي حيفا ، حيث كان اغلبية اليهود ذوى نزعة صهيونية حديثة وكانوا يحتلون موقعا استراتيجيا ممتازا على قمة النيل منى العرب بخسائر فادحة .. ووقع نفس الشيء في بعض المستعمرات ، بينما كاد البعض الآخر يدمر .. وبانتهاء القلاقل ، سجلت القوائم البريطانية الرسمية ما وقع من خسائر ، تبين منها ان عدد القتلى ٢٠٧ والجرحى ٢٧٩ ، فكان من بين القتلى ٨٧ عربيا (بين مسيحى ومسلم) و ١٢٠ يهوديا ، وكان الجرحى من العرب ١٨١ ومن اليهود ١٩٨ جريحا .

لقد كان من الصعوبة التى تكاد تصل الى حد الاستحالة ، أن يحاول المراسل الصحفى أن يكون دقيقا أو مجردا من الانفعال .. كنت أعيش لا أعرف طعما للنوم أو الراحة ، أتناول القليل من الطعام ، وكنت على وشك ان انهار نتيجة للارهاق البدنى .. ولكن كان هناك ما هو أكثر من ذلك .. لقد كنت ناقما على الصهيونيين لأنهم — كما أعتقد — قد جلبوا هذه الكارثة .. وقد صدمت بوحشية العرب فى غضبهم ، كما روعنى عجز الحكومة البريطانية . كنت أعلم أن السلطات الاسلامية تحاول اخماد العاصفة ، وان المسئولين البريطانيين يبذلون قصارى جهودهم أمام الصعاب المروعة .. وكنت افترض أيضا أن الزعماء الصهيونيين المسئولين (ولم يكن أحد منهم موجودا بفلسطين وقتئذ) قد بذلوا ما فى وسعهم .. ولكن كان كل شيء من حولى دليلا مرئيا على فشلهم . ورغم انني قضيت جانبا كبيرا من حياتى وسط مشاهد العنف واننى ألفت منظر الدماء وموت الرجال ، لم أتغلب ابدا على اشمئزازى لمثل هذا المشهد حتى لو بدا — كما حدث فى الكثير من المنازعات التى شهدتها — ان ضرورات تاريخية قد فرضته .. ولكن هنا فى تلك البلاد الصغيرة التعيسة التى لا تجاوز فى حجمها بالنسبة لبقية العالم البنان بالنسبة للجسم ، لم أكن أستطيع أن أرى أية ضرورات تاريخية على الاطلاق .. لقد كانت البلاد صغيرة ، مأهولة فعلا بسكانها ، فلماذا لا يتركها الصهيونيون لشأنها ؟ .. انها لن تتسع مطلقا لعدد من اليهود يمكن معه البدء فى حل المشكلة اليهودية .. بل

ستظل دائما فريسة لتلك الاهوال الجامحة التى كنت اشـهدها كل نهار وكل مساء : فقد كان الدين والعنـــاد الدينى الابدى يضمنان عدم حل المشكلة الى الأبد .. وبدت الأرض المقدسة أقرب ماتكون الى جحيم على وجه الأرض لم أر مثيلا (٣٩) له من قبل .

بريطانيا تستسلم للصهيونيين

وردت بريطانيا بأسلوبها العتيق على هذه الثورة . بأن أوفدت لجنـة تحقيق .. وكان الحكم الذى أصدره سير والترشو ، مثل ســير توماس هايكرافت من قبله ، أساسا لصالح العرب .. لم يكن هناك فى المذابح أى تخطيط أو سبق اصرار .. كان المفتى فعلا قد حشد رأى العرب والمسلمين دفاعا عن الحائط .. وكان هــذا شـيئا مشروعا .. حقيقة أنه كان فى وسعه ، أو أنه كان يتعين عليه ، أن يكبح بعض صور التطرف فى الانفعال العربى الذى كان يصاحب حملته ، ولكنه لم يكن هو الذى حرض الغوغاء العرب ضد اليهود .. لقد كان من عادة الفلاحين أن يحضروا الى القدس أيام الجمعة .. واذا كانوا قـد جاءوا فى ذلك اليوم المشـئوم ، الخامس والعشرين من أغسطس ، وهم مسلحون بالهراوات والمدى والعصى ، فانه لم يكن هو الذى طلب منهم ذلك . لقـد كان هناك مثيرون ومحرضـون مؤثرون فى البلاد ، ولكنهم كانوا يتصرفون بمعزل عنه .. وكان أحدهم قد سلم رسالة الى زعماء قرية « قبلان » بالقرب من نابلس ، وقد جاء فيها : « سيدور القتال يوم الجمعة القادم ، الثـامن عشر من ربيع ، بين اليهود والمسلمين .. وعلى كل مسلم أن يحضر الى القدس للمساعدة .. والسلام عليكم وعلى شبابكم » .. كانت الرسالة تحمل توقيع المفتى .. ولكن تبين أنه توقيع مزور .. لقد وقعت أشد الثورات دموية فى أجزاء فلسطين التى كان فيها نفوذه أضعف ما يكون .. وفى القدس نفسها ، كانت الخطب التى يلقيها هو وغيره من كبار رجال الدين قبل وبعد صلاة الجمعة تتميز بطابع المسالمة والتهدئة بصورة جلية الى حد أن بعض المستمعين شعروا بما يدفعهم لأن يعتلوا المنصة ليحضوا المصلين على عدم الالتفـــات الى أولئك الذين يخونون قضية المسلمين . وأكد شو « ان نداء وجهه المفتى فى هذا اليوم

الى اخوانه المسلمين بأن يتسلحوا بالرحمة والحكمة والصبر لأن الله مع الذين يتذرعون بالصبر .. كان هو فى تقديرنا بعد أن أخذنا بعين الاعتبار الثورات التى وقعت ، وانفعال الشعب بصورة خطيرة والشائعات التى اخذت تتردد على الشفاة عن وجود مخططات ضد الأماكن المقدسة انه نداء شجاع جاء فى وقته المناسب ، كان له بوجه عام أثره فى الحيلولة دون وقوع المزيد من الاضطرابات (٤٠) .

وقالت اللجنة انه اذا كان يتعين عليها أن تبرز سببا واحدا مباشرا ومحددا لهذا العنف ، فان هذا السبب هو تلك المظاهرة اليهودية عند حائط المبكى أما عن السبب العام ، فتقول اللجنة انه لولا مآخذ العرب السياسية والاقتصادية على الانتداب ككل ، لما وقعت هذه الاضطرابات، أو لما كانت فى حالة وقوعها قد وصلت الى أبعاد الذى وصلت اليه بالفعل (٤١) »

وصعق الصهيونيون لتلك النتائج التى توصل اليها شو . ولكن بعد تسعة أشهر ، كان غضبهم أشد من جراء ذلك الحكم الذى قضت به لجنة ثانية برئاسة سير جون هوب سيمبسون . لقد كانت مهمته هى استقصاء مصادر القلق العربى ، وهما الهجرة واستيطان الأراضى ، وكان رأيه ، الذى أعرب عنه بشكل أكثر قوة من سلفه شو ، هو انه يجب العمل على تقليصهما بمنتهى الشدة ، كما يجب اقامة مجلس تشريعى .

فبدا أن العنف العربى كان مفيدا .. ولكن ثار الصخب فى المعسكر الصهيونى على جانبى المحيط الاطلنطى ، وتمكن عن طريق ممارسة الضغط القوى فى مركز القوة العالمى أن يحمل الحكومة البريطانية على التنكر لما طلب من مبعوثيها الكبيرين وفى خطاب موجه الى الدكتور وايزمان — وهو الذى وصفه العرب بالخطاب الأسود أذعن رئيس الوزراء رامزى ماكدونالد للمطالب الصهيونية ، وتتمثل فى استمرار الهجرة واستيطان الارض بكامل قوتهما ، وعدم استئناف المفاوضات الخاصة بالمجلس التشريعى التى كانت قد توقفت بسبب الاضطرابات ، استئنافا جديا ، لمدة سنوات ..

وكانت دبلوماسية وايزمان لا تزال هى السلاح الرئيسى للصهيونية ، ولم يكن العنف العربى ليضارعها ، وكان من الممكن أن يكون كذلك لو أن العرب استخدموه بطريقة أكثر تنظيما وعزما . وكتب المؤرخ الاسرائيلى يهوشع بوارث عن انفجار يافا يقول « من الصعب تحديد ما كان يمكن أن يحدث لو ان الاضطرابات العنيفة لم تتوقف ، ولكن من العسير ان يفوت المرء فهم الانطباع بأن بعض التطورات التى تبدو ايجابية من وجهة النظر العربية كان من الممكن أن تحـــدث قبل موعدها بعشر ســنوات » وبعد (مذبحة ١٩٢١) أخفقت محاولة اصلاح توازن السياسة البريطانية لصالح العرب ، ولكن ـ على الأقل ـ اضطر الصهيونيون للاذعان لهذه المحاولة . وبعد عام ١٩٢٩ استطاعوا أن يسحقوا هذه المحاولة فى مهدها حيث كانت لديهم عندئذ القوة والثقة بالنفس اللتان تتيحان لهم تحقيق ذلك ، وخلال الحكومات المتلاحقة أخذت الســياسة البريطانية تتبنى بصورة متزايدة قدسية السوابق والتقاليد التى كان من الصعب أن تتنصل منها ..

وفى العشرينيات، لم تحقق محاولات التوفيق من جانب السياسيين أى تقدم فمقاومة الشعب ، رغم تعصبها وضخامتها كانت تفتقر الى المساندة والى الهدف ولم تكن تؤدى الا الى اثارة الآمال التى سرعان ما تحطمت .. وكانت الفكرة التى نبتت فى ذهن أحد الوعاظ المتجولين هى أنه لابد أن يكون هناك زعماء جدد ، وأن تكون هناك أساليب جديدة متطرفة .

ملاحظات ومراجع الفصل الثانى :

(١) سيرتوماس هايكرافت « لجنة التحقيق فى الاضطرابات بفلسطين فى مايو ١٩٢١ » — صفحة ٤٤ . كل العرض الذى قدمناه عن أعمال العنف منقول بأكمله عن تقرير هايكرافت

(٢) نفس المرجع ، صفحة ٢٧ .

(٣) نفس المرجع ، صفحة ٥٤ .

(٤) نفس المرجع ، صفحة ٥٣ .

(٥) يهوشوا بورات « بزوغ الحركة الوطنية الفلسطينية العربية ١٩١٨/١٩٢٩ » لندن ١٩٧٤ .

(٦) نفس المرجع ، صفحة ٥٦ .

(٧) نفس المرجع ، صفحة ٥٦/٥٧ .

(٨) نفس المرجع ، صفحة ٤٥ .

(٩) انجرامز « أوراق فلسطينية ١٩١٧ — ١٩٢٢ — بذور النزاع » نفس المرجع صفحة ١٢٢ .

(١٠) نفس المرجع ، صفحة ١٢٢ .

(١١) أنظر أهارون كوهين : « إسرائيل والعالم العربى » ب نيويورك ١٩٧٠ ص ٦٠

(١٢) « التاريخ الحاضر » . نيويورك — أكتوبر ١٩٢١ — المجلد الخامس عشر .

(١٣) « المجلة المعاصرة » — لندن ، مايو ١٩٢٠ ، العدد ٦٣٣ .

(١٤) « المراقب اليهودى ومجلة الشرق الاوسط » لندن ، ٨ مايو ١٩٥٩ .

(١٥) أنظر « بورات » ، نفس المرجع ، صفحة ٥٣ .

(١٦) نفس المرجع ، صفحة ١٢٥ .

(١٧) أنظر جيفريز « فلسطين : الحقيقة والواقع » ، نفس المرجع صفحة ٤٥٦ .

(١٨) أنظر انجرامز ، نفس المرجع ، صفحة ١٢٣/١٢٤ .

(١٩) باربور ، نفس المرجع ، صفحة ١١١ .

(٢٠) كريستوفر سايكس « مفترق الطرق الى اسرائيل » لندن ١٩٦٥ ص ٨٣ ، ١٢٤

(٢١) يهوسافت هاركابى «قنبلة زمنية فى الشرق الاوسط» — نيويورك ١٩٦٩ ، ص١٩

(٢٢) « تقرير عن الاحوال فى فلسطين » لندن ١٩٢٥ — ص ١٩ .

(٢٣) لورد بيل « تقرير اللجنة الملكية » — ٢٢ يونية ١٩٣٧ ص ٩٢

(٢٤) معاريف (صحيفة اسرائيلية) ٢ نوفمبر ١٩٧٣ .

(٢٥) بورات ، نفس المرجع ، ص ١٢١ .

(٢٦) نفس المرجع ، صفحة ١٥٩ .

(٢٧) الكيالى « تاريخ فلسطين الحديثة » (باللغة العربية) ، نفس المرجع ص ١٧٨ ، ١٩٥ ، ٢١٠ ، ٢٧٣ . و « المقاومة العربية فى فلسطين » بقلم ناجى علوش (بالعربية) — بيروت ١٩٦٩ — صفحة ١١٣ .

(٢٨) الكيالى ، نفس المرجع ، صفحة ١٩٥ .

(٢٩) نفس المرجع ، صفحة ٢٠٨ .

(٣٠) نفس المرجع ، صفحة ٢٨٥ .
(٣١) بوراث ، نفس المرجع ، ص ٢٥٥ .
(٣٢) سيرجون كمبل ـ انظر « سيروالترشو : لجنة التحقيق فى اضطرابات فلسطين فى اغسطس ١٩٢٩ » ـ ص ١٠٤ .
(٣٣) سيرجون هوب سيوسون . تقرير للحكومة البريطانية ، ٢٠ اكتوبر ١٩٣٠ صفحة ١٩ .
(٣٤) دافيد هاكوهين ـ مقال هاأرتز (صحيفة اسرائيلية) ١٥ نوفمبر ١٩٦٩ .
(٣٥) انظر فنسنت شيهان : « تاريخ شخصى » . نيويورك ـ ١٩٣٥ ص ٣٩٠ .
(٣٦) « القدس ومكانها فى التاريخ الاسلامى والعربى » ـ معهد الدراسات الفلسطينية بيروت ١٩٦٠ ـ صفحة ٣٢ .
(٣٧) بوراث ـ نفس المرجع ـ ص ٢٥٠ .
(٣٨) لجنة شو ـ نفس المرجع ـ ص ٤٥ .
(٣٩) شيهان ـ المرجع ، ص ٣٩٢/٤٠٨ .
(٤٠) لجنة شو ـ نفس المرجع ، ص ٧٨ .
(٤١) نفس المرجع ـ ص ٩٦ و ١٥٥ .
(٤٢) بوراث ، نفس المرجع ، ص ١٣ .

الفصـــل الثــالث

الثورة العربية ، ١٩٣٥ ــ ١٩٣٩

الشيخ عز الدين القسام ــ الفدائى الأول

فى الثـــانى عشر من نوفمبر عام ١٩٣٥ رأس رجل أشيب اللحية ، فى الستين من عمره يرتدى العمامة والعبـــاءة اللتين يرتديهما رجال الدين المسلمون ، اجتماعا سريا بالحى الفقير بحيفا . وكان الشيخ عز الدين القسام قد أدرك أنه لا يستطيع التأخير أكثر من ذلك : وها قــد حلت ســاعته فالبريطانيون يحكمون فلسطين منذ ثمانية عشر سنة وأصبح حـــكمهم المكروه منـــذ البداية غير محتمل تماما لعدم مراعاته مصـــالح العرب . فالهجرة اليهودية المشروعة ــ ناهيك عن الهجرة غير المشروعة لفلسطين ــ كانت قد بلغت رقما قياسيا قوامه ٦١٫٨٤٤ مهــاجرا كل عام . وزادت المبيعات من الأراضى ، ففى عام ١٩٣٣ لم تتعد هذه المبيعات ٦٧٣ صفقة ولكنها بلغت عام ١٩٣٤ ما يصل الى ١٫١٧٨ صفقة . واخذ عدد متزايد من الفلاحين يفقدون مصدر رزقهم ومع هــذا قدر بالفعل عام ١٩٣١ أن ٣٠ الف عائلة من الفلاحين (١) يشكلون ٢٢٪ من اجمالى عدد السكان فى الريف قد أصبحوا معدمين وكان متوسط الدخل الفردى فى هذا القطاع السكانى سبعة جنيهات اســـــترلينية كل عام بالمقـــارنة الى أربعة وثلاثين جنيها استرلينيا للفلاحين اليهود الذين حلوا مكانهم . كما كان متوسط مديونية العائلة الفردية ما بين ٢٥ و ٣٠ جنيها اســترلينيا وهو نفســه متوســط مكسبها (٢) . وحينما طرد الفلاحون من الأرض أخذوا يندفعون أفواجا للعيش فى المدن الآخذة فى النمو السريع ، سعيا وراء العمل . وانتهى المطاف بكثير منهم عمالا يقومون ببناء المساكن للمهاجرين الذين كانوا يكنون لهم الكراهية ويشعرون بالخوف منهم . وكانوا يعيشون فى بيئة قذرة . ففى حيفا القديمة كان هناك ١١ ألفا منهم اكتظت بهم أكواخ أقيمت من الصفيح لا يتوفر بها ميــاه أو وسائل صحية أولية . وكان آخرون ممن لا عائلات لهم ينامون فى العراء وكانت مثل هذه الأوضاع تتناقض على نحو مهين مع

المساكن الأنيقة التى يبنيها الفلاحون ليسكن فيها القادمون الموسرون أو حتى مع احياء العمال اليهود التى كانت تقوم بتجهيزها جمعيات البناء اليهودية (٣) . ولم يكن ما يكسبونه يزيد عن نصف أو مجرد ربع الاجر الذى يحصل عليه نظراؤهم اليهود ، بل ان قصر العمل على العمال العبريين بدأ يحرمهم تدريجيا حتى من هذا . ومع حلول عام ١٩٣٥ تمخضت أزمة اقتصادية ، ترجع جزئيا الى الهجرة المتدفقة بلا قيود ، من بطالة بين العرب على نطاق ينذر بكارثة . ولم يكن من الممكن أن يكون هناك موقع أكثر خصوبة من هؤلاء الفلاحين الحضريين المعدمين لانتشار المثل العليا التى بذر بذورها الشيخ القسام بجد ، ودأب ، تلك المثل التى قرر اتباعه حتى تلك الأمسية من أمسيات شهر نوفمبر القتال والموت فى سبيلها ، وأن يفعل ذلك حتى غضون أسبوع .

وقد بدا أن حياته كلها كانت عبارة عن استعداد لهذه التضحية السامية بالنفس . وكان الشيخ القسام مواطنا سوريا ينحدر من أصل رفيع ورع ... درس بالجامع الأزهر ، مركز التعليم الاسلامى العظيم بالقاهرة .. وتتلمذ على يد محمد عبده ، ذلك العالم الشهير الذى بشر بأن العرب يمكن أن يكونوا أهلا لمواجهة التحدى الذى يمثله العالم الحديث من خلال اتباع تعاليم الاسلام بعد اصلاحها وبعث الحيوية فيها من جديد . ولم يقتصر الشيخ القسام بعد عودته الى سوريا على التدريس بكلية ابراهيم ابن أدهم الدينية وانما اشترك أيضا فى حركات وطنية شتى . فكان قائدا عسكريا فى احدى الثورات التى قامت ضد الحكم الفرنسى فى سوريا . وحينما صدر الحكم باعدامه فى تلك البلاد فر الى حيفا عام ١٩٢٢ . وهناك قام بالتدريس والقاء المواعظ وممارسة العمل الخيرى كما انشأ مدرسة ليلية لتعليم الأميين . وحينما عين « مأذونا بمحكمة حيفا الاسلامية دأب على حضور احتفالات الزواج التى كانت تقام بالأماكن الريفية المحيطة بحيفا . واخذ يتحرك بسهولة فى أوساط الفلاحين والعمال ، وأصبح على علم بدخائل نفوسهم . وأخذ يحذر فى كل مكان يذهب اليه من خطورة الغزو الصهيونى ويثير روح الوطنية الحقة ، ويحث على انهاء الضغائن والانقسامات التافهة ومحاكاة أبطال الاسلام فى عهوده الأولى . وكانت تتردد على لسانه دائما آيات القرآن لا سيما تلك الآيات التى تدعو للنضال والتضحية . وأخذ يبحث فى كل مكان يذهب اليه ، وعلى وجه الخصوص داخل المساجد ، عن حواريين له بين الرجال الورعين الذين يخشون الله . وأمكنه عبر السنوات وبقدر كبير من الدقة والاناة أن يجمع حوله مجموعة من الأتباع

وبلغ عددهم اجمالا نحو ثمانمائة رجل تلقى مائتان منهم تدريباً عسكريا . واقسموا على التضحية بأرواحهم فداء لفلسطين . وكان من المتوقع منهم التزود بالأسلحة بالجهد الشخصى والمساهمة بكل شيء آخر يمكنهم تقديمه من أجل القضية . وكانوا يتلقون تدريباتهم خلسة تحت جنح الظلام .

وبعد انتهاء الاجتماع فى حيفا شق القسام ومجموعة من زملائه المقربين وجميعهم تقريبا من الفلاحين ـ طريقهم داخل البلاد متجهين الى تلال حنين التي تكسوها الأشجار . وكانوا قد باعوا حلى زوجاتهم وبعض متاع بيوتهم لشراء بنادق وذخيرة فكانوا يقضون سحابة النهار فى كهوف تقع بالقرب من قرية ياعيد يؤدون الصلاة ويتلون القرآن . وفى الليل كانوا يهاجمون اليهود والبريطانيين وكان هذا هو قصدهم على الأقل لأنه لم يكد يتاح لهم الوقت الكافى للقتال . اذ لم تضيع السلطات وقتا بعد أن بلغها نبأ ذلك عن طريق احد المخبرين ، فأرسلت قوة مختلطة من جنود بريطانيين وعرب تعاونهم طائرات استكشاف للقبض عليهم وفوجىء الشيخ القسام بهذا ولم يدر ماذا يفعل ، فاضطر الى الاشتباك فى معركة سابقة لأوانها . وحينما طلب منه الاستسلام صاح قائلا « لن استسلم أبدا فهذا جهاد فى سبيل الله والوطن » . « واخذ يحض أنصاره على الاستشهاد » . وحينما رأى الجنود العرب أمر رجاله بمهاجمة البريطانيين والا يطلقوا النار على بنى جلدتهم الا فى حالة الدفاع عن النفس فقط . وبعد معركة استمرت عدة ساعات خر القسام وثلاثة أو اربعة من رفاقه صرعى وألقى القبض على الباقين .

وكانت هذه ثورة عقيمة استمرت لبرهة وجيزة من وجهة نظر عسكرية ولكنها أثارت ثائرة الجماهير الفلسطينية .. وكانت ايذانا بالمضى فى طريق العصيان المسلح . ولم يكن الشيخ القسام يأمل فى أكثر من هذا . ولكن اليهود فشلوا فى فهم مغزاها . فالشيخ القسام كان فى نظرهم شخصية غير سوية نتاج تعصب غير طبيعي ، ودرويشا مجنونا . وعجزوا عن أن يدركوا أنه قد أصبح للفلسطينيين بدورهم الآن وبعد انقضاء خمس عشرة سنة على وفاة بطلهم النموذجية اسطورة خاصة بهم كانوا بحاجة اليها ، اسطورة شبيهة بأسطورة جوزيف ترومبلدور فقد كان هناك قلائل ماتوا والبندقية فى يدهم مثل الشيخ القسام ، وسنفعل ذلك آلاف المرات من بعده . ولكنه كان الفدائى الأمثل الذي يضحى بحياته بما اتصف به من عمق التقوى

واحساس لا يخطىء بأن هناك مهمة منوطة به ، وتعمده بلوغ الذروة بالسعى الى الموت . واتبع الشيخ القسام تقليدا بدأ مع غزو غربى سابق لفلسطين . فقد كان الصليبيون هم الذين واجهوا الفدائيين الأوائل ، من مقاتلى الطائفة الاسماعيلية الثورية ــ الذين هبطوا من معاقلهم الجبلية شمالى سوريا ليثيروا الرعب فى قلوب زعماء الفرنجة أو الأمراء المسلمين المتنافسين وهم الحشاشون الأصليون ــ الذين يسود اعتقاد بأنهم كانوا يقومون بمهامهم الانتحارية تحت تأثير المخدرات . ويعتبر الشيخ القسام بالنسبة للكفاح ضد غزاة القرن العشرين المثل البارز فى تقليد البطولة يتبعه الفلسطينيون حتى يومنا هذا ، وهو تقليد يتسم عادة بالتهور وأحيانا بسمو المبادىء وبالعزيمة وأحيانا أخرى بعدم الجدوى والخسة ولكنه على العموم غير مجد . واذا نظرنا الى شخصية الشيخ القسام بعد مرور أربعين عاما على موته عانى الفلسطينيون خلالها الهزيمة والتشتت على نطاق لم يكن حتى الشيخ القسام يتصور حدوثه سنجد ان ما اتصف به من ايثار للغير قد جسد كل المشاعر المثيرة للشفقة لشعب لم يتخل قط عن الكفاح ولكن كتبت عليه حتى الآن الهزيمة نتيجة تقصيره علاوة على تفوق عدوه .. ويبدو أنه يعرف هذه الحقيقة دون وعى منه .

وقد اشترك جمع غفير من المواطنين فى تتبع جنازة الشيخ القسام فى حيفا . ودفن بقرية ياجور التى تبعد عن حيفا عشرة كيلو مترات ، وقد حمله المشيعون طيلة الطريق سيرا على الأقدام . وهتفوا بشعارات معادية للبريطانيين والوطن القومى اليهودى ، وقذفوا رجال البوليس بالأحجار ، ورفعت فى موكبهم على سبيل التحدى أعلام عدة دول عربية . وكتبت جريدة الاهرام بالقاهرة تقول : « أيها الصديق والشهيد العزيز لقد سمعتك وأنت تلقى مواعظك من فوق المنابر وتدعونا لحمل السلاح ولكنك اليوم وأنت تعظ الناس من رحاب الله أكثر بلاغة فى موتك مما كنت فى حياتك » .

وكان هذا حدثا قوميا بحق . ولكن زعماء الأمة الرسميين غابوا عنه وكان غيابهم طابعا مميزا . فقد خشوا المشاعر التى أطلق لها الشيخ القسام العنان واحسوا فى استشهاده تأنيبا لهم وتهديدا موجها ضدهم . وكانوا على حق فى ذلك لأن الصهاينة يدينون فى نجاحهم المذهل لظروف شتى لعب فيها عامل المصادفة دورا فى معظم الأحيان الا أن من أبرزها عدم كفاءة الزعماء العرب وعجزهم عن تحمل المسئولية واستهتار وانانية الطبقات الثرية ، وتضخمت فى ذلك الوقت نقاط الضعف

التى نددت بهـا جريدة الكرمل التى تصدر فى حيفا قبل ذلك الحين بربع قرن من الزمان . اذ ان تسعة اعشار جميع الأراضى التى تملكها اليهود تقريبا حتى عام ١٩٢٩ باعها ملاك مقيمون بعيدا عن وطنهم . ولكن بالرغم من وجود « الخطر الصـــهيونى » المتزايد على نحو مطرد بعد ذلك كان هنـــاك الملاك المقيمون الذين ارتكبوا جريمة بيــع الأرض وفى ذلك الوقت ايضـــا مارس المرابون العرب نشـــاطهم عـلى نحـو كريه للغـاية اذ كان صغار الملاك مضطرين الى الاقتراض بمعـدلات فائدة تصل الى نسبة ٥٠ ٪ ٥ وكانوا يتشبثون بقطع من أراضيهم الصغيرة . ولكنهم يضطرون فى النهـاية تحت ضغط عبء ســاحق من المرابين الى التخلى عنهـا لليهود المتعطشين للاراضى (٤) وكانت المكاسب التى يحققونها يسـيل لهـا اللعاب فأصبح الدونم من الأراضى على مقربة من مســـتعمرة ريشون لوزيون ، وكان ثمنه أساسا ثمانية شلنات وتراوح ثمنه ما بين عشرة جنيهات وخمسة وعشرين جنيها مع حلول أوائل الثلاثينيات .

وبطبيعة الحال أضحى المددون عن طواعيــة للتراث العربى منبوذين من المجتمع من الناحية الرسمية فقد جرت العادة على ادانتهم فى كل مناسبة مواتية . . فى المؤتمرات التى تعقـد للنظر فى « الخطر الصـــهيونى » فى بيانات الحملات الانتخابية للاضرابات السياسية المتنافسة ، وفى اللعنات التى كانت تصبها عليهم السلطات الدينية . وبالتالى أصدر حزب الاستقلال عام ١٩٣٢ بيانا يعلن فيه انه لا مستقبل للامة الا اذا اغلقت الأبواب فى وجه الهجرة ومنع بيع الأراضى ، ويؤكد المندوبون فى جدية استياءهم من السماسر وبائعى الأراضى ويرون أن الوقت قد حان لتوقيع العقاب عليهم والتصدى لهم (٦) . . وتحولت كلمة سمسار فى مفردات اللغة الفلسطينية الى نوع من أنواع السباب منذ ذلك الحين . وفى عام ١٩٣٥ حينما اخذ معدل الهجرة وبيع الأراضى يتجاوز كل الحدود جمع الحاج امين الحسينى مفتى البلاد نحو اربعمائة من رجال الدين . . وائمة المساجد والقضاة ورجال الافتـاء والوعاظ والمدرسين . . ثم أصدروا فتوى تحرم بيع الأراضى للمهاجرين اليهود وتندد بمرتكبى هذه الجريمة باعتبارهم مرتدين عن العقيدة الدينية ويستحقون الحرمان من الدفن فى مقابر المسلمين .

ومع هذا بالرغم من أن بائعى الاراضى والوكلاء ربما يتعرضون لكل أنواع السباب اللفظى قلما تعرضوا لمـا هو اسوأ من هذا وهنا التقويم الحقيقى للزعامة الفلسطينية وأمسى بيع الأراضى الموصـــوم بالخيانة اتهاما مميزا

تقذف به جماعة من الوجهاء جماعة أخرى وأتاح الفرصة للذيوع أسلوب في النفاق على نحو كبير ، ولم يحدث أى نبذ اجتماعى حقيقى ولا فرض أى عقوبة ملائمة . اذ أن الأشخاص الذين كانوا أشد الناس صخبا في ادانة هذه الممارسة كانوا هم أنفسهم الغارقين حتى أذقانهم فيها . ووصف أحد المعاصرين فى عام ١٩٢٨ المندوبين الذين حضروا المؤتمر الفلسطينى السابع بأنهم عبارة عن تشكيلة غريبة جدا من الأشخاص تضم « جواسيس وسماسرة يبيعون الأراضى للنهود » (٧) . وقالت جريدة « العرب » عام ١٩٣٢ انه من الغريب حقا أن تبدى اللجنة التنفيذية العربية مثل هذا الغضب ازاء بيع الأراضى العربية فى الوقت الذى يقوم فيه بعض أعضائها ببيع الأرض . فلا يجب اذن أن تواجه جهود بعثة بريطانية لتقصى الحقائق واماطة اللثام عن المدى الكامل لهذه الصفقات التجارية الكريهة مقاومة من جانب الزعامة العربية واليهودية على حد سواء واذا كان بائعوا الأراضى قد سمحوا فقط مع حلول عام ١٩٤٨ بانتقال زهاء ٦٫٦٪ من مساحة فلسطين الطبيعية الى يد اليهود — وان كانت هذه المساحة تمثل نسبة كبيرة جدا من أراضيها الصالحة للزراعة (٩) — فان الضرر الذى ألحقوه بالنفس الفلسطينية أكبر من أن يقدر ولكن لا ريب انه كان جسيما فقد كان بائعو الأراضى يمثلون رد الفلسطينيين على الصهيونية فى أشد صور تدمير الذات . اذ كانوا أكثر الاجزاء مرضا فى كيان سياسى استبد به المرض على نحو جعله يزداد تدهورا . بدلا من استرداد قواه التى كان كيان آخر أصح قليلا منه ، خليقا بتحقيقها اذا تعرض لضغط عليه . اذ أنه لم يحصن نفسه ضد ما يمثله بائعو الأراضى من مرض ولكنه سمح لهذا المرض بالانتشار . فبدلا من أن يؤدى عدم ولاء البعض الى تعزيز الوطنية البناءة لدى الأغلبية الساحقة ، ساهم فى زيادة خطورة الشقاق الحزبى وتبادل الاتهامات ، وعدم الثقة الأمر الذى سمم الكفاح الفلسطينى بأسره وسلوك الساسة بصفة خاصة .

وحينما أذكى استشهاد الشيخ القسام مشاعر المواطنين كان الساسة لايزالون يعارضون استخدام العنف .. ولكنهم فشلوا فى طرح أى بديل . وبدلا من أن يشتركوا فى تشييع الجنازة ارسلوا برقيات عزاء فاترة .. وهرعوا الى المندوب السامى ليبلغوه بأنه اذا لم يقدم لهم بعض التنازلات فى الوقت المناسب فانهم سيفقدون ما قد يكون باقيا لهم من نفوذ وسيفلت زمام الموقف من أيديهم (١٠) .

بداية الثـورة :

اليكم ما وقع على وجه الدقة . أن معظم كتب التـــاريخ التى ألفها صهاينة تصف الأحداث التى وقعت بين عامى ١٩٣٦ و ١٩٣٩ بأنها مجرد « اضطرابات » ، ولكن تضحية الشيخ القسام بنفسه كانت ايذانا بالثورة الكبرى فى رأى الفلسطينيين . وكان من رأى أحد الجانبين أن ما حـدث عبارة عن تفجر نشـــاط قطاع الطرق والقتل والسرقة ، وأنه عـودة الى ما اسماه وايزمان « بربرية الصحراء » ، التى يهاجم فى ظلها اناس بدائيون ، بتحريض من ساسة تجردوا من الضمير ورجال دين متعصبين وفاشية دولية ، حضارة شامخة لا يريدونها أو لا يفهمونها واعتبره الجانب الآخر نضالا وطنيا مجيدا من الطبيعى أنه يبحث عن عون خارجى أينما يجـده لمواجهة مغير أجنبى .

ولا ريب فى أن « الاضطرابات » تضمنت بعض السمات التى وضعهـا الصهاينة ولكن سماتها الرئيسية كانت مختلفة تماما على حـد قول المؤرخ البريطانى جون مارلو الذى لا يمكن اعتباره مراقبا منحازا بأى حـال من الأحوال . يقول مارلو : « ان الجذوة الخامدة الأخيرة لروح الجهاد تحولت على نحو أو آخر الى لهيب متوهج ازداد تألقا وبطولة خلال بضع سنوات قصيرة قبل ان يخمد الى الابد سواء كان مرد هذا التحول الى الدعاية التى اطلقها الحاج أمين الحسينى وأنصاره أم الى قوى اخرى أكثر تعقيدا واقل وضوحا . وعلى الرغم من ان الثورة العربية نشبت بناء على تحريض من الزعماء السياسيين لفلسطين العربية ، وبتوجيههم الى حد ما وبالتأكيد من جانبهم ، ـ كانت فى واقع الأمر ثورة فلاحين اســـتمدت حماسـها وبطولتها وتنظيمها ومثابرتها من مصـــادر بداخلها لم تفهم قط على الوجه المناسب ولم تعرف اطلاقا وكانت هذه الثورة احدى المنعطفات المسـدودة للقومية العربية التى قدر لها الفشل شأنها فى ذلك شأن ثورة فيصـل فى الصـحراء (تلك الحركة التى حررت شـــبه الجزيرة العربية من حـكم العثمانيين بالتحالف مع البريطانيين) وان كان مصيرها هو النسيان على عكس ثورة الصحراء لانه لم يكن هناك لورنس آخر يخلدها . ويذكرنا هذا بمـا قاله ج . م . تريفليان عن ثورة اخرى قـام بها فلاحـون : « كان استعداد الفلاحين لتلبية النداء والموت فى سبيل عقيدتهم شيئا جديدا .. ويشبه تسجيل ما جرى فى هذه الحملة الموجزة رفع الستار حيث يمكننا ان نرى وراءه ــ للحظة ــ حياة الفلاحين القديمة ونحن لا نرى من خلال هذه

النظرة الخاطفة بلاده ريفية ولكننا نرى ايمانا ومثالية وحيوية دافقة وحبا للحرية وازدراء للموت فهل كان صغار الملاك من الفلاحين والمزارعين فى أجزاء أخرى من انجلترا يشبهون هؤلاء الرجال الذين تحدث عنهم سومرسـت أو أنهم كانوا فى كل مكان آخـر من طبقة أدنى وينزل الســتاز وتختفى الحقيقة الى الابد (١٢) .

ولم تكن الزعامة الفلسطينية هى العقل المدبر لهذه الثورة مثلما لم تكن العقل المدبر لأعمال الشغب والمذابح التى شهدتها العشرينيات . ومع هذا فانها سلمت بصلتها بما حـدث حتى تحتفظ بســيادتها ، وان كان مدى صلتها بالأمر موضع خلاف . فالثورة كانت تلقائية الى حد كبير من حيث منشأها . وكان الدافع الرئيسى لها من أسفل ، من أكبر القطاعات سكانا وأدناها مكانه ، من الفلاحين الذين كانوا أشد القطاعات معاناة من الغـزو الصهيونى . وكانت حربا شعبية وان لم يكن بالمعنى الايديولوجى الحديث لانها لم تجعل من الاطاحة بالنظام الاجتماعى القائم هدفا رئيسيا لها أوحتى هـدفا ثانويا . وكانت تمثل مرحلة جديدة فى المقـاومة العربية التى بدأت قبل ذلك التـاريخ بخمسة عشر عاما من خلال الثورات المحلية الخرقاء : وكان طابع هذه المرحلة هو اسـتخدام العنف المسلح على نحو مسـتمر ومنظم وهادف لا ضد اليهود فحسب ولكن أيضا ضد البريطانيين الذين كانوا السبب فى قدومهم الى هـذه البلاد . وبعد أن حاول ساستهم طيلة عشرين عاما وبلا جدوى اكتساب عطف بريطانيا المعادية أو غير المبالية من خلال اتباع أساليب دستورية اضطر المواطنون الى الحديث بالبنادق بدلا من الحديث بالشفاه (١٣) على حد قول أحدهم . وكانت هذه الثورة نتاج تطور غامض وان كان طبيعيا تماما .

تلك هى طبيعتها الاساسية وان اقتربت بأشكال أخرى من المقاومة . فبالنسبة لاستخدام العنف جرت أعمال شغب فى المدن أكثر مما شـهده العهد السابق . علاوة على نزوع جديد الى انتهاك القانون ، موجه ضد اليهود بقدر ما هو موجه أيضا ضد العرب . أما بالنسبة لعدم اسـتخـدام العنف فقد شهدت البلاد طولا وعرضا اضرابا لمدة ستة أشهر واكتسب الكفاح الفلسطينى مع امداده بالمال والسلاح والمتطوعين من دول مجاورة لأول مرة طابعا عربيا شاملا بحق ، ولم يكف عن التفـاهم والتعاظم خلال السنوات التالية ومرت الثورة بمرحلتين .

وبدأ الأمر كله عـلى نحو غير مترابط تمـاما ففى ١٥ ابريل عام ١٩٣٦

أوقف العرب عددا من السيارات المارة بطريق طولكرم - نابلس وسرقوا فقط العرب والأوروبيين ولكنهم أطلقوا الرصاص على راكبين يهوديين وأسفر الأمر عن مقتل احدهما على الفور واصابة الآخر بجراح مميته . وفى الليلة التالية واجه عربيان يعيشان فى كوخ يقع بالقرب من مستوطنة يهودية نفس المصير وقبل أن يلفظ أحد الضحيتين انفاسه الأخيرة وصف مهاجميه بأنهم من اليهود ، وكانت جريمة القتل على الأرجح انتقاما لمقتل اليهوديين فى اليوم السابق . وعقب ذلك بيوم حول المشيعون جنازة أحد القتيلين اليهوديين الى مظاهرة . وقذفوا رجال البوليس بالاحجار وألقوا خطبا نارية وهتفوا « نحن لا نريد هذه الحكومة بل نريد جيشا يهوديا » . وفى نفس الوقت تعرض العرب لضرب مبرح أو قذف بالحجارة أو تحرش وفى ١٨ ابريل انتشرت شائعات فى يافا بأن عربيين قد لقيا مصرعهما فى تل أبيب المجاورة . وقام الغوغاء ، العرب فى المنطقة المجاورة بالهجوم على اليهود ، الامر الذى أسفر عنه وقوع عدد منهم قتلى ، واستمرت أعمال الشغب لمدة ثلاثة أيام أخرى . بصفة عامة قتل ستة عشر يهوديا وقتل رجال البوليس خمسة من العرب .

وشكلت لجنة وطنية فى نابلس يوم ٢٠ أبريل ، وقبل انقضاء شهر ابريل كانت هناك أجهزة مشابهة قد ظهرت الى الوجود فى جميع مدن فلسطين وقراها الكبيرة . وكانت هذه اللجان فى الاصل مستقلة الى حد كبير عن الزعامة التقليدية التى تعرضت لنقد مرير بسبب عدم مبالاتها ما يجرى . حرضت احدى الصحف قائلة « اشعلوا نيران الثورة لتتخلصوا من عبودية البريطانيين .. لقد استيقظ الزعماء فى مصر . فأين يختبىء زعماؤنا (١٤) . ولكن سرعان ما انضمت هذه الزعامة الى المتطرفين فى نابلس فى دعوتهم للقيام باضراب عام . وتكونت لجنة عربية برئاسة المفتى واتحدت كلمة الشعب غير اليهودى بأسره .. المسيحيون منهم والمسلمون .. المعتدلون والمتطرفون فى شكل من الوحدة لم يسبق له مثيل مصممين بحزم على مواصلة الاضراب حتى تغير الحكومة البريطانية سياستها « على نحو جوهرى تتمثل بدايته فى وقف هجرة اليهود » . وبعد ذلك ببضعة أيام أصدرت اللجان قرارا يقضى بعدم دفع البلاد كلها للضرائب . وتلا ذلك توقف أصحاب عربات النقل وسيارات نقل الركاب وسيارات الأجرة عن العمل ، وكان معظمهم يعتمد على أرباحه الشهرية فى دفع ما عليه من أقساط . وفى شهر يونيو قام كبار موظفى الحكومة ومن بينهم القضاة بتقديم مذكرة الى المندوب السامى تضمنت اصرارا على أن عدم ثقة العرب فى

بحكومه امر له مبرراته . وعلى الرغم من أن لجان التحقيق المتتاليه أثبتت صحه المظالم التى حاقت بالعرب الا انهم شكوا من عدم بذل جهد كبير لاصلاح الامر . ووصل العرب الى حاله اليأس وليست الاضطرابات الحالية الا تعبيرا عن هذا اليأس . وبدا ان المذكره التى وصفت بأنها فريده من نوعها فى تاريخ اداره المستعمرات البريطانيه قد اثرت على السلطات بما تضمنته من اقتناع عميق عبرت عنه باعتدال .

ولم تامر الحكومة بوقف الهجره بل أنها على العكس من ذلك حينما حل ميعاد استعراض ما يسمى بطاقة الاستعانه الاقتصاديه للاشهر السته التالية فوضت الوكالة اليهوديه فى ادخال مهاجرين جدد بنسبه تزيد ١٠٪ عن عدد المهاجرين الذين سمح لهم بدخول البلاد فى الاشهر السته السابقه ذلك لانها لم تكن عبثا فى اتاحه الفرص للصهاينه لاتهامها « بالاستسلام للعنف والارهاب » وتمت موازنة هذا السخاء من خلال احد تلك البيانات المطمئنه التى كان من الملائم صدورها جنبا الى جنب مع الاجراءات الموالية للصهيونيه . فقد اعلن انه سيتم ايفاد لجنه تحقيق أخرى الى فلسطين . وبدون ان تتأثر العرب بتكرار ما شاهدوه كثيرا من قبل ، أكد العرب من جديد انهم لن ينهوا اضرابهم الا اذا توقفت الهجره الى أن تقوم اللجنة بتسليم تقريرها وعززت اجراءات رسمية اخرى من تصميمهم؛ فقد استغلت الاداره الاضراب كمبرر فأقرت انشاء ميناء يهودى فى تل أبيب على الرغم من ان هذا المشروع لم يكن له اى مبرر اقتصادى ، نظرا لوجود ميناء فى يافا على بعد ميلين . ولكنه كان مطمعا صهيونيا منذ عهد هرتزل . وكان معنى هذا أنه لا عودة لأصحاب المراكز فى يافا للعمل .. والى الابد . كذلك قامت الادارة بنسف ٢٣٧ منزلا فى قلب المدينة التجارية فى يافا . وكان الهدف الظاهرى لهذا العمل هو تجميل المدينة ، ولكنه فى واقع الأمر اجراء أمن عنيف على نحو غريب . وقد ساعد الضحايا البالغ عددهم ستة آلاف نسمة على تضخم مدينة الاكواخ ، المكونة من صفائح البترول القديمة التى أخذت تظهر فى مكان قريب ، مثل تلك المدينة التى قامت فى يافا والتى قام الشيخ القسام بتجنيد أتباعه منها .

وكانت استراتيجية اللجان الوطنية تقضى بقصر نشاط الاضراب على المقاومة السلبية والعصيان المدنى على غرار ما فعله غاندى . ومما أكد مواصلة الزعامة ممارسة الهدوء بعد بدء الاضراب بفترة طويلة ما ورد فى تقرير المندوب السامى الى وزير المستعمرات من أنه « من الحقائق الملفتة للانظار أن الصيحة الدينية لم تنبعث ابان الستة أسابيع الماضية وأن

خطب صلاة الجمعة كانت معتدلة الى حد أبعد كثيرا مما كان يمكن أن آمل فيه أثناء فترة تشهد اثارة عميقة لمشاعر المواطنين هو المسئول الرئيسي عن هذا » .(١٥) . ولكن العنف غير الرسمى استمر واكتسب أشكالا جديدة ، مثلما كان الحال فى الهند تماما فقد أقدم مثيرو العنف على حرق المحاصيل واقتلاع الأشجار وبث الألغام فى الطرق ووضع المتاريس بها ، واخراج القطارات الحديدية وقطع أسلاك التلغراف وتخريب خط البترول الذى ينقل البترول العراقى عبر شمال فلسطين حتى محطة ضخة فى حيفا . وانتشرت جرائم احراق المبانى عمدا ، وكثرت عمليات قطع الطرق وطواف الشباب بالمدن لضرب منتهكى الاضراب وثقب اطارات سيارات السائقين الذين يعملون بدلا من السائقين المضربين عن العمل . وقتل عدد كبير من اليهود بوسائل وحشية وساخرة فى بعض الاحيان . هكذا كان العرب ، فالمسلمون كانوا يزورون الشخصيات البارزة المشتبه فى فتور تعاطفها مع القضية وكانوا يبتزون تبرعات من رجال الأعمال أو ملاك الأراضى الاغنياء ، ولم يكونوا يكتفون غالبا بالتهديد وحده ، وانما كان الباعث الرئيسى على العنف غير الرسمى والثورة الكبرى التى تمخضت عن ذلك هو العصابات التى بدأت فى ممارسة نشاطها بالمناطق التى تكثر بها التلال حتى البلاد .

وانضم الى هذه العصابات متطوعون من بقية دول العالم العربى ، كان اشهرهم فوزى القاوقجى . وقد تزوج فيما بعد من امرأة المانية واعتبر صعود نجم هتلر تطورا يمكن أن يستفيد منه العرب فى كفاحهم ضد بريطانيا ، وهو رأى ساد بين عدد كبير من معاصريه . ولكن لم يكن بمعنى هذا ولا معنى الدعاية الموالية للعرب الصادرة عن كل من ايطاليا والمانيا أن الثورة كانت مجرد سلاح للفاشية الدولية مثلما وصفها على هذا النحو الصهاينة والمتعاطفون معهم من الغربيين .

وربما تكون الثورة قد حصلت على تأييد خارجى ولكن مصدرها كان فلسطين لا سيما بين هؤلاء الفلاحين الذين قامت الطائرات البريطانية مع تصاعد لهيب هذه الثورة بالقاء منشورات عليهم تحثهم فيها على التخلى عن العنف ووضع ثقتهم فى اللجنة الملكية . وكان لهم زعماء محليون ، أشهرهم عبد الرحيم الحاج محمد ، وهو تاجر ينحدر من أصل وطنى عريق . وكان يفتقر الى المهارات الحرفية أو التدريب الذى وصفوه بانه وطنى مستقيم الخلق استمد وجوده من تربة بلاده . وكان يتمسك بدستوره الأخلاقى حيث أصر على أن يراعى أنصاره مشاعر الشعب الذين يقاتلون

بأسمه بينما كان زعماء آخرون مثل الشيخ القسام تحركهم دوافع دينية ، ومثلما حمل الصهاينة أسماء عبرية قديمة أطلقوا هم أيضا على أنفسهم أسماء أبطال الاسلام فى عهده الأول الذى اتسم بالنضال . وكان آخرون ، بنسب متباينة ، يقاتلون دفاعا من أجل الحرية من جانب ، وقطاع طرق من جانب آخر يغلفون مكاسبهم غير المشروعة ببريق الثورة . وكان هناك خمسة آلاف من هذه الانماط مجتمعة فى المرحلة الأولى من الثورة . وكان تنظيمهم بدائيا وكانوا يمارسون عملياتهم بدون الخضوع لسيطرة مركزية وانقسموا الى فئتين بصفة عامة . كانت هناك فئة تمارس نشاطها طيلة الوقت فى التلال وتشكل النواة الصلبة التى تحملت عبء القتال . وكان هناك أيضا المنضمون الى الثوار لبعض الوقت .. وكانوا ينضمون اليهم لفترات قصيرة جدا حينما تكون عند حاجة الى تعزيزات ولكنهم كانوا يقيمون فى قراهم معظم الوقت لامداد الثوار بالطعام وأيضا بالمعلومات عن تحركات البوليس والقوات العسكرية وعن الفلاحين الذين يعملون ضدهم . وكان تدريبهم بدائيا أيضا . وحينما اتجهوا الى التلال لم يكن الكثيرون منهم قد حملوا أسلحة من قبل . وحينما تم الاستيلاء على أسلحتهم تبين

انها خليط من أسلحة قديمة لم تعد مستعملة بالشرق الأوسط منذ نهاية الحرب العالمية الأولى . ولم يكن لديهم معدات مثل مدافع الهاون أو المدفعية . ولكن ما افتقدوه من معدات عوضوه بالعزم والتصميم . ويقول أحد الفلسطينيين ممن شاركوا فى هذا النشاط أن القاوقجى ذهل بسبب « البطولة والبسالة والتضحية بالنفس » التى وجدها رهن اشارته اذ كان يكلف عشرة أشخاص بأداء مهمة ، ولكن « عشرات كانوا يقدمون أنفسهم له ، كأنهم مدعوون ، لا للمخاطرة بحياتهم وانما لحضور حفل زفاف أو مأدبة (١٦) . ويسجل أحد المراقبين البريطانيين انهم غالبا ما كانوا يشهدون مقتل زملائهم ، ربما مقتل اثنى عشر منهم فى كل مرة ، بنيران المدافع الرشاشة أو القصف الجوى ومع هذا يعودون للقتال بعد ذلك بيوم

أو يومين وقد أخبر وفد من كبار الشخصيات الدينية المندوب السامى أن هجوم هؤلاء الرجال على صاحب الجلالة عمل انتحارى ، ولكن الانسان اليائس كما تعلم فخامتك كثيرا ما يقدم على الانتحار (١٨) » أضف الى ذلك أن السلطات البريطانية ، أو بعضها ، كانت تدرك تماما هذه الدوافع . كتب نائب قائد الجويبرسى من فلسطين يقول « ان العصابات لم تكن تخرج للنهب والسلب ولكنها كانت تقاتل لأنها كانت تؤمن أنها حرب وطنية للدفاع عن بلادها ضد الظلم والتهديد بالسيطرة اليهودية (١٩) » .

وكانت السلطات التركية قبل ذلك التاريخ بتسعة عشر عاما تجلد الفلاحين أو تسجنهم لالتقاطهم المنشورات التى كانت تسقطها الطائرات البريطانية وتحثهم فيها على « الانضمام الينا نحن الذين نقاتل لتحرير جميع العرب من ربقة الحكم التركى حتى يمكن ان تستعد المملكة العربية ثانية ما كانت عليه فى عهد آبائكم (٢٠) » . الا انهم كانوا قد ضاقوا ذرعا فى الوقت الحاضر بالتعهدات التى لم تتحقق من جانب حلفائهم فى يوم من الأيام وكانوا يريدون هذا التعبير الايجابى عن حسن النية ، الذى لم تكن الحكومة على استعداد لابدائه ، وذلك بوقف الهجرة خلال الفترة التى تقوم فيها اللجنة الملكية بتحقيقاتها : ولا ريب فى أن الاضطرابات كانت ستنتهى فى غضون أربع وعشرين ساعة من وقف هذه الهجرة وقد سعى الحكام العرب ابان أشهر الصيف للتوسط بين البريطانيين والفلسطينيين، ولكن بلا جدوى الى أن أعلنت الحكومة فى شهر سبتمبر عن اعتزامها ارسال فرقة من القوات الى فلسطين . ومن ألواضح أن المتمردين كانوا سيواجهون وقتا عصيبا منذ ذلك الحين فصاعدا علاوة على ذلك أصبح عبء الاضراب الذى أستمر لمدة ستة أشهر ، أصبح ملموسا فى المدن . وكان امتداد الاضراب عن العمل ، حتى موسم شحن الحمضيات — وبذلك تحرم البلاد من أهم ما تجنيه البلاد من الصادرات — كفيل بتصدع الاجماع فى الرأى ، ومرة أخرى تدخلت الدول العربية ، وناشد ثلاثة ملوك مجتمعون ، الفلسطينيين ان يوقفوا احتجاجهم وان يعتمدوا على النوايا الطيبة « لصديقتنا » الحكومة البريطانية . ودعت اللجنة العربية العليا بدورها المواطنين الى وضع حد للاضراب والاضطرابات .. ومطالبة جميع أفراد الأمة بالتوجه فى ساعة مبكرة من الصباح الى أماكن عبادتهم لاقامة شعائر الصلاة على أرواح الشهداء وشكر الله على ما انعم به عليهم من القوة والصبر والجلد . وجاءت الاستجابة عاجلة .. فقد استؤنف العمل فى كافة أرجاء البلاد وتوقفت أعمال العنف . وهكذا انتهت المرحلة الأولى من الثورة وقد أسفرت عن مقتل نحو سبعة وثلاثين بريطانيا وتسعة وستين يهوديا مقابل زهاء الف عربى . ولم يحقق العرب ، شيئا أكثر مما بدأوا به ، الا وهو ايفاد لجنة ملكية أخرى . وفى نفس اليوم الذى غادرت فيه هذه اللجنة بلادها متجهة الى فلسطين أعلنت الحكومة عن جدول زمنى على نحو غير معتاد يتعلق بالمهاجرين اليهود . واحس العرب بالنقمة حيال ذلك فقرروا مقاطعة اللجنة .. ولم ينه العرب تلك المقاطعة الا قبل الاسبوع من أنتهاء اقامة اللجنة التى امتدت ثلاثة أشهر .

بريطانيا توصي بالتقسيم :ــ

ونشرت اللجنة النتائج التي توصلت اليها في شهر يوليو عام ١٩٣٧ . وكان الباعث على ذهول العرب ان اللجنة أوصت بالحل الذي ظل العرب يحاربونه لسنوات والذي برهن في النهاية على أن الفقرة المتعلقة بالضمانات « في وعد بلفور عديمة القيمة مثلما زعموا دائما » اذ أوصت اللجنة بتقطيع أوصال وطنهم وتقسيم فلسطين الى دولتين واحدة يهودية والأخرى عربية .

وربما توقع المرء استئناف أعمال العنف مباشرة . ولكن هذا لم يحدث لأنه بالرغم من توصيات اللجنة كان تحليل تقريرها عن أعمال الانتداب يتضمن الكثير الذي يؤيد ادعاءات العرب . فلأول مرة يتضمن التقرير اعترافا رسميا بأن الانتداب غير عملي في واقع الأمر وأن تحقيق أهداف اليهود يضر بالضرورة بحقوق أهل البلاد . وأكد بصراحة انه لا يمكن الابقاء على السياسات الحالية إلا من خلال سلوك طريق القمع الظالم « وحده ومع هذا ، لما كان البديل الذي اقترحته اللجنة بدلا من ذلك أقل ملاءمة من وجهة نظر العرب الذين اكتفوا بادىء ذى بدىء بأن يدعوا منطق الحقائق بتولي الصراع لحسابهم .

حقا ان التقسيم لم يكن بسبيله الى التنفيذ ولكن كل هذه الأشياء التي حملت العرب على التمرد في المقام الأول ــ كالهجرة وبيع الأراضي والاجراءات التي تتم عن المحاباه مثل انشـــاء مينــاء يهودي تماما في تل أبيب ــ استمرت بلا هواده . وضاق بهذا ذرعا على وجه الخصوص الفلاحون في منطقة الجليل التي تتميز بخصوبتها وازدهارها نسبيا . إذ انه بموجب التقسيم كانت هــــذه المنطقة ستدخل ضمن نطاق الدولة اليهودية فضلا عن أن التقسيم كان سينفذ ، إذا اقتضاه الأمر ، من خلال تبادل السكان على نحو « اجباري » (٢١) . وقد ذكر المسئولون البريطانيون المحليون في تقاريرهم ان أبناء الجليل تلقوا المقترحات « بصدمة تقرب من عدم التصديق » . ذلك لأنهم افترضوا أنهم أول من سينتزع ملكيتهم لأراضيهم وسيتركون ــ على حد وصفهم للامر ــ ليهلكوا في مكــان ما بالصحراء (٢٢) » . وبالتالي حينما عين مستر أندروز مندوبا بمقاطعة الجليل أعرب العارفون بطباع الفلاحين علنا عن قلقهم على حياته . فقــد كان الجليل موطنا لبعض تلك الجمعيات السرية السياسية والدينية التي كان الشيخ القسام قد شجع على انشــائها . ويرى اليهود ان اندروز ،

الذي كان على صلة وثيقة باللجنة الملكية ، كان المسئول الوحيد الذى أدار شئون الإنتداب كما يجب . ولذلك لا يبعث على الدهشة انه كان فى نظر العرب التجسيد الحى لتعايشهم الوشيك . وفى نهاية شهر سبتمبر غادر ، ومعه اثنان من رفاقه ، الكنيسة الانجليلية فى الناصرة . وبينما كانوا يرتقون الأرض الضيقة المنحدرة الممتدة من الكنيسة برز أربعة رجال مسلحون فضاح اندروز فى رفيقيه : « انجوا بحياتكما » . وكان من الأفضل لو أنهم حاولوا شق طريقهم بالقوة لأنهم حينما بادروا بالفرار اعترضت طريقهم مجموعة اخرى برزت من حارة جانبية . وسقط اندروز مضرجا بدمائه وأصيب أحد (كونستبلات) البوليس أيضا بجراح قاتلة .

الثورة تبلغ أوجها :

وبدأت المرحلة الثانية من الثورة . وفى هذه المرة انغمس فيها منذ البداية الزعماء التقليديون ، أو على الاقل المفتى ، على نحو أوضح من ذى قبل : اما الى أى مدى اختار لنفسه القيام بهذا الدور فأمر موضع جدل من الأفضل ان يترك للمؤرخين المتخصصين . ولكن من المؤكد انه أضحى أمرا أكثر صعوبة بالنسبة له أن يدعو للتصالح اذا كان يرغب فى الاحتفاظ بزعامته للشعب الفلسطينى . اذ لم يعد الاعتدال بالاتجاه الواقعى على المستوى السياسى فالمعتدلون أصبحوا يلقون الازدراء . وقبل أن تنشر اللجنة الملكية تقريرها انفصل آل النشاشيبى – الذين يمثلون الجناح المنادى بالمصالحة فى الزعامة ويمثلون المنافسين الألداء لآل الحسينى ، أسرة المفتى ، – عن اللجنة العربية العليا حتى يمكنهم انتهاج خط مستقل اذا لقى التقرير قبولا لدى الرأى العام الغربى . ولكنه لم يكن مقبولا الى الحد الذى جعل نجم المعتدلين يأفل تماما وحياتهم يتهددها رصاص المتطرفين . وتعرضت الادارة لضغط عنيف من جانب الصهاينة والصحافة البريطانية والبرلمان لحملها على اعتبار اللجنة العربية العليا والمفتى على وجه الخصوص مسئولين عن أعمال العنف . حقا انه فى الوقت الذى أنكر فيه الساسة أن لهم أى دور فيها حيث وصفوها بأنها تعبير تلقائى عن سخط المواطنين لم ينددوا بها أو يسعوا لكبح جماحها . ومع هذا لم يكن هناك أى سبب يبرر أن تنسب مسئولية اغتيال اندروز للجنة العربية العليا – والواقع ان هذا الحادث كان المناسبة الوحيدة التى أعربت فيها اللجنة عن أسفها لوقوع الجريمة . ولكن عقب ذلك ببضعة أيام ألقى القبض على مائتين أو ثلاثمائة من أعيان البلاد وأودعوا السجن وتم حل اللجنة ونفى أعضائها الى جزيرة سشيل ، اذا اعتبرت مسئولة

أدبيا عن العنف وعزل المفتى نفسه رسميا ولكن لم تبـذل أى محاولة للقبض عليه خشية اراقة الدماء فى الأماكن المقدسة التى لجأ اليها . وقد نجح وربما بتواطؤ رسمي فى الهرب الي لبنـان . وكان هـذا الاجراء الاستبدادى بمثابة استفزاز للسكان العرب كلهم . وربما كانت الزعامة التقليدية لا تتمتع حقيقة بقـدر كبير من الاحترام ولكنها كانت الزعامة الوحيدة للعرب وكانت رمزا لتطلعاتهم سواء بحق أم بغير حق . وانعقد فى كل مكان تصميم عنيد . وتدفقت وفود ضخمة على القدس من سـائر أنحاء البلاد لتقديم احتجاج للادارة ».

ونشبت اضطرابات فى أرجاء فلسـطين ليلة ١٤ أكتوبر عام ١٩٣٧ . ومن الجلى أن الثورة قد اكتسبت فى مرحلتها الثـانية درجة أكبر من التنسيق . وتحول اخـيرا القول بأن المفتى هو العقـل الشرير وراء الاضطرابات التى لا يمكن تصديقها . ذلك لأنه اضطر فى النهـاية الي اللجوء الي منفى يتآمر منه نتيجة ذلك النفوذ الذى مارسه على السياسات البريطانية من كانوا يصرون على وصـفه بالتـآمر . وبلغت الثورة ذروة جديدة مع حلول صيف عام ١٩٣٨ ، تجاوزت كثيرا ما وصلت اليه الأمور عام ١٩٣٦ . ففى رسالة بعث بها مراسل جريدة التـايمز اللنـدنية من فلسطين رسم صورة كئيبة لعمليات القتل وحرب العصـابات والسلب والنهب وقطـع الطرق واحراق المبانى ، عمـدا والسرقة « التى انتشرت هناك »(٢٢) . واعاد الي الأذهان ما ذكرته اللجنة منذ عام مضى من أنه : « مما يبعث على السخرية » الافتراض بأنه لم يكن لدى بريطانيا الوسائل التى تمكنها من « مجابهة ثورة على نطـاق ضيق أو غير مزودة بمعدات الحرب الحديثة كهذه الثورة » ولكنه قال فى رسالة أخرى تبعث عـلى الانقباض أنه سـيكون من الضرورى فى القريب العـاجل « اعادة غزو فلسطين » بسبب سير الأمور هناك .

وامتد نفوذ الثوار فى أوج قوتهم حينما بلغ عددهم نحو ١٥ الف رجل الى معظم المنطقة الجبلية الوسطى وفى الجليل والخليل وبير سبع وغزة . وتحولت سلطة الانتداب فى هذه المناطق الى خرافة . وقامت حـكومة « الثوار بجمع الضرائب وانشاء محاكم خاصة بها حيث كانت تحاكم قطاع الطرق الذين كانوا يستغلون قضيتهم أو الجواسيس « والعملاء » الذين كانوا يعملون ضدها . وحقق الثوار أو فرضـوا تعـاون زعماء المجتمع العربى والمدرسين ورجال الشرطة العرب واتخـذ تصديقهم للبريطانيين صورتين : هجماتهم على نطاق ضيق من خلال نصب الكمائن أو القيـام

بأعمال القناصة أو القاء القنابل أو زرع الغـــام فى الطرق ، وفى المراحل الأخيرة خاضوا معارك دفاعية ضارية ضد القوات المطاردة لهم . وكانت التكتيكات التى يستخدمونها هى نفس التكتيكات المستخدمة ضد اليهود الى حد كبير على الرغم من أنهم حققوا بعض النجاحات المفجعة فى هـــذا الشكل الآخر المميز من أشكال الحرب التى كانوا يشنونها ضـــد فواكه العمال اليهود : اذ كانت مستوطنة ما تستيقظ ذات صباح من الأيام لتجد أن المغيرين قد قاموا بقطع ألف شجرة برتقال فى ليلة واحدة .

وكان هذا غزوا من جانب الريف للمدن . ففى هذه المرة هبط الثوار من التلال الى السهول . وقد انتقلوا من اقطـــاعياتهم المحلية ليحققوا لانفسهم سيطرة متشابكة أعرض بكثير . ولم يتحقق لهم السيطرة على القرى التى كانت متعاطفة معهم منذ البداية فحسب وانما تحققت لهم أيضا السيطرة على بعض مدن فلســطين الرئيسية . وارغموا المواطنين فى المدن على استبدال (الكوفية) بالطربوش ، و (الكوفية) غطـــاء الرأس المتهدل لسكان الريف وكان هذا العمل للتمويه لأنه أدى الى زيادة صعوبة معرفة المتمردين المتغلغلين فى المدن ولكنه كان أيضا رمزاً لتأكيد الذات . واشترك الشباب المتعصب فى الحملة التى استهدفت القضاء على عادة لبس الطربوش كغطاء للرأس . فلجأ أفراد الطبقة العليا وكبـــار الموظفين على ارتداء قبعات وحذا حذوهم الأمريكيون والأقليات الدينية أيضا . وكان يكمن وراء هـــذا كله وفقا لتعاليم الشيخ القـــام عـــدم تســـامح بدافع اسلامى للمظاهر المتفسخة المقلدة للغرب وتعين على السيدات المسيحيات التخلى عن أغطية رؤوسهن الأوربية الأنيقة واســـتبدالها بحجاب اذ كانت أغطية رأس المترددات على الكنائس تمزق بنحو مهين . وحظر على النساء ارتداء ملابس ذات أكمام قصيرة كما حظر استخدام أحمر الشفاه .

وكان الثوار يقومون بفرض حصار مادى على المدن . فقد انقض عدة مئات منهم على بيت لحم وحرروا رجال البوليس من سلاحهم ورددوا أغنيات وطنية ثم انسحبوا قبل وصول قوات الأمن ، فى الوقت الملائم لهم . وأغاروا فى نابلس مرتين على بنك باركليز تحت ســـمع وبصر الجنود البريطانيين واستولوا فى بير سبع على خمس وسبعين بندقية و ١٠ آلاف طلقة ذخيرة من مركز البوليس الذى لم يقاومهم . ونقلوا تحـــديهم الى مركز الصراع الدنيوى والدينى وكانت سيطرتهم مطلقة داخل نطاق أسوار

مدينة القدس القديمة المتميزة بالمزيج الاسلامى واليهودى من المساجد الكبرى وحائط المبكى ، وبطابعها الذى يرجع الى العصور الوسطى وأبرزه أزقتها الملتوية . بل إنه حتى فى يافا الواقعة على الشاطىء لم تكن ادارة الانتداب تتمتع الا بالمظهر الخارجى للسلطة . واضطر ثلاثة آلاف مواطن يهودى الى الجلاء عن المدينة .. وأرغم « أعداء » الثورة من العرب على الهرب . وتعرضت مراكز البوليس للاغارة عليها . وكانت تجرى عمليات اغتيال تكاد تكون يومية لم يكن يلقى القبض قط على مرتكبيها الذين كانوا يعودون بسرعة للإختباء وسط الجماهير المجهولة . وكانت الحوانيت تنهب فى وضح النهار . وأرغم السكان على الامتناع عن استخدام الكهرباء لأن شركة يهودية كانت مسئولة عن امداد السكان بها ، وحطمت مصابيح الشوارع وأصبحت مصابيح الغاز تباع بأعلى من أسعارها العادية .

وحدث ذات مرة فى طبرية أن جاء الثوار للبحث عن أكبر عدد ممكن من اليهود لقتلهم انتقاما لانفجار قنبلة - من المفترض أنها يهودية - أسفر عن مقتل عشرات العرب فى أماكن عامة شتى . ففى الساعة التاسعة من مساء أحد أيام شهر أكتوبر دخلت عصابة كبيرة المدينة وكانت قد قطعت قبل دخولها المدينة جميع اتصالات المدينة التليفونية ببقية أنحاء البلاد وبدأت المذبحة بعد ذلك بخمس دقائق وعلى إثر اطلاق صفارة من التلال المجاورة . وفى الوقت الذى كانت فيه احدى الجماعات تهاجم ثكنات البوليس البريطانيين والعرب اشعل آخرون النيران فى المعبد اليهودى والمنازل بالحى اليهودى وقتلوا سكانها وقتل فى هذا الحادث تسعة عشر يهوديا من بينهم ثلاث نساء وعشرة أطفال كان من بينهم أطفال رضع . واستغرقت جهود رجال البوليس ساعتين لطرد المغيرين بعد تعزيز قوتهم فى النهاية ... ولم تكن هذه أكبر مذبحة ولكنها كانت بالتأكيد أكثر المذابح تعمدا منذ بدء العنف الفلسطينى (٢٥) .

بريطانيا « تعيد غزو فلسطين » :-

وتعين على البريطانيين فى واقع الأمر « اعادة غزو فلسطين » . وأصبح لديهم مع حلول خريف عام ١٩٣٨ أكثر من ٢٠ الف جندى فى البلاد . وكانوا قبل ذلك بعام قد طبقوا قوانين الطوارىء التى أصبح بمقتضاها اطلاق الرصاص أو حتى مجرد حمل أسلحة نارية جريمة عقوبتها الاعدام وتولى قادة عسكريون مسئولية الاشراف على مقاطعات عديدة مع اضطلاع

السلطات المدنية بدور المستشارين السياسيين وبعد ان كان الثوار هم المهاجمين حتى ذلك الحين اصبحوا هدفا للهجوم عليهم .. وهكذا تحول التيار ضدهم بلا هوادة . وأصبح النزال قائما بين بنادق المسكيت القديمة الطراز وبين الطـــائرات والعربات المدرعة ، وتكتيكات عصر روبين هود ووسائل الامداد والتموين القابلة للتحرك ، والأسلحة التى تملكها واحدة من أعظم القوى العسكرية فى ذلك العصر . وربما تخلى المتسللون عن المدن مثل مدينة القدس القديمة بدون أن يتعرض لهم أحد مثلما حدث لدى دخولهم هذه المدن .. ولكنهم كانوا يتعرضون لخسائر فادحة فى المنـاطق الريفية المكشوفة وجاء برسالة مقتضبة بعث بها مراسل جـريدة التايمز فى القدس بتاريخ ٣ اكتوبر عام ١٩٣٨ ما يلى « قتل أحد ضباط البوليس البريطانيين وأصيب جنديان بريطانيان بجراح كما قتل عدد من العرب يقدر رسميا بأربعين شخصا الا ان التقديرات غير الرسمية لعدد القتلى هى ستون قتيلا لاقوا مضرعهم خلال اشتباك وقع فى رام الله يوم أمس » .

ويصور هذا الوصف تماما هذا القتال غير المتكافىء فقد كان الثوار يتعرضون لمذابح حقيقية من الجو . وورد بجريدة التـايمز مرة أخرى ما يلى : « من المعتقد أن نحو ١٥٠ قتيلا راحوا ضحية القصف بالطائرات فى ساعة متأخرة من يوم أمس خـلال أهم اشتباك حـدث خـلال العام الحالى . فقد لاحظت احدى طائرات السلاح الجوى الملكى أثناء تحليقها فى جولة استطلاعية تجمع مجموعة كبيرة من الأشخاص بالقرب من دير غسانا .. وهى قرية تقع على التلال الواقعة عنـد سفح جبل شرقى يافا . وطلبت الطائرة مساعدة من الرملة حيث توجد دائما أربع طائرات على استعداد للتحليق فى ظرف دقيقتين من صــدور الأمر لها بالتحرك ووصلت اثنتا عشرة طائرة اضافية .. واشتبكت القوة مع تلك المجموعة حتى حلول الظلام . وأصيبت الطائرات بعدة رصاصات ولكن لم تحدث خسائر فى الأرواح بين طاقم طائرات السلاح الجوى الملكى وعادت جميع الطائرات الى مواقعها سالمة . وقامت القوة الجوية والقوات البرية اليوم بعملية تفتيش دقيقة فى المنطقة حيث شاهدوا دلائل على احتراق جثث ابان الليل . وتم العثور على خمسة عشر جوادا ميتا فدل هـذا عـلى أن بعض أفراد المجموعة كانوا من الفرسان وعثر على بقايا شتى من المجموعة . وقتل الســـلاح الجوى الملكى أربعة أشـخاص . وقابل رجال الحرس الايرلندى مجموعة قتلوا منها ثلاثة أشخاص .. وأصـــابوا عددا كبيرا آخر بجراح (٢٦) » .

وأدت المحاكم العسكرية التى تم انشاؤها لتنفيذ قوانين الطوارىء عملها بتمكن تام وسرعة القوات مثلما أدت القوات مهمتها التعاليم الاسلامية بعدم اعدام أى شخص يزيد عمره على سبعين عاما أو اعدامه خلال شهر رمضان ، شهر الصوم المقدس . ولكن أول حكم بالاعدام انتهك هـذا التقليد بالنسبة للامرين معا . فقد تم العثور على الشيخ فرحان السعدى مختبئا فى أحد مخازن الحبوب عقب وقوع مناوشات محلية بين القوات البريطانية والثوار . وحينما سئل عما اذا كانت لديه أية أسلحة نارية رد بأن لديه بندقية قديمة معلقة على حائط منزله وبعد محاكمة استمرت ثلاث ساعات رفض خلالها بهدوء الاجابة على أى سؤال ، تم شنقه بصورة سريعة . ومن الواضح أن قضاته لم يدينوه على هـذه التهمة ذاتها بقدر ما أدانوه على تهم أسـوأ مثل جريمة قتل أندروز الذى نسب اليـه ارتكابها . وصدر ضده هذا الحكم فى شهر رمضان وكان يبلغ من العمر خمسـة وسـبعين عاما على الأقل . واعتبر العرب استشهاده مماثلا لاستشهاد الشيخ القسام . وقد شنق البريطانيون مائة واثنى عشر عربيـا وشنقوا يهوديا واحدا فى مشهد جعل أحد القادة الذين شاهدوه وهو سير اليك كيركبرايد يشـعر بالذنب والوضـاعة وقبل أن المذنبين هتفوا بشـعارات وطنية وهم فى طريقهم الى المشـنقة أو انهم حاولوا تخطى الطابور .

ثم جـاء دور فرض الغرامات الجماعيـة وهـدم البيوت . ودفعت الغرامات نقدا أو عينا وفرضت فى أحيان كثيرة بدون اجراء تحريات كافية أو التوصل الى دليل اتهام . وحينما اغتيل الدرتون قائد السرية توصلت القوات بمساعدة الكلاب البوليسية الى أن القتلة لجأوا الى قرية أجزيم . وبالتالى قامت بارسال فصيلة من مشاه جنوب « كنت » للقيام بعمليـة « تفتيش » . وبعد ذلك بيومين قامت المبشرة البريطـانية فرانسيس نيوتن بزيارة فاكتشفت أن هناك منزلين نسفا عند مدخل القرية ، كما نسف نحو ستين منزلا آخر حيث « كان من المتعذر وصف الدمار الذى حل بهذه المنـازل ، ذلك الدمار الذى لا يصـدقه أى امرء الا اذا رآه بعينيه » (٣٨) .

ووجدت مصاريع النوافذ وخوانات الملابس محطمة والمرايا مهشمة والمقاعد برزت أحشاؤها ، وماكينات الحياكة محطمة تماما ، والمفروشات والأسرة تشربت بزيت الزيتون بل وجدت أيضا مصحفا ممزقا . وسرق

الجنود أموالا وحليا وسقط أحدهم قتيلا بالرصاص حينما اخرق أثناء هروبه ومعه مبلغ ٢٥ جنيها كان يريدها لنفسه نطاق الأمن المضروب حول القرية . وتم الاستيلاء على جميع الأغنام والماعز تأمينا للحصول على الغرامة الجماعية . ومن استطاع استعادتها مقابل ثمانية شلنات ثمنا لكل رأس فعل ذلك ، أما من لم يستطع فقد ضاعت منه . وبعدئذ وحتى تستكمل المحنة ملفاتها أرغمت الحكومة الفلاحين على دفع نفقات ايواء أربعين شرطيا اضافيا لمدة ثلاثة أشهر وقدرها سبعمائة جنيه تقريبا . ونظرا لادراكهم بأنهم اذا لم يدفعوا حصتهم فسوف يتم الاستيلاء على ممتلكاتهم فقد فضلوا الهجرة الجماعية حاملين ممتلكاتهم معهم . واستقر المقام ببعضهم بطبيعة الحال فى حيفا .. مدينة الأكواخ بحيفا . وعلقت الآنسة ينوتون على ذلك بقولها « انهم لاجئون بحق .. ولكن من البربرية البريطانية » . وقد اتضح فى النهاية أن قتلة قائد السرية الدرتون جاءوا من قرية أخرى تماما .

وحينما قتل أحد العرب أثناء قيامه بنصب كمين لدورية عسكرية أمرت السلطات بهدم منزل أحد كبار ملاك الأراضى بقرية أندور وبدون حصوله على تعويض » . وكان المبرر الذى ساقته أن القتيل شوهد مؤخرا وهو يقدم القهوة « بهذا المنزل ، وهو مبرر لم يأخذ فى اعتباره حقيقة أن — جريا على تقاليد الضيافة العربية يجرى تخصيص جزء من الدار كمكان عام للقاء يفد اليه من أهل القرية والأغراب على حد سواء . وحينما لحقت بمطار اللد أضرار ، نتيجة عملية تخريب ، تم نسف صف من المنازل فى المنطقة المجاورة كاجراء انتقامى .

وفى مارس ١٩٣٩ تم اغتيال عبد الرحيم الحاج محمد قائد الثوار البارز فى شهر مارس ١٩٣٩ عقب أداء الصلاة فى أحد المساجد بين حزن الفلسطينيين بصفة عامة واشارة البريطانيين على مضض وهرب معظم القادة الآخرون من البلاد . وهكذا انتهت الثورة فى واقع الأمر . وتحطم الفلسطينيون كقوة عسكرية . ولم تنشر قط على نحو كامل الأرقام البريطانية الرسمية لعدد الضحايا العرب ابان الاضطرابات التى عمت البلاد فى الفترة بين عامى ١٩٣٦ — ١٩٣٩ ولكن طبقا للتقديرات الدقيقة التى توصل اليها وليد الخالدى الباحث الفلسطينى لابد أن عدد القتلى تجاوز خمسة آلاف شخص والجرحى أربعة عشر الآف شخص (٢٩) . أما القتلى من البريطانيين فقد بلغ عددهم نحو مائة وواحد جندى بريطانى بينما بلغت خسائر اليهود اربعمائة وثلاثة ستين قتيلا (٣٠) .

وكان للثورة أوجه قصور داخلية عجلت بانهيارها بتأثير هجوم البريطانيين عليها . وثمة جدل مستفيض بين المؤرخين الفلسطينيين المعاصرين حول ماهية أوجه القصور هذه ، وكان الحافز الحاضر على هذا الجدل هو المرحلة الجديدة من المقاومة الفلسطينية المسلحة (٣١) ويميل هؤلاء المؤرخون الى القاء قدر كبير من اللوم على كاهل الزعماء والافندية . ويقولون انها كانت أساسا انتفاضة عفوية حقيقية ، وعفويتها مقياسا لصدقها . ولكنها لم تجد زعامة تحول هذه العفوية الى ثورة منظمة هادئة بحق . وحينما لم يعد هناك أى خيار أمام الصفوة من أهل المدن حاولوا اخضاعها لسيطرتهم .. أو على الأقل حاول ذلك البعض منهم وعلى رأسهم المفتى فى الوقت الذى ضعفت فيه الثقة بالبعض الآخر الاكثر ميلا الى المصالحة وعلى رأسهم آل النشاشيبى على نحو أعمق من ذى قبل . ومع هذا لم يقيض النجاح لهذه المحاولة ، اذ لم يتم قط اجتياز الفجوة بين السياسى والمقاتل ، بين المدينة والقرية . وفى الوقت الذى عكست فيه الثورة باعتبارها أول محاولة من جانب الفلسطينيين لاستخدام العنف المسلح بصفة عامة ، نموا فى نوعية المقاومة ضد الغزو الصهيونى لم يقترن هذا النمو باستعدادات اجتماعية وسياسية وتنظيمية مشابهة ، كانت الحاجة الماسة اليها لكفالة صمود هذا التحدى الكبير . فلم يشجع المقاتلون على تجاوز ولاءاتهم الاقليمية أو الدينية أو العائلية .. بل رفض الكثيرون الانضمام الى جماعات مقاتلة فى مناطق أخرى .. ولكن انضموا الى جماعات أخرى فقد رفض انضمامهم واعتبروا متطفلين وعرقل التقليد الخاص بنصرة الجار وحده من محاولات وضع استراتيجية رشيدة . وازدهر عصر قادة الحرب . ولكن كان الأسوء من ذلك ، الأثر الموهن للمنافسات الموروثة بين العشائر والضغائن القديمة الممتزجة بخلافات سياسية جديدة وغير مفهومة على النحو الأكمل . ولم تكن هذه الأوضاع قادرة على الايقاع بين قرية وأخرى فحسب دائما وكان بوسعها أيضا احداث انقسام داخل قرية واحدة .. وكان يحدث أحيانا أنه عندما يؤيد احدى الشخصيات المؤثرة الثورة أن يلجأ منافسه تلقائيا الى التعاون مع السلطات . وانحدرت فى بعض الأحيان محاكمات الثورة الى وسيلة لانتقام دموى . والا فما هو المبرر الذى يمكن تقديمه لاعدام مختار قرية دير الشيخ فحسب وانما اعدام زوجة وثلاثة أبناء تبلغ أعمارهم أربعة عشر عاما واثنى عشر عاما وعشرة أعوام على الترتيب ، واعدام خادمة أيضا م (٣٢) .. بل لقد أمكن حتى استغلال عدالة العدو البغيض للاخذ

بالثأر على نحو دنيء . اذ كان يدس سلاح نارى فى الممتلكات العائلية للضحية المقصود الايقاع بها ويتم ابلاغ السلطات العسكرية وهكذا كان بمقدور انسان ما أن يرسل جاره الى حبل المشنقة (٢٣) ، وكان نفس الشيء يحدث مع الزعامة السياسية فى المدن . اذ كان معنى تمزقها نشوب حرب سافرة بين آل الحسينى وآل النشاشيبى ولم تكن السطوة الشخصية التى حظى بها المفتى عميد آل الحسينى بالأمر الكافى فى نظره بل كان عليه استغلال الثورة لتعزيزها . وعزت « المعارضة موجة الارهاب التى أحاطت بها الى نفوذه الخبيث المهلك وتلهفه على السلطة . وحينما نجا فخرى بك النشاشيبى من محاولة اغتيال أسفرت عن اصابته بجراح خطيرة بلغ سخطه حدا جعله يبدأ فى التعاون مع الساسة اليهود المحليين على حد تقدير المندوب السامى (٢٤) . وقام أنصاره بتشكيل « فرق سلام » للأخذ بثأر الضحايا المفترضين للحاج أمين . وبدلا من أن يؤدى العنف المسلح ضد العدو المشترك الى القضاء على الضغائن العقيمة بين الزعماء والأفندية أشعل نيران حرب أهلية صغيرة اندفع فيها خصوم المفتى الى معارضة الثورة الكبرى ذاتها .

بريطانيا تلين : الكتاب الأبيض الصادر عام ١٩٣٩ :

ومع هذا حتى حينما كان العشرون ألف جندى بريطانى يطوفون فلسطين من جديد أخذت الشكوك البالغة تساور السياسيين الذين عادوا الى البلاد فيما يتعلق بالأساس المنطقى لسياسة تتطلب مواصلة انتهاجها اتباع مثل هذه الأساليب القاسية الباهظة التكاليف . وانبثقت الشكوك عن ادراك جاء متأخرا فى بعض الدوائر ذات النفوذ بأنه حتى اذا لم تكن هناك جدوى فى النهاية من مقاومة فلسطينية مستبسلة فلابد أن تكون لها أسباب أعمق مما فهم منها حتى ذلك الحين . وأصرح مالكوم مكدونالد وزير المستعمرات أمام مجلس العموم بأن دوافع وطنية هى التى تحرك معظم الثوار . وأشار الى أنه لو كان عربيا لشعر بنفس شعور هؤلاء الثوار . وقال انه بامكان سياسة « قوية » اقرار النظام ، ولكن ليس السلام . وفى نفس الوقت كان لدى بريطانيا مصلحة ذاتية أعلى يجب عليها أن تأخذها فى الاعتبار . اذ انه مع تجمع سحب الحرب فوق أوروبا لم يعد بمقدورها الاستغناء عن قوات ولا أموال تنفقها على صراعات فى مستعمراتها غير ضرورية يمكن للدبلوماسية وضع حد لها . كذلك لم يكن بوسعها اثارة عداء العالم العربى والاسلامى كله اذ انه يمثل

مناطق حيوية استراتيجية يتزايد تعرضـها لتحلق دول المحور من أجل ربيبتها الصهيونية المزعجة . وكان لورد بيل قـد أعلن عام ١٩٣٧ أن الانتداب غير فعال واقترح تقسيم البـلاد بدلا من ذلك . ولكن فى أوج الثورة وضعت لجنة تحقيق أخرى برئاسة سيرجون وود وارد تقريرا يفيد بأن التقسيم غير فعال أيضـا . وفى نفس الوقت دعت الحكومة الزعماء العرب واليهود الى مؤتمر مائدة مستديرة فى لندن . وكان كل ما فعله هذا الاجتماع خلال شهر شهد وضع العراقيل من الطرفين هو ابراز مدى اتساع الفجوة التى تفصل بين الجانبين . فقد اجتمع ممثلو الدول العربية ـ الذين وجهت اليهم الدعوة أيضـا ـ مع وايزمان ولكن الفلسطينيين لم يجتمعوا فيه . وعلى حين كان الآباء على استعداد عام ١٩١٤ للاجتماع مع العدو لمناقشة أبعاد الصراع حول مائدة المفاوضات لولا ان الحـرب العالمية حالت دون ذلك ، لم يكن الابناء على استعداد لذلك (٢٥) . وأضحى بعد ذلك بربع قرن من الزمان اضفاء الشرعية على مشروع الصهاينة برمته أمرا مستحيل التفكير فيه شـأنه فى ذلك شـأن اعتراف الجيل التـالي « باسرائيل » .

وعلى نحو من التنبؤ ، مقدما بالمفاوضات غير المباشرة والمحادثات عن قرب « ودبلوماسية المكوك » فى عصر الطائرات النفاثة ـ وكل تلك الابتكارات الاجرائية التى سيفتعلها صناع السلام فى المستقبل ـ اتخذ المؤتمر شكل اجراء مناقشات منفصلة بين البريطـانيين والعرب ، ثم بين البريطـانيين واليهود . وحينما وصلت هذه المناقشات الى ذلك الطريق المسـدود المحتوم أصدرت بريطانيا « بيانا بالسياسة » من جانبها وحدها ، وهو ما عرف باسم كتاب ماكدونالد الأبيض . وأكدت الحـكومة الآن أن « سياستها » لا تنطوى على ضرورة تحول فلسطين الى دولة يهودية » ، مع السماح بدخول ٧٥ ألف مهاجر يهودى الى فلسطين فى غضون السنوات الخمس التالية مع عدم السماح بدخول عدد آخر بعـد ذلك بدون موافقة العرب ، وضرورة تنظيم عملية بيع الأراضى تنظيما دقيقا واقامة مؤسسات الحكم الذاتى بهدف انشاء دولة فلسطينية مسـتقلة فى غضـون عشر سنوات . وكانت هناك جوانب فى الكتاب الأبيض دفعت الوفد الفلسطينى الى رفضه بناء على تعليمات المفتى . ومع هذا تأثر الرأى العام الفلسطينى ببنوده الرئيسية . فقد عم الشعور فى نهاية الأمر بأن العرب يحصلون على قدر من العدالة الى الحد الذى دفع آل النشاشيبى منـافسى المفتى فى الواقع الى أن يعلنوا أنهم سيتعاونون مع بريطانيا فى تنفيذ الكتاب الأبيض

وهكذا أخمدت الدبلوماسية البريطانية العنف العربى تماما بعد أن ساهمت الأسلحة البريطانية فى قص أجنحته على نحو فعال فى البداية .

بريطانيا تخون الصهيونية :

وكان رد الصهيونية على نشر الكتاب الأبيض فوريا وعنيفا . والوقع أن تعذر اعلانه رسميا فى فلسطين ذاتها فى الساعة المحددة لذلك نظرا لقطع خطوط ارسال محطة الاذاعة ونسف استوديوهاتها . ووقف دكتور هيرتزوج كبير الحاخامات فى اليوم التالى على منبر معبد يشورم الكبير بالقدس ومزق نسخة من لوثيقة الشائنة أمام جمهور المصلين الذين كانوا يذرفون الدموع وتم اشعال النيران فى مقر ادارة الهجرة ، وقامت حشود من اليهود باقتحام مكاتب الحكومة فى كل من حيفا وتل ابيب بقصد تدمير جميع الملفات الخاصة بالهجرة اليهودية غير الشرعية ونهبت حوانيت العرب فى القدس . واطلقت النيران على أحد الكونستبلات البريطانيين فأردته قتيلا خلال مظاهرة وأعلن اضراب يهودى عام . وعقدت اجتماعات واسعة لليهود فى طول البلاد وعرضها وأقسمت على أنها لن تتسامح مع السياسة البريطانية الجديدة القادرة وان « الشعب اليهودى سيقاومها باقصى ما لديه من جهد ولن يبخل بأى تضحية من جانبه فى سبيل هزيمتها » . وبعد ذلك ببضعة أيام بدأ الانصار العنف فى شن حملة من التخريب والارهاب موجهة ضد كل من البريطانيين والعرب على حد سواء . وقاموا بنسف سينما ريكس فى القدس ، الأمر الذى أسفر عن مقتل خمسة من العرب واصابة ثمانية عشر آخرين بجراح . ولم يكد يمر يومان حتى قتلوا خمسة آخرين فى هجوم لهم على قرية عدس وكتب دافيد بن جوريون زعيم المستوطنين اليهود القدامى المعترف به عقب يوم من المظاهرات يقول انها علامة على « بداية المقاومة اليهودية للسياسة المشئومة التى تقترحها حاليا حكومة صاحب الجلالة . ولن يستسلم اليهود تحت سلاح التهديد ولو أريقت دماؤهم » (٢٦) ولقد اتخذت الصهيونية أشكالا متعددة ؛ فكانت هناك صهيونية روحية أو اتفاقية أو « سياسية » أو « عملية » . ولكن كتاب ماكدونالد الأبيض كان ايذانا بالبداية الرسمية « لصهيونية البندقية » كما وصفها بعد ذلك بأعوام عديدة يورى أفنيرى النائب الاسرائيلى .

التنقيحيون ينبذون « ضبط النفس »

ترجع الأصول الايديولوجية لصهيونية البندقية « كما رأينا الى تيودور هرتزل ذاته . فقد كان محتما ، كما تنبأ ، أن تصبح القوة المسلحة فى النهاية الاداة الرئيسية لحركة لم تجد مناصا فى مرحلتها الأولى التى كانت ما تزال أضعف عودا من الاعتماد على حماية نصير استعمارى . وقد قاربت هذه المرحلة الآن على الانتهاء . ولكن قبل أن تنتهى هذه المرحلة بفترة طويلة كان دعاة استخدام القوة المسلحة وواضعو استراتيجيتها يمهدون الطريق معنويا وسياسيا وعمليا لاستخدامها فى نهاية الأمر . واخذت روح فلاديمير جابوتنسكى مؤسس الفيلق اليهودى ابان الحرب العالمية الأولى ومؤسس جيش الهاجاناة السرى بعد ذلك تتخلل المستوطنين اليهود وقد أضحى من الشائع لا سيما المؤرخين الصهيونيين التقليل من أهمية جابوتنسكى الذى انشق مبكرا على الزعامة الصهيونية الرئيسية . ووصفت التنقيحية التى سميت بها هرطقته المتمردة بأنها التطرف المجنون للصهيونية بنفس القدر الذى تمثله حركات الاخوان المتعددة من تطرف مجنون للقومية العربية ، أو يمثله رجال الملكية الخامسة من التطرف المجنون للتزمت الانجليزى أو يمثله الجيش الجمهورى الايرلندى من التطرف المجنون لجماعة الشين فين (٣٨) . ولكن الرجل الذى سماه وايزمان بأنه « انونزيو اليهود » لعب دورا رئيسيا فى اكساب الصهيونية نزعة عسكرية تبناها الجميع فيما بعد . واذا كان معاصروه قد أنكروا عليه معتقداته فان مرجع هذا الى حد كبير الى أنه كان سابقا لعصره . فقد كان يمثل نزعة نضالية عدوانية تبعث على الحرج فى الوقت الذى كان فيه أسلوب التقية والمراوغة التى يسير عليها وايزمان لاتزال ضرورية كوسيلة لتأمين الحصول على تأييد للصهيونية من جانب النصير المستعمر ويهود المنفى من دعاة الاندماج فى الأوطان التى يعيشون فيها . ومبعث المخاوف من أنه سيعطى العالم الفكرة بأننا نحن الصهيونيين ننوى السيطرة على عرب فلسطين بقوة السلاح وبذلك نقدم لاعدائنا سلاحا يستخدمونه ضدنا (٤٩) . وعلى الرغم من أن الصهيونيين ربما استاءوا من حماسه الخيالى وربما عارضوه رسميا كان بعضهم يعجب به سرا . وكان بن جوريون يعتبره « تروتسكى الصهيونيين » الذى حكم عليه حماسه المتقد المتطهر بالفشل . وان كان كلاهما يكن اعجابا مكتوما بالآخر . ولم يكن ما فرق بينهما هو الهدف وانما كان الأسلوب والطريقة المتبعة لتحقيقه . وعلى هذا قيل بحق أن « النضال من أجل فلسطين كان نضال جابوتنسكى أساسا .

ذلك لان جابوتنسكى يمثل أكثر التعبيرات صراحة عن الصهيونية بوصفها حركة سياسية .. وكان يجسد فى هذا الصدد نموذجا ايديولوجيا انجذب اليه بطبيعة الحال قدر كبير من ميل الصهيونية الكامن (٤٢) وليس هناك مثال على هذا الميل أفضل من الخطاب السرى الذى بعث به حاييم أرلوزورف مدير الادارة السياسية بالوكالة اليهودية الى وايزمان عام ١٩٣٢ . وكان أرلوزورف فى واقع الأمر واحدا من أكثر الزعماء الصهيونيين ميلا للتصالح : الأمر الذى يبدو حاليا صعب التصديق . وكان تعيين يستهدف تهدئة مخاوف العرب لأنه كان فيما يبدو ، جادا على عكس الآخرين فى محاولاته تحقيق التفاهم بين العرب والاسرائيليين . وليس ثمة شك فى أن هذا ربما كان الدافع على اغتياله الغامض عام ١٩٣٨ . ويعتبر الخطاب الذى بعث به محاولة تكييف ثورى لمفهوم الدبلوماسى الكبير عن المراحل الديناميكية . فعلى حين يصف التنقيحية بالجنون الذى لا يؤدى الا الى اثارة العرب ، يختتم هذا الباحث المعتدل والمثقف خطابه بخطة عمل تعكس روحها أساسا طابع جابوتنسكى وان كانت موضوعية تماما ومعتدلة على نحو يرمى الى بث الطمأنينة فى النفوس فى مظهرها ففى رأيه ان سياسة الهجوم والاستعمار التى تقوم على خطوات متدرجة ، وهى سياسة « ماعز بعد ماعز ودونم فى اثر دونم » كانت هى السياسة السليمة الوحيدة فى الماضى . ولكنها لم تجد كثيرا بعد ذلك . ولذا لابد من وضع استراتيجية بشأن المستقبل فى ضوء « علاقة قوى الشعبين والمتنافسين فى البلاد » .

قد يكون بالامكان وصف المرحلة الراهنة التى توصلنا اليها بفضل التطور التدريجى تقريبا كما يلى : لم يعد العرب من القوة بحيث يمكنهم القضاء على مركزنا ولكنهم مازالوا يعتبرون انفسهم أقوياء على نحو يمكنهم من انشاء دولة عربية فى فلسطين بدون أن يأخذوا فى اعتبارهم مطالب اليهود السياسية فى الوقت الذى يتمتع فيه اليهود بالقوة على نحو يكفى لحفاظهم على مراكزهم الحالية بدون أن يملكوا قوة كافية لضمان النمو المستمر للجالية اليهودية من خلال الهجرة والاستعمار واقرار السلام والنظام فى البلاد خلال فترة حدوث هذا التطور .

وسيتم بلوغ المرحلة « التالية حينما تكون العلاقة بين القوى الحقيقية قادرة على الحيلولة دون اى احتمال لاقامة دولة عربية فى فلسطين اى حينما

يكتسب اليهود قوة اضافية تعترض أى طريق لتحقيق السيطرة العربية .
وسوف تتلو هذا « مرحلة » أخرى سيعجز خلالها العرب عن احباط النمو
المستمر للجالية اليهودية من خلال الهجرة والنشاط الاقتصادي البناء
وسوف تدفع قوة اليهود ، المتعاظمة على نحو مستمر ، العرب الى السير
في اتجاه السعي للتوصل الى اتفاق متفاوض عليه . وستتلو هذا « مرحلة »
سيستند خلالها التوازن بين الشعبين على قوى حقيقية وحل للمشكلة متفق
عليه . ويشمل اختبار الممارسات المتطورة للسياسة الصهيونية داخل اطار
الانتداب البريطانى ما اذا كان تحقيق المرحلة التالية بواسطة هذه السياسة
ممكنا أم لا .. فاذا ثبت استحالة ذلك ... فلن يكون من الملائم بعد ذلك
التشبث بالممارسات المتطورة للسياسة الصهيونية أو أن تستند عليها قوة
الحركة الصهيونية وقدرتها على الاحتمال . وأميل الى الظن بأن هذا
ليس ممكنا .

واستطرد شارحا : ان من بين أسباب هذا ، القيود التى تضعها حكومة
الانتداب ، اذ انه من غير المتوقع أن تتحمل الحكومة البريطانية مثل هذا
العبء من أجل مشروع وضعه شعب « أجنبى » بهدف الاستعمار . ولذلك
يتوصل الى أنه « لا يمكن تحقيق الصهيونية فى ظل الظروف الراهنة بدون
فترة انتقالية تمارس خلالها الأقلية اليهودية حكما ثوريا منظما ..
ويوضع خلالها جهاز الدولة والادارة والمؤسسة العسكرية فى يد الأقلية
بغية ازالة خطر سيطرة الأغلبية غير اليهودية وقمع الثورة ضدنا .. وربما
كان مثل هذا الطور للمشكلة خليقا بأن يهز أسس كثير من المعتقدات التى
نعتز بها منذ سنوات طويلة . بل أنه قد يشبه على نحو خطير أفكارا سياسية
بعينها رفضناها دائما . وقد تبدو حتى لأول وهلة خيالية وغير عملية
وتتناقض مع الأوضاع التى نعيش فى ظلها تحت الانتداب البريطانى ..
ولكن هناك شيئا واحدا أؤمن به ايمانا قويا وهو اننى لن أرضى قط بفشل
الصهيونية قبل أن تبذل محاولة تتفق جديتها مع جدية الكفاح من أجل احياء
حياتنا القومية ومع قدسية المهمة التى كلفنا بها الشعب اليهودى .

وآمل الا أجد نفسى مضطرا لتأكيد الحقيقة التى تفيد بأن أسلوب
تفكيرى مغاير اليوم — وذلك شأنه دائما — لذلك الأسلوب فى التفكير المسمى
بالتنقيحية وهاأنا أيضا أعتبر نشاط وسياسات التنقيحية ومبادئها التعليمية
محض جنون (٤٢) » .

وقلما يستطيع انسان الدعوة ببراعة فائقة لرأى يدينه فى نفس الوقت .
وعلى أى حال لا يبعث على الدهشة ان أشخاصا أقل تشددا منه أصبحوا

يفكرون على نفس النحو الخطير الذى يرثى له وأصبحت الأفكار الخاصة بالتعايش مع العرب والعيش فى دولة ذات قوميتين مرفوضة على نحو مضطرد باعتبارها أوهاما خيالية لأقلية لا تمثيل لها . وأخذت المواد التى تضمنها وعد بلفور بشأن « الضمانات » تصبح شيئا غير مناسب طواه النسيان ومع صعود نجم هتلر والوضع المتفاقم فى أوروبا لم تكن ثورة العرب – « وهى الحدث الذى تنبأ به أرلوزوروف » – هى المسئولة عن بعث عملية النزعة العسكرية التى كانت حتميته منذ البداية ولكنها عجلت بظهورها فقط . واذا كانت صهيونية البندقية «قد برزت عقب الثورةفقط، سافرة ومعلنة ، بأنها كانت آخذة فى التبلور خلال هذه الثورة .

وحينما نشبت الاضطرابات حدث تزاوج رسمى بين الييشوف و«ضبط النفس» ، وهو مفهوم متأصل فى الأخلاقيات اليهودية التقليدية . ولا يجب أن يرد اليهود على الارهاب الاعربى بارهاب من جانبهم . وقيل ، على نحو غامض نوعا ما ، ان هناك وسائل « سواء كانت مفيدة أم لا » يجب تجنبها اذا كان الهدف هو الحفاظ على احساس الجالية اليهودية بالتفوق المعنوى على اعدائها . واكتسبت « ضبط النفس سمعة طيبة فى الخارج ووصفها وايزمان بأنها واحدة من « التصرفات السياسية الأخلاقية العظيمة فى العصر الحديث التى « حظيت باعجاب الرأى العام الليبرالى فى أرجاء العالم (٤٤) ». وعقدت جريدة التايمز اللندنية ذات مرة مقارنة بين الانضباط اليهودى وما وصفته بمحاولات الزعماء العرب اقامة الدليل على نبل العرب باطلاقهم سراح ثلاثة أطفال يهود وأضافت تقول أن هذا لم يمنع اليهود والمسيحيين على حد سواء من التساؤل عما حدث للابوين (٤٥) » .

قد يكون « ضبط النفس » فضيلة يهودية حقا ولكن بما أن الصهيونية تعتبر الى حد كبير ثورة على التقاليد اليهودية فمن المؤكد أنها ليست فضيلة صهيونية ، فمع تعاظم العنف العربى تعرضت لضغط متزايد الى أن أطلق ثلاثة شبان من أنصار الحركة التنقيحية الرصاص على سيارة أتوبيس عربية كانت تسير فى الطريق الرئيسى الذى يربط بين عكا وصفد فى ربيع عام ١٩٣٨ . وكانت هذه عملية غير متقنة على نحو ميئوس منه اوتكبها مبتدئون مراهقون كرد ساذج ومندفع على الغارات العربية المستمرة على صفد والتى أسفرت عن مقتل عدد كبير من اليهود وطعن فتاة حتى ماتت فى خندق . وقد يكون حقيقيا – مثلما زعم اليهود – انه لو كان زعيم المجموعة عربيا لأطلق سراحه ، وربما أتاح هجومه الذى لم يحسن شنه فرصة للحكومة – التى كانت قد أعدمت فعلا عشرات العرب لاثبات عدم تحيزها .

وعلى أى الاحوال أضحى شلومو بن يوسف اليهودى البولندى الشاب فى يونيو من ذلك العام أول وآخر يهودى يقدم شنقا ابان « الاضطرابات » . وتخلى جابوتنسكى الذى اعتبره من بين « أبطال اسرائيل » (٤٩) . عن سياسة ضبط النفس .

ففى شهر يوليو وحده لقى مائة عربى على الأقل مصرعهم فى أماكن عامة بحيفا ويافا والقدس .. وهو عدد من القتلى فى نحو ستة حولات يزيد عما قتله العرب من اليهود طوال العام كله (٤٧) . وشهد سوق البطيخ العربى فى حيفا آخر وأسوأ تلك السلسلة من الأحداث . ففى هذا السوق انفجرت قنبلة فى الساعة السابعة من صباح يوم ٢٦ يوليو وعلى مسافة عشرة أمتار فقط من مكان انفجار قنبلة أخرى قبل ذلك بثلاثة أسابيع ، وأدت لى مقتل ثمانية عشر عربيا نتيجة لذلك . « واقترن الانفجار بتطاير الجثث ما بين قتيل ومشوه وجريح فى جميع الاتجاهات .. وكان من بين البقايا البشرية التى تناثرت عليها بقع الدماء جثث مشوهة لثلاثة جياد وعدد من البغال والحمير كانت قد حملت محصول الفلاحين الى السوق المزدحمة (٤٨) . وراح ضحية هذا الحادث ثلاثة وخمسون عربيا ، ويهودى واحد .

وكان رد الفعل الرسمى من جانب الصهيونيين غامضا . ومن المؤكد أن الحادث لقى ادانة مباشرة . فقد جاء بجريدة دافار أن أى انحراف عن ضبط النفس يبعث على الشعور بالخزى والعار لأن الراية اليهودية النقية لطختها دماء أبرياء . « واعتبرت هاآرتس انه لا يمكن تصديق .. أن مثل هذه الجرائم يمكن أن تكون جزءا من نظام سياسى ، ولا مجال للتفكير فى أن يأمل اى شخص فى بلوغ غاية سياسية مرغوب فيها باتباع مثل هذه الوسائل (٤٩) » . ولكن الادانة اكتسبت صفة العموم ، والواقع انه لو كان قد تم توجيه أى أصبع اتهام لأشارت الأصبع تجاه المتطرفين العرب بنفس قدر توجيهه للمتطرفين اليهود . تساءلت جريدة فلسطين بوست قائلة « هل هناك يهودى من الجنون حتى وان كان خبيثا ــ بحيث يضع أو يلقى قنبلة على الجماهير الغفيرة عادة ، الخارجة من المسجد ؟ . فهل هناك وسيلة لنشر بذور حرب عنصرية اضمن من تلفيق تلك الجريمة التى يحمل ضحاياها والذعر الناجم عنها العرب السذج على الاشارة الى اليهودى باعتباره مرتكبها ؟ (٥٠) . ولم يلق القبض قط على اى واحد من مرتكبى هذه الجريمة . فقد كان رجال البوليس اليهود متواطئين مع مواطنيهم بنفس القدر الذى كان فيه رجال البوليس العرب متواطئين مع بنى جلدتهم . ولم يكن العالم الخارجى يشك اطلاقا فى أن الجناة يهود ، ولكن كان هناك

قدر كبير من الاستعداد لالتماس ظروف مخففة . فقد توصلت جريدة المانسشتر جارديان الى أن الارهاب المستمر « المنظم من الخارج » أدى الى انهيار ضبط النفس اليهودى ولكن هذا كان أمرا « هينا . . وطبيعيا وبالتأكيد حتميا » . واستطردت تقول « ليس ثمة شك فى انه ما من أحد من مواطنى هذه الجزر الذين يتصفون بعنف المشاعر كان سيتحمل واحدا على مائة مما عانى منه اليهود الفلسطينيون لأكثر من عامين دون أن ينتقم بعنف (٥١) » .

وكانت القنابل يهودية بطبيعة الحال وان لم يقل أحد ذلك آنذاك . . وكان المسئول عنها اليهود التنقيحيين على وجه الخصوص . ودمت التنديدات بالزعامة الرسمية وقد تركت هذه التنديدات أثرا قويا فى نفس المراقبين الخارجيين ، ونفاقا شديدا فى نظر العرب الذين مالوا بالرغم من صواب حدسهم بصفة عامة — الى تكوين آراء سريعة ساذجة . فقد قام وفد من النساء المحجبات عقب الانفجار الذى شهدته حيفا بالتعبير عن احتجاجهن لدى المندوب السامى . وقالت احداهن أن الدكتور وايزمان — الذى بلغت شهرته كعالم فيما يبدو — يقوم بصناعة القنابل فى معمله فى رصفوت .

يقول جوزيف شختمان كاتب سيرة جابوتنسكى وتلميذه انه اشتبك فى صراع طويل مع ضميره حول الارهاب . وكان يدرك أهمية ما اعتقد انه المبرر السياسى للانتقام ولكنه فى نفس الوقت كان يجسد ليبرالية القرن التاسع عشر التى كانت تعتبر الحياة البشرية شيئا مقدسا الى أبعد الحدود .

قال يوما ما لأحد زملائه : « لا أرى بطولة كبيرة ومغنما عاما من اطلاق الرصاص من الخلف على فلاح عربى يركب حمارا ويحمل خضروات لبيعها فى تل أبيب (٥٢) » ومع هذا أيد فى الوقت المناسب وبصورة كاملة سياسة الانتقام الشامل . كتب يقول أن الجميع يحبون الانتقام على شريطة توجيهه فورا ضد العصابات وحدها وليس ضد الشعب العربى أيا كان مبلغ عدائه . « ولكن يجب أن ندرك أن الخيار ليس بين الانتقام من العصابات والانتقام من الشعب المعادى . ولكنه بين . . الانتقام من شعب معاد أو عدم الانتقام على الاطلاق . وقد وضعت فى فلسطين نهاية لأراقة الدم المباح الذى لم يكن هناك ما يحول دون أراقته ولم يكن من الواجب على أى شخص دفع ثمنه حقا . وفى يونيو عام ١٩٣٩ كان قد توصل الى نتيجة مؤداها « أن ليس من الصعوبة بمكان معاقبة المذنبين وحدهم فحسب ولكنه أمر مستحيل أيضا (٥٢)

لقد بدأ العرب الاضطرابات « التى استمرت بين عامى ١٩٣٦ — ١٩٣٩ ولكن اليهود قلدوهم بعد ذلك بل تفوقوا عليهم بفضل أساليبهم الأفضل بكثير

على حد قول أحد المؤرخين الاسرائيليين بعد ذلك بعدة أعوام (٥٤) . واذا كان بتفضيلهم اتباع تكتيكات رجال العصابات القائمة على الكر والفر قد طرقوا هذا السبيل بدافع من سيرهم الشعبية عن « الحشاشين » أو غزوات القبائل فان اليهود مارسوا ارهابا فى المدن أكثر فعالية وأكثر اتفاقا مع تقليد الارهابيين الروس أو الفوضويين بأسبانيا (٥٥) .

وقد ذكرت صحيفة هاآرتس انه ثبت بالتأكيد امكان استخدام مثل هذه الوسائل « لتحقيق غاية سياسية مرغوب فيها » . فقد كانت هذه الوسائل ، على حد قول شختمان ذات سياسة تعليمية لا تقدر فقد حررت المستوطنين من الوضع المهين للحماية البريطانية لليهود .. ولقنت عصابات الارهابيين العرب درسا صحيا وولدت فى الشباب اليهودى روحا جديدة من النضال والتضحية بالذات » .

ومع هذا استفاد الصهاينة الى أقصى حد من الاضطرابات من خلال احتفاظهم بضبط النفس ، لا من خلال خروجهم على هذه السياسة . وفى الوقت الذى كان فيه البريطانيون يحطمون القوة العسكرية العربية ويقضون على الروح المعنوية للسكان ويوهنون قوة زعامة ضعيفة بالفعل كانوا يساعدون الزعامة اليهودية القوية تحويل المستوطنين المتحمسين الى قوة مقاتلة . وفى الوقت الذى كان فيه ضبط النفس عنصرا أصيلا فى نفس البعض ، كان مجرد وسيلة لغاية بالنسبة للبعض الآخر . وكان القصد منه كسب تأييد البريطانيين لانشاء ميليشيا يهودية . وقد نجح فى ذلك الوقت . وقد منحت الادارة فى عام ١٨٣٦ تفويضا بتجنيد المجموعة الأولى من ١٢٤٠ رجل بوليس يهودى . وفى وقت لاحق من نفس العام أبلغت الادارة الزعامة الصهيونية بأنها ستسمح ببقاء قوة خاصة من الكونستبلات بأسلحتها بشرط حل قوة الهاجاناه التى كانت قائمة فعلا وتسليم أسلحتها غير المشروعة ، الا أنها تخلت ضمنا عن هذا الشرط مع تزايد العنف العربى وتم توسيع نطاق هذه القوة على نحو أكبر خلال العامين التاليين الى أن بلغ عددها الاجمالى مع حلول عام ١٩٣٩ نحو أربعة عشر ألفا وخمسمائة رجل أى بنسبة خمسة فى المائة من المستوطنين وكان حجم وتطور تدريباتها قد ازداد بصفة مستمرة بعد انتقال المسئولية عن التدريب الى الجيش النظامى . ونقلت الدروس المستفادة الى آلاف الآخرين سرا . واعترضت السلطات المدنية البريطانية لأسباب سياسية على هذا التطور السريع للقدرة العسكرية اليهودية ولكن قيادة الجيش المعنية بسحق ثورة العرب فقط أيدت مطالب اليهود بزيادة عدد المجندين والتدريب .

واستفاد اليهود الى أقصى حد من التعاون مع البريطانيين فى الفرق الليلية الخاصة ولا سيما من العبقرية العسكرية لضابط غريب الاطوار هو الكابن أررد وينجيت الذى اعتبر العهد القديم التوراة مصدر الهامه وآمن بالقضية الصهيونية قلبا وقالبا . وكان أول من غرس فى الأذهان مبادىء الجسارة فى الهجوم وعامل المفاجأة والتغلغل بعمق والقابلية الكبيرة للتحرك تلك المبادىء التى قام بعد ذلك الجيش الاسرائيلى بتطورها الى أقصى حد . وخاض تحت قيادته بعض خيرة ضباط اسرائيل أول معاركهم مع العرب .. ومن بينهم موشى ديان .

ويصف ليونارلد حوزلى الصحفى البريطانى ذروة أول غارة قاد فيها « وينجيت » مجموعة من الرواد الشبان للهجوم مباشرة على احد معسكرات العدو بقوله : اقترب (وينجيت) بطابور قوته من القرية العربية فى الساعة الثالثة صباحا وبعد سير شاق لمسافة ثلاثين ميلا لم يختبرها من قبل حتى هؤلاء اليهود الذين يتسمون بالفظاظة والصلابة ، شق طريقه فى الظلام (ليستطلع الموقف) وانتظروا اشارته . وسرعان ما سمعوا صوت طلقة نارية فتحركوا الى احتلال المواقع التى كان وينجيت قد حددها لكل واحد منهم .. وتردد صوت طلقة أخرى من مشارف القرية انطلق بعدها وابل من النيران كان واضحا انه من جانب العرب وتوهجت أضواء على البعد وتعالى الصياح والصراخ والعويل . ثم اقترب العرب من الكمين الذى نصبه لهم وينجيت وترك ديان وبرينا — اللذان كانا يحتلان أقرب موقع من القرية — العرب يمرون .. وكانت لديهما تعليمات بالامتناع عن اطلاق الرصاص الى ان يتم حصار العرب . وحينما فتح اليهود الذين كانوا مرابطين على الجانب المقابل نيران أسلحتهم بدأ بريتا وديان فى تشديد نيرانهما الى ضحاياهما واحدا فواحدا فقتل خمسة وأسروا أربعة .

وعاد وينجيت حاملا على كتفه بندقية تركية . وبدا هادئا ورابط الجأش . قال « لقد قمتم بعمل رائع . انكم فتية ممتازون وسوف تكونوا جنودا بواسل » .

ثم اتجه الى الأسرى العرب الأربعة . وقال باللغة العربية « أنتم لديكم اسلحة فى هذه القرية . فأين خبأتوها ؟ » .

وهز العرب رؤوسهم واكدوا جهلهم بهذا الامر وانحنى وينجيت على الأرض والتقط حفنة من الرمال والحصى ودسها داخل فم العربى الأول ودفعها الى حلقه حتى اختنق وتقيأ .

قال وينجيت « والآن أين تخبئون الأسلحة » .

ومع هذا هزوا رؤوسهم ثانية والتفت وينجيت الى أحد اليهود وأشار الى العربي الذى كان يسعل ويدمدم بكلمات غير مفهومة قائلا « أطلق النار على هذا الرجل » . ونظر اليه اليهودى متسائلا ، وتردد . فقال وينجيت بصوت متوتر « ألم تسمع ؟ أطلق النار على هذا الرجل » وأطلق اليهودى الرصاص على العربى . وحملق الآخرون لمدة دقيقة فى الجثة الممددة تحت أقدامهم . وكان الفتية القادمون من حنيتاه يرقبون الموقف فى صمت قال وينجيت « والآن تكلموا » وتكلموا (٥٧) .

وفى عام ١٩٣٩ وعقب صدور الكتاب الابيض الذى أعده ماكدونالد كانت الجالية اليهودية تستعد لمحاربة حكومة الانتداب بنفس الأسلحة التى كانت حكومة الانتداب قد زودتهم بها . كان الحكم البريطانى قد حزم هدفهم التدريجى . ولم يعد بذى فائدة ، بل أنه كان يعرقل مخطط الصهيونية الذى كانوا يكشفون عنه بعناد . وكان اليهود قد بلغوا المرحلة الجديدة للاعتماد على النفس فى « الحكم الثورى المنظم » بواسطة الاقلية اليهودية ولذا كان لابد من زوال الانتداب . ولكن أحداثا جساما فى مكان آخر بعثت فيه حياة جديدة فمع اندلاع شرارة الحرب العالمية هب المستوطنون فى فلسطين لمساندة الدول الديمقراطية وتوقف العنف ضد البريطانيين تقريبا . وأتاح ثانى طوفان يشهده القرن العشرون — كما تكهن وايزمان (٥٨) — فرصا ممتازة كالتى أتاحها أول طوفان . وكانت هذه الفرص التى استفاد منها مرة ثانية الى الحد الاقصى ذات طابع دولى ودبلوماسى أساسا . ولكن أضيفت اليها فى هذه المرة ، بل طغت عليها تماما فى النهاية ، فرص أخرى محلية وعسكرية ظهرت نتيجة لتوازن القوى الجديد فى فلسطين ذاتها . اذ أخذ مركز ثقل الصهيونية يتحول من يهود الشتات الى المستوطنين اليهود فى فلسطين . وكان وايزمان الصديق الحميم للساسة الغربيين لايزال يقوم بصياغة الاستراتيجيات العليا . ولكن القوة الضاربة الحقيقية وهى الاداة الحقيقية لصهيونية « البندقية » كانت فى يد دافيد بن جوريون الرائد الصارم اذ كانت بذور الفوز الحقيقى الذى كان بالدرجة الأولى فوزا للمبادىء التى دعا اليها جابوتنسكى وهى الانتقال السريع والجاد الى اقامة دولة يهودية فى أرض بدون عرب ، غرست فعلا فى هزيمة الثورة الكبرى على يد البريطانيين .

ملاحظات ومراجع الفصل الثالث :

(١) وارنر ، دورين ، « الارض والفقر فى الشرق الاوسط » المعهد الملكى للشئون الدولية ، لندن ، ١٩٤٨ صفحات ٦١ – ٦٢ .

(٢) نفس المرجع . صفحة ٦٣ .

(٣) باربور ، « بدون الله » ، فى المرجع المشار اليه صفحة ١٣٣ .

(٤) وارينر . فى المرجع المشار اليه صفحة ١٢٦ .

(٥) واينستوك ، ناتان ، « الصهيونية فى مواجهة اسرائيل » ، فرانسوا ماسبيروا ، باريس ١٩٦٩ ، صفحة ١٦٨ .

(٦) ناجى علوش ، المقاومة العربية فى فلسطين (باللغة العربية) ، فى المرجع المشار اليه صفحة ٩١ .

(٧) محمد عزت دروزة ، « حول الحركة العربية الحرية » (باللغة العربية) المطبعة الحديثة صيدا وبيروت ، صفحة ٥٩ .

(٨) تقرير اللجنة الملكية الفلسطينية (لجنة بيل) هـ.م.اس.او. لندن ، ١٩٣٧ صفحة ٨٠ .

(٩) انظر صفحة ٦٣ .

(١٠) الكيالى . تاريخ فلسطين الحديث (باللغة العربية) ، فى المرجع المشار اليه صفحة ٢٩٦ .

(١١) جون مارلو ، « غرش بيلاطس » ، كريسيت برس ، لندن ، ١٩٥٩ ، صفحات ١٣٧ – ١٣٨ .

(١٢) فرانسيس نيوتون ، خمسون عاما فى فلسطين ، فى المرجع المشار اليه . صفحة٢٧٥

(١٣) لجنة بيل . فى المرجع المشار اليه ، صفحات ٩٣ – ٩٤ .

(١٤) الكيالى . المرجع المشار اليه . صفحة ٣١١ .

(١٥) محمد عزت دروزة « القضية الفلسطينية » (باللغة العربية) المطبعة الحديثة صيدا وبيروت ، الجزء الاول ، صفحة ١٣١ .

(١٦) باربر . فى المرجع المشار اليه ، صفحة ١٩٢ .

(١٧) الكيالى ، المرجع المشار اليه ، صفحة ٣١٣ .

(١٨) نفس المرجع صفحة ٣١٥ .

(١٩) لجنة شو ، فى المرجع المشار اليه ، صفحة ١٢٦ .

(٢٠) لجنة بيل ، المرجع المشار اليه ، صفحة ٣٩١ .

(٢١) الكيالى ، فى المرجع المشار اليه ، صفحة ٣٣٣ .

(٢٢) ٦ سبتمبر ١٩٣٨ .

(٢٣) ٣ اكتوبر ١٩٣٨ .

(٢٤) جريدة التايمز ، ٤ أكتوبر ١٩٣٨ .

(٢٥) ١٧ سبتمبر ١٩٣٨ .

(٢٦) سيراليك كيركبرايد ، ((فرقعة الاشواك)) ، جون موراى ، لندن ١٩٥٦ ، صفحة٥٦

(٢٧) فرانسيز نيوتون ، اضواء كاشفة على فلسطين : لق عادلة أو وسائل ارهابية ؟ المركز العربى ، لندن ، ١٩٣٨ ، صفحات ١٦ ـ ١٨ .

(٢٨) وليد الخالدى ((من السماء الى الغزو)) المرجع المشـــار اليه ، صفحات من ٨٤٦ الى ٨٤٩ .

(٢٩) جريدة التايمز ٢١ يوليو ١٩٣٨ ((استعراض لفلسطين)) ، القــدس ، ١٩٤٦ ، صفحات ٣٨ حتى ٤٩ .

(٣٠) أنظر على سبيل المثال كتاب هشام شرابى ((فلسطين واسرائيل الورطة المهلكة)) بيجاسوس ، نيويورك ، ١٩٦٩ ، صفحات ١٨٤ الى ١٩٢ .

(٣١) جريدة التايمز ٩ سبتمبر ١٩٣٨ .

(٣٢) روبرت جون وسامى هداوى ، ((يوميات فلسطين)) ، مركز الابحاث الفلسطينية ، بيروت الجزء الاول ، صفحة ٢٧٩ .

(٣٣) الكيالى ـ المرجع المشار اليه ، صفحة ٣٥٠ .

(٣٤) انظر صفحات ٣٣ ـ ٣٤ .

(٣٥) مؤسسة آى.اس.أو ، فلسطين : دراسة للسياسات اليهوديةوالعربية والبريطانية الجزء الثانى ، صفحة ٩١٠ .

(٣٦) افنيرى ، اسرائيل بدون صهيونيين : ((نداء لاقرار السلام فى الشرق الاوسط)) ، المرجع المشار اليه ، صفحة ٨٨ .

(٣٧) مارلو ، المرجع المشار اليه ، صفحة ١٣٣ .

(٣٨) أنظر صفحة ٣٦ .

(٣٩) الان.ر.تايلور ، التفكير الصهيونى ، ((جذور وتطور الفكر الصهيونى)) ، المرجع المشار اليه ، صفحة ٨٩ .

(٤٠) نفس المرجع . صفحة ٨٩ .

(٤١) نفس المرجع . صفحة ٩١ .

(٤٢) الحدود اليهودية ، اكتوبر ١٩٤٨ ، صفحات ٨،٧ .

(٤٣) وايزمان ، التجربة والخطأ ، المرجع المشار اليه ، صفحات ٤٨٤ — ٤٨٨ .

(٤٤) ١٫٥ سبتمبر ١٩٣٨ .

(٤٥) شختمان ، مقاتل وبنى ، « قصة فلاديمير جابوتنسكى » ، المرجع المشـــار اليه صفحة ٤٧٤ .

(٤٦) جريدة التايمز ٢١ يوليو ١٩٣٨ .

(٤٧) فلسطين بوست ، ٢٦ يوليو ١٩٣٨ .

(٤٨) ٥ يوليو ١٩٣٨ .

(٤٩) ١٧ يوليو ١٩٣٨ .

(٥٠) ١٥ يوليو ١٩٣٨ .

(٥١) شيختمان ، المرجع المشار اليه ، صفحات ٤٤٩ — ٤٥٣ .

(٥٢) نفس المرجع ، صفحة ٤٨٥ .

(٥٣) يهودا باعوير ، « نظرة جديدة » ، يوليو — اغسطس ، المرجع التاسع ، رقم ٧ ، صفحة ٢٦ .
ب ب ب

(٥٤) جون مارلو ، « ثورة فى فلسطين » ، كريسيت برس ، لندن ١٩٤٦ ، صفحة ٢٤٤ .

(٥٥) شيختمان — المرجع المشار اليه ، صفحة ٤٨٣ .

(٥٦) ليونارد حوزلى ، « جدعون يذهب للحرب » ، آرثر باركر ، لنـــدن ، ١٩٥٥ ، صفحات ٥٧ — ٥٨ .

(٥٧) ريتشارد مينير تزهاجن ، « يوميات الشرق الاوسط » : ١٩١٧ — ١٩٥٦ ، كريسيت برس ، لندن ، ١٩٥٩ ، صفحات ١٩١ — ١٩٢ .

الفصـــل الـــرابع
صهيونيـــة البندقيـــة

طـــرد البريطانيين :

كان فندق الملك داود فى نظر المستوطنين عـــام ١٩٤٦ شيئا أكثر من مجرد كونه اكثر فنادق القدس شهرة . اذ أمسى جنـــاحا كاملا يضم مقر القيادة العسكرية والمدنية على حد سـواء وهو الأداة التى تربط بين عناصر النفوذ البريطانى فى فلسطين . وكان يحمى هـــذه القلعة الواقعة فى قلب العاصمة كل ما يمكن تصوره من أجهزة بشرية وفنية فكان الجنود يقومون بدوريات مستمرة حول الجناح . وكان جنود آخـــرون يرابطون فى أوكار المدافع الرشاشة فوق سطحه . وكانت واجهنه مغطاة بشبكة من الاسلاك للحيلولة دون القاء متفجرات على نحو عرضى . وكان الدخول اليه عن طريق ممر ضيق محاط بالأسلاك الشـــائكة يقف على جانبيه حراس مسـلحون وعند الوصـــول فى النهاية الى بابه الخارجى كان الداخل يجـــد أنه مغلق بمصاريع حديدية لا يمكن فتحها الا بمفتاح كهربائى من الداخل . ولا يمكن وضع قدم فى داخل المبنى ذاته الا بعد باب آخر يتم تشغيله بالكهرباء .

وكانت هذه هى البندقة التى عقد مناحم بيجين العزم على كسرها . كان جابوتنسكى قد مات عـــام ١٩٤٠ وبرز بيجين كخليفة قـــدير لمؤسس حركة التنقيحية ، وذلك باعتباره زعيم المنظمة الارهابية السرية (ارجون تسفائى ليومى) . وكان بيجين قد هاجر من بولندا الى فلسطين ابان الحرب وكان يبدو رجلا ضئيل القامة فى أواخر الثلاثينات من عمره ، يبدو أكثر سنا من حقيقته بســـبب النظارة السميكة التى يضعها على عينيه ، « وكان يبدو أنه من ذلك الطراز الذى يشتغل بالأعمال التجارية بصورة محدودة فى أى مدينة شرقى الالب . ولم يكن هناك أى طابع عسكرى يميزه أو أى صفة قيادية .. لا شىء مؤثر بصورة غير عادية (١) » ومع هذا أضـــحى شخصية أسطورية فى فلسطين . كان بيجين يتميز بصفة بارزة واحـــدة كان مخططا . وإن كان على نطاق ضيق ، وشديد التدقيق الى حـــد بحث أدق التفاصيل وكانت هذه هى الصـــفة التى استخدمها الى أقصى حـــد حينما طرح أمام الهاجاناة والزعامة الصهيونية الرسمية فى صيف عـــام

١٩٤٦ عملية مالوتثيك ، وهى خطة لنسـف فندق الملك داود . ووافقوا عليها فى نهاية الامـر . وفى ٢٢ يوليو وقبل الظهيرة بفترة قصيرة اتجهت سيارة نقل الى مدخل مطبخ الفندق الذى يقع على الطرف المقابل لجنـاح الحكومة ، وخرج منها رجال يرتدون الملابس العربية . ولم يبد أى أحـد اهتماما حينما بدأوا يفرغون حمولة من مخضـات اللبن ويدحرجونها الى قهوة ريجينس المجاورة للمطبخ . ولم يدر فى خلد أى أحد ان هذه المخضات من الألبان مملوءة بمتفجرات شديدة أو أن هؤلاء العرب هم وحدة الهجوم التابعة لارجون . وكان الرجال الذين كلفهم بيجين باستطلاع المبنى قـد اكتشفوا وجود ممر عريض فى الطابق الأرضي يمتد بطول المبنى كله ، وأنه على الرغم من كل أجهزة الأمن المتطورة فوق الارض لم يكن هناك أى نوع منها تقريبا فى هذا الطابق الأرضى . واحتجز « العرب » العـاملون بقهوة ريجينس واشتبكوا فى معركة مع ضابطين بريطانيين وتركوا مخضات اللبن فى أماكنها المحددة وحددوا توقيت تفجيرها فى خلال نصف ساعة . وحينما شرعت فرقة الهجوم فى الخروج من المبنى أطلقت سراح العـاملين بالقهوة وطلبت منهم النجاة بجلدهم . ولكن العاملين الحكوميين فى الطوابق العليـا لم يتلقوا تحذيرا كهذا .. أو لم يتلقوا على الأقل أى تحذير على الرغم من مزاعم بيجين بعكس ذلك ، ولذلك لم يتح أى وقت للتصرف :

« كانت الساعة الثانية عشرة وخمس عشرة دقيقة . وأخذ جدعـون (قائد وحدة الهجوم) يعد الدقائق . وكان كل شىء قد سـار حتى ذلك الحين وفق الخطة الموضوعة فيما عدا ما تكبدناه من خسائر فى الأرواح فى الاشتباك غير المتوقع .. كان هناك سؤال واحد يشغل باله هل ستنفجر العبوات الناسفة ؟ . ألم يقع خطأ ما فى تركيبها ؟ . وهل سينسف المبنى حقا ؟ وهل ستصبح الوثائق أثرا بعد عين ؟ .

كانت كل دقيقة تبدو كما لو كانت يوما بطوله . الساعة الآن الثانية عشرة والدقيقة الواحدة والثلاثون .. والدقيقة الثانية والثلاثون وأقتربت ساعة الصفر واستبد القلق بجدعون ، فقـد كاد نصف السـاعة ان ينتهى الساعة الآن الثانية عشرة والدقيقة السابعة والثلاثون .. وفجأة بدا أن المدينـة كلها ترتج بعنف . لم يكن هنـاك خطأ . ولكن قوة التفجير كانت أكبر من المتوقع . وكان الشـك قد ساور اسحاق صـادح قـائد الهاجاناة فى امكان أن يصل الانفجار الى الطابق الثالث أو حتى الثانى . وزعم جيـدى أنه على الرغم من أن ٥٠٠ رطل فقط من المتفجرات مركب

من مادة ثالث نترات التولوين والجلجانيت — هى التى وضعت فى علب الألبان فان المساحة الضيقة للدور الأسفل سوف تضاعف من قوة الغازات المندفعة الامر الذى يجعل الانفجار يبلغ السطح . « ووصلت » علب اللبن الى ارتفاع المبنى كله من الدور الاسفل حتى السطح .. ستة طوابق من الاحجار والاسمنت والصلب . وتداعى جناح كامل من مبنى ضخم كما لو كان قد شق بسكين (٢) على حد وصف الاذاعة البريطانية » .

. وهلك أكثر من ثمانية وثمانين شخصا وسط الحجارة المتهاوية من بريطانيين وعرب .. كما هلك خمسة عشر يهوديا .

كان نسف فندق الملك داوود ينطوى على رسالة موجهة للعالم بأسره الى أمة جديدة ظهرت فى فلسطين .. أمة عبر عنها وعد بلفور .. ونشأت فى كنف الانتداب وخرجت الى الحياة وسط العنف العادل الذى يتولد دائما عن أحداث تاريخية وقد ظن الكثيرون ومن بينهم بعض اليهود الجبناء أنه سيقضى عليها وهى لاتزال جنينا . فبالقصور فهمهم للقدرات الفطرية التى تملكها الروح البشرية . أن مناحم بيجين فى كتابه « الثورة » يهدى قراءه الى طريق معرفة ميتافيزيقا الخلاص الوطنى اليهودى .

« لقد نبتت الثورة من الارض . ان القصة الاغريقية القديمة التى تتحدث عن انتاؤوس والقوة التى أستمدها من الاتصال بالارض الأم ليست الا اسطورة . أما القوة المتجددة التى حلت بنا — ولا سيما الشباب من ابناءنا — من الاتصال بتربة أرضنا القديمة ليست أسطورة ولكنها حقيقة . ان المسئولين بوزارة الخارجية البريطانية لم يكن لديهم أى فكرة عن هذا حينما وضعوا خططهم . فما الذى كان يمكن أن يتوقعوه عن هذه القوة الخفية التى دأب هرتزل على وصفها بأنها (غير قابلة للوزن بدقة) ؟ « ولم يكن خطؤهم حسابيا .. اذ لم يخطئوا فى حساب عدد اليهود الذين يريدون التوجه الى أرض اسرائيل . ولكنهم افترضوا أن اليهود فى أرض اسرائيل سيظلون ايضا فئة جبانة تناشدهم الحماية . وبد أن سلوك اليهود أو بالاحرى موقف زعمائهم الرسميين الذى تجلى فى سياسة ضبط النفس الشهيرة — يبرر هذا الافتراض ويؤكد صحته . ولكن هذه القوى غير المرئية التى أنقذت الشعب اليهودى دائما من المحو من الوجود ، قضت على الافتراض البريطانى .. وشب جيل جديد أدار ظهره للخوف . وبدأ يقاتل بدلا من التضرع والتوسل . وقد ظل اليهود كيهود لا يحملون سلاحا ، طيلة ألفى عام تقريبا .. ووضع مضطهدوها حساباتهم على

اساس هذا التجرد الكامل من السلاح .. النفسى والمادى على حد سواء . ولم يدركوا ان الظاهرتين متداخلتان ، اذ أننا تخلينا عن سلاحنا حينما نفينا من بلادنا . ولكن قوتنا عادت لنا مع عودتنا الى أرض آبائنا » (٣) ..

وحينما قال ديكارت « أنا أفكر .. اذن فأنا موجود » ، أعلن فكرة عميقة للغاية ولكن هناك أوقات فى تاريخ الشعوب لا يبرهن الفكر بمفرده على وجودها . فقد فكر شعب ما « ومع هذا قد يتحول أبناؤنا مع فكرهم وبالرغم منهم الى قطيع من العبيد .. أو الى غير شىء . وهناك أوقات يصرخ فيها كل ما فيك قائلا : أن كل احترامك لنفسك كانسان يكمن فى مقاومتك للشر ..

نحن نقاتل .. اذن نحن موجودون (٤) .

وشبت صهيونية البندقية عن الطوق واتجهت ضد حكام فلسطين من البريطانيين شأنها فى ذلك شأن ثورة العرب من عشرة أعوام خلت ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية قررت الزعامة الصهيونية الرسمية — وهى تكبت غضبها من الكتاب الابيض الذى صدر عام ١٩٣٩ — عرض خدماتها على الحلفاء . وكانت زيادة تطوير قدراتهم العسكرية من خلال تجنيد اليهود فى القوات البريطانية هى المكافأة التى توقعوا الحصول عليها .. بل حصلوا عليها فعلا . واحترمت ارجون هذه الهدنة أيضا ولكن جماعة منشقة عن ارجون — هى عصابة شتيرن — رفضت الاذعان .

وحينما وضعت الحرب أوزارها بعد هزيمة الفاشية شرع الصهيونيون على الفور فى المطالبة بالحق فى اقامة دولة يهودية وهو الحق الذى كشف الآن عن نفسه باعتباره الهدف الواضح والوفاء الحقيقى الوحيد لكل كفاحهم ونضالهم . وكان نحو ٦٠٠ مندوب من فلسطين وأوروبا وأمريكا قد عقدوا فى مايو ١٩٤٢ نوعا من الدورات الاستثنائية للمؤتمر الصهيونى العالمى بمدينة نيويورك . وحضر وايزمان .. رجل الدولة العجوز المؤتمر ولكن دافيد بن جوريون هو الذى نفخ فى المؤتمر الروح الجديدة الميالة الى القتال التى اكتسبها يهود فلسطين وكان الكومنولث اليهودى الذى طالب باقامة ما يدعى ببرنامج « بالتيمور » ، دولة يهودية فى كل شىء ما خلا الاسم ، اذ يجب أن يكون لجماعات المستوطنين جيشها الذى يقاتل تحت علمها وينبغى فتح أبواب فلسطين أمام هجرة غير محدودة باشراف الوكالة اليهودية التى يجب أيضا منحها سلطة بناء البلاد وتنمية أراضيها الشاغرة

وغير المزروعة . وحقق هذا المؤتمر فوزا معنويا للتنقيحيين . فقد لحق بن جوريون والأغلبية المعتدلة ببيجين والاقلية المتطرفة وبعد (بالتيمور) فسر فقهاء القانون من جديد اعلان بالتيمور بأنه « لا يعنى منح الشعب اليهودى وطنا فى فلسطين فحسب بل وطنا قوميا . ومعنى (قوميا) انتماء لأمة .. ومن المنطقى ، أن وطنا قوميا يعد مرادفا لدولة (٥) » ورفضت قلة ضئيلة منشقة من المؤمنين بالمثل الاخلاقية على طريقة أحادهعام الانسياق وراء هذا التفسير . وشكا موشى سميلانسكى وهو أحد مهاجرى تسعينيات القرن التاسع عشر المخضرمون ، من أن « .. جوا معينا بدا يفرض نفسه على المستوطنين . وكان التنقيحيون هم أول من أعلن فى المعسكر الصهيونى أن الدولة هى عقيدة أساسية لديهم .. هؤلاء التنقيحيون الذين كانوا حتى أعلان بالتيمور كالمنبوذين فى الحركة الصهيونية .. وكان الشباب من أنصار الحركة التنقيحية هم فقط الذين نشأوا قبل ذلك على روح التعصب والنزعة العسكرية والتى اطلق عليها الجهل المطبق وقصر النظر بصفة « القومية » . ومع هذا ينشأ السواد الأعظم من شبابنا اليوم على هذه الروح .. وكانت الهاجاناة جهازا نقيا فى البداية يخلو من الاغراض ، ومطهر من الدوافع ولكن الاعلان عن اقامة « دولة » والاستعدادات التى أدت لذلك قلبت الهاجاناة راسا على عقب .. ووضعت هذه المنظمة على نفس مستوى مجرمى الارجون تسفائى ليومى وجماعة شتيرن . وأصبحت حرية الفكر والحديث محظورة منذ أيام اعلان بالتيمور وتحول الكتاب الى ابواق تردد الشعارات التى تملى عليهم من أعلى . وكل من يجرؤ على أن يكون له رأيه المستقل يعتبر خائنا . وارغم الكتاب الذين يتمتعون بقدر ما من استقلالية الرأى على التزام الصمت » .

وعقب نهاية الحرب فى أوروبا بأسبوعين طلب الصهيونيون الذين اتخذوا اعلان بالتيمور شريعتهم الجديدة – من الوزارة الائتلافية برئاسة تشرشل اتخاذ قرار عاجل اعلان فلسطين دولة يهودية « غير ناقصة وغير مقسمة » . وقيل لهم أنه لابد من عقد مؤتمر سلام عام قبل اقرار أى تسوية لفلسطين . وبعد ذلك بشهرين الحق حزب العمال هزيمة ساحة بتشرشل وبحزب المحافظين بعد اكتساحه لهم فى الانتخابات . وكان من الطبيعى أن يشعر الصهيونيون بأن هذا بشير طيب لهم لان سجل حزب العمال فى اخلاصه لقضيتهم كان طويلا ولا تشوبه أية شائبة . ولكن سرعان ما انهارت آمالهم . اذ أن مسئوليات المنصب حملت الحزب على التوصل الى اكتشاف له وزنه يتلخص فى أن جميع الصيغ النظرية التى وافقت عليها المؤتمرات

المتابعة للحزب بتأثير الصهيونية لا تتفق على الاطلاق مع حقائق الارض التى يفترض أن تخصص لهم وتخضع لسلطان العرب .

ووقعت على عاتق ارنست بيفن وزير الخارجية المهمة غير السارة وهى اضفاء تعبير عملى على الاكتشاف . وسرعان ما تعرض لهجوم استهدف تشويه سمعته بسبب جهوده باعتباره مناهضا للسامية ، وهى صفة لم تكن فيه بالتأكيد اذا حكمنا عليه من خلال سجله السابق (٧) .

وحاول بيفن مدفوعا بروح الكتاب الابيض الصادر عام ١٩٣٩ الحصول على موافقة على اقامة دولة مستقلة فى فلسطين لا يهودية ولا عربية ولكنها اتحاد وثيق العرى بين الطائفتين على أساس من الاحترام المتبادل والمساواة . ورفض ــ قرابة عامين ــ الخضوع لما يمليه اى من الجانبين . ولكن هذه محاولة للالتزام بعدم التحيز اعترض عليها الصهيونيون بغضب لانهم هم وليس العرب ــ كانوا يتخذون حاليا جانب الهجوم . ورفض بيفن مطالب اعلان « بالتيمور » وكذلك رفض مطالب أخرى مؤقتة أقل تعتبر انحرافا عما جاء بالكتاب الابيض وهى مطالب كان قبولها سيقضى على سمعته الطيبة فى اعين العرب . وكان أهم هذه المطالب السماح بدخول مائة الف لاجىء من أوروبا التى خربتها الحرب . وقام بايفاد لجنة تحقيق أخرى الى فلسطين ووجهت فى هذه المرة الدعوة الى أمريكا ــ زعيمة الغرب حاليا ــ للاشتراك فى التحقيقات وأوصت اللجنة باقامة نوع من أنواع الدولة الثنائية الجنسية عقب فترة ممتدة من وصاية الأمم المتحدة . وكان هذا يتفق الى حد كبير مع ما جاء بالكتاب الابيض : وبالتالى رفض الصهيونيون الاقتراح . كذلك وافقت اللجنة على دخول مائة الف يهودى الى فلسطين . ولم يوافق العرب على أى من هذه المقترحات ولما طلب من الصهيونيين فى نفس الوقت حل قوات الميليشيا غير القانونية التابعة لهم رفضوا ذلك ايضا . وبعد ذلك بفترة قصيرة أقدموا على تخريب اقتراح بمنح استقلال ذاتى اقليميى لكل من العرب واليهود كان قد طرحه فريق أنجلو ــ أمريكى من الخبراء . وكف بيفن فى النهاية عن الكفاح . ففى شهر ابريل عام ١٩٤٧ القت بريطانيا بكل المشكلة المعقدة التى تبعث على اليأس على كاهل الأمم المتحدة . ومنذ ذلك الحين فصاعدا أضحت المحاولة الأخيرة المشينة لاغراق السفينة المتسترة وراء واجهة زجاجية من الامتثال المتردد للارادة الدولية مسألة وقت فحسب .

وكان من المحتم أن يصل الوضع الى ما وصل اليه فقد تغير العالم منذ عام ١٩٣٩ . ولم تعد بريطانيا – المنتصرة وان كان الضعف قد دب فيها – تملك الرغبة أو الامكانيات التى تمكنها من تحمل عبء فلسطين . وكان الصهيونيون يدركون ذلك تماما ، وحينما برز بيفن كعقبة تعترض طريقهم عقدوا العزم على ابعاده من الطريق ، بأن يفرضوا نهاية للانتداب بطريقتهم الخاصة .

وكان الطريق الذى اختاروه هو طريق استخدام العنف الذى اتخذه التنقيحيون أساسا . ومثلما انضم المعتدلون فى « بالتيمور » الى المتطرفين فى اقتراح هدف مشترك كذلك ، تعاونت الحركة الصهيونية برمتها التى تواجه معارضة بريطانية لتحقيق هذا الهدف ولم يكن استخدام العنف بطبيعة الحال هو الوسيلة الوحيدة . اذ كانت الدبلوماسية لا تزال لها أهميتها .. وهى مجال نبغ فيه وايزمان والزعامة الرسمية وبان ظهور القوة العظمى الامريكية احدى الحقائق الجديدة فى عالم ما بعد الحرب . ومارس الصهاينة قوة ضغطهم الرئيسية منذ ذلك الحين فصاعدا فى الولايات المتحدة لا فى بريطانيا ، تلك القوة الاستعمارية القديمة التى أخذ نجمها يأفل سريعا . واكتسب وايزمان مجده بعد أن برهن على استاذيته فى فنه الدبلوماسى أحد جانبى المحيط الاطلنطى بنفس قدر أستاذيته قبل ذلك فى الجانب الآخر وهبت الجالية اليهودية الامريكية ذات الاهمية الرئيسية فى الانتخابات والاكثر عددا من الجالية اليهودية فى بريطانيا ، فى النهاية بصورة جماعية لنصرة القضية . وقام الصهيونيون الآن بتحويل ذلك النفوذ الذى يتمتعون به الى ضغط مارسوه على بريطانيا عن طريق الحكومة الامريكية وهو ضغط كان مكملا ، بل تجاوز وزنه ، ذلك الضغط الذى كانوا يمارسونه من خلال الناخبين اليهود فى الدوائر الانتخابية البريطانية ذاتها . وسعى الرئيس ترومان بلا خجل من أجل كسب أصوات اليهود . قال للسفراء الأمريكيين لدى دول العالم العربى « آسف يا سادة ولكن يجب على ارضاء مشاعر مئات الآلاف الحريصيين على نجاح الصهيونية . وليس لدى مئات الآلاف من العرب بين الناخبين فى بلادى (٨) » ولم يكف بين الحين والآخر عن عرقلة مسيرة حركة التصالح العربية اليهودية التى كان بيفن يحاول جاهدا اطلاق حركتها وبذل جهده من أجل السماح بهجرة مائة الف يهودى الى فلسطين .. متجاهلا باستخفاف الاقتراح بأنه يتعين عليه فى هذه الحالة المشاركة فى تحمل مسئولية قمع الاضطرابات العربية التى سيثيرها هذا الاجراء وذلك

بارسال قوات أمريكية الى فلسطين . ولم يكد الخبراء الانجلو — أمريكيين يطرحون خطتهم التى وضعوها بعد جهد شاق والتى تقضى بمنح العرب واليهود استقلالا ذاتيا اقليميا ، حتى كان ترومان المؤيد للخطة الصهيونية المنافسة يسعى بكل قواه لتنفيذها . كذلك لم تكن سبل الاقتناع الأمريكية تخلو من وصمة الابتزاز الاقتصادى .. فحليفتها الشجاعة التى حل بها الخراب من جراء الحرب لم يكن يمكنها الاعتماد على نصيبها من المعونة المالية الأمريكية الا اذ احسنت السلوك فى فلسطين (٩) .

وتم أيضا التنسيق بين أعمال العنف والدعاية . وقام الصهيونيون الذين لم يتوانوا قط عن احراز مكسب دعائى بشن واحدة من أكثر حملاتهم الدعائية نجاحا على الاطلاق فى ذلك الوقت . فمن بين الحطام البشرى الذى خلقته حرب هتلر وراءها بقى نحو ثلثمائة ألف يهودى على قيد الحياة من عملية الابادة الكاملة التى تعرضوا لها وكانت قلة منهم ستفضل بارادتها الحرة الذهاب الى فلسطين بدلا من الذهاب الى الاولايات المتحدة أو أوروبا الغربية . ولكنهم لم يكونوا يملكون حرية الاختيار فقد حرمتهم منها امريكا على وجه الخصوص فهذه الدولة المترامية الأطراف والمزدهرة .. أم المهاجرين هذه ، طالبت فلسطين الصغيرة بفتح أبوابها لمائة ألف لاجىء يستحقون المساعدة . ومع هذا وافق الكونجرس الأمريكى بعد تردد شديد على السماح بدخول عشرين الف لاجىء فقط من نفس هذه الفئة التى نجت من الابادة الكاملة ولا سيما اليهود من بينهم ، واحتاج الامر الى ثلاثة أعوام لاقناع الكونجرس بالموافقة على مشروع قانون « يميز بصورة قاسية ضد أشخاص مشردين يدينون باليهودية (١٠) » على حد قول ترومان . ولم يكن هناك من هم أكثر تشجيعا لمنع الأمريكيين لهجرة اليهود الى بلادهم من الصهيونيين أنفسهم وكان سلف ترومان قد أوفد موريس ارنست المحامى اليهودى فى مهمة لاستكشاف امكانيات بذل جهد لتسوية مشكلة اللاجئين بأن تتحمل كل دولة نصيبا معقولا من العبء . ويستعيد ارنست فى ذهنه ما يلى : « ذهلت بل شعرت بالاهانة حينما قام زعماء يهود بانتقادى بقسوة والسخرية منى ثم مهاجمتى كأنى كنت خائنا. ووجه الى الاتهام صراحة فى أحد حفلات العشاء بتشجيع هذه الخطة الخاصة بتوسيع نطاق حرية الهجرة بغية تعويض الصهيونية السياسية » ولكن هذا لم يمنع ترومان أو الصهيونيين من المطالبة بفتح أبواب فلسطين أمام اللاجئين لاسباب انسانية .. فلسطين التى أصبحت على حد قول ترومان « أملهم الوحيد فى البقاء » . كذلك لم يمنعهم هذا من صب اللعنات

على بريطانيا لرفضها السماح لهم بالهجرة .. ؟ .. او وفقا لشهادة ارنست « جزيرة بريطانيا العظمى الصغيرة والفقيرة التى استقبلت حتى الآن من اللاجئين أكبر مما استقبلت جميع دول العالم الأخرى مجتمعة (١١)

فما هى الوسيلة الاسهل للوصول الى قلوب الرجال والنساء العاديين والمهاجرين فى كل مكان — ولا سيما فى أمريكا البريئة — من هذا التصوير الدرامى لكفاح المهاجرين للوصول الى أرض الميعاد ؟ . لقد أحيطت قصة السفينة « اكسودس » — أى الخروج — وهى أشهر سفينة التى تحمل شحنة من البؤس البشرى الذى يشق طريقه الى شواطىء فلسطين بهالة من التمجيد فى الكتب والأقلام . وحينما وصلت هذه السفينة المتداعية الى حيفا رفضت السلطات البريطانية السماح للاجئين الذين كانوا على ظهر السفينة ، ويبلغ عددهم أربعة آلاف وخمسمائة لاجىء ، بالنزول الى الشاطىء . وكان الصهيونيون يعرفون أن هذا سوف يحدث ، لأن البريطانيين كانوا حتى هذا الحين ينفذون بحزم القيود التى فرضوها على الهجرة ، ولذلك أعدوا كل شىء للتأكد من أن العالم سيشهد ما يحدث ، وأبحرت سفينة « اكسودس » عائدة الى ميناء مرسيليا وانتهى المطاف باللاجئين فى المنطقة البريطانية المحتلة من ألمانيا بعد مغامرات شتى زاخرة بمشاهدة تقطع نياط القلب ، وتابع قراء الصحف وشاهد الناظرون فى دور السينما فى كافة ارجاء الولايات المتحدة كل مرحلة من مراحل هذه الرحلات الكئيبة ولم يدركوا كثيرا أن المسرحية قد أثيرت عمدا .

وكان نسف فندق الملك داود قمة العنف ضد البريطانيين فى فلسطين . وهو حدث كان مدمرا فى أثره المعنوى بقدر ما كان مدمرا فى أثره المادى . كان ضربة موجهة عن قصد الى المركز العصبى للطغيان البريطانى . واذا لم يكن محتما بحكم القضاء والقدر ، فقد كان على الأقل انجازا بارعا « لصهيونية البندقية » من الممكن التنبؤ به بصورة بارزة وكان ذلك النوع من العمل هو ما انجذب اليه جميع الصهيونيين من معتدلين ومتطرفين على نحو تعذرت مقاومته منذ زمن بعيد . وقد اقترح المتطرفون وبرروا مثل هذه السبل قبل أن يقوم الرجال العمليون بوضعها موضع التنفيذ بفترة طويلة . اذ كان جابوتنسكى قد توصل بعد صدور الكتاب الابيض عام ١٩٣٩ الى أن « الوسيلة الوحيدة لتحرير البلاد هى استخدام السيف (١٢) ووضع خطة لثورة عسكرية تقوم بها منظمة أرجون . وتقضى الخطة بأن يرسو قارب محمل بالمهاجرين « غير الشرعيين » — ومن بينهم جابوتنسكى —

فى شهر أكتوبر عام ١٩٣٩ وسط البلاد .. وفى تل أبيب اذا أمكن . وسوف تقوم بحمايتهم جماعة ارجون هبوطهم باستخدام القوة اذا استدعى الأمر . وفى نفس الوقت يقوم عصيان مسلح يجرى خلاله فرض حصار حول أكبر عدد ممكن من المبانى الرسمية ومن بينها مقر الحكومة فى القدس . ويرفع العلم اليهودى ويستمر الاحتفاظ بالواقع ومقاومة القبض على جابوتنسكى لمدة أربع وعشرين ساعة على أقل تقدير أيا كانت التضحيات . وسوف يعلن خلال التمرد عن قيام حكومة مؤقتة للدولة اليهودية فى عواصم أوروبا الغربية والولايات المتحدة فى آن واحد وسوف تقوم هذه الحكومة بعد ذلك بدور حكومة فى المنفى تجسيدا للسيادة اليهودية فى فلسطين (١٣) . (وتم تصور الانقلاب اليهودى بنفس الروح المتهورة التى تم بها تصور مشروع آخر حاول جابوتنسكى أن يحصل على تأييد الولايات المتحدة له وهو : تحقيق « أغلبية يهودية ما بين عشية وضحاها » . فقد حث على ضرورة قيام الصهيونيين « بارسال نحو مليون شاب الى فلسطين على الفور (١٤) » وكان جابوتنسكى يرى أن الانقلاب سيتم قمعه بلا أدنى شك ولكنه كفيل — قبل أن يتعرض للقمع — بوضع العالم اليهودى وغير اليهودى أمام الأمر الواقع التاريخى وهو اعلان اقامة دولة يهودية وكان من شأن حقيقة تمكن اليهود ولو لمدة أربع وعشرين ساعة من احتلال المعاقل الادارية الرئيسية بالبلاد ، خلق واقع سياسى لا يمكن محوه قط بعد ذلك ، فأى تضحية لا تكون غالية بالنسبة للسيادة اليهودية التى يخلدها رمز الحكومة اليهودية فى المنفى .

وفى نفس الوقت برهنت خطة أرلوزورف الخاصة باقامة « حكم أقلية ثورية (١٥) على أن حاول التنقيحيين لمشكلات متعذرة الحل بدون ذلك ، تجتذب على نحو غريزى الزعماء الصهيونيين المعتدلين ، مهما كانت شدة رفضهم لهذه الحاول . وكان ارلوزورف قد درس مؤلف كورزيو مالاباريتى عن نظرية العصيان المسلح فى القرن العشرين وكان ما فكر فيه هو القيام « بانقلاب حقيقى ضد البريطانيين (١٦) » ، وهى لغة واضحة يتحاشى المعتدلون استخدمها على نحو مميز ، على عكس التنقيحيين .

وكانت القيادة الرسمية قد وافقت على عملية فندق الملك داود . ولعله من الحقيقى كما زعمت الوكالة اليهودية بعد ذلك ، أن نوع العملية التى وافقت عليها واستهدفت تحقيق الحد الاقصى من التدمير المادى بأقل خسارة فى الأرواح كانت مختلفة عن تلك التى تم تنفيذها اختلافا بينا أو قد لا يكون كذلك مثلما زعم مناحيم بيجين . ولكنها وافقت على المبدأ طبقا

لنظرية « الكفاح المترابط » . وهى النظرية التى برر بها أنصار سياسة التزام ضبط النفس فى الثلاثينات ، اللجوء الى استخدام العنف فى الاربعينات وكان من المفترض أن يكون العنف محدودا وانتقائيا .. قاصرا على شن هجمات على عقبات تعترض ما يعتبرونه طريق الصهيونية المشروع فاذا كانت محطة رادار حيفا تتدخل فى عملية الهجرة على سبيل المثال ، فعندئذ يجب تدميرها . وكانت خطوط السكك لحديدية تحمل القطارات التى تنقل الجنود الذين يقومون بمطاردة المهاجرين .. وبالتالى من الصواب ومن المناسب نسف خطوط السكك الحديدية . ويحكم نفس المبدأ قانون الانتقام وسعى منظور الهاجاناة الى اقامة نوع من أنواع العلاقة الحسابية بين الهجوم « والانتقام » وحددت المعادلة أن يكون « حجم الانتقام مماثلا لحجم الهجوم (١٧) » .

وكانت عملية مالينتشسيك فى نظرهم انتقاما مناسبا من الاستفزاز البريطانى اذ كانت القوات البريطانية قد احتلت مكاتب الوكالة اليهودية وحدث هذا أثناء حملة أمن واسعة النطاق كان الحافز عليها العنف اليهودى المتصاعد الذى كان يلقى الموافقة بالمثل ، أو يتم التغاضى عنه . ومع هذا كانت الوكالة اليهودية تعتبر « مركز القيادة اليهودى » . ومن ثم لابد أن يوقع اليهود بالبريطانيين جزاء من نفس النوع وأن يهاجموهم فى مركز قيادتهم بفندق الملك داود .

وادانت الزعامة الرسمية بعد فترة من التردد « اعتداء المنشقين » الوحشى وكان عدد القتلى أكبر كثيرا مما كانوا يتوقعونه . ولكن تنديداتهم لم تكن بذات قيمة معنوية كبيرة ذلك لأن أسلوبهم المألوف فى الممارسة منذ زمن بعيد كان يتلخص فى التنصل من عمليات وافقوا عليها أو تبنوا القيام بها فعلا بمقتضى نظرية « الكفاح المترابط » . والواقع أنه حينما اجتاحت القوات البريطانية مكاتب الوكالة اليهودية التى كان يحلو تخيل تمتعها بنوع من أنواع « الوضع الدولى » المتمتع بالحصانة تمكنت من أن تنتزع من آلة كاتبة بأحد المكاتب تقريرا حرفيا عن الخطاب الذى ألقاه موشى شاريت رئيس الادارة السياسية بالوكالة أمام المجلس الصهيونى (ومن المصادفة أن الخطاب أوضح أن تدمير الوثائق أدلة ادانة كان دافعا آخر لنسف فندق الملك داود) . واثنى شاريت فى خطابه على عملية تخريبية متعددة الأطراف تعاون فى تنفيذها كل من الهاجاناه وارجون وشتيرن . وهو ثناء لا يتفق مع احتجاج الوكالة المتكرر بعدم علمها بشىء عن مثل هذه الأمور (١٨) . وواقع

الأمر أن حركة المقاومة اليهودية ظهرت الى الوجود عقب نهاية الحرب العالمية الثانية بفترة قصيرة جدا . وكانت هذه الحركة تمثل تحالفا عمليا بين المعتدلين والمتطرفين واضطر بن جوريون أثناء استجوابه الى الاعتراف بأن الوكالة لم تفعل شيئا لكبح جماح الارهاب . وقال « لا يمكننا أن نفعل ذلك ، لانه لا جدوى من ذلك كما قلت لك يا سيدى .. لا جدوى من ذلك » . وقال ريتشارد كروسمان أحد أنصار الصهيونية المؤثرين من البريطانيين عن هذا التبرير ، انه « يبدو كأنه يرغب اختيار كلا الامرين تأمينا لمصلحته وذلك بأن يظل ملتزما بحرفية القانون باعتباره رئيسا للوكالة وأن يتسامح مع الارهاب كوسيلة لممارسة ضغط على الادارة البريطانية (١٩) وبدا أن وايزمان ذاته بين الفينة والأخرى يدرك انحرافات « صهيونية البندقية » ويبدو اشمئزازه منها ، ولذا قال : اذا أردت ضمان خلاصك من خلال اتباع وسائل .. لا تتفق مع المعنويات اليهودية أو الاخلاق اليهودية أو التاريخ اليهودى فانى أقول لك أنك تعبد الالهة زائفة .. وعليك أن تعيد قراءة اسفار اشعياء وارميا وهزقيال .. واختبر ما نفعله ومانرغب فى القيام به فى ضوء تعاليم أنبيائنا وحكمائنا العظماء . منهم يعلمون طبيعة وخلق الشعب اليهودى . ولن يكتب الخلاص لصهيون الا بالاستقامة .. وليس بأى وسيلة أخرى « ومع هذا حينما وجه اليه كروسمان الاتهام سرا فيما يتعلق بنسف فندق الملك داود رد عليه وايزمان والدموع تسيل على خديه بقوله « لا يسعنى سوى الشعور بالفخر بأبنائنا (٢١) » .

ولم يقتصر التسامح مع العنف الذى يمارسه الصهيونيون على فلسطين بل امتد أيضا الى الولايات المتحدة . وتعرض الشعب والساسة فيها لحملة دعائية خاطفة لم تكن أقل حدة من الافعال التى مجدتها . وكانت رسالة الحملة بسيطة بقدر ما كانت متحيزة اذ جاء بها ان المقاتلين العبرانيين فى فلسطين يثورون ضد نفس المضطهد القاسى الذى استخلص الثوار الأمريكيون حريتهم قبل ذلك بمائة وسبعين عاما . وهى نفس الحرب الوطنية التى خاضها الايرلنديون وخاضها البوير فى جنوب أفريقيا . وشعر عضوان بمجلس الشيوخ الأمريكى عن ولاية نيويورك بأنهما ملزمان بتوجيه احتجاج مباشر الى وزير الخارجية البريطانية . وطالب أحدهما الولايات المتحدة بالتنصل من « جرائم » البريطانيين « وامبرياليتهم الوحشية » . وغاب عن البال فى هذه الحملة المسمومة تلك الخدمات التى لا تقدر بثمن التى قدمها هؤلاء الامبرياليون البريطانيون أنفسهم للصهيونية وعلى حسابهم الى حد كبير فى معظم الاحيان . وغابت عن البال الثورة العربية التى استمرت ثلاثة

اعوام واخمدها البريطانيون لحسابها . وبدا الآن أن الجنود البريطانيين ليسوا افضل من جنود قوات العاصفة الهتلرية . وكان المناخ ملائما لأقدام الصهيونيين وأصدقائهم الأمريكيين علناعلى الثناء علىأعمال العنف واستجداء الأموال لتشجيع المزيد منها وقد أكد بن هخت كاتب السيناريو في هوليود في رسالة الى الارهابيين في فلسطين «نشرتها جريدة نيويورك هيرالد تربيون» ان « يهود أمريكا يقفون معكم فأنتم أبطالهم أنتم بسمتهم ورمز فخـرهم . فخلال الف وخمسمائة عـام مضت ، لم يسـلم اليهود من ضربات كافة شعوب أوروبا ولكن البريطانيين هم الذين يتعرضون للضربات فعلا هـذه المرة . انكم أول رد له معنى .. للعالم الجديد . وفى كل مرة تنسفون فيها ترسانة بريطانية أو تهدمون سجنا بريطانيا .. أو تنسـفون قطار سـكة حديدية لبريطانيا أو تسرقون مصرفا بريطانيا أو تهاجمون ببنادقكم وقنابلكم الخونة الغزاة البريطانيين لدياركم يصبح ذلك عيدا صغيرا فى قلوب يهـود امريكا أيها الأصـدقاء الشـجعان نحن نعمل لمسـاعدتكم .. اننا نجمـع أموالا لكم (٢٢) » .

وكانت الاف الدولارات تسلم لمندوبى ارجون عقب كل حفلة من حفلات المسرحية الموسيقية الصهيونية التى كتبها هخت « ورفع علم » . وتصدرت اليافوز حملة جمع التبرعات . ويحظر القانون الأمريكى قيـام الأشخاص بارسال أسلحة دولة أجنبية ولكن هخت وأصدقاءه نجحوا فى اقناع الحكومة الأمريكية بأنهم يعتبرون الأموال التى جمعوها للارهابيين تبرعات خيرية معفاة من الضرائب (٢٣) . ولم تسـفر الاحتجاجات البريطانية المقدمة الى وزارة الخارجية الأمريكية عما اعتبر تحريضا على قتل مسئولين وجنود بريطانيين فى الأرض المقدسة « عن أى نتيجة » .

ولم تكن أمريكا سوى أهم أربع وسـتين دولة يمارس الصـهيونيون نشاطهم فيها . ففى فرنسا على سبيل المثال لقوا تعاطفا كالذى وجدوه فى أمريكا من خلال اسـتقلالهم لنزعة تقليدية موروثة من المشـاعر المعادية للبريطانيين وكان عـدد كبير من كتاب الافتتاحيات بصحف شهيرة مثل الفيجارو وكومبا أعضـاء فى الرابطة الفرنسية من أجـل فلسطين حـرة (صهيونية) . بل لقد قيل أن جريدة لوموند التى تتميز بحسن التقـدير والجدية تدرك « عدالة وقوة قتال الارجون ضد بريطانيا العظمى » .

ولا يبعث على الدهشة أن بريطانيا كانت اقل الدول تقديرا للعنف الذى يمارسه الصهيونيون فالجنود والاداريون البريطانيون الذين كانوا يصطلون

الى فلسطين منذ بداية عهد الانتداب وتخالجهم مشاعر محايدة أو موالية للصهيونية ، كانوا يميلون الى اكتساب مشاعر موالية للعرب من خلال الإتصال المباشر بكلا الطرفين . ومن الطبيعى أن « صهيونيسة البندقية » عجلت بظهور هذه التحولات وزادتها عمقا . وكان هناك قدر من الاعتراف الصهيونى على مضض بأنه بالرغم من أن القوات البريطانية تتسم بالخشونة وتبعث على الازدراء فى أحيان كثيرة ، فانها تتصرف فى مجموعها بانضباط لم يكن ليستطيع أن يتصرف به الا عدد قليل من الجيوش الأخرى فى مثل هذه الظروف . ومع هذا كانت وقائع مزرية قام فيها رجال بوليس وجنود الجيش بعمليات انتقام شخصية من اليهود واصبحت النزعات المناهضة لليهود محسوسة (٢٥) . فلم تتحمس احدى المحاكم العسكرية فى محاكمة ضابط يدعى الماجور فاران ، حيث برأته من تهمة ضرب أفضى الى موت شاب يبلغ من العمر ستة عشر عاما . مشتبه فى انتمائه لعصابة شتيرن .

وانتقلت هذه المشاعر الى الدولة الأم . فقد أمسى ارنستى بيفن وزير الخارجية مناهضا للصهيونية بشدة . ووصفت الصحف « المقاتلين العبرانيين » الذين يقودهم بيجين بأنهم ارهابيون وقطاع طرق . فكتبت مجلة أمريكية يهودية تقول (٢٦) أنه يتصاعد استياء مجتمع يضرب به المثل فى التسامح لا من يهود فلسطين فحسب ولكن أيضا من يهود بريطانيا الذين يشعرون بتعاطفهم على نحو ما ، مع هؤلاء الأجانب الذين يطلقون الرصاص عمدا على الجنود البريطانيين وانفجرت المشاعر المعادية لليهود . واضطر رجال البوليس الى حراسة معابد اليهود . وحينما أبحر فاران الى ليفربول أزدحمت أرصفة الميناء بالآلاف الذين جاءوا للترحيب به .

كان الغضب والرغبة الطبيعية فى رد الضربات هو رد الفعل العاطفى الأول على العنف الذى يمارسه الصهيونيون . وكان هذا لابد أن يكون معقولا تماما . اذ كان لبريطانيا مائة ألف جندى فى فلسطين . وتمثل رد الفعل الثانى ، والحاسم فى النهاية ، فى الرغبة فى الانتهاء من المهمة الرهيبة برمتها : فصدرت جريدة الصانداى اكسبريس تحمل عنوانا رئيسيا أشبه بالصراخ « احكموا أو اخرجوا » فى صباح اليوم التالى لوقوع ست عشرة عملية ارهابية تمت فى وقت واحد فى جميع انحاء فلسطين وأسفرت عن تدمير اثنتى عشرة عربة مدرعة ومقتل واصابة ثمانين جنديا .

واعترف ونستون تشرشل زعيم المعارضة الآن فى مجلس العموم بأن مطالب ورغبات الصهيونيين تجاوزت فى الآونة الأخيرة أى شيء وافقت عليه

سلطة الانتداب » ، ولكن السيء الذى يجب القيام به الآن هو « طرح انتدابنا على منظمة الأمم المتحدة والجلاء بعد ذلك من البلاد التى لا تربطنا بها اية رابطة أو تقليد حيث ليس لنا عليها سيادة كما هو الحال فى الهند ولا تربطنا بها معاهدة كما هو الحال فى مصر .. (٢٧). « وانتقد الحكومة بعنف » لاحتفاظها بمائة الف بريطانى بعيدا « وطنهم فى حرب قذرة تتراوح تكاليفها ما بين ثلاثين الى أربعين مليون جنيه سنويا » ، ولتبديد موارد بريطانيا المتضائلة على جهاز ضخم للارجاء والتعطيل (٢٨) . وكان هذا هو الدافع الذى نظر اليه الصهاينة بعين الاعتبار . وهذا الدافع انبثق عن الرأى العام وتبنته المعارضة وأصبح من المحتى قبل انقضاء وقت طويل أن يدفع الى العمل ، حكومة العمال ذاتها المثقلة بالاعباء فى فترة ما بعد الحرب وساور الامتعاض البريطانيين الذين سئموا الحرب بسبب فقد المزيد من أرواح شبابهم فى حرب استعمارية باهظة التكاليف ضد عدو لا تطرق الرحمة قلبه بقدر ما هو منكر للجميل . وكانت عملية مالونتشيك هى أعظم ضربات الصهيونيين ولكنهم نسفوا أيضا جسورا وبثوا الألغام فى الطرق وعمدوا الى اخراج القطارات عن خطوطها واغرقوا قوارب الحراسة ودأبوا على شن عدة هجمات على الثكنات والمنشآت يوما بعد يوم وأغاروا على مستودعات الاسلحة وسرقوا الشاحنات التى تحمل المرتبات . ونسفوا اثنتى عشرة طائرة حربية فى مطارات تخضع لحراسة مشددة فى ليلة واحدة . ونفذوا ما وصفته الصحف البريطانية بأنه « أكبر عملية فرار من السجن فى التاريخ» وكانت ارجون وشتيرن على استعداد للقيام بأى شيء ، فى أى مكان . فقد نسفوا السفارة البريطانية فى روما . وبعثوا بخطابات ملغمة الى الوزراء البريطانيين ، وأدى خطاب من هذه الخطابات مرسل الى الميجور فاران الى مقتل شقيقه بطريق الخطأ . وارسلوا فرقة اغتيال الى بريطانيا كانت مهمتها — التى لم تنفذ — اعدام الجنرال ايفلين باركر القائد السابق للقوات البريطانية فى فلسطين . وكان من بين اعضائها عيزرا وايزمان ، ابن أخ وايزمان واحد مهندسى السلاح الجوى الاسرائيلى . واعدوا خطة لاغراق سفينة بريطانية فى شنغهاى ومدمرة فى ميناء بورتسموث (٢٩) . وقتلوا فى فلسطين جنود اثناء نومهم وقبضوا على ضباط وجلدوهم ثم شنقوا رقيبين بالجيش فى شجرة واستخدموا جثتيهما المتدليتين فى وضع قنابل شراكية . وكان هذا اكثر من أن يحتمل .

وكان معنى السأم البريطانى من الحرب انه حينما واجهت سلطات الانتداب الثورة اليهودية تصرفت تماما على عكس تصرفها من عشرة أعوام

تخلت فى التصدى لثورة العرب . ووجه الفيلد مارشال مونتجمرى رئيس الأركان العامة الامبراطورية تأنيبا شديدا للحكومة بسبب وضعها الأغلال فى يد جنوده وبسبب التكتيكات « الجبانة تماما » التى أرغموا على انتهاجها « فالطريقة الوحيدة التى يمكن أن يقضى بها الجيش على الارهاب هى فى اتخاذ موقف الهجوم ضده ، وهو أمر غير مسموح به » فقد تخلت الحكومة عن زمام المبادرة للارهابيين . واستخلص من هذا بدوره أيضا « أذ لم نكن مستعدين للحفاظ على القانون والنظام فى فلسطين فمن الأفضل أن نرحل » (٣٠) . وعلى هذا اتضح أنه فى الوقت الذى تمكن فيه عشرون ألف جندى فى أواخر الثلاثينات من تحطيم القوة العسكرية لمليون عربى — فرض ستمائة ألف يهودى فى أواخر الاربعينات — وهى قوة من المسلم به انها أضخم كثيرا من قوة العرب — فرض ستمائة ألف يهودى الانسحاب المهين لمائة ألف جندى .

وكان الباعث على هذه الروح المتحيرة شيئا أكبر من مجرد انهاك ألم بالقوات البريطانية وكان فقد ارادة امبراطورية ، شيئا أكبر من مجرد ضغط أمريكى ساحق . فهى روح كانت عميقة الجذور أيضا فى تقاليد المؤسسة الحاكمة الموالية للصهيونية .. تلك التقاليد التى كانت أقوى ما تكون فى حزب العمل رغم أنف بيفن . اذ أنه حتى الآن ، وفى الوقت الذى كانت فيه القوات البريطانية تقاتل « صهيونية البندقية » كان ويزمان واصدقاؤه يصلون بسهولة الى مراكز القوة التى استفادوا منها كثيرا فى العشرينات والثلاثينات . وكفى فى هذا الصدد ذكر مثال واحد على هذا . كان جون ستراتشى يشغل منصب وكيل وزارة الطيران بحكومة أتلى . ويسجل كاتب سيرته أنه لم يكن هناك خلاف خطير بين ستراتشى والحكومة الا حول فلسطين فقط ففى أحد الأيام جاء كروسمان الذى أصبح عضوا لمجلس العموم لمقابلة ستراتشى . وكان كروسمان يكرس جهوده لخدمة القضية الصهيونية وكان قد سمع من أصدقائه بالوكالة اليهودية أنهم يفكرون فى القيام بعمل تخريبى لا بهدف القيام به فى حد ذاته فحسب بل ليبينوا أيضا للعالم قدراتهم . فهل يجب القيام بهذا العمل أم لا ؟ : سوف يلقى قلائل مصرعهم نتيجة له ولكن هل سيساعد اليهود ؟ . وطلب كروسمان نصيحة ستراتشى ، وتعهد ستراتشى ، وهو عضو بلجنة الدفاع التابعة للوزارة بدراسة المسألة . وفى اليوم التالى أبدى ستراتشى موافقة لكروسمان فى قاعة التدخين بمجلس العموم . ومضت الهاجاناة فى خطتها ونسفت كل الجسور الواقعة على نهر الأردن . ولم يقتل أى أحد ولكن قطعت عن الجيش البريطانى فى فلسطين خطوط امداداته مع الاردن » (٣١) .

ويرى كريستوفر مايهيو أحد أعضاء البرلمان العماليين السابقين ان هذا ليس الا مثالا صارخا على وجه الخصوص لأحد انماط السلوك التى تعتبر بطبيعة الحال مخزية أن لم تكن تحمل طابع الخيانة على نحو ايجابى ومن المؤكد أنه لا يمكن تصورها فى اطار آخر سوى اطار الصهيونية .

« فى الوقت الذى كان فيه الجيش البريطانى الذى ينوء تحت أعباء ثقيلة فى فلسطين يكافح من أجل دعم سياسة الحكومة البريطانية العمالية ضد هجمات يشنها الارهابيون الصهيونيون يشعر أحد أعضاء البرلمان (من العمال) ممن يؤيدون الصهيونيين أن لديه من الحرية ما يجعله يقترب من أحد الوزراء ويسأله عما اذا كان يشجع عملا ارهابيا بعينه ضد الجيش البريطانى فى فلسطين . ومما يبعث على الدهشة ، الى أبعد حد ، أن الوزير الذى يشغل فعلا عضوية لجنة الدفاع التابعة للحكومة يبدى « موافقته » على هذا العمل الذى من رحمة الله لم يتمخض عن أى خسائر فى الأرواح (وعلى عكس توقعات هؤلاء الذين خططوا له ومن المفترض أيضا على عكس توقعات عضو البرلمان والوزير وان كان قد أدى الى تفاقم الوضع الصعب والخطير للجيش البريطانى فى فلسطين (٣٢) » .

وطالب سير ألكسندر كادوجان المندوب البريطانى لدى الأمم المتحدة فى ٢ أبريل عام ١٩٤٧ بطرح قضية فلسطين على دورة الجمعية العامة ذلك العام ، حيث كانت بريطانيا ستطالبها آنذاك « بتقديم توصيات .. تتعلق بحكومة فلسطين فى المستقبل » . وأيدت الجمعية العامة يوم ٢٩ نوفمبر بالاقتراع على انشاء دولة يهودية داخل فلسطين بعد تقسيمها ومن ثم أعلنت بريطانيا أنها ستنهى الانتداب يوم ١٥ مايو ١٩٤٨ ، وهو التاريخ الذى ستكون فيه جميع قواتها فى فلسطين قد انسحبت منها .

وهكذا طردت « صهيونية البندقية » البريطانيين من فلسطين . ولم يكن بيجين يساوره أى شك فى هذا : ولكن أعدام الرقيبين (بايس) و (مارتن) فى أحد البساتين التى تكثر بها أشجار الأوكالبتوس بالقرب من ناتانيا هو الذى أعطى الدفعة النهائية لهذه الخطوة . ولولا « هذا العمل الانتقامى الكئيب » الذى فرضه على أرجون أعدام ارهابيين لظلت دولة أجنبية تحكم فلسطين حتى يومنا هذا . ويعزز من الحجة الادبية حكمة يرددها بيجين أساسا « حينما يستيقظ شعب ما من جديد يكون لدى خيرة أبنائه استعداد للتضحية بأرواحهم فى سبيل تحريره . وحينما يتهدد الانهيار الامبراطوريات يكون لديها استعداد للتضحية بصنف ضباطها (٣٣) » .

وهكذا طردت « صهيونية البندقية » البريطانيين من فلسطين .. ولكن كان العرب مازالوا باقين .

طرد العرب :

ان كفار شاؤول ضاحية تقع خارج القدس الحديثة ، ولا تبعد كثيراً عن الطريق الرئيسى الذى ينحدر حتى يبلغ تل ابيب والسهل الساحلى وهى مركز المستشفى الحكومى للامراض العقلية أما فيما عدا هذا فليس هناك ما يلفت النظر فيما يتعلق بكفار شاؤول . ومع هذا كان لها مظهر مختلف تماما عن هـذا فى يوم من الأيام ولا شك فى أنها كانت مجتمعا عربيـا ، لا يهوديا ، فى عام ١٩٤٨ ، مجتمعا متشبثا بهذا النتوء الصخرى . وكان لسكانها البالغ عددهم اربعمائة نسمة طريقة متميزة فى الحياة . كانوا عمال بنـاء يقومون بقلع الأحجار من محجر قريب . ومع هـذا كانت القرية باستثناء ذلك ، صـورة طبق الأصل ببيوتها الحجرية ذات اللون البنى الفاتح ، من فلسطين العربية بنفس القدر الذى تعتبر به كفار شاؤول صورة طبق الأصل من فلسطين اليهودية اليوم . وقصة تحولها على هـذا النحو هى قصة « صهيونية البندقية » بأبشع صـورها . لقـد تلاشت القرية العربية من الوجود ولا يرد ذكرها فوق اى خريطة ولكن صـورتها لا تزال محفورة على نحو يتعذر محوه فى أذهان مائة مليون عربى باعتبارها أكثر الشعارات عاطفية لصراع أبدى كان اسمها آنذاك دير ياسين .

كانت دير ياسين تشتهر عام ١٩٤٨ بأنها قرية مسالمة . وظلت تعيش لشهور على « نحو من الانسجام مع المستوطنات اليهودية (٣٤) المجاورة لها فى الوقت الذى كانت تتصاعد فيه الاشتباكات العربيـة اليهودية فى كافة أنحاء البلاد . كانت من الناحية العملية القرية الوحيدة فى منطقة القدس التى لم تشكو للسلطات العربية بأنها فى خطر وكانت قد تعاونت احيانا مع الوكالة اليهودية (٣٥) . ان احدى الصحف اليهودية ذكرت انها طردت بعض المناضلين العرب (٣٦) . وأوى القرويون الى فراشهم مسـاء يوم ٩ أبريل عام ١٩٤٨ . كالعادة لادراكهم بصورة تبعث على الارتياح بأنهم أبعد عن احتمالات الأهداف اليهودية ومع هذا وكاجراء احتياطى وعلى نحو يتفق مع العـادة القديمة قام كبـار رجالات القرية بتعيين اثنى عشر شخصا للحراسة الليلية . وكان هؤلاء الحراس يقتنون بضع بنادق قديمة من طراز موزر ، وبنادق تركية كانت مهمتها الرئيسية حتى ذلك الحين هى اصطياد الارانب واطلاق الرصاص لتهيئة خلفية صاخبة لحفلات الزفاف والمآدب التى تقام فى القرية (٣٧) .

وفى الساعة الرابعة والنصف من صـــباح اليوم التالى انقضت قوة مشتركة من الأرجون واشتيرن قوامها ١٣٢ شخصـــا ومع حلول ساعة الظهيرة كانوا قد ذبحوا ثلثى السكان . كانت الأرجون تعمل بالنسبة لهذه العملية ـ كشأنها بالنسبة لحادث نسف فندق الملك داود ـ بالتعاون مع الهاجاناه والزعامة اليهودية الرسمية .

« أود الاشارة الى أن الاستيلاء على دير ياســين والاحتفــاظ بها هو أحد المراحل فى خطتنا العامة » ذلك ما جاء بالخطاب الذى حدد فيه قائد الهاجاناه بالقدس اهتمامه بالعملية والذى أسرعت الأرجون باذاعته . قال « ليس لدى أى اعتراض على تنفيذكم للعملية على شريطة أن تتمكنوا من الاحتفاظ بالقرية اذ أن دخول قوات أجنبية الى المكان سوف يقلب خططنا بشأن انشاء مطار ، رأسا على عقب » . وأطلق المغيرون على هــذه العملية اسم « عملية الوحدة » . لأن الأرجون واشتيرن لم توحدا قواتهما فى شنها فحسب بل ان الهاجاناة أيضا أسهمت فيها . فقــد أمدتهم بأسلحة واعبت وحدة من البالماخ ـ قوات الكوماندوز من الصفوة التابعة للهاجاناة دورا ما ، فى القتال الفعلى حيث أمدتهم بستار من النيران لتغطية تحركاتهم وفقــا لتقديرها (٣٩) . علاوة على هدمها بيت المختــــار بمدفع هاون ، عيــاره بوصتان ، طبقا لرواية أرجون (٤٠) .

وهذه المذبحة وقعت على أطراف أكبر مدن فلسطين وقلة قليلة فحسب من الأشخاص ، هى التى شهدت المذبحة بعينها أو بعد وقوعها مباشرة ، وذلك فيما عدا مرتكبيها والضحايا الذين كتبت لهم الحيــاة بعدها . ولم يعتبر مرتكبوا المذبحة ما فعلوه أمرا فظيعــــا على الاطلاق وان الأشخاص الذين وصفوها اعتبروها كذلك قد خدعوا « بدعاية كاذبة » تستهدف تلطيخ سمعتهم . ويقول بيجين ان رجاله قاتلوا قتالا نظيفا فى مواجهة مقــاومة شرسة وسعوا « لتجنب وقوع أى خسارة واحدة غير ضرورية فى الأرواح » بل انهم باستخدامهم مكبرات الصوت لتحذير جميع النســـاء والأطفال والرجال المســـنين وتنبيههم باللجوء الى التلال حرموا أنفسهم ، بروح انسانية من عناصر المفاجاة التامة (٤٠) .

ومع هذا يبدو أن مكبر الصــــوت لم يكن فعـــالا ، مثله فى ذلك مثل التحذير الســـابق المزعوم الذى وجه لنزلاء فندق الملك داود قبل نسفه بنصف ساعة فقد سقطت العربة المدرعة التى وضعوا فوقها مكبر الصوت فى احد الخنادق قبل أن تصل الى المنازل الأولى فى القرية وكان طاقم العربة

وجده الذى يسمع الرسالة لتى يعلنها تحت جنح الظلام (٤٢) . ومن المؤكد أن الضحايا الناجحين سردوا رواية مختلفة تماما على الرغم من أنهم ـ معظمهم من النساء والأطفال ـ احجموا بشدة فيما يبدو عن سردها على مسامع رجال البوليس البريطانى الذين قاموا بالتحقيق معهم . وكان « فهيم زيدان » الذى يبلغ من العمر اثنى عشرة عاما والذى نجا من أول عملية قتل جماعى لنحو خمسة وثلاثين قرويا وقد أستعاد فى ذاكرته ما حدث فقال « لقد أمر اليهود جميع أفراد عائلتى بالوقوف صفا واحدا فى مواجهة الحائط وبدأوا فى اطلاق الرصاص عليهم وقد أصابتنى طلقة فى جانبى ولكن معظمنا من الأطفال كتبت لنا الحياة لأننا اختفينا خلف آبائنا وأصابت الرصاص ـ شقيقتى قدرية (٤ سنوات) فى رأسها وشقيقتى سميحة (٨ سنوات) فى خدها وشقيقى محمد (٧ سنوات) فى صدره . ولكن جميع الآخرين الذين كانوا يقفون هنا فى مواجهة الحائط قتلوا : أبى ، وأمى ، وجدى ، وجدتى وأعمامى وعماتى وبعض أبنائهم » ورأت « حليمة عيد » رجلا يطلق رصاصته على رقبة شقيقتى صالحية التى كانت حاملا فى الشهر التاسع « ثم بقر بطنها بسكينة كالتى يستخدمها الجزار . وقالت أن سيدة أخرى تدعى عائشة رضوان قتلت وهى تحاول انتزاع الوليدالذى لم يخرج بعد الى الحياة من رحم أمه الميتة . وفى منزل آخر شهدت نعناعة خليل التى تبلغ من العمر ستة عشر عاما رجلا يأخذ نوعا من أنواع السيوف ويمزق جارى ، جميل حبيش ، من رأسه الى أخمص قدمه ثم يفعل نفس الشىء مع ابن عمى فتحى ، على عتبة دارنا . وقتل الهاجمون ونهبوا وأخيرا إغتصبوا . وفجروا الديناميت فى المنازل . وحينما نفد الديناميت واصلوا عملهم على نحو منظم عبر المبانى الباقية مستخدمين مدافع ستين وقنابل يدوية . وبحلول الظهر كانوا قد قتلوا ٢٥٤ شخصا . أما بالنسبة لخسائرهم فى الأرواح فان ما وصفه بيجين بأنه نيران قاتلة انطلقت من البنادق القديمة من طراز موزر وماسكيت قد كلفتهم أربعة قتلى . واضاف مساعد المحقق العام ريتشارد كاتلنج هذا التعليق الى أحد تقاريره . قال « قمت فى الساعة العاشرة من صباح يوم ١٤ ابريل بزيارة قرية سلوان بصحبة طبيب وممرضة من المستشفى الحكومى بالقدس ، وواحدة من أعضاء الإتحاد النسائى العرب وزرنا عدة منازل فى القرية التى تم فيها اسكان يتراوح بين مائتين وثلثمائة شخص من دير ياسين . وقد تحدثت مع عدد كبير من نساء دير ياسين بغية الحصول على بعض المعلومات عن أى فظائع ارتكبت فى القرية ولكن السواد الأعظم من هؤلاء النساء كن بالغات الخجل ومحجمات عن سرد تجاربهم لا سيما بالنسبة لمسائل تتعلق بأى

اعتداء جنسى . وكن بحاجة الى قدر كبير من الملاحظة قبل افشائهن اى أسرار . كذلك عرقل من تسجيل تصريحاتهن الحالة الهستيرية للنسوة اللاتى أصابهن الانهيار مرات عديدة فى معظم الأحيان اثناء تسجيل تصريحاتهن . ومع هذا فليس هناك أدنى شك فى ان اليهود الهاجمين ارتكبوا عدة فظائع جنسية . فقد تم اغتصاب عدد كبير من طالبات المدارس ثم ذبحوا بعد ذلك وتعرضت العجائز من النساء للتحرش أيضا . وتروج احدى القصص تتعلق بحالة شطرت خلالها فتاة الى نصفين وذبح أيضا وقتل عدد كبير من الأطفال الرضع . كذلك شاهدت امرأة مسنة قالت لى ان عمرها ١٠٤ عام وتعرضت لضرب شديد فوق رأسها بمقبض البندقية . وانتزعت الأساور من أيدى النساء والخواتم من أصابعهن وقطعت أجزاء من آذان بعض النساء بغية نزع أقراطهن (٤٣) » .

وقد انتظر احد الأغراب الذين شهدوا هذا الحادث المروع أربعة وعشرين عاما قبل أن يسمح بنشر تقريره الذى وضعه عنه ، فقد قام مائير باعيل الذى كان أحد رجال الكوماندوز الشبان بوحدة البالماخ يوم ٩ ابريل « بتسجيل ما رآه بعينه وسمعه بأذنيه ، فى التقرير الذى بعث به آنذاك لاسرائيل جاليلى رئيس قيادة الهاجاناة (وزير دولة فيما بعد) » . قال « كان الوقت ظهرا حينما انتهت المعركة وتوقف اطلاق الرصاص . كانت الأمور قد هدأت ولكن القرية لم تستسلم وغادرت القوات غير النظامية التابعة لارجون وشتيرن الأماكن التى كانوا يختبئون بها وبدأوا يقومون بعمليات تطهير فى المنازل وأخذوا يطلقون الرصاص بكل ما لديهم من أسلحة ويقذفون المتفجرات داخل المنازل . كذلك كانوا يطلقون الرصاص على اى شخص يشاهدونه فى المنازل وحتى النساء والأطفال والواقع ان القادة لم يبذلوا أى محاولة لوقف عمليات الذبح المشينة . وقد ناشدت بنفسى ومعى عدد من السكان القادة اصدار أوامرهم لرجالهم بوقف القتال ولكن جهودنا باءت بالفشل . فى نفس الوقت تم اخراج نحو خمسة وعشرين شخصا من المنازل . ونقلوا فى عربة شحن واقتيدوا فى «استعراض للنصر» عبر أحياء مهنا تهودا ــ وزخرون يوسف (بالقدس) وفى نهاية الاستعراض تم اقتيادهم الى أحد المحاجر الواقعة بين جفعت شاؤول ودير ياسين ثم أطلق عليهم الرصاص عمدا ومع سبق الاصرار ثم وضع القاتلون بعد ذلك النساء والأطفال الذين كانوا لا يزالون على قيد الحياة فوق احدى عربات النقل فحملتهم الى بوابة مندلياوم (٤٤) » .

وخاطر الشاهد الآخر بحياته ليعرف الحقيقة عن دير ياسين وقد رفضت الوكالة اليهودية تقديم أى مساعدة لجاك دى رينيه رئيس وفد الصليب الأحمر الدولى فى فلسطين ، فى جهوده التى استهدفت التحقيق فى أمر المذبحة . ولم يتوقعوا عودته حيا ، دون مساعدة ، من المنطقة التى تسيطر عليها أرجون . ولكن هذا الرجل الشجاع عاد بفضل حسن حظه ، وليس بسبب أى احتياطات اتخذها فى نهاية الأمر تلك التجربة الرهيبة فى مذكراته عن الحرب : « ... لم يكن يبدو أن قائد فصيلة أرجون على استعداد للاستعجال ولكنه وصل أخيرا . كان شابا له شخصية مميزة وكل ما فيه ينطق بالكمال المطلق . ولكن كانت تلمع فى عينيه بصورة غريبة نظرة باردة وقاسية وطبقا لما رواه لى وصلت الارجون قبل الحادث بأربع وعشرين ساعة وأمرت الأهالى من خلال استعمالها مكبرا للصوت بالجلاء عن جميع المنازل والاستسلام . وكانت المهلة المحددة لاطاعة هذا الأمر لا تزيد عن ربع ساعة وقد تقدم بالفعل بعض هؤلاء المواطنين البائسين وتم أسرهم ليطلق سراحهم بعد ذلك فى اتجاه الخطوط العربية . أما الآخرون الذين لم يطيعوا الأمر فقد واجهوا المصير الذى يستحقونه ولكن ليس هناك جدوى من المبالغة فى وصف الأمور . فليس هناك سوى عدد قليل من القتلى . وسوف يتم دفنهم طالما يتم « تطهير » القرية . واذا وجدت أى جثث فبوسعى ان أحملها معى ولكن من المؤكد انه لا يوجد أى جرحى . وقد جعلت هذه الرواية الدم يتجمد فى عروقى وعدت ثانية الى طريق القدس . وأحضرت سيارة اسعاف وسيارة نقل كنت قد طلبتهما عن طريق هيئة الدرع الأحمر ــ النظير الاسرائيلى للصليب الأحمر ــ ووصلت القرية بقافلتى وتوقف اطلاق النيران من جانب العرب . كانت العصابة ترتدى زى الميدان ويضع أفرادها الخوذات على رؤوسهم : كانوا جميعا من الشبان بل ان بعضهم كان فى سن المراهقة . وكانوا جميعا ، رجالا ونساء مسلحين من قمة الرأس الى أخمص القدم بمسدسات وبنادق آلية وقنابل يدوية بل حتى كانوا يحملون سيوفا قصيرة فى أيديهم معظمها لا يزال تلطخه الدماء وأرتنى فتاة شابة جميلة لها عينان تنمان عن الاجرام سيفها والدم لا يزال يقطر منه واستعرضته أمامى وكأنه نصب تذكارى كان هذا هو « فريق التطهير » وكان من الواضح أنه يقوم بمهمته بضمير حى للغاية . وحاولت ان ادخل أحد المنازل ولكن اثنى عشر جنديا أحاطوا بى وبنادقهم الرشاشة مصوبة نحو جسمى ومنعنى ضابطهم من التحرك وقال انهم سيحملون الى الموتى اذا كان هناك موتى . وحينذاك انتابتنى نوبة من أعنف نوبات الغضب فى حياتى فصارحت هؤلاء المجرمين برأيى فى سلوكهم وهددتهم بكل ما أمكننى

التفكير فيه ثم دفعتهم جانبا ودلفت الى المنزل . كانت الغرفة الأولى غارقة فى الظلام وكان كل شيء فيها ينمءعن الفوضى ولكن لم يكن بها احد . وفى الحجرة الثانية وجدت بعض الجثث باردة وسط اكوام من الاثاث والأغطية التي خرجت احشاؤها وجميع أنواع الانقاض وهنـا تمتعمليـة التطهير باستخدام الرشاشات ثم القنابل اليدوية ثم اختتمت باستخدام المدى وكان بوسع اى شخص ادراك ذلك . وشاهدت نفس الصورة فى الحجرة التالية ولكننى عندما كنت أهم بمغادرة الغرفة سمعت شيئا أشبه بأنين ونظرت الى كل ما حولى وقلبت جميع الجثث وأخيرا وجدت قدما صغيرة لا تزال دافئة كانت قدم فتاة صغيرة فى العاشرة من عمرها بترتها قنبلة يدوية ولكنها لا تزال حية .. وتكرر نفس هذا المشهد المرعب فى كل مكان .. كان هناك

٤٠٠ شخص يسكنون هذه القرية . فر منهم خمسون شخصـا تقريبـا ولا يزالون احياء أما الباقون جميعا فقد تم ذبحهم عمدا لأنه كما لاحظت بنفسى كانت هذه العصابة تخضع لانضباط يدعوا للاعجاب ولا تتصرف الا بناء على أوامر صادرة لها . وعقب زيارة ثانية قمت بها الى دير ياسـين عدت الى مكتبى حيث زارنى سيدان مهذبان يرتديان ثيابا مدنية أنيقة كانا ينتظرانى لأكثر من ساعة . كان هذان الرجلان هما قائد فصيلة الأرجون ومساعده وقد اعدا ورقة يريدان منى التوقيع عليها . كانت تتضمن بيانا مضمونه انهما استقبلانى بدماثة وقدما لى كل التسهيلات التى طلبتها من أجل انجاز مهمتى وانني أشـكرهما على ما قدما الى من عون . وحينما أبديت دلائل تنم عن التردد بل بدأت فى الجدل معهما قالا لى أنه من الأفضل لى التوقيع على الورقة على الفور لو كنت أقيم وزنا لحيـاتى . وكانت الوسيلة الوحيدة أمامى هى اقناعهما بأنى لا أقيم أى وزن لحياتى (٤٥) . »

كان «للنصر » الذى تحقق فى دير ياسـين كما وصـفه أفراد جماعة الأرجون فى مؤتمر صحفى (٤٦) ، ردود فعل واسعة النطاق . وصفهابيجين بقوله : « ان مركز القيـادة العربية فى رام الله يذيع قصة فجة عن وقوع فظائع يزعم فيها قيام قوات الأرجون بارتكاب مذبحة بلا تمييز راحضحيتها نحو ٢٤٠ شخصا من الرجال والنساء والأطفال فى دير ياسين . وسرعان ما انتهزت الأجهزة الصهيونية الرسمية التى تخشى قوة الارجون المتزايدة وما تحظى به من تأييد شعبى ، فرصة هذا الاتهام العربى وقبلته على علاته حتى بدون أن تتحقق من صحته . وشرعت فى التنديد بالأرجون وتشـهر بسمعتها . ومع هذا تمخضت هذه الدعاية العربية الصهيونية المشتركة عن نتائج غير متوقعة وبالغة الأهمية ، فقد استولى على العرب فى كافة أنحـاء

البلاد بعد اقناعهم بتصـــديق الروايات المتطرفة عن مذابح الأرجون ذعر لا حدود له وبدأوا يهربون بجلودهم . وسرعان ما تحول هذا الفرار الجماعى الى هجرة جماعية محمومة ويتعذر السيطرة عليها . ولا يزال هناك نحو ١٦٥ ألف عربى فقط موجودين بالاراضى الحالية لدولة اسرائيل من ٨٠٠ الف عربى تقريبا كانوا يعيشون بها ولا يمكن المبالغة فى تقدير المغزى السياسى والاقتصادى لهذا التطور (٤٧) » .

ومن المسلم به حقـــا ان الزعماء الصهيونيين الرسميين نددوا علنـــا بالمنشقين ، تماما مثلما فعلوا بعد حادث نسف فندق الملك داود . فقــد شعروا باضطراب حقيقى . بل ان بن جوريون بعث برسالة اعتذار للملك عبد الله وقام كبير حاخامات القدس بحرمان القتلة من الناحية الدينية .

ومع هذا لم تتجاوز الوكالة اليهودية حد الادانة . قال قائد الهاجاناه المحلى « للمنشقين » حينما حاصرهم رجاله بميدان القرية « انكم مجموعة من الخنازير » ولكن حينما صدر اليه الأمر بنزع سلاحهم رفض وتوسل لرئيسه قائلا « سوف تلطخ ياديفيد اسمك بالدماء الى الابد ولن يغفر لك الشعب اليهودى ذلك قط » . وأذعن ديفيد شالطئيل (٤٨) وبعــد وقوع المذبحة بثلاثة أيام دخلت الزعامة الرسمية فى تحالف رسمى مع الأرجون التى ستخضع منذ ذلك الحين فصاعداً بقيادة الهاجانا الشــاملة فى نفس الوقت الذى تحتفظ فيه بهيكلها العسكرى المنفصل وشن الاثنان هجوما مشتركا على حيفا بعد ذلك باثنى عشر يوما .

وكان سقوط دير ياسين يتفق مع الأهداف الصهيونية الرسمية . وقد كان هرتزل نفسه كما رأينا أول من اقترح ضرورة حل مشـــكلة العرب بترحيلهم ماديا من وطنهم . وكان هذا أمراً جوهريا بالنسبة لمفهوم اقامة دولة يهودية فى فلسطين . ولم تكن من عادة الصهيونيين المجاهرة بذلك أما اذا حدث أن جاهروا به ، فانهم كانوا ينزعون الى استخدام البلاغة الذى كان طابع وايزمان « سوف تكون فلســـطين يهودية مثلما تعــد انجلترا انجليزية . وعلى الرغم من أن المغزى النهائى لهــذا الأسلوب كان واضحا تماما لم يكن هذا الأسلوب يرقى الى مستوى صـــياغة دقيقة وتجريبية للنوايا . والواقع أنهم كانوا يصرون فى معظم الأحيان خلال السنوات الأولى للاستيطان على أنه ليس هناك شىء يدعى مشكلة عربية على الاطلاق وبالتالى ليس هناك تعارض بين أطماع الصهيونيين التى لم تتحقق وحقوق العرب

القائمة من قبل ، وفي واقع الأمر لم تكن فكرة « نقل السكان » بعيدة عن افكارهم . اذا كان الزعماء الصهيونيون المحليون يتساءلون بصوت عال في عام ١٩١١ عما اذا كان بالامكان اقناع عرب فلسطين باستيطان دول مجاورة أم لا اذ أن بوسعهم شراء أراضي بالأرباح التي جنوها من بيع الأراضي في فلسطين أو يستطيع الصهيونيون شراءها لهم (٤٩) . الا أنه من الواضح ان هذه الأفكار كانت خيالية فالعرب ليسوا على استعداد للتزحزح عن مواقفهم قيد أنملة . وبالتـــالي تحجرت قلوب الصـــهيونيين فعقيدتهم تتمثل في الحصـــول على كل شيء أو لا شيء ، ومع مرور الوقت وبتقرير الوجود اليهودي في فلسطين والاحساس بالقوة الذي تولد عن هـــذا الوجود بدأ المنطق الذي لا مهرب منه للحل الذي اقترحه هرتزل يفرض نفسه عليهم . وهل هناك من هو أكثر صلاحية من جوزيف فاينز للحكم على هذا الأمر ؟ فهو باعتباره المدير المسئول عن الاستعمار اليهودي كان يجمع بين تفانيــه واخلاصه للمثل الأعلى الصهيوني وفهم عملي على نحو مكثف للطريقة التي سيتحقق بها . قال « يجب أن يكون واضحا بيننا وبين أنفسنا أنه لا مكان لتعايش الشعبين سويا في هذه البلاد .. ولن نحقق هدفنا بأن نصبح دولة مستقلة والعرب يعيشون بيننا في هذه البلاد الصغيرة والحل الوحيد هو اقامة فلسطين بدون عرب أو على الأقل فلسطين الغربية (غربي نهر الأردن) وليست هناك وسيلة سوى نقل العرب من هنا الى الدول المجاورة — نقلهم جميعا يجب الا تبقى فيها قرية واحدة ولا قبيلة واحدة وبعد عملية النقل هذه فحسب ستتمكن البلاد من استيعاب الملايين من أشقائنا وليست هناك وسيلة اخرى لحل هذه المشكلة » .

كان هذا ما سجله فاينز في يومياته في عام ١٩٤٠ (٥٠) ولم يكن يشاركه في آرائه التنقيحيون فحسب ولكن أيضا التيار الأســـاسي داخل الزعامة الاشتراكية . وكانوا قد بدأوا فعلا في الثلاثينيات في الالحاح على قضية نقل العـــرب قسراً فقد أوصى مشروع بيـــل للتقسيـــم « لتبـــادل الأرض والسكان » (٥١) . وكان هذا بناء على الحاح وايزمان الذي ابلغ وليـــام أورمسباي — جور وزير المستعمرات بأن « نجاح المشروع برمته يعتمد على كون الحكومة ترغب في تنفيذ هذه التوصية بحق أم لا . ولا يمكن تنفيـــذ هذا الانتقال الا على يد الحكومة البريطانية ، لا على يد اليهود . وقد شرحت سبب تعليقنا مثل هذه الأهمية البالغة على هـــذا الاقتراح » . وبرهنت جماعات الضغط الصهيونية في النهاية على نجاحها الباهر لدرجة أن اللجنة التنفيذية الوطنية لحزب العمل وافقت رســـميا على الفـــكرة في مؤتمرها

السنوى عام ١٩٤٤ . وأكدت أن فلسطين حالة تستحق حقا نقل السكان بالتأكيد لأسباب انسانية ومن أجل التوصل الى تسوية وطيدة .. فلنشجع العرب على الهجره من فلسطين فى الوقت الذى يهاجر اليهود اليها » . وليس هناك أدنى شك فى أن عملية الضغط كانت من النجاح بحيث يعثث على حرج أنفسهم . ونظرا لوعى وايزمان بالأثر الذى يمكن أن يتركه مثل هذا التأييد الصريح والتطرف لما كان يعتبر حتى ذلك الحين أهدافا سرية ـ الأثر الذى يمكن أن يتركه ، أساسا على الرأى العام الليبرالى ـ نظرا لذلك اضطر وايزمان التى ان يسجل فى مذكراته : « انى اتذكر أن أصدقائى من حزب العمال ساورهم مثلى تماما القلق الشديد بشأن هذا الاقتراح اذ أننا لم نفكر قط فى طرد العرب وقد تجاوز أعضاء حزب العمل البريطانى فى حماسهم الموالى للصهاينه نوايانا (٥٢) » ولكن الصهيونيين الامريكيين كانوا أقل تحفظا ، على نحو مميز ، حيال اقتراح قدمه الرئيس السابق هوفر ودعا فيه الى « تدبير »نقل الفلسطينيين الى العراق . وأعلن مجلس الطوارىء الأمريكى الصهيونى ان : الحركة الصهيونية لم تدع قط الى نقل سكان فلسطين من العرب ومع هذا ، اذا بدا أن جميع أنواع العلاج التى لقيت قبولا لفترة طويلة تبوء بالفشل فان الوقت يكون ملائما للتفكير فى طرق جديدة ، وتمثل خطة هوفر .. معالجة جديدة هامة سيسعد الصهيونيون بالتعاون مع القوى الكبرى والعرب فى تحقيقها » (٥٤) .

وقد أبرزت فترة أواخر الأربعينيات على وجه الدقة ذلك الوضع السياسى الذى كان قد تنبأ به حاييم أرلوزوروف (٥٥) . فقد أصدرت الأمم المتحدة قرارا يؤيد التقسيم بعد أن عهدت اليها بريطانيا اليائسة بالمشكلة برمتها . وكان ذلك التصويت قصة العنف فى حد ذاته . وان كان عنفا دبلوماسيا ـ ذهبت فيه الولايات المتحدة الى أبعد مدى غير عادى من المناورات من وراء الستار لصالح صنائعها الصهيونيين . وكان التقسيم يتعارض مع الرأى الأرجح لعدد كبير من هذه الدول التى أدلت بصوتها لصالحه . كذلك ساورت أمريكا شكوك خطيرة .. أو على الاقل بالنسبة للمسئولين بوزارة الخارجية الذين كانت معرفتهم بالشرق الأوسط ضئيلة . ولكن البيت الأبيض الاقل معرفة منهم بكثير ، تغلب فى الرأى عليهم . اذ أجاز ما وصفه فورستال وزير الدفاع بأسى عميق بأنه : « ارغام واكراه بالتهديد لدول أخرى اقترب من حد الفضيحة » (٥٦) . فقد حذر الرئيس ترومان أحد وزرائه من أنه سيطلب تفسيرا كاملا اذا أحجمت الدول التى تنحاز عادة الى جانب الولايات المتحدة عن الاقدام على ذلك فيما يختص

بفلسطين . وامكن حمل الحكومات التى عارضت التقسيم وتلك التى لم تستطع حسم رايها على تغيير رأيها باستخدام حجج غير تقليدية الى حد كبير . اذ مارست شركة فايرستون لاطارات السيارات والمطاط التى تملك مزارع فى ليبيريا ضغطا على الحكومة الليبيرية . وتم التلميح لمندوبى أمريكا اللاتينية بأن تصويتهم لصالح التقسيم من شأنه ان يزيد الى حد كبير من فرص تنفيذ مشروع شق طريق يربط الدول الأمريكية كلها . وبعد ان عارض مندوبو الفليبين مشروع التقسيم معارضة شديدة فى البداية أيدوه عارض مندوبو الفيلبين مشروع التقسيم معارضة شديدة فى البداية أيدوه فى النهاية على على نحو مخز : اذ كانت لديهم مصالح كبيرة فى سبعةمشروعات قوانين كانت تنتظر موافقه الكونجرس عليها . وتم اقنـــاع شخصـيات أمريكية هامة « بالتحدث » مع حكومات شتى لا تستطيع أن تخسر رضـا أمريـكا .

وكان مشروع التقسيم ، باعتبـــاره ميثاقا للشرعية ، يعتبر فى راى الصهيونيين فى مصـــاف تصريح بالفور الذى حل المشروع محله وحقق ما جاء به . ولم يكن بكل تأكيد وثيقة أقل انحيازا منه . اذ تبلغ مساحة فلسطين حوالى ۱۰ آلاف ميل مربع . ونص مشروع التقسيم على احتفاظ العرب بمساحة ٤٣٠٠ ميل مربع من هذه الأراضى فى الوقت الذى خصص فيه لليهود ٥٧٠٠ ميـل مربع على الرغم من أنهم كانوا يمثلون ثلث عـدد السكان ويملكون ٦٪ من الأراضى . كذلك حصل اليهود على الأرض الاكثر خصوبة . اذ كان من نصيبهم الحزام الساحلى الخصب بينما اقتصر نصيب العرب على التلال فى الأغلب ومع هذا لم يكن حجم المنطقة التى خصصت لليهود وهو الباعث على سرورهم حيث اعتبروا ذلك فى الحقيقة الحد الأدنى المتعذر انقاصه « وانما كان باعث سرورهم اقامة الدولة ذاتها وعلى العكس من ذلك لم تكن مساحة الأراضى التى فقدها العرب فحسب هى التى أثارت غضبهم بل كان ما أثار غضبهم أيضا هو ضياع الأرض والسيادة والتراث القديم . وأضفى مشروع التقسيم طابع الشرعية على ما تم اكتسابه بصورة غير شرعية وفقا لأكثر تفسيرات وعد بلفور والانتداب تحيزا . وزال الماضى بالشكل الذى كان عليه . وارست المجاملة الدولية ما بين عشية وضحاها بصورة قانونية أسس نظام أخلاقى جـديد اعتبر أن اليهود الذين جاءت أغلبيتهم الساحقة الى فلسطين منذ أقل من ثلاثين عاما ــ مطالب مماثلة لمطالب العرب الذين عاشوا فيها منذ عهود سحيقة ، بل ان مطالب اليهود قدمت على مطالب العرب .

وخضع الصهيونيون بكياسة لارادة المجتمع الدولى . ومع هذا لم يكن معنى ذلك انهم فى الوقت الذى أدركوا فيه الأهمية البالغة لانتصــارهم فى الأمم المتحــدة لم يعوا أوجه تصوره على نحو جــاد ــ فعقدوا العزم على علاجها . ولم يشهد مشروع التقسيم ميلادا مخادعا فحسب ولكنه كان فى حد ذاته مولودا غريبا للغاية مثلما صرحت بذلك بوضـــوح معظم القابلات اللائى اشتركن فى عملية ولادته بالأمم المتحدة . اذ كانت الدولتان العربية واليهودية تتسمان بشــكل بالغ الغرابة . وكان الوصف المنــاسب لمشروع سابق كهذا المشروع هو انه أشبه بالافاعى المشتبكة فى معركة . بل أن شكل الدولتين كان أغرب من الناحية الديمقراطية أو على الأقل بالنسبة للدولة اليهودية المقترحة . ذلك لانها كانت ستضم فى البداية على أى الحالات عددا من العرب ــ ٥٠٩٧٨٠ عربيا ــ أكبر من عدد اليهود ــ ٤٩٩٠٢٠ يهوديا . واذا كانت حدود اسرائيل تمثل كابوسا لواضع الاستراتيجية فان هذه الأغلبية العربية التى تمثل طابورا خامسا جاهزا كانت تشكل تهديدا أكبر ، اضعف الى ذلك ان الأمر اعتبر اهانة العقيدة جوهرية ، فهل يمكن اطــلاق وصفة دولة يهودية بحق على مثل هذا الشكل المختلط .. أى أنها يهودية مثلما أن انجلترا انجليزية ؟ . واقتصر وجــود اليهود على جــزء فقط من ارض أجدادهم . والواقــع أنهم تمتعوا بوجود مقيدا أو عدم وجــود على الاطلاق فى اماكن مثل القدس والخليل ــ وهى اماكن كانوا يرتبطون بأعظم رباط عاطفى معها .

وكانت الأمم المتحدة غير منطقية ، فالكيان الذى خلقته كان يتفجر بالحيوية ولكن الشروط المفروضــة عليه كادت تحرمه من سبل البقاء . وكان من المحقق أن ينمو هذا الكيان ويتخلص من العقبات التى تعرقل خطاه ويحقق نظامه الصهيونى الأساسى بصورة كاملة . واسرائيل هى ابنة الأمم المتحدة .. ومن ثم يكون من المفارقات ــ وان كان هذا الامر لا يبعث على الدهشة ــ انها ابنة متحرفة وذات سجل فريد حافل باللوم من المنظمة التى كانت سببا فى خروجها الى الحياة .

ووافق الصهيونيون على مشروع التقســـيم وهم يعلمون عن يقين بأن العرب لن يوافقوا عليه . وكان حتما أن يعترض العرب على انتزاع أرضيهم الم يشنوا ثورة واسعة النطاق ضد مشروع التقسيم الذى دعا اليه بيــل والذى كان أقل اجحافا . وعلاوة على هذا لم يكونوا مرغمين بأى حال من الأحوال على الموافقة على ما يعتبر ، برغم كل شىء ، بمثابة توصية فقط

من جانب الجمعية العامة للامم المتحدة . ومع هذا كان ذلك المظهر الأخير « للرفض العربى الشهير هو الذى أتاح للصهيونيين فرصة علاج أوجه قصور مشروع التقسيم .. والأقدام على ذلك بدون اثارة غضب العالم . ذلك لان محاولات معارضة ارادتها باستخدام الوسيلة الوحيدة الباقية وهى استخدام القوة أصبحت تبدو فى نظر العالم « عدوانا عربيا » ، فى الوقت الذى اضحت فيه المحاولات اليهودية لدعم هذه الارادة دفاعا مشروعا عن النفس . فمن ذا الذى كان بوسعه حمل الأمم المتحدة على الوقوف ضد الصهيونيين اذا كانوا قد تجاوزو أثناء دفاعهم عن انفسهم حدود ما حددته لهم الأمم المتحدة ؟

ولم تكن مسألة كون التهديد العربى جادا ام لا ذات اهمية فالمهم بالنسبة لأغراض الدعاية هو مظهر التهديد . وكان التهديد الفعلى ، — مثلما يعرفون جيدا — ، أقل خطورة مما يبدو ، الى حد بعيد . فقد كان عدم استعداد الفلسطينيين مثيرا للاسى . اذ أن البريطانيين كانوا قد قضوا على امكانياتهم العسكرية فى الثلاثينيات وتركوهم عزلا من السلاح منذ ذلك الحين . وضعوا ظهور مثل تلك الزعامة السياسية الفعالة التى تمتعوا بها قبل ذلك من جديد . وأعيدت الشرعية الى اللجنة العربية العليا عام ١٩٤٦ فقط . ونفى المفتى حتى النهاية وأمكن للفلسطينيين فى بداية عام ١٩٤٨ تجنيد نحو ٢٥٠٠ من الرماة بالبنادق .. ولم تكن هذه القوة الباعثة على السخرية ضعيفة التدريب فحسب ولكنها كانت تفتقر أيضا الى الدعم من الامداد والتموين وتمارس نشاطها كمجموعة من الوحدات الاقليمية المنفصلة بدون قيادة مركزية تخضع لأهواء سيطرة سياسية بعيدة ، ومنقسمة على نفسها فى معظم الأحيان . وكان اجمالى قوة الحاميات الريفية فى منطقة القدس الرئيسية عام ١٩٤٧ هو ٢٥ بندقية . واذا كان هناك تهديد فقد كان مصدره من خارج فلسطين . اذ أمكن لجيش التحرير العربى الذى تم تشكيله على عجل عقب قرار التقسيم تجنيد ٣٨٣٠ متطوعا بقيادة فوزى القاوقجى منهم الف فلسطينى على الأقل . وبدأوا فى دخول فلسطين تدريجيا فى يناير عام ١٩٤٨ . وبلغ عدد القوات التى ارسلتها خمس دول عربية الى فلسطين فى ١٥ مايو ١٩٤٨ — عقب اعلان قيام دولة اسرائيل — نحو خمسة عشر الف جندى ، وتضمنت اثقل اسلحتهم المدرعة اثنتين وعشرين دبابة خفيفة واستطاعت هذه الدول حشد عشر طائرات من طراز سبيتفاير (٥٨) .

وكانت القوات الصهيونية مع حلول ١٥ مايو تتألف من نحو ٣٠ الف جندى نظامى معبأين تعبئة كاملة فضلا عن ٣٢ الف جندى على الأقل من قوات الخط الثانى التى تقتصر مهمتها عادة على الدفاع الاقليمى أو الثابت والتى يمكن الحاقها بالقوة النظامية اذا دعت الحاجة الى ذلك . وحوالى ١٥ الف رجل بوليس لحماية المستوطنات ، وحرس داخلى يبلغ ٣٢ الف جندى علاوة على قوات المنشقين « من ارجون وقوامها ما بين ثلاثة وخمسة آلاف مقاتل عام ١٩٤٦ وشتيرن (من ٢٠٠ الى ٣٠٠ مقاتل) وهى قوات مسلحة تسليحا قويا وذات نزعة عدوانية شديدة . ولم تكن هذه القوة أفضل تدريبا فحسب ولكنها كانت أيضا أفضل تسليحا الى حد بعيد من الجيوش العربية مجتمعة . وإذا كانت هناك أية شكوك تتعلق بنتيجة صراع ما على فلسطين فانها لم تكن تساور دائرة تتمتع على وجه الخصوص بما يؤهلها للحكم على الامر . وكانت الاراء التى أعرب عنها فى عام ١٩٤٦ الجنرال ج.س. دارسي قائد القوات البريطانية فى فلسطين تتسم بالشجاعة والوضوح والدقة : « ناقشنا معه الوضع الذى يمكن أن ينشأ اذا انسحبت القوات البريطانية من فلسطين وأجاب الجنرال دارسى بصراحة (اذا سحبتم القوات البريطانية فسوف تستولى الهاجاناة على فلسطين كلها غدا وسألته (ولكن هل يمكن للهاجاناة الاحتفاظ بسيطرتها على فلسطين فى ظل مثل هذه الظروف ؟) فأجاب بقوله (بالتأكيد بوسعهم الاحتفاظ بها فى مواجهة العالم العربى كله) (٥٩) » ، كانت هناك أيضا النية . فقد كانت الدول العربية تود ، لو استطاعت ، القضاء على الدولة اليهودية وهى لا تزال جنينا بلا شك انه تم التعبير علنا عن قدر كبير من الثقة الحمقاء بأنهم سيفعلون هذا وان كانت هذه الثقة غير مشروبة آنذاك فقد قام موسى العلمى وهو احدى الشخصيات الفلسطينية البارزة بجولة بين عواصم الدول العربية لاستكشاف نوع من العون الذى من المحتمل أن يحصل عليه شعب من أشقائه العرب فاكتشفت أن الزعامة العربية التى تواجه مباشرة « الخطر الصهيونى » الاخذ فى التوسع ليست مؤهلة للتصدى له على نحو أفضل من الزعامة الفلسطينية حينما كانت بمفردها فى الميدان .

وقد هيأت له زيارته لدمشق فى بدء جولته تصورا لما سيجرى فى سيجرى كل مكان « أكد له الرئيس السورى (يسعدنى أن أخبرك أن جيشنا ومعداته ، على احدث طراز ويمكنه تماما التصدى لقلة من اليهود وأستطيع أن أفضى لك بسر وهو (أنه لدينا حتى قنبلة ذرية) . وحينما رأى تعبير عدم التصديق يظهر على وجه موسى . استطرد يقول (نعم لقد

صنعناها محليا . من حسن الحظ اننا اكتشفنا وجود أخ بارع للغاية ، سمكرى ..) وقد وجد فى أماكن أخرى رضا مماثلا عن الذات وجهلا مطبقا . قال له رئيس وزراء العراق (أن كل المطلوب هو بضع « مكانس » لالقاء اليهود فى البحر) وقال له أصدقاء بن سعود فى القاهرة أنه (بوسعنا طرد اليهود بسهولة بمجرد أن نحصل على موافقة البريطانيين » .

وانساقت الشعوب العربية الى الاعتقاد بأن جيوشها سوف تحرز انتصارا سهلا فى فلسطين . فقد صرح عزام باشا الأمين العام لجامعة الدول العربية بقوله « من حقكم شنق جميع زعماء العرب وساستهم اذا فشل العرب فى كسب الحرب ضد اليهود فى هجوم سافر عليهم (٦١) » وكان العالم الخارجى الجاهل بالحقائق على الطبيعة غير واثق مطلقا بالنسبة لفرص فوز ستمائة ألف يهودى من مواجهة أربعين مليون عربى .. ومع هذا تشير الحقيقة الى ان العرب نزعوا للاعتدال بقدر ما كان للحكومات العربية (التى تعانى من الغيرة والانقسام وعدم الكفاءة) من سياسات مشتركة ،على الاطلاق . فقد أوضحت شرق الأردن ـ تلك الدولة التى تملك أفضل جيش ـ انها ستتقيد بكل دقة بمشروع التقسيم الذى أصدرته الأمم المتحدة .. وأنها ستحتل ذلك الجزء من فلسطين المخصص لاقامة الدولة العربية وتدافع عنه ولكنها لن تدافع عن قدم واحدة أكثر من ذلك أما بالنسبة للآخرين فكانوا لا يزالون يفكرون فى ايجاد حلول دبلوماسية . واعترف بذلك الصهيونيون أنفسهم . وعلى هذا أذاعت محطة الهاجاناه أن الحكومة العربية توصلت الى اتفاق تام حول مشروع من المعتقد أن معتدل ويقضى باقامة نوع من النظم الفيدرالية العربية ـ اليهودية فى فلسطين وفى مجال التخطيط العملى عقد رؤساء الأركان أول مؤتمر لهم فى نهاية شهر ابريل فحسب . ولم يتخذ قرار بشأن ارسال جيوش نظامية الا فى أوائل شهر مايو .. وكان هذا قرارا ظلت مصر تتردد فى تنفيذه حتى يوم ١٢ مايو . وهكذا ربما كان العرب هم الذين دعوا الى الخراب ولكن الصهيونيين استطاعوا الافلات منه بصورة منظمة بمساعدة أعدائهم .

وكان مولد دولة اسرائيل داخل حدود اكبر من تلك التى حددها مشروع التقسيم ونزوح السكان المحليين ، زلزالا مؤلما للعرب لدرجة أنهم يطلقون عليه حتى اليوم ببساطة متناهية اسم النكبة . وقال الصهيونيون بعد ذلك ان العرب جلبوا على أنفسهم سوء الحظ هذا ، لأنهم اختاروا طريق غزو الدولة الوليدة ، متحدين بذلك المجتمع الدولى . أضف الى ذلك أنه حينما

تثار قضية اللاجئين الفلسطينيين البالغة الأهمية يعلن الصهيونيون أن ضميرهم مرتاح بالمثل لأنهم غير مسئولين عن طردهم ولكن زعماءهم هم الذين أصدروا اليهم الأمر بالنزوح .

وتعتبر رواية الصهيونيين عن نزوح الفلسطينيين أسطورة اختلقوها بعد وقوع الطوفان . فلو أمكن للصهيونيين البرهنة على أن اللاجئين فروا حقيقة ، بدون سبب ، بناء على التعليمات الصريحة الصادرة اليهم من ساستهم ، لقوضوا الى حد كبير تعاطف العالم مع محنتهم ولقوضوا بالتالى الضغط الواقع عليهم للسماح لهم بالعودة . وعلى هذا روجوا هذه الأسطورة فى أرجاء العالم سواء عن طريق أحاديث عامة ، أم عن طريق كتيبات تتخذ طابع البحث . ولم تتم تعرية هذه الاسطورة وكشفها الا فى عام ١٩٥٩ وعلى يد الباحث الفلسطيني وليد الخالدى . وبعد عامين أكد الباحث الايرلندى ارسكين تشيلدرز ، على نحو مستقل ، صحة ما جاء بأبحاث وليد الخالدى ، وقد بين الاثنان أن الاسطورة لم تكن تمثل سوى عرض صارخ لحقائق مقبولة أو حتى معقولة ، فى الظاهر ولكن « الحقائق » نفسها كانت مختلفة . فقد ذكر الصهيونيون أن الأوامر بجلاء السكان المدنيين لم تصدر كتابة ببساطة بل أذيعت من محطات الأذاعة العربية وصدر أمر كهذا من المفتى ذاته . كان هذا هو حجر الزاوية فى حجة الصهيونيين . ومع هذا حينما تجشم هذان الباحثان مشقة فحص السجل من خلال دراسة ملفات الحكومة العربية التى أتيحت لهما بصورة خاصة ، دراسة الصحف العربية المعاصرة وتقارير المتابعة الاذاعية بكل من هيئة الاذاعة البريطانية ووكالة المخابرات الأمريكية اكتشفا انه لم تصدر اى أوامر كهذه ناهيك عن اذاعتها . وحينما تحديا الصهيونيين أن يقدموا دليلا واحدا يتضمن نص أو موعد أو مصدر اى أمر كهذا عجزوا عن ذلك مع كل ما لديهم من أجهزة دولة اسرائيل التى أصبحت تحت تصرفهم ، بل أن وليد الخالدى ، والباحث الايرلندى السابق ، اكتشف على العكس من ذلك أن السلطات العربية والفلسطينية دعت الشعب مرارا للبقاء فى مكان وأن محطات الاذاعة العربية دابت على الاستخفاف من المدى الحقيقى لوحشية الصهيونيين . ولا شك فى أنه من الواضح انهم اذا كانوا قد توقعوا أى شيء فهو أن يبدى السكان المدنيون — الذين لا حول ولا قوة لهم أمام الهجوم الصهيونى — قدرا من الجلد أكبر مما كانوا يستطيعونه حقيقة . وكان المفتى أبعد ما يكون عن حث شعبه على الهروب وقد استبد به الانزعاج الشديد حيال بوادر الهجرة الجماعية الأمر الذى دفعه الى ارسال برقية الى أحد معاونيه جاء بها « أن هجرة الأطفال وغيرهم من

فلسطين الى سوريا يضر بمصالحنا . اتصل بالسلطات المعنية فى كل من دمشق وبيروت لمنع هذا ..(٦٢) » . واتخذت الحكومات العربية بصورة فعالة خطوات لاعادة الفلسطينيين الاصحاء البدن الذين غادروا البلاد الى فلسطين ، وشرعت الصحف العربية فى توجيه اهانات شديدة لهم . وأكدت هذا كله محطات اذاعة الصهيونيين ذاتها . فقد دابت بين آن وآخر على اذاعة انباء عن جهود عربية تستهدف منع الهجرة الجماعية .. وحينما وقعت هذه الهجرة الجماعية أذاعت نبأ عنها فى حينه بدون أى ذكر لأوامر صدرت للعرب بالجلاء وحتى حينما شرعت فى دحض مزاعم العرب بأن الفلسطينيين أجبروا ماديا على ترك ديارهم استخدمت هذه الاذاعات كل انواع الحجج باستثناء الحجة الوحيدة التى تتحدث عنها .

وبدأ الصهيونيون يطورون رأيهم بعد هذه الأحداث ، وذلك بعد عام فقط من هذا ، حينما بدأت مشكلة اللاجئين تؤثر على ضمير العالم . ويعزو الأستاذ الخالدى أول ظهور مدروس لهذا الرأى الى كتابين منسوخين وضعهما بالتأكيد جوزيف شيختمان كاتب سيرة جابوتنسكى وأحد أعضاء ارجون وجماعة التنقحيين — وكان يقوم بتوزيعهما مكتب الاعلام الاسرائيلى فى نيويورك .وتم ادماجهما بعد ذلك فى مذكرة رفعهما الى الأمم المتحدة تسعة عشر شخصية أمريكية بارزة من بينها الشاعر ماكليش وعالم اللاهوت نيبوهى والشيء الملفت للنظر فى هذا الصرح من الخداع الذى اثر تأثيرا عميقا على الرأى العام الغربى لا يتمثل فى أن الصهيونيين تمكنوا من اقامته من مواد لا يرجى منها فائدة فحسب بل لانه ظل صلبا وراسخا لفترة طويلة جدا . وليس هناك مثال أفضل من هذا على الطريقة التى نزع من خلالها ، الرأى العام الغربى ولا سيما الأمريكي — المنحاز ، وغير المطلع على معلومات سليمة — للموافقة آليا على الجانب الصهيونى من الرواية : بل ويجب القول أيضا بأنه ليس هناك مثال أفضل من هذا على عدم الكفاءة التى عرض بها العرب قضيتهم . وعلى الرغم من تداعى هذا الصرح لم يتهاو ، بعد . ذلك لأن رجال الدعاية الصهيونيين يناضلون لدعمه حتى يومنا هذا بكل ما يتصفون به من عناد البشر .

كانت حادثة دير ياسين — مصداقا لما زعمه بيجين بحق — ابرز اسهام فردى فى النكبة فهى تبين من حيث توقيتها وموقعها والطريقة التى استخدمت فيها ، مدى سخف الاسطورة التى قامت بعد ذلك . فقد امر البريطانيون على الاحتفاظ بالسيطرة القضائية على البلاد الى حين انتهاء

فترة الانتــداب يوم ١٥ مايو .. ولم تفكر الجيــوش العربية فى دخــول فلسطين الا بعد مغادرة سلطة الانتداب لها . ولكن حادثة دير ياســين لم تقع قبل هذا الموعد الحرج باكثر من خمسة أســابيع فحسب بل انها أيضا وقعت خارج نطاق المنطقة المخصصة للدولة اليهودية . ولم يكن هذا الحادث بأى حال من الأحوال اجراء انتقاميا . اذ كانت هناك أعمال عنف من جانب الفلسطينيين ولكنها لم تكن تماثل فى حجمها ولا فى فاعليتها حوادث العنف التى كان يرتكبها الصهيونيون أنفسهم ومن المسلم به أيضــا أن البريطانيين اغمضوا أعينهم الى حد ما عن تسلل جيش التحرير العربى بقيادة فوزى القاوقجى الذى احــرز بعض الانتصارات الأولية . ولكنه أخــذ يتراجع بلا انتظام مع حلول شهر ابريل بعد انهاكه وضعف امداداته وفى واقع الامر كانت حادثة دير ياسين جزءا لا يتجزء من خطة داليت وهى الخطة الرئيسية للاستيلاء على معظم أو كل اجــزاء فلسطين . وخــلال المرحلة الأولى من الحملة العسكرية التالية « للتوصية الخاصة بالتقسيم اكتفى الصهيونيون الذين لم تكن قواتهم قد تمت تعبئتها بعد تعبئة كاملة ــ بالقيــام بعملية تثبيت للفلسطينيين يقومون خلالها فى الوقت نفسه باضعاف قواهم ويجندون مقاتلين على قدر امكانهم مع تقويض معنويات المدنيين من خلال الارهاب . وكان هذا هو جوهر خطة جيمبل . ولم يعلن أى شىء رسمى عن خطة داليت ــ التى خلفت خطة جيمبل ــ حينما وضعت موضع التنفيــذ فى الأول من شهر ابريل على الرغم من أن بن جوريون كان يشير اليها بالتأكيد فى خطاب القاه بعد ذلك بستة أيام أمام اللجنة التنفيذية الصهيونية حينما قال : « فلنعقد العزم على ألا نكتفى بتكتيكات دفاعية فحسب وانما نهاجم فى اللحظة المناسبة دون توقف ولا نقتصر على الهجوم داخل نطــاق الدولة اليهودية وحدود فلســطين ، وانمــا نتعقب العدو ونقضى عليه أينما وجد » (٦٤) . وقد استمر هذا التكتم الى ما بعد حادثة دير ياسين بفترة طويلة . وتكثر المؤلفات التاريخية الصهيونية « لحرب الاستقلال » ولكن معظمها ــ لا سيما ذلك الذى كتب للاستهلاك الغربى ــ لم يذكر قط خطة داليت أو اذا حدث أن ذكرها فانه لا يوليها الأهمية الرئيســية التى تستحقها . أما بعض الروايات المدونة بالعبرية فاكثر صراحة . ونعرف منها أن المخططين العسكريين كانوا يصفون فعلا التصور العــريض لهذه الخطة عام ١٩٤٢ ، ذلك العام الذى شهد صدور برنامج بليتمور ومناصرة فكرة اقامة دولة يهودية باعتبارها الهدف الصهيونى الرسمى (٦٥) وبحلول

عام ١٩٤٧ كانوا قد رسموا خرائط وجمعوا معلومات مفهرسة عن كل قرية . وطابعها الاستراتيجي ونوعية سكانها فى فلسطين (٦٦) . وكان الهدف من خطة داليت ، طبقا لما جاء بكتاب « معارك ١٩٤٨ » ، وهو مسجل تاريخى مفصل للهاجانا والبالماخ (٦٧) هو « السيطرة على المنطقة التى منحتها الأمم المتحدة لنا بالاضافة الى مناطق نحتلها وتقع خارج هذه الحدود ، وتشكيل قوات للتصدى للغزو المحتمل من جانب الجيوش العربية » . كذلك استهدفت الخطة تطهير « مثل هذه المناطق من سكانها العرب . وبهذه الطريقة كان يمكن توسيع نطاق (الحد الأدنى الذى لا يمكن انتقاصه) — وهو الأراضى التى منحتها الأمم المتحدة « للصهيونيين — وجعل دولتهم كبيرة ويهودية قدر الامكان قبل أن تتمكن الجيوش العربية من وقفهم وقبل أن يتضح للأمم المتحدة أن مشروع التقسيم الذى أصدرته غير فعال . وقد انتقلوا الى موقف الهجوم لأنه على الرغم من المناوشات التى لا تهدأ نتيجة تنفيذ خطة جيمبل والنكسات التى تعرضت لها القوات العربية غير النظامية — فقد السكان المدنيون أو أغلبيتهم الساحقة العزم على الصمود والبقاء فى أماكنهم . وأيضا لأن الولايات المتحدة وهى الروح المحركة وراء التقسيم بدأت الآن فى التراجع عن هذا الموقف فيما وصفه دكتور سيلفر عضو الوكالة اليهودية بأنه « انقلاب مروع » (٦٨) ووصفه المؤتمر اليهودى الأمريكى « بتكتيكات مخزية ، ونفاق » (٦٩) . وكانت عملية ناتشسون التى استهدفت اقتطاع ممر يربط تل أبيب بالقدس هى بداية تنفيذ خطة داليت وكانت تستلزم تدمير واجلاء نحو عشرين قرية . وكانت دير ياسين احداها . وكان من المقرر الاقدام على اثنتى عشرة عملية أخرى فى تتابع سريع بعد ذلك ثمانية منها المنطقة المخصصة للدولة اليهودية . ونجحت بعض هذه العمليات وفشل البعض الآخر وتأجل تنفيذ عمليات أخرى الى ما بعد ١٥ مايو . وحتى مع هذا ، كان الصهيونيون ، مع حلول هذا التاريخ على وشك اكتساح فلسطين كلها . ولم تكن عملية ناتشسون كما تصورها مخططو الهاجانا تتطلب اراقة مثل هذا القدر من الدماء . ولكنها لم تكن ، من حيث الطريقة التى اتبعت فيها ، حادثة منعزلة مثلما تم تصويرها بعد ذلك . بل كانت مجرد تطبيق متطرف لسياسة عامة . كتب أريه اسحاق المؤرخ الاسرائيلى ومؤلف كتاب عن تاريخ الحرب يقع فى ١٢٠٠ صفحة ، يقول بعد هذه الحادثة بأربعة وعشرين عاما « بوسعنا أن ندرك اذا ربطنا الحقائق أن

المعركة سارت الى حد كبير وفق النمط المألوف لاحتلال قرية عربية عام ١٩٤٨ . ففي خلال الأشهر الاولى من « حرب الاستقلال » قامت قوات الهاجانا والبالماخ بتنفيذ اثنتى عشرة عملية من هــذا النوع ، وكانت الطريقة المتبعة هى الاغارة على احدى قرى العدو ونسف أكبر عدد ممكن من المساكن فيها . وخلال هذه العمليات كان يقتل عدد كبير من المسنين والنساء والأطفال أينما بدرت مقاومة . وبوسعى أن أذكر فى هذا الصدد عدة عمليات من هذا النوع قام بتنفيذها رفاق باعيل فى السلاح .. وهى القوات غير النظامية التابعة لوحدة البالماخ والذين كانوا يتلقون تدريباتهم للاهتمام « بنقاء الأسلحة العبرية » (٧٠)

وكان المسئول عن طرد الفلسطينيين من ديارهم فى النهاية هو ذلك المزيج المعقد من الغارات الخاطفة المــادية والنفســية التى قامت بها قوات رسمية « ومنشقة » على حد سواء . فكانت قوات الهاجانا وأرجون تشن هجمات مفاجئة واسعة النطاق على المدن والقرى وتقصفها بمدافع الهاون والصواريخ وسلاح دافيدكا الشهير . وكان عبارة عن اداة غريبة الشكل تقذف بستين رطلا من مادة الـ ت.ن.ت لمسافة ٣٠٠ ياردة تقريبا وسط مناطق مكتظة بالسكان وعلى نحو يفتقر تماما الى دقة التصويب (٧١) كما كانت تستخدم ايضا قنبلة « البرميل » . وقدم ضــابط احتياطى بالجيش الاسرائيلى اشــترك فى حرب عام ١٩٤٨ ، تفصيلات عن هــذا الســلاح فى مقال بعنوان « كل شىء مشروع .. » ، كتبــه عقب هــذه الأحداث بفترة طويلة لحساب مجلة البحرية الأمريكية وكان عبــارة عن برميل خشبى أو معــدنى مملوء بمزيج من المتفجرات والبترول ومزود باطــارين قديمين من المطــاط يحتويان على فتيــل التفجير . وكان يتم دحرجته عبر الأزقة الشديدة الانحدار والحارات المدرجة ، بأحياء المدن العربية الى ان يرتطم بالجدران والأبواب فيطلق « جحيما من لهب مروع وانفجارات لا نهاية لها » (٧٢) . وفى نفس الوقت يثار ذعر اضــافى بين السكان بواسطة اذاعات باللغة العربية موجهة من محطات اذاعة صهيونيــة سرية أو مكبرات صوت مركبة فوق عربات مدرعة بالمناطق المستهدفة . وكانت الاذاعات تحذر من انتشار الأوبئة الخطيرة مثل الكوليرا أو التيفوس وتلح الى تعاون العرب مع العدو وتهدد بان « الســكان » « الأبرياء » سيدفعون عن الهجمات الفلسطينية على اليهود . ولكن هناك موضــوعا يكتشف الستار عن هذا ، على وجه الخصوص أورد عنــه هارى ليفين

المؤلف الصهيوني البريطاني مثالا مناسبا ، قال : « كان أحد مكبرات الصوت ينطلق مدويا باللغة العربية فى منطقة قرية (فى القدس) . وكانت الهاجانا توجه اذاعتها الى المدنيين العرب تحثهم على مغادرة الحى قبل الساعة الخامسة والربع صباحا . وجاء بهذه الاذاعة : « لتأخذكم الرحمة بزوجاتكم وأطفالكم ولتهربوا من حمام الدم هذا .. اهربوا من خلال طريق أريحا ، فهو لا يزال مفتوحا امامكم . أما اذا بقيتم فستحل بكم كارثة » (٧٣) . ويميط ضابط الاحتياط الاسرائيلى اللثـام عن الجانب المتعمد فى هذا . كتب يقول أنه وسط انفجارات قنابل البرميل « .. ومع انتشار الذعر على نحو لا يمكن السيطرة عليه فى كافة انحاء الأحياء العربية جلب الاسرائيليون سيارات جيب تحمل مكبرات صوت تردد تسجيلا « لأصوات تنم عن الرعب » وكانت هذه الأصوات تتضمن صراخا وعويلا وانينا يقطع نياط القلوب لنسوة عربيات ، وصوت صفارات انذار وصليل أجراس المطافىء يتخللها صوت كئيب يصيح باللغة العربية « انجوا بأرواحكم ايها المؤمنون فاليهود يستخدمون غازات سامة وقنابل ذرية . اهربوا بجلدكم باسم الله » (٧٤) .

وسقطت سلسلة من المدن العربية ــ طبرية وحيفا وعكا ويافا والجزء الأكبر من القدس العربية ــ الواحدة فى اثر الأخرى بصورة سريعة أمام زحف « صهيونية البندقية » التى تتعذر مقـاومتها . وتدفق نحو ثلثمائة أو أربعمائة آلاف لاجىء على الدول العربية المجاورة . وكانوا يتعرضون أحيـانا للهجوم عليهم فى الطريق وتجريدهم من ممتلكاتهم الباقية . أما من لم يندفعوا الى الصحراء فقد عانوا من مصير ادخره العرب للصهيونيين منذ ذلك الحين ، على حد قول الصهيونيين أنفسهم . فقد تم « القاء سكان المدن الساحلية بالفعل فى البحر » ، وغرق الكثيرون منهم خلال تزاحمهم للوصول الى القوارب .

وليست هنالك صورة نافذة البصيرة عن مدى الحاح خطة داليت وحجمها مع قرب انتهاء عهد الانتداب ، أفضل من تلك التى طرحها ايجال آلون البطل الرئيسى فى « حرب الاستقلال » فهو يستعيد فى مؤلفه « كتاب البالماخ » انه : « لم يكن أمامنا سوى خمسة أيام فقط قبل حلول موعد التهديد أى ١٥ مايو . كنا ندرك أن ثمة حاجة لتطهير منطقة الجليل الداخلية من أجل اقامة وجود يهودى اقليمى بمنطقة الجليل الأعلى كلها . وكانت المعارك الطويلة قد أضعفت قواتنا .. وكان علينا تنفيذ مهام

جسيمة تتمثل فى بعد طرق الغزو العربى . (اى التوسيع بالفعل) ولذلك بحثنا عن وسائل لا تضطرنا الى استخدام القوة لكى نجعل عشرات الالاف من العرب المتهجمين ممن بقوا فى الجليل على الفرار ، لانه من المحتمل أن يهاجمونا من المؤخرة فى حالة وقوع غزو عربى . وقد حاولنا استخدام تكتيك يستغل الانطباع الذى خلفه سقوط صعد وهزيمة (العرب) فى المنطقة التى تم تطهيرها بتنفيذ عملية متاته .. وهو تكتيك نجح نجاحا رائعا وقمت بجمع كل العمد اليهود الذين لهم اتصالات بالعرب فى قرى مختلفة وطلبت منهم ان يهمسوا فى آذان بعض العرب بأن تعزيزات يهودية ضخمة وصلت الى الجليل وانها ستحرق كل قرى الحولة . وقلت لهم ان عليهم ان يوحوا لهؤلاء العرب باعتبارهم أصدقائهم بالفرار مادام لايزال امامهم متسع من الوقت . وانتشرت الشائعة فى كل مناطق الحولة بأن الوقت قد حان للفرار . وبلغ عدد الفارين عشرات الالاف . وحقق التكتيك الهدف منه تماما . وسقط مبنى مركز البوليس فى حلسا بدون اطلاق رصاصة واحدة . وتم تطهير المناطق الواسعة وزال الخطر عن طرق النقل واستطعنا تنظيم انفسنا استعدادا لمواجهة المغيرين على طول الحدود بدون أن يساورنا قلق على المؤخرة » (٧٥) .

ورغم كل التهديد والوعيد كانت النكبة التى تكشفت ابعادها امام أعين الشعوب العربية هى التى حملت الحكومات العربية فى النهاية وتحت ضغط لا يقاوم على ارسال جيوشها الى فلسطين وانقاذ ما يمكن انقاذه . ومع ان هذا التدخل وقع بعد فوات الأوان وكان يفتقر الى الكفاءة اعترف آلون أنه بدونه « .. لم يكن هناك ما سيحول دون توسع قوات الهاجانا التى كان بوسعها أن تصل بمعدل تقدمها نفسه الى الحدود الطبيعية لغرب اسرائيل لأن معظم قوات العدو المحلية كانت قد اصيبت بالشلل فى هذه المرحلة » (٧٦) .

.. وعلى الرغم من أن المثل الأعلى المتمثل فى اقامة دولة يهودية قاصرة على اليهود وحدهم فى كل فلسطين قد غاب عن بال الصهيونيين أثناء الحرب التى تلت ذلك — على الرغم من هذا — عززوا من مركزهم على نحو أكبر . وتميزت الحرب بسلسلة من الهدنات التى أشرفت عليها الامم المتحدة ولكنهم استفادوا منها بنفس القدر الذى استفادوا به من القتال الفعلى . وقد صرح بن جوريون فى معرض اعلانه موافقة حكومته على أول وقف لاطلاق النيران يوم ١٠ يونيو أن : « .. حدودنا اتسعت وتضاعف عدد

قواتنا ونحن ندير الخدمات العامة وتصل الينا يوميا حشود وفيرة ... وسوف نحتفظ بكل ما استولينا عليه .. وسوف نقوم خلال فترة وقف اطلاق النار بتنظيم الادارة بنشاط أشد ، وبتعزيز مواطيء أقدامنا فى المدن والقرى وبالتعجيل والهجرة ، والاهتمام بالجيش » (٧٣) .

وحينما وضعت الحرب أوزارها فى أوائل عام ١٩٤٩ كان الصهيونيون الذين خصص لهم مشروع التقسيم نسبة ٥٧٪ من مساحة فلسطين قد احتلوا ٧٧٪ من مساحة البلاد وشردوا تسعمائة ألف نسمة من السكان العرب البالغ عددهم مليونا وثلثمائة ألف نسمة واستولوا على مدن بأكملها أو احياء كاملة منها ، كما استولوا على مئات القر واصبح كل ما فيها من مزارع ومصانع وماشية وآلات ومنازل أنيقة وأثاث فاخر وسجاجيد وملابس ومقتنيات فنية ، وكل السلع والأملاك والتراث العائلى القيم ملك أيديهم وسقط فى أيديهم عشرة آلاف حانوت ومشروع تجارى ومستودع ومعظم مزارع الحمضيات التى يملكها العرب الأغنياء ، وتبلغ نصف اجمالى مساحة مزارع الحمضيات فى البلاد كلها .

وأصبح حاييم وايزمان السياسى المبجل المتقدم فى السن أول رئيس جمهورية لدولة اسرائيل . وكان هذا مناسبا تماما . فالدولة اليهودية تدين بوجودها له بأكثر مما تدين لأى شخص آخر . ومع هذا اذا كان من الممكن حقا الا تظهر اسرائيل الى الوجود بدون وايزمان فمن المؤكد أيضا أنها لم تكن لتظهر بدون بن جوريون وبيجين ، أو حتى بدون خطة داليت وحادثة دير ياسين . وكان وايزمان يبدى احيانا أسفه حيال تجاوزات « صهيونية البندقية » . وقد صرح بقوله أمام احدى لجان التحقيق التابعة للامم المتحدة عام ١٩٤٧ « بوسعى القول بكل تواضع أن الآية التى وردت بالتوراة (لا تقتل) تأصلت فى نفوسنا منذ أن كلم الرب موسى فوق جبل سيناء . وكان من غير المتصور منذ عشر سنوات خلت أن ينقض اليهود هذه الوصية ومن سوء الحظ أنهم ينقضونها فى الوقت الحاضر وليس ثمة من هو أكثر أسفا لذلك من الأغلبية الساحقة من اليهود . انني أنكس رأسي خزيا حينما اضطر للحديث عن هذه

الحقيقة أمامكم » (٧٨) . ولكن بدا الآن أن تردده زال عنه . فالرجل الذى أكد منذ ثلاثين عاما مضت فقط لعرب يافا أنه ما من أحد ينوى «طرد أى أحد من أملاكه» أو الذى تولى زمام السياسة العليا لاقاليم فلسطين هذا الرجل يعود مثقلا بعبء السنين والمقام الرفيع ، الى أرض الميعاد التى حولتها « صهيونية البندقية » الى أرض يهودية أو مثلما تعد انجلترا انجليزية تقريبا . وأعلن بورع « كان هذا تطهيرا خارقا للارض : تيسير مهمة اسرائيل بصورة خارقة » (٧٩) .

ملاحظات ومراجع الفصل الرابع :

(١) جون كيمش : « الاعمدة السبعة المنهارة : الشرق الاوسط ، ١٩١٩م — ١٩٥٠ » ، سيكر وواربوج ، لندن ، ١٩٥٠ • صفحة ١٧١ .

(٢) مناحيم بيجين « الثورة » ، و.هـ. ألين ، لندن ، ١٩٥١ ، صفحة ٢٢٠ .

(٣) نفس المرجع صفحة ٤٠ .

(٤) نفس المرجع صفحة ٤٦ .

(٥) الكتاب السنوي اليهودى للقانون الدولى ، القدس ، ١٩٤٩ ، صفحة ٢٨ •

(٦) مجلة كومنتري ، نيويورك ، عدد يوليو ١٩٦٤ .

(٧) انظر أدان يولوك «حياة وعصر ارنست بيفن : الزعيم النقابى ، ١٨٨١ — ١٩٤٠» ، هينمان ، لندن ، ١٩٦٠ ، صفحات ٤٥٥ — ٤٥٧ .

(٨) ويليام أيدى « فرانكلين ديلانورنوفلت يقابل ابن سعود » ، أصدقاء الشرق الاوسط الامريكيون ، نيويورك ، ١٩٥٤ ، صفحة ٣٦ .

(٩) كريستوفر مايهيو ومايكل آدامز ، « لا تنشروا » ، اونجمانز ، لندن ، ١٩٧٥ ، صفحة ١٨ .

(١٠) روبرت . أ • ديفين ، « سياسة الهجرة الامريكية ، ١٩٢٤ — ١٩٥٢ » ، مطبعة جامعة اوكسفورد ، لندن ، ١٩٥٧م ، صفحة ١٢٨ .

(١١) موريس . ل . ابرنست « الامور على مايرام حتى الآن » هاربر اخوان ، نيويورك ، ١٩٤٨ الذى استشهد به الخالدى فى كتابه « من الملاذ الى الغزو » ، فى المرجع المشار اليه صفحة ٤٩ .

(١٢) شيختمان « مقاتل ونبى .. قصة فلاديمير جابوتنسكى » ، المرجع المشار اليه صفحة ٤٧٩ •

(١٣) نفس المرجع صفحات ٤٨٣ الى ٤٨٤ .

(١٤) نفس المرجع صفحة ٣٦٤ .

(١٥) انظر صفحات من ٩٨ الى ١٠٠ .

(١٦) شيختمان — المرجع المشار اليه صفحة ٤٨٤ .

(١٧) بيجين — المرجع المشار اليه ، من صفحات ١٢ الى ١٥ .

(١٨) نفس المرجع صفحة ٢١٥ .

(١٩) ريتشارد كروسمان « مهمة فلسطين : سجل شخصى » ، هاميش هاميلتون ، لندن ، بدون تاريخ ، صفحة ١٣٩ .

(٢٠) « مجلة يهوا الجديدة » ، ديسمبر ١٩٤٦ — يناير ١٩٤٧ ، الصفحات من ٦٥ الى ٦٧ .

(٢١) ريتشارد كروسمان ((بعث امة ، اسرائيل وايزمان بيفن وبن جوريون ، هاميش هاملتون ، لندن)) ، ١٩٦٠ ، صفحة ٨٩ .

(٢٢) ١٥ مايو ١٩٤٧ .

(٢٣) اسحاق زاعار ((النجدة والتحرير)) دور امريكا في ميلاد اسرائيل ، بلوش ، نيويورك ، ١٩٥٤ ، صفحات ١٩٣ الى ١٩٤ ، من ٢٠٠ الى ٢٠٣ .

(٢٤) نفس المرجع ، صفحات ٢١٥ الى ٢١٦ .

(٢٥) كان أوزوال موزلى يتزعم منظمة فاشية بريطانية صغيرة .

(٢٦) مجلة كومنتارى ١ مايو ١٩٤٨ .

(٢٧) التايمز ، اغسطس ١٩٤٦ .

(٢٨) نفس المرجع ، ١٩ فبراير ١٩٤٧ .

(٢٩) صموئيل كاتز ، ايام النيران ((دبلداى ، نيويورك)) ، صفحات ١٢٠ الى ١٢٢ ، صفحة ١٧٨ .

(٣٠) برنارد مونتجمرى ((مذكرات)) دار النشر العالى ، كليفلاند ونيويورك ، ١٩٥٨ ، صفحات ٣٤٠ الى ٣٤١ .

(٣١) هيوتومباس ، ((جون ستراتشى)) ، ايرميثون ، لندن ، صفحات ٢٢٨ الى ٢٢٩

(٣٢) مايهيو ، المرجع المشار اليه ، صفحة ٣٣ .

(٣٣) بيجين ، المرجع المشار اليه ، ٢٩٠ .

(٣٤) نيويورك تايمز ونيويورك هيلارالد تربيون ، ١٢ ابريل ١٩٤٨ .

(٣٥) كيمش ، المرجع المشار اليه ، صفحة ٢٢٧ .

(٣٦) يهودا الجديدة ، ويليام نولك ، دافيد ستولر وادوارد عصفور ، خليفة المأساة ، نيويورك ١٩٥٧ ، بالصفحة ٢٩ .

(٣٧) دومينيك لابيرولارى كولينز ((ايتها القدس)) ، سيمون وشوستر ، ١٩٧٢ ، صفحة ٢٧٢ .

(٣٨) هامشكيف ((جريدة ارجون)) ، ١١ ابريل ، ١٩٤٨ ، بيجين ، في المرجع المشار اليه صفحات ١٦٢ الى ١٦٣ .

(٣٩) فلسطين بوست ، ١٣ ابريل ١٩٤٨ ، انظر ايضا جريدة النيويورك تايمز ، ١٣ ابريل ١٩٤٨ .

(٤٠) كاتز ، المرجع المشار إليه ، صفحة ٢١٥ .

(٤١) بيجين ، المرجع المشار اليه ، صفحات ١٦٣ ـ ١٦٤ .

(٤٢) لابيير ، المرجع المشار اليه ، صفحة ٢٧٣ .

(٤٣) تقرير قسم التحقيق الجنائى ، حكومة فلسطين ، رقم ١٧١١٠/١٧٩ القيادة العامة ، ١٣ أ ، ١٦ ابريل ١٩٤٨ . ذكرها لابير في المرجع المشار اليه صفحة ٢٧٦ .

(٤٤) يديعوت احرانوت (صحيفة اسرائيلية) ، ٤ ابريل ١٩٧٢ .

(٤٥) جاك دى رينيه ((علم يرفرف على خط النار بالقدس)) ، دار نشر لاباكونيير ، نوشاتل ، ١٩٥٠ ، صفحات من ٧١ الى ٧٦ .

(٤٦) جويش نيوزلتر ((نيويورك)) ، ٣٠ اكتوبر ١٩٦٠ .
(٤٧) بيجين ، المرجع المشار اليه ، صفحة ١٦٤ .
(٤٨) لابيير ، المرجع المشار اليه ، صفحة ٢٨٠ .

(٤٩) والتر لاكير ((تاريخ الصهيونية)) ، ويدنفيلد ونيكولش لندن ، ١٩٧٢ صفحة ٢٣١ .

(٥٠) جريدة دافار ، ٢٩ سبتمبر ١٩٦٧ .
(٥١) لجنة بيل ، المرجع المشار اليه صفحة ٣٩١ .
(٥٢) جويش كرونيكل ، ١٣ اغسطس ١٩٣٧ .
(٥٣) وايزمان ((التجربة والخطأ)) ، المرجع المشار اليه ، صفحة ٥٣٥ .

(٥٤) فلسطين ((دورية صهيونية)) ، المجلد الثاني ، رقم ٩ الى ١٠ نوفمبر — ديسمبر ١٩٤٥ صفحة ١٦ .

(٥٥) انظر صفحات ٩٨ — ١٠٠ .
(٥٦) يوميات فورستال ، وولتر مليتز ، فيكنج برس ، نيويورك ، ١٩٥٢ ، صفحة ٣٦٣
(٥٧) ألفريد ليلينتال ، ((ثمن اسرائيل)) ، هنرى رجيس ، شيكاغو ١٩٥٣ ، صفحات ٦٠ — ٦٦ .

(٥٨) انظر الخالدى ، المرجع المشار اليه ، صفحات ٨٥٨ الى ٨٦٠ .
(٥٩) بارتلى . س . كرم ، ((خلف الستار الحريرى)) ، سيمون وشوسر ، نيويورك ، ١٩٤٧ صفحة ٢٢٠ .

(٦٠) جيوفرى فورلوج ، ((فلسطين بلادى ، قصة حياة موسى العلمى)) ، جون موراى ، لندن ، ١٩٦٩ ، صفحة ١٩٥٢ .
(٦١) تصريحات عامة ، ١٤ مايو ١٩٤٨ .
(٦٢) الخالد ، المرجع المشار اليه ، صفحة ١٤ .

(٦٣) انظر على سبيل المثال تيرنس بيرتى ، برنارد دنبين وجودهارت فيليب ، ((الهجرة الجماعية المزدوجة)) ، جوهارت برس ، لندن ١٩٧٥ .
(٦٤) بن جوريون ((بعث ومصير)) ، فى المرجع المشار اليه ، صفحة ٢٣٩ .

(٦٥) أيجال يادين ، كبرى العمليات فى حرب عام ١٩٤٨ ، معاريف (صحيفة اسرائيلية) ، ٦ مايو ١٩٧٣ .

(٦٦) هارى ساشر ، ((انشاء دولة)) ، ويليام كلاوس وأبناؤه ، ١٩٥٢ ، صفحة ٢١٧
(٦٧) أنظر الخالدى ، المرجع المشار اليه ، صفحة ٣٩ .
(٦٨) نيويورك تايمز ، ٢٠ مارس ١٩٤٨ .
(٦٩) نفس المرجع ، ٢١ مارس ١٩٤٨ .
(٧٠) يديعوت أحرانوت ، ١٤ أبريل ١٩٧٢ .

(٧١) انظر ناثانل لورش ((حد السيف)) ، ج . ب . وتنام ، نيويورك ١٩٦١ ، صفحة ١٠٣ .

(٧٢) ليوهيمان فى مجلة السلاح البحرى ، يوليو ١٩٦٤ ، استشهد بها ارسكين تشيلدرز ((الرغبة اليتوية)) من مواطنين الى لاجئين ، فى القضية الفلسطينية فى جهود السلام بالشرق الاوسط)) جلسات استماع لجنة العلاقات الدولية بمجلس النواب ، سبتمبر وأكتوبر ونوفمبر ١٩٧٥ ، مكتب الطباعة التابع للحكومة الامريكية ، ١٩٧٦ ، صفحة ٢٥٢ .

(٧٣) هارى ليفن ، ((القدس محاصرة)) يوميات المدينة المحاصرة من ٢٥ مارس ١٩٤٨ الى ١٨ يوليو ١٩٤٨ ، جولانسيز ، لندن ١٩٥٠ ، صفحة ١٦٠ .

(٧٤) تشيلدرز ، المرجع السابق المشار اليه ، صفحة ٢٥٣ .

(٧٥) هاسيفرها بالماخ ، المجلد الثانى ، صفحة ٢٨٦ ، استشهد بها الخالدى ، المرجع المشار اليه ، صفحة ٤٢ .

(٧٦) نفس المرجع صفحة ٤٣ .

(٧٧) بن جوريون ، المرجع المشار اليه صفحة ٢٧٤ .

(٧٨) تقرير عن اللجنة الخاصة بفلسطين التابعة للامم المتحدة ، وثيقة ١ ، ٣٦٤ ، ١٩٤٧ ، صفحة ٧٧ .

(٧٩) جيمس ماكدونالد ، ((مهمتى فى اسرائيل)) ، شيمون وشوستر ، نيويورك ، ١٩٥٢ ، صفحة ١٧٦ .

الفصـــل الخـــامس

استخدامات خاصة للعنف

اغتيـــال الكونت برنادوت :

كانت اسرائيل وليدة الأمم المتحـــدة ولهذا قامت الأمم المتحـــدة يوم الرابع عشر من مايو عام ١٩٤٨ ، وهو اليوم الســـابق لانتهاء الانتـــداب البريطانى ، بتعيين وسيط ليراقب مولد دولة اسرائيل ، « ليستخـــدم مساعيه الحميدة لدى الجالية المحلية والسلطات فى فلسطين .. وليشجع التكيف السلمى للوضع فى فلســـطين فى المســـتقبل » (١) . ولم يكن باستطاعة الصهاينة أن يتذمروا من هـــذه المبـــادرة التى قامت فى هيئـــة اثبتت بالفعل ، فى قرار التقسيم ، انها منحازة لجانبهم ، كما لم يكن فى استطاعة الصـــهاينة الاعتراض على الشخص الذى اختير لتنفيذ هذه المهمة .

كان الكونت فولك برنادوت أحد افراد العائلة المالكة السويدية فهو ابن عم الملك . وكان ارســـتقراطيا ، وقد خلقت فيـــه ثروته ومركزه الاجتماعى السامى الدافع لخدمة اخوته فى الانسانية . وساهم فى خلق هـــذا الدافع أيضـــا معتقداته البروتستانتية العميقة . وقد جمع بين الاحساس بالرسالة الملقـــاة على عاتقه والخبرة العملية الكبيرة . وكان برنادوت قد ذاع صيته عندما عمل ممثلا للصليب الأحمر الدولى أثنـــاء الحرب العالمية الثانية . اذ انه هو الذى نظم أول عملية لتبـــادل الأسرى المقعدين . وقد حظى باحترام الجانبين بسبب نزاهته وحياده الكامل ، ومنحه الجانبان حرية التنقل .

وعلى الرغم من أن برنادوت جاء الى فلســـطين ولديه تصور دقيق لدروه كوسيط ، وتصميم على عدم اظهار أى خوف أو تحيز ، على الرغم من هذا كان يميل فى حقيقة الأمر الى جانب الصهيونيين وكان ذلك أمرا طبيعيا . اذ أن برنادوت الذى أفزعته المذابح الجماعيـــة التى ارتكبهـــا النازى ضد اليهود ، قد نجح بمبادرة شخصية منه فى انقاذ من بقى على قيد الحياة منهم — وعددهم حوالى ثلاثين ألف شخص — من معسكرات

الاعتقال (٢) . فضلا عن انه كان يشعر ـ شأنه شأن غالبية الأوروبيين ـ بارتباط غريزى مع الصهيونيين الذين كان أغلبيتهم من الأوربيين . وكانت هناك هوة ثقافية تفصل بينه وبين العرب الذين لم يكن قد التقى بهم من قبل ، والذين يعبرون عن أنفسهم ، كما كتب هو يقول ، بالأسلوب المنمق والرسمى ، وهو الأمر الشائع فى الشرق الاوسط (٣) وكان برنادوت أيضا ـ شأنه شأن الكثير من الأوروبيين ـ متشبعا بالمشاعر الغالبة فى العهد القديم (التوراة) والتى تعتبر عودة اليهود الى أرض أسلافهم بمثابة تحقيق للنبوة . وقد استقى القدر الأكبر من معلوماته عن المشكلة الفلسطينية من المصادر الصهيونية . وتأثر برنادوت بشدة بما ادعاه الصهيونيون من أنهم يحولون الصحراء الى أرض خضراء . وقد علق فى مذكراته على « العمل المدهش الذى قام به فى مجال زراعة هذا الريف الشبيه بالصحراء .. وخطوط التحديد الواضحة التى تفصل بين الصحراء فى جانب والحدائق الخصبة وبساتين البرتقال فى الجانب الآخر » (٤) . وقد سجل هذه الملاحظة أثناء زيارته لفلسطين ، ولم يكن يدرك ، وهو يقود سيارته على طول السهل الساحلى الممتد من حيفا الى تل أبيب ، ان تلك المنطقة هى أخصب أجزاء البلاد ، وان العرب كانوا ما يزالون يملكون ويزرعون ما يزيد على نصف مساحة هذه المنطقة . اذن برنادوت ، الذى كان ملما تماما بمأساة اليهود الأوروبيين ، لم يكن يعلم الا القليل عن المعاناة التى سببها اليهود للاخرين بوصفهم صهيونيين ، وكان برنادوت يتلقى تقارير موجزة من بعض المستشارين الذين كانوا يميلون الى تجاهل الفلسطينيين نظرا لقلة شأنهم . وتسجل لنا مذكراته أن أحد هذه التقارير أبلغه أن :

« العرب الفلسطينيين ليست لهم أية ارادة مستقلة . كما لم تنم لديهم أية قومية فلسطينية محددة . وبالتالى يعتبر المطلب الخاص باقامة دولة عربية مستقلة فى فلسطين ضعيفا نسبيا ويبدو الأمر وكأن معظم العرب الفلسطينيين سيرضون تماما ، فى ظل الظروف الحالية ، بالاندماج فى شرق الأردن » (٥) .

وليس بالمستغرب ان برنادوت كان يميل فى أول الأمر الى النظر الى المشكلة وأيضا الى طريقة حلها ، من وجهة النظر الصهيونية . وقد تصور أن مهمته الجديدة ستكون انسانية أكثر منها سياسية ، شأنها شأن المهمة التى أداها خلال الحرب ، وأنها ستتضمن تبادل الأسرى واعادة

توطين اللاجئين ومساعدة المرضى والمحتاجين والمشردين . وكان يعتقد أن السلام سيحل فى نهاية الأمر .

ولابد أن وصوله الى القدس كان له وقع الصدمة المحيرة على برنادوت مندوب تلك المنظمة الدولية التى تدين اسرائيل بوجودها لها . فقد كانت سيارات الجيب التى تحمل أعلام « القاتلين من أجل حرية اسرائيل » (عصابة شتيرن) تجوب أرجاء المدينة ، محذرة اياه من أن استكهولم مدينتك . والقدس مدينتنا . انك تضيع جهودك هباء . فنحن هنا .. وطالما بقى هناك عدو واحد لقضيتنا ، ستنتظرة طلقة جاهزة فى البندقية (٦١) وفى يوم السابع عشر من سبتمبر قتلت عصابة شتيرن فولك برنادوت . على أنه ، على مدى الأشهر الأربعة السابقة على مصرعه كانت الطائفة الصهيونية بأكملها ـ وهى الممثلة الرسمية لدول اسرائيل الوليدة ـ وهى التى قامت بتبديد تصوره الخاص بدولة فلسطين التى يسود السلام ربوعها .

وتمثلت المهمة الأولى للوسيط فى الاعداد لعقد هدنة مدتها شهر يستطيع خلالها صياغة مقترحات من أجل تسوية سلمية . ونجح برنادوت فى الحادى عشر من يونية ، بعد أسبوع من الجهود المضنية ، فى اقناع اليهود والعرب بقبول وقف اطلاق النار بلا قيد أو شرط .

وفى يوم ٢٨ يونية ، قدم برنادوت ، بعد اجراء مشاورات مكثفة مع الجانبين ، ما وصفه بأنه « اساس محتمل للمناقشات » . وتضمن هذا الاساس توصيات محددة بشأن الأراضى ، كانت معظمها لصالح العرب ، وتضمن تعديل الحدود التى جاءت فى مشروع التقسيم الذى وضعته الأمم المتحدة . على أن الأمر الذى شغل اهتمام برنادوت كان مئات الآلاف من اللاجئين العرب الذين شهد تعاستهم بعينيه وهم يعيشون فى مخيماتهم المتنقلة . وقال فيما بعد أمام الأمم المتحدة أن مأساة هؤلاء اللاجئين تشكل أكبر عقبة أمام تحقيق السلام .

« على أننا لا يمكن أن ننكر أن اية تسوية لا تصبح عادلة ومتكاملة اذا لم تتضمن الاعتراف بحقوق اللاجىء العربى فى العودة الى موطنه الذى طرد منه نتيجة لمخاطر واستراتيجية الصراع المسلح بين العرب واليهود فى فلسطين ومما يعد جريمة ضد مبادىء العدالة الأساسية أن يحرم هؤلاء الضحايا الأبرياء للصراع ، من حق العودة الى ديارهم ، فى حين يتدفق

المهاجرون اليهود على فلسطين ويهددون على الأقل ــ بخطر أن يحلوا بصفة دائمة محل اللاجئين العرب الذين يعيشون فى البلاد منذ قرون » .

وفى أول يولية ، علم برنادوت بالرد الاسرائيلى من ممثله فى تل أبيب الذى أبلغه ان موشى شاريت وزير الخارجية مستعد للذهاب الى رودس لاستئناف المفاوضات شريطة أن يقبل العرب أيضا دعوة الوسيط .

فهل كان لك تقدما مفاجئا ، لقد اعتقد برنادوت ذلك وكتب يقول فى يومياته بحماس « لعله ليس من الصعب تخيل مدى سعادتى عندما قرأت رسالة ريدمان . . فهذه أنباء رائعة وهى تعنى أن اليهود قد قبلوا مقترحاتى من حيث المبدأ (٨) » .

وفى البداية لم يكن رد العرب ــ الذى وضعه العرب بصورة جماعية عن طريق الجامعة العربية ــ مشجعا بنفس الدرجة . اذ كان برنادوت قد علم من مصادره فى القاهرة أن « الموقف العربى سلبى الى أبعد حد (٩) » . ولكنه سافر بنفسه الى القاهرة يوم الثالث من يوليو وعاد وهو مطمئن الى حد ما ، نتيجة للاجتماعات التى عقدها ممثلو الدول العربية . فقد أدرك برنادوت ان العرب غير مستعدين لاجراء مفاوضات مباشرة مع الاسرائيليين فى رودس ، على أن ذلك لم يجعله يشعر بخيبة الامل على الاطلاق : « اذ ساوره شعور بأن الباب مازال مفتوحا لاجراء مزيد من المناقشات وان الثقة التى أولاها لى الممثلون العرب لم تضعف بأى حال من الأحوال وانهم ما زالوا مستعدين لقبولى كوسيط (١٠) » .

على أن مفاجأة غير سارة كانت تنتظر برنادوت يوم الخامس من يولية عندما عاد الى تل أبيب ليتلقى الرد الرسمى من الحكومة الاسرائيلية المؤقتة اذ لم يكتف هذا الرد برفض توصياته المحددة فحسب ، بل انه تحدى سلطته فى « تعديل » نص مشروع التقسيم الذى وضعته الأمم المتحدة . وأخبرته الدوائر اليهودية صراحة انها مندهشة لامكان صدور هذا الاقتراح من شخص ينتمى لدولة مسيحية (١١) » . وفى الوقت نفسه ، أعلنوا حتى وهم يدينون « تعديلة لمشروع الأمم المتحدة للتقسيم » ، أن الدولة اليهودية لن تلتزم ببعض بنوده .

وفى يوم التاسع من يوليو انهارت الهدنة الأولى واستؤنفت الأعمال العسكرية التى نفذ خلالها الصهيونيون مزيدا من التعديلات الخاصة بهم ، حيث قاموا بتطهير مساحات كاملة من وسط فلسطين من سكانها الأصليين .

وقد زار برنادوت فى عمان ، يوم أول أغسطس ، بعض الضحايا المطرودين . « لقد كشف التحقيق المبدئى الذى أجريناه .. فى عمان أن مشكلة اللاجئين أكثر ضخامة وأكثر مدعاة للحيرة مما تصورنا (١٢) .. وفى اليوم نفسه أبلغته الحكومة الاسرائيلية المؤقتة رسميا بعدم امكان عودة هؤلاء اللاجئين أو أى لاجئين غيرهم . وعللت ذلك بقولها بأنه « اذا كنا نجد أنفسنا عاجزين عن الموافقة على السماح بدخولهم مرة أخرى الى المناطق التى تسيطر عليها اسرائيل ، فالسبب فى ذلك يرجع الى اعتبارات طاغية تؤثر على أمتنا فى الوقت الحالى ، وعلى نتيجة الحرب الراهنة وعلى استقرار التسوية السلمية فى المستقبل » ومضت الحكومة تصف « خروج العرب الفلسطينيين فى عام ١٩٤٨ بأنه « واحد من تلك الظواهر المفاجئة والعنيفة التى تؤدى ، طبقا لتجارب الدول الأخرى ، الى تغيير مجرى التاريخ (١٣) » .

وحاول برنادوت مرة أخرى . وقد سجل فيما بعد فى مذكراته تأملاته المريرة بشأن اجتماعه مع موشى شاريت ، ذلك الشخص الذى كان يعتبر من الحمائم بالنسبة لبن جوريون المتشدد .

« ان كل ما اقترحه لم يلق استجابة ، ولم أصل الى شىء ومن الأمور ذات المغزى ان أقرأ فيما بعد فى الصحيفة اليهودية « بالستاين بوست » : لقد عقد الكونت برنادوت اجتماعا غير مجد مع وزير خارجية اسرائيل » . ومن الواضح أن ذلك اعتبر نصرا عظيما .. ومن جانبى ، اعتبرت أن رد الفعل اليهودى يمثل تأكيدا لما قلته من قبل ، وهو ان النجاح العسكرى الذى حققوه خلال حرب الأيام الستة العشرة قد أفقدهم صوابهم (١٤) » .

والتقى برنادوت مرة أخرى باللاجئين ، فى رام الله التى تبعد عدة أميال الى الشرق من القدس ، وأدى هذا الى زيادة حد شعوره بالحنق :

« لقد زرت عددا أكبر من مخيمات اللاجئين من قبل ، ولكننى لم أر مطلقا مثل ذلك المشهد المخيف الذى وقعت عليه عيناى هنا فى رام الله . لقد هجم على السيارة بالفعل كتل من البشر الهائمين كانوا يصيحون بحماسهم الشرقى المألوف ، مطالبين بالطعام وبالعودة الى ديارهم . وكان هناك الكثير من الوجوه المخيفة فى ذلك الطوفان من البشرية المعذبة واننى أتذكر بصفة خاصة مجموعة من الرجال المسنين البائسين والمصابين بالحرب وقد طالت لحاهم ، وقد أطلوا بوجوههم النحيلة داخل السيارة ومدوا

أيديهم بفتات من الخبز الذى لا يرضى الأشخاص العاديون ، بالقطع ، بأن يأكلوه ، ولكنه كان طعامهم الوحيد (١٥) » .

وعندما عاد برنادوت الى تل أبيب عقد اجتماعا آخر مع شاريت وطلب منه ثانية تغير موقفه بشأن اللاجئين ــ ولكنه لم يحصــل الا على « رفض قاطع » . وتبين الملاحظة التى دونها فى يومياته فى ذلك اليوم مدى التغيير الجوهرى الذى طرأ على رأيه فى الدولة اليهودية . فأثنــاء تنــاول طعام الغداء مع شاريت :

« بدأت الحديث بقولى اننى أرى أن الوضع الدولى لحكومة اسرائيل أصبح أسوأ مما كان عليه منذ أسبوع واحد فقط . فلم تعد هــذه الحكومة تتمتع بالسمعة الطيبة التى كانت تتمتع بها من قبل . والسبب فى ذلك .. هو أن الحكومة قــد تصرفت فى عدة مناســبات بطريقة تجعل الجميــع يستنتجون أنهــا على وشــك أن تفقد صوابها ويبدو الأمر كأن المطــالب اليهودية لن تتوقف أبدا (١٦) » .

ومضى برنادوت يقول : ان انطباعه هو ان الاسرائيليين يتصرفون كأن لهم عدوين : فما زال العرب يشكلون « العــدو الأول » ، ولكن مراقبى الأمم المتحــدة أصبحوا الآن « العدو الثــانى تقريبا » . وأخبر برنادوت وزير الخارجية أن العرب قد قدموا لهؤلاء المراقبين كل مساعدة ممكنة ، ولاسيما أثناء فترة الهــدنة الثانية ، فى حين سعى الاسرائيليون لوضــع العراقيل أمامهم ، وبذلوا كل ما فى وسعهم لزيادة صعوبة مهمة المراقبين (١٧) . وأبلغ برنادوت شاريت بأنه سوف يجرى تعزيز فريق المراقبين بثلثمائة ضــابط جديد ، وأضاف قائلا : « اننى أعرف من تجربتى الخاصة أن هؤلاء الضباط عندما يصلون ، سوف يتعاطفون تماما مع القضية اليهودية ، ولكنى أعلم أيضا أنهم سرعان ما ســيجدون أنفسهم مضــطرين بحكم الظروف لتغيير موقفهم . ولا أستطيع ان افهم .. لماذا تتبنى الحكومة اليهودية هذا الموقف الذى يتسم بالعجرفة والعداء ازاء ممثل الأمم المتحدة » .

وظن الوسيط الدولى انه نجح فى خلق انطباع معين ، لدى شــاريت ولكن أثناء مناقشتهما لبعض البدائل المتعلقة بمستقبل فلسطين ، أظهر وزير الخارجية نفس العجرفة التى شكا منها الوسيط . اذ ألمح شاريت الى أن احد البدائل قد يكون « امتلاك اسرائيل لفلسطين بأكملها (١٨) » .

ومع حلول الثاني عشر من أغسطس راود برنادوت « شعور بأن المفاوضات قد وصلت الى طريق مسدود . اذ أبدى اليهود عدم استعدادهم على الاطلاق للتعاون الحقيقي .. ولم يكن ذلك بمفاجأة ، اذ كان برنادوت قد توصل بالفعل الى استنتاج مفادة ، أنه « فيما يتعلق بشعب فلسطين ، كانت الفرصة المتاحة أمام الحكومة المؤقتة ضخمة جدا .. ولكنها ضاعت منها . ولم تظهر الحكومة في معاملتها للاجئين سوى التشدد والعناد . » ونظرا لأنه كان يسترشد بالسلوك الاخلاقي ، لا بالسياسة ، انتابته الحيرة في البداية بشأن موقف الشعب اليهودي الذي تعرض هو نفسه للمعاناة الشديدة (١٩) . ولكن لم يمض وقت طويل حتى أدرك برنادوت أن ما نسبه بالغطرسة والزهو الناشئان عن النصر العسكري ينبع في الحقيقة من سياسة متعمدة . وقد أبلغ الزعماء الاسرائيليين بدهشته لأن :

.. « ممثلي الشعب اليهودي ، بصفة خاصة ، ينظرون الى هذه المشكلة من وجهة نظر ضيقة بحيث يعتبرونها مجرد مشكلة سياسية دون ان يأخذوا في اعتبارهم الجانب الانساني للمسألة (٢٠) » .

وعلى العكس من ذلك ، لمس برنادوت قدرا من المرونة لدى الحكومات العربية . فعندما كان يتحدث الى عزام باشا الأمين العام للجامعة العربية ، لم يسعه الا ان يقول لنفسه : « أن هذا الرجل يدرك في أعماق نفسه أنه لم يعد في مقدور العالم العربي أن يأمل في وجود فلسطين خالية أرضها من دولة يهودية مستقلة (٢١) » .

والامر الذي أصرت عليه الدول العربية هو عدم امكان اجراء مفاوضات مباشرة مع اسرائيل الا بعد السماح بعودة اللاجئين الى ديارهم . وقد تعاطف برنادوت تماما مع هذا المطلب . وحث مجلس الأمن على أن تتم عملية عودة اللاجئين في أقرب موعد ممكن من الناحية العملية — في موعد لا يتوقف ، من وجهة نظره ، على ابرام سلام رسمي أو حتى على بدء المفاوضات الرامية الى ابرام هذا السلام (٢٢) . وعند هذا الحد ، حل برنادوت محل العرب باعتباره العدو رقم ١ » .

وفي يوم السابع عشر من سبتمبر ، بعد يوم واحد من تقديمه لتقريره الى الأمم المتحدة ، سافر الوسيط الدولي جوا الى القدس لكي يتفقد المبنى الذي كان يفكر في نقل مقر قيادته اليه . وكان من الحماقة أن يخاطر برنادوت بحياته من أجل مهمة ادارية روتينية بحتة فقد كان يدرك تماما أن

هناك مخاطرة بالفعل ، اذ كان الخط الأمامي في القدس مسرحا لانتهاكات مستمرة لوقف اطلاق النار ، وكان يعج بالقناصة وجميع أنواع الرجال المسلحين الذين يهاجمون مراقبى الأمم المتحدة بهدف السرقة . وكانت محطة اذاعة رودس قد التقطت فى اليوم السابق نبأ عن عثور أحد رجال البوليس بطريق المصادفة على جثة برنادوت فى أحد شوارع حيفا . وعندما اقتربت طائرة برنادوت من القدس تلقى عامل اللاسلكى رسالة تدعى أنها مرسلة من حيفا ، وتحذر من أن جميع الطائرات التى ستهبط فى مطار كالنديا فى المدينة سوف تتعرض لاطلاق النيران عليها .

وقد هبطت طائرته دون وقوع أى حادث ، ولكن عندما اقترح الجنرال آج لاندستروم ، الممثل الشخصى للوسيط الدولى ، ورئيس أركان فريق مراقبى الأمم المتحدة ، أن يسلكوا طريقا جانبيا الى داخل المدينة لكى يتجنبوا المنطقة الملتهبة . عند بوابة ماندليوم ، اعترض برنادوت بقوله : « لن أفعل ذلك » ، وقال « أن على أن أقوم بنفس المخاطر التى يقوم بها المراقبون فضلا عن أننى أعتقد أنه ليس من حق أحد ان يرفض الاذن بالمرور عبر الخط (٣٢) » .

وكانوا فى طريق عودتهم عندما وجه المقاتلون ضربتهم وكتب لاندستروم يقول « كنا نقود السيارة بسرعة عبر الخطوط اليهودية دون وقوع أى حادث » .

« كان الحاجز مرفوعا ، ولكن عندما رآنا الحارس ، أنزله الى منتصف المسافة ثم رفعه وأخيرا أنزله تماما . وقد اضطرنا ذلك للتوقف . وهنا صاح ضابط الاتصال ببضع كلمات باللغة العبرية موجها حديثه للحارس الذى قام بعد ذلك برفع الحاجز تماما وهكذا تمكنا من المرور . وقد شك البعض بعد وقوع الحادث أن هذا التلاعب بالحاجز أنه كان اشارة موجهة للقتلة بأننا فى طريقنا وربما أيضا لتعريفهم بالسيارة التى كان يستقلها فولك برنادوت . على أن هذا ينطوى ضمنا على أن الجنود اليهود الذين كانوا يقفون عند حاجز الطرق كانوا متواطئين فى المؤامرة . . وفى حى القطمون أوقفتنا سيارة جيب تشبه سيارات الجيش اليهودى كانت تقف عند حاجز على الطريق وتحمل رجالا يرتدون زى الجيش اليهودى . وفى الوقت نفسه رأيت رجلا ينطلق من السيارة واخذ يعدو ولم أهتم بذلك كثيرا لأننى ظننت أنها مجرد نقطة تفتيش أخرى . على أنه ادخل مدفعا رشاشا صغيرا من النافذة المفتوحة التى بجوارى وأطلق النار مباشرة على

الكونت برنادوت والكولونيل سيروت . وسمعت أيضا طلقات رصاص صادرة من أماكن أخرى ، وساد المكان اضطراب شديد .. وسقط الكولونيل سيروت على المقعد الى الخلف وأدركت على الفور أنه قد مات وسقط الكونت برنادوت الي الأمام وظننت ساعتها انه يحاول الاحتماء . فسألته « هل أصيبت » ؟ . فأومأ برأسه ثم مال للخلف وساعدته على التمدد فى السيارة . وعندئذ أدركت أنه أصيب اصابة بالغة . فقد كانت هناك دماء غزيرة على ثيابه وخاصة حول القلب وعندما تأملت فى ملابسات الحادث بعد وقوعه ، اقتنعت تماما بأنه الحادث كان أغتيالا عمدا تم تدبيره بدقة أختير ـ بعناية ـ المكان الذى وقفت السيارة فيه، كما ان الأشخاص الذين اقتربوا من السيارة لم يكونوا يعرفون السيارة التى يستقلها الكونت برنادوت فحسب ، ولكنهم كانوا يعرفون مكانه فى السيارة أيضا (١٤) » .

لفظ الكونت برنادوت أنفاسه بعد دقائق من اطلاق النار عليه ، وبعد ثلاثة أيام من وقوع الحادث أعلن المقتالون أنهم أعضاء فى جماعة هازيت هامولديت (جبهة وطن الاسلاف) ، وهى جماعة فرعية تنتمى لعصابة شتيرن . واعلن المقتالون فى رسالة بعثوا بها الى وكالة الانباء الفرنسية فى تل أبيب أنه « من وجهة نظرنا يعتبر جميع مراقبى الأمم المتحدة الموجودين فى فلسطين أعضاء فى قوات احتلال أجنبية ليس لها حق البقاء فى أراضينا » على أنهم أقروا بأن قتل الكولونيل سيروت كان خطأ قاتلا .. فقد ظن رجالنا ان الضابط الجالس بجوار الكونت برنادوت هو الجنرال لاندستروم العميل البريطانى المناهض للسامية (٢٥) .

وقد وصف الجنرال لاندستروم ، فى رسالة احتجاج ، الاغتيالات بأنها انتهاك بالغ الخطورة للهدنة ، وصفحة سوداء فى تاريخ فلسطين ، وسوف تطالب الأمم المتحدة بتفسير كامل لها (٢٦) .

على أنه لم يتم تقديم أى تفسير سواء للامم المتحدة أو لاية جهة أخرى. ورد الاسرائيليون فى بداية الأمر على طلب الأمم المتحدة بتقديم المقتالين للمحاكمة ، بأنهم لا يستطيعون العثور عليهم . وأخيرا وبعد شهرين من الضغوط الدولية المتواصلة ، اعتقلوا ناتان يلين ـ موز زعيم عصابة شتيرن وماتيتاهو شمو ليفتير وهما يهوديان بولنديان هاجرا الى فلسطين قبل ذلك بعدة سنوات .

وحوكم الاثنان امام محكمة عسكرية فى عكا . وقد ادعيا أنه لا يوجد ما يدينهما . ذلك أن منظمتهما ليست بالمنظمة الارهابية كما أنهما لم يكونا

طرفا فى أية أعمال ارهـابية ، حيث أن الادعاء لم يقـدم اى دليـل . كما اعترض يلين مور على محاكمة اشخاص مدنيين أمام محكمة عسـكرية (٢٧) أما برنادوت ، فقد اتهمه يلين مور فى خطاب مهيب ، بأنه عدو اسرائيل . وقال ان من بين ما فعله برنادوت هو أنه وقف فى طريق استيعاب الدولة اليهودية لمملكة شرق الأردن ولجميع أراضى فلسـطين أيضا (٢٨) . وقد صدرت أحكام بالسجن لمدة ثمانى سنوات وخمس أعوام على الرجلين . على ان الحكم نص على معاملتهما معاملة خاصة باعتبارهما مسجونين سياسيين . ثم اتخذت المحكمة موقفا أكثر تساهلا نأمرت باطلاق سراحهما مع الشاهد نظـرا لأنهما أكدا رغبتهما الصـادقة فى أن يكـونا مواطنين ملتزمين بالقانون (٢٩) .

وبعد سبعة وعشرين عاما من وقوع هذا الحادث أى فى يوليو عـام ١٩٧٥ تم اضفاء مظاهر التكريم العسكرى الكامل فى اسرائيل على الأشخاص الذين ارتكبوا عملية الاغتيال الشهيرة الأخرى التى قامت بها عصابة شتيرن — أى اغتيال لورد موين الوزير البريطانى المقيم فى الشرق الأوسط . وكان الياهو حكيم والياهو بيتزورى قد أعدما فى القاهرة فى عام ١٩٤٥ ، وبعـد تسجية جثتيهما فى تابوت مكشوف فى قاعة البطولة ، تم دفنهما فى جزء من المدافن العسكرية الاسرائيلية مخصص للشهداء والأبطال ، وقد حضر مراسم الدفن رئيس الدولة ورئيس الوزراء ووزير الشئون الدينية وكان قـد تم اخراج جثتيهما من قبريهما فى القـاهرة . وعند نقـل التابوتين الملفوفين بالعلم ، من الخطوط المصرية الى الخطوط الاسرائيلية ، اصطفت القـوات السويدية التابعة لقوات الأمم المتحدة فى سيناء كحرس شرف وهى لا تدرى ما يحتويه التابوتان .

الصهيونية القاسية — أو تجميع ((اليهود العراقيين)) :

كان اليوم هو آخر أيام عيد الفصح فى ابريل من عام ١٩٥٠ . وقـد قضى اليهود فى بغداد هذا اليوم فى التنزه على ضفاف نهر دجلة احتفـالا بأنشودة البحر . وكانت تلك عادة قديمة لدى أقدم جالية يهودية فى العالم ، ذلك أن يهود العراق البـالغ عددهم ١٣٠ ألف نسمة يرجع أصلهم الى نبوخذ نصر والى تدمير الهيكل الأول وسبى بابل . وقد احتشـد حوالى خمسين الف منهم فى منطقة مسـتوية مخصصة للنزهة . ومـع اقتراب الساعة التاسعة مسـاء بدأ عددهم يتناقص ولكن المثقفين من الشـباب اليهودى كانوا مازالوا مجتمعين فى مقهى الدار البيضاء الواقعة فى شـارع ابى نواس .

وفجأة ، بدد جو الاحتفال المرح صوت انفجار . إذ تفجرت قنبلة صغيرة ، ألقيت من سيارة مسرعة ، على الرصيف المقابل للمقهى . وشاءت المصادفة ألا يصاب احد . ولكن الحادث هز الجالية اليهودية فقد كانوا مقتنعين بأن المتطرفين العراقيين يريدون قتلهم . وبدأ الجبناء منهم يهمسون بأنه « من الأفضل أن نرحل الى اسرائيل » . وفي اليوم التالي تدافع الكثيرون نحو المكاتب التي يقدم فيها اليهود الراغبون في التخلي عن جنسيتهم العراقية أنفسهم لتسجيل أسمائهم وكانت الحكومة قد اعترفت رسميا بحقهم في الهجرة وذلك يوم عيد « اليوريم » ــ عيد النصيب ــ قبل ذلك بشهر واحد . وكان هدفها منع الهجرة بوسائل غير مشروعة وشرحت الصحف الامر بقولها أن اللقاءات التي تمت بين الشرطة وجماعات المهاجرين أظهرت أن بعض اليهود العراقيين لا يرغبون في العيش في هذه البلاد . وهروبهم من البلاد يسيء الى سمعة العراق . ان أولئك الذين لا يريدون العيش بيننا ليس لهم مكان هنا . فليرحلوا (٣٠) . ولم تحدث استجابة كبيرة لذلك . وقد ظهر ضباط الشرطة في معابد اليهود ليوضحوا لهم أن كل ما عليهم أن يفعلوه لكي يغادروا العراق بسلام ، هو التوقيع على النموذج اللازم . ولكن اليهود خشوا من أن يكون ذلك مجرد حيلة لكشف الصهاينة منهم ، ذلك لان الصهيونية كانت تعد جريمة خطيرة طبقا للقانون العراقي .

وعلى العموم ، وقع حوالي عشرة آلاف يهودي على النموذج الخاص بالرحيل بعد حادث القنبلة . وتم تخصيص معبد عزرا داود الضخم كمكتب التسجيل . وواصل ضباط الشرطة والكتبة المتطوعون العمل ليل نهار لكي ينجزوا مهمتهم . واقيم مطبخ لتقديم الطعام لهم . وكانت غالبية الراغبين في الرحيل من الفقراء الذين لن يخسروا شيئا برحيلهم . على أن حالة الذعر لم تدم طويلا وهدأت حركة التسجيل . فضلا عن أنه من المقرر أن يسافروا بالطائرات ، ولم تصل سوى طائرة واحدة لنقل مائة وعشرين منهم الى اسرائيل . عن طريق قبرص .

ثم وقع انفجار آخر وقد حدث هذه المرة في مركز الاعلام الأمريكي حيث يحضر الكثير من الشبان اليهود للقراءة . ومرة أخرى ترددت نظرية تقول أن منظمة عراقية متطرفة هي التي وضعت القنبلة التي شاءت الصدفة الا تصيب أحدا بأذى . ولذلك حدث اندفاع مرة اخرى نحو معبد عزرا داود ، على أن حجم الذعر ــ وكذلك عدد الراغبين في الهجرة كان أقل من المرة السابقة .

وانتهى العام ، واقترب الموعد المحدد للتخلى عن الجنسية وهو مارس ١٩٥١ .

وفى المرة الثالثة كان هناك ضحايا . وقع الحادث خارج مبنى معبد مسعودة شمتوف الذى كان يستخدم كمركز تجمع للمهاجرين . وفى ذلك اليوم من أيام شهر يناير كان المعبد مكتظا باليهود الاكراد القادمين من مدينة السلمانية فى الشمال وخارج المعبد كان صبى يهودى يوزع الحلوى على المتفرجين الفضوليين وعندما انفجرت القنبلة لقى الصبى مصرعه على الفور كما اصيب رجل كان يقف خلفه باصابات بالغة فى عينيه .

وفى هذه المرة لم يعد هناك أى شك فى اذهان اليهود فى أن هناك منظمة مناهضة لليهود تحيك مؤامرات ضدهم وانه من الأفضل الرحيل عن العراق طالما ان الفرصة سانحة وبدأت الطوابير الواقفة أمام معبد عزرا داود تمتد . وفى الليلة السابقة لانتهاء المهلة المحددة دفع البعض مبالغ تصل الى مائتى جنيه استرلينى لكى يضمنوا ادراج أسمائهم فى القائمة . وبعد مضى عدة أيام أصدر البرلمان العراقى قانونا يقضى بمصادرة ممتلكات جميع اليهود الذين يتخلون عن جنسيتهم ولم يسمح لأى شخص يحمل أكثر من سبعين جنيها استرلينيا خارج البلاد . وبدأت الطائرات تصل بمعدل يتراوح بين ثلاث وأربع طائرات يوميا . وفى البداية كانت الطائرات تنقل المهاجرين الى نيقوسيا يرافقهم ضابط شرطة عراقى . ولكن بعد فترة وجيزة تم التخلى عن هذا التظاهر واخذ المهاجرون يرحلون مباشرة الى مطار اللد فى اسرائيل — وكان ضابط الشرطة يعود بمفرده فى الطائرة الخالية ولم يمر وقت طويل حتى كان كل ما تبقى من المائة والثلاثين ألف يهودى الذين تخلوا عن وطنهم وممتلكاتهم وتراثهم العتيق ، هو خمسة آلاف نفس فقط .

ولم يمض وقت طويل أيضا حتى انفجرت قنبلة من نوع مختلف تماما واصابت البقية المثيرة للشفقة من اليهود العراقيين . اذ علم هؤلاء اليهود أن الانفجارات الثلاثة ليست من تدبير المتطرفين العرب ، بل هى من تدبير منظمة سرية تسمى « الحركة » ، وقد تلقى زعيمها وهو قائد الاحياء اليهودية فى العراق الرسالة التالية من ايجال آلون قائد الكوماندوز البالماخ والذى أصبح وزير خارجية اسرائيل فيما بعد .

« أخي رمضان . . لقد شعرت بالرضاء التام عندما علمت أنك نجحت فى تكوين جماعة ، واننا تمكنا من أن ننقل على الأقل بعض الأسلحة المخصصة لك . ومن المحزن أن نفكر فى أن اليهود قد يتعرضون مرة أخرى للمذابح ، وتغتصب بناتنا ، ويتلطخ ثانية شرف أمتنا . . واذا ما نشبت اضطرابات اخرى فسيكون بمقدورك التوسع فى اختيار المدافعين والزملاء اليهود الجدد الذين لم يتم حتى الآن تنظيمهم كأعضاء فى المنظمة السرية . ولكن عليك بالحذر من التسرع فى تنفيذ ذلك ، لأن ذلك يعرض للخطر أمن وحداتك التى تعتبر فى الحقيقة الدفاع الوحيد ضد أية مذبحة منظمة رهيبة » (٣١).

وقد انكشفت الحقيقة المذهلة ـ حقيقة ان القنابل التى أرهبت الجالية اليهودية كانت قنابل صهيونية ـ عندما دخل رجل يرتدى ثيابا أنيقة متجر (أوروزدى بج) أكبر المتاجر العامة فى بغداد ، وذلك فى صيف عام ١٩٥٠ ، وقد شحب وجه أحد الباعة وهو لاجىء فلسطينى عندما شاهد هذا الرجل وترك البائع مكانه وجرى الى الشارع حيث قال لاثنين من رجال الشرطة :

« لقد اكتشفت شخصا اسرائيليا » . فقد كان هذا البائع صبيا فى مقهى فى عكا وهناك عرف (يهودا تاجارا) . وتم القاء القبض على (تاجار) الذى اعترف بأنه اسرائيلى ولكنه قال انه حضر الى بغداد ليتزوج فتاة يهودية عراقية . ادت المعلومات التى كشف عنها تاجار الى القاء القبض على أشخاص آخرين وصل عددهم الى حوالى خمسة عشر شخصا . وقد انهار (شالوم صالح) ، وهو شاب مسئول عن مخابىء أسلحة (الهاجاناة)، أثناء التحقيق معه وأخذ يتنقل مع رجال الشرطة من معبد الى معبد وهو يدلهم على أماكن اخفاء الأسلحة التى تم تهريبها الى داخل البلاد منذ الحرب العالمية الثانية . وأثناء التحقيق وجه الادعاء الى المتهمين تهمة انتمائهم الى منظمة سرية صهيونية وان ـ هدفهم الرئيسى ـ الذى ساهم فى التحقيق بدرجة خطيرة القاء القنابل الثلاث ـ هو اشاعة الذعر بين اليهود ليسارعوا بالهجرة فى أقرب وقت .وقد حكم على اثنين من المتهمين بالاعدام وحكم على الباقى بالسجن لمدد طويلة .

وكان « تاجار » هو أول من رفض صمت اليهود بشأن هذه المسألة فقد حكمت عليه محكمة بغداد بالسجن مدى الحياة ثم أفرج عنه بعد عشر سنوات واستطاع الوصول الى اسرائيل وفى يوم التاسع والعشرين من مايو

عام ١٩٦٦ ، نشرت مجلة هاعولام هازيه « الاسبوعية قصة عن هجرة اليهود العراقيين وبنت القصة على أساس شهادة (تاجار) ، ثم فى التاسع من نوفمبر عام ١٩٧٢ نشرت مجلة (الفهد الأسود) التى تعد الصوت المتشدد المعبر عن اليهود الشرقيين القصة الكاملة ، وتشمل قصة الفهد الأسود ، شهادة اثنين من المواطنين الاسرائيليين كانا فى بغداد فى ذلك الوقت . أولهما قدورى سالم :

« يبلغ التاسعة والأربعين من عمره ولكنه يبدو فى الستين . وهو نحيل أحدب تقريبا ذو وجه متغضن وعين زجاجية اذ فقد عينه اليمنى عند باب المعبد مسعودة شمتوف » . وهو يروى الآتى : « كنت أقف هناك بجوار باب المعبد . وكنت قد تنازلت بالفعل عن جنسيتى العراقية وأردت معرفة ماجد فى الأمر وفجأة سمعت صوتا يشبه صوت طلقة مدفع . ثم حدثت ضجة رهيبة وشعرت بصدمة كأن حائطا قد انهار فوقى . واسود كل شىء فى عينى . وشعرت بشىء بارد يسيل طوق وجنتى — وتحسسته فوجدته دما . كانت العين اليمنى . وأغلقت عينى اليسرى ولم أر شيئا . وقال لى الطبيب من الأفضل نزعها » .

وقد بقى فى العراق ثلاثة أشهر بعد مغادرته المستشفى ثم حل دوره للرحيل الى اسرائيل . وارسل الكاتب السابق الى مخيم للمهاجرين . ومنذ ذلك الحين فشلت جميع مساعيه من أجل الحصول على تعويض . وهو يزعم : « لقد أصبت بسبب القنبلة . وأثبتت المحكمة أن تنظيم « الحركة » هو الذى ألقى القنبلة . ويجب على الحكومة الاسرائيلية أن تمنحنى تعويضا ، ولكن حكومة اسرائيل لا تعترف بمسئوليتها عن قنابل بغداد ولا تستطيع بأى حال الاعتراف بأنه قد أصيب فى المعركة . وقد قال : « اننى مستعد لأن أكون ضحية للدولة ، ولكن عندما يكون الموقف فى المنزل سيئا ، وعندما تريد زوجتى بعض المال ولا يوجد مال لدى ، فما هى اذن قيمة التضحية بالذات والمشاعر الطيبة » ؟

والشاهد الثانى محام عراقى يعيش فى تل أبيب . وقد قال لمجلة الفهد الأسود :

« بعد حادث القاء القنبلة الأولى على مقهى الدار البيضاء فى بغداد انتشرت شائعات كثيرة تقول ان الشيوعيين هم المسئولون عن الحادث ولكن فى اليوم التالى للانفجار ، وفى الساعة الرابعة صباحا ، كانت المنشورات

توزع بالفعل على أول من قدموا للصلاة فى المعبد . وحذرت المنشورات من الأخطار التى كشف عنها القاء القنبلة وأوصت الجميع بالحضور الى اسرائيل .

وكان الشخص الذى رأى أن ذلك أمر غريب ، هو جلمان البياتى ، قاضى التحقيق لمنطقة جنوب بغداد . اذ أعلن انتوزيع المنشورات فى تلك الساعة المبكرة يبين أن هناك معرفة سابقة بتفجير القنبلة ، ولذلك أصدر تعليمات لرجال الشرطة لكى يجروا تحرياتهم فى ذلك الاتجاه وقرر فى الوقت نفسه ان الأشخاص الذين ألقوا القنبلة هم يهود يحاولون التعجيل بعملية الهجرة وألقى القبض بالفعل على شابين » .

وفجأة تدخلت وزارة العدل فى الأمر بصورة لم تكن متوقعة وتم اخلاء سبيل الصبيين . وانتقل التحقيق فى القضية الى قاضى التحقيق كمال شاهين من شمال بغداد . وبمعنى آخر كانت ما تزال هناك ، فى تلك المرحلة ، رغبة فى عدم فهم الأمور . اذ أن حركة الهجرة حدثت بأكملها نتيجة لاستعداد عدم الفهم – أو ربما نتيجة لاتفاق فعال بين الحكومة والمحكمة وممثلى الصهيونية .

« ولكن بعد القاء قنبلتين أخريين وبعد اعتقال المبعوث الاسرائيلى ، تجاوز الأمر كل حد . وبدأت الشرطة التحرك ، وكان من المستحيل وقف التحريك . وهناك شىء واحد فقط يجب اضافته : لقد جرت المحاكمة وفقا للقانون الدولى ، وذلك فى ظل ظروف القضية الموضوعية . وكانت الأدلة من الوضوح بحيث لم يكن من الصعب اصدار مثل تلك الأحكام » (٣٢)

ان بن جوريون عندما وجه نداءاته المثيرة للمهاجرين لكى يصبحوا شعبا لدولة اسرائيل الوليدة ، انما كان يخاطب اليهود الأوروبيين (من العالم الجديد والقديم معا) بصفة خاصة فلم يكن اليهود الأوروبيون هم المؤسسين للصهيونية فحسب ، ولكنهم كانوا المعين الرئيسى لتلك الطاقة البشريةذات الكفاءة العالية والمسلحة بالمهارات والمواقف الاجتماعية والثقافية التى كانت لازمة لاسرائيل . ولكن مع انتهاء مذابح اليهود ، بدأ ذلك المعين ينضب . ولهذا قرر الصهيونيون أنه لا بد من « تجميع » « اليهود الشرقيين » أيضا وغالبا ما ينسى الجميع ان الفقرة الخاصة بالضمانات التى تضمنها وعد بلفور – وليكن مفهوما بجلاء انه لن يتم شىء من شأنه الاضرار بالحقوق المدنية والدينية للجاليات غير اليهودية المقيمة بفلسطين أو بالحقوق والأوضاع

السياسية التى يتمتع بها اليهود فى أية دولة أخرى ــ كان المقصود بها ان تشمل يهود الشتات والمواطنين العرب على حد سواء ولكن عملية اقتلاع مليون يهودى شرقى أظهرت أن الصهيونيين يرون أنه يجب تجاهل هذه الفقرة بشقيها . وقد استخدموا فى كل مكان نفس هذه الأساليب الجوهرية، ولكن لعلهم لم يطبقوها بذلك القدر من الدقة كما فعلوا فى العراق . وقد وصف أحدهم ذلك « بالصهيونية القاسية (٢٣) .

واذا كانت الصهيونية ، بوصفها ظاهرة تاريخية ، هى رد فعل لمناهضة السامية ، فسوف يستتبع ذلك ان الصهيونيين فى ظل ظروف معينة ، كانت لهم مصلحة فى اثارة نفس الداء الذى كانوا يأملون فى علاجه فى نهاية الأمر . ولقد كان هرتزل هو أول من تنبه لفائدة معاداة السامية بوصفها حافزا يدفع اليهود للهجرة ، « لقد نمت معاداة السامية وسوف تواصل نموها ــ وهكذا أنا أيضا (٢٤) وكان هناك صهيونيون مخلصون يرون أنه من واجب الحاخامات والمنادين بالقومية اليهودية وزعماء الطائفة اليهودية الابقاء على هذه الضغينة حية (٢٥) . وفى أوائل الخمسينات كانت الحاجة الى قدوم مهاجرين ماسة الى حد أن أحد المعلقين فى صحيفة (دافار) ، الصوت المؤثر المعبر عن حركة نقابات العمال فى اسرائيل ، كتب يقول :

« لن أخجل من الاعتراف بأنه لو توفرت لى السلطة والعزيمة ، لانتقيت عددا من الشبان الأكفاء ــ الذين يتميزون بالذكاء والدماثة والاخلاص لمثلنا الأعلى ويتوقون الى المساعدة فى انقاذ اليهود ــ ولقمت بارسالهم الى البلاد التى يندمج اليهود فى مجتمعاتها فى حالة من الرضا الذاتى الاثيم وستتمثل مهمة هؤلاء الشبان فى الظهور بمظهر غير اليهود . ثم ازعاج اليهود بشعارات معادية للسامية مثل « اليهودى اللعين » وأيها اليهود ارحلوا الى فلسطين ، وغيرها من العبارات المشابهة ، واستطيع أن أجزم بأن النتائج التى سيسفر عنها ذلك ، فيما يتعلق بهجرة أعداد ضخمة الى اسرائيل من تلك البلاد ، ستكون أكبر عشرة آلاف مرة من النتائج التى تحققت نتيجة لارسال آلاف المبعوثين الذين ظلوا يعظون عشرات السنين ولكنهم لقوا آذانا صما (٢٦) .

ولم تلق الصهيونية استجابة من اليهود الشرقيين مثلما لاقت استجابة من اليهود الأوروبيين ذلك انه فى الفترة السابقة على قيام الدولة ، بلغت نسبة المهاجرين اليهود القادمين من أفريقيا وآسيا (٢٧) ٤ر١٠٪ فقط . والحقيقة ان الغالبية العظمى من اليهود الشرقيين كانوا من

اليهود العرب ، والسبب في عدم مبالاتهم هو أنهم لم يعانوا ، على مر التاريخ، من الاضطهاد والتفرقة التى عانى منها اخوتهم فى العالم المسيحى فى أوروبا ، كان التحامل عليهم موجودا ، ولكن حيـــاتهم كانت مريحة بصفة عامة ، وجذورهم متأصلة . ولم يتمتعوا بحريتهم فى أى مكان مثلما تمتعوا بها فى العراق ، وقــد سلم مسـئول حكومى بأن أصــولهم فى بلاد الرافدين أعرق كثيرا من أصول الأغلبية المسلمة .

« ان الكثير منا يعتبرون اليهود هم السكان الأصليين لهذه البلاد ونحن نؤمن ، طبقا للقرآن ، بأنهم من نسل ابراهيم وهذا يرجع الى حوالى أربعة آلاف عام مضت . وبالمقارنة معهم نعتبر أن المسلمين دخلاء لأننا عشنا فى هذه البلاد ما يقرب من الف وخمسمائة عام فقط .

وفى وقت من الأوقات كان دور عدد السكان اليهود فى بغداد يفوق عدد السكان العرب وكانوا يشكلون جالية غنية مثقفة فى البلاد الأمر الذى جعلهم فى وضع ممتاز مكنهم من الاستفادة من التنمية السريعة للبلاد واضفاء الطابع العصرى عليها . وكانوا يسيطرون على الكثير من المؤسسات الوطنية ومعظم البنوك والمحلات الكبرى . وكان حال أفقر اليهود أفضل من حال العراقيين العاديين (٣٩) . وكان اليهود يتمتعون بموجب الدستور بالمساواة مع باقى المواطنين . وكان لهم ممثلوهم فى البرلمان وكانوا يشغلون وظائف فى جهـاز الادارة المدنية ، وكان وزير المـــالية يهوديا فى الفترة من عام ١٩٢٠ الى ١٩٢٥ .

وفى المرات القليـــلة فى تاريخ العرب التى انقلب فيها المسلمون — أو المسيحيون — ضـــد اليهود الذين يعيشون بين ظهرانيهم ، لم يكن الدافع لذلك هو العداء للسامية بمعناها الأوروبى التقليدى ، ولكن السبب كان التعصب الناشىء . عن مشاعر الاستياء التى لها ما يبررها اذ أن اليهود كانوا يميلون ، — شأنهم شأن باقى الأقليات — الى مصادقة ما كانت الأغلبية تعتبره حكما غريبا واستبداديا للاســتفادة منه فى الواقع ويعنى ذلك ان الجاليات اليهــودية المحليــة التى عاشت فى المنطقة الممتدة ما بين العراق والمغرب فى العصور الاخيرة ، كان لها خطورة خاصة بدرجات متفاوتة لدى حكام العــالم العربى الفرنسيين أو البريطانيين واذا لم يكن بد من القـــاء اللوم على اليهود العرب بسبب التحامل الذى خلقه ضدهم هذا السلوك ، فانهم يستحقون قــدرا أقل من اللوم عن ذلك السبب الآخر لعداء العرب لهم — الا وهو الصهيونية — التى مزقت حياتهم تماما فى نهاية الأمر .

ويرجع تاريخ بدء الأنشطة الصهيونية فى العراق والدول العربية الأخرى الى بداية القرن . ولم تكن هذه الأنشطة ملحوظة فى بداية عهدها . وقد حدث فى أوائل القرن العشرين أن منحت الحكومة العراقية ، الجمعية الصهيونية المحلية ترخيصا رسميا ، وحتى عندما لم يتم تجديد الترخيص ، واصلت الجمعية نشاطها ، بصورة غير رسمية ، لعدة سنوات . وفى البداية تحمل البريطانيون – لا اليهود المحليون – ، وطأة العداء العربى – وقد وقعت أعمال شغب فى عام ١٩٢٨ عندما زار سير الفريد موند الصهيونى البريطانى بغداد . وفى العام التالى ، نشبت المظاهرات فى المساجد والشوارع ووقف أعضاء البرلمان دقيقتين حدادا ، وظهرت الصحف وهى محاطة باطارات سوداء ، وارسلت البرقيات الى لندن ، وذلك تعبيرا عن « عدم موافقة العراق على السياسة الموالية لليهود التى تنتهجها بريطانيا العظمى » (٤٠) . ولم يبدأ اليهود العرب فى اثارة الشكوك ومشاعر الاستياء الا فى منتصف الثلاثينيات عندما ترددت أصداء اضطرابات فلسطين فى العالم . وقد وصلت هذه المشاعر الى ذروتها فى العراق فى عام ١٩٤١ عندما قتلت جماهير الغوغاء ، أثناء اضطرابات دامت يومين ، ما بين ١٧٠ و ١٨٠ يهوديا وجرحت عدة مئات منهم (٤١) . وكان ذلك أمرا رهيبا . ولكنه كان أول مذبحة منظمة فى تاريخ العراق . فضلا عن أنها وقعت فى وقت سادته الفوضى السياسية ، اذ كان التمرد الموالى للنازى والذى لم يدم طويلا بقيادة رشيد على كيلانى قد بدأ ينهار ، وهرب معظم أعضاء حكومته عندما وصلت حملة بريطانية الى أبواب المدينة .

ولم تقع أعمال عنف أخرى جديدة من هذا النوع وقد شعر اليهود ، نتيجة لذلك وأيضا بسبب الرخاء الاقتصادى الذى تمتعوا به ، بالامن من جديد (٤٢) . ومع ذلك كان الصهيونيون يواصلون نشاطهم بينهم . ففى منتصف الأربعينات وزعوا كتيبات بعنوان « لا تشتروا من المسلمين » على أن المجال لم يكن قاصرا عليهم . اذ أن اليهود اليساريين الذين كانوا يعتبرون أنفسهم يهودا وعربا فى آن واحد ، انتشأوا عصبة مكافحة للصهيونية (٤٣) .

ومع انتهاء حرب الاستقلال الاسرائيلية ، كان ما يزال هناك ١٣٠ ألف يهودى فى العراق ونظمت الحركة (السكك الحديدية الفارسية السرية) لتهريب اليهود الى اسرائيل عن طريق ايران وأخذت المصادمات تقع بين الحين والحين ، بين البوليس ومرشدى القوافل وكان ذلك هو السبب الذى

دفع الحكومة الى اضفاء الشرعية على هجرة اليهود . على ان عدد الذين هاجروا ، سواء بطرق مشروعة أم غير مشروعة ، كان ضئيلا جدا وقد شرح ذلك رئيس حاخامات العراق ساسون خضيرى بعد ذلك بعدة سنوات بقوله :

« ان اليهود والمسلمين — فى العراق قد اعتبروا أن من المسلم به أن اليهودية دين وأن اليهود العراقيين هم عراقيون . وكانت المشكلة الفلسطينية بعيدة عنهم ولم يكن هناك شك فى أن يهود العراق يتبعون الموقف العربى (٤٤) .

على أن بن جوريون والصهيونيين ما كانوا ليستسلموا بمثل هذه السهولة فقد كانت اسرائيل بحاجة ماسة الى طاقة بشرية ولابد من تجميع اليهود العراقيين .. ويروى خضيرى أنه :

« مع حلول منتصف عام ١٩٤٩ ، كانت مدافع الدعاية الضخمة تدوى بالفعل فى الولايات المتحدة . أن الدولارات الامريكية ستنقذ اليهود العراقيين — سواء كان اليهود العراقيون بحاجة للانقاذ أم لا . وأخذت صحيفة « نيويورك تايمز » تنشر أنباء عن وقوع مذابح منظمة يوميا ، ولم يلحظ الكثيرون ان مصدر هذه الأنباء ، كما جاء فى الجريدة ، وهو تل أبيب . فلماذا لم يحضر أحد لمقابلتنا بدلا من التفاوض مع اسرائيل لكى تقبل اليهود العراقيين ؟ ولماذا لم يوضح أحد أن الزعامة الراسخة المسئولة لليهود العراقيين ان هذه هى بلادهم — فى السراء والضراء — واننا مقتنعون أن المتاعب سوف تزول (٤٥) » .

ولكنها لم تزل . ولم يستطع اليهود العراقيون أنفسهم ، أو حكومة تلك البلاد التى كانت تعتبر متخلفة بالمقاييس الأوروبية أن يواجهوا الضغوط التى مارسها الصهيونيون :

« بدأ العملاء الصهيونيون يظهرون فى العراق — بين الشباب — وأخذوا يستغلون الاضطراب العام ويشيرون الى أن اليهود الأمريكيين يدفعون مبالغ ضخمة من أجل ترحيلهم الى اسرائيل حيث الأحوال الممتازة . وبدأت هجرة الأبناء تمزق ولاء الأسر ، وعندما قرر الكبار على مضض أن يتبعوا أولادهم بدأ التوتر الذى أصاب الولاء يمتد الى الاخوة والاخوات » . ثم بدأ استخدام أسلوب جديد :

« بدلا من هجرة الأفراد بهدوء ظهرت مطـــالب علنية باضفاء الصبغة الشرعية على هجرة اليهود ـ بصــــورة جماعية .. وانتشرت بالفعل فى الولايات المتحدة قصص (المذابح المنظمة) وتعرضت الحـكومة العراقيـة لاتهام بأنها تحتجز اليهود على غير رغبتهم .. وازدادت الحملات فى صفوف اليهود .. وتعرضت الحكومة لهجوم قاس .. واتهمت بتنظيم مذابح منظمة وأعمال عنف ضد اليهود .. ولكن عندما حاولت الحكومة القضـــاء على عمليات الاثارة الصهيونية الرامية الى حمل اليهود العراقيين على الرحيل اتهمت مرة أخرى بممارسة التمييز » (٤٦) . وأخيرا حل دور القنابل

« لأى غرض كان « التجميـــع » ؟ سرعان ما عرف اليهـــود العراقيون السبب ، اذ ان البعض منهم ممن رحلوا بالفعل الى اسرائيل بقوا فيها على ان ذلك لم يكن الحال مع جميع اليهود الشرقيين الذين انتزعوا من بلادهم ـ فان عددا كبيرا منهم ـ وبخاصة أولئك الذين يملكون الأموال والصــــلات الهامة والثقافة وروح المبادرة ـ نجحوا فى الوصول الى أوروبا أو امريكا . وعلم أولئك الذين تم جمعهم بصــــورة لا رجعة فيها المفارقة القاســـية والدائمة : وهى ان اليهود الشرقيين لم يكونوا سوى وقود النيران بالنسبة لعقيدة الصهيونية الأوربية .

ماذا فعلت يا بن جوريون ؟

لقد هربتنا جميعا .
وبسبب المـــاضى تخلينا عن جنسيتنا
وجئنــا الى اسرائيل
ليتنا جئنا راكبين حمارا
ولم نصل هنا مطلقــا
يا للاسف بالها من ساعة مشئومة
فلنذهب الى الجحيم بالطائرة التى حملتنا هنا » (٤٧) .

هذه هى الأغنية التى اعتاد اليهود العراقيون ترديدها . ومهما فعل حكام اسرائيل ، فانهم لم يستطيعوا تهدئة مشاعر المرارة التى سيطرت على القادمين الجدد حيالهم . فقد تولت فرق من المعلمين الصهيونيين القــــاء المحاضرات على هؤلاء القادمين فى مخيماتهم . ولكنهم ظلوا يرددون هـــذه

الأغنية بعد وقت طويل من مغادراتهم المخيمات ، حتى فى حفلات الزواج ومناسبات الاحتفالات . وظلت الأغنية منتشرة خلال الخمسينيات . ثم اختفت فى نهاية الأمر ، ولكن من العسير أن نقول أن الحنين الى « الوطن القديم » قد اختفى معها . ذلك ان الفارق كان ضخما للغاية بين ما كانوا عليـه فى المنفى . وبين ما أصبحوا عليه ، ـ وسـيظلون عليه ـ فى أرض الميعاد » . فقد تحطمت واحدة من « أروع وأغنى الجاليات وأصبح أفرادها فقراء معوزين » ، وتحولت تلك الجالية التى كانت تسيطر على معظم موارد العراق ... الى جماعة محكومة ، تتعرض للتفرقة فى المعاملة والقهر فى جميع النواحى » . جالية كانت تفخر بثقافتها وعلمها ، ولم يظهر من بين صفوفها سوى عدد ضئيل من الأكاديميين فى الجامعات الاسرائيلية ، يقل كثيرا عما احضرته معها من العراق . جالية كانت واثقة تماما من قيمها الأخلاقيـة وثقافتها السليمة تحولت فى اسرائيل الى أداة لانتاج ، كل ضروب الجانحين والمنحرفين » . « جالية كانت تنجب أبناء رائعين ، ولم تستطع أن تنجب فى اسرائيل سوى أبناء معوقين » (٤٩) .

فضيحة لافون :

اجتاحت مصر فى يولية من عام ١٩٥٤ سلسلة من انفجارات القنـابل التى استهدفت أساسا الممتلكات الامريكيـة والبريطـانية فى القاهـرة والاسكندرية . وكان الافتراض السائد بصفة عامة ، هو ان هذه الانفجارات من صنع جماعة الاخوان المسلمين التى كانت تشكل أقوى تحـد لسلطة البكباشى (فيما بعد الرئيس) عبد الناصر غير المستقرة ثورته التى كان عمرها عامين . وكان عبد الناصر يتفاوض فى ذلك الوقت مع بريطانيا بشأن جلائها عن قواعدها العسكرية الضخمة فى منطقة قنـاة السويس ، وكان « الاخوان المسلمين » ، وهم جماعة وطنية متشددة ، يعارضون تقديم أى تنازلات مصرية ، معارضة عنيفة .

ولذلك أصيب العالم ، ولاسيما الرأى العام اليهودى بصدمة عنـدما أعلن زكريا محيى الدين وزير الداخلية المصرى يوم الخامس من أكتوبر ، عن القضاء على شبكة تخريب اسرائيلية تضم ثلاثة عشر شخصا . وسـاد شك فى وجود مكيدة مناهضة للسامية » .

وازدادت حدة مشاعر الغضب عندما تم تقديم أعضاء هذه الشبكة الى المحاكمة يوم الحادى عشر من ديسمبر . ففى اسرائيل ندد رئيس وزرائها

موشى شاريت امام البرلمان الاسرائيلى بالمؤامرة الشريرة التى تم تدبيرها فى الاسكندرية .. والمحاكمة الصورية التى يجرى تنظيمها هناك ضد مجموعة من اليهود وقعوا ضحايا لاتهامات كاذبة يبدو منها أنه تجرى الآن محاولات لاستخلاص اعترافات منهم بارتكاب جرائم وهمية وذلك باستخدام التهديد وأساليب التعذيب . (٤٩) وقالت صحيفة (دافار) الناطقة بلسان نقابات العمال انه يبدو ان نظام الحكم المصرى يستمد أفكاره من النازيين ، وأعربت عن حزنها لتدهور وضع اليهود المصريين بصفة عامة » (٥١) . وذكرت صحيفة (هاأرتس) ان المحاكمة « أثبتت ان الحكام المصريين لا يترددون فى اختلاق أغرب الاتهامات اذا كان فى ذلك ما يرضيهم » واضافت تقول ان الزمرة العسكرية الحاكمة فى مصر تحتاج بلا شك فى الوقت الراهن الى شيء يشغل الانتباه » (٥٢) . وفى اليوم التالى ظهرت صحيفة (جيروزاليم بوست) وهى تحمل العنوان الرئيسى التالى « شاريت يعلن فى البرلمان : المحاكمة الصورية فى مصر تثير اسرائيل وترى فيها احياء لأساليب محاكم التفتيش » .

وأثبتت المحاكمة ان تفجير القنابل قامت به فعلا شبكة تجسس وتخريب اسرائيلية . وان هذه الشبكة برئاسة الكولونيل أفراهام دار – واسمه المستعمار جون دارلنج – وخلية من المحترفين الذين أقاموا فى مصر متخفين فى صور مختلفة . وقد جندوا عدداً من اليهود المصريين ، من بينهم فتاة تدعى مارسيل نيتيو كانت تعمل فى مكاتب شركة بريطانية . ومن الطبيعى أن الكشف عن مثل هذا التنظيم فى نهاية الأمر لم يؤد الى تحسين وضع الغالبية العظمى من اليهود المصريين الذين أرادوا الا تكون لهم صلة بالصهيونية . وكان – مازال – هناك ٥٠ ألف يهودى على الأقل فى مصر ، وكان عددهم يربو على الستين ألفا فى عام ١٩٤٧ ، كان أكثر من نصفهم فى الحقيقة رعايا أجانب . وقد نفست الجماعات العامة عن سورة غضبها على اليهود أثناء الحرب العربية – الاسرائيلية الأولى فى عام ١٩٤ ، وقتل بعض اليهود أثناء أعمال عنف قام بها الغوغاء أو فى هجمات ارهابية بالقنابل ولكن بالرغم من ذلك ، وعلى الرغم من الانقلاب الفورى الذى وقع بعد ذلك بأربعة أعوام ، لم يغادر البلاد سوى عدد ضئيل من اليهود – من بينهم رعايا أجانب ، وحتى هؤلاء لم يتوجه منهم الى اسرائيل سوى عدد قليل . وأصر صحفى يهودى على « أننا ، نحن اليهود المصريين نشعر بالامان فى وطننا مصر » (٥٣) .

وكان آخر ما تهتم به اسرائيل ، كما شهدنا ، هو صالح اليهود الشرقيين فى أوطانهم المختلفة . وفى يوليو من عام ١٩٥٤ أصبح لدى اسرائيل هموم اخرى . فقد شعرت بالعزلة وعدم الأمان . اذ أن حلفاءها الغربيين ــ بالاضافة الى باقى دول العالم ــ لم يكونوا راضين عن سلوكها العدوانى . ونصحها مساعد وزير الخارجية الأمريكى بالتخلى عن موقف الفاتح المنتصر (٥٣) . وكان ما أثار قلقها بدرجة أكبر التقارب الجارى بين مصر، من جهة والولايات المتحدة وبريطانيا من جهة أخرى . وكان الرئيس ايزنهاور قد أقنع بريطانيا بالتخلى عن قاعدتها العسكرية العملاقة فى منطقة قناة السويس ، وفشل بن جوريون فى أن يثنيها عن ذلك . ولكى يحطم الكولونيل بنيامين جيفلى رئيس المخابرات الاسرائيلية هذا التقارب ، أصدر أوامره الى شبكة المخابرات فى مصر بتوجيه ضربتها .

ولم يعلم الرئيس « جيفلى » ، وزير الدفاع بنحاس لافون أو رئيس الوزراء شاريت ، شيئا عن هذه العملية . اذ أن جيفلى كان عضوا فى زمرة قوية داخل وزارة الدفاع ، كانت تتصرف بصورة مستقلة فى أغلب الأحيان، أو تتصرف بطريقة تشكل تحديا سافرا لمجلس الوزراء . وكان هؤلاء يتمتعون بحماية بن جوريون ، وعلى الرغم من ان الرجل العجوز كان قد ترك رئاسة الوزراء ورحل الى سد بوكر ، مقره الخلوى فى صحراء النقب قبل ذلك بعدة شهور ، الا أنه تمكن من خلال هذه الزمرة من الاستمرار فى السياسات (النشطة) المتشددة التى كان يؤمن بها . واصدر جيفلى تعليماته للشبكة الصهيونية فى مصر بوضع قنابل فى المراكز الثقافية الامريكية والبريطانية ودور السينما التى يملكها البريطانيون والمبانى العامة المصرية . وكان يأمل فى أن يجعل الدول العربية تعتقد بوجود معارضة داخلية قوية لعملية التقارب ، وان نظام حكم عبد الناصر الفتى الذى واجه هذا التحدى، ليس بالنظام الذى يستطيعون وضع ثقتهم فيه (٥٤) . كما ان وقوع أعمال عنف غامضة قد يقنع كلا من لندن وواشنطن بضرورة بقاء القوات البريطانية على جانبى القناة ، ولم يكن العالم قد نسى يوم السبت الأسود الموافق ٢٨ يناير من عام ١٩٥١ ، فى السنة الأخيرة لحكم الملك فاروق ، عندما اجتاح الغوغاء شوارع وسط القاهرة ، وأشعلوا النيران فى الفنادق والمتاجر التى يملكها الأجانب ، وهو الأمر الذى أدى الى مصرع عشرات الاشخاص من بينهم ثلاثة عشر بريطانيا .

وانفجرت أول قنبلة يوم الثانى من يوليو فى مكتب بريد الاسكندرية .

وفى الحادى عشر من يوليو استؤنفت المفاوضات الانجلو مصرية الخاصة بقناة السويس ، بعد توقف دام تسعة أشهر . وفى اليوم التالى تلقت السفارة الاسرائيلية فى لندن تأكيدا بأن المخزون الاحتياطى من الأسلحة لن يسلم للمصريين عند جلاء البريطانيين عن قناة السويس . ولكن العناصر المتشددة فى وزارة الدفاع لم تقتنع بذلك . فقام عملاؤهم يوم الرابع عشر من يوليو ، بعد اتصال سرى باللاسلكى مع تل أبيب ، بالقاء قنبلة حارقة على المكتبات التابعة لمركز الاستعلامات الامريكى فى القاهرة والاسكندرية وفى اليوم نفسه انفجرت قنبلة فوسفورية قبل موعدها فى جيب شخص يدعى فيليب ناتانسون ، وكادت تحرقه حيا ، وهو يهم بدخول سينما ريو المملوكة للبريطانيين فى الاسكندرية . وأدى اعتقاله واعترافه بعد ذلك الى القضاء على الشبكة بأكملها — ولكن ذلك لم يتم الا بعد انجاز دورة أخرى من الاعمال السرية والفشل الدبلوماسى . وفى ١٥ يولية ، أكد الرئيس ايزنهاور للمصريين انه فى نفس الوقت الذى سيتم فيه توقيع اتفاقية قناة السويس، ستلتزم الولايات المتحدة بتعهدات راسخة بتقديم مساعدات اقتصادية لتدعيم قواتهم المسلحة (٥٥) . وفى يوم ٢٣ يوليو الموافق ذكرى قيام ثورة ١٩٥٢ — شن العملاء الاسرائيليون الذين كانوا ما يزالون مطلقى السراح ، هجوما أخيرا ، فأشعلوا النيران فى دارين للسينما فى القاهرة ، وفى مبنى البريد الرئيسى ومحطة السكك الحديدية وفى اليوم نفسه ، أعلنت بريطانيا أن وزير الحربية أنتونى هيد سيزور القاهرة . وفى يوم ٢٧ يوليو وقع هيد مع المصريين اتفاقا بالاحرف الأولى على « مقدمة الاتفاقية » الخاصة بشروط جلاء البريطانيين .

واستمرت المحاكمة من ١١ ديسمبر حتى ٣ يناير . ولم يحضر المحاكمة المتهمون كلهم لأن الكولونيل (دار) ورفيقا اسرائيليا له ، تمكنا من الهرب ، فى حين انتحر اسرائيلى ثالث هو ماكس بنيت المجرى المولد ، على أن جميع الذين حضروا المحاكمة اعترفوا بأنهم مذنبون . وصدرت أحكام بالسجن لمدد طويلة مختلفة على معظمهم ، بما فيهم مارسيل نينيو . ولكن صدر حكم بالأعدام على كل من الدكتور موسى ليتو مرزوق وهو فرنسى مولود فى تونس كان يعمل جراحا بالمستشفى اليهودى فى القاهرة ، وصموئيل عازار وهو أستاذ للهندسة من الاسكندرية . وتم اعدام الرجلين فعلا بالفعل بالرغم من الاحتجاجات المقدمة من فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة وكان من العسير تماما على عبد الناصر ، من الناحية السياسية ، أن يبقى على حياتهما ، اذ قبل ذلك بستة أسابيع فقط تم اعدام ستة من الاخوان

المسلمين لاشتراكهم فى محاولة لاغتياله . وبرغم ذلك انطوى رد فعل اسرائيل على الحزن والغضب . وكذلك كان رد فعل بعض اليهود الغربيين . وأعلن شاريت فى اليوم نفسه فى الكنيست ان مرزوق وعازرا «ماتا ميتة الشهداء» وقد وقف أعضاء الكنيست صامتين حدادا عليهما ، واعلنت اسرائيل الحداد الرسمى فى اليوم التالى . وتم اطلاق اسمى الرجلين على بعض الشوارع فى بير سبع ودامات جان ورفض المندوبون الاسرائيليون فى لجنة الهدنة المصرية الاسرائيلية المشتركة حضور اجتماع اللجنة — واعلنوا انهم لن يجلسوا الى جانب ممثلى الزمرة العسكرية الحاكمة فى القاهرة — وفى نيويورك تم توجيه تهديدات بالقاء القنابل على القنصلية المصرية ، وأطلق قناص أربع طلقات على نافذة القنصلية بالدور الرابع (٥٦) .

وأصبح هذا الحادث كله ، الذى سمم الحياة السياسية فى اسرائيل لمدة عشر سنوات أو يزيد معروفا باسم فضيحة لافون ، اذ ان محاكمة القاهرة أثبتت أن لافون ، قد وافق ، بصفته وزير الدفاع ، على حملة التخريب . أو على الأقل اظهرت الادلة المتاحة ذلك . أما فى داخل اسرائيل فقد طلب لافون من موشى شاريت أجراء تحقيق سرى فى مسألة لا يعرف مجلس الوزراء عنها شيئا . وزعم بنجامين جيفلى رئيس المخابرات ان ما يسمى بعملية الأمن تمت بتصريح من لافون شخصيا . وشهد اثنان آخران ممن يتمتعان بحماية بن جوريون هما موشى ديان وشيمون بيريز ضد لافون وندد لافون بالمستندات التى قدمها جيفلى ووصفها بأنها مزورة وطالب باستقالة الرجال الثلاثة . ولكن شاريت أمر لافون أن يستقيل ، ودعا بن جوريون لترك عزلته وتولى وزارة الدفاع . وكان ذلك عودة منتصرة لفلسفة العنف التى حاول شاريت ولافون التخفيف من تطرفها . واستكملت هذه الفلسفة بعد ذلك بأسبوع ، بشن غارة على غزة لم يسبقها اى استفزازات أدت الى مصرع ٣٩ مصريا والى نشوب حرب السويس فى عام ١٩٥٦ (٥٧) .

وعندما تكشفت الحقيقة بشأن فضيحة لافون ، بعد ستة اعوام من وقوعها ، تأكد أنه كان هناك مكيدة على أنها لم تكن من صنع المصريين ، بل من صنع بن جوريون وربيبيه . وكان الكشف عن الحقيقة بطريق المصادفة البحتة . اذ أن الجنود الشهود كشف بطريقة عرضية ، وهو يدلى بشهادته فى محاكمة تزوير جرت فى سبتمبر عام ١٩٦٠ ، عن أنه قد شاهد توقيع لافون المزور على وثيقة تتعلق بحادث الأمن المؤسف فى عام ١٩٥٤ (٥٨) . وعلى

الفور اعلن بن جوريون أن التشريع الخاص بتحـديد المهلة القانونية بثلاثة أعوام، يمنع نظر القضية من جديد . ولكن لافون، الذى أصبح رئيسا لاتحاد نقابات العمال القوى ، الهستدروت ، أستغل هذه الفرصة ليطالب باجراء تحقيق ، وبذل بن جوريون كل ما فى وسعه من أجل منع اجراء التحقيق ، ولكن مجلس وزرائه عارضه فى ذلك وكشف التحقيق عن أن عمليــة الأمن ديرت من وراء ظهر لافـون . وتم تزوير توقيعه ، كما ان عمليات تفجـير القنابل قد بدأت فى الواقع قبل وقت طويل من محاولة الحصول على موافقة ــ والتى رفض لافون اعطاءها ــ وكان لافون كبش فداء تماما وفى عيد الميلاد عام ١٩٦٠ ، أصدر مجلس الوزراء الاسرائيلى قرارا بالاجماع بتبرئته تماما من المســئولية عن مغـامرة الأمن التى انتهت بكارثة فى مصر ، وفى الوقت نفسه كان المدعى العام قد اكتشف أدلة حاسمة تثبت وقوع تزوير والادلاء بشهادات مزورة فى التحقيق السابق (٥٩) . وجن جنون ، بن جوريون . فأصدر انذارا نهائيا الى حزب العمل الحاكم بعزل لافون ، وخرج غاضـبا من اجتماع مجلس الوزراء وقدم استقالته . وقام مؤيدوه المتشددون فى الهستدروت بعمل وصفه أحد اعضاء نقابات العمال بأنه « خضوع غيرأخلاقى وظالم للديكتاتورية » ، اذ حولوا الأصوات لصالح قبول استقالة لافون . على ان لافون حقق انتصارا ادبيا على الرجل الذى أرغمه مرتين على التخلى عن منصبه . وقام الطلبة بمظاهرات التأييد له فى شوارع تل أبيب والقدس. وكانوا يحملون لافتات كتب عليها : « يا بن جوريون ، اذهب الى سدبوكر » وخذ ديان وبيريز معك . فنحن لا نقبل زعماء ذوى ضمائر مطاطة (٦٠) » . وادت الفضيحة الى هز المؤسسة الحاكمة والى انقسام فى الرأى العـــام ، واجراء انتخابات جديدة كما ساهمت بدرجة كبيرة فى اختفاء بن جـوريون من الحياة العامة فى نهاية الامر .

على أن لافون لم يكن الضحية الوحيدة . فقد كان هناك أيضا أولئك اليهود المصريون المضللون الذين دفعوا حياتهم ثمنا أو سجنوا سنين طويلة . ومن الصحيح أن مارسيل نينيو ورفاقها قد استقبلوا استقبال الابطـال عندما تم مبادلتهم فى عام ١٩٦٨ ببعض أسرى الحرب المصريين فى اسرائيل وصحيح أيضا أن جولدا مائير رئيسة الوزراء وموشى ديان وزير الدفـاع والجنرال بارليف رئيس الأركان قد حضروا جميعهم حفل زفاف الآنسـة نينيو ، وقال ديان للعروس « لقد حققت حرب الأيام الستة نجاحا كافيا اذ أدت الى اطلاق سراحك » (٦١) . ولكن الارهابيين الســابقين ، الذين قضوا اربعة عشر عاما فى أحد السجون المصرية ، لم يشـــاركوا الزعامة

حماسها . فعندما ظهرت نينيو واثنان من رفاقها على شـاشة التليفزيون الاسرائيلى بعد ذلك بعدة سنوات ، أعربوا جميعا عن اعتقادهم بأن السبب فى عدم اطلاق سراحهم قبل ذلك هـو أن اسرائيل لم تبذل جهدا كبيرا من اجل اطلاق سراحهم . وقال روبرت داسا « ربما لم تكن لديهم رغبـة فى عودتنا . لقد كان هناك قدر كبير من الدسائس فى اسرائيل . لقد كنا أداة فى يد المصريين وغيرهم والامر المؤلم بعد كل ما عانيناه هو أن هـذا الوضـع ما زال مستمرا » . وفى رأى نينيو « ان الحكومة لم تشأ افسـاد علاقاتها مع الولايات المتحدة ، ولم تشأ أن تحرج نفسها بالاعتراف بانها كانت وراء الأعمال التى قمنا بها .

على ان الضحايا الحقيقيين كانوا جماهير اليهود المصريين . اذ أن بعض الحوادث مثل فضيحة لافون كانت تجعل عامة المصريين يربطون بينهم وبين الحركة الصهيونية . وعندما قامت اسرائيل بغزو سيناء واحتلالها فى عام ١٩٥٦ ، تصـاعدت حدة المشاعر المعـادية لهم . وبدات الحكومة تتصرف بطريقة تعود عليها بالضرر ، وعلى الصهيونيين بالفـائدة ، فأمرت اليهـود بمغادرة البلاد . وبالفعل رحـل ٢١ ألف يهودى على مضض وبعـد تأخير طويل ، فى العام التالى ، وتم طرد المزيد بعد ذلك ، كما أن البعض الآخر لم يجد ما يستحق البقاء من أجله ، بعد أن ضاع مورد رزقهم . على أن عددا ضئيلا فقط منهم توجه الى اسرائيل .

ملاحظات ومراجع الفصل الخامس :

(١) القرار ١٨٦ (س.٢) ، ١٤ مايو ١٩٤٨ .

(٢) مينوحين ، موشى ، « تدهور الديانة اليهودية فى عصرنا » ، معهد الدراسات الفلسطينية بيروت ، ١٩٦٨ ، ص ١٥٢ .

(٣) برنادوت ، فولك ، « الى القدس » ، هودر استاوتون ، لندن ١٩٥١ ، ٤٢ .

(٤) نفس المرجع ، ص ٣٧ .

(٥) نفس المرجع ، ص ١١٣ .

(٦) مينوحين ، المرجع المذكور ، ص ٥١٣ .

(٧) « تقرير عن تقدم وسيط الامم المتحدة بشأن فلسطين » ، الجمعية العامة ، السجلات الرسمية الدورة الثالثة ، ملحق رقم (أ / ٦٤٨) باريس ، ١٩٤٨ ، ص ١٤ .

(٨) برنادوت المرجع المذكور ، ص ١٣٧ .

(٩) نفس المرجع ، ص ١٤٣ .

(١٠) نفس المرجع ، ص ١٤٥ .

(١١) نفس المرجع ، ص ١٤٥ .

(١٢) نفس المرجع ، صفحتى ١٩٦ — ١٩٧ .

(١٣) تقرير عن تقدم الوسيط الدولى بشأن فلسطين ، المرجع المذكور ، ص ٢٨ .

(١٤) برنادوت ، المرجع المذكور ، ص ١٩٩ .

(١٥) نفس المرجع ، ص ٢٠٠ .

(١٦) نفس المرجع ، ص ٢٠٨

(١٧) نفس المرجع ، ص ٢٠٨ .

(١٨) نفس المرجع ، ص ٢١٠ .

(١٩) نفس المرجع ، ص ٢٠٩ .

(٢٠) نفس المرجع ، ص ١٩٠ .

(٢١) نفس المرجع ، ص ١٨٦ .

(٢٢) « تقرير عن تقدم الوسيط الدولى بشأن فلسطين » ، المرجع المذكور ، ص ١٣

(٢٣) « وفاة الوسيط » ، معهد الدراسات الفلسطينية ، ببيروت ، ١٩٦٨ ، ص ٢٥ .

(٢٤) نفس المرجع ، صفحات ١٩ — ٢٦ .

(٢٥) نفس المرجع ، ص ٢٢ .

(٢٦) نفس المرجع ، ص ٣٣ .

(٢٧) « بالستاين بوست » ، ١٤ ديسمبر ١٩٤٨ .

(٢٨) مينوحين ، المرجع المذكور ، ص ٥١٦ .

(٢٩) « بالستاين بوست » ، ٢٣ يناير ١٩٤٨ .

(٣٠) « الفهد الاسود » (جريدة عبرية) ، ٩ نوفمبر ، انظر « وثائق من اسرائيل » ، يا ايثاكابرس ، لندن ١٩٧٥ ، ص ١٢٧ .

(٣١) آلون ، ايجال ، « بناء جيش اسرائيل » ، فالنتين ، ميتشل وشركاه ، لندن صفحات ٢٣٣ — ٢٣٤ .

(٣٢) « الفهد الاسود » ، المرجع المذكور ، صفحات ١٣٠ — ١٣٢ .

(٣٣) نفس المرجع ، ص ١٣١ .
(٣٤) هيرتزل ، (اليوميات الكاملة) ، المرجع المذكور ، الجزء الاول ص ٧ .
(٣٥) ليلينتال ، الفريد ، ((الوجه الآخر للعملة)) ، دفين ـ ادير ، نيويورك ، ص ١٨٤
(٣٦) نفس المرجع ، ص ٤٧ .
(٣٧) المكتب المركزى للاحصائيات ، ((خلاصة احصائية عن اسرائيل)) ، رقم ١٦ ، ص٩٦
(٣٨) برجر ، المار ، ((من يعرف أفضل نيقل فليقل ذلك)) ، معهد الدراسات الفلسطينية ، بيروت . ص ٣٤ .
(٣٩) ((الفهد الاسود)) ، المرجع المذكور ، ص ١٣٢ .
(٤٠) لويخريج ، ستيفن هيمزلى ، ((العراق ، ١٩٠٠ ـ ١٩٥٠)) ، مطبعة جامعة أكسفورد ، لندن ، ١٩٥٣ ، صفحات ١٩ ـ ٢٣ .
(٤١) كوهين ، حاييم ، ج . ، ((يهود الشرق الاوسط ١٨٦٠ ـ ١٩٧٢)) ، جون ويلى وأولاده نيويورك وتورنتو ، ١٩٧٣ ، صفحة ٣٠ .
(٤٢) نفس المرجع ، ص ٣٠ .
(٤٣) ((عصبة مكافحة الصهيونية ، فى العراق)) ، الشئون السياسية الفلسطينية ، (مجلة شهرية باللغة العربية) ، ببيروت ، نوفمبر ١٩٧٢ ، ص ١٦٢ .
(٤٤) برجر ، المرجع المذكور ، ص ٣٠ .
(٤٥) نفس المرجع ، ص ٢٠ .
(٤٦) نفس المرجع ، صفحة ٣٢ و ٣٣ .
(٤٧) ((الفهد الاسود)) المرجع المذكور ، ص ١٣٢ .
(٤٨) نفس المرجع ، ص ١٣٣ .
(٤٩) ((جيروزاليم بوست)) ، ١٢ ديسمبر ١٩٥٤ .
(٥٠) ١٣ ديسمبر ١٩٥٤ .
(٥١) ١٣ ديسمبر ١٩٥٤ .
(٥٢) برجر ، المرجع المذكور ، ص ١٤ .
(٥٣) لاف ، كينت ، ((السويس : الحرب التى تم خوضها مرتين)) ، ماكجرو ـ هيل ، نيويورك ، ١٩٦٩ ، ص ٧١ .
(٥٤) نفس المرجع ، ص ٧٣ .
(٥٥) نفس المرجع ، ص ٧٤ .
(٥٦) لاف ، المرجع المذكور ، ص ٧٧ .
(٥٧) أنظر ص ١٩٨ .
(٥٨) ((نيويورك تايمز)) ، ١٠ فبراير ١٩٦١ .
(٥٩) نفس المرجع .
(٦٠) ((جيوش كرونيكل)) ، لندن ، ١٧ فبراير ١٩٧١ .
(٦١) هالاعوم هازيه ، أول ديسمبر ١٩٧١ .
(٦٢) ((اسوشيتدبرس)) ، ١٦ مارس ١٩٧٥ .

الفصـــل الســـادس
المقاتلون العرب

مجتمع استعماري في عصر ما بعد الاستعمار :

« علينا اليوم الا نلقي بالتهم جزافا على القتــلة . فمن نحن حتى ندين كراهيتهم انهم يجلسون في مخيمات اللاجئين في غزة منذ ثمانية أعوام ونقوم تحت سمعهم وبصرهم بالاســتيلاء على الأراضي والقرى التي عاشوا فيهــا وعاش فيهــا أســلافهم . اننــا جيل من المستوطنين ولا نســتطيع بدون (الخوذة) النحاسية والمدفع أن نزرع شجرة أو نبني بيتا . دعونا لا نفزع عندما نرى الحقد يثور ويملأ حيــاة مئات الآلاف من العرب الذين يحيطون بنا . ودعونا لا نحول أنظارنا حتى لا تتراخى أيدينا .

هذا هو مصير جيلنا واختيار حياتنا ــ أن تكون مستعدين ومسلمين ، اقوياء واشــــداء ــ والا فان السيف سوف يسقط من قبضتنا وتنطفيء حياتنـــا » (١) .

لقد التقينا بهذا المتحدث من قبل . كان موشي ديان واحدا من اولئك الجنود المزارعين الشبان الذين يتسمون بالفظاظه والذين صاحبهم أورد ــ ينجت أثناء التمرد العربي في شن غارة ليلية جريئة على قرية عربيـــة (٢) وها هو في عام ١٩٥٣ يذيع نبأ بين أحد الرواد الشبان بأيدي قطاع الطرق العرب بينما كان يحصد القمح بالقرب من الحدود المصرية . وأما بالنســبة للنــــائب الاسرائيــلي يوري افثيزي ــ الذي ابتــكر تعبير « صهيونيــــة البندقية » ــ فان هذا الخطاب يجسد الفلسفة الصارخة « المقـــاتل من العرب » ، أي المعادل الاسرائيلي لما كان الأمريكيون يسمونه القـــاتل ضد الهنود ، وهو نمط شائع بين الجيل الثاني من المستوطنين في أرض يضطر فيها القادمون الجدد الى الدخول في صراع مع السكان الأصليين . وكان ذلك النمط هو الشخصية البارزة لدى بن جوريون الذي قاد الدولة اليهــودية خلال سنواتها الأولى ولكن بمرور الوقت تحول تدريجيا تلميذه موشي ديان المقاتل ضد العرب من مجرد ظل لسيدة الى تجسيد كامل وشــهير للقوى التي شكلت ربع القرن الأول من حياة اسرائيل .

وقد نجح الصهيونيون في تحقيق حلم هرتزل عن طريق خليــط غريب

من الحظ والولاء الأعمى ، من الخداع السياسى والضغوط القاسية . وكان طبيعيا أن يبدأ فى بناء الدولة الجديدة بروح عالية وبقوة ارادة كبيرة اذ كان هناك ، على حد تعبير وايزمان إطار فارغ جديد يتعين ملؤه تماما ، ومرحلة جديدة يجب استكمالها تماما فى اطار الهدف وكانت اهم مهمة واجهها هؤلاء المؤسسون هى تأجيل أرض الميعاد بالسكان وتوفير الطاقة البشرية اللازمة لمزارعها ومصانعها وجيشها . وبعد رحيل البريطانيين الذين كانوا يتدخلون فى الأمور ، وبعد التغلب على العدو العربى أصبح باستطاعتهم فتح أبواب فلسطين على مصراعيها أمام الهجرة بدون أى قيود . وبموجب قانون العودة إكتسب كل يهودى أينما كان حق الحصول على الجنسية الاسرائيلية كاملة على الفور وذلك بصورة آلية . وفى الواقع كان بن جوريون يرى أنه ليس من حق اليهود فحسب بل من واجبهم أيضا أن يستفيدوا من هذا الإمتياز . وقال ان دولة يبلغ عدد سكانها سبعمائة أو ثمانمائة يهودى لا يمكن أن تكون ذروة يقظة استمرت دون انقطاع عبر الأجيال وعبر القرون الطويلة . كما أنها لا يمكن أن تعيش طويلا .. اذ أن العرب أيضا سوف يسلحون أنفسهم بمرور الزمن ، ولن يفتقروا الى الأبد ، الى التعليم والمهارة الفنية . كلا ! فليس هناك ما ينم عن اقامة دولة غير آهلة بالسكان على هذا النحو لأنها لن تغير مصير اليهود أو تفى بعهدنا التاريخى . إن واجب الدولة هو انهاء الجالوت (تشتت اليهود) أخيرا (٣) ويجب على الصهيونيين فى كل مكان ان « يعملوا على بقاء العلم الصهيونى — الذى بدأ يرفرف فوق دولة اسرائيل — مرفوعا فوق الشعب اليهودى بأكمله وذلك حتى تستكمل عملية تجميع المنفيين . ويجب أن تكون لديهم « التزام جماعى » بمساعدة اسرائيل » فى جميع الأحوال والظروف حتى ولو كان هذا الموقف يتعارض مع السلطات الوطنية فى البلاد التى يعيشون فيها (٥) .

ولم يكن يكفى بناء الدولة الجديدة — بل كان لابد من حمايتها أيضا . وقد قدر لهذه المهمة منذ البداية أن تكون مثبطة للهمة . وكان هناك طريقان أساسيان مفتوحان أمام واضعى السياسة . الأول هو كسب عقول جيرانهم العرب والفلسطينيين لهم ، والسبب الآخر هو محاربتهم أى تسوية سلمية أو عداء دائم — ولم يكن هناك شك كبير فى الحقيقة ، فى نوعية السبيل الذى سوف ينتهجه بن جوريون وخلفاؤه لقد اختاروا سبيل الحرب . وليس معنى هذا بالطبع إنهم لم يعرضوا السلام . والحقيقة انهم كانوا يعرضون السلام بصورة منتظمة رتيبة . ولكنه كان سلاما وفقا لشروط اسرائيل ، سلام المنتظر . وكان يتعارض تماما مع توصيات الأمم المتحدة التى رفضها العرب ولكن تمسك بها الاسرائيليون باعتبارها الميثاق المنشىء

لوجودهم ذاته وكان الأمر بسيطا للغاية اذ كان هناك من حيث الجوهر أمران اشترطهما اسرائيل على العرب أولا ، انه لن تكون هناك عودة للاجئين ، فقد خسروا هذا الحق بوصفهم « معتدين » وتبعا لذلك وبعد شهر واحد من النداء الذي وجهه بن جوريون للعرب ، وهو يعلن للعالم قيام دولة اسرائيل بأن يقوموا بدورهم في تطوير الدولة وبينما كانت الحكومة أيضا تزعم ان خروج العرب لم يكن أمرا غير مرغوب فيه أو متوقعا ، عاد بن جوريون ثانية الى استخدام هذه الحجة الكريهة : « نحن لم نكن نريد الحرب . ان تل أبيب لم تهاجم يافا ولكن يافا هي التي هاجمت تل أبيب وهذا أمر يجب الا يتكرر ، وسوف تصبح يافا مدينة يهودية . ان اعادة توطين العرب في يافا ليس عدلا ولكنه حماقة ويتعين على أولئك الذين اعلنوا الحرب ضدنا أن يتحملوا النتائج بعد هزيمتهم » (٦) .

واذا لم تكن حماقة العرب سببا كافيا فقد تم ايجاد أسباب أخرى بسهولة . فمع حلول أول أغسطس وصلت الحكومة الاسرائيلية الى قرار بأن عملية اعادة اندماج العرب العائدين ، في الحياة العادية بل مجرد أعالتهم سوف يمثل مشكلة ، لا يمكن تحملها » (٧) . وذلك لأسباب اقتصادية . وبينما كان بن جوريون يتكلم ، كان المبعوثون الصهيونيون يتدفقون على بلاد الشتات لكي « يجمعوا المنفيين » ، قد اضطروا الى مداهنة الكثير منهم وفضح البعض الآخر وارهاب الآخرين لكي « يعودوا الى وطنهم » . ولكن الأسباب الى قدمت كانت أسبابا تنطوي على النفاق لأنه كما قال بن جوريون في موضع آخر « يجب أن تقوم بكل ما من شأنه ضمان عدم عودتهم على الاطلاق » (٨) .

ثانيا : انه كان يرفض اعادة الأراضي . اذ أن المبدأ الذي أعلنه بن جوريون بوضوح عند وقف اطلاق النار الأول — « كل ما استولينا عليه سنحتفظ به » — قد انطبق على جميع معاملات اسرائيل فيما بعد ، عن طريق طرف ثالث ، مع جيرانها . وأصبح « الأمن » هو الاختبار العظيم ، ولن تشترك اسرائيل في « تدمير نفسها » . وفسر موشى شاريت وزير خارجية اسرائيل الأمر بوضوح بقوله ان كل ما تطلبه اسرائيل هو أن يقبل العرب وجودها » بالصورة التي نحن عليها ، بأرضنا وسكاننا وسيادتنا غير المقيدة (٩) . وأما فيما يتعلق بقرار التقسيم الصادر من الأمم المتحدة وهو تلك التوصية التي وصفت بأنها لا يمكن الاعتراض عليها « يوم ١٥ مايو » ، فقد مات ودفن على حد تعبير بن جوريون بعد حلول السادس عشر من يونيو (١٠) .

والاختيار الذى قام به الصهيونيون ، لم يكن عن طواعية ، أو حتى لم يكن اختيار ، قد تم عن وعى ، فقد اضطروا اليــــه بسبب ورطتهم . فقد قدر لاسرائيل ان تعيش فى صراع دائم مع جيرانهـا ، وهذا هو الأمر الذى فهمه ديان ، « القاتل ضد العرب » بفطرته ، وكان يشكل مصـــدر التوتر المستمر الوحيد فى مزاجه المتقلب دائمــا فما خرج الى حيث الوجـــود باستخدام أساليب عنيفة وغير طبيعية لا يمكن أن يبقى على قيد الحيـــاة ويزدهر الا باستخدام أساليب عنيفة وغير طبيعية . والأمة التى ولدت بحد السيف لابد ان هيش به — لقد تصوروا ان الوطن القومى هو الحل لمشكلة معاداة السامية والجيتو ، على انه لا يوجد شىء اقرب شـــبها الى جيتو مسلح هائل الحجم من دولة اسرائيل نفسها وقـــد أصبح منطق الصهيونية الثـابت فى التصرف والذى كان الانتــــداب يحـد منه بصـــورة جزئيـة يتوفر له الآن الحرية الكاملة — ولم يعـد هنـــاك الآن طرف ثالث — الا اذا اعتبر المرء ارادة المجتمع الدولى الواهية وغير الفعالة شيئا له وزنه . واذا كان العرب قد رفضوا اسرائيل الأصغر حجما التى نص عليها مشروع الأمم المتحدة والتى يشكل الفلسطينيون اغلبية ســــكانها ويتمتعون فيهـا بضمانات دستورية راسخة فمن الطبيعى أن يكونوا أكثر رفضـا لاسرائيل الكبرى ، التى طردت معظم الفلسطينيين ومزقت تلك الأجـــزاء التى لم تعجبها فى ميثاق تأسيسها . وقرر العرب انهم سوف « يحررون » فلسطين ان اجلا أو عاجلا واضطر الاسرائيليون المحاطون بالأعداء من كل جانب ؛ الى المضى قدما فى الطريق الذى بدأوه . وباسم الأمن وجدوا مبررا للاعتداءات العسكرية التى لم تؤد الا الى ازدياد الكراهية المحـدقة بهم . والتى أدت بدورها الى شن مزيد من الاعتداءات وتطلبت بالضرورة الحصول على المزيد من الأسلحة اللازمة لشنها .

ولا يوجد أى شك فى بســـالة اسرائيل العســـكرية الفائقة وفى مهارة وشجاعة قادتها وفى جرأة جنودها فقد شنت خلال خمسة وعشرين عاما « أربع حروب كبرى » — جميعها حروب شاملة مع واحدة ، أو مجموعة من جيرانها وشنت أيضا سلسلة لا نهاية لها من « الحروب الصغيرة » وهى تلك الغارات والغارات المضادة عبر الحدود برا وبحرا وجوا ، وهذه الحـروب الصغيرة تؤدى ، فى غيـــاب التســـوية السلمية ، الى نشوب الحـروب الكبيرة . وقد ضمن لها اداؤها فى ميـدان المعركة بالفعل مكانة مشرفة فى التـــاريخ . فقد خرجت اسرائيل الى الوجود فى عام ١٩٤٨ بعـد هزيمة خمسة جيوش عربية . ووصلت فى أكتوبر عام ١٩٥٦ بمساعدة البريطانيين

والفرنسيين ، الى قناة السويس بعد هجوم خاطف استمر خمسة أيام ضد مصر التى يحكمها عبـد الناصر .. وفى يونيو ١٩٦٧ استغرقت ستة أيام فقط لكى تهزم بمفردها ثلاث دول عـربية هى مصر وسـوريا والأردن وتستولى على سيناء وعلى مرتفعات الجولان وذلك الجـزء من فلسطين ـ القدس الشرقية والضفة الغربية ـ الذى كانت قد فشلت فى الاستيلاء عليه فى عام ١٩٤٨ ـ وفى أكتوبر ١٩٧٣ حان دور العرب ـ مصر وسـوريا على وجه التحديد لتوجيه الضربة الأولى المدمرة . واصيبت اسرائيل بصـدمة جعلتها تترنح ولكنها ردت على الهجوم وبعد ثمانية عشر يوما من القتـال الشرس نجحت فى رد الجيش السورى الى ما وراء خطوط وقف اطلاق النار لعام ١٩٦٧ وعبرت قناة السـويس الى داخل « أفريقيا » ، واعتبر بعض الخبراء العسـكريين ان استعادة اسرائيل لقواها تعـد أكثر اهمية من الانتصارات الساحقة التى حققتها فى عامى ٥٦ ، ٦٧ .

لقد كان الرأى العام الغربى يرقب اسرائيل ـ وهى تختار طريق الحرب وتمضى فى خوضها بلا توقف برضاء كامل فضلا عن الاعجـاب ، ولم يكن مرجع ذلك الى البراعة العسكرية وحدها شأنها شأن البراعة الرياضية وان كان لذلك علاقة كبيرة بالأمر ، الى أن الصهيونيين ظلوا بفضل هتلر والمذابح الجماعيـة التى ارتكبهـا ضـد اليهود يتمتعون بتلك الحظوة الخاصـة ، والنفوذ لدى الأقوياء وذلك هو ما ساعد على خلق اسرائيل فى المقال الأول . وقد استفادت اسرائيل من وجـود بعض التحيز الثقافى والتاريخى الذى دعمته التجربة الاستعمارية الأوروبية ، ضد العرب . كما أن اسرائيل لم تكن تحب أن تتفق ظواهر الأمور مع التجربة الغريبـة بالمجتمع ذى الطـابع العسـكرى ، وعلى العكس ، جيش المواطن الاسرائيلى الذى يتسم أفراده بعدم المبالاه وبعدم التقيد بالرسميات ويتطلعون الى ميـدان القتـال فى سيارات التاكسى وعربات المثلجات بشـعورهم المتهدلة وبملابسهم البالغة الغرابة أبعد ما يكون عن التنظيم والروح العسكرية العالية ولعل الاسرائيليين قد وجدوا ان من السهل عليهم تماما اقنـاع الرأى العـام الغربى المتـأثر بالتفاوت المضـال فى حجم ، بأن فى تلك المنطقة صراعا واضح المعـالم بين الضعيف والقوى وهو صراع حقق فيه دلود الاسرائيـلى دائما انتصـارا مشجعا بعد جوليات العربى وكانت حرب ١٩٤٨ هى المثل على ذلك .. ففى تلك الحرب كان الصهيونيون ـ كما شدهدنا ـ هم المعتدين الحقيقيين بلا أدنى شك ولكنهم حققوا نجاحا ملحوظا فى تصوير العرب بأنهم المعتدون ـ وبعد

أن يثبتوا هذه الصورة الزائفة للتاريخ ـ هـذا التشويه غير العادى لكل من السبب والنتيجة ـ بدأوا يعتمدون عليها وساعدهم العـرب على ذلك ، لا لأنهم كانوا غير اكفاء فى الدعاية والحـرب بل لانه كان عليهم بوصـفهم مهزومين ، أن يأخذوا بزمام المبادرة ويبطلوا الأمر الواقع والصهيونيون على حسابهم ، وكان كل ما على الاسرائيليين القيام به أن يقفوا ساكتين . وأن « يحتفظوا بما استولوا عليه » ـ وأطلقوا على جيشـهم اسم قوات الدفاع الاسرائيلى وأصبحت جميع العمليات التى تقوم بها ذات طبيعة دفاعية فى الظاهر . وكان الهدف من « الحروب الصغيرة » هو العقاب والردع فى حين كانت حروبها الكبيرة « حروبا من أجل البقاء » .

وقد لا تكون اسرائيل مجتمعـا ذا طابع عسكرى ، ولكنها فى الحقيقة مجتمع عسكرى بمعنى الكلمة وقد لا تكون أيضـا مجتمعـا شموليا ولكن الأغلبية السـاحقة من شعبها يقر بصورة ضـائعة ، فى موقفه ازاء العرب وباقى دول العـالم ، التصرفات والعقيـدة الرسمية والجيش والشعب . فان الاسرائيليين لم يحولوا القوة المسلحة الى أداة ـ للمحافظة على أنفسهم فحسب ، ولكنهم جعلوا منها أيضا إداة للمحافظة على رسـالة الصهيونية التى لم تكتمل بعد ولم تكن القوة أداة « للعقاب » فحسب بل كانت أداة هادفة أيضا فاسرائيـل لم تكن تنوى مطلقـا أن تقف ساكتة فتلك مجرد واجهة وانما كانت اسرائيل قوة أستعمارية عدوانية تعيش فى عصر ما بعد الاستعمار . وصحيح ان اسرائيـل كانت تتصرف ـ لأسـباب يهودية ، وأسباب أخرى تعد فريدة بين المفارقات التاريخية التى من نوعها ـ فى ظل مناخ من التسامح الغربى غير العادى ولكنها لم تستطع أن تستغل التسامح متخطية جميع الحدود ، فكانت تشترك كلما أمكن اذ أن ذلك لم يكن ممكنا فى بعض الأحيان ـ فى المواقف الأخلاقية المناهضة للاسـتعمار وغيرها من مواقف العصر . وفى الوقت نفسـه ، كانت تقوم من وراء هـذه الواجهة باستغلال العنف العربى ـ أو العنف الغربى المضاد ، لأنه كان كذلك فعلا فى ضوء الظروف التاريخية ـ كذريعة للقيـام بأعمال عنف انتهازية وأكثر فاعلية ، وتضفى على العدوان مظهر الدفاع ، وتضفى على العدوان الهادف مظهر الاجراء التأديبى . وقد حققت نجاحا باهرا فى ذلك طيلة خمسـة وعشرين عاما ، وبفضل موشى ديان ، المقاتل ضد العرب .

غارات الحدود والأعمال الانتقامية :

أثار الاسرائيليون ، ابتداء من عام ١٩٤٨ فصاعدا ، بطبيعة الحال ، عداء الفلسطينيين كما أثاروا عداء العالم العربى بأسره أيضا . ومن الصعب فى اغلب الأحيان التمييز بدقة بين الاثنين ، وان كنا سنحاول ذلك ، تحقيقا لاهداف البحث وبوسعنا أيضا بصورة ارتجالية الى حد ما ، التمييز أيضا بين نوعيات الفلسطينيين أنفسهم ونفترض أنهم ينقسمون الآن الى نوعين ، بالنسبة للاسرائيليين « الموجودين خارج اسرائيل » و « داخل اسرائيل » ، الأغلبية الهائلة التى رحلت ، وعدد يقل عن مائتى ألف نسمة استطاعوا البقاء فى البلاد وأصبحوا مواطنين عربا غير مرغوب فيهم فى الدولة اليهودية .

وقد ظهرت الصورة الحقيقية لديان والمقاتلين ضد العرب فى تعاملهم مع الفلسطينيين « الموجودين خارج اسرائيل » . فلم يكن هدفهم هو منع دخول الموجودين خارج اسرائيل فقط بل كان الهدف أعمق من ذلك . اذ كانوا يريدون أن يمحوا تماما فكرة أنهم سوف يعودون يوما الى البلاد ولا شك أن هذه الفكرة كانت تراود الفلسطينيين وخشى الاسرائيليون فى نهاية الأمر من أن يحاولوا تنفيذها . فقد يحاولون تنظيم حركة تحريرية وحدوية أو يقومون بما هو أخطر من ذلك بوصفهم قوة قوية تثير الشقاق فى السياسة العربية ، فيحثون أنظمة الحكم العربية على الاهتمام بقضيتهم بصورة جدية . وهكذا كان رد فعل الاسرائيليين ازاء أية محاولة يقوم بها الفلسطينيون لتأكيد ذاتهم مهما كانت تافهة أو ضعيفة ، يتسم بالعنف المتطرف بل العصبى وكان طابع رد الفعل تأديبيا تماما لم يكن هادفا لأن الفلسطينيين الذين يعيشون فى الخارج والذين طردوا من أرضهم وحرموا من ممتلكاتهم ، ولم يعودوا يشكلون عقبة مادية أمام أهداف الصهيونية على المدى البعيد .

وكان كل ما فى وسع الفلسطينيين خارج اسرائيل القيام به هو شن غارات عبر الحدود والحقيقة انه كان من الطبيعى تماما أن يقوموا بذلك كما اعترف بذلك موشى ديان وكان المتسللون الفلسطينيون — وهو الاسم الذى أطلق عليهم — يفدون فى الغالب من ذلك الجزء من فلسطين — الضفة الغربية الذى كانت المملكة الهاشمية الأردنية قد ضمته الى أراضيها . ولأسباب سياسية وجغرافية ، كان شن الغارات من هذه المنطقة أسهل من شنها من مصر وسوريا أو لبنان التى كان بها سكان لاجئين ولم يكن لدى

هؤلاء المتسللين فى البداية اية نوايا عدوانية على الاطلاق . اذ كان الكثيرون منهم يعودون لمجرد استرداد بعض أمتعتهم ويتسللون تحت جنح الظلام الى القرى المهجورة لكى يستردوا الأشياء الثمينة التى كانوا قد اخفوها قبل فرارهم . وكان البعض يذهب للبحث عن أقارب مفقودين . فى حين كان البعض يعبر الحدود لمجرد قطف بعض ثمار البرتقال من بساتينهم الخاصة أو حتى ليحرقوا قطعة من حقولهم ، أصبحت فجأة وربما بدون علمهم من أراضى العدو . اذ هكذا شاء خط الهدنة ، أن يفصل بين ما يزيد على مائة قرية وبين الأرض التى حرثها أصحابها باستخدام المحرات الذى يجره الثيران وها هى أمام أعينهم ، ولكن الغرباء يحرثونهـا بالجرارات والآلات الحديثة بدلا منهم . وكانت مأساة هؤلاء القرويين التى تقع قراهم على الحدود محزنة بصفة خاصة لأنهم بالرغم من حرمانهم من مصدر رزقهم ، لم يكتسبوا الأهلية للحصول على المساعدات الخاصة باللاجئين — اذ ان اللاجىء ، فى تعريف الامم المتحدة هو الشخص الذى فقد أرضه وبيته ، اذ يروى القائد هتشيسون ، وهو مراقب للامم المتحدة أمريكى الجنسية ، فى مذكراته عن مجموعة من العائلات كانت تزرع قطعة من الأرض الصخرية التربة فى الجانب الخاص بها من الحدود ، وتعتمد فى ريها على صهريج يقع فى الجانب الآخر من الحدود وكانت أقرب مستوطنة اسرائيلية تقع على بعد ميل ، ولذلك لا تستفيد من الصهريج وعندما استفسر القائد هتشيسون : هل يستطيع العرب الاستمرار فى الحصول على الماء اللازم لهم منه ؟ قيل له انهم لو عبروا يتعرضون لاطلاق النار (١٢) . والحقيقة ان دوريات الحدود التى تتكون فى معظمها من حراس مجندين محليا كانت تطلق النار بمجرد رؤية أى متسلل (١٣) وتوقفت عمليات التسلل . ولكن بقى بطبيعة الحال بعض أولئك الذين أصروا على مواصلتها ، وعند ذلك الحد أصبح بعض هؤلاء مصممين لا على استعادة ما فقدوه فحسب ، بل على القيـام بنوع من الانتقام الشخصى ، وان كان غير مجد ضد أولئك الذين انتزع الاسرائيليون منهم ما يملكونه وقد أخذ المتسللون يسرقون الجياد والبقر والماعز والأدوات الزراعية وأخيرا تحولوا للقتل .

على أن الارهاب المنظم لم يبدأ بصورة جدية الا فى صيف عام ١٩٥٣ ، تحت رعاية المفتى السابق وبعض أنظمة الحكم العربية ، ولكنه بدأ على نطاق ضيق ، فضلا عن ان الاسرائيليين كانوا قد بدأوا يسيطرون عليه : فكانوا يقتلون من العرب أعدادا تفوق ما يقتله العرب من الاسرائيليين ولعله كان أمرا طبيعيا أن يشن اللاجئون الغارات كما قال ديان ولكنه كان طبيعيا

بالمثل ، طبقا لعقيدته التى لا تتزعزع ، أن يقوم أولئك الذين شردوهم برد الضربة مضاعفة مائة مرة . ورفض الاسرائيليون بازدراء البدائل السلمية التى كانت متاحة . ولعل معظم الحكومات العربية كانت ستحاول « تحرير فلسطين اذا اعتقدت أن لديها فرصة جادة لذلك . ولكن كانت تدرك عدم وجود هذه الفرصة ، ومهما كانت سياساتها المعلنة ، فان سياساتهاالمطبقة فعليا كانت متحفظة . وعلى أية حال ، ما كانت هذ الحكومات لتسمحلحفنة من الجنود الفلسطينيين غير النظاميين بأن تستدرجها الى حرب شاملة تريد خوضها أو ليست مستعدة لها ، وكبح الأردن – أكثر جيران اسرائيل تعرضا للخطر – جميع تصرفاته من ناحية اسرائيل . وسن تشريعات تنص على معاقبة من يعبر الخط فحسب ، بالسجن لمدة ستة أشهر ، وفى وقت من الأوقات كان نصف المسجونين فى الضفة الغربية بسبب ارتكابهم هذه الجريمة، بل ان الأردنيين ذهبوا الى مدى أبعد من ذلك ، متحدين الرأى العام العربى ، اذ سعوا للتعاون مع الاسرائيليين فى تعقب المخالفين لهذا القانون واقترحوا فى احدى المرات ابرام ما يسمى باتفاق للقادة المحليين وينص على القيام بدوريات اسرائيلية – أردنية مشتركة وانشاء اتصالات تليفونية مباشرة وعقد اجتماعات منتظمة بين الضباط . ورفض الاسرائيليون هذه الاقتراحات جميعها ، وحتى عندما أذعنوا تحت ضغط من قوات حفظ السلام التابعة للامم المتحدة ، لواحد أو أكثر من هذه الاجراءات كانوا يدينونها بعد أسبوعين أو ثلاثة أسابيع يصرون على توجيه اللوم للاردن واعتبروا أن اى شخص يعبر الخط – سواء كان ارهابيا حقيقيا أم سارق برتقال أم مجرد شخص يزور أقاربه سينتمى الى قوات الأردن شبه العسكرية (١٣) .

وبعد ان رفض الاسرائيليون السلام ، أصبحوا فى حاجة الى آلة حرب تتمشى من حيث الروح والأسلوب ، مع المهمة التى تواجههم . وقد نجحوا فى تطوير مثل هذه الآلة أثناء حربهم الصغيرة على طول الحدود الاردنية . وكانت الهاجاناه والبالماخ وهى القوات الرسمية للدولة اليهودية فى مرحلة قيامها قد أسهمت فى الأخلاق العسكرية التى أسموها « نقاء الاسلحة » واثبتت هذه القوات أثناء حرب الاستقلال قسوتها تماما ، ولكن اساليبها كانت تختلف ، فى مجموعها ، عن أساليب القسوة التى كانت بلا حدود والتى تتسم بها عصابة « ارجون والمنشقون » فهم لا يقومون بتدبير مذبحة شبيهة بدير ياسين عن عمد ودون استقرار . وبعد الاستقلال

أصبحت الهاجانا والبالماخ بمثابة العمود الفقرى لقوات الدفاع الاسرائيلي ولكن لم يمض وقت طويل حتى كانت روح ارجون هى التى تسيطر على الوحدات الممتازة فيها . وكما شهدنا كان التطرف هو الذى يسود دائما فى النهاية لدى الصهيونية، فهو العرف الذى تنجذب اليه دائما قواها الكامنة، تحت ضغط الظروف المنظورة . وربما كان معدل القتلى من ضحايا الغارات الإسرائيلية ، عبر الحدود المضطربة ، أعلى من معدل القتلى الاسرائيليين بأيدى العرب ولكنه لم يكن معدلا مرتفعا بصورة كافية . ولعلاج هذا الوضع عرض الجيش تقديم المال فى مقابل ، ما وصفته صحيفة اسرائيلية بعد ذلك بعدة سنوات ، « بأعمال انتقام بأجر مرتفع » . ولكنه اضطر لوقف هذا الاجراء لأن المرتزقة الذين استخدمهم بهذا الأسلوب كانوا يزعمون أنهم قاموا بقتل عدد أكبر مما قتلوه فى الحقيقة (١٤) . يضاف الى ذلك ان الجيش لم يكن راضيا عن الغارات الانتقامية التى كان يقوم بها . والحقيقة طبقا لما أورده كتاب المضللين ، الذى يسجل التاريخ شبه الرسمى للقوات الاسرائيلية المحمولة جوا ، ان الجيش كان يشعر بوخز الضمير بسبب فشله الأمر الذى أثار حنق الجنرال موشى ديان — الذى كان رئيسا للعمليات فى ذلك الوقت — هو الهزيمة المخزية التى لحقت بفرقة جيفاتى عند قرية بالما الأردنية . اذ تحركت كتيبة بأكملها وهى كتيبة صدام ذات شهرة رنانة ، لمهاجمة القرية . ولم يكن فى القرية وقتها سوى أثنى عشر من حرس الحدود الأردنيين المسلحين بالبنادق فقط . وفتح الأردنيون النار، فتوقفت الكتيبة عند أسوار القرية ثم تقهقرت » (١٥) .

واستفادت العناصر المتشددة ذات النفوذ من النكسات التى من هذا النوع وبدأت تحرص على تشكيل وحدات انتقام متخصصة ولم يحققوا هدفهم الا بعد صراع . وألقى الجنرال ديان بثقله وراء هذه الفكرة ، ولكن المعارضين لها قرروا اتخاذ قرار بشأنها ولم تصدر المعارضة عن «الحمائم» فى الجانب المدنى — وعلى رأسهم وزير الخارجية موشى شاريت — فحسب بل صدرت أيضا عن قسم كبير من المؤسسة العسكرية كان يخشى من ظهور منظمة جديدة ، « جيش ديان الخاص » يمكن أن تتحول الى وجود عدوانى مستقل قائم بذاته . وفرضت العناصر المتشددة القضية بالحاح ، ونجحت فى ظل جو من الوطنية المتطرفة اتسم بتعهد تصعيد أعمال العنف ، فى تشكيل الوحدة ١٠١ الشهيرة بقيادة آريل شارون الذى يتمتع بشهرة مماثلة .

... وقامت الوحدة ١٠١ بأول عملية كبيرة لها — تعد علامة بارزة في تاريخ هذه العمليات — يوم الرابع عشر من أكتوبر عام ١٩٥٣ وكانت العملية انتقاما لمقتل أم وطفلين فى انفجار قنبلة يدوية فى قرية يهودا ويسجل شاريت فى يومياته وم ١٤ أكتوبر كيف ان لجنة الهدنة المشتركة (جزء من جهاز حفظ السلام التابع للامم المتحدة) قد « ادانت بصراحة « عملية القتل » بل إن الوطن الأردنى صوت لصالح القرار وتعهد أعضاء الوفد بمنع تكرار مثل هذه الفظائع فى المستقبل . فهل من الحكمة الانتقام فى ظل هذه الظروف ؟.. اننا اذا انتقمنا فسوف نجعل مهمة عصابات قطاع الطرق أسهل ، نعطى السلطات (الاسرائيلية) ذريعة لكى تفعل شيئا . واستدعيت لافون (وزير الدفاع) واطلعته على رأيى . فقال لى انه سوف يتشاور مع ب.ج (رئيس الوزراء بن جوريون) وتستمر اليوميات فتقول : « وفى عصر اليوم نفسه ، وأثناء اجتماع مع لافون وبعض الأشخاص الآخرين ، يتعلق بالتطورات التى وقعت فى الشمال ، حضر مندوب — للجيش يحمل رسالة الى لافون من الجنرال فان بنايك رئيس أركان هيئة الرقابة على الهدنة التابعة للامم المتحدة تقول انجلوب باشا قائد الفيلق الأردنى طلب ارسال كلاب بوليسية تعبر الحدود من اسرائيل لتتعقب الذين ارتكبوا جريمة القتل فى يهودا » . وبعد ان قرأ لافون الرسالة ، كما يسجل شاريت ، سأله مندوب الجيش : « هل هناك أى تغيير فى الخطط ؟ » . فرد لافون : « لا تغيير » (١٦)

« لا تغيير » ، بعد أن طلبت الأردن ارسال كلاب بوليسية لتعقب مجرمين اعترف الأردن بأنهم أردنيون ، لا تغير فى الخطط الموضوعة لارتكاب مذبحة فى تلك الليلة ضد سكان قرية (قبيه) المستغرقين فى النوم ، ويصف كتاب المظليين المذبحة بقوله : « كانت العملية التى تمت فى (قبية) تتميز عن باقى العمليات بأهدافها وآثارها . كانت عملية نسف عشرات البيوت بالديناميت فى (قبية) عملا طموحا يفوق اى شىء حدث فى الماضى . فقد محت الى الابد عار الهزائم التى منى بها زاحال (الجيش الاسرائيلى) فى عملياته الانتقامية » (١٧) . ويصف المراقبون العسكريون التابعون للامم المتحدة ، والذين وصلوا الى القرية بعد ساعتين من رحيل الكومندوز الاسرائيليين الحادث بقولهم : « لقد دلت الجثث التى ثقبها الرصاص بالقرب من المداخل وكذلك آثار طلقات الرصاص الكثيرة فوق أبواب البيوت المهدمة، على أن السكان قد جبروا على البقاء داخل منازلهم حتى نسفت فوق رءوسهم وأتفق الشهود جميعا فى وصفهم للتجربة التى مروا بها بأنها ليلة

من الرعب كان الجنود الاسرائيليون يتحركون خلالها فى أرجاء قريتهم ينسفون المبانى ويطلقون الرصاص على الأبواب والنوافذ من أسلحتهم الاتوماتيكية ويلقون بالقنابل الآلية » (١٨) .

ولقى ستة وستون من الرجال والنساء والأطفال مصرعهم فى هذه العملية التى ذكرت حتى الصحف الموالية لاسرائيل ، مثل صحيفة نيويورك تايمز ، بما حدث لمدينة ليديتش » (١٩) ولم تعترف الحكومة الاسرائيلية بمسئوليتها عن الغارة الانتقامية وكان الراى العام لايزال متخلفا بالنسبة للمقاتلين ضد العرب ، فقد كان لايزال هناك كثيرون جدا ممن لم يستطيعوا التوفيق بين هذه الأساليب وبين « نقاء الاسلحة » وأعلن بن جوريون فى حديث خاص بالاذاعة ان « حكومة اسرائيل تنفى بشدة الرواية الزائفة والخيالية التى تقول بأن ستمائة من جنود الجيش الاسرائيلى اشتركوا فى عملية ضد قرية (قيبة) . لقد بحثنا الحقائق بالتفصيل وباستطاعتنا أن نذكر أنه لم تتغيب عن الثكنات أى وحدة ولا حتى أصغر الوحدات فى الليلة التى وقع فيها الهجوم على (قيبة) . وأصر رئيس الوزراء على ان المستوطنين فى منطقة الحدود هم الذين قاموا بهذه العملية ، « ومعظمهم من اللاجئين اليهود القادمين من الدول العربية أو ممن نجوا من معسكرات الاعتقال النازية » وان العملية كانت بمثابة رد فعل متهور لمقتل أم وطفليها. وأصبح هذا هو التفسير الرسمى لجميع غارات الوحدة ١٠١ ، على أنه بمرور الوقت أدرك الرأى العام الحقيقة ومع حلول شهر مارس عام ١٩٥٥ أعلنت الحكومة بطريقة تكاد تكون رسمية للعالم أنه « ليس هناك طيش او تهور فيما يتعلق بالغارات القاتلة عبر الحدود وعلى العكس ، سياسة الغارات الانتقامية هى ثمرة تفكير سياسى وسيكولوجى مدروس بعيد عن العاطفة » (٢٠) . ولم تكن الوحدة ١٠١ قوة كبيرة على الاطلاق ، وكانت تتكون بأكملها من متطوعين ولكنها أصبحت مثلا دائما وراسخا وقد انشئت لتكون (ترياقا) للبالماخ ولكنه (الفيروس) الذى حملته ليقى بعض المقاومة ويسجل كتاب المظليين عن أحد الجندين سريعى الحساسية أنه « كان يرفض بوصفه عضوا سابقا فى البالماخ يؤمن بنقاء الأسلحة ، الاشتراك فى أى عملية ليست موجهة ضد جنود العدو وانما ضد السكان المدنيين . ولم يجبره أريك (شارون) على الاشتراك فى مثل هذه العمليات وأثناء مناقشة حامية وجه اليه شلومو باوم (معاون شارون) الملاحظة التالية : « ليست هناك أسلحة نقية أو غير نقية هناك فقط اسلحة نظيفة تعمل عندما تحتاج

اليهـا وأسلحة قذرة تتعطل فى اللحظة التى تطلقهـا » (٢١) . وبالرغم من المقاومة سرعان ما انتشر (الضروس) فبعد ثلاثة أشهر من حادث (قيبة) تم ادماج الوحدة ١٠١ بناء على مبادرة من ديان ، مع سلاح المظلات الذى انشيء حديثا . وعلى حد قول شارون الذى تولى قيادة القوة المشتركة كان ديان يدرك ما للوحدة الصغيرة من تأثير حاسم على القوة المحمولة جوا (المظليين) ، وأيضا على (زاحال) بأكمله فيما بعد .. ويمكن للمرء ان يقول ان أيديولوجية العمليات الانتقامية قد تبلورت من جميع النواحى بين القوات المحمولة جوا » . (٢٢)

والحقيقة ان الجيش خضع تدريجيا لنفوذ وقيادة رجال الوحدة ١٠١ والقوات المحمولة جوا . واختفت روح واساليب البالماخ ـ ولم تكن البالماخ معتدلة لتحل على روح وأساليب الأرجون . وفى الوقت نفسه انتشرت حول الوحدة ١٠١ هالة من أسطورة البطولة فى أرجاء البلاد كلها ، كان محورها هو مائير هارب زيون المقاتل ضد العرب غير العادى . اذ أن ذلك الفدائى الشاب كان يشترك بمعدل مرتين او ثلاثة فى الأسبوع ، وعلى مدى اشهر متواصلة ، فى الغارات الانتقامية الليلية ، حيث كان يتولى « باختصار قتل الجنود والفلاحين وسكان المدن العرب بغزارة لا يشوبها حقد » (٢٣) . وكان يدخل تغييرات على الأسلوب الروتينى الرتيب ففى احـدى المرات عبر الحدود مع رفاقه وقبض على ستة من العرب ، وقتل خمسة منهم بمدية فى حين كان الآخرون يرقبون المشهد ، وترك السـادس حيـا لكى يروى القصة » (٢٤) . كما ان العادات الخاصة التى كان يقوم بها كشفت فى ميله الطبيعى لنفس هذا الأسلوب ففى احدى الأجازات شعر بالملل ، فقام بغارة خاطفة بالغة الجرأة والخطر داخل عمق أراضى العدو . وفى طريق عودته للقدس قتل جنديا عربيا بالرصاص بيد بدوى اثناء احدى الغارات الخاصة التى كانت تقوم بهـا داخل أراضى العـدو . وانتقم هارب زيون لمقتلها بقتل اثنين من البـدو اعتبر ان لهما صلة بمقتلها . وفى النهـاية أصيب بجرح خطير اثناء القتال ، وتم انقاذ حياته عن طريق اجراء عملية استئصال للقصبة الهوائية بواسطة مطواة وسط ميدان المعركة . وتسجل مذكراته وأحاديثه الصحفية الوفيرة ، قصـة رجل يستطيع أن يصف باستمتـاع يتسم بالسخرية والواقعية شعورة عندما يطعن راعيا عربيا بالسـكين فى ظهره ـ ويوصى كل شخص يرغب فى أن يستمتع بذلك « الاحساس الرائع

السامى » الناتج عن « ادراكك لرجولتك » ، ان يستخدم المدية فى القتل بدلا من البندقية . (٢٥)

ان الاعجاب الشديد الذى يصل الى حد العبادة والذى ناله هار ـزيون كان رسميا وشعبيا . فقد كان الوزراء والجنرالات يمجدونه باعتباره « مثلا » للشباب الاسرائيلى « ورمز القتال » للجيش الاسرائيلى بأكمله واحتل مكانة لا تنالها يد القانون فعندما قتل البدويين ، ألقى القبض عليه وكان من الممكن توجيه تهمة القتل اليه ولكن اطلق سراحه دون محاكمة ، بناء على تدخل بن جوريون شخصيا (٢٦) . وعندما أصبح شبه مقعد

واضطر للتقاعد ، أهدوه قطعة ضخمة من أرض العرب المصادرة تقع فوق جبل كوكب الذى يطل على بحر الجليل . وقد أنشأ فى تلك البقعة المنعزلة التى لا تبعد كثيرا عن الكيبوتز القديمة التىنشأ بها ـ مزرعة خاصة للماشية ، وأخذ يستضيف الجنود الذين كانوا يفدون كالحجاج ، لرؤيته والتعبير عن اعجابهم به . ويقول فى ومياته « لقد نشأت طقوس كاملة حول (كوكب) ، اذ أنهم كانوا يصلون بعد مسيرة تستمر يوما وليلة . وفى نهاية المسيرة كانت شارة الوحدة توزع على الجنود . وكان هدف المسيرة هو المزرعة . لقد اصبح الصعود اليها تقليدا فهى قمة يجب على المرء الوصول اليها » (٢٧) .

العرب الذين بقوا فى البلاد :

كان ابعاد الفلسطينيين الموجودين خارج اسرائيل عملا تأديبيا تماما ، فى حين كان اخضاع الفلسطينيين الموجودين داخلها عملا تأديبيا ، وهادفا لان الفلسطينيين الذين بقوا فى البلاد لم يكونوا مجرد مشكلة امن ، بل ان وجودهم ذاته كان يشكل عقبة أمام تحقيق رسالة الصهيونية التاريخية .

لقد تحكم العسكريون فى حياة الاقلية العربية فى اسرائيل ولم يكن العنف المسلح المباشر اسلوبهم المميز ، وان لم تختف تماما ، بل اكتفوا بالقوة والقهر . ومع ذلك واجهوا مشقة بالغة . لقد وصفت اسرائيل نفسها بأنها القاعدة الأمامية «للعالم الحر» الذى تعتمد عليه اعتمادا كبيرا وانها « حصن للديمقراطية فى منطقة تفتقر الى هذا الامر . كانت اسرائيل دولة نشأت فى الظاهر على القانون والعدالة والانسانية ولم يكن هنالك مكان للاضطهاد العنصرى والدينى ـ وهو الكأس المر الذى شرب منه اليهود كثيرا ، فى الدولة اليهودية . وقد وعدت الدولة فى اعلان الاستقلال بتحقيق « المساواة الكاملة

فى الحقوق الاجتماعية والسياسية لجميع مواطنيها ، دون تمييز بسبب عقيدة أو عنصر أو جنس » . وهكذا بدأ الحال فى الظاهر على انه عند التطبيق كان بعض المواطنين أكثر مساواة من غيرهم . ولم تظهر كلمة : (عربى ويهودى) فى مجموعة القوانين ابدا ولكن عند تطبيق القانون ، كان هناك مجموعة من المبادىء لنوع من المواطنين الاسرائيليين ومجموعة مبادىء اخرى للنوع الآخر . وقد خلف هذا الوضع ، فى رأى من يبحثون الأمور بتعمق ويدافعون عما يرونه » لغة مزدوجة « و « تفكير مزدوجا » وصفه احد المدافعين عن الحقوق المدنية فى اسرائيل بانه ضريبة « أورويل » التى يتعين على اسرائيل ان تدفعها لمبدأ الديمقراطية » (٢٨) .

وكانت الأسس القانونية للحكم العسكرى الذى خضع له الفلسطينيون داخل اسرائيل ، هى لوائح للدفاع الصادرة سنة ١٩٤٥ . وقد وضعها البريطانيون وكان أول من تحمل وطأتها الجالية اليهودية التى كانت ثائرة فى ذلك الوقت على الانتداب . وقد أثار تطبيقها عاصفة من الاحتجاج كما وصفها الدكتور يعقوب شيمسون شابيرا ، الذى أصبح فيما بعد وزيرا للعدل فى اسرائيل — بأنها « لا مثيل لها فى اية دولة متحضرة ، ولا توجد قوانين شبيهة بها حتى فى المانيا النازية . . وهناك فى الواقع شكل واحد من أشكال الحكم يشبه النظام المطبق هنا حاليا — هو وضع البلاد المحتلة . وهم يحاولون تهدئتنا بالقول بأن هذه القوانين موجهة ضد المجرمين فقط لا ضد المواطنين الشرفاء ولكن الحاكم النازى لأوسلو المحتلة كان هو الاخر يعلن ان المواطنين الذين يهتمون بشئونهم الخاصة لن يلحقهم اى ضرر . ومن واجبنا ان نعلن للعالم بأسره ان قوانين الدفاع التى أصدرتها حكومة الانتداب البريطانى فى فلسطين تحطم اسس العدالة فى هذه البلاد » (٢٩) . ولم تلغ اسرائيل بعد عام ١٩٤٨ هذا النظام الذى « يبيح الارهاب بصورة رسمية » وهو الوصف الذى أطلقه شخص آخر أصبح وزير العدل فيما بعد على لوائح الدفاع . بل انها طبقت هذه اللوائح — بتشدد أكبر — ضد العرب و فى ظل هذه القوانين يستطيع الجيش اذا أراد انتزاع جاليات بأكملها من أرضها ، وترحيلها أو نقلها من مكان لآخر ، كما يستطيع أن يفرض حظر تجول لأجل غير مسمى ويقيم مناطق أمن لا يستطيع أى عربى دخولها بدون تصريح، ويستولى على ويدمر او يصادر الممتلكات ، ويدخل اى مكان ويفتشه ، ويسجن أى شخص بدون محاكمة أو يأمره بعدم مغادرة منزله أو حيه أو قريته ويمنع أو يقيد حركته داخل أو خارج اسرائيل أو يطرده من موطنه دون تقديم أى تبرير . وكان السبيل الوحيد للانصاف — وهو الشكوى للمحكمة العسكرية — امرا عقيما تماما . وبعد ان تسلحت السلطات العسكرية بهذه السلطات الوحشية،

لم تضيع وقتا فى استقلالها . ولعل العنف المباشر الذى يهدف أساسا الى توقيع العقاب لم يكن اسلوبها المميز ، على أنه لا يوجد مثال يكشف مدى ماساة العرب اوضح من تلك المناسبة المشهورة التى استخدم فيها هذا النوع من العنف . ويذكر العرب (كفر قاسم) باعتبارها مذبحة (دين ياسين) أخرى قامت بها الدولة المعترف بها رسميا ولعل رد الإفعل الذي خلقه الحادث لا يوضح الكثير مثل الحادث نفسه ففى يوم ٢٩ أكتوبر من عام ١٩٥٦ أى عشية الغزو الاسرائيلى لمصر ، فرضت فصيلة من حرس الحدود حظر التجول فى القرى القريبة من الحدود الأردنية ومن بينها قرية (كفر قاسم) . ولم يتم إخطار مختار القريه بحظر التجول الا قبل الموعد المحدد لسريان حظر التجول بنصف ساعة فقط . ولهذا تعذر عليه تبليغ الرسالة الى سكان القرية الذين سيعودون مع غروب الشمس الى بيوتهم من أماكن عملهم المختلفة . وقد توقع الميجور شمويل ملينكى قائد الفصيلة هذا الاحتمال واستفسر من رئيسه البريجادير يشيشكار شاد عما يجب اتخاذه ازاء الأشخاص الذين يعودون الى منازلهم وهم يجهلون حظر التجول . فرد عليه البريجادير بقوله : « لا اريد اية عواطف هذا امر مؤسف بالنسبة لهم » (٣٠) . ولم تكن هناك بالفعل أى عواطف . ففى الساعة الاولى من حظر التجول اى ما بين الساعة الخامسة والسادسة قتل حرس الحدود سبعة وأربعين قرويا . وكان هؤلاء عائدين الى منازلهم فرادى أو فى جماعات وكان بعضهم عائدا سيرا على الاقدام ولكن الغالبية كانت تركب الدراجات أو العربات التى تجرها البغال أو اللوريات . وكان بينهم نساء وأطفال . على أن كل ما اهتم به رجال حرس الحدود هو ان يسألوهم عن كونهم من سكان كفر قاسم . لأنهم اذا كانوا من سكان القرية اعتبروا مخالفين لحظر التجول وبمجرد ان يتأكدوا من ذلك كانوا يطلقون عليهم نيران الاسلحة الاتوماتيكية من مسافة قريبة ومن بين كل مجموعة من العمال العائدين قتل البعض وجرح البعض الاخر ، ونجح عدد قليل جدا منهم فى الهرب دون أن يصاب بأذى . وارتفعت نسبة القتلى حتى دخلت المجموعة الأخيرة التى كانت تضم ١٤ امرأة وصبيا و ٤ رجال فقتل الجميع باستثناء فتاة صغيرة اصيبت بجراح خطيرة (٣١) . وكان من الممكن ان تستمر المذبحة بهذا المعدل لو لم يقم الملازم جافريل داهان الضابط الموجود بالمنطقة بابلاغ القيادة عدة مرات بجهاز اللاسلكى بسيارة الجيب بعدد القتلى وتختلف الآراء بشأن الرقم الذى ذكره فى تقاريره « قتل خمسة عشر » « وقتل الكثيرون — من الصعب احصاء عددهم » ، وتلقى الكابتن ليبقى التقريرين الاخرين الذين تتابعا بسرعة ونقلهما الى ملينكى . وعندما تم ابلاغه بان هناك خمسة عشر قتيلا فى كفر قاسم أصدر ملينكى اوامره التى لم يتمكن

ابلاغها الى راهان قبل أن يصل التقرير الذى يبلغ عن «مقتل الكثيرين — ومن الصعب احصاء عددهم » ، بوقف اطلاق النار واتخاذ اجراء اكثر اعتدالا فى المنطقة كلها . . وانهى هذا الامر اخيرا اراقة الدماء فى (كفر قاسم) (٣٢) . وقد تم اثبات ذلك كله فى المحاكمة التى اضطرت الحكومة الى اجرائها بعد ان تسربت اخبار الفضيحة تدريجيا . وكانت المحاكمة صورية ولم تشهد قاعة المحكمة أى مشاعر الغضب بسبب هـذه الانتهاكات ولم ترتفع أى أصوات خارجها ايضا باستثناء بعض الاصوات القليلة . واثناء سير المحاكمة ذكرت صحيفة (ها آرتس) ان الضباط والجنود الاحد عشر الذين يحاكمون بسبب مذبحة (كفر قاسم) زادت مرتباتهم بنسبة ٥٠ ٪ واوفد رسول خاص الى القدس ليحضر (الشيكات) الى المتهمين فى موعد مناسب قبل حلول عيد الفصح ومنح بعض المتهمين اجازة بمناسبة العيد . . ويختلط المتهمون ، فى حرية مع جمهور المشاهدين للمحاكمة ويربت الضابط على ظهورهم وهم يبتسمون وبعضهم يصافحونهم . ومن الواضح ان هؤلاء الاشخاص لايعاملون معاملة المجرمين بل معاملة الأبطال (٢٣) .

وذكرت الانباء ان ديفيد جولد فيلد قد استقال من شركة الامن احتجاجا على المحاكمة . وطبقا لما نشرته صحيفة (جويش فيوزلتر) عكست شهادته راى غالبية الاسرائيليين : « اننى اشعر ان العرب هم اعداء دولتنا . . وعندما ذهبت الى (كفر قاسم) شعرت اننى اقاوم العدو ولم اميز بين العـرب الموجودين فى اسرائيل والعرب الموجودين خارج حدودها . وعندما سئل عما يفعله اذا التقى بامراة عربية لا تشكل أى تهديد للامن على الاطلاق وكانت تحاول الوصـول الى بيتها ، رد قائلا : « اطلق النار عليها على الفـور ولا استسلم للعواطف ، فقد تلقيت امرا ويجب ان انفذه » (٢٤) . وكانت الاحكام ضرورية أيضا . اذ حكم على ملينكى بالسجن لمدة سبعة عشر عاما وعلى دهان بالسجن لمدة خمسة عشر عاما ، ولكن كانت النتيجة المحتومة انهما سيقضيان جزءا ضئيلا فقط من مدة العقوبة . واستجابت المحكمة العسكرية العليا للالتماسات المقدمة للعفو عنهما ، وقررت تخفيف الحكم « القاسى » . واحتذاء بهذا المثل الكريم اسهم رئيس الاركان ثم رئيس الدولة واخيرا لجنة اطلاق سراح المسجونين فى تخفيف الحكم حتى اطلق سراح ملينكى ودهان خلال عام من صدور الحكم عليهما ، اما البريمادير شادمى — الضابط الكبير « الذى لا يستسلم للعواطف » فقد اعتبرته محكمة عسكرية خاصة مذنبا بشأن « خطأ فنى » ، ووجهت له اللوم وحكمت عليه بغرامة قدرها قرش صاغ واحد . على ان العذاب الاكبر جاء بعد ذلك . فبعد تسعة أشهر من اطلاق سراح داهان الذى أدين بقتل ٤٣ عربيا خلال ساعة واحدة، تم تعيينه

« ضابطا مسئولا عن الشئون العربية » في مدينة الرملة (٣٥) . وكان آخر ما عرف عن الميجور ملينكي هو انه حصل عن طريق أصدقائه ذوي النفوذ في الكنيست ، على تصريح ، يسعى الكثير من المتعهدين جاهدين للحصول عليه ، بإقامة مركز سياحي في جنوب اسرائيل (٣٦) .

ولننتقل الآن الى تلك المجالات ، الاخرى التي استخدمت فيها السلطات العسكرية سلطاتها الوحشية ـ بمساعدة وتحريض الادارة المدنيه . لقد كان هدف الصهيونية الاساسي دائما هو الاستيلاء على الارض . وبديهي أن الدوله الجديدة استولت على جميع الاراضي التي تركها الفلسطينيون الذين غادروا اسرائيل ، ولكنها استولت أيضا على أراضي الفلسطينيين الذين بقوا داخل اسرائيل . وتبلغ مساحتها نحو مليون دونم (٣٧) . وفي عام ١٩٤٨ كان ٥ ٪ مساحة الارض التي تسيطر عليها اسرائيل ما يزال في أيدي العرب . ومع حلول عام ١٩٦٧ ، ونشوب الحرب التي ادت الى وقوع المساحة الباقية من أرض فلسطين ـ وتبلغ ٢٠ ٪ من المساحة الكلية تحت السيطرة الاسرائيلية ـ انخفضت هذه النسبة لتصل الى ١ ٪ فقط (٣٨) . وقد أظهر الصهيونيون الى أي حد يمكن أن تقسو قلوبهم ضد الاخرين ، وهم يخدمون مصالح شعبهم ، وذلك من خلال عمليات الازعاج والارهاب المنظمة التي قاموا بها ضد البقية القليلة المذكورة من جالية دمروها وشنقوها .

ففي السنوات الاولى ـ حيث كانت أساليب وقف الحرب ما زالت حية في أذهانهم كانت السلطات تقوم في أغلب الأحيـــان بتطهير الارض بالطريقة السريعة والسهلة فكانت ترسل الجيش لطرد السكان اما الى ما وراء الحدود واما الى اجزاء اخرى من اسرائيل وهكذا ظلت (عسقلان) حتى اواخر صيف ١٩٥٠ قرية عربية ـ وظلت كذلك على الاقل حتى صباح ذلك اليوم الذي وصل فيه الجنود ، ووضعوا جميع السكان في عربات نقل حملتهم الى حدود غزة ، وبعد اطلاق بعض طلقات الرصاص في الهواء لارهابهم أمروهم بالمضي وبالانضمام الى اللاجئين الذين اجتازوا هذا الطريق منذ عامين (٣٩) . وكان هذا الاجراء قانونيا بمقتضى لوائح الدفاع . على أنه أساء لسمعة اسرائيـــل اذ كان العالم حساسا بالنسبة لمشـــكلة اللاجئين . وكانت الدول العربيـــة تستغل المشكلة وهكذا لما كانت اسرائيل دولة يسودها حكم القانون سنت تشريعات توفر أساسا قانونيا سليما لعمليات نزع الملكية التي كانت قد تمت بالفعل وتلك التي ستتم في المستقبل . وكان القـــانون الاول في سلسلة التشريعات ـ وهو قانون الاستيلاء على ممتلكات الغائبين لعام ١٩٥٠ ـ وسيلة بارعة ذات اثر رجعي اذ كان الغائبون في معظم الحالات ، هم النازحين الذين

لا يستطيعون العودة ولذلك يقوم الحارس على ممتلكات الغائبين بالاستيلاء على ممتلكاتهم ، وتتمثل مهمة هذا الحارس في الظاهر في رعاية الممتلكات لحين التوصل الى حل لمشكلة اللاجئين بأكملها ولكن مهمته الحقيقية كانت تسليم هذه الممتلكات الى السلطات المعنية لتستوطن فيها اليهود بصفة دائمة وبكن من الممكن اعتبار الموجودين داخل اسرائيل غائبين أيضا وهم يعرفون باسم « الموجودين — الغائبين » ويعتبر العدد الحقيقي لهذه الفئة سرا عسكريا مصونا ، ولكنه يصل الى عشرات الآلاف (٤٠) . وكان من السهل جدا على الحارس أن يصف شخصا بانه « موجود غنب » . لذا كان القانون الجديد يعني بان اى شخص رحل عن محل اقامته المعتاد في الفترة ما بين ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ واول سبتمبر ١٩٤٨ الى أى مكان خارج فلسطين أو أى مكان داخل فلسطين يقع خارج السيطرة اليهودية ، يعتبر غائبا — ولا اهمية لكونه موجودا بالفعل فى اسرائيل وكونه مواطنا كاملا فى « حصن الديمقراطية » ولم يكن القروى البسيط فى الجليل يملك القدرة على معرفة الغيب ، ولم يكن يدرك أيضا ان تلك « الجريمة » التى ارتكبها قبل عامين من تحولها الى جريمة فعلية يمكن أن تؤدى الى مصادرة جميع ممتلكاته الدنيوية بيوته وحقوله — ومنحها لشخص أجنبى تماما وافد من وراء البحار ولا أهمية للفترة التي قضاها بعيدا عن محل اقامته ، فربما كانت يوما واحدا فقط ولا اهمية للسبب الذى غادر المكان من أجله فربما ذهب ليشترى بعض الماشية ومما سهل مهمة الحارس أكثر من ذلك انه لم يكن ملزما بتقديم دليل يثبت غياب الشخص المعنى اذ تكفى تحرياته الخاصة اذا اعلن بناء على تحرياته ، أن شخصا ما أصبح غائبا ، لا يملك احد أن يناقضه القول ، اذ « لا يجوز مناقشته بشأن مصادر المعلومات التى جعلته يصدر قراره ، وذلك بمقتضى هذا القانون .

وحتى اذا إرتكب الحارس خطأ ما ، واعترف بذلك فقد عالج القانون هذا الامر ايضا « لا يجوز الغاء اى اتفاق يتم ابرامه بصورة تلقائية بين الحارس وطرف آخر بشأن ممتلكات يعتقد الحارس انها ممتلكات شخص غائب وذلك فى وقت ابرام الاتفاق ، ولكن الاتفاق يظل ساريا ونافذا حتى اذا ثبت بعد ذلك ان هذه الممتلكات لم تكن ممتلكات شخص غائب فى ذلك الوقت » (٤١) .

وهكذا أصبحت جاليات باكملها من الفلسطينيين الموجودين داخل اسرائيل فى حال تشبه تماما حال اللاجئين من اخواتهم وراء الحدود . ذلك انه خلال فترة الاشهر التسعة المذكورة — وهى فترة زمنية تعسفية ، تبدأ بصدور توصيات الامم المتحدة بالتقسيم ، وتخدم تماما اغراض اسرائيل — غادر عدد ضخم من الفلسطينيين أماكن اقامتهم المعتادة ، ولم يفعلوا ذلك

لاسباب تتعلق بالعمل او سعيا وراء المنفعة ،ولكنهم رأوا انه من الخطر عليهم البقاء فى أماكنهم . وكانوا يعتزمون العودة الى ديارهم بعد انتهاء القتال . ولكن حكامهم الجدد كان لهم رأى آخر . واذا قدر لهم أن يروا بيوتهم ثانية فانهم كانوا يجدون الغرباء يسكنون فيها ، واذا عادوا لحرث حقولهم مرة اخرى ، كانوا يفعلون ذلك وهم يعملون فى خدمة اولئك الغرباء . ولم يكن سكان المدن أسعد حالا . فربما انتقلت احدى العائلات التى أصابها الذعر لمدة عدة ايام الى حى آخر او الى بيت آخر عبر الشارع (٤٢) . فكان الحارس يعلن أنهم « موجودون غائبون » برغم ذلك . فهو رجل مبادىء . فما هو الفرق بين المدينة والريف ، بين عشرة امتار أو عشرة اميال ؟ وربما بدا الامر قاسيا وهو يأسف لذلك ولكن ما الذى يستطيع القيام به فى هذا الشأن ؟ ان القانون هو القانون ، على أى حال .

وهناك تشريع آخر — هو بنود الطوارىء لاستغلال المساحات غير المزروعة — حقق فائدة كبيرة لانه اتفق تماما مع لوائح الدفاع وشكل خليطا متجانسا من أسلوب العقاب واسلوب تحقيق الاغراض . وكان لهذا القانون على علاته ، هدف جدير بالثناء تماما . اذ انه خول وزير الزراعة سلطة الاستيلاء على الاراضى غير المزروعة وذلك مما يضمن زراعتها فعلا عندما لا « يقتنع الوزير بان مالك الارض قد بدأ او على وشك البدء فى زراعتها أو انه سيستمر فى زراعتها » . على أنه من الممكن أيضا استخدام نفس هذا القانون لتحقيق هدف آخر . فالاجراء المتبع بسيط للغاية . اذ يعلن وزير الدفاع بما لديه من قوانين يستند اليها ، ان مزرعة معينة ، انتقيت بعناية ، « منطقة مغلقة » ، وبذلك يصبح دخول هذه المنطقة بدون تصريح كتابى من الحاكم العسكرى جريمة خطيرة . ويجد الحاكم العسكرى نفسه عاجزا عن منح تلك التصاريح للمزارعين ، لأسباب تتعلق بالامن . وسرعان ما تصبح حقولهم « ارضا غير مزروعة » . وعندما يلاحظ وزير الزراعة ذلك ، فانه يتخذ اجراء سريعا « يضمن زراعتها » . وهو يفعل ذلك أما عن طريق « عمال يستخدمهم » أو « بتسليم الأرض الى طرف آخر يقوم بزراعتها » . وغالبا ما يكون هذا الطرف الاخر طبعا هو المستعمرة اليهودية المجاورة .

ومن الواضح ان بعض الاشخاص تمتعوا بقدر من المساواة اكبر مما تمتع به غيرهم ، عند تطبيق القانون الاسرائيلى . والحقيقة انه بدا أن بعض الناس كانوا فوق القانون تماما . وهذا على الاقل ما استنتجه بصورة منطقية سكان قرى الغبسية وكفار برعام المسيحية المسالمة ، التى اصبحت « منطقة

مغلقة » أيضا « وأصدرت المحكمة حكما لصـــالحهم : اذ قضت بضرورة عودتهم . وآثار ذلك غضب السلطات الشديد فقامت الطائرات التابعة لوزارة الدفاع الاسرائيلى بمهاجمة القريه واستمرت فى القصف حتى تحولت قريه كفــار برعام الى حطـــام ، وعنــدما عادت الطائرات الى قواعدها ســـالمة (٤٢) . وفى يوليو عام ١٩٥١ أصــدرت المحــكمة العليــا حكما لصالح قرية مسيحية اخرى هى قرية اكريت ، وكان سكان هذه القرية قد تلقوا امرا قبل ذلك بثلاثة اعوام بمغادرة بيوتهم « لمدة اسبوعين » حتى تنتهى العمليات العسكرية فى المنطقة وبعد صدور هذا الحكم وجدت الحكومـــة العسكرية مبررا جديدا لمنع السكان من العودة . ولجأ القرويون مرة اخرى الى المحكمة العليا ، التى قررت ان تنظر القضية فى جلسة ٦ فبراير ١٩٥٢ . ولكن قبل ذلك الموعد بشهر ونصف ، اى يوم عيد الميلاد بالتحديد ، نقلت وزارة الدفاع الاسرائيلى « مختار » هذه القريه المسيحية الى قمة تل قريب واجبرته على مشاهدة العرض الذى كانوا قد أعدوه له ـ وهو نسف منازل القرية بأكملها (٤٤) .

ولا حاجة بنا الى اقامة الدليل على انه مهما كان مدى ديمقراطية اسرائيل بالنسبة لليهود ، فانها كانت دولة استبدادية من جميع الجوانب بالنسبة للعرب . والاستبداد ، شأنه شأن الحرية لا يتجزأ ، فليس من المنتظر من حكومة تضطهد مواطنيها على هذا النحو فى احدى النواحى ـ عن طريق نهب اراضيهم وممتلكاتهم ـ ان تعاملهم معاملة أفضل فى النواحى الأخرى . ان اسرائيل تزعم دائما انها تهتم بمواطنيها من العرب مثلما ما تهتم بمواطنيها من اليهود ، وانهم ، فى الحقيقة ، افضل حالا ـ الى حد بعيد ـ منهم عما لو كانوا تحت الحكم العربى . ولكن صدور هذا الادعاء من جانب اسرائيل ـ وعــدم الاعتراض عليه الا من جانب فئة متطرفة مجنونة من مواطنيها اليهود المحبين للحرية ـ يؤكد صحة قانون طبيعى : هو ان التفكير المزدوج سيظل منتشرا دائما انتشار الشر الذى تسعى لاخفائه . وعلى سبيل المثال ، ما هو مصير اولئك المزارعين العرب الذين جردوا من ممتلكاتهم ؟ ان مجرد توجيه هــذا السؤال يؤدى الى فتح صندوق (باندورا) يمتلىء باشكال منوعة من المظالم ، اذ ان الحقيقة هى ان العرب اجبروا عمدا على ان يصبحوا (البروليتاريا) الكادحة فى المجتمع الاسرائيلى أو يصبحوا ـ بلغة التـــوراة التى يفضلها الصهيونيون غالبا ـ « حطابين وحاملى ماء » واذا استمر العرب فى زراعـة المساحة التى تبقت لهم من ارضهم ، فانهم يفعلون ذلك فى مواجهة سلسلة كاملة من الاجراءات المعوقة التى تهدف الى تدعيم الزراعة اليهـــودية على حسابهم ، والتى تجبرهم على بيع منتجاتهم بأسعار غير اقتصادية وتحرمهم

تمام، من المساعدات المالية والآلات الحديثة ومن الاستفادة من مشروعات اخرى . واذا تخلوا عن المقاومة وعملوا لدى السادة اليهود ، كان لزاما عليهم أن يعرضوا خدماتهم فى السوق السوداء التى تستغل كدهم أسوأ استغلال بل انهم حرموا من هذا فى نهاية الامر . اذ انه مع حلول الستينيات وجد الاف من العرب أنفسهم يعملون فى الارض التى كانت مملوكة لهم من قبل ، بالنيابة عن طبقة جديدة من « الافندية » اليهود ظهرت مع مرور الوقت ، نتيجة لضعف المثل الاعلى الصهيوني . ولذلك اصدر البرلمان فى عام ١٩٦٧ قانونا يهدف فى الحقيقة — وليس فى الظاهر ، حاشا الله — الى منع المواطنين العرب فى اسرائيل من زراعة « أرض الأمة » — حتى ان كانوا يزرعونها لصالح اليهود (٤٥) . وكان اتحاد نقابات العمال يرفض قبول العرب أعضاء به حتى عام ١٩٦٢ حينما بدأ فى قبولهم ولكن على نطاق ضيق . اذ كانت العقائد المتزمتة التى تقصر العمل على العمال العبرانيين — او « العمال المنظمين » ، كما أسماهم « الفكر المزدوج » . ما زالت هى السائدة . وكانت البطالة متفشية بين العرب . ولكن العرب الذين كانوا ينجحون فى الحصول على عمل كانوا عرضة للفصل فى اى وقت ، لأنهم ليسوا عمال منظمين . وكانوا يكلفون فى الغالب بأحط الاعمال وأقذرها . وعندما كانوا ينجحون فى الحصول على وظائف افضل ، يجدون ان مبدأ المساواة فى الاجور بين من يؤدون نفس الاعمال ليس مطبقا . واذا عثروا على أعمال فى المدن ، كما حدث للكثيرين منهم ، لم يستطيعوا العيش فيها ، وذلك بفضل لوائح الدفاع . ولذلك اصبحوا عمالا رحلا يضطرون الى قطع مسافات ضخمة يوميا للسفر الى قراهم والعودة منها — وان كان عمال البناء قد سمح لهم ، بصفة خاصة ، بقضاء الليل فى المبانى التى لم يكتمل بناؤها أو فى أماكن اقامة مؤقتة من هذا النوع . ولم يكن فى مقدور الاقلية العربية ان تسعى للحصول على انصاف جماعى من خلال النظام الديمقراطى الاسرائيلى ، ليس هناك مجال فى هذا النظام لاحزاب سياسية تمثل العرب ، ولا يمنح الفرصة للعرب لكى يتولوا مناصب تمنحهم نفوذا حقيقيا داخل الحكم والادارة ، وكانت « الادارة العربية » الموجودة فى جميع المؤسسات يرأسها يهودى . ويمكن للعرب الادلاء بأصواتهم فى الانتخابات بوصفهم أعضاء ثانويين فى الأحزاب اليهودية ، ومما كان الاسرائيليون يستعرضونه امام العالم الخارجى باعتبـاره دليلا على استنارتهم ، كانوا يعترفون احيانا فيما بينهم وبين أنفسهم بانه مهزلة و« صراع باسم العرب ، بين اليهود انفسهم ، ولصالح اليهود (٤٦) . وكان الكتاب أو المثقفون أو زعماء الجالية العرب الذين يبدون قدرا ضئيلا من روح الاستقلال يتعرضون « للاعتقال الادارى » ، أو تحدد اقامتهم فى بيوتهم أو ينفون الى

مكان قصى من البلاد . ولم يكن فى مقدور ، الآباء ، برغم تعاستهم ومأساتهم ان يتطلعوا الى توفير مستقبل افضل لأولادهم . اذ أن وضع العقبات المتعمدة امام تعليم العرب كان معناه ان كل تسعة من خريجى الجامعات من اليهود يقابلهم خريج واحد من العرب .

وسرعان ما أثبتت التفرقة العنصرية الصهيونية انها تتسم بنفس قسوة التفرقة العنصرية السائدة فى جنوب افريقيا ، بصرف النظر عن راى المرء فى دوافعها الاصلية . ولذلك بدا غريبا بعض الشيء انه على حين كان الرأى العام الغربى المستنير يدين التفرقة العنصرية فى مكان ما ، كأن يميل الى التغاضى عن هذه التفرقة بل ، يشيد بها فى مكان آخر . وكان احد الاسباب الرئيسية وراء ذلك هو بالطبع تلك الخطوة الراسخة غير العـــادية التى تمتعت بها الحركة الصهيونية على الدوام . وثمة سبب آخر هـــو انه فى حين كانت التفرقة العنصرية سافرة وصريحة وموضع فخر فى جنوب أفريقيا ، كانت التفرقة العنصرية مقنعة فى اسرائيل ، وذلك لان المواطنين الذين تضطهدهم يشكلون أقلية صغيرة ، ولا يشكلون اغلبية كبيرة . وهذا بدوره يرجع الى أن المقاتلين ضد العرب فى عام ١٩٤٨ وفيما بعد ، طردوا العرب من البلاد . فالمفارقة السافرة هنا هى أن التطرف الشديد الذى اتسم به هذا التصرف العنيف الواسع النطاق الذى وقع فى البداية ، هو نفســـه الذى ساعد فيما بعد على أن تبدو اسرائيل أقل تطرفا وأقل قهرا فى معاملتها للاقلية العربية التى بقيت فى البلاد . وكان أروع انتصار للمقاتلين ضد العرب مازال بيدا ـ ولكن هذا النصر قدر له فى هذه المرة أن يزيد من صـــعوبة اخفاء التفرقة العنصرية فى اسرائيل .

حروب التوسع :

كان بن جوريون ومعاونوه يرون ان « حرب الاستقلال » فى عام ١٩٤٨ لم تستكمل اهدافها . ولا حاجة بنا الى المبالغة فى الميول التوسعية الكامنة فى الصهيونية . وقد كان من المحتم ان تفرخ الصهيونية نصيبها من الاوهام الخيالية بعد المبالغة فى تمجيدها كعقيدة . على انه مهما كانت جدية التمسك بالتصورات الخاصة باقامة مملكة عبرية تمتد من النيل الى الفرات او تتعلق بتوسيع الحدود الى درجة كبيرة بصورة ممتدة من التوراة ، فان هذه الأفكار ترجع أساسا الى الايام الاولى للحركة التى اتسمت بالخيال . وعندما ادت مجموعة غير متوقعة من الظروف الدولية فجأة الى دخول الصهيونية عالم الممكن ، اضطر الساسة الذين استغلوا هذه الفرصة الى تحديد ما اعتبروه

قيودا واقعيــة على المطامح الصهيونيــة . وعلى الرغم من أن هذه المطامح كانت تبدو مبالغا فيها ــ فى نظر الجميع ما عدا الصهيونيين بالطبع ، ــ كانوا يثورون غضبا اذا اجبروا على الحد من هذه المطامح . وقد فكر الساسة جديا فى مسألة الاستيطان اليهودى الشامل فى الضفة الغربية لنهر الاردن ، وعندما أعلن ونستون تشرشل وزير المستعمرات ، فى عصر أحـد ايام عام ١٩٢١ ، منح صفة الدولة المستقلة التى تتمتع بحماية بريطانيا لامارة (شرق الأردن) ، الأمر الذى يعنى فصل الضفة الشرقية لنهر الاردن، عن فلسطين اعتبر الصهيونيون هذه الخطوة بمثابة ضربة خطيرة موجهة ضد وحدة أراضى « الوطن القومى » . وفى عام ١٩٤٨ أعلن بن جوريون ان الدولة الجديدة قامت على « جزء فقط من ارض اسرائيل » ، وتلت ذلك تعبيرات كثيرة عن الاسف لعدم استغلال الفرص الثورية بالكامل ، وهى الفرص التى اتيحت فى ذلك الوقت وربما لا تتكرر وقال بن جوريون « لقد كان من المحتمل أن تزيد مساحة اسرائيل ، لو ان موشى ديان كان رئيسا للاركان اثناء حرب عام ١٩٤٨ ضد العرب فى فلسطين » (٤٧) . ومن جهة اخرى ، كان من راى ايجال آلون منافس ديان وقائد البالماخ ان اللوم كله يقع على عاتق بن جوريون (الذى خضع للضغوط الدولية) . فعندما امر بن جوريون « بوقف تقدم جيشــنا ، الذى كان على وشك تحقيق النصر .. من نهر الليطانى (وهو نهر لبنانى يعتقد الصهيونيون دائما انه يصلح لتشكيل حدود مثالية) فى الشمال ، إلى صحراء سيناء فى الجنوب الغربى . ولو استمر القتال عدة أيام اخرى لتمكنا من تحرير البلاد بأكملهــا » (٤٩) . وسرعان ما اتضح ان التوســع بالنسبة لبن جوريون ، يعقب بصورة طبيعية « حرب الاستقلال » تماما كما يعقب النمو الولادة . اذ أعلن بن جوريون أن « الاحتفــاظ بالوضــع الراهن لا يكفى ــ فعلينا أن ننشىء دولة ديناميكية مصممة على التوسـع » (٥٠) ولم يكن الأمر مجرد توسع اقليمى . فان الفتوح العســكرية تؤدي الي أشكال أخري من النمو ــ فى الطاقة البشرية والثروة فى المكانة والثقة بالنفس والاقتناع الايديولوجى فقد كان من رأى بن جوريون أن النمو والديناميكية والاحتفاظ بروح الطوارىء على الدوام من الأمور الهــامة لأن العرب لن يعقدوا سلاما مع اسرائيل . ولن يظل العرب دائما ضعفاء كما هم الآن ، ولذلك يتعين على اسرائيل أن تجهض قوتهم أو أن تعزز قوتها ــ استعدادا لذلك اليــوم الذى يشعر فيــه العــرب انهم قادرون على الوفاء بوعدهم « بتحرير » فلسطين ــ أو أن تحقق الأمرين معا .

وبالرغم من «عروض السلام» المسرحية التى قدمها بن جوريون وكانت تقترن فى أغلب الأحوال بشن غارات انتقامية دموية ، كان السلام فى آخر قائمة الأولويات لدى بن جوريون ، طبقا لما كشفت عنه تصريحاته الخاصة التى تتميز بقدر أكبر من الصراحة حيث يقول : « اذا لم نستطع تحقيق السلام الحقيقى بعد عشرة أعوام أو عشرين عاما ، فبوسعنا تحمل هذا الوضع الذى سينطوى على بعض الفائدة أيضا » (٥١) ، وقد كشف باحث ودبلوماسى اسرائيلى عن هذه الفوائد بقدر أكبر من التفصيل .

« اذا ما استعدنا أحداث الماضى وتأملناه ، أدركنا ان تحقيق السلام مع العرب فى المراحل الأولى من قيام الدولة كان سيؤدى الى كارثة . فلم يكن من الممكن آنذاك ارغام نصف مليون يهودى يعيشون فى البلاد العربية على الهجرة الى اسرائيل وحتى ، اذا تحقق الســـلام فى عام ١٩٥٢ أو ١٩٥٣ مثلا ، فان هؤلاء المهاجرين المعدمين الذين نهبت ممتلكاتهم قبل وصولهم — بعد أن وصلوا الى اسرائيل وواجهوا ثقافة غير مألوفة بل معادية لهم وواجهوا أيضا عمليات تكيف اجتماعى وثقافى وغذائى — كانوا ســـيفضلون ، على أرجح احتمال ، العودة الى أوطانهم السابقة أو سيحتفظون ، — تحت تأثير الاختلاط الحر والسلمى مع العرب بثقافتهم القديمة التى تتعارض مع أمة اسرائيلية حديثة وقوية ومتجانسة وقادرة على البقاء . وربما ماكنا نجد شخصا واحدا يتحدث العبرية الآن فى بير سبع — أو حتى فى القــدس ، ولفقد الناس روح الأزمة والهدف . لقد كنا نقاتل فى تلك الأيام ، كما نقاتل الآن ، من أجل البقاء وخلق أمة متجانسة — ثقـافة واحدة ولغة واحدة . وقد أخضعنا كل شىء لذلك الهدف (٥٢) .

واذا كانت مهمة الصهيونية التى لم تستكمل قد أدت الى ذلك النوع من السلوك ، الذى يشكل ، وفقا للمعايير المتحضرة المعاصرة ، انتهاكا دائما للقانون والنظام الدوليين ، فان هذا الأمر لم يؤرق سوى ضمائر قليلة فى اسرائيل . فقد وضعت المؤسسة الاسرائيلية نظاما أخلاقيا خاصـا بها أسهم فيه طبقة رجال الدين ذوى الاهتمامات السياسية القوية ، بقــدر ما أسهم به رجال السياسة والصحافة ، والمثقفون عموما وكان من المحتم ان تتأصل الضراوة المقترنة الى حد بعيد باعتقــاد الاسرائيليين أنهم أقوم حلفا من الآخرين ، فى أمة يشجع ضميرها الرسمى هذا الأمر ، وضاعت ، ادراج الرياح ، أصـــوات القلة القليلة التى هاجمت الحاخامات الذين « يتحدثون بحماس عن الجيش والروح العسكرية ، ويثنون على أساليب

العنف المسلح ، ويصدقون على أن تصرفات الجيش الاسرائيلي تتفق مع تعاليم الدين اليهودى » (٥٢) . وليس هناك بالتأكيد جهة أفضل من الأمم المتحدة يمكن أن نحصل منها على حكم متحيز يحدد الطرف الأكثر عدوانية في الشرق الأوسط ، فاسرائيل نالت توبيخا ولوما من الجمعية القــائمة للامم المتحــدة ومجلس الأمن يفوق ما نالتــه اية دولة أخرى ، ولكنها لم تخجل ، بل كان ردها على ذلك دائما هو : انها لا تعترف للمنظمة ــ التى انشأت اسرائيل ــ بأية سلطان أدبى ، على أن الأمر الذى يفوق فى أهميتــه الادانات الرسمية التى تصدر آليا بفضل وجود كتلة تشــكل أغلبيــة الاصوات ، هو التجارب الشخصية التى مر بها الممثلون المخلصــون للامم المتحدة ولقد تناولنا بالفعل تجارب الكونت برنادوت . ويسجل لنا أيضــا من الجنود الذين اضطلعوا بخدمة الأمم المتحدة بعده ، تجاربهم فى كتب ألفوها بعد اكمال مهمتهم . ويتناول القائد الأمريكى هتسون ، والجنرال الكندى بيرنز والجنرال الســويدى فون هورن ، فى كتبهم فترة أثنى عشر عاما متواصلة من عمر مهمة حفظ الســلام التى تقوم بها الامم المتحــدة ، تبدأ من ١٩٥١ وتنتهى فى ١٩٦٣ . وكانت مهمتهم هى الاشراف على تنفيذ اتفاقيات الهدنة التى وضعت نهاية لحرب الاستقلال » .

ولم يكن من المفروض أن تكون خطوط الحدود الاقليمية التى حددتها اتفاقيات الهدنة التى وضعت لحرب الاستقلال » . ولم تكن من المفروض أن تكون خطوط الحدود الاقليمية التى حددتها فى اتفاقيات الهــدنة . هى الحدود النهائية لدولة اسرائيل ، حتى وان كان العالم أصبح يميل ، بمرور الوقت ، الى اعتبارها ، كذلك . وكانت مذكرات المراقبين تتقيد حرفيــا بمبادىء القانون وكان عليهم أن ينسوا كيف تم تحديد هــذه الخطوط ، وينسوا أنها تمثل مكسبا اسرائيليا خالصا فى مقابل خسارة عربية كاملة ، ووضعا راهنا قام بقوة الســلاح ولذلك ، اذ كان من الممكن اعتبــار ان حكما ما ، يتسم بالحذر فانه يكون حكم هؤلاء المراقبين . والحكم الذى يقدمونه لنا جميعهم ، فى كل صفحة من صفحات كتبهم تقريبا ، لا يتغير ، فهو يعد بمثابة اتهام مدمر لاسرائيل ــ اسرائيل التى لم تكتف بما حصلت عليه بقوة السلاح بل انتهكت باستمرار وبصورة متعمدة الشرعية الجديدة التى التزمت بها . ويقول الجنرال فون هورن ، فى معرض مقارنة يجريها بين العرب والاسرائيليين ، ان العاملين معه كانوا يتعرضون من وقت لآخر لقدر ما من العداء من جانب العرب « ولكنه عداء لم يكن يصل فى حــدته

الى ذلك العداء الحاقد المسعور الذى يتعرضون له من جانب الاسرائيليين ».
ويقول فون هورن « قد يكون من الصعب ارضاء العرب وقد يكونون غير متسامحين وقد يتعذر التعامل معهم فى أغلب الأحيان ولكن سلوكهم يستند الى مستوى أرفع وأكثر تحضرا بلا حدود » . وقال ان الجميع توصلوا الى هذا الاستنتاج الذى بدا غريبا لانه لم يكن بيننا شخص واحد ممن وصلوا الى الأرض المقدسة لا يتخذ موقفا ايجابيا ومتعاطفا للغاية بالنسبة للاسرائيليين وآمالهم بالنسبة لبلادهم ... وبعد عامين أو ثلاثة أعوام من الاتصالات اليومية مع المسئولين والجنود والأفراد العاديين من كلا الجانبين، حدث تغير ملحوظ فى موقفهم . وكلما سألهم عن الشىء الذى لا يعجبهم فى عملهم ، كان يتلقى نفس الرد دائما : « الغش والخداع المستمر من جانب الاسرائيليين (٥٤) » .

لقد خاضت اسرائيل حربين كبيرتين « من أجل النمو — تشكلان عودة الى أعمال العنف الهادف الشامل وقد صورتهما اسرائيل على أنهما حربان من أجل البقاء أو حربان من أجل السلام . وقد حققت انتصارات عسكرية مدمرة مرتين . ولكن الحرب الأولى — التى خاضتها ضد مصر فى عام ١٩٥٦ — لم تحقق سوى مكاسب ضئيلة على المدى البعيد ، اذا اضطرت اسرائيل الى التخلى عن جميع الأراضى التى استولت عليها . اذ ضاعت الفرصة ، وأخطأ بن جريون فى الحكم على الظروف الدبلوماسية . ورغم انه كان قد خطط للمغامرة بأكملها بالتواطؤ مع بريطانيا وفرنسا ، اللتين هاجمتا مصر أيضا ، — تخطى حدود تسامح الغرب ، وهو تسامح أمريكا فى هذه الحالة ولكن المكاسب البعيدة المدى التى حققتها اسرائيل فى « حربها الكبيرة » التالية — فى يونية عام ١٩٦٧ — كانت متكافئة مع انتصاراتها العسكرى . اذ أن الظروف الدبلوماسية كانت مثالية كأفضل ما تكون الظروف ، فقد انتظرت اسرائيل هذه المرة حتى حانت الفرصة الكاملة . وقد أثنى الرأى العام العالمى الغربى ثناء غامرا على الهجوم الاسرائيلى الخاطف الذى شنته بمفردها ضد مصر وسوريا والأردن ، ولم تخف الحكومة الأمريكية رضاءها . ومازالت اسرائيل تسيطر حتى يومنا هذا على مرتفعات الجولان والضفة الغربية ومعظم أراضى سيناء ، حيث تمضى فى تنفيذ مغامرة الصهيونية العظمى ، وذلك عن طريق نزع الملكية والاستيطان .

السويس ١٩٥٦ :

فى أوائل عام ١٩٥٥ ادرج بن جوريون مسألة الحرب مع مصر فى جدول أعماله . وكان ذلك عملا سياسيا مقصورا . اذ جاء فى كتاب المظليين ما يلى : « من المعترف به صراحة الآن انه لو كان الامر بيد بن جوريون ، لنشبت حرب سيناء قبل عام من التاريخ الذى نشبت فيه فعلا (٥٥) » . فقد كان بن جوريون يسعى عمدا الى الدخول فى مواجهة مع الدولة التى تستطيع ، باعتبارها أكبر قوة فى العالم العربى ، أن تفرض نفوذها الحاسم من أجل خوض الحرب أو اقرار السلام فى الشرق الأوسط . وكان يقوم بذلك فى وقت كان فيه رئيس مصر الشاب عبد الناصر يبذل بوضوح قصارى جهده — برغم مثاليته الثورية — من أجل المحافظة على السلام . وكان بن جوريون فى حاجة فقط الى ذريعة ، اذ كان قد قرر ، هو وأصدقاؤه ، كما اعترف ديان بعد ذلك ، بعدم تضييع أية فرصة مواتية من الناحية السياسية لتوجيه ضربة الى مصر (٥٦) » . وشرع بن جوريون بهدوء فى اختلاق هذه الفرصة . وقد جاءت هذه الفرصة كتطور طبيعى « لحرب صغيرة » ، اى غارات انتقامية متواصلة على غرار غارة (قبية) وكان الهدف منها أكبر كثيرا من مجرد تثبيط همة الغزاة الفلسطينيين . ويفسر موشى بريليانت ذلك الامر فى مقال بعنوان « سياسة الأعمال الانتقامية الاسرائيلية » . بقوله ان الاساس المنطقى لهذه الأعمال له جذور عميقة فى التجربة الصهيونية . ففى عهد الانتداب البريطانى ، نال قدرا كبيرا من المديح بسبب تمسكهم « بضبط النفس » ، ولكنهم جلبوا على أنفسهم كارثة . وعندئذ لجأوا الى استخدام « البارود والديناميت » . واكتشفوا ان تلك الوسيلة — رغم انها جلبت عليهم الاستهجان الدولى ، « منحتهم أيضا .. فى نهاية الامر الجائزة المنشودة وهى قيام دولتهم . ولم ينس الاسرائيليون هذا الدرس مطلقا ونادرا ما وقعت « حوادث الحدود » الدموية بطريق المصادفة .. بل كانت جزءا من خطة متعمدة لاجبار العرب على الجلوس الى مائدة الصلح . « وكل خطوة خطاها العرب على مضض ، منذ عام ١٩٤٨ ، بعيدا عن طريق الحرب الساخنة وفى اتجاه السلام ، قاموا بها عندما ضيق عليهم الخناق (٧٥) » .

وفى فبراير عام ١٩٥٥ هاجم الجيش الاسرائيلى المواقع العسكريةالمصرية الامامية فى غزة . وقتل فى الهجوم ٣٩ مصريا . وحتى وقوع ذلك الهجوم كانت الحدود فى هذه المنطقة أحدا حدود اسرائيل . ولم يقع الهجوم بطريق

المصادفة . وكما كان الصهاينة يتهمون الزعماء و « الافندية » الفلسطينيين في العهود الماضية ، باثاره مشاعر الكراهيه ضدهم ، وجهوا نفس هذه الاتهامات هذه المرة ايضا ضد الزعماء العرب . وأصبح الرئيس عبد الناصر بطل الوحدة العربيه الجديد ، المرشح الواضح ، ليكون الغول المخيف لاسرائيل ولم تكن هذه السمعة صحيحة على الاطلاق : اذ ان التشدد العربى الحقيقى كان دائما من صفات الشعب وليس من صفات الساسة فقد ظل الحكام المصريون يحاولون جاهدين طيلة ستة أعوام ، في السنوات الأخيرة من حكم فاروق والسنوات الأولى من الثورة ، تجنب اتخاذ مواقف متشددة . اذ كانوا يرون انه لا يجب السماح لاسرائيل بان تصرفهم ، عن المشكلات الداخلية القريبة . وقد نجح الرئيس عبد الناصر فى اقناع الزوار الغربيين — ومن بينهم أولئك الموالون بشدة لاسرائيل مثل السياسي البريطاني ريتشارد كروسمان — بأنه مسالم بالفعل تماما كما يبدو . « واثناء عودتى بالسيارة الى القاهرة فى تلك الليلة لم استطع مغالبة التفكير في أنه ينبغي على الشرق بأكمله ، لا مصر وحدها ، أن يصلى من أجل نجاة عبد الناصر من رصاص الاغتيال واننى على ثقة من أنه رجل يعنى ما يقوله وأنه طالما في السلطة يقود ثورة الطبقة المتوسطة ، ستظل مصر عاملا من عوامل السلام والتنمية الاجتماعية (٥٨) » . وكان احد العوامل التي ادت الى قيام هذه الثورة ، مهانة الهزيمة المصرية فى عام ١٩٤٨ ، وقد عزا الضباط المصريون ، ومن بينهم عبد الناصر ، هذه الهزيمة الى الاسلحة الفاسدة التى أرسلهم بها نظام الحكم الفاسد الي المعركة . على انه لم يقم بمحاولة جدية من أجل تقليل الهوة التى تفصل بينه وبين اسرائيل المتقدمة تماما فى مجال التسليح وفضل اتفاق موارد مصر الضئيلةمن العملة الصعبة لخير بلاده المتخلفة المكتظة بالسكان .

ولعله ليس بالامر الغريب ، وان كان ينطوى على مخادعة ، الا يذكر الزعماء الاسرائيليون مثل بن جوريون وديان غارة غزة فى تسجيلهم لأحداث تلك الفترة . وقد وصفها عبد الناصر بأنها « نقطة تحول » ، وتتفق معه فى ذلك جميع المراجع المستقلة . لقد جعلته هذه الغارة هدفا لضغوط مكثفة لا من جانب العرب عامة ، فحسب بل من جانب الجهات المعنية بصورة مباشرة وهى جيشه واللاجئون فى قطاع غزة — وقد استطاع الجنرال بيرنز رئيس أركان قوات الامم المتحدة أن يتفهم ، بوصفه جنديا ، مشكلة عبد الناصر مع جيشه تفهما يتسم بالتعاطف .

« قبل وقوع الغارة مباشرة كان عبد الناصر قد زار غزة وأخبر قواته بأنه ليس هناك خطر من نشوب الحرب ، وان خط الهدنة فى غزة لن يصبح ميدان معركة . وبعد ذلك قتل الكثير منهم وهم نائمون فى فراشهم . ولم يعد عبد الناصر يستطيع المجازفة بأخبار قواته الا يخشوا من وقوع هجوم عليهم ، ولم يعد يستطيع أيضا ان يجعلهم يعتقدون أن بمقدورهم تخفيف حالة التأهب . ولهذا السبب لم يستطع اصدار وتنفيذ أوامر مشـــددة بعدم فتح النيران على الدوريات الاسرائيلية التى كانت تتحرك على طول خط الحدود على بعد ١٠٠ متر أو أقل من المواقع المصرية . فقد كان يمثل هذه المواقع الآن أصدقاء وربما أقارب الرجال الذين قتلوا فى الكمين الاسرائيلى الذى حدث فى تلك الليلة الرامية (٥٩) » . ولم يكن هناك سـوى وسيلة واحدة لاسـكات الضجة التى اثارها قـواده مطالبين بالسـلاح : الا وهى تزويدهم به وقد اتخذ عبد الناصر هذا القرار ليلة الغارة التى لم يغمض له جفن خلالها ، وحتى قبل أن تتلاشى أصوات آخر الانفجارات (٦٠) . وفى البداية سعى للحصول على أسلحة غربية وأمريكية بصفة خاصة وبكميات قليلة جعلت الرئيس ايزنهاور يقول متعجبا عندما رأى قائمة الطلبات « مـا هذا ، ان هـذه كميات تافهة » . وكانت المخابرات الغـربية مقتنعة بأنه ليست لديه أية نية لشن هجوم ــ حتى لو كان واثقا من تحقيق نصر سريع سـهل . ولم يتزعزع هـذا الاقناع حتى عنـدما رفض الأمريكيون الذين يتصفون بالتخبط وقصر النظر طلبه . وبدأ يتفاوض من أجل صفقة الأسلحة التشيكيـة الشـهيرة التى كانت بمثابة أول تقدم كبير يقوم به الاتحـاد السوفيتى فى الصراع من أجل تقويض النفوذ الغربى فى الشرق الأوسط (٦٢) أما اللاجئون فقد كان هناك ما يزيد على ثلاثمائة الف منهم ، يعيشون فى حالة من العوز والبطالة ويكنون مشاعر الحقد لاسرائيل ولما كانوا محصورين بين البحر والصحراء وخطوط الهدنة لم يكن أمامهم سـوى التطلع شرقا الى الحقول الواسعة التى كانوا يمتلكونها فى وقت ما والتى يفلحها الاسرائيليون من سلسلة المستعمرات تحمى المرتفعات الموجودة فى المنطقة الممتدة وراءها وكان هؤلاء اللاجئون أيضا « متسللين » وكذلك كان أيضا سـبعة آلاف بدوى طردهم الاسرائيليون الى ما وراء الحدود منـذ عـام ١٩٤٨ (٦٣) . فهؤلاء وقد عبروا الحدود متحدين السياسة الرسمية للدولة العربية التى وجدوا انفسهم يعيشـون داخل أراضيها . وقد ظلوا لسـنوات طويلة يطلبون الأسلحة وبانشاء « ميليشـيا » ولم يقدم المصريون سـوى بعض التصريحات المشجعة وقد غيرت غارة غزة كل ذلك . اذ عبر الفلسطينيون

عن مشاعر الغضب الشديدة بالقيام بأعمال شغب ومظاهرات استمرت ثلاثة أيام وهددت استقرار نظام حكم جديد لم يتمتع بعد بالأمن الكافى . ومع شروق الشمس على مدينة غزة قام مائتا شاب باقتحام المنشآت المصرية ومنشآت الأمم المتحدة وحطموا النوافذ واحرقوا السيارات وداسوا الاعلام بأقدامهم وفى اليوم التالى امتدت أعمال العنف التى قام بها الغوغاء الى (خان يونس ورفح) حيث أحرق اللاجئون تماما مخزن المؤن التابع للامم المتحدة وألقوا الحجارة على عربات اللورى التى تحمل الجنود المصريين ووجهوا لهم عبارات السباب . وكانوا يصيحون «السلاح» ، أعطونا سلاحا وسوف ندافع عن أنفسنا (٦٤) . وكان القرار الثانى الذى اتخذه عبد الناصر فى أعقاب غارة غزة هو تحويل عمليات التسلل ــ التى كانت حتى ذلك الوقت لا تلقى تشجيعا وكان المتسللون يقومون بها على مسئوليتهم الى ادارة من ادارات السياسة المصرية . وهكذا سمع العالم لأول مرة فى اغسطس عام ١٩٥٥ كلمة (الفدائيين) ــ أى أولئك الذين يضحون بأنفسهم ــ والكلمة تشير الى الفلسطينين الذين يرسلون لشن غارات داخل اسرائيل .

وقد قام هؤلاء الفدائيون بأول غارة فى نفس اليوم الذى تعهد فيه عبد الناصر اخيرا بشراء اسلحة سوفيتية ــ ونجح الفدائيون ، فى هذه الغارة فى التغلغل الى مسافة تقرب من ٢٧ ميلا داخل أراضى العدو حيث ظلوا يقومون على مدى أسبوع كامل بنصب كمائن وزرع الغام وشن هجمات ضد الأفراد والعربات والمبانى ، وقد قتل فى هذه الحوادث خمسة جنود مدنيين (٦٥) . على أن عبد الناصر لم يكن حتى ذلك الوقت وفيما بعد ، قد سمح للفدائيين بالتحرك الا تحت ضغط من الرأى العام فى بلاده فى أعقاب استفزازات جديدة من جانب اسرائيل ــ استفزازات واجهها فى البداية بلفتات تتسم بالمصالحة مثل سحب الجنود الموجودين على خط المواجهة (٦٦) .

وكانت تلك الغارات والأسلحة الروسية لمصر هى ما يحتاج اليه بن جوريون بالضبط اذ قال أن « جيوش عماليق » يعاد تسليمها فى مصر (٦٧) . وان صفقة الأسلحة التشيكية (الخطيرة) والتى فرضها هو نفسه بالفعل على عبد الناصر قد ابرمت « بغرض واحد فقط ــ هو تدمير دولة اسرائيل وشعب اسرائيل (٦٨) » . واعتبرت أقل بادرة عنف مصرى تحدث فى الوقت الذى كانت فيه مناوشات الحدود تسفر عن خسائر فى الأرواح بين العرب تبلغ خمسة أمثال خسائر الاسرائيليين (٦٩) . ــ بمثابة مؤامرة شريرة وشائنة .. وسوف تواجه بقوة يهودية قادرة .. على ضرب

اى معتدى أو عدو بحيث لا يمكن أن تقوم له قائمة مرة أخرى مثلما حدث في عملية يواب (ضد مصر) فى عام ١٩٤٨ وعملية غزة منذ شهر مضى (٧٠) وتنبأ بن جوريون ـ متحديا جميع الدلائل بأنه اذا لم يتم ابرام تسوية سلمية فان مصر سوف تهاجم اسرائيل خلال خمسة أشهر أو تسعة (٧١) لقد كان الطريق المؤدى من الحرب الخفية لمناوشات الحدود الى « حرب السويس السافرة » طريقا قصيرا كما جاء فيما بعد فى كتاب المظليين ففى أكتوبر من عام ١٩٥٥ أصدر بن جوريون أوامره الى رئيس أركان الجنرال ديان بالاستعداد للاستيلاء على مضيق تيران وبعد ذلك بوقت قصير ندد بن جوريون ـ فى الكنيست بانتهاكات مصر لاتفاقيات الهدنة وحدد ثلاثة أنواع من الانتهاكات ومما لا شك فيه أن غارات الفدائيين كانت تعد انتهاكا وكانت اتفاقيات الهدنة لا تتضمن بندا واحدا يحظر على مصر اغلاق المضيق أو قناة السويس فى وجه الملاحة الاسرائيلية ـ وأعلن بن جوريون أن هذه الحرب التى تشن من جانب واحد يجب ان تتوقف ، لأنها لا يمكن ان تطل من جانب واحد الى الابد (٧٣) وطبقا لرأى ديان كان ذلك بمثابة دعوة للحرب خلال وقت قصير ، وقد حث هو شخصيا على الحرب خلال شهر . فربما ينشأ موقف ، فى يوم من هذه الأيام ، يجعل القيام بعمل عسكرى أمرا ممكنا ولكن ذلك سيكون وليد المصادفة البحتة ولكن بن جوريون لم يكن قد نجح بعد فى التغلب على مقاومة « الحمائم » فى الحكومة ، الذين قرروا ، عندما اطلعهم على خطط الحرب ، أن « الوقت ليس ملائما (٧٥) » .

وفى يونية من عام ١٩٥٦ ، تم عزل موشى شاريت وزير الخارجية ، وهو ابرز الحمائم ، من منصبه ، وذلك بعد جدل طويل مرير . وحلت محله جولدا مائير ، ويقول كتاب المظليين عن ذلك انه تم تعديل السياسة الخارجية الأسرائيلية لتتمشى مع الخط المتشدد النشط الذى ينتهجه وزير الدفاع (٧٦) وبعد ذلك بشهر واحد حانت المناسبة السعيدة أخيرا ، وهى الحدث الذى اقنع دولتين غربيتين هما بريطانيا وفرنسا بتجربة خطتهما بالاشتراك مع الاسرائيليين . ويسجل كتاب المظليين انه فى يوم ٢٧ يوليه أعلن عبد الناصر تأميم شركة قناة السويس أمام الجماهير المتحمسة فى الاسكندرية . وقد استهل ذلك ، دون ان يدرى ، حملة السويس (٧٧) . ففى ٢٩ اكتوبر ، قام الجيش الاسرائيلى بمساندة سرية من البريطانيين والفرنسيين المتواطئين معه ، بغزو سيناء والاستيلاء عليها بالكامل ، ومن ضمنها جزيرة تيران الواقعة فى خليج العقبة ، وذلك فى غضون أربعة أيام وأصدرت الحكومتان البريطانية والفرنسية انذارا نهائيا زائفا الى الجانبين ، تطالبهما فيه بسحب قواتهما من ضفتى القناة ، ثم أرسلتا قواتهما بعد ذلك ، وكان هدفهما فى

الظاهر احتلال المجرى المائى وتأمينه للملاحة الدولية ، ولكنهما كانتا تأملان فى الحقيقة الاطاحة بالرجل الذى امم القنــاة . واذا كان بن جوريون وهو يمهد الأساس الدبلوماسى لهجومه الشامل ضد مصر ، قـد قضى أهدافه بصورة خبيثة على وضع حد « لانتهاكات » مصر لاتفاقيات الهدنة ، وتحقيق السلام ، فان مناحم بيجين وحزبه المعارض ــ حزب حيروت (ارجــون سابقا ، لم يلتزما بمثل تلك الضوابط . اذا كان بيجين قد حث البرلمان ، قبل الحرب بعام كامل ، على « شن حرب وقائية ضد الدول العربية دون تأخر . واذا فعلنا ذلك فسوف نحقق هدفين أولهما القضاء على القــوة العربية ، وثانيهما توســيع رقعة بلادنا (٧٨) . على انه بعد ذلك النصر الساحق ، لم يضيع بن جوريون وحزب العمل الحاكم الذى يرأسه وقتا فى « اللحاق » بالمتطرفين الذين كان زعيمهم يعلن الآن انه يؤيد حكومته قائلا : « بكل قلبى وروحى (٧٩) » . وحتى أكثر الأحــزاب اعتدالا ، مثل حــزب مابام اليسارى لم يتخلف عن أعلان تأييده . وتفتحت ، بدرجات متفاوتة شهية الجميع للتوسع . وعندما طلبت الولايات المتحــدة من اسرائيل ان تنسحب ، ثار غضب بن جوريون وأعلن « لقد احتفظ اليهــود باستقلالهم حتى منتصف القرن السادس فى جزيرة يوتفان (وهو الاســم الذى اطلقه المنتصرون على جزيرة تيران) الواقعة جنوب خليج ايلات والتى قام الجيش الاسرائيلى بتحريرها أمس .. ان اسرائيل تعتبر قطاع غزة جزءا لايتجزأ من الأمة . ولن تستطيع اية قوة مهما كان اسمها ، حمل اسرائيل على الجلاء عن سيناء ــ فقد تحققت نبوءة أشعياء النبى (٨٠) » .

من سوء حظ بن جــوريون ان الذريعة التى اختلقها بعنــاية لم تقنــع الأمريكيين . فسرعان ما نجـــح الرئيس ايزنهــاور فى حمــل البريطانيين والفرنسيين على الانسحاب وذلك بأنه قطع عنهم امدادات البترول ، ولكنه احتاج الى ستة أشهر لكى يحمل اسرائيــل على الجلاء عن جميــع الأراضى المصرية . ولم ينجح فى ذلك الا بعد التهديد بفرض عقوبات اقتصادية ضدها من جانب الدول الأعضــاء فى الأمم المتحدة وتســـاءل ايزنهاور فى حديث تليفزيونى : « هل يسمح لدولة تهاجم وتحتل أراضى دولة اخرى رغم عدم موافقة الأمم المتحدة على ذلك ــ بفرض شروط بشأن انسحابها ؟ اننا وافقنا على أن يحقق المعتدى هدفه عن طريق الاعتداء المســلح ، فاننى أخشى من اننا نكون بذلك قد اعدنا عقارب ساعة النظام الدولى الى الوراء » .

على أن اسرائيل حققت شرطا واحدا ، تافها وهو رفع الحصار المصرى المفروض على الملاحة الاسرائيلية فى مضيق تيران ، وقد اصــبح ذلك فيما بعد ذريعة استخدمها القاتلون ضد العرب لشن « الحرب الكبيرة » التالية .

ملاحظات ومراجع الفصل السادس :

(١) فيري ، « اسرائيل بلا صهيونيين : نداء من أجل السلام في الشرق الاوسط » . نفس المرجع ، ص ١٣٤ .

(٢) أنظر ص ١٠٤ — ١٠٥ .

(٣) بن جوريون ، « لبعث والمصير » نفس المرجع ص ٧٦ ، ٧٧ .

(٤) ليلينتال ، الفريد ، « ماهو الثمن يا اسرائيل » نفس المرجع ص ٢١٠ — ٢١١ .

(٥) نفس المصدر ٢١٠ .

(٦) جاباى ، رونى ، التاريخ السياسى للصراع العربى — اليهودى ، مشكلة اللاجئين العرب » ، دورز ، جنيف ، ١٩٥٩ ، ص ١٠٩ .

(٧) من موشى شاريت وزير الخارجية الاسرائيلى الى الامم المتحدة .

(٨) انظر بار — زوهار ، مايكل ، « النبى المسلح » ، برنتيس هول ، لندن ١٩٦٧ ، ص ١٥٧ .

(٩) أنظر وانيستوك ، « الصهيونية يقارى اسرائيل » نفس المرجع ص ٤١١ .

(١٠) جلبارى ، نفس المرجع ص ١٠٩ .

(١٢) جلوب ، سيرجون باجوت ، « جندى مع العرب » ، هودير وستاوتون ١٩٥٦ ، ص ١٢٠ — ١٢١ .

(١٢) جلوب ، سيرجون باجوت ، « جندى مع العرب » ، هودير وستاوتون لندن ، ١٩٥٧ ، ص ٢٤٥ .

(١٣) نفس المرجع ، ص ٢٠٤ .

(١٤) ها آرتس ، ٢٢ سبتمبر ١٩٦٨ ، انظر بن يوسا ، امينناى ، « نشرة خريجى الجامعة الامريكية العرب » رقم ١ ، منقولة فى لجنة اعلام المرأة العربية ، بيروت ، ملحق ، يونية ١٩٧١ .

(١٥) « كتاب المظليين » ، (باللغة العبرية) ، تل ابيب ، ١٩٦٩ ، ص ٦٠ ، مذكور فى « اسرائيل الاخرى » ، دابلداى ، اعداد بوبر ، آرى ، نيويورك ، ١٩٧٢ ، ص ٦٨

(١٦) صحيفة جيروزاليم بوست ، ٣١ أكتوبر ١٩٦٥ .

(١٧) انظر « اسرائيل الاخرى » ، نفس المرجع ، ص ٧٧ .

(١٨) هتشيسون ، نفس المرجع ، ص ١٥٢ — ٥٨ .

(١٩) لاف ، « السيويس ، الحرب التى خوضها مرتين » ، نفس المرجع ، ص ٥٤ .

(٢٠) فى مقال فى مجلة ((هاربر)) بعنوان ((سياسة الانتقام الاسرائيلية)) بقلم موشى بريليانانت وهو مواطن امريكى مقيم فى اسرائيل ويعمل مراسـلا لجريدة نيويورك تايمز ((وجريدة)) جيروزالبم بوست المعبرة عن رأى حزب العمل الحاكم الذى يرأسه بن جوريون والتى تصدر باللغة الانجليزية . وهـذا المقال الذى يكاد يكون اعتذارا علينا ورسـميا فى الاعمال الانتقامية ، قد أجزه الرعيب العسكرى .

(٢١) انظر ((اسرائيل الاخرى)) ، نفس المرجع ص ٢٢ .

(٢٢) شارون ، اريل ، ((مقدمه)) ، الكتاب مائير هارت زيون ((فصول من يوميات)) ، تل أبيب ، ١٩٦٩ ، ص ١٦ ، مذكور فى ((اسرائيل الاخرى)) نفس المرجع ص ٦٨ .

(٢٣) ايلون ، ((الاسرائيليين ، المؤسسون والابناء)) نفس المرجع ص ٢٤١ .

(٢٤) يوميات موشى شاديت ، معاريف ، ٢٨ يونية ١٩٧٤ ، انظر شاهاك ، اسرائيل ، مجلة ميدل ايست انترناشينال — يناير ١٩٧٥ .

(٢٥) ها آرتس ، ٩ نوفمبر ١٩٦٥ ، انظر شـاهاك ، اسرائيـل ، وداقير ، يورى ، ((مجلة الدراسات الفلسطينية)) ، المجلد ٤ ، العدد الثانى ، ١٩٧٥ ، ص ١٥٥ .

(٢٦) ايلون ، نفس المرجع ، ص ٢٤٢ .

(٢٧) اسرائيل الاخرى ، نفس المرجع ، ص ٧٢ .

(٢٨) من يوسا ، آميتاى ، نفس المرجع ، ص ٢ .

(٢٩) جريس ، صبرى ، ((العرب فى اسرائيل)) ، معهـد الدراسات الفلسطينية ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ٤ .

(٣٠) احكام محكمة القاطعة الملتحقة بالحكمة العسكرية التابعة لجيش الدفاع الاسرائيلى انظر جريس ، نفس المرجع المشار اليه ، ص ٩٨ .

(٣١) نفس المصدر ، ص ١٠٢ .

(٣٢) نفس المصـدر .

(٣٣) ١١ ابريل ١٩٥٧ .

(٣٤) مجلة جويس نيوز لبيتر ، ٨ يوليه ١٩٥٧ .

(٣٥) جريس ، نفس المرجع ، ص ١١١ .

(٣٦) هاعولام هازية ، ١١ فبراير ١٩٧٠ .

(٣٧) جريس ، نفس المرجع ، ص ٨١ .

(٣٨) كانان ، هنرى ، ((فلسـطين والعـرب واسرائيل)) ، لونجمانز ، جرين وشركاه ، لندن ، ١٩٦٩ ، ص ٥٨ ، انظر ((لوموند)) ، ٣ مارس ١٩٧٦ .

(٣٩) بنى بوسا ، آميتاى ، نفس المرجع ، ص ٣ .

(٤٠) نفس المصدر ، ص ١ .

(٤١) جريس ، نفس المرجع ، ص ٦١ .

(٤٢) بن يوسا ، آميتاى ، نفس المرجع ، ص ٧٢ .

(٤٣) جريس ، نفس المرجع ، ص ٧٢ .

(٤٤) نفس المصدر ، ص ٦٧ .

(٤٥) نفس المصدر ، ص ٧٠ .

(٤٦) جريس ، صبرى ، ((تشريعات الكنيست الاخيرة والعرب فى فلسـطين)) ، ((مجلة الدراسات الفلسطينية)) ، بيروت ، المجلد الاول ، العدد الاول ١٩٧١ .

(٤٧) ها آرتس ، ١٤ يناير ١٩٦٦ .
(٤٨) بن جوريون ، نفس المرجع ، ص ٤٦٦ .
(٤٩) نيويورك تايمز ، ٩ مارس ١٩٦٤ .
(٥٠) بن جوريون ، نفس المرجع ، ص ٤١٩ .
(٥١) السوب ، جوزيف ، « مجلة سان جوزية ميركيورى » ، ١٦ يونيه ١٩٥٦ .
(٥٢) لاف ، نفس المرجع ، ص ٥٢ .
(٥٣) نيو ، يناير ١٩٥٦ ، اقتباس في كتاب ابراهيم العابد « العنف والسلام » مركز الابحاث الفلسطينية ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ٣٤ .
(٥٤) هون ، الجنرال كارل فون ، « الجندية في خدمة السلام » كاسل ، لندن ١٩٦٦ ، ص ٢٨٣ — ٨٤ .
(٥٥) انظر اسرائيل الاخرى ، نفس المرجع ، ص ٧٠ .
(٥٦) ديان ، موشى ، « يوميات حملة سيناء » وايد نفلت ونيكولسون ، لندن ١٩٦٦ ، ص ٣٧ .
(٥٧) مجلة هاربر ، مارس ١٩٥٥ ، انظر ص ١٨٠ — ٨٢ .
(٥٨) « رجل الدولة الجديد والدولة الجديدة » ، لندن ، ٢٢ يناير ١٩٥٥ .
(٥٩) بيرنز ، الجنرال ا.ل.ن ، « بين العربي والاسرائيلى » ، هاربر ، لندن ، ١٩٦٢ ، ص ١٨ .
(٦٠) لاف ، نفس المرجع ، ص ٢٠ .
(٦١) نفس المصدر ، ص ٨٨ .
(٦٢) نفس المصدر ، ص ١٠٠ .
(٦٣) نفس المصدر ، ص ٦١ .
(٦٤) نفس المصدر ، ص ٨٣ .
(٦٥) نفس المصدر ، ص ٩٥ .
(٦٦) نفس المصدر ، ص ٩٩ ، ١٠٧ .
(٦٧) نفس المصدر ، ص ١٢١ .
(٦٨) نفس المصدر ، ص ١٠٢ .
(٦٩) نفس المصدر ، ص ٦٨ .
(٧٠) نفس المصدر ، ص ٨٩ .
(٧١) نفس المصدر ، ص ١١٥ .
(٧٢) انظر ، اسرائيل الاخرى ، نفس المرجع ، ص ٧١ .
(٧٣) لاف ، نفس المرجع ، ص ١٠٦ .
(٧٤) ديان ، نفس المرجع ، ص ١٤ .
(٧٤) لاف ، نفس المرجع ، ص ١٠٦ .
(٧٦) انظر ، اسرائيل الاخرى ، نفس المرجع ، ص ٧١ .
(٧٧) نفس المصدر ، ص ٧١ .
(٧٨) ١٢ أكتوبر ١٩٥٥ .
(٧٩) ميثوحين ، انحطاط الديانة اليهودية في عصرنا .
(٨٠) نفس المصدر ، ص ١٨٠ .

الفصل السابع
اسرائيل الكبرى
حرب الأيام الستة لسنة ١٩٦٧

كان لابد أن يحاول « المقاتلون ضد العرب » مرة أخرى ويقول كينيث لعرف المراسل السابق للنيويورك تايمز الذى كتب التاريخ الدقيق لحرب السويس .

« . . منذ اللحظة التى أدركت فيها اسرائيل أنه يجب عليها ان تنسحب قدرت ان سيناء هى ميدان المعركة القادمة انعاجلا أو آجلا . وبدات عملية وضع خطط الحرب الجديدة فى اعقاب الحرب السابقة مباشرة .. وكانت حرب ١٩٥٦ . بمثابة «بروفة» لسنة ١٩٦٧ . ولم يكن قد مضى على وضع خطط الحرب السابقة سوى عام واحد . عندما تم تجربتها عمليا . ونضجت الخطط قبل ١٩٦٧ بفترة طويلة ووصلت الى درجة قريبة من الكمال ، ولم يبق امامها كما كان الحال سنة ١٩٥٦ ، سوى توفر الظروف الملائمة وصدور قرار سياسى لتنفيذها عمليا » .

وكانت للروح القتالية الفطرية لاسرائيل تدفعها فى بداية ١٩٦٧ نحو اتخاذ مثل هذا القرار . ويمكن القول بأنها كانت بحاجة الى نشوب حرب . فقد كانت تعانى من أعنف أزمة اقتصادية تمر بها منذ نشأتها ، ووصلت نسبة البطالة الى ١٠٪ ، بينما انخفض معدل النمو بدرجة حادة ، وبدات المعونات المالية من يهود المهجر فى التمنوب ، والأسوأ من كل هذا ان معدلات الهجرة من اسرائيل بدات تفوق معدلات الهجرة اليها — وهو معيار دل بالطبع ، أكثر من أى شى آخر ، على أن الأزمة الاقتصادية انما هى أزمة الصهيونية ذاتها . وكان هذا هو النذير الذى بنى عليه الجنرال ينزير — وهو جندى امتدت آراؤه الصائبة الى آفاق أوسع من فنون الحرب ، بنوعية فى ١٩٦٢ « لقد اعتاد قادة اسرائيل على ارجاع متاعبها الاقتصادية الى المقاطعة التجارية والاقتصادية التى تفرضها الدول العربية ، والضغط التى تمارسها تلك الدول على البلاد الاخرى من اجل الحد من تجارتها مع أسرائيل . ويبدو لى أن هناك فى مثل هذه الظروف اغراء كبير لايجاد ذريعة

للجوء الحرب ومن ثم كسر الحصار والمقاطعة ــ ولفرض السلام وفقا لشروط اسرائيل » . وكان يؤمن بانه اذا ما شعرت اسرائيل بالحاجة الى التوسع خارج حدودها القائمة ، فان ــ القوات المسلحة الاسرائيلية الواثقة تماما من قدرتها على قهر أى واحدة من الدول العربية المحيطة باسرائيل أو قهرها كلها ، بسهولة وبسرعة ، ستؤدى تلك المهمة بحماس .

وكما جاء فى « كتاب جنود قوات المظلات » كان المقاتل الاسرائيلى قد نضج :

« كانت عمليات الردع من ١٩٦٥ : ٦٦ تختلف عن تلك التى سبقت حملة سيناء . فلم تعد تلك العمليات مجرد أعمال انتقامية ، تتسم بالوحشية والعصبية ، من جانب دولة صغيرة تقاتل دفاعا عن استقلالها بل كانت على العكس من ذلك عبارة عن ضربات توجهها دولة قوية واثقة من نفسها ، ولا تخشى الجيش الذى تواجهه » .

ولم يكن المثل الأعلى المطروح على الشباب هو كراهية العدو ، بل احتقاره واحتل الطيار وخاصة الطيار الذى يقود قاذفة قنابل ، منزلة رجل المظلات او الجندى المشاه . وكان من الشائع أن تجد من بين الكتب التى يقرأها الضباط الاسرائيلية قبل النوم ، فى الخمسينيات ، كتاب الكساندر بنك « رجال بالفيلوف » ، وهو من الأعمال الادبية السوفيتية التى تتناول الحرب العالمية الثانية ويروى عملية تدريب وحدة هجومية فى حين أن قراءاتهم ، فى الستينيات تحولت الى بطولات قائدى قاذفات القنابل « الذين أصبحت الحرب بالنسبة لهم هواية ، وشيئا ثانويا يقبله المرء بهدوء » .

وعلى ذلك كان كل ما يتطلبه اطلاق آلة الحرب الاسرائيلية هو توافر الظروف الملائمة ، وفى ٢٣ مايو ، توفرت تلك الظروف . وكانت الساعة الرابعة من صباح ذلك اليوم الذى أيقظ فيه الجنرال اسحاق رابين ، رئيس الأركان الاسرائيلى رئيس الوزراء ليفى أشكول ليبلغه أن الرئيس عبد الناصر قد قرر اعادة فرض الحصار على العقبة . وبعد ساعات قليلة عقد مجلس الوزراء جلسة طارئة . وكانت وجهة النظر الاسرائيلية أن عبد الناصر قد اعلن الحرب فى الواقع .

وكان هذا التحدى فى الواقع ، أمرا لا يمكن تحمله . ولم يكن هذا لان اسرائيل تواجه عملية خنق اقتصادى . فان اغلاق مضيق تيران فى وجه كل السفن الاسرائيلية وفى وجه سفن الدول الأخرى المتجهة الى ايلات حاملة

المواد الاستراتيجية لم يكن سيترك من الناحية الاقتصادية أثرا فوريا كبيرا . فأن ٥٪ فقط من التجارة الخارجية الاسرائيلية كانت تمر بايلات ، وكان بترول ايران هو المادة الاستراتيجية الأساسية ولكن كان من السهل على اسرائيل أن تحصل عليه عن طريق حيفا وكان من الممكن تعويض أى ضرر يلحق بها نتيجة لاغلاق المضيق ، بما عرضه الرئيس جونسون من دعم لحياتها الاقتصادية — وذلك بغرض كبح جماح اسرائيل . وكانت العواقب الطويلة الأجل خطيرة بكل تأكيد ، اذ ان اسرائيل كانت تنوى الاستفادة من الأسواق الجديدة أو الموسعة فى أفريقيا وآسيا ، عن طريق ايلات . ولكن كان الشىء الذى لا يمكن تحمله يكمن فى مكان آخر . فلاول مرة انتزع العرب زمام المبادرة من اسرائيل . ولأول مرة فرضوا عليها الامر الواقع .

(هذا بالرغم من أن النطاق الحقيقى للحصار وجديته مثار جدل ، اذ كانت تصريحات الزعماء المصريين العلنية، تختلف تماما عن تصرفاتهم سرا . فقد أصدر المشير عبد الحكيم عامر فيما يبدو أوامر الى قواته بعدم التعرض لأى سفن اسرائيلية أو لأى قطع من الاسطول أو أى سفن فى حراسة الاسطول) (٦) . واذا ارتكبوا ذلك بدون عقاب فمن الممكن أن يقدموا على عمل آخر دون عقاب ، وعندئذ ستبدأ الدولة اليهودية التى تكونت نتيجة لتراكم ألف من مثل هذه الحقائق الثابتة ، فى الذبول وسيكون ذلك — بداية تراجع الصهيونية . ولم يكن الاسرائيليون بحاجة الى أن يقول لهم عبد الناصر ذلك . ولكنه فعل هذا على أى حال . ولم تعد المسألة متعلقة بخليج العقبة أو مضيق تيران ، بل أصبحت مسألة « طرد العرب من فلسطين وسلبهم حقوقهم وممتلكاتهم .. وتجاهل كل قرارات الأمم المتحدة المؤيدة لشعب فلسطين » . كانت القضية الفلسطينية بأسرها قد بعثت من جديد وانتعشت ثقة جميع العرب ، وكما استطعنا اعادة أوضاع ما قبل سنة ١٩٥٦ تماما ، سنستطيع بعون الله وبكل تأكيد اعادة الوضع السابق لسنة ١٩٤٨ (٧) .

وعلى الرغم من أن فرض الحصار كان فى الوقت نفسه هو الفرصة الممتازة، فان فرض هذا الأمر الواقع من جانب مصر لم يكن أمرا غير مشروع وان كان تعسفا . وكان المصريون قد ظلوا يصبرون بعد ١٩٥٦ على أن المضيق يقع داخل نطاق المياه الاقليمية المصرية . وفى الواقع كانت مطالبة اسرائيل بحق المرور فى المياه الاقليمية أمرا مشكوك فيه ، وكانت مطالبتها تقوم على اساس امتلاكها لشريط ضيق على الساحل استولت عليه ،

باعتراف الإسرائيليين انفسهم ، بواسطة « واحـد من تلك الانتهـاكات المحسوبة (لوقف اطلاق النار) التي كان علينا أن نقومها تقويما دقيقا في مواجهة المخاطر السياسية (٨) » .

وقد حدث هذا سنة ١٩٤٩ ، عندما شقت دورية اسرائيلية ، في المراحل الأخيرة من حرب الاستقلال ، طريقها جنوبا ، متحدية وقف اطلاق النـار الذى تشرف عليه الأمم المتحدة ، نحو أم رشراش ، وهى قرية عربية صغيرة ونقطة للبوليس وطردت سكانها واقيم ميناء ايلات فى مكانها .

غير ان المشكلة كانت تكمن في الواقع في أنه على حين كان المصريون يؤكدون حقهم القانونى اذعنوا للامر الواقع السياسى الذى فرضته اسرائيل عليهم ، حيث سمحوا للسـفن الاسرائيلية بالمرور تحت الحماية الرمزية لحفنة من قوات الأمم المتحدة التى حلت القوات المصرية فى شرم الشيخ . وصحيح ان الأمريكيين قد أمروا على أن يكون الانسـحاب الاسرائيلى غـير مشروط ، الا أن معارضة الاسرائيليين كانت من العنف بحيث اضطرت واشنطن الى تأكيد اعتقادها بأنه يمكن للسفن الاسرائيلية ، بمجرد تحقيق هذا الانسحاب غير المشروط ظاهريا ، أن تتمتع بحرية الملاحة « فى المضيق الذى يعتبر من وجهة نظرها » « مياها دولية » (٩) .

ولم يكن هذا ضمانا قويا من جانب أمريكا بأنها ستحافظ على بقـاء المضيق مفتوحا . ولكن كافيا لضمان عدم اعتراض أمريكا على اسرائيل اذا ما لجأت للحرب لاعادة فتح المضـيق اذا ما أغلقه المصريون مرة أخـرى . وكان التحيز الأمريكى لاسرائيل فى عهد الرئيس جونسون ــ الذى قاد عندما كان عضوا بمجلس الشيوخ معارض معارض الديمقراطيين بالكونجرس لتهديد ايزنهاور بفرض عقوبات تحيزا صارخا . ولم يكن العداء للرئيس عبد الناصر وللحكومات الثورية الأخرى فى العالم العربى الميالة للسوفيت ، أقل ضراوة .

داوود فى مواجهة جوليات :

لم يكن الرأى العام الغربى أقل تحيزا ، خاصة عنـدما بدأت الجيوش العربية ، فى أعقاب فرض عبد الناصر للامر الواقع ، تتدفق على اسرائيـل من كل جانب أو هكذا بدا الأمر ، وسط ضجيج رهيب من الخطب المتبجحة وترددت فى أنحـاء أوربا وامريكا فى اواخر مايو وأوائل يونيو ١٩٦٧ أكثر الشعارات اثارة فى اللغة السياسـية الغربيـة ، مثل « الابادة الجماعية »

« ميزنج » ، « العرب النازيين » « عبد النـاسر هتلر الجـديد » . ولم يحدث من قبل فى التاريخ كله أن اشترك كل هذا العدد الضخم من الأشخاص بعواطفهم فى صراع ليسوا طرفا فيه وبمثل هذا الاجماع فى الراى لصـالح احد الأطراف المتقاتلة . وغرقت حرب فيتنـــام ، التى بدات تتحول فى الستينيات الى واحدة من أكبر المشاكل الأخلاقيـة تحت موجة عارمة من المشـــاعر التى اجتـــاحت العالم الغربى تأييـدا لاسرائيـل ، وكانت فيتنام سـبـبا فى تشتيت الآراء بينما كان الشرق الأوسـط سـبـبا فى توحيـد الراى . وكان تهـديد العرب بابادة أعدائهم ، أو ما بدا كأنه تهـديد بالابادة هو الذى أثار عداء العـالم ضـدهم . كما ان عدوهم لم يكن شـعبا مثـل أى شعب آخر . لقـد كانوا يهود . بل ان ما كان العرب ينوون عمله كان أكثر « شرا وجنونا وأبعـد عن الاحتمال » ــ كما قال أحد المفكرين البريطـانيين ــ لأن ضحاياهم المزمعين كانوا من نفس الشعب الذى فقد ، منذ جيل مضى ، ٦ ملايين شخص فى مذبحة النازى(١٠).

وكانت أى جريمة ضد اليهود تعتبر أبشع من جريمة ضد أى شخص آخر . فقد كانت غرف الغاز التى أقامها هتلر لليهود لا زالت تثقل ضمير الغـرب .

اذن ، فقد كان العالم الخارجى يشعر ، بخشية الحرب ، بخوف كبير على اسرائيل الصغيرة . كما كانت مخاوف عامة الشعب داخل اسرائيـل ذاتها كبيرة . ولم يكن من المسـتغرب أن تقـوم الحـكومة الاسرائيلية والصهيونيون والمتعاطفون فى كل مكان ، بتغذية هذا الرعب العالمى . ولم يكن أحد منهم ليفكر ، آنذاك ، فى الاعتراض على رئيس الوزراء الاسرائيلى عندما أعلن فى الكنيست فى أعقاب الحرب مباشرة ان « وجود دولة اسرائيل كان معلقا على شعرة ، ولكن آمال الزعماء العـرب بابادة اسرائيل خابت تماما (١١) » .

ولكن هناك من كانوا يعلمون كالجنرالات ، أن الوضـع الحقيقى كان مختلفا تماما عن الوضع الظاهرى وان داوود لم يكن ندا لجوليات فحسب بل كان متفوقا عليه كلية . و كانوا يعلمون أنه مهما قال رجال السياسة وصدقهم الشعب ، فان بقاء اسرائيل لم يكن أبدا معرضا للخطر ، وانه حتى لو كان عبد الناصر ينوى بالفعل شن حرب فانه لا تتوافر له أبدا الفرصة وكان الجنرال موردخاى هود يثق ثقة عميقة فى السلاح الجوى الذى يضطلع بقيادته . وكان هو ، والمخطط الحقيقى للسلاح ، الجنرال عزرا وايزمان ابن

الأز العنيد لحاييم وايزمان ، قد أمضيا عشر سنوات أو أكثر فى تحسين خطتهم الاساسية لتدمير القوة الجوية العربية . وتدرب رجالهما على مواجهة كل احتمال . وانكبوا على دراسة نماذج جميع الاهداف المحتملة ، حتى لقد استطاع طيار احدى المقاتلات من طراز ميراج ، خلال الساعات الأولى من حرب ١٩٦٧ اطلاق مدفعه الرشاش ، بدقة متناهية ومثيرة للدهشة من مدى قريب على الحجرة التى كان يعترف سلفا انها حجرة مكتب الملك حسين فى قصر بسمان فى عمان (١٢) .

ولم ينعم الاسرائيليون بالشعور بالقوة والامن والانجاز الرائع الا بعد ذلك بخمس سنوات ، قبل أن يرتكب الجنرال ماتيتيتا هوبيليد ، أحد الذين خططوا للنصر الاسرائيلى ، ما أعتبره الجمهور الغاضب تجديفا . الا انه خلال ما سمى « بالجدل حول الابادة » الذى اعقب تصريحاته او بالرغم من الالتماسات التى وجهت اليه تطالبه بالتزام الصمت حفاظا على سمعة اسرائيل فى المجال العالمى — لم يحاول أحد من زملائه العسكريين ان يفند آراءه ، فقد قال « ليس هناك ما يدعو الى اخفاء حقيقة أنه منذ ١٩٤٩ ، لم يجرؤ أحد ، أوبالأصح لم يقدر أحد على تهديد وجود اسرائيل ذاته . وبالرغم من هذا واصلنا تغذيةالشعور بنقصنا ، وكاننا شعب ضعيف لا اهمية له ، يمكن ابادته اثناء نضاله الشاق من أجل البقاء » . واستطرد الجنرال بيليد يقول انه صحيح « انه ربما بدا الزعماء العرب يهددون اسرائيل ، ولكنه من المعروف جيدا ان القادة العرب انفسهم ، الذين يدركون تماما مدى عجزهم ، لم يصدقوا ما كانوا يهددون به .. وأنا واثق من أن هيئة أركاننا العامة لم تذكر للحكومة على الاطلاق أن الجيش المصرى شكل اى تهديد لاسرائيل أو اننا غير قادرين على سحق جيش عبد الناصر ، الذى عرض نفسه بحماقة لم يسبق لها مثيل ، لقوة جيشنا المدمرة .

ان الزعم بان القوات المصرية المحتشدة على حدودنا كانت قادرة على تهديد وجود اسرائيل ليس مجرد اهانة لذكاء اى شخص قادر على تحليل هذا النوع من المواقف فحسب بل انه اهانه للجيش الاسرائيلى ذاته »(١٣) .

ولم يكن عبد الناصر عاجزا عن قبول تحدى اسرائيل فحسب ، بل انه لم تكن لديه حتى النية على ذلك . وكان جنرالات اسرائيل يعرفون هذا جيدا أيضا وكان اسحاق رابين صريحا فى هذا الصدد : « اننى لا اعتقد أن عبد الناصر كان يريد الحرب . فان الفرقتين اللتين أرسلهما الى سيناء يوم ١٤ مايو ، لم تكونا كافيتين لبدء هجوم ضد اسرائيل . وكان هو يعرف هذا ، وكنا نحن ايضا نعرفه (١٤) .

خرافة مرتفعات الجولان :

نثرت بذور حرب الايام الستة على الجبهة السورية . وهذا أمر معترف به على النطاق العالمى . ومن المسلم به أيضا ، تقريبا ان السوريين هم الذين نثروا هذه البذور . ويبدو أن مرتفعات الجولان انما هى تلخيص واضح ومؤثر بقصة المواجهة بين داوود وجوليات . ولكن القول بان مرتفعات الجولان تمثل واحدة من أنجح الاكاذيب الصهيونية ربما كان أقرب للحقيقة. وكان القيام بعد الحرب بزيارة هذه الهضبة التى مزقتها المعركة يعتبر تجربة مؤثرة . أو على الاقل كانت كذلك بالنسبة للسياح من زملاء مؤلف هذا الكتاب ، أو بالنسبة لهم جميعا تقريبا ، ممن قبلوا كل ما ذكره لنا المرشد المرافق لنا .

ولقد قص علينا ، بالطبع ، عن المواقع السورية التى كانت تصب الدمار على المزارعين الذين كانوا يفلحون ، فى سلام حقولهم فى الوادى أسفل المرتفعات ، وكيف أنه فى أيام الحرب ، ضحى البعض من خيرة جنود اسرائيل بحياتهم بتسلق هذه المرتفعات التى بثت فيها الالغام بصورة مكثفة لاسكات هذه المدافع الى الابد . ومن الواضح أنها كانت رواية متحيزة . وكان هذا أمرا متوقعا . وقد تضمنت روايته أيضا كذبة او كذبتين ولم يكن هذا غير متوقع أيضا كالزعم بأن العرب كانوا ينوون ، فى محاولتهم لتحويل روافد نهر الاردن ، لاهدار هذه المياه فى البحر المتوسط . غير أن المرشد ذكر لنا ، وكأنه يتواطأ معنا ، حقيقة واحدة غير متوقعة . فقد قال : « اننا ندخل الآن المنطقة التى كانت منزوعة السلاح وكان دخول الجنود النظاميين الى المنطقة محظورا . وكنا نتجنب هذا بالطبع بأن نرسل مثل هؤلاء الجنود متخفيين فى زى رجال البوليس . ولكن تلك قصة اخرى » . وهى فعلا قصة اخرى ، وقصة طويلة ، ولكنه بالطبع لم يروها لنا .

وكانت المناطق المنزوعة السلاح من بين التعقيدات الكثيرة التى نجحت عن اتفاقيات الهدنة التى عقدت سنة ١٩٤٩ فقد كانت مصدرا للنزاع فى كل مكان . وبوجه خاص على الحدود السورية ، حيث كانت قطاعات من الارض الخصبة، يتراوح عرضها ما بين بضع مئات من الأمتار وبضع كيلو مترات ، ويبلغ طولها نصف امتداد الحدود تقريبا وهى عبارة عن اجزاء من الاراضى الفلسطينية تمكن الجيش السورى من الاحتفاظ بها أثناء معارك سنة ١٩٤٨ ولم يوافق على الانسحاب منها الى ما وراء الحدود القديمة ، الا تنفيذ بنود اتفاقيات الهدنة . والتى نصت على الا يرسل اى من الجانبين قوات عسكرية الى تلك المناطق وان تجند القرى والمستوطنات العربية والاسرائيلية الموجودة

بها قوات البوليس اللازمة لها على أساس محلي ولم يلتزم أى من الجانبين بهذه الشروط التزاما دقيقا ، ولكن الاسرائيليين كانوا هم أول من تجاهلها . وبدأوا في التقدم بمطالبة غير قانونية بالسيادة على المنطقة ثم بدأوا ، كلما لاحت الفرصة ، في انتهاك كل البنود التي تنص بوضوح على عدم ادخال أى قوات مسلحة او تحصينات . وعملوا باستمرار على تعويق عمليات مراقبي الامم المتحدة ، بل انهم هددوا في احدى المناسبات باغتيالهم (١٥) .

ورفضوا التعاون مع لجنة الهدنة المشتركة ، وكانو ايرفضون ببساطة ، كلما كان ذلك ملائما لهم ــ تنفيذ أحكام ومطالب هؤلاء المراقبين (١٦) .

وقاموا بطرد السكان العرب ، واجبروهم علي الرحيل بالقوة ، ودكوا قراهم حتى سويت بالأرض (١٧) . ونقلوا الأشجار كحيلة لمد حدودهم وفقا لمصلحتهم (١٨) . وشيدوا الطرق ضاربين بنصيحة الامم المتحـــدة عرض الحائط (١٩) . وأجروا عمليات حفر في الاراضي العربية لتنفيذ مشروعات الصرف الخاصة بهم (٢٠) ولكن الأخطر من كل هذا ، هو ما وصفه الجنرال فون هورن بانه « جزء من سياسة اسرائيل المتعمدة للتحرك تدريجيا شرقا داخل المنطقة المنزوعة السلاح نحو الحدود القديمة لفلسطين ، والواضحة على خرائطهم) ولابعاد كل العرب عن طريقهم باساليب مشروعة أو غـــير مشروعة . وقال شارجا هذا « لقد اعتاد اليهود ري وحرث الاراضي العربية التى يملكها العرب لان التربة كانت من الخصوبة حتي ان كل شبر منها كان يعتبر منجم ذهب من الحبوب وتحولت المنطقـــة تدريجيا ، تحت بصر السوريين المحملقين ، الذين يسيطرون علي الاراضي المرتفعة المطلة علي هذه المنطقة ، الى شبكة من الترع وقنوات الرى الاسرائيلية تتحرك نحو الممتلكات العربية ، وتنتهكها واستمرار » (٢١) .

وهو يرى أنه ما كان من المحتمل أن تنطلق المدافع السورية الموجودة فوق مرتفعات الجولان أبدا لولا الاستفزازات الاسرائيلية (٢٢) .

وكان التوتر يسود الحدود دائما ، وكانت الحوادث لا حصر لها ، ولكنها لم تتفاقم لتصل الى مستوى « حرب صغيرة » الا عندما قرر الاسرائيليون ، لدواع استراتيجية عليا فيما يبدو ، اللجوء الى استخدام اساليبهم المعتادة والخاصة بتوقيع العقاب الشديد ، ضد السوريين . وقد نفذوا هذا ابان عمليات التصعيد التى قاموا بها تمهيدا لحرب السويس . ففى ديسمبر سنة ١٩٥٥ ــ ضمن استراتيجيتهم العدوانية ، التى بدأت قبل ذلك بعشرة اشهر بغاراتهم على غزة بمهاجمة مواقع على الشاطىء الشمالى الشرقى لبحيرة طبرية ،

واسفر عن ذلك مقتل أكثر من خمسين جنديا ومدنيا . ولم يكن المبرر الذى زعموه وهو ان السوريين فتحوا نيرانهم على سفن الصيد وزوارق الشرطة كافيا على الاطلاق ، حتى ولو كان صادقا . بل ان الأمر لم يكن يتفق مع ما زعموه ،وذلك طبقا لرأى من مراقبى الأمم المتحدة سجلا على أثر الحادث، مشاهداتها وكان أكثر التفسيرات ترفقا هو أنه على الرغم من أن السوريين قد أطلقوا نايرنهم ، بذل الاسرائيليون أقصى ما فى طاقتهم لاستفزازهم ودفعهم الى هذا . ويقول احدهما « لقد كانت غارة ارهابية متعمدة بدافع من رغبة اسرائيل فى استدراج الدول العربية الى ارتكاب نوع من الأعمال العدوانية السافرة التى تتيح لهم فرصة اجتياح مزيدا من الأراضى دون أن يتعرضوا للوم » (٢٣) .

وقامت اسرائيل بالفعل بعد ١١ شهرا من ذلك التاريخ باجتياح سيناء كلها ، ولكن لم يتم هذا ، كما رأينا ، بدون تعرضهم للوم . وقد قدر لهم ان يكونوا اكثر نجاحا فى المرة التالية . وكان كل عام يجلب معه موسم اطلاق من النار الخاص به ، ومن الطبيعى أن هذا الموسم كان يبدأ دائما فى واد خصب كهذا مع بداية عملية حرث الارض ويستمر طوال بذر البذور وحصاد المحصول «(٢٤) .

فكان المزارعون الاسرائيليون يتقدمون بجراراتهم المدرعة ليبدأوا فى حرث اجزاء أخرى من الاراضى المملوكة للعرب . وقد اعلنت الصحف الإسرائيلية فى ٣ ابريل ان الحكومة قررت زراعة جميع الاراضى فى المنطقة المنزوعة السلاح وخاصة القطعتين رقم ٥١ ، ٥٢ اللتين يصر السوريون على أنهما ملك لمزارعين عرب (٢٠) .

وفى الساعة الثامنة من صباح ٧ ابريل بدأ جرار فى فلاحة قطعة صغيرة من الأرض العربية جنوب طبرية . وانتظر الاسرائيليون حتى يفتح السوريون نيران مدافع الهاون وكانوا يدركون أن هذا سيحدث ، ثم بدأوا فى الرد عليهم بالمدفعية والدبابات والطائرات وقامت ٧٠ طائرة نفاثة بقصف مواقع العدو بقنابل النابالم والقنابل الشديدة الانفجار .. وتلقى السوريون ضربة قاسية اذ فقدوا ست طائرات اسقطت واحدة منها فوق دمشق نفسها وأصيب ثلاثون موقعا حصينا ولقى حوالى مائة شخص مصرعهم أما الجانب الاسرائيلى فقد خسر قائد دبابة واحدة وذلك عندما نزل منها لمراقبة نتائج طلقاته وأعرب رئيس الأركان رابين عن أمله فى أن يكون السوريون قد استفادوا من الدرس .

وكان هذا « الدرس » في حقيقة الامر بمثابة تمهيد موجز عن حرب يونيو فلم يكن في استطاعة عبد الناصر الوقوف موقف التقاعس مرة اخرى وكان من الواضح ان سوريا قد اصبحت هدفا لسياسة العنف العسكرى الذى تعرضت له مصر قبل حرب السويس اما بالنسبة للمقاتلين ضد العرب فانه كان يمثل من وجهة نظرهم الخطر الخارجي المعقول الذى يحتاجون اليه فان سوريا كانت قبل كل شيء تقصف بمدافعها الموجودة فوق مرتفعات الجولان المستوطنات وكانت فيما يبدو تمضي قدما في الجزء الخاص بها من مشروع تحويل روافد نهر الاردن وذلك يخرب مشروع اسرائيل الذى كانت تقوم بتنفيذه من جانبها وحدها بهدف تحويل المياه جنوبا الى صحراء النقب وكانت سوريا تقدم بالفعل المعونة والمأوى لمنظمة (فتح) الفدائية الفلسطينية التى تقوم منذ يناير ١٩٦٥ بارسال رجالها الى أراضى العدو لبث الالغام ونسف المنشآت وتبنت سوريا رسميا منذ أن استولى الجناح المتطرف من حزب البعث الحاكم على السلطة في فبراير ١٩٦٦ نظرية (فتح) التى تنادى بخوض (حرب التحرير الشعبية) ومن الجلى أن المقاتلين ضد العرب لم يجاهروا بنواياهم الا إنه كان من الواضح تماما عن طريق زلات السنتهم ان ما يفكر فيه ديان ورجاله هو تدبير حرب وقائية شاملة أى أن يوجهوا ضربة قاضية الى قوة العرب العسكرية النامية وان ينجزوا في أسرع وقت ممكن وبثمن اقل ما قد يضطرون الى القيام به في وقت لاحق وربما بثمن اعلى بكثير . وكان البحث عن ذريعة هو ما يقصده رئيس الاركان عندما صرح في مايو ١٩٦٥ باسلوب حذر ملائم لمجلة (باماحانيه) التى يصدرها الجيش بان الاسرائيليين يستطيعون قلب أى جدول زمنى عسكرى عربى خلال لحظة قصيرة جدا اذا عرفوا كيف يستغلون اللحظة التى يستعد العرب فيها للوصول الى مستوى معين من القوة العسكرية (٢٦) .

ولقد كان الخطر معقولا في الظاهر الى أبعد حد في رأى المدققين في الأمور ولابد انه لم يكن أمرا مريحا طبعا كان أحيانا خطيرا أن يعيش المرء في مستعمرة على الحدود تحت تهديد المدافع السورية ولكن ما هو عدد القتلى الفعليين؟ فيما يبدو لم يقتل احد في الفترة من يناير ١٩٦٧ حتى يونيو من نفس العام وما هو عدد الاسرائيليين الذين قتلوا في نفس الفترة على يد الفدائيين من منظمة فتح ؟ واحد فقط .. اما عن مشروع تحويل نهر الاردن فانه كان مشروعا عقيما مهما كانت مزاعم الدعاية العربية وكان الاسرائيليون يعرفون هذا بل انه ولو كان العرب يملكون الوسيلة والعزم على تنفيذ المشروع بالكامل وهو امر كان مشكوكا فيه في الدوائر الاسرائيلية — كانوا سيحرمون

الاسرائيليين من ٥٪ أو ٦٪ فقط من الحصة التى كانوا يستولون عليها لأنفسهم «(٢٧).

أما عن حرب « التحرير الشعبية » فان الاسرائيليين كانوا يعرفون أكثر من أى شخص آخر مدى الفجوة الموجودة بين تصريحات البعث وأفعاله ولسوء الحظ ان قليلين فقط هم الذين كانوا يدفعون فى الامور وخشى الرئيس عبد الناصر من ان يدفعه المقاتلون العرب بمساعدة المزايدات الكلامية وسياسة حافة الهاوية التى يتبناها السوريون الى الوقوع فى الفخ اثناء اجتماعه مع مجموعة من الفلسطينيين فى تاريخ مبكر يرجع الى ١٩٦٥ ردا على استفزازات خصومه العرب . انهم يقولون اطرد قوات الطوارىء الدولية فلنفرض اننا فعلنا هذا أليس من الضرورى ان تكون لدينا خطة ؟ واذا حدث عدوان اسرائيلى على سوريا فهل أهاجم اسرائيل ؟ ان هذا سيعنى ان اسرائيل هى التى ستحدد لى موعد المعركة انها تدمر جرارا او اثنين لكى ترغمنى على التحرك فهل هذا هو الطريق السليم الذى يجب ان اسلكه ؟ يجب علينا ان نحدد نحن موعد المعركة (٢٨).

عبد الناصر يقع فى الفخ :

ولكنه قام فعلا فى نهاية الامر بحسب قوات الطوارىء الدولية فعندما وصل الى القاهرة سرا فى مايو ١٩٦٧ مبعوثان سوريان فى حالة انزعاج بالغ ليعلنا ان اسرائيل على وشك شن هجـوم على بلادهما من الاستفزازات الاسرائيلية المتزايدة طوال عامين وفيما اعتبره تواطؤا امريكيا وسببا يدعوه الى اخذ هذه الانباء بجدية تامة ولجأ الى التأكد من مصادر اخرى من بينها الروس فأكدوا له ذلك فقد كانت توجد بالفعل حشود على الحدود ونفى الاسرائيليون الامر بشدة فى ذلك الوقت وكان نفيهم الذى لم يحاول اى طرف غير متحيز مثل مراقبى الامم المتحدة تفنيده مقنعا بدرجة كافية وقد اعتبر هذا منذ ذلك دليلا هاما يؤيد ادعاءهم بانه أثناء تصاعد الاحداث المؤدية الى حرب يونيو كانت الاستفزازات الحقيقية من جانب العـرب لا من جانب الاسرائيليين .. غير انه بعد ذلك التاريخ بخمس سنوات أثناء جدل الابادة قال الجنرال عزرا وايزمان وهو واحد من أشـد العسكريين صراحة فى اسرائيل : لا تنسوا اننا حركنا الدبابات بالفعل الى الشـمال بعد اسقاط الطائرات (٢٩) . وقد شاهد مراقبو الأمم المتحـدة الحشـود أيضـا ولكن ملاحظاتهم احيطت بالسرية الكاملة ولا زالت تحاط بها حتى يومنا هـذا لأسباب متعددة (هذا هو أحد الاستنتاجات التى توصل اليها وهو ما يمكن اعتباره أكثر التقارير دقة عن الأصل الحقيقى لحرب يونيو) .

وقد كتب التقرير جود فرى جاتسن الصحفى الهندى ويقول فيه ان المجموعة الصغيرة من السياسيين والجنرالات الذين يشكلون السلطة العليا فى اسرائيل يعتبرون حكامها الحقيقيين شعرت منذ أوائل ١٩٦٧ بالحاجة الى شن هجوم جديد على العرب (٣٠) .. وبعد حشد الدبابات تم توجيه تهديد كلامى واستفزازى كان لابد أن يدفعا عبد الناصر الى الرد بالأسلوب الذى اتبعه فعلا وكان التهديد الذى صدر عن المسئولين ينطوى على انذار بغزو شامل لسوريا وقلب نظام الحكم بها أما الاستفزاز فقد جاء فى شكل تكهن بأنه اذا حدث هذا فان عبد الناصر لن يتحرك لمساعدة سوريا وقد وجه الاثنان بطريقة تضمن تحقيقهما للهدف ولكن من غير أن يسجلا وسميا حتى لا يمكن محاسبة اسرائيل عليهما فيما بعد وقد حدث هذا تماما فان التقارير الموالية لاسرائيل بل كذلك التقديرات غير المتحيزة نسبيا التى تناولت حرب يونيو تغفل كلها ادعاء حشد الدبابات ومن ثم تثبت انه لم يكن هناك أى تهديد حقيقى ولذلك يقول والتر لاكسير فى كتابه الواسع الانتشار « الطريق الى الحرب » انه لم يصدر وأؤكد ذلك مرة أخرى انه لم يصدر أى تهديد اسرائيلى بالاطاحة بحكومة دمشق (٣١) ولكن كان هناك تهديد بالفعل فقد اعلن الجنرال اسحاق رابين فى ٢٢ مايو من اذاعة اسرائيل « ستحين اللحظة التى سنزحف فيها على دمشق للاطاحة بالحكومة السورية » اذ يبدو أنه لا يوجد امامنا سوى اللجوء للعمليات العسكرية من أجل احباط خطط الحرب الشعبية التى يهددوننا بها (٣٢) وقد التقطت محطات الاستماع العربية هذا الاستفزاز الصريح ولكن الصحف الاسرائيلية لم تنشر كلمة واحدة منه ومن المعروف أن تقارير الاستماع لا تتمتع بنفس الثقل الذى تتمتع به التصريحات المطبوعة وذلك مما يزيد من سهولة نفيها وقد وقع الاستفزاز فى اليوم التالى مباشرة فقد قدم الجنرال اهارون ياريف مدير المخابرات العسكرية عرضا موجزا للاحداث امام اربعين مراسلا اجنبيا ردد فيه مرة أخرى تهديدات رابين ضد سوريا ثم اخذ بعد ذلك يضرب على نغمة واحدة مستمرة ان مصر ضعيفة وان عبد الناصر زعيم كل العرب لن يتدخل وقال انى اعتقد ان المصريين لن يتدخلوا بجدية طالما لا تقوم اسرائيل بغزو ولن يفعل المصريون ذلك الا فى حالة عدم وجود بديل آخر وانى ارى ان عدم وجود بديل اخر يعنى ان نخلق وضعا يستحيل معه على المصريين الا يتصرفوا لأن الضغط على كرامتهم يصل الى درجة لا تحتمل (٣٣) .

وقد حقق بقوله هذا الضغط المقصود على كرامة زعيم كل العرب الذى كان قد أصبح بالفعل هدفا للاستفزازات الساخرة المماثلة من جانب خصومه العرب ..

وقال عبد الناصر فيما بعد ان وقاحة اسرائيل بلفتحدا يدفع كل عربى الى الرد عليها (٢٤) وبالفعل ارسل جيشه الى سيناء وفى الوقت ذاته أصدر اوامره بسحب قوات الامم المتحدة وكان لابد من ان يفعل هذا حتى يبدو ان تحركه جاد وقد كان دور قوات الطوارىء الدولية دورا رمزيا بحتا اذ أن وجودها فى سيناء كان بناء على موافقة مصر وكانت اسرائيل قد رفضت باصرار وجود اى قوات تابعة للأمم المتحدة على جانبها من الحدود وكان ما ترمز اليه هو ضبط النفس الذى يفرضه عبد الناصر على نفسه وبالتالى كان سحب هذه القوات يرمز الى انهاء حالة ضبط النفس وكان هذا اخر شىء يريده عبد الناصر ولذلك عمل على تحقيق انسحاب جزئى (لقوات الامم المتحدة) وبعث رئيس الاركان المصرى برسالة بالشفرة الى قائد قوات الطوارىء الدولية طلب منه فيها سحب قواته من الحدود المصرية الاسرائيلية الى قواعدها فى غزة ولكنه لم يطلب سحبها من شرم الشيخ وهى النقطة المنعزلة عند مدخل خليج العقبة التى تمثل الحماية الرمزية لحرية مرور السفن الاسرائيلية غير أن هذه الحيلة أدت الى عكس النتائج المرجوة اذ أصر سكرتير عام الأمم المتحدة بفظاظة على ضرورة سحب قواته كلها أو ابقائها كلها ولم يكن أمام عبد الناصر اى مفر فاضطر الى ان يطلب سحبها كلها على أن هذا بالطبع لم يكن كافيا أيضا فان المنطق واستفزازات العرب واليهود كان يتطلب أن يكمل ما بدأه بفرض الحصار ولكنه لم يفرضه بالفعل كما شهدنا (٢٥) حيث لم تكن لديه اية نية للقتال ولكن هذا لم يحرم الاسرائيليين من الذريعة الظاهرية التى يحتاجونها للحرب .

والآن ستنشب حرب ضد سوريا ومصر كانت اسرائيل على ثقة من كسبها فهل يمكن للاسرائيليين ان يستغلوا ايضا هذه الفرصة الفريدة فى الاستيلاء على باقى فلسطين أى القدس الشرقية والضفة الغربية التى لم يتمكنوا منها فى ١٩٤٨ ؟ ان المرء يتساءل عن كون الرسالة المفتوحة التى وجهها افرايم كيشون الكاتب الصحفى الشهير الى الملك حسين ساخرة بالدرجة التى تبدو بها :

بصراحة انك لست الشخص الوحيد الذى تنطلى عليه خدعتنا الصغيرة فان الساسة العالميين المتمرسين وقعوا بذهول فى الشرك الشيطانى الذى قمنا باعداده على مدى سنين طويلة لنأخذ به أعداءنا وأصدقائنا على السواء .. اى انك تصورت ولو للحظة واحدة ان كل هذا تم بدون تخطيط يالك من رجل ابله اليوم يمكن ان نقول مسكين حسين لقد قررنا منذ ست سنوات أو سبع سنوات الاستيلاء على القطاع القديم من القدس

ولكننا قلنا لأنفسنا اننا لن ننجح فى هذا الا اذا كان العرب هم البادئين بالهجوم علينا بلى ولكن كيف يمكن استدراجهم الى هذا ؟ طالما الرجل العجوز (بن جوريون) متوليا لزمام الأمور لابد أن نفترض أنهم سيجنبون عن هذا ولذلك كان من الضرورى ابعاد الرجل العجوز فدبرنا فضيحة لافون وقمنا بتلفيق بعض الأشياء فى لجنة السبعة ونشرنا المذكرة التى أعدها المستشار القانونى ثم بدأنا فى تصوير أشكول فى صورة المتردد الميال للحلول الوسط ونجحنا فى هذا تماما فقد تعاون معنا وكذلك فعل أبا أيبان .. وباختصار نجحنا خلال سنوات قليلة فى أن نصور لجمال عبد الناصر ان الوقت قد حان لشن هجوم ضدنا وكان الشيء الوحيد الذى يعرقل خططنا هو وجود قوات الطوارىء الدولية فى قطاع غزة فما السبيل يا ترى للتخلص منها لا لقد وضعنا ثقتنا فيما يتعلق بهذه المسألة فى يوثانت ولم يخذلنا وتحرك جمال بسذاجة الى سيناء واغلق مضيق تيران وهو ما كان يتفق تماما وخططنا وأخذنا نتساءل فى قلق : متى سيعقدون ميثاقنا .. متى .. متى ؟ وانتظرنا أياما طويلة والتوتر يسودنا لا لشيء لقد رفضتم أن تتزحزحوا عن موقفكم فأغريناكم بلا اى خجل لقد توسلنا الى القوى البحرية ان تدافع عنا وطلبنا من رئيس الوزراء أن يلقى خطابا فى الاذاعة وقد ألقاه وهو يتلعثم ونجح فى كل شيء الا فى رفع الروح المعنوية لاسرائيل ودفعنا ديجول الى التخلى عنا فما الذى لم نفعله للتقريب بينك وبين عبد الناصر ونجحنا فى النهاية فقد طرت الى القاهرة ووقعت اتفاق دفاع مشترك وتنفسنا الصعداء وفى اليوم التالى استدعينا ديان وأصبحت الأحداث التى تلت ذلك تاريخا معروفا نقدم لك أسفنا يا حسونة فربما لم يعلموك مثل هذه الحيل فى هارو ولكن لم يكن امامنا أى خيار فقد كنا نريد من كل قلبنا الاستيلاء على القدس كلها (٣٦) ..

اسرائيل تحوز امبراطورية :

« انتصار المدنية » كان هذا هو وصف احدى الصحف الغربية الكبرى للنصر الاسرائيلى ولقد تحقق بالفعل نتيجة للانجازات الفذة غير العادية للسلاح فقد نجحت اسرائيل فى تدمير ثلاثة جيوش عربية واستولت على مساحة من الأرض تزيد عن حجمها عدة مرات وذلك فى ظرف ستة أيام ولكن ربما يسجل التاريخ أن انتصار العلاقات العامة كان أعظم من النصر العسكرى فها هو شعب يستولى على أرض الدير ويطرد سكانها ـ وها هو ذا يفوز بموافقة دولية مبتهجة على مزيد من المغانم ومزيد من عمليات الطرد وكان لورد بلفور قد أعلن فى ١٩١٧ أنه يجب عدم القيام بما من شأنه الاضرار

بالحقوق المدنيـة والدينيـة لسكان فلسطين غير اليهود ولو كان أحد قد تكهن انذاك بأن العرب بعد خمسين عاما بالتحديد سيحاولون أن يستعيدوا بالقوة مجـرد جزء من هــذه الحقوق التى انتزعت منهم بالقوة وانهم سيتعرضون نتيجة لذلك للادانة من جانب العالم كله لحكم على مثل هذا هــذا الشخص بالجنـون وبالطبع لم يبلغ أحــد المـدى الذى وصلت اليه صـحيفة (الديلى تلجـراف) اللندنية والمشـهورة بالمبالغة فى ميولها الصهيونية الحماسية ولكن قليلين جدا هم الذين تساءلوا عن كون هـذا هو الصواب فعلا (٢٧) ولكن المدنية التى تعتبر اسرائيل ربيبتها كان لهـا مبرراتها التى أوجزتها صحيفة (لوموند الباريسية) بطلاقة فيما يلى :

لقد تخلصت أوربا خلال الأيام القليلةالماضية الى حـد ما من الشعور بالذنب الذى انتابها فى مأساة الحرب العالمية الثانية وقبل ذلك فى عمليات الاضطهاد ابتداء من المذابح الروسية وحتى فضيحة درايفوس الذى صاحب مولد الصهيونية لقد ساد أوربا شعور بأنه تم أخيرا الانتقام لليهود ولكن للاسف على حساب العرب من الاتهـام الغبى والمؤسف الذى يقول لقـد انساقوا مثل النعاج الى المذبح (٢٨) .

لقد كانت النوايا الطيبة الدولية التى كسبتها اسرائيل ذات قيمةثمينة للغاية فقد كانت رصيدا ضخما تستطيع أن تسحب منه كلما أرادت عندما تبدأ فى تنفيذ المرحلة التالية من المخطط الصهيونى العظيم وكانت العمليـة الأخيرة من الناحية التاريخية تعتبر ثالث نجاح عظيم تحققه الصهيونية اذ أنها خلقت مثلها فى ذلك مثل وعد بلفور وحرب الاستقلال فراغا كاملا كان لابد أن يملأ وكانت الصهيونية قد بعثت من جديد وأعطت اسرائيل ظهرها للكساد الذى ساد قبل الحرب واكتشف الجيل الاسرائيلى الحـديث مرة أخرى بين عشية وضـحاها بعض الحمـاس والرؤيا التى حركت الرواد الأوائل ولقد تدفق كل هــذا الاحياء للصهيونيـة فى موجة من التخيلات والتصرفات التوراتية الاستراتيجية والدينيـة العسـكرية كان الملحدون يتكلمون عن اله الجيـوش وكان المظليـون يعقدون يمين الولاء عند حائط المبكى وهم يحملون الكتاب المقدس فى يد والمدفع فى اليـد الأخرى وكانت يمين الولاء فيضا من القصـائد والتراتيل الدينيـة وتألق فيها الحاخام شالومو جورين الكاهن المحارب فى قوات المظلات وعلى صــدره الأوسمة العسكرية وهو يثبت العلم الاسرائيلى على جبل سيناء وكان هذا بالطبع على حساب العرب .

وكان لابد ان يتمسك الصهيونيون كما حدث من قبل بالأرض التى استولوا عليها وأن يضطلعوا بتعميرها وتنميتها وأن يطردوا أو يخضعوا العرب الذين قد يعارضونهم وكانت المسألة تنحصر أولا فى تحديد مساحة الأرض التى يجب الاحتفاظ بها ومنذ البداية كان هناك من أصروا على ضرورة قيام اسرائيل بضم كل الأراضى المحتلة وكما هو متوقع كان الحاخامات فى مقدمة هذه الفئة ووفقا لوجهة نظر الحاخام الأكبر تعتبر الأراضى المحتلة ملكا لاسرائيل على أية حال فقد وعد الله اليهود بهذهالأرض وتنبأ كل الانبياء بعودتها اليهم وكذلك التوراة تحرم على جميع اليهود ومن بينهم الحكومة الاسرائيلية أعادة ولو شبر واحد من أراضى اسرائيل الكبرى الموجودة تحت أيدينا (٣٩) وجادل عضو آخر من مجلس الحاخامات الأعلى بأنه لما كان الفتح الاسرائيلى يعنى تحرير الأرض المقدسة من سيطرة الشيطان فان أى انسحاب سيزيد من سلطان الشيطان (٤٠) وانتشرت الحركات المنادية باسرائيل واجتاحت صفوف الأحزاب وعقدت الاجتماعات الحماسية فى طول البلاد وعرضها وألقى الجنرالات والوزراء الكلمات فى هذه الاجتماعات وكان التنقيحيون من أتباع مناحم بيجين أو حزب جاحال كما يطلق عليه الآن هم « العمود الفقرى السياسى لمذهب التوسع وكان الموقف الأساسى لحزب جاحال هو لا جلاء حتى مع السلام ويجب على الاسرائيليين أن يستوطنوا الأراضى المحتلة عن طريق اقامة مستوطنات فى المناطق غير المأهولة أو الريفية وكذلك عن طريق اقامة الضواحى فى جميع مدنها مثل رام الله وجنين ونابلس وطولكرم وقلقيلية وغزة ورفح وغيرها من المدن (٤١) ولن يقر الحزب اعادة ولو بوصة واحدة من أرض اسرائيل الى أى حكومة أجنبية أو لن يفوز أى تصريح رسمى يساعد على دفع عجلة مفاوضات السلام ويتضمن ايحاء بأن اسرائيل قد تقدم مثل هذه التنازلات الاقليمية .

وكانالجنرال ديان المقاتل ضد العرب الذى عين وزيرا للدفاع عشية الحرب أبرز تجسيد للاتجاه التوسعى الاسرائيلى فى أعقاب حرب ١٩٦٧ وكانديان فى جوهره يشارك حزب جاحال فى تفكيره وقد أعلن نفس الاتجاه الأساسى ونفس التصور ولكنه كان أكثر مكرا ودهاء ولم تكن حرب يونيو بالنسبة لهمجرد انتصار أخير على العدو ولكنها أيقظت فى نفسه مشاعر جديدة غير متوقعة .

كنا نشعر طوال عشرين عاما ابتداء من حرب التحرير حتى حرب الأيام الستة بأننا نعيش عند القمة ونتنفس هواء نقيا وقد ناضلنا من أجل

الوصول الى القمة وكنا سعداء بما حققنــاه .. ولكننا لم نكن نشعر من أعماق قلوبنا بسعادة ورضاء حقيقيين وأجبرنا أنفسنا على الرضــا بأن تكون ايلات حدودنا الجنوبية والرضا بدولة اسرائيلية تمتد بين قلقيليـة والبحر وهى مسافة لا يزيد عرضها عن خمسة كيلو مترات وكانت القدس القديمة تقع خارج حدودها هذه هى أسرائيل وكنا فى حياتنا اليومية نحاول أن نتعايش فى سلام مع كل هذا أما القلق الكبير الذى نشعر به الآن فيرجع الى ادراكنـــا اننـــا كنـــا مازلنـــا نتسلق الجبـل وان القمة مازالت أكثر ارتفاعا (٤٢) .

ماهو المعنى العملى للتجديد الذاتى للصهيونية ؟ لقــد شعر ديان بأنه من الضرورى أن يذكر مواطنيه بما قد يكونون قــد نسوه أو بما لم يعرفه بعضهم على الاطلاق مثل الجيل الأصغر سنا .. لقد كانت القرى العربية ولست الومكم لأن كتب الجغرافيــا التى تتضمن هذه الأسماء لم يعد لهــا وجود ولم ينعدم وجود الكتب فحسب بل ان تلك القرى لم يعد أيضا لها وجود وقد قامت مستعمرة نهلال (قرية ديان) محل قرية محلول و (جفت وهى كيبوتز) محل (حبطة) و (ساريد وكيبوتز أخرى (محل (جنيفة) و (كفنار يهوشوع) محل (تل شمان) .. ولا يوجد شبر واحد من هذه البلاد الا وكان يشغله السكان العرب فيما مضى (٤٢)الا » ..

وبهذا الادراك الواعى للمــاضى ينتقل ديان الى رسم صـــورة قاتمة للمستقبل من المقدر علينا أن نعيش فى حالة حرب دائمة مع العرب ولا مفر من التضحية واراقة الدماء وربما كان هذا وضعا لايرغب فيه أحد ولكنه حقيقة واقعة واذا أردنا أن نواصل طريقنا ضد رغبة العرب فسنضطر الى قبول التضحيات .. ويرى ديان أنه يجب على اليهود أن يستمروا فى طريقهم ان هــذا هو ما جرت العادة بأن يوصف بأنه يهودى بعد آخر موجة هجرة اثر موجة هجرة أو فدان وراء الآخر وعنزة وراء الأخرى .. وكان معنى هذا التوسع مزيدا من اليهود ومزيدا من القرى ومزيدا من الاســـتيطان فمنذ عشرين عاما كان تعدادنا ٦٠٠ ألف نسمة واليوم يصل تعــدادنا الى حوالى ثلاثة ملايين نسمة ويجب الا يوجد يهودى واحد يقول فى هذا الكفاية ولا أى شخص يقول لقد اقتربنا من نهاية الطريق .. وهذا ينطبق أيضا على الأرض ولا يشكو أحد من ان جيلنا لم يفتح الطريق ولكن سيكون هنــاك شكاوى ضدكم (كان ديان يوجه خطـــابه الى اتحاد شـباب مستعمرات مرتفعات الجولان) اذا ما جئتم لتعلنوا كفى الى هنا فواجبكم هو الا تتوقفوا

وأن تظل سيوفكم مجردة من اغمادها وأن يكون لديكم ايمان وأن تحتفظوا بالعلم مرفوعا يجب عليكم الا تنادوا بالتوقف حاشا الله والا تقولوا كفى حتى هنا حتى دجانيا حتى نحال عوزفان هذا لا يكفى (٤٤) ..

وبذلك لم يؤمن ديان بالتوسع باعتباره صهيونيا مخلصا فحسب وانما باعتباره مخططا استراتيجيا عنيدا أيضا وكانت شخصية ديان المخطط الاستراتيجى تنطوى على نزعة قوية للايمان بالقضاء والقدر وكان ماضى اسرائيل يحكم عليها بأن تظل فى صراع دائم مع العرب ومن ثم كان من المحتم عليها أن تتوسع حتى تواصل خوض الصراع ولكن ديان كان سياسيا أيضا فى بعض الأحيان على الأقل فكان فى بعض الاحيان يرتدى بصفته سياسيا زى الحمائم فهو مثلا لم يقدم استقالته من حكومة مثل جاحال بسبب قبول اسرائيل لمقترحات السلام التى قدمها وزير الخارجية الأمريكى وليام روجرز فى سنة ١٩٧٠ ومع ذلك أصر من قبل بحكم موقفه المتشدد مثله فى ذلك مثل حزب جاحال على معارضته قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ الذى قامت عليه مقترحات روجرز معارضة قوية (٤٥) وكان ينتظر مكالمة تليفونية من الملك حسين لبدء المفاوضات ومع ذلك لم يكن فى قرارة نفسه يريدها ربما كان من المستطاع ابرام اتفاقيات سلام بيننا وبين جيراننا العرب ولكنهم يطلبون ثمنا باهظا وادعوا الله الا يأتى اليوم الذى ندفع فيه الثمن (٤٦) وفى واقع الأمر كان يستطيع أن يشعر بثقة تامة من أن هذا لن يحدث أبدا فقد كان يعرف بصفته رجل سياسة أنه يستطيع الاعتماد على طبيعة الصراع لضمان ان الاسرائيليين لن يتعرضوا أبدا من الناحية العملية للمطالبة بتقديم التنازلات الاقليمية التى وجد الصقور المتطرفون فى حزب جاحال أنه من الضرورى أن يرفضوها مقدما لقد كان ينتظر المكالمة التليفونية من حسين ولكنها ستكون مفاجأة كبرى لو أن الملك وافق على الشروط التى ستقدم له (٤٧) .. لماذا اذن يتباهى فى خيلاء مثل جاحال بتوسع مهم أمام عالم يكن عدم الرضاء ؟ وكان يعرف انه لا بد أن يرفض العرب الشروط الاسرائيلية حتى لو كانت تلك التى يقدمها الحمائم وكان يدرك أنه عندما يواجه هؤلاء الحمائم بالرفض سينضمون الى الصقور فى الاصرار على تمسك الاسرائيليين بكل ما تحت يدهم حتى يتم التوصل الى تسوية نهائية للسلام ..

لقد كان هذا الموقف ذروة أيديولوجية القوة وكان الصهيونيون فى العهود السابقة عندما كانوا أكثر ضعفا يخففون القوة بقدر معين من الواقعية

السياسية أى الاستعداد لتقديم تنازل تكتيكى فى الوقت الذى لا يغيب عن نظرهم أبدا الهدف البعيد المدى أما الآن فقد تأصل الاقتناع بأن وجود اسرائيل والدفاع عنها يعتمدان اعتمادا كليا على قواتها الذاتية وان اسرائيل لا تتحكم فى مصيرها وحده بل فى مصير الشرق الأوسط بأسره وانقسمت ايديولوجية القوة الى عدد من البديهيات التى اكتسبت نتيجة للتكرار المستمر طابعا مقدسا وقد سرد عمنون كابيليوك وهو ناقد لامع للارثوذكسية الصهيونية هذه البديهيات فيما يلى : اننا سنحافظ على بقاء الوضع الراهن فى المنطقة وفقا لهوانا فالحدود الآمنة تمنع العرب من مهاجمتنا وخط بارليف (على الضفة الشرقية لقناة السويس) لا يمكن اختراقه وجهاز مخابراتنا معصوم من الخطأ والعرب لا يفهمون سوى منطق القوة والحرب ليست فى مصلحة العرب والعالم العربى منقسم على نفسه وليست له اختيارات عسكرية وسلاح البترول ليس الا أداة دعائية وسيستلم الفلسطينيون فى الأراضى المحتلة لمصيرهم وعامل الوقت فى صالحنا ولا يهم ما يقوله غير اليهود ولكن المهم ما يفعله اليهود (٤٨) وكانت الأغلبية العظمى للاسرائيليين ترى فى هذا القول وفى التفسير الرئيسى له تجسيدا للحكمة السياسية فلم تبق سوى خطوة قصيرة بين هذا الوضع وبين استيطان اسرائيل الكبرى بصورة مكثفة وقد اتخذت هذه الخطوة بسرعة واكتسب ديان المقاتل ضد العرب لقبا جديدا هو « امبراطور الأراضى المحتلة » . .

هلموا لبناء القدس « ابعث بابنك الى القدس واتخذ لنفسك بيتا ثانيا فى القدس لتبرزق بأول طفل لك هناك » لم تكن هذه الشعارات موجهة الى العرب ممن كانوا يعيشون هناك يوما ما ويرغبون فى العودة ولا الى الاسرائيليين الذين تم جمعهم بالفعل ولكنها كانت موجهة الى خمسة أسداس يهود العالم المقيمين خارج حدود اسرائيل وبصورة خاصة الى يهود الغرب الأغنياء الذين يعتبرون ما يجلبونه معهم من أموال ومهارات سكانا مرغوبا فيهم بالمدينة المقدسة وكان ما فكر فيه الاسرائيليون فى أعقاب انتصارهم هو الهجرة الى اسرائيل فقد كان لابد من قلب الوضع الذى كان قائما قبل الحرب والذى كان بمثابة كارثة عندما فاق عدد النازحين من اسرائيل عدد المهاجرين اليها ولم يكن الأمر المستغرب أن يستغل الاسرائيليون استيلاءهم على القدس الموحدة والمتكاملة لانعاشها لتصبح الجائزة الرمزية ونقطة ارتكاز استراتيجية لصراع لا يهدأ ولكن لم يكن هذا صحيحا بالنسبة للقدس وحدها فان باقى الأراضى المحتلة كانت أيضا جزءا من التراث اليهودى ولكن

اسرائيل لم تضمها اليها رسميا متحدية الرأى العام العالمى كما حـــدث بالنسبة للقدس الا انه منذ البداية انطلقت رسالة الى يهود العالم الذين من المنتظر أن يهاجروا الى اسرائيل انها تنوى الاحتفاظ بهذه الأراضى أيضا وهذا ما يتضمنه ولو بصورة ماكرة النداء الطنــان الذى وجهته الحكومة الاسرائيلية واللجنــة التنفيــذية للصهيونية العالمية والذى يقول انهضوا ، هلموا الى بناء البلاد ويعلن بأسلوب يعيد للاذهان على حد تعبير الجيروساليم بوست النداء الذى صدر فى عهد عزرا ونحميا ..

لقـد تغلب الجيش الاسرائيــلى ، الجيش الشعبى ، بجرأة على قوات معادية ضخمة كانت قد تجمعت لابادة اسرائيل فقهرها وتم القضاء على الحصار الذى فرضه العدو وتحرر تراث أسلافنا وحررت القدس لتصبح مرة اخرى مدينــة موحــدة وتفتحت فى ساعة الخلاص هــذه آفاق جديدة وظهرت تحديات ضخمة وأصبح أمام الشعب اليهودى الاضــطلاع بواجب مقدس لبناء البلاد بسرعة وضمان مستقبل الدولة اليهودية ان نداء الساعة الحتمى هو الهجرة ، هجرة الشعب كله صغيرة وكبيرة وكبيرة من أجل العودة الى صــــهيونية بيت اسرائيــل لقــد بلغ الشعب اليهودى فى وطنه مكانة رفيعة (٤٩) .

مرتان فى العبور : خروج عربى آخر :

وفد المهاجرون بالفعل وإن لم يكن بالاعداد المنتظرة ومرة اخرى كانت هجرة اليهود الى البلاد معناها طرد العرب منها واتاحت الفترة التى أعقبت الحرب مباشرة بكل ما تضمنته من اضطرابات وتغييرات سريعة وخاصــة انها حرب يصفق فيها العالم للمنتصر فرصة مثالية لم يتردد الاسرائيليون فى انتهازها واحتلت القدس مركز الصدارة فى اطماعهم فبدأوا على الفور فى تحويلها الى ما وصفه أحد الوزراء بعد ذلك بأنها مدينة يهودية بالتأكيد (٥٠) وكان الأثر الرئيسى والهام والوحيد الذى يشــــير الى يهودية القدس هو حائط المبكى ولم يكن هناك ما يمكن القيام به من وجهة نظر الصهيونيين فى كل مكان سواء كانوا متدينين أم لا لتخليــد ذكرى تحرير المدينة أنسب من تبجيل اطلال الهيكل باقامة ســاحة أمامية تليق بها وتحولها الى مزار دينى قومى مقدس جــديد باسم اسرائيل ويمكنهم من خلال هذا الأثر الاحتفــال بتحقيق حلمهم القديم بقضاء العام القــادم فى القدس لقد قال ديفيـــد بن جوريون لقد استمرت القدس عاصمة لليهود طوال ثلاثة آلاف سنة منــذ عهد الملك داوود وهى مدينة تحمل الصبغة اليهودية أكثر مما تعتبرباريس

فرنسية أو لندن بريطانية (٥١) وهذا هراء تاريخى ولكنه يبــدو فى رأى الصهيونى المخلص معقولا تماما وكما قال وزير آخر لمسلمى المدينــة بأسلوب أقل خيالية ليس لدى الشعب اليهودى سوى القـدس أما الديانات الأخرى فلديها أماكن مقدسة فى المدينة وهى تحظى باحترامنا ولكنها تملك أيضـا أماكن أخرى فى انحاء العالم (٥٢) ولا تشعر اسرائيل بأنها دولة الا من خلال القدس ولن يتمكن الآن أحد سواء كان قوة انتداب أم امم متحدة من الحيلولة دون قيام اسرائيل بتحقيق الانسجام بين المظهر المـادى للمدينـة وهـذه الحقيقة الروحانية ولابد من اختفاء ما وصفه وايزمان قبل خمسين عاما بالطائفة المغربية المريبة (٥٣) ولقد اختفت فعلا فى ظرف ليلة واحدة قيـام الجرارات بهدم المبانى وتسويتها بالأرض وفى ١١ يونيو طرد سـكان الحى المستفيدون بالموقف الخيرى الذى انشأه ابن صلاح الدين منذ سبعمائة عام وقد طردوا بعد دقائق معدودة من اخطارهم من منـازلهم ولم يستطيعوا انقاذ شىء من ممتلكاتهم الا ما استطاعوا حمله وتفرق الف شخص أو ١٢٩ أسرة فى الجوارى والشوارع المجاورة وفى سوق قريب وفى مدرسة لم يكتمل بناؤها أو أى مكان آخر استطاعوا العثور عليه ولم يسـتطع الاسرائيليون اخفاء ما بدأوا فى تنفيذه فى القدس ولم يكن فى استطاعتهم الا أن يعتبروا هذه العملية بمثابة أو لعملية سحب من رصيدهم الجديد الضخم من الرضـاء الدولى . انهم لم يتمكنوا من أن يخفوا لمدة طويلة ما كانوا ينفذونه فى الأجزاء التى لا يسهل الوصول اليها من الأراضى التى احتلوها حديثا ولكن كان فى مقـدورهم أن يحـاولوا ذلك وقـد حـاولوا بالفعل فبينما كانوا يقـودون (البولدوزرات) فى حى المغاربة بالقدس كانوا يزيلون فى الوقت نفسه قرى بأكملهـا من على سطح الأرض ومن أوائل القرى التى ازيلت قرى بيت نوبة وأمواس ويالو التى تقع عرب حـدود ١٩٦٧ فى نتوء اللطرون الاستراتيجى فى شمال القدس وتفرق سكان هذه القرى البالغ عددهم عشرة آلاف شخص فى كل الأرجاء وتعرضت فى سنة ١٩٦٧ أخرى مثل بيت مرسم وبيت أوى وحبلة وجفليق لنفس المصير ..

ولم يصـــادف وجود كثير من المراقبين الأجانب ممن يتوافر لديهم التصميم والمعرفة بالشئون المحلية بحيث يمكنهم اكتشاف وتسجيل هذه التصرفات وبذلت السلطات أيضـا أقصى جهـدها لتعويق العدد الضـئيل الموجود من هؤلاء المراقبين وكان من بينهم الأخت مارى تيريز وهى راهبـة فرنسية سجلت فى مذكراتها انها قررت مع غيرها من أعضاء جماعة رفاق يسوع الدينية وبعد مواجهة جميع أنواع العراقيل الرسمية النضـال من

اجل الوصول الى اللطرون ونجحوا فى ذلك وجاء فى مذكراتها ووجدنا ما كان الاسرائيليون يحاولون منعنا من رؤيته : ثلاث قرى تم تدميرها بالكامل بالديناميت والبولدوزرات وكانت الحمير تهيم على وجهها بين الانقاض وسط السكون القاتل وكانت تتناثر هنا وهناك قطع من الاثاث المحطم او وسادة ممزقة تبرز من بين أكوام الاحجار والاسمنت وعثرنا على حلة وغطائها ملقاة فى وسط الطريق فلم تتح للسكان مهلة كافية تمكنهم من أن يحملوا شيئا معهم (٥٤) ..

ويروى عاموس كينان وهو صحفى اسرائيلى اشترك فى الحرب قصة قرية بيت نوبة صدرت الينا الاوامر بسد مدخل القرية ومنع السكان من العودة اليها من مخابئهم بعد ان استمعوا الى البيانات الصادرة من الاذاعة الاسرائيلية تحضهم على العودة الى منازلهم ونصت الأوامر على أن نطلق النار فوق رؤوسهم وان نأمرهم بعدم دخول القرية وقرية بيت نوبة مبنية بالحجر المصقول وبعض بيوتها يتميز بفخامته ويحيط بجميع البيوت حدائق الفاكهة واشجار الزيتون والمشمش والعنب والمعاصر .. وكلها موضع رعاية كبيرة وتنتشر بين الأشجار أحواض الخضروات المعتنى بها وعثرنا داخل أحد المنازل على ضابط كوماندوز مصرى جريح وبعض الاشخاص المسنين جدا ووصل اول بولدوزر عند الظهر وهدم أول بيت عند أطراف القرية وفى ظرف عشر دقائق تحول المنزل الى حطام بكل محتوياته واقتلعت اشجار الزيتون والسرو من جذورها ووصل أول فوج قادم من أنحاء رام الله بعد تدمير ثلاثة منازل ولم نطلق النار فى الهواء وانما اجتبأنا بينما اتجه اليهم بعض الجنود ممن يتكلمون العربية لابلاغهم بالتحذير وكان بينهم بعض المسنين ممن لا يستطيعون المشى ونساء مسنات متذمرات وأمهات يحملن اطفالا رضعا واطفالا صغارا وكان الأطفال يبكون ويطلبون ماء وكانوا جميعا يحملون رايات بيضاء ..

وأمرناهم بالذهاب الى بيت صوره فقالوا انهم يطردون من كل مكان يذهبون اليه ويمنعون من دخول اية قرية وانهم يتجولون هكذا طوال اربعة أيام بدون طعام أو شراب وان بعضهم مات فى الطرق وطلبوا السماح لهم بالعودة الى قريتهم وان من الأفضل لهم أن نقتلهم وكان مع بعضهم ماعز أو خروف أو حمار أو جمل وكان رب أسرة يقوم بطحن القمح بيده ليطعم أبناءه الأربعة واستطعنا أن نشاهد عند الأفق الفوج الثانى وهو يقترب من القرية وكان أحد الرجال يحمل جوالا به مائة رطل من الدقيق ولقد سار

وهو يحمله ميلا بعد ميل وكان هناك مزيد من المسنين ومزيد من النساء ومزيد من الأطفال تهاووا من التعب حينما طلبنا منهم الجلوس وكان بعضهم يصحب معه بقرة أو اثنتين أو عجلا وهى كل ما يملكونه فى الحياة ولم نسمح لهم بدخول القرية لأخذ أى شيء .

واخذ الأطفال يصرخون وبدأ بعض جنودنا يصرخون أيضا وانطلقنا للبحث عن ماء لنقدمه للعرب واوقفنا سيارة تقل ضابط برتبة ماجور وضابطين برتبة كابتن وامرأة وأخذنا من السيارة « جركن » ماء ووزعناه على اللاجئين ووزعنا عليهم السجائر والحلوى وبكى جنود آخرون وسألنا الضباط لماذا يطرد هؤلاء اللاجئون من مكان لآخر فقالوا لنا ان هذا لصالحهم ويجب أن يرحلوا وقال الضباط لماذا يعنينا أمر العرب على أي حال !

ووصلت أفواج بعد أخرى من اللاجئين حتى بلغوا عدة مئات ولم يستطيعوا أن يفهموا السبب فى مطالبتهم بالعودة ثم عدم السماح لهم بعد ذلك بدخول بيوتهم ولم نستطع أن نتحمل توسلاتهم وسألنا احدهم لماذا ندمر بيوتهم بدلا من أن نستولى عليها بأنفسنا ...

وقرر قائد الفصيلة الاتجاه الى مقر القيادة لمعرفة هل هناك أوامر خاصة بكيفية التصرف معهم والجهة التى يمكن ارسالهم اليها وهل من الممكن تدبير وسيلة نقل النساء واطعام الأطفال .. وعاد ليقول انه لا توجد أوامر كتابية وان هناك فقط أوامر بطردهم وطردناهم وواصلوا رحلتهم نحو الجنوب وكأنهم قطيع شارد من الأغنام وفى المساء اكتشفنا أنهم خدعوا اذ أن البولدوزرات كانت قد بدأت فى تدمير قرية بيت صورة ولم يسمح لهم بالدخول واكتشفنا أن فرض قيود على الحدود لدواعى الأمن لم يتم فى قطاعنا فحسب بل فى جميع القطاعات الأخرى ولم يتم الوفاء بالوعد الذى أذيع بالراديو ولم تنفذ على الاطلاق السياسة المعلنة (٥٥) ..

ما أعظم الشهادة التى بدأ بها المنتصرون الاسرائيليون اذا ما حكمنا عليهم من اذاعتهم وحدها والبيانات التى تدعو المدنيين الأعداء الى العودة الى ديارهم بلا خوف ولكن كم بدا نفاق ومكر الاسرائيليين فى نظر اولئك الذين شاهدوا كما شاهدت الأخت مارى تيريز الجنود الاسرائيليين وهم يطوفون ببيت لحم ويحذرون الأهالى من خلال مكبرات الصوت بقولهم امامكم مهلة ساعتان لكى تغادروا منازلكم وتفروا الى أريحا وعمان والا فستقصف بيوتكم وكانت القرى المدمرة ومكبرات الصوت شاهدا على ذلك

ولكن التصرفات العامة للعسكريين المنتصرين كانت شاهدا أيضا على ذلك وكتبت الراهبة تقول انه من الضروري ان أعلن من غير أي لبس ان المجموعة الأولى من الجنود كانت تتصف باللطف والانسانية والشجاعة فلم يتسببوا الا في أقل قدر ممكن من الضرر أما المجموعة الثانية فكانت تضم لصوصا ومحترفي سلب وبعض القتلة أحيانا وكانت الدفعة الثالثة أسوأ من سابقتها حيث بدا انها تعمل بدافع قوى للتدمير وسردت حادثة مؤسفة :

تقدم أحد الاسرائيليين الى الأب بول الذي لم يستطع التعرف عليه بسبب ما يبدو على وجهه من نظرة الم وقال له انني صديقك من حيفا ورد عليه الأب بول « اه ولكنك تبدو متعبا جدا » فقال كلا ولكنني مصاب بخيبة أمل بسبب هؤلاء اللصوص اليهود الذين يسرقون وينهبون مثل قبائل الوندال المخربة وقد قام جنودنا في منطقة جـ بقتل امرأتين ليسرقوا حليهما ان لدى كثيرا من الروايات التي احب أن أقصها عليك ولكن لابد لي من الرحيل مع هذه الشخصيات الكريهة وأشار الى رفاق طريقه أنهم لا يفهمون الفرنسية فالى اللقاء وأرجو أن تقوم بزيارتي فانني أريد أن اتحدث اليك وبدأت سيارتهم في التحرك وتمكن احدهم من أن يسأل بالعبرية قبل انطلاق السيارة هل رحل جميع العرب ؟ ولم يكونوا قد رحلوا كلهم بعد ولكن ما يقرب من خمس سكان الضفة الغربية اي ٢٠٠ ألف شخص عبروا نهر الأردن في هذه الموجة الأولى من الهجرة الجماعية التي أعقبت الحرب وكانت هذه هي المرة الثانية التي يهاجر فيها بعض هؤلاء المساكين ولا يمكن توجيه اللوم المباشر الى الاسرائيليين بسبب كل ما أدى الى نزوح العرب ولكن الأخت ماري تيريز اكتشفت عندما ذهبت الى جسر اللنبي انهم يشعرون بسرور بالغ لخروجهم ..

واضطر اللاجئون الهاربون للذهاب الى هناك وكان معظمهم لاجئين سابقين من الحرب الماضية وكان عليهم أن يهبطوا الجسر المدمر حاملين أطفالهم واحمالهم وان يخوضوا المياه مستعينين بالحبال الممتدة وطوال اسبوعين جلس الجنود الاسرائيليون فوق مقاعد وثيرة يراقبونهم اثناء مرورهم ولو استدعى الأمر أثناء الحرب عبور الدبابات لاعيد بناء الجسر مرة أخرى خلال ساعات قليلة فلماذا يجب ان يتعرض الانسان لكل هذا الاذلال ؟ وكانت نظرات الكراهية تنطلق من اسفل ونظرات الاحتقار من أعلى على ان الامر الاكثر ايلاما كان نظرات الأطفال المذعورين وهم يقفون أمام

الجسر المحطم واتت امرأة تحمل ماكينة الخيـاطة التى تملكها وأخذت تمهمم بكلمات غير مسموعة وردت امرأة أخرى عليها بقولها « فليدمر الله بيوتهم فوق رؤوسهم » وبينما كنا نهم بالرحيل اقتربت منى امرأة تنتحب وقالت لى انها قد عبرت النهر لمساعدة بعض أقاربها المهاجـرين وانه لابد لها من ان تعود الى بيت لحم حيث يوجد أطفالها ولكن الجنود قالوا لها حينما أرادت الرجوع الى بيت لحم يجب عليها وفقا للقانون أن تذهب الى عمان ما دامت عبرت النهر واعتقدنا أنه يمكن تسوية هـذه المسـألة البسيطة بسهولة اذا ماتحدثنا الى الضابط ولكن الضابط الذى ظل جالسا فى مقعده قال : لقـد وقعت هذه السيدة عند أول نقطة شرطة وكلهم يعرفون انه بمجرد التوقيع لن يستطيعوا العودة أبدا .

اذن كان لابد ايضا من ارغام العرب على البقاء خارج البلاد وقد اتبع الإسرائيليون أسلوبين لتحقيق هذا فقد أعلنوا شرعية عـودة أى شخص بدون تصريح منهم شخصيا وهو تصريح كانوا يمتنعون عن منحه فيما عدا استثناءات قليلة كما كانوا يطلقون النار على كل من يحاول العودة بصـورة غير مشروعة ووفقا للامر رقم ١٢٥ الصادر عن قائد قوات الدفاع الاسرائيلى فى الضفة الغربيـة يعتبر أى شخص تغيب اعتبـارا من ٧ يونيو ١٩٦٧ من الضفة الغربية أو أى منطقة أخرى من الأراضى المحتلة ويحاول العودة بدون تصريح اسرائيلى متســـللا وسيصبح بذلك معرضـــا لأى نوع من أنواع العقوبات ومن بينها السجن مدى الحياة ومعنى هـذا ان صفة التسـلل لا تنطبق عـلى اللاجئين الذين فروا امام القتـال أو الارهـاب الاسرائيلى فحسب وانما تنطبق أيضا على عـدة الاف ممن كانت أماكن عملهم مثلا فى الضفة الشرقية أو الكويت ومن كانوا بالمصادفة فى الخارج فى عمل أو اجازة عنـــدما اندلعت الحـرب وهكذا تكررت ســـنة ١٩٤٨ مرة أخـرى بكل تفاصيلها (٥٨) .

وكان المتســـللون يحاولون أن يخوضوا الميـاه عبر الأردن تحت جنح الظلام وفى فترة كان عـــدد الذين يعبرون النهر يتراوح ما بين ثلاثمـائة وخمسمائة شخص كل ليلة ولكن المخاطر كانت جسيمة سواء كان المتسلل فدائيا مسلحا أو امرأة تحاول الانضمام ثانية الى أسرتها تماما كما كان الحال بعد عام ١٩٤٨ بالنسبة لأى شخص يعبر خطوط الهدنة سواء كان يبحث عن أقاربه المفقودين أم يحاول اقتطاف بعض البرتقال من بيارته فقد كان الاسرائيليون ينصـبون الكمائن ويطلقون النـار على كل ما يتحرك وكانت النتيجة وفقا لنشرة « امبيريال ينوز » التى تصدر فى المنفى أنه تتناثر كل

بصباح فوق مياه الأردن جثث رجال ونســاء وأطفال وجثث أسر بأكملها يقتلن أثناء محاولتها العــودة الى ديارها بدون الحصــول على التصريح الاسرائيلي الصعب المنال (٥٩) ...

القــدس الجــديدة :

وبانتهــاء الحرب والفرص الفريدة التى أتاحتهــا واصل الاسرائيليون عملياتهم بحــذر أكبر ولكن باحساس لا يتضاءل بالهدف بعيد المــدى وفى القدس استمروا تحت الحاح دار الحاخامية القوية فى تهويد الأماكن المقدسة التى بدأت بازالة حى المغاربه وهدأت النزوات التى ثارت فى أعقاب الحرب مباشرة حول تشييد معبد بين المسجد الأقصى وبين مسجد قبــة الصخرة أو حتى ترميم الهيكل ذاته ولكن رجال الدين اليهــودى استمروا يطالبون بانتظام بكشف جانبين كاملين من الحرم الشريف ويشكلان المنصة الضخمة التى يقوم فوقها المســجدان من ناحية الركن الجنوبى الغــربى بالقرب من حائط المبكى القــائم الآن وحتى بوابة القبائل فى الطرف الشمالى الشرقى ويوجد على امتداد هــذه المســافة التى تبلغ ثلاثة أرباع كيلومتر الأوقاف الدينية وتضم مدارس ومساحات وتكايا فضــلا عن مئات العــرب الذين يعيشون فيها وهى أشياء تتجمع حول أى أماكن مقدسة عظمية يحج اليها الناس وقد نمت عبر قرون وهى نمو عضوى يعتبر جزءا من الاثر الشريف نفسه وازالة هذه المبانى يعتبر بمثابة تشويه وفصل للمســاجد عن بيئتها الطبيعية ولم تكد السلطــات المسئولة تنشر فى صحيفة الجيروساليم بوست نبأ قصيرا حــول الحاجة الى تنظيف ٧٢ مترا من حائط المبكى حتى بدأوا الحفر من أجل التنقيب عن الابعاد الجنوبية للحائط متجاهلين احتجاجات المجلس الاسلامى وظهرت التصــدعات فى مبان تاريخية مثل تكية الفخرية وهى المقر القــديم لمفتى طائفة الشافعية وفى مسجد مجاور بالاضــافة الى ظهورها فى اربع عشرة دارا مخصصة للمسئولين عن الحرم وصدرت الأوامر للسكان باخلاء المبانى وكان مصير الفخرية هو نفس المصير الذى آل اليه حى المغــاربة منذ شهرين وبعد فترة وجيزة حول الاسرائيليون اهتمامهم نحو الشمال واستغلوا ذريعة العثور على قنابل بالقرب من بوابة السلسلة وهى قنابل يعتقد العرب من سكان المدينة أن الاسرائيليين بثوها بأنفسهم لمصادرة كل الممتلكات ومن بينها المدرسة الطانكيزية العريقة فى الجانب الشمالى من ساحة حائط المبكى ..

وفى الوقت نفسه كانت وزارة الشئون الدينيــة تنقب شــمالا تحت

المبانى العربية لمحاولة تتبع امتداد حائط المبكى ولم يكن هدفها النهائى النافذ وهدف العناصر الوطنية المتطرفة أبعد ما يكون عن المعتقدات الدينية والتى تكاتفت مع الوزارة فى التنقيب عن الاثار فقد كانوا ينفذون عملية تقويض مزدوجة للمبانى ذاتها وللمقاومة التى تبديها العناصر المعتدلة فى البلدية ووزارة الخارجية والتى كانت تشعر بقلق على سمعة اسرائيل على النطاق العالمى وعلى مصلحة المواطنين العرب وكان هذا شعور عدد ضئيل ومن مفهوم محدود للغاية وفى مايو ١٩٧٢ بعد أن تم الكشف عن ١٨٠ مترا وكان لا يزال هناك مائة وستون مترا للوصول الى الركن الشمالى الغربى حدث ما كان المتطرفون يريدونه فى الواقع فقد تصدع مبنى من العصر المملوكى يقع خلف بوابة الحديد بفعل تشققات ضخمة وأصبح مهددا بالانهيار وتم اخلاؤه من السكان ودعمت البلدية المبنى بسقالات فوقه وبدأت فى حفر أربع فجوات صغيرة فى جدار الحرم المكشوف فى هذه النقطة لتثبيت الدعامات المستديمة بداخلها واسرع الزعماء الدينيون الثائرون يحاولون وقف هذا الانتهاك لحرمة الأماكن المقدسة وجمعوا الشظايا ولفوها فى الحرير وطافوا بها المدينة وعلى رأسهم وزير الشئون الدينية واضطرت الحكومة الى اصدار قرار يؤكد انه لا يمكن تدنيس الحائط لدعم البناء المهدد بالانهيار ولكن مقاومة العناصر لم تكن قد تقوضت حتى الآن فلم توافق البلدية على هذه الذريعة للهدم كما حدث بالنسبة للفخرية بل انها بدلا من ذلك دبرت وسائل تتطلب شيئا من الحذر وتكلف كثيرا من الأموال لصيانة المبنى .

الا انه من المعتاد فى اسرائيل أن ينتصر المتطرفون فى نهاية الامر فقد اتجه اليهود المتدينون الى هناك واخذوا يقيمون الصلاة وسط الحجارة والسقالات وقام انصار التوسع اليمينيون من اتباع مناحم بيجين بمساندتهم وأصدر اسحاق نسيم كبير حاخامات طائفة السفرديين من هناك بيانا متعصبا بعيدا كل البعد عن الديانة واليهودية : ايها المقاولون بالمدينة أين جراراتكم وآلاتكم التى أدت عملها كما يجب فى أول ليلة لتطهير الأرض أمام حائط المبكى (أى ازالة حى المغاربة) لقد قررت البلدية ازالة الأحياء الفقيرة والخرائب ولابد من تنفيذ هذا القرار بدون خوف أو خجل .. ولابد من اصدار أوامر الاخلاء الى المئات الذين يسكنونها ..

ولن نكف عن المطالبة بأصوات عالية أو عن النضال الى أن يتم كشف « حائط المبكى » من قمته حتى قاعدته ومن طرفه الجنوبى حتى طرفه الشمالى بالقرب من بوابة القبائل (٦٠) ..

ولم يقتصر عمل الاسرائيليين بالطبع على خلق حقائق دينية رغم أنهم شرعوا بحماس شبه دينى فى خلق حقائق دنيوية قدر لها ان تجعل من القدس فى تركيب حياتها اليومية مدينة يهودية أكثر مما تعتبر باريس فرنسية أو لندن انجليزية وكان أول أمر واقع دنيوى هو ضم المدينة رسميا الى اسرائيل وأدى توسيع البلدية الاسرائيلية بناء على أمر وزير الداخلية رقم ٥٧٢٧ فى ٢٨ يونيو الى بلوغها مدى يتجاوز قليلا حدود البلدية الأردنية وصدرت بسرعة سلسلة كاملة من القوانين المدعمة لهذا الوضع وقاموا بتهديد ادارة القدس وابلغ القائد العسكرى المساعد لمدينة القدس فى ٢٩ يونيو روحى خطيب عمدة القدس الشرقية « انه يشرفنى أن ابلغكم » حل مجلس البلدية التابع له وتم الاستيلاء على ممتلكات البلدية وسجلاتها واخضعت جميع الادارات ـ الحكومية للسلطة الاسرائيلية وقاموا بتهديد اقتصاد القدس فأغلقت البنوك العربية وصودرت أموالها وفرض النظام الضرائبى الاسرائيلى وكذلك النقد الاسرائيلى ومنعت منتجات الضفة الغربية من دخول المدينة واحتكر الموردون الاسرائيليون عملية تزويد المدينة بهذه المنتجات وقاموا بتهويد سكان القدس واضطر جميع رجال الأعمال والحرفيين والمهنيين الى الحصول على تصاريح اسرائيلية لمزاولة نشاطهم واصبح على المدارس الرسمية أن تلتزم بالمنهج الدراسى الاسرائيلى وخضعت المحاكم المدنية للسلطة القضائية الاسرائيلية وأصبح على المواطن العادى أن يدلى بصوته فى انتخابات البلدية الاسرائيلية وقد تم أيضا تهويد الأراضى والممتلكات العربية ..

اننا نستولى على الأرض أولا ويأتى القانون فيما بعد وهكذا شرح لى يهوشافاط بالمون مستشار العمدة للشئون العربية بايجاز تام سياسة بلاده الخاصة بالاستيلاء على ما لا تملكه لقد كان الاستيلاء على الأرض يشكل دائما دافعا أساسيا لدى الصهيونية وكان الاستيلاء عليها فى القدس بمثابة دافع مقدس لا يقاوم وطبق الاسرائيليون فى المدينة المقدسة نفس الأساليب التى تعلموها فى العهود السابقة وهى أسلوب القلعة والخط الدفاعى المعدل ليتفق مع بيئة حضرية فريدة فى نوعها وسعوا عن طريق تطبيق برنامج محموم لنزع الملكية والبناء والتهجير والاستيطان الى طمس المطالب العربية الباقية فى القدس بأسرع ما يمكن عن طريق الوجود المادى وحده وهى مطالب لا تقدم على اساس عاطفى وقرون طويلة من السيادة فحسب وانما على الشرعية البحتة للملكية الازالية للارض وكان اليهود قد احتفظوا فى عهد الانتداب بأغلبيتهم العددية فى المدينة نتيجة للمحاولات الصهيونية لحشد اليهود فى المدينة بيد أنه لو كانت القدس قد ولت وفقا لما أوصى به قرار للامم المتحدة

صادر فى نوفمبر ١٩٤٧ لضمت حدود المدينة وفقا لمشروع الامم المتحدة مائة الف يهودى فى مقابل مائة وخمسة الاف من العرب والطوائف الأخرى (٦١) .
أما بالنسبة للارض فان اليهود لم يكونوا يملكون سوى خمسة الف دونم فقط أى حوالى ١٨٪ فقط من مساحة القدس (٦٢) وفى الجانب الشرقى الذى أصبح تحت السيادة الأردنية فيما بعد كان اليهود يمثلون نسبة عددية أقل كثيرا وكانوا يملكون شريحة ضئيلة جدا ربما ٦ر٪ (٦٣) من الأرض ..

انا نستولى على الارض .. استغل اليهود فيما بين سنة ١٩٤٨ - ١٩٦٧ قانون ممتلكات الغائبين الذى أصدروه ليستولوا على حوالى عشرين الف دونم من الأرض (٦٤) بالاضافة الى الاستيلاء على غنيمة ثمينة من الممتلكات المنقولة وغير المنقولة التى يملكها العرب فى الجانب الغربى من المدينة واستولوا منذ سنة ١٩٦٧ على ما يزيد على خمسة عشر الف دونم فى الجانب الشرقى (٦٥) وتضمن هذا بالطبع جزءا صغيرا جدا من الأراضى اليهودية التى تخلى عنها اليهود سنة ١٩٤٨ ووجد الاسرائيليون وقد اخذتهم الدهشة ان هذه الاراضى لم تمس على ما يبدو من الناحية القانونية فقد كان هناك حارس أردنى على ممتلكات الغائبين أيضا. وقال المحامى الاسرائيلى حاييم هارون فاليرو أنه كان منصفا للغاية .. ولا اعرف كل شىء عن الممتلكات ولكننى أعلن ان قدرا كبيرا منها ظل مسجلا حتى يومنا هذا بأسماء اليهود كما كان الحال تماما فى عهد الانتداب ولم تصادر هذه الممتلكات ولم تنتقل ملكيتها الى الحكومة الأردنية (٦٦) وغنى عن القول انه كان انصافا من جانب واحد فان عرب القدس الموجودة الذين قدموا طلبات استعادة الاراضى التى تركوها وراءهم فى الجانب الاسرائيلى سنة ١٩٤٨ عوملوا بلا رحمة اذ ان مهمة الحارس الاسرائيلى على عكس الحال بالنسبة لزميله الأردنى لم تكن المحافظة على هذه الممتلكات لمصلحة مالكها الشرعى وانما حرمانه منها ..

ويأتى القانون فيما بعد .. وفى واقع الامر فانه لم يأت على الاطلاق بالنسبة لمعظم العرب . ربما كانت هناك بعض هذه الاستثناءات استثناءات دعائية ولكنهم كانوا يعلمون جيدا انه لا جدوى من رفع قضاياهم أمام المحاكم . وثمة مثل عربى شائع فى القدس يقول : اذا كان عدوك هو قاضيك فلمن تشكو ؟ وبالاضافة الى هذا فان الاسرائيليين كانوا يصادرون أراضيهم للمصلحة العليا للمجتمع كله فلم يطبقوا فى هذه المرة قانونهم الخاص بممتلكات الغائبين وانما طبقوا قانونا آخر من القوانين البريطانية وهو قانون الاستيلاء

على الأرض للاغراض العامة الصادر سنة ١٩٤٣ أو الذى أعادت الحكومة الاسرائيلية اليه الحياة من جديد من أجل هذه المناسبة وقد أثبت هذا التشريع البريطانى المفترى عليه كثيرا والذى يتم التخلى عنه اطلاقا انه لا يزال مفيدا ولقد كانت روعة هذا القانون انه يمكن استغلاله وفقا لهوى اسرائيل وان لم يكن هذا بالطبع قصد المشرع مثل تحويل القدس الى مدينة ذات طابع يهودى أكيد وكان لبريطانيون قد نصوا على ضرورة تعويض صاحب الارض أو العقار المصادر وكان الاسرائيليون يعرضون هذا التعويض كما ينبغى ولكنهم لم يؤدوه على الاطلاق من الناحية العملية فلم يكن فى استطاعة العرب كما يعرف الاسرائيليون جيدا أن يأخذوا هذه الأموال. على أى حال فان معنى هذا انهم يبيعون فلسطين ولكن على أى حال ما معنى أن يأخذوا هذه الأموال فى حين أن كل ما يعرض عليهم ليس الا الفتات كما يقول العرب بسخرية ؟ . .

وبحلول عام ١٩٧٢ وصلت قيمة الارض فى الاحياء الراقية بالمدينة مثل حى القطامون الى حوالى ٣٠ الف جنيه استرلينى للدونم أو أكثر من هذا ولا يمكن ان تقل قيمة أى من الخمسة عشر الف دونم باستثناء قليل جدا منها عن ثلاثة آلاف جنيه ثمنا للدونم الواحد ويجمع كل العرب تقريبا على ان الاسرائيليين لا يعرضون عند مناقشة المعاملات المالية الا عشرة أو واحد على عشرين أو واحد على ثلاثين من هذه القيمة فقط ولقد ظل الاسرائيليون يلتزمون جانب التكتم البالغ فيمايتعلق بالمسألة برمتها ولكن العروض التى قدموها لتعويض سكان القدس أى الاقلية التى لا زالت تستطيع الاقامة هناك عن الممتلكات التى فقدوها فى أى مكان باسرائيل بعد ١٩٤٨ لكن هذه العروض يمكن اعتبارها مقياسا لنواياهم وكان الحارس على ممتلكات الغائبين جردهم تماما من كل ما يملكونه ، ولكن فى ١٩٧١ قررت وزارةالعدل فجأة أنه يجب تنفيذ شىء من العدالة وتم تخصيص مبلغ ١٥٠ مليون دولار لهذا الغرض وتقرر دفع التعويضاتبأسعار سنة ١٩٤٨ بالاضافة الى ٢٥٪ فى شكل سندات اسرائيلية تقسط على مدى عشرين عاما . . وقد شرح لى رجل أعمال بارز وهو يصحبنى فى جولة عاطفية حول القدس الغربية اشار خلالها الى المنزل الذى ولد به هو ووالده وشرح رجل الأعمال هذا المعنى العملى لهذا القرار عندما وصلنا فى النهاية الى ممتلكات تجارية اشترتها أسرته سنة ١٩٤٤ وقال لو كانت مازالت فى حوزتى لما قبلت بيعها بأقل من أربعمائة وخمسين ألف جنيه استرلينى أما اذا قبلت التعويض الاسرائيلى فأعتقد اننى سأحصل على ستة آلاف جنيه استرلينى فقط . .

وهذا يعنى أنه سيحصل على واحد على خمسة وسبعين من قيمته الحقيقية ..

وبالرغم من أن الكتيبات التى تصدرها البلدية والتى يبدو انها مصممة من أجل القراء الذين لا يوجهون أى اسئلة تؤكد أن العرب حصلوا على تعويض بالرغم من هذا يعترف المسئولون عندما يواجهون بأسئلة لم يألفوها وتنطوى على دليل يؤكد عكس هذه المزاعم بان العرب لم يحصلوا على تعويضات لم يلجأون الى تقديم حجة بديلة وهى أن العرب الذين يصرون على الاحتفاظ بحقوقهم فى الملكية يرفضون التقدم للحصول على ما يستحقونه من تعويض ويعترف مستر بالمون أننا لم نصل بعد الى مرحلة بحث أسعار الأرض فقد كان من الصعب قياس مثل هذه الأمور على اساس المعايير النقدية الجامدة ولكن اذا اقترحنا بناء على تقويم متحفظ أن متوسط قيمة الدونم هو ٣ آلاف جنيه استرلينى فهل كان يعنى أن الاسرائيليين بسبيلهم الى اكتساب ارض فى القطاع الشرقى للقدس تبلغ قيمتها ٤٥ مليون جنيه بلا مقابل تقريبا ؟ وأجاب بقوله نعم انها ليست كثيرة وربما يبدو الامر غريبا فى نظرك وأنت قادم من بيروت ولكن كل شىء قانونى والقانون واضح أى قانون المصلحة العامة أن القانون اكبر منى أكبر من جولدا مائير لا يمكن ان تترك القدس مثل الصحراء الجدباء تجوب الحمير شوارعها ..

لقد انعكس هذا النقص الواضح فى المشاعر الانسانية والظاهر فى حديث مستر بالمون بقوة أكبر فى تصرفات بلديته وأصبحت أصغر عملية استيلاء قامت بها اسرائيل وشملت مائة وستة عشر دونما بالقطاع اليهودى فى المدينة مثالا مؤثرا لنقص هذه المشاعر الانسانية فلم تكن هناك حالة أكثر تصويرا للدين الحقيقى وهو روح المصالحة الحقيقية من هذه الحالة الواقعة على مرمى حجر من أقدس الأماكن اليهودية فقد بادر ايجال الون نائب رئيس الوزراء بالانتقال الى منزل جديد فخم يمتد امامه حتى وادى اقدرون ولكن المنظر ظل بشعا خلف المنزل لفترة طويلة حيث تمسك الملاك العرب بمنازلهم ورفضوا مغادرتها وآثروا البقاء وسط الخراب الذى صنعته الجرارات وفرق التدمير وقبل سنة ١٩٤٨ لم تزد ملكية اليهود فى الحى اليهودى فى القدس عن ٢٠٪ أما بعد سنة ١٩٦٧ فقد استولى الاسرائيليون عليه كله وأجبروا بلا رحمة ٥٥٠٠ عربى ممن يقيمون بالحى على الخروج منه (٦٨) وكانوا يصفونهم بأنهم مغتصبون وانعددا قليلا من المغتصبين أى الذين حولتهم اسرائيل الى لاجئين قد وجد منازل مؤقتة فى الحى ..

ولكن الحقيقة أن معظم هؤلاء السكان كانوا من الأسر العريقة التى تعيش فى القدس منذ أجيال بعيدة (٦٩) .. ومن الناحية الظاهرية رحل هؤلاء السكان البالغ عددهم ٥٥٠٠ فرد بمحض ارادتهم بعد حصولهم على تعويضات سخية على حد ما ذكرته كتيبات البلدية وعندما ألمحت الى احد المسئولين عن اعادة البناء بان هذا امر غير صحيح كاد يفقد اعصابه ويثور غضبا وساله وهل نطلق عليهم الرصاص ؟ هل نطردهم عبر النهر ؟ هل نحرمهم من العمل ؟ وهم لم يفعلوا شيئا من هذا ولكن الأمر الذى كانوا يلجأون اليه عندما يفشلون فى اقناع مستأجر عنيد (فمعظم هذه الاملاك تابعة للاوقاف الدينية المؤجرة لأشخاص لا يشعرون بانهم يبيعون فلسطين بقبولهم هذا التعويض) .. برفض التعويض غير الكافى المعروض عليه أن يجعلوا حياته مستحيلة عن طريق تدمير كل شيء حوله ومن بين ذلك جزء من منزله كالمدخل مثلا أو دورة مياه خارجية وتتصدع الجدران ويبدأ السقف فى الرشح ويتم قطع الماء عنه وتمتليء الحجرات بتراب خانق وكانوا يلجأون الى الارهاب فكان عزرا بن شيمون أو عزرا فقط كما يسميه العرب الذى ينفذ العمليات الدنيئة فكانت توجد مجموعة من الارفف تحف صورة بالألوان للجنرال ديان تحمل مجموعة طلقات مختلفة الاحجام وقنبلة يدوية وشيئا يبدو كأنه سونكى وكانت البلدية تستغل بصورة ساخرة فقد قدمت ربة بيت لى أمرا كتابيا تلقته باخلاء منزلها من أجل المحافظة على حياتها واذا كان منزلها غير آمن فان ذلك يرجع بالطبع الى قيام جرارات البلدية بالحفر حول المنزل من جميع النواحى الامر الذى يعرضه للتصدع وكانوا يلجأون الى حيل حقيرة فقد روت فتاة أنه عندما جاءت شرذمة من الجنود والعمال الى منزل أسرتها ومعهم الاوامر بهدمه طلبوا من والدها ردا على احتجاجاته أن يذهب لمقابلة العمدة يتدى كولك فى هذا الصدد وتركهم والدها وهم يحملون الاثاث الى خارج المنزل ولكنه عندما عاد حاملا امرا بوقف التنفيذ من كولك كانوا قد هدموا امام انظار أسرته المنزل مستخدمين سلسلة مربوطة الى البولدوزر ..

وحدث هذا أيضا بالنسبة لمناطق أكثر إتساعا الى حد كبير تقع خارج أسوار المدينة القديمة للنساء من قرية (لفتة) والتى تعرض سكانها لمصادرة أملاكهم مرتين وهؤلاء النساء قلن لى انهن أمضين ليلة تعيسة فى السجن وأمضت احداهن الليل فى زنزانة مع البغايا وذلك لمحاولتهن مقاومة حرث الجرارات لأراضيهن وحدث هذا مع الصبى اليتيم من قرية (عيسوية)

الذي أشـار الى المكان الذى كان يقوم فيه عمه بتجميـع ثلاثين فـردا من اسرته لاعادة بناء منزله المتواضع كلما قام الاسرائيليون بهدمه ولم يستسلم الا بعد المحاولة الثالثة ثم المرأة التى اصطحبتنى الى مساحة واسعة مليئة بالاحجار والحطام بالقرب من جبل الزيتون وهى بقايا منزل فخم مهجـور كان مملوكا لفلسـطينى أمريكى غائب وقـام الاسرائيليون بهدمه بواسـطة البولدوزر وقالوا ردا على استفسارات القنصل الأمريكى أن المنزل لم يكن له أى وجود على الاطلاق وتلك مجرد أمثلة قليلة لعمليات السلب المنتظمة التى كان الاسرائيليون يحاولون اخفـاءها عن العين المتطفلة وهى مجـرد مؤشرات للمعنى الحقيقى للخبر الذى قد تنشره احدى الصحف الاسرائيلية ويفيد بما يلى اغلقت قوات الأمن أمس مداخل قرية النبى صموئيل ودمرت بعض المبانى القديمة التى كانت تمثل خطرا على الجمهور ولم يسـمح للصحفيين بما فيهم المراسـلون الأجانب ومصـورو التليفزيون بدخـول المنطقة (٧٠) ..

واكدت السلطات للعـرب الذين لم يتم اخراجهم بالقـوة على الاطلاق والذين تلقوا تعويضـات سخية على حـد ما ورد فى كتـاب البلدية بأنهم سيحصـلون على مسـاكن بديلة وأخبرنى المسئولين بسعـادة عن المنطقة السكنية الجديدة بوادى جوز وبدا هذا امرا مشجعا فقد علمت من المقاولين أن تولى العرب عملية البناء من أجل العرب وصلت الى ادنى مستوى لها وأن تكاليف البناء تضاعفت أربع مرات تقريبا منذ حرب ١٩٦٧ فقـد كان خطر المصادرة قائما دائما وان الاسرائيليين يتلكأون فى أصدار تراخيص البناء ولكن ربما اجد بالرغم من هذا كله ردا حاسما على شكاوى العرب فى وادى جوز وكان ما وجدته هو ثمانية وعشرين شقة سكنية صغيرة جدا منها ست وعشرون خالية ومغلقة وكان هناك شقتان فقط مشغولتين بالسكان وروى لى سالم نمارى وهو أول ساكن ينتقل الى احدى الشقتين قصته :

كنت اعيش فى الحى اليهودى وقد هدموا اجزاء كبيرة من منزلى حتى انى كدت اعيش فى العـراء ورفضت الانتقال حتى اجـد مسكنا آخـر ولم أستطع العثور على مسكن فعرضوا على مسكنا فى وادى جوز وقالوا لى فى البداية انهم يطلبون ان ادفع نقدا مبلغ ١٥٠٠ جنيه ثم طلبوا ان ادفع ٢٣٠٠ جنيه ولم أستطع توفير فرق المبلغ وظللت اتردد على البلدية لمـدة ٤ أيام تقريبا كل أسبوع لمدة ستة أشـهر ولم أستطع تخفيض المبلـغ الى ١٥٠٠ جنيه مرة أخرى الا بعـد ان اتصلت بصحفى بالجيروزاليم بوست معروف

بمعارضته للبلدية وهدد بنشر قصتي وحدث لى نفس الشيء فيما يتعلق بأقساط الدين فلم أحصل على ما أريد الا بعد ما اقتحمت مكتب المدير وسيكلفني هذا المسكن اجمالا سبعة آلاف جنيه وقد استغرق الأمر عشرين شهرا حتى اصل الى هنا ولا يضيع الاسرائيليون على الاطلاق أى فرصة للدعاية فقد بلغت بهم الصفاقة فى نهاية الأمر أنهم أقاموا احتفالا بهذه المناسبة على نفقتي الخاصة وظهرت على شاشة التليفزيون وعلى صفحات الجرائد ..

واراني صورة له وهو يتلقى باقة زهور امام جمهور العرب واليهود وقال انني اتمتع بمزايا معينة فأنا اتكلم العبرية بطلاقة وزوجتي يهودية ولى صديق يعمل محاميا فى تل ابيب ولك ان تتصور كيف يكون الحال بالنسبة للاخرين ..

وكانت عملية الاستيلاء على الارض هى العملية الرئيسية ولكن لا يمكن فصلها عن عدد من الاجراءات غير القانونية الأخرى التى سهلت عملية الإستيلاء عن طريق أحداث تآكل فى المجتمع الفلسطيني وكانت أقصى هذه الاجراءات وربما أكثر قسوة من التجريد من الممتلكات هو النفى الدائم لعرب القدس ويقدر روحى الخطيب عمدة المدينة السابق عدد الذين ينتمون الى المدينة بالمولد أو الاصل أو بحقوق الملكية والذين لا يمكنهم العودة بحوالى مائة ألف شخص وقد نفى البعض مثله هو شخصيا بسبب نشاطهم المناهض لاسرائيل الا ان الاغلبية العظمى كانت من الغائبين الذين لم يسمح لهم بالعودة وتشمل ستين ألفا من سكان المدينة الذين غادروا فلسطين سنة ١٩٤٨ وخمسة آلاف تصادف أن كانوا فى الخارج سنة ١٩٦٧ اما لانهم هربوا أو كانوا يدرسون فى الخارج أو كانوا يمضون أجازة أو مسافرين فى عمل ما أو مجرد سائقى سيارات أجرة يقومون برحلات لنقل ركاب الى عمان أو دمشق بالاضافة الى خمسة وثلاثين ألف طفل ولدوا وشبوا فى المنفى (٧١) ولم يحاول الاسرائيليون اخفاء الامر فقد كانوا مصممين على تقليل عدد سكان القدس بصورة أكثر فاعلية من أى مكان آخر وقد ساعد كثير من سكان القدس بعد حرب ١٩٦٧ ممن لم يستطيعوا مواجهة قسوة الاحتلال وتقلباته من جانب الاسرائيليين بايسارهم الهجرة وكان العرب المسيحيون الأكثر ثقافة وقدرة على التكيف من مواطنيهم المسلمين فى مقدمة هذا الهروب الجماعى المحزن بلا أمل أو سعادة (٧٢) على حد وصف الأنبا رايا أسقف الجليل وفقا لأقوال أسقف آخر هددت هذه الهجرة بتخفيض

الدور الذى يلعبه المسيحيون فى الأراضى المقدسة الى ما لايتعدى القيام بحراسة المتاحف ورعاية الأماكن المقدسة (٧٣) ..

وتعرضت العناصر الاكثر نشاطا فى المجتمع الفلسطينى بالقدس وتضم صفوة الاقتصاديين والمثقفين والمفكرين لأسوأ مصير فقد واجه الشباب والطلبة أخطر المشاكل وتعرضوا بعد ١٩٦٧ لنفس العوائق التى عانى منها عرب اسرائيل منذ سنة ١٩٤٨ ، وقد اضطر الأطفال فى المدارس العربية باسرائيل الى التعرف على ثقافتهم العربية وتاريخهم ودينهم من خلال وجهة النظر الاسرائيلية وشاهدوا كل هذا يتعرض للسخرية والتزييف المتعمد وتحول التاريخ العربى الى سلسلة من الثورات والمذابح والضغائن والسلب بينما احيط كل شىء فى الماضى اليهودى بهالة من التمجيد والتكريم ولم يتعلموا شيئا عن العرب الا فترات ضعفهم ولم يتعلموا شيئا عن عظمتهم ولم يتلقوا الا معلومات عابرة عن أبطال الماضى مثل النبى والخليفة هارون الرشيد وصلاح الدين وتلقى التلاميذ العرب خلال السنوات الأربع للتعليم الثانوى ٣٨٤ حصة فى التاريخ اليهودى فى مقابل ٣٢ حصة فقط فى تاريخهم وتعتبر دراسة العهد القديم اجبارية بينما لا تدرس على الاطلاق الديانتان الاسلامية أو المسيحية وكان المستوى العام للتعليم منخفضا جدا حتى أن العرب الذين كانوا يمثلون عشر السكان فى سنة ١٩٦٦ كانوا يتباهون بأن عدد الطلبة الجامعيين العرب بلغ مائة وواحدا وسبعين طالبا مقابل ١٤ الف طالب يهودى (٧٤) .. ولذلك عندما طبق الاسرائيليون منهجهم الدراسى فى المدارس العربية فى القدس الشرقية كانت النتيجة مباشرة ومثيرة فقد كان معنى هذا ان على الطلبة العرب أن يفقدوا الأمل فى الحصول على تعليم جامعى اذ كانت الأماكن المخصصة للعرب فى الجامعة العبرية محدودة جدا وان لم تكن لهم حصة محددة ولم يعد هناك امل فى نجاح الطلبة المتقدمين لامتحان الشهادة الثانوية الاسرائيلية التى تؤهلهم لدخول الجامعة العبرية الا اذا كانوا على مستوى عال جدا من الذكاء نظرا لمواجهتهم فجأة للغة أجنبية وثقافة أجنبية ونظام تعليمى غريب عليهم ولكنهم اذا قاموا بهذه المحاولة فانهم يحرمون أنفسهم من فرصة الحصول على الشهادة العبرية المعدلة أى الشهادة التوجيهية التى تمكنهم من دخول جامعة عربية وفقدت عدة مدارس مشهورة مكانتها السابقة وكانت كلية الرشيدية التى ازدهرت منذ العصر العثمانى تضم ثمانمائة طالب قبل حرب الأيام الستة وبلغ عدد الطلبة بها عام ١٩٧٢ أربعة عشر طالبا فقط فقد انتقل الطلبة والمدرسون الى مدارس خاصة أو حتى الى ملاجىء لا تخضع للتشريعات الاسرائيلية ولكن

الغزو الاسرائيلي أدى الى تدهور حاد فى المستويات التعليمية وحدث انخفاض كبير فى عدد الحاصلين على الشهادة العامة البريطانية لاتمام التعليم الثانوى وظل الحال كذلك الى أن تحسن الوضع قليلا عندما توصل الاسرائيليون الى حل وسط مهم فقد سمحوا طلبة المدارس الثانوية العامة بالدراسة للحصول على شهادة الباجروت وشهادة التوجيهية فى وقت واحد ..

وثمة شيء آخر طبقه الاسرائيليون برمته فى القدس الشرقية وهو نظامهم الضرائبى ولم يكلفوا أنفسهم عناء التاكد عما اذاكان هذا النظام صالحا للتطبيق فعلا أم لا وبالطبع لم يكن قابلا للتطبيق هناك فان اسرائيل على عكس الاردن لديها إقتصاد مرتفع الضرائب اى أجور مرتفعة مع معدل عال من الانتعاش المالى فهل يمكن معاملة صاحب المكتبة فى شارع صلاح الدين وصاحب محل البقالة الصغير فى المدينة القديمة والموصف المدنى بحى الشيخ جراح نفس المعاملة الضريبية التى يعامل بها اقرانهم فى القدس الغربية وهل يمكن وضع المواطن العربى الذى لا يتلقى أى اعانة لتعليم ابنائه او لبناء منزله بالتقسيط على قدم المساواة مع الاسرائيلى الذى يحصل على خدمات اجتماعية من المهد الى اللحد ؟

وبالمثل اذا كانت ضرائب البلدية تحسب على أساس المساحة التى يشغلها العقار فهل يجب تقيمها على حى سكنى او تجارى رئيسى فى القدس الشرقية ذات العقارات الفسيحة هل يجب فرض هذه الضرائب عكس نفس اساس مثيلها فى القدس الغربية ذات العقارات الضيقة ؟ لقد كان الإختيار الذى لابد وان يواجهه المالك فى القدس هو اما الرضوخ للنظام الجديد وهو عبء كان من الصعب واحيانا من المستحيل تحمله او أن يختصر خسارة ويغادر المدينة ولك أن تتصور مشاعر ساكن القدس الذى يعتبر « غير مواطن » والمعرض للطرد فى أى وقت عندما يضطر الى المساهمة دوريا الى جانب مساهمته فى الضرائب المعتادة فى قروض الدفاع وبمعنى آخر المساهمة فى شراء طائرات الفانتوم لالقاء القنابل على اخوانه العرب .

وقد انعم الاسرائيليون على العرب بالديمقراطية التى يعتبرها العالم العربى فى كثير من الأحيان انجازهم الرئيسى فى المنطقة التى تفتقر اليها وحظى العرب بحق الادلاء بأصواتهم فى انتخابات المجلس البلدى وقداشترك فى الانتخابات فى أول مرة حوالى ٤ آلاف ناخب من بين ٣٧ الفا ممن يتمتعون بحق التصويت ووصف أحد المسئولين هذا بانه أمر محرج للزعماء العرب والواقع أنهم لم يتجهوا الى صناديق الاقتراع فحسب بل انهم أبدوا حماسا

كبيرا لممارسة حقوقهم الديمقراطية وازدحمت لجان الانتخاب بمئات العرب المتدافعين والمتزاحمين من أجل الادلاء باصواتهم وقد اتجهوا الى لجان الانتخاب فى أتوبيسات تحمل شعارات مثل « نريد تيدى كولك » ورفض العرب الذين لم تكن اسماؤهم مدرجة فى قوائم الانتخابات الانصراف بدون الحصول على اقرارات كتابية بانهم اشتركوا فى الانتخابات ولكن سرعان ما اتضح ان العملية كانت منظمة تماما مثل الحملة العسكرية على يد مؤيدى كوليك الذين طردوا بعنف انصار الاحزاب الاخرى الذين كانوا يحاولون كسب اصوات العرب لصالحهم وكان السبب وراء حماس العرب هو الخوف الذى اشيع فى نفوسهم عن عمد بانهم سيفقدون وظائفهم اذا لم يصوتوا لصالحه . . وقد انكشف كل هذا فى الصحف الاسرائيلية لا بدافع الخوف على الديمقراطية وانما نتيجة لشعور الاحزاب الاخرى بالغيرة وقد لخص الدكتور روزنبرج الوضع فى صحيفة يدعوت احرنوت يقول ان ظروف تصويتهم معروفة تماما ولكننا لن نتناولها هنا وذلك لأسباب وطنية (٧٥) .

لقد التحمت التفرقة الواضحة والصريحة بنسيج ارق من المضايقات المكررة التى لابد ان يواجهها أى شعب مهزوم فى معاملاته اليومية مع قاهريه وربما كان ذلك فى صورة رجل شرطة متغطرس أو موظف فظ وهى الشخصيات المكروهة فى أى مكان ولكنها تصبح مكروهة بشكل مضاعف اذا ما كانت تمثل قوة احتلال وربما كانت فى صورة حكم متحيز من جانب السلطة فاذا وقع حادث مرور يتضمن عربيا ويهوديا فمن الذى يضمن عدم تحيز القانون لصف اليهودى ؟ او ربما كان التطبيق غير العملى للوائح البلدية مثلا ابلغت مدرسة فى القدس الشرقية ان نوافذها اصغر بمقدار ٦ بوصات عن المقياس القانونى ولكن اذا ذهب المرء الى الاحياء الفقيرة فى القدس الغربية وقام بزيارة المدارس هناك رأى نقص الشروط الصحية فيها حتى كانت أبعاد نوافذها تتفق واللوائح وربما كانت تجربة تافهة ولكنها مثيرة فكثيرا ما فشل العرب فى اختبارات قيادة السيارات لاسباب سخيفة وتافهة فمثلا سئل احدهم عما يفعل اذا ما طلبت منه سيدة بصحبتها كلب ان يوصلها فى سيارته الى مكان ما فاجاب قائلا اوافق على نقلها لو كانت جميلة لقد رسبت اذ يجب عليك اولا ان تتأكد مما اذا كان لديها رخصة لكلبها وقد تتمثل هذه المضايقات فى النصب التذكارية العبرية للقتلى اليهود فى معركة القدس مع عدم وجود اى نصب عربية تذكارية مماثلة ووجود نصب تذكارى نقش عليه بالانجليزية « سقط هنا ، فى كمين نصبه اللصوص العرب ٧٨ ممرضة وطبيبا وباحثا وهم فى طريقهم الى عملهم فى مستشفى الهاداسا ذلك فى صباح احد ايام ١٩٤٨ » وايضا حركة أرض اسرائيل التى يطوف اعضاؤها بالمدينة حيث يقومون

بمحو أى كتابات عربية من على الجدران ثم تغيير الاسماء العربية للشوارع ابتداء من شارع سليمان الحكيم الى شارع قوات المظلات وميدان اللبنى الى ميدان زاحال (قوات الدفاع لاسرائيلى) ودخول الدعارة الى القدس الشرقية وتجمع المراهقات عند بوابة يافا ومساومتهن بالعملاء خارج الحانات المقامة حديثا فى شارع الزهراء وزيادة عدد السرقات وانتشار العصابات الاجرامية وربما كانت هذه الامور فى حد ذاتها تافهة او عارضة ولكنها تشكل مجتمعة الجو العام الذى أصبح يسود القدس الجديدة .

والقدس وحدها من بين جميع الأراضى المحتلة ، هى التى صدر قرار رسمى يضمها ومع ذلك لم يضيع الاسرائيليون أى وقت فى خلق حقائق فى الممتلكات الجديدة مثل الضفة الغربية ومرتفعات الجولان وغزة وسيناء وهى حقائق لا يمكن اهمالها وفقا للتقاليد التوسعية وانتعشت من جديد الشعارات القديمة حيثما يستوطن اليهود فانهم سيبقون ولم يكف امبراطور الاراضى المحتلة ابدا عن تأكيد ان المستعمرات الجديدة ليست مجرد أصص زهور يمكن نقلها من مكان لآخر ولكنها بمثابة أشجار ذات جذور ممتدة فى الارض .. وعندما وقعت حرب اكتوبر سنة ١٩٧٣ كان هناك حوالى اثنين واربعين مستوطنة مبعثرة فى أنحاء اسرائيل الكبرى وكان من المقرر اقامة مزيد من المستوطنات كان بعضها داخل الحدود التى يحددها الكتاب المقدس للارض الموعودة مثل تلك المستوطنات القائمة فى الضفة الغربية التى خصص ثلثها تقريبا بصورة رسمية وفقا لما يعرف بمشروع ألون وكانت هناك مستوطنات غيرها خارج هذه الحدود كتلك الموجودة فوق مرتفعات الجولان أو فى شرم الشيخ التى أطلق عليها من جديد اسم اوفير وتقع فى عمق الاراضى المصرية عند اقصى الطرف الجنوبى لخليج العقبة وكانت هذه المستوطنات صناعية وزراعية ايضا وكان من المقرر ان تنمو احداها وهى المعروفة باسم باميت وتقع فى شمال شرق سيناء لتصبح فى نهاية الامر مدينة ساحلية تضم حوالى ٢٥٠ الف نسمة والقت بهذه المستوطنات مساحات شاسعة من الارض واصبح الجولان كله تقريبا بعد اخلائه من سكانه السوريين تحت أمرة المنتصر واستولت ادارة اراضى على مايقرب من مليون ونصف مليون دونم من الاراضى المملوكة للدولة الاردنية كما استولت على ممتلكات الغائبين والممتلكات المهجورة فى الضفة الغربية واستحوذت على ما يقرب من ثلث قطاع غزة كله تقريبا أى حوالى ١٢٠ ألف دونم (٧٦) ومن الناحية الظاهرية كان للمستوطنات اغراض عسكرية واغراض اخرى حتى تحظى بقبول اكبر لدى الراى العام العالمى وصوت على انها مصادر قوة جديدة وحيوية بالنسبة لصراع اسرائيل المستمر

من أجل البقاء ولكن المسئولين المعنيين لم يلتزموا دائما جانب التكتم فيما يتعلق بالدوافع الحقيقية يجب علينا أن نستخدم ذريعة احتيـاجات الأمن وسلطة الحاكم العسكرى حيث انه ليست هناك وسيلة أخرى لطرد العرب من أراضيهم طالما انهم يرفضون الخروج منها وقبول التعويض الذى تقدمه لهم (٧٧) وكان الأمر يستدعى أحيانا استئصال قرية بأسرها وان لم يكن من الضرورى أن يتم هذا كله مرة واحدة فقد ظل سكان قرية (ميت عسكرية) الفقراء يتفرجون طوال سـنوات عديدة فى يأس عاجز على معســكرات مســتوطنة كفـار أتزيون وهى تقوم حولهم وتغتصب بلا رحمة أراضيهم الزراعية ومراعيهم ثم تبتلع بعد ذلك منازلهم أيضا (٧٨) .

وقام الجيش فى يناير ١٩٧٢ بطرد ستة آلاف بدوى من رفح فى شمال شرق سيناء ثم دمر منازلهم وقام بتسميم مياه ابارهم ومنعهم من دخول البلدة وذلك بواسطة سور من الاسلاك الشائكة وفى النهاية ثم استخدام البدو كخفراء ليليين أو كعمال وذلك فى ممتلكاتهم الخاصة وفى خدمة أولئك الذين استولوا عليها ولكن سكان قرية (عقرية) هم الذين تلقوا أغرب الدروس فقد صادرت الحكومة العسكرية جزءا من أراضيهم لاستخدامها ساحة للتدريب على اطلاق النار واعترض السكان وعلى ذلك تم رش حقولهم من الجو بمادة كيماوية سـامة قضت على كل محصـولهم وفى الوقت المناسب تم تسليم الحقول الى مستوطنة ناحال جينيت المجاورة (٧٩) .

الاسلوب الاسرائيلى فى التمييز العنصرى :

على الرغم من عمليات الطرد والاسـتيلاء على الممتلكات تمكن معظم الفلسطينيين من البقاء فان الاسرائيليين لم يبذلوا نفس الجهد الذى بذلوه فى سنة ١٩٤٨ كما أن تسامح الغرب كان له حدود أيضا والأمل فى امكانيـة اقناع الفلسطينيين وفى نهاية الامر بمغادرة البلاد وهو الامر الذى طالما تم التعبير عنه هذا الأمل ظل قائما وفى الوقت نفسه ها هم مليونان وثمانمائة الف يهودى تقريبا سيتحكمون فى مصير ما يزيد على مليون ونصف مليون عربى يشكلون الأقلية السريعة المتزايدة داخل اسرائيل ذاتها بالاضافة الى سكان اسرائيل الكبرى الذين تم قهرهم مؤخرا .

لقد كان هذا وصفا جديدا اقلق الروح الصهيونية الممزقة بين دافعين رئيسيين النزعة التوسعية ونزعة طرد أهالى البلاد الأصليين وحرمانهم من ممتلكاتهم فقد كانت الصفوة الحاكمة تواقة الى استيعاب أكبر مساحة ممكنة من الارض ولكنها فى الوقت نفسه كانت تخشى وكان كثير منهم يخشى أن

يضطروا الى استيعاب الفلسطينيين معها فلم يكن هذا متناقضا من فكرة الدولة اليهودية فحسب بل انه يهدد بان تتحول اسرائيل الى قوة استعمارية تقليدية يصبح فيها وضع اليهود بالنسبة للفلسطينيين مماثلا تماما لوضع البيض فى جنوب افريقيا بالنسبة للسود وقد جاء اكثر التعبيرات حدة عن هذا الخوف على لسان رئيسة الوزراء جولدا مائير ذاتها فهى تقول ان معدل المواليد بين الفلسطينيين اعلى كثيرا من معدل مواليد اليهود لدرجة انها كثيرا ما تصاب بارق لمجرد تفكيرها فى عدد المواليد العرب الذين خرجوا الى الحياة أثناء الليل وقد أصدر البرلمان الاسرائيلى أثنـاء توليها الحكم قانونا وضعه النائب يورى افنيرى بانه شائن ومخجل وفاضح فى نواياه العنصرية فكان يهدف تحت قناع تشجيع الانجاب بالنسبة لليهود والاسرائيليين الى عـدم تشجيع الانجاب بين العرب ـ الاسرائيليين ويقول افنيرى ان تقديم المنح للاطفال الجائعين الذين ينتمون لفئة من السكان وحرمان الاطفال الجائعين المنتمين لفئة أخرى من هذه المنحة يعتبر تمييزا عريقا وربما كان غامضا وان كان واضحا تماما لاى شخص يعرف الحقائق (٨٠) . غير انه سرعان ما تكيفت القيادة بالرغم من كل بواعث قلقها مع الحقائق الجديدة فقد كان التهـديد الموجه الى سلامة الصهيونية تهديدا طويل الاجل وفى الوقت ذاته كانت هناك فرص مغرية يمكن اغتنامها وبذل الجنرال ديان الذى يتميز بالواقعية والعناد كل جهده من أجل توفيرها وكانت الاراضى المحتلة تعتبر من وجهة نظره سوقا للمنتجات الاسرائيلية ومصدرا للعمالة الرخيصة ولذلك يجب ادماجها فى الاقتصاد الاسرائيلى وأصبحت هذه الأراضى فى سنة ١٩٧٣ فى الواقع أكبر أسواق اسرائيل (باستثناء سوق الماس المصقول) بعد الولايات المتحدة وكانت الصادرات عبارة عن سلع مصنعة فى معظمها وهى سلع لم يكن مسموحا للفلسطينيين بالحصول عليها من أى مكان آخر وكان ديان يأمل فى أن تنجح اسرائيل عن طريق الضفة الغربية وجسورها المفتوحة عبر نهر الاردن فى التغلغل فى الاسواق الطبيعية الواسعة التى حرمت منها منذ انشائها نتيجة للخطر العربى الصارم وفى سنة ١٩٧٣ كان يعمل فى اسرائيل ما يقرب من سبعين ألف عامل من الضفة الغربية وغزة وكان معنى هذا ان اسرائيل تقدم فرص عمل لحوالى نصف العاملين من الضفة الغربية وبلغت أجورهم ثلث اجمالى انتاجها وافتتح بالضفة الغربية حوالى عشرين مكتب عمل هدفهـا الوحيد توجيه العمالة لتصب فى الاقتصاد الاسرائيلى ومثلما حدث لعرب اسرائيل من قبل تركزت عمالة الضفة الغربية وغزة فى مجال البناء والزراعة ويشكل العرب الآن ككل ثلث عدد العمال فى هذين القطاعين (٨١) .

وأضاف التكامل الاقتصادى توترا جديدا الى المواقف الصهيونية من الأهالى أو بالأحرى زاد من حده توتر كان موجودا منذ البداية بالفعل فى نفوس العناصر الاقل نزوعا الى النظريات المجردة فقد بدأت عقيدة قصر العمل على العمال العبريين وحدهم وحرمان العرب من العمل وهى العقيدة التى سيطرت على الفكر اليهودى منذ اوائل هذا القرن نواجه تحديا من جانب فكرة ان العرب يصلحون بوجه خاص للقيام بالأعمال غير اللائقة باليهود وبعث أحد القراء برسالة نشرت بصحيفة هاآرتس تؤيد وجهه نظر ديان يقول فيها لجولدا مائير انها اذا كانت تريد مشاهدة العمال العبريين وهم يتصببون عرقا فى ايام الصيف الحارة واذا كان هذا المنظر يدخل السرور على قلبها فان هذا شأنها وحدها ولكنه لا يمكن أن يكون مقياسا قوميا لاقناع الجمهور بصدم ادماج اقتصاد الضفة الغربية .. واود أن أقول ان ملايين العمال الاجانب فى كثير من البلاد ذات الحساسية القومية الفائقة يؤدون معظم الاعمال القذرة ولا يهتم احد بهذا أو يشعر بخوف ازاءه (٨٢) وكان جوزيف تشويا وهو مزارع اكثر وضوحا حيث قال اذا كان العرب موجودين فليعملوا ولماذا لا يكون اليهود رؤساء ؟ ان العمال العرب يجيدون العمل بطبيعتهم ولدى عامل منهم عمره ٥٠ عاما ويعمل بهمة ونشاط لمدة ثمانى ساعات يوميا فاين يوجد يهودى على شاكلته (٨٣) .

وعلى الرغم من ان الاتجاه العملى لديان انتصر فى النهاية ظل هذا الامر يقلق بال الاوصياء على الضمير الصهيونى وقد صدم سكرتير عام اتحاد العمال المستمعين عندما اعلن لا أعرف ما اذا كانت الاراضى التى نحتلها هى أوراقا نستطيع المساومة بها ام انها جمرات النار تحرق أسسنا .. ولا بد لى من ان أقول أنه جميل جدا أن نبنى الصهيونية بالعمالة العربية وان نبنى مدنا نستمتع بها وسنسمع فى القريب أصواتا تقول ان أحدا يعلن انه لا يريد الاثراء على حساب العمالة العربية من الاراضى المحتلة يشكك فى فهم الصهيونية ويعرقل الخلاص والتنمية (٨٤) ومن الواضح أن العمل المخلص فى العهد السابق للحرب اصبح من نظر زوجة مزارع تعاونى مجرد ذكرى ساذجة .

ولقد عشنا فى سلام قبل حرب الأيام الستة وكنا نكدح ولكننا كنا ننعم برخاء نسبى الا أن الوضع تغير منذ ذلك الحين فقد أصبح زوجى وهو رجل قدير مقاول توريد عمال زراعيين فقد كنا نتمتع بميزة توافر مصادر العمالة الرخيصة وتوفر سوق كبيرة وأصبحنا نستخدم الان خمسة عمال من العرب ولم نعد نبذل أى جهد بايدينا فى مزرعتنا بل ان أكبر ابنائى اصبح

يرفض حتى تشذيب الحشيش قائلا (فليقم محمـد بهذه المهمة) وليس من المفيد بطبيعة الحال الحديث عن أى عمل شاق فعلا لقد بدأ جميع الأطفـال فى المستوطنة الزراعية التعاونية وابنائى أيضا يتحولون أمام عينى الى ذلك الضرب من الاطفال الاثرياء الذين يؤدى لهم الخدم كل شىء فلا يعرف أحد كيف يقود الجرار الذى يقف فى الفناء أو يهتم بالزراعة وكان العمال العرب يعيشون حتى أسبوع مضى فى مخازن الموالح حيث يعملون ولكن يبدو ان مزيدا من العمال قد استخدموا للعمل فى المستنبتات الزجاجية فأصبحت مخازن الموالح مزدحمة ولذلك بنى لهم زوجى كوخا فى الفناء وعند احتياجى على ذلك طلب منى ان أطوف القرية وادركت ان اى شخص قادر اصبح مقاولا والقرية مليئة بالمستنبتات التى لا يعمل فيها العمال العرب .. ويعيش معظم العرب فى بيوت من الطين تبعد بعض الشىء عن فيلات المزارعين اليهود الذين أصبحوا يعيشون مثل الأفندية ثمة أمر آخر وهو ان معاملة اليهود للعمال العرب والظروف التى يعيشون فيها تعتبر أسوأ حتى من معاملة وظروف أعضاء منظمة فتح الموجودين فى السجون (٨٥) . من الواضح ان هذه الظاهرة كانت بغيضة بالنسبة لوزير الزراعة تماما مثلما كانت حالة الجـذام المؤلمة التى أصابت أحد رواد الصهيونية منذ ما يزيد على نصف قرن مضى (٨٦) حيث اشتكى أن سيطرة العمال العرب فى الزراعة الصهيونية أصبحت تنتشر مثل السرطان فى جسمنا (٨٧) بالاضافة الى هذا التغيير .

وكان رد ديان فى الواقع ان مثل هذا المنطق العملى لا يعرض ولا يجب أن يعرض المثل العليا للصهيونية للخطر وانه يمكن أن يكون هناك توسعية واقتصادية فى الوقت نفسه واذا كان هناك تهديد للطبيعة الوطنية وللتقاليد الصهيونية الخاصة بالعمل الجـاد والاعتمـاد عـلى النفس فيجب عـلى الاسرائيليين أن يعتمـدوا عـلى وقفتهم الروحيـة لمواجهتـه (٨٨) الا أن هنـاك أيضـا بعض الاجراءات العمليـة المعنيـة التى يمكن اتخاذها لارغام لفلسطينيين على التزام حدودهم اذ لم يكن سكان الأراضى المحتلة يتمتعون بأى حقوق سياسية أو مدنية وربما كانوا يخضعون للحـكم العسـكرى الإسرائيلى ولكنهم من الناحية القانونية كانوا اما اردنيين كما هو الحـال بالنسبة لسكان غزة وفى الحقيقة كان الأمر واضحا تمام الوضوح فانهم اذا لم يكونوا مواطنين اسرائيليين فانهم لا يشتركون فى انتخاب البرلمـان وعلى ذلك لا توجد على الاطلاق أى مشكلة خاصة بشخصيتنا الديمقراطيـة أى لا يوجد أى خوف من أن يؤثر سـكان الاراضى المحتلة على أسلوبنـا فى

الحيـــاة (٨٩) وقد ألمح ديان الى أنه اذا لم يرض الفلسطينيون بهذا فانهم يستطيعون الرحيل الى أماكن يشعرون فيها بالراحة (٩٠) وبهذا ظهر الى الوجود وبصراحة تامة نمط اسرائيلى فى التمييز العنصرى على حد وصف شولا ميت الونى عضو حركة التحرر المدنى الاسرائيلى ولم يعد الأمر يخاف على الأقلية العربية فى اسرائيل التى يعتز من أنها تتمتع بالمســاواة فى نظر القانون فمن الممكن لسكان الضفة الغربية وغزة أن يعملوا داخل اسرائيــل الا أنه لا مجال لاقامتهم بها وقد يحاول بعضهم البقـــاء ولهذا قامت فرق تفتيش لمنعهم من البقاء بالقرب من أماكن عملهم اذ أن هؤلاء العمال قــد يصطحبون زوجاتهم وأسرهم معهم وقبل أن تتبين الأمر قد تجد أمامك قرية عربية كاملة (٩١) وبالطبع كان هناك دائما استثناءات وربما يحتاج الأمر الى تقديم رشوة من جانب صاحب عمل أو أحد الوســطاء ولكن كثيرا ما أمكن اقناع السلطات بالتغاضى عن الخيام أو الأكواخ التى كانت تقـام فوق أراضى البناء الموجودة على مشارف المـدن وكان الفلسطينيون يلجأون تلقائيا الى مزاولة أحقر الأعمال وكان متوسط أجورهم يبلغ حوالى ٤٠٪ من أجر اندادهم من الاسرائيليين (٩٢) وكانوا معرضين للفصل بين عشـية وضحاها وكان هناك أيضا الآلاف من العمال غير الشرعيين ممن يعانون من أصحاب الأعمال الذين يحاولون التهرب من الضريبـة المفروض أداؤها عن كل عامل من المهاجرين وكانت ظروف معيشتهم أسوأ حتى من الآخرين وكان العمال الذين لا يمارسون عملا منتظما يضــطرون الى عرض أنفسهم فى الأسواق المفتوحة فى كثير من المـدن وتقــدم صحيفة الحزب الشــيوعى الاسرائيلى التى تصدر باللغة العربية وضعا للسوق فى مدينة يافا :

« ان رؤساء العمال فى هذه الأسواق يحققون ثراء عن طريق استغلال عمل الأطفال ـ والشباب من الاراضى المحتلة ففى الساعة الرابعة من صباح كل يوم يبدأ وصول السيارات القادمة من غزة والقطاع الى هنـــاك حاملة عشرات العمال العرب الذين يصطفون فى الشارع فى طابور طويل وبعد فترة وجيزة فى حوالى الساعة الرابعة والنصف يبدأ الصبية العرب الذين يعملون بمطاعم المدينة فى الوصـول ويعمل هؤلاء الصبية فى المطاعم لمدة شــهر بلا انقطاع وفى ذلك أيام السبت ويأتى عشرات بل مئات الصبية الذين كان يجب أن يكونوا فى المدارس من غزة للعمل فى اسرائيل ويمكن مشـــاهدة السيارات وهى تغدو وتروح منذ ساعات الفجر الأولى وفى حوالى الســاعة السادسة صباحا يصل سماسرة العمل الاسرائيليين لاختيار حمير العمل كما يطلقون عليهم وهم يدققون فى عملية الاختيار ويقومون بالفعل بتحسس عضلات

الحمير وان كانوا لحسن الحظ لا يفحصون أسنانهم وينتظر الذين لا يوفقون فى الحصـــول على عمل أن تحل بهم رحمــة الله تحت أشجار فى حديقة مجاورة (٩٢) .

تحت سيطرة المنتصر :

غنى عن القول ان بناء اسرائيل الكبرى لا يمكن أن يتحقق الا عن طريق استخدام العنف بصورة منتظمة الأمر الذى ارتبطت به الصهيونية ارتباطا وثيقا وقد ارتكبت عمليات تعذيب منتظمة المعتقلين وقـد سجلت هـذه العمليات المحامية الاسرائيلية فليشيا لانمر وهى واحدة من قليليين جـدا جاهدوا لتوفير عدالة حقيقية للفلسطينيين أمام المحاكم الاسرائيليـة وقـد سجلت هـذه الأعمال فى كتابها « رأيت بعينى » (٩٤) وكانت لجنـة لتقصى الحقائق تابعة للأمم المتحدة قد منعت من دخول الاراضى المحتلة وكانت قد سمعت قبل ذلك ما اعتبرته دليلا مقنعـا على التعذيب القـاسى والمميت أحيانا الذى يتعرض له الفلسطينيون على يد خبراء التعذيب الاسرائيليين وقد وجدت اللجنة شهادة شخص اسمه احمد خليفة مؤثرة بصورةخاصة لأنه لم يبد عليه أنه مدفوع بحقد نحو سجانيه السابقين وقال خليفة ان الأمر الذى كان يسىء الى زملائه المسجونين أكثر من التعذيب الجســدى هو السباب والاهانات التى كانوا يتعرضون لها بصفتهم الشخصـــية او بصفتهم أعضاء فى حركة المقاومة الفلسطينية وقـد حاول التفـــاهم مع معتقلية .

لقد قلت اننى أعرف أن الاسرائيليين يعذبون المعتقلين تعذيبا وحشـيا وأستطيع أن أروى الكثير عن الأحوال حتى هناك فى السجن الموجودبالمنطقة الروسية ولكننى كنت أريد أن أذكر له شيئا آخر ان التعذيب الجسدى لا يهم فالندوب الجسدية تلتئم ان عاجلا أم آجلا أما الندوب النفسية فانها لا تلتئم أبدا لقد كانت هناك أجهزة مخابرات حاولت أنتدمر احترامأعدائها لذواتهم وان تدمر انسانيتهم وأعتقدت انها نجحت فى ذلك ولكنها فى الواقع نجحت فى تحويل ضحاياها الى عناصر متطرفة تمتلىء حقدا وقلت ليس ما يهمنا هو مسألة المعلومات والأمن انما مسألة العلاقات بين شعبين اننا فى حالة حرب حاليـا وربما كتب القتـال علينـا لمدة طويلة أما اذا كان يهمكم مســتقبل أبنائكم وابنـــائنا فيجب عليكم التصرف بشكل يمنع التطرف والكراهية وهذه هى فرصتكم .

وتوقفت عن الكلام والتزم الضابط الصمت بينما تكلم غوايلى وهو احد الذين يقومون بالتعذيب ويتميز بقســوة غير عادية ولن أنسى كلامه أبدا

لقد قال انكم جبناء أيها العرب لقد كنتم تريدون ابادتنا وكنتم أثناء الحرب والآن يجب عليكم قبول الحقـائق فنحن لن نعيد لكم الجولان ولا الضفة الغربية ولا قطاع غزة اننا نريد الحياة واذا لم يرق لكم الأمر فحاربونا لو كنتم رجالا ولينتصر الأفضل .

كان لهذه الكلمات وقع الصدمة بعد كل ما قلته ولم يسعنى سوى أن أقول انك على حق فدعنا نرى ماذا سيحدث ووجه اليه الضابط عنـدئذ بعض الكلمات العبرية ثم نهض من مجلسه ووضع يده على كتفى قائلا انى أفهم تماما ما تعنيه يا احمد وصدقنى لن نحاول تحطيمك ثم حيانا وغادر الحجرة ولم أره بعد ذلك أبدا ولكن يؤسفنى أن أقول ان وعده لم يتحقق (٩٥)

وهناك الاعتقال الادارى ولطالمـا تم اللجوء الى هـذا النوع من أنواع الاعتقال ضـد المفكرين ذوى الميول السـياسية الذين يعتبرون الزعماء الطبيعيين للاقلية العربية فى اسرائيل وقد طبق هـذا النوع من الاعتقال بأسلوب عنف وبتمييز أقل فى الأراضى المحتلة وكان يعنى فى أسوأ صـوره اقامة معسكرات اعتقال حقيقية فى أماكن نائية بصحراء سيناء وكانت نخل وأبو زعيمن والقسيمة هى الاماكن التى يتم اعتقـال أسر بكاملها فيها فى عزلة تامة عن العالم الخارجى ..

وكانوا يعتقلون فى تلك المعتقلات لمجرد الشـك فى أن بعض أقاربهم يعملون مع المقاومة وكانوا يحشرون فى خيام محاطة بأسلاك شائكةويحرمون من الراديو والصحف بل وحتى أبسـط أسـباب الراحة التى يجلبونها معهم من بيوتهم التى كثيرا ما كانت تدمر خلال اعتقالهم وكان يزجبالنساء والأطفال فى معسـكر ما بينما يعتقل الذكور من أقارب المطلوب القبض عليهم — اخوتهم وأبناء اخوتهم وأبناء عمومتهم فى معسكر آخر .. وصدر قرار بضرورة ابقاء رجل واحد على الأقل مع باقى الأسرة المعتقلة حتى لا يقال اننا نعتدى على عرض النساء العرب (٩٨) ..

وهناك العقوبات الجماعية التى كانت تعتبر فى فترة ما روتينا يوميا فقـد كان حظر التجول الذى يفرض لأوهى الأسـباب يستمر لمدة أيام وكان هناك معيار ثابت للاجراءات المفروضـة مع بعض الاختلافات على المستوى المحلى فكان يتم نقل جميع السكان الذكور فى قرية أو معسـكر ما ممن تتراوح أعمارهم بين الرابعة عشرة والسبعين عاما الى نقطة منعزلة أو يحشدون فى أحد المعتقلات وهناك يتم تقسيمهم الى مجموعتين مجموعة تضم صغار السن والأخرى تضم الكبار حتى يتم الفصل بين الآباء والأبناء

ويجبر أفراد كلتا المجموعتين على الركوع أو الجلوس القرفصاء أو ما شـــابه ذلك من الأوضاع المهينة . ويجبرون على البقـاء على هـذه الحالة لمدة يومين أو ثلاثة أيام ، بينما يستمر الجنود الذين يحرسونهم فى اطلاق النار فوق رؤوسهم فى الهواء . وفى الوقت نفسه يتم حجز النساء فى منـــازلهم التى كثيرا ما كانت تفتقر الى المياه أو المرافق الصحية . وكثيرا ما كانت تصاب أمهات الأطفال الصغار بالهستيريا . وكان يسمح للنساء بالخروج لمدة نصف ساعة أو نحوها لاحضار الطعام والمـــاء . ولم تكن المراحيض العامة المقامة فى معسكرات اللاجئين مشيدة على أساس الاستخدام الجماعى فى ظرف نصف ساعة ، وأحيانا كان يوجد بين النساء القتلى أو الجرحى، بعض النســـوة اللاتى لم يســتطعن منع أنفسهم من الهرولة ألى دورات الميـاه (٩٩) . وقـد سجلت قرية بيت مسحور ، التى كانت تطلق منها صواريخ كاتيوشا على مدينـة القدس ، رقما قياسـيا فى حظر التجول : فقد فرض فيها حظر تجول لمدة اثنين وعشرين ساعة يوميا طوال شهر كامل لم يكن يستطيع الســـكان الذين يكادون يموتون جوعا أن يفتحوا أبواب منـــازلهم أو يخـــرجوا الى الحـــديقة أو يفتحوا حتى النوافذ ويقفوا بجانبها (١٠٠) .

وكثيرا ما كان يتم فرض حظر التجول أو « التفتيش » ، بصورة تتسم بقدر بالغ من العنف والشراســـة فكان الأهالى يجبرون على الخروج من منازلهم فى منتصف الليـل حتى يتم التفتيش وكان الجنود يطلقون نيران رشاشاتهم أثناء انسحابهم حتى يثيروا الذعر . وأحيانا كان يقتل البعض أو يصاب بجراح ، وتنشر الصحافة الاسرائيلية فيما بعد نبأ يفيد بأنه تم اطلاق النار عليهم بينما كانوا يحاولون الهرب (١١٠) . وكان من المعتاد أثناء الغارات الليلية ، نقل الرجال بالقوة الى السجون ، بلا سبب مقنع ، حيث يتم ضربهم وتعذيبهم أو أحيانا كان الاسرائيليون يستدعون القوات الشهيرة باسم « البيريهات الخضراء » وهى قوات من الدروز يبدو أنهم يجدون لذة خاصة فى ايذاء اخوانهم العرب . وقد تلجأ هـذه القوات الى استخـدام الهراوات والســـياط . ويضربون ضحاياهم بوحشية لارهابهم . وكثيرا ما كانت العظام تصاب بالكسور . وكانوا يجردون النســـاء من ملابسهن ويتركونهن عرايا فى الشـــوارع ويسرقون حليهن ويحطمـون أمتعتهن البسيطة (١٠٢) . ولقد أعرب بعض الجنود الاسرائيليين فى مجالسهم الخاصة، عن اعتقادهم بأن أفضل طريقة للقضاء على الارهاب هى تقييد أيدى وأرجل المشتبا فى أمرهم بأسلاك كهربائية ثم تركهم يصطلون فى الشمس (١٠٣) . »

ثم هناك عملية تدمير المنازل . وقد تم نسف ما يزيد عن ٧ آلاف مسكن في ظرف سنتين من حرب ١٩٦٧ . وكان هذا يتم أساسا وفي أعقاب الحرب مباشرة - لأغراض صهيونية استراتيجية . ولم تكن هنـــاك أى محاولة لتصوير العملية على انها بمثابة عقاب أو انتقام . أما عندما كانوا يحاولون تبرير عمليات الهدم فان المبررات التى كانوا يقدمونها واهية تماما . وكان مجرد الشك ، لا الدليل القاطع ، هو كل ما تحتاج اليه سلطات الاحتلال. وربما تم الافراج عن المشتبه فيهم - لعدم توافر الأدلة - ولكنهم لم يكونوا يحصلون على تعويض عن بيوتهم التى دمرت . وكان أى صاحب (فندق) يقوم ، بحسن نية ، بتأجير غرفة بفندقه لأحد الفدائيين ، يتعرض لتـدمير فندقه (١٠٤) وكثيرا ما كانت كلمة مسكن تعنى فى المخاطبـات الرسميـة الاسرائيلية ، عمارة سكنية من عدة طوابق ، أو صفا كاملا من المســاكن المتجاورة . ويمكن أن ينسف ٣١ منزلا بهذه الطريقة ويتضح انها كانت تؤدى مائتى أسرة ، كما حـــدث فى قرية عوجه بالقرب من أريحا ، التى تحول نصفها الى دمار كامل (١٠٥) ، ولم يتردد الجنرال ديان فى تنفيذ هذا : فهو عقاب جماعى أو كما قال ، عقاب « الجوار » ، حيث تعرضت القرية كلها للمعاناة نتيجة للنشاط الفدائى الذى قام به أحد أفرادها . وهذا ما وصف به ديان عملية تدمير ما يقرب من سبعين منزلا فى قرية حلحلول فى أعقـاب غارة فدائية على الجنود الاسرائيليين ، اذ قال لأهل القرية « لقـد دمرنا اليوم عشرين منزلا (هذا نص كامل وحرفيا) . فاذا لم يكن هـذا كافيا فاننا سندمر القرية كلها ، واذا لم ترق لكم هذه الســياسة فان الكبـارى مفتوحة أمامكم لترحلوا » (١٠٦) .

وهناك أيضا عمليات الترحيل ، التى كانت تتم علنا وبصورة خفية . وكان عدد الذين تم ترحيلهم علنا ضئيلا نسبيا فقد بلغوا مائتين أو نحوها، ولكن المكانة البـــارزة التى كانوا يتمتعون بهـا بصفتهم القـادة الوطنيين والدينيين والفكريين للفلسطينيين ، تعوض ضـآلة العـدد . وكان عدم التعاون -- وهو نوع من الاحتجاج المعترف به فى اتفاقية جنيف - يؤدى الى طرد الذين يتزعمونه . وكانت هذه السياسة رخيصة وفعالة لا تترك أى مجال وسط بين الرضوخ للحكم الاسرائيلى وبين المقاومة المسلحة الشاملة. ويعتبر روحى الخطيب عمدة القطاع الاردنى للقـدس ، الذى عارض ضم مدينته لاسرائيل بطريق غير شرعى ، والشيخ عبد الحميد صـايغ ، رئيس المجلس الاسلامى الأعلى، والذى عارض التدخل السافر فى شئون المؤسسات الدينية التى تتمتع بالحكم الذاتى ، من كبار المواطنين الذين تعرضوا لمثل

هذا المصير . وعلى العكس من هـــذا تعرض آلاف الفلسطينيين العاديين لعمليات الترحيل التى كانت تتم خفية . وأصبح هناك نمط معتاد للاحداث التى تنتهى بالترحيـل . فقـد تنفجر قنبلة بالقـرب من منزل أو أرض شخص ما ، فيتم اعتقاله أثناء حظر التجول ، أو التفتيش أو حملةالارهاب التى تعقب ذلك يتعرض للسجن والضرب او التعذيب ، ولكن اوضوح براءته او لعدم تقديمه معلومات لها أى قيمة يتم ترحيله عبر نهر الأردن وبذلك أصبحت عمليات الترحيل نوعا من الهروب ــ بشرط أن يتمـكن الشخص المرحل من البقاء حيا بعد تعرضه لهذه المرحلة الأخيرة من الأحداثالمتتالية البالغة الخطورة . وفيما يلى ختام رواية احد هؤلاء المرحلين :

« لقد أخرجونا من السجن ونقلونا الى جسر الملك حسين ، وأرغمونا على التوقيع على بعض الأوراق البيضاء ثم ضربونا وقالوا لنا « اخرجوا من هنا الى الضفة الشرقية » . ثم بدأوا فى اطلاق النار علينـا ، فاتجهنا الى الضفة الشرقية بأسرع ما فى وسعنا . وما أن عبرت الجسر حتى سقطت مغشيا على وعندما عدت الى وعيى بعد فترة من الوقت ، رأيت وجه أحد الجنود يطل على . ولمـا رأيته اعتقدت أن أجلى قد حان ، لأننى لم أدرك أننى فوق أرض عربية فقلت . « الا تقتلنى يا سـيدى » . ورد قائلا : « لا تخف ، فاننى عربى مثلك » (١٠٧) .

ولم يكن هـــذا كافيـا بالطبع لتحطيم معنويات العرب داخل حدود اسرائيل الكبرى . فكان لابد من ترويعهم وترويع الدول ألتى تؤويهم خارج تلك الحدود أيضا . ولابد من اخضاع الفلسطينيين ، فى الداخل أو الخارج، بأى ثمن . ولذلك كانت فيما وراء ألأراضى المحتلة ، فى الأماكن التى كان الفلسطينيون فى الخارج ، والمجندون فى صفوف الحركة الفدائية يواصلون منها النضال ــ كانت هناك « منـــاطق نيران حرة » للاسرائيليين ، وهى المناطق التى كانوا يستخـــدمون فيها ، مثل ألأمريكيين فى فيتنام ، كل خبرتهم الحديثة ، وكل أسلحتهم المتطورة لسحق تلك المقاومة التى كانت لا تزال بالنسبة لهم بدائية من حيث المهارة وقوة النيران . وهنا اخذت فكرة عقوبة الجوار ، شـكلا آخر أكثر اجراما تماما فان الاسرائيليين لم لم يوجهوا مدفعيتهم وسلاحهم الجوى المتفوق ضـد الفدائيين فحسب بل ضد معسكرات اللاجئين التى كانت تفرخ هؤلاء الفدائيين والقرى ألتى كانوا يشنون هجماتهم من مقربة منها وضد المنشئات الاقتصادية الحيوية للبلاد التى كانت تساندهم طواعية أو كرها . وأقاموا نطاقا صحيا من الدمار حول

حدودهم الخارجية ، وبالاضافة الى اللاجئين الفلسطينيين خلقوا ايضا لاجئين سوريين وأردنيين ومصريين ولبنانيين .

وقد تمكن الاسرائيليون خلال حرب ١٩٦٧ ذاتها من طرد أكثر من مائة ألف سورى من مرتفعات الجولان - وقد انضموا الى الفلسطينيين فى معسكرات اللاجئين بالقرب من دمشق - ومسحوا وجه الأرض من المدن والقرى التى تركوها وراءهم . وظلوا يشنون بعد الحرب غارات جوية دورية على سوريا . وعندما قام الارهابيون الفلسطينيون ١٩٧٢ بقتل أحد عشر رياضيا اسرائيليا فى الدورة الأولمبية بميونخ ، تحمل السوريون العبء الأكبر من انتقام اسرائيل . وبالطبع لم يتم هذا الانتقام على أساس العين بالعين بل تم على أساس أكثر من عشرين عينا مقابل واحدة . فقد قتل مائتا شخص على الأقل (١٠٨) ، وربما كانوا خمسمائة شخص ، بينهم الكثير من النساء والأطفال فى غارات جوية تمت فى وقت واحد على تسعة أهداف متفرقة (١٠٩) . وقد انقضت الطائرات من (فانتوم ، وسكاى هوك) على حماة مصيف دمشق ، وسقطت القنابل بلا تمييز على الفلسطينيين فى مساكنهم بالجبل ، وعلى السوريين الذين كانوا يتنزهون فى سياراتهم أو فى أجازتهم الاسبوعية على ضفاف نهر بردى . وروى الذين نجوا بأرواحهم كيف أطلقت عليهم نيران المدافع الرشاشة أثناء هروبهم للاختباء (١٠١)

ونزل بالأردن عقاب رادع ، اذ كان الفدائيون الفلسطينيون ، الذين ظهروا بكامل قوتهم بعد هزيمة الجيوش العربية النظامية ، يزاولون نشاطهم هناك . وقد بذل الملك حسين كل ما فى وسعه لقمع نشاطهم ، تماما كما حاول منع « المتسللين » فى الفترة الأولى التى أعقبت حرب ١٩٤٨ . ولكنه لم ينجح ، ولذلك أنجز الاسرائيليون هذه المهمة نيابة عنه ولكن بأسلوبهم الخاص غير المقيد . وعلى هذا ، وجد أطفال معسكر اللاجئين بالكرامة فى وادى الأردن بعد ظهر أحد أيام نوفمبر سنة ١٩٦٧ ، أثناء خروجهم من المدرسة أنفسهم هدفا للنيران الممزقة ، لمدافع الهاون الاسرائيلية : « وعلى طول الطريق الرئيسى سقطت القنابل الثقيلة الشديدة الانفجار المضادة للأفراد ، لتدمر نقطة الشرطة ومركز التموين ، ومدرسة البنات . ويشهد الملحقون العسكريون الغربيون على هذا وعلى الدقة العملية للهجوم » . وغطت نقطة للجيش الأردنى ، على مساحة بضعة أميال على نهر الأردن ، عملية انسحاب الفدائيين . وكان الاسرائيليون يعلمون أنه فى مقابل كل واحد يحصل على تغطية من النيران الأردنية كان العديد منهم يمنعون من عبور النهر على الاطلاق . ولكن هذا لم يكن كافيا ، ولذلك

فقد مات الأطفال كانتقام لهذا الفشل . واستمر الاسرائيليون فى تدميرمدن الحدود مثل الشونة الشمالية بواسطة القصف الجوى والمدفعية ، وقصفوا أيضا مدينة اربد ، ثانى مدن الأردن . ومات فى هـــذه العمليـــة مزيد من المدنيين . وكان من بين اهدافهم الاقتصادية المختارة ، قناة الغور الشرقية، وهى الممر المـائى المنشأ حديثا الذى يخـــدم ثمانين ألف مزارع فى وادى الأردن ، والذى حقق الكثير بالنســـبة للزراعة الأردنيـــة . وقـــد دمرها الاسرائيليون ، وبمجـــرد أن تم ترميمها دمرت مرة أخرى . وماتت براعم الموز ، وبدأت أشجار الفاكهة فى الذبول . ووجه القناصة رصــــــاصهم ، حينما اتفق ، الى العمال الذين يقودون الجرارات أو الذين يجمعون المحصول على مقربة من النهر أو من يحاولون رى بياراتهم خلســـة . ولجـــأ حوالى سبعين الف اردنى الى التلال .

وواجه الاسرائيليون ، فى الجبهة الغربية ، حرب الاستنزاف التى شنها المصريون باجراءات انتقامية واسعة النطاق . وقد حول الاسرائيليون مدن منطقة القناة — بور سعيد والسويس والاسماعيلية — الى خرابات مهجورة تتناثر فيها الأحجار . وقتل مئات من المدنيين قبل أن يتم اجلاء معظمهم تقريبا ، أى حوالى مليون شخص حيث تم استيعابهم بتكاليف اقتصادية واجتماعية باهظة فى مدن الدلتا المزدحمة بالسكان . وامتلأت القناة بالطمى وكلما امتدت فترة اغلاقها ، كلما قلت فرصة استعادة القناة لمجدهاالقديم، نظرا لبدء ظهور النــــاقلات العمـــلاقة الى الوجود . وفى سنة ١٩٧٠ بدأ الاسرائيليون . بقاذفاتهم من طراز فانتوم التى حصلوا عليها حديثا فى مد عدوانهم الى ما وراء منطقة القناة ويوجهون ضرباتهم الى عمق مصر ، ومات سبعون عاملا فى غارة مباشرة على مصنع معادن بأبى زعبل على بعد اثنى عشر ميلا شمال القاهرة . ووفقا لتصريحات الجنرال ديان ، حدث خطـــأ فنى . وبعد ذلك بأسابيع قليلة قتل ستة وأربعون طفلا بمدرسة بحر البقر الابتدائية وقيل فى هذه المرة ان طائرات الفانتوم ضربت اهدافا عســـكرية فقط » .

أما بالنسبة للبنان ، وهى أقل الدول ميلا للقتال ، فقد هدد ديان فى عام ١٩٧٠ بأنه ما لم تقم بوقف عمليات الفدائيين من أراضيها فان الجانب الآخر من الحدود اللبنانية سيصاب بنفس الدمار الذى حل بمدن قنـــــاة السويس والضفة الشرقية لنهر الأردن . وبالفعل فر فى الشـــــهر التالى مباشرة حوالى خمسين ألفا من سكان مدن وقرى جنوب لبنان الى شمال البلاد عندما بدأ جنود ديان فى تنفيذ تهـــديده عمليـــا . وغامر كثير منهم

بالعودة فى فترات الهدوء، ليعودوا الى الفرار مرة أخرى عند وقوع الغارة التالية . وقد توغل الاسرائيليون فى عمق لبنان اكثر مما توغلوا داخل عمق اى بلد آخر . اذ ما هى المقاومة التى يمكن أن تبديها هذه الدولة الصغيرة التى تكرس نفسها لكسب المال والاستمتاع بالحياة الطيبة لقد اختار الاسرائيليون لبنان لتنفيذ عملية استعراض قوة ملفتة للنظر ، وليس بمستغرب أنها أكسبتها شهرة كبيرة فى العالم الغربى الذى مازال مبهورا بالبطولات الجريئة وغير العادية الحربين العالميتين . ففى ديسمبر ١٩٦٨ قام فلسطينيان ممن يعيشون بالمصادفة فى لبنان مثل ثلاثمائة ألف غيرهما) ــ بمهاجمة طائرة بوينج اسرائيلية بالمدافع الرشاشة فى مطار اثينا ، وأسفر الهجوم عن مقتل مهندس عبرى ، وبعد ذلك بليلتين هبطت فى مطار بيروت طائرة هليوكبتر تحمل « كوماندوز » اسرائيلية ، وقاموا ــ بهدوء ورباطة جأش ، لمعرفتهم الأكيدة بأنهم لن يواجهوا مقاومة من جانب اللبنانيين ، قاموا بنسف ثلاث عشرة طائرة ركاب نفاثة قيمتها حوالى احد عشر مليون جنيه استرلينى .

ولان الاستعراض العسكرى الذى أقامته اسرائيل فى ١٥ مايو ١٩٧٣ بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لانشائها ، أعظم استعراض عسكرى وقام ديان قبل هذا بأسابيع قليلة ، بالافصاح عن مشاعره أمام جمع من رجال المظلات : « لم أكن واثقا حتى وقت قريب ، ولكن يبدو لى الآن أننا نقترب من ذروة العودة الى صهيون » (١١٢) . كان الزعماء الاسرائيليون يغرسون فى نفوس شعبهم شعورا غير عادى بالقوة والنجاح . فقد وصلت المقاومة فى الأراضى المحتلة الى أدنى مستوى لها . وساد الهدوء على الحدود. وضمن الاسرائيليون السلام لمدة عشر سنوات أخرى أو حتى لمدة جيل آخر وينبغى الا يأخذ أى انسان تهديدات الرئيس السادات مأخذ الجد . فمن المؤكد أنه ليس من الجنون بحيث يحاول المستحيل ، أى عبور قناة السويس ، التى تعتبر ، نتيجة لتحصينها بخط بارليف ، أفضل خط دفاعى توفر لأى ملك أو رئيس فى تاريخ الشعب اليهودى » . وعلى أية حال ، اذا ما حاول ، فان المصريين « سيلقون هزيمة ، فى عمق مصر ذاتها فى منازلهم ، حتى ان حرب الأيام الستة أيام ستبدو كذكرى لطيفة بالمقارنة منها « تلك هى الكلمات التى نطق بها عزرا وايزمان ، القائد السابق للسلاح الجوى » (١١٣) . واخذ العسكريون ورجال السياسة يتنافسون فيما بينهم فى الاشادة بقدرة اسرائيل العسكرية وبعدهم امكانية قهرها . وقال ديان ان اى حرب أخرى ستصبح بمثابة « انتحار » بالنسبة لمصر (١١٤) . اما

الجنرال شارون ، فكان من رأيه انها ستؤدى الى «التدمير النهائى» لمصر . وهذا لأن اسرائيل أصبحت اليوم تتساوى من حيث القوة مع فرنسا وبريطانيا العظمى ، ولم يكن يعتقد أن هناك أى هدف عسكرى أو مدنى بين بغداد والخرطوم ، ــ ومن بين ذلك الأراضى الليبية ــ لا يستطيع الجيش الاسرائيلى قهره (١١٥) ، وكانت النكات التى يرويها الناس ، تنضح بنفس هذه الغطرسة التى لا حدود لها « ما الذى يحتاج اليه الجيش الاسرائيلى لكى يحتل دمشق أو موسكو أو فلاديفوستك ؟ » . « أن يتلقى الأوامر » . والنكتة التى تقول ان الجنرالين ديان واليعازر ، يتناولان قهوة الصباح وهما يشعران بملل كبير . وقال ديان وهو يتنهد ، ليس لدينا ما نعمله فسأله اليعاز ما رأيك فى غزو بلد عربى آخر ؟ ما رأيك ؟ فأجاب ديان أواه ليس هذا رأيا سليما ، فما الذى تفعله بعد الظهر ؟ (١١٦) .

ونادرا ما كانت ترتفع أصوات تعارض مثل هذه الحماقة المضللة للذات . أما الأصوات التى ارتفعت فلم يكترث بها أحد . وقد لخص آرى الياف ، النائب بالبرلمان والكاتب واحد « الحمائم » المشهورين ، الموقف فى قصة رمزية قصيرة تقول : هناك سفينة تنطلق فى بحر هادىء تماما ، ويقف القبطان ومساعدوه فوق منصة القيادة ، وقد أسكرهم الشعور بالعظمة تملؤهم الثقة بالنفس . ويحوم فى الجو طائر (النورس) . وهو يرى الصخرة التى تندفع السفينة نحوها وينطلق نحوهم ويهبط فوق المنصة وهو يطلق صيحات عالية مستمرة محاولا تحذير الرجال من الخطر الذى يواجههم . ولكن لغته تختلف عن لغتهم ، وعينيك عن عيونهم ، وآفاقه عن آفاقهم . ، ويحل الليل ، ويستعد الركاب لحضور حفل العشاء الكبير الذى سيقام فى ذلك المساء ، بينما طائر (النورس) العاجز يستمر فى اطلاق صيحاته المحذرة غير المفهومة (١١٧) .

ورفضت صحيفة دافار نشر هذه القصة الرمزية التى كتبت خصيصا من اجلها .

ملاحظات ومراجع الفصل السابع :

(١) لاف ، السويس : الحرب التى تم خوضها ، المرجع السابق ص ٦٧٧ .

(٢) بيرنز ، بين عربى واسرائيلى ، المرجع السابق ص ٢٩٠ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٨٣ .

(٤) اسرائيل الاخرى المرجع السابق ص ٧٤ .

(٥) المرجع السابق ص ٧٤ .

(٦) انظر جانسن ، جودفرى ، « ضوء جديد على حرب ١٩٦٧ » ديلى ستار ، بيروت ١٥ ، ٢٢ ، ٢٦ ، نوفمبر ١٩٧٣ .

(٧) ٩ مايو ١٩٦٧ .

(٨) كيرك ، جورج اى . « الشرق الاوسط بين ١٩٤٥ الى ١٩٥٠ » نظرة عامة على الشئون الدولية ١٩٣٩ - ١٩٤٦ ، مطبعة جامعة اكسفورد ١٩٥٤ ، ص ٢٩ .

(٩) تذكرة الى السفير الاسرائيلى ابا ايبان من وزير خارجية الولايات المتحدة دالاس ، ١١ فبراير ١٩٥٧ .

(١٠) تويتبى فيليب ، التايمز ، يونيو ١٩٦٧ .

(١١) عمنون كابيليوك ، لوموند ، ٣ يونيو ١٩٧٢ .

(١٢) فانس ، فيك ولادر ، بيير : حسين ملك الاردن : حرب مع اسرائيل . مطبوعات اليان مشيل ، باريس ١٩٦٨ ص ٨٥ .

(١٣) معاريف ٢٤ مارس ١٩٧٢ .

(١٤) لوموند ٢٩ فبراير ١٩٦٨ .

(١٥) تقرير الكولونيل ريور القائم بأعمال رئيس الاركان . وثيقة الامم المتحدة ص ٢٠٨٤ - ابريل ١٩٥١ .

(١٦) هورن ، الجندية فى خدمة السلام ، المرجع السابق ص ١٢٣ - ١٢٤ .

(١٧) بيرنز : المرجع السابق ص ١١٤ .

(١٨) هورن ، المرجع السابق ص ٧٩ .

(١٩) خورى ، فريدج . « سياسة العمليات الانتقامية فى العلاقات العربية الاسرائيلية » ميدل ايسدل جورنال ، واشنطون ، المجلد ٢٠ العدد ٤ ص ١٩٦٦ ص ٤٤٧ .

(٢٠) بيرنز ، المرجع السابق ص ١١٣ .

(٢١) هورن ، المرجع السابق ص ٦٩ .

(٢٢) المرجع السابق ص ١١٧ .

(٢٣) هتشيسون ، الهدنة العنيفة ، المرجع السابق ص ١١٠ .

(٢٤) هورن ، المرجع السابق ص ٦٩ .

(٢٥) شكوى سوريا لمجلس الامن ص / ٧٨٤٥ ، ٦ أبريل ١٩٦٧ .

(٢٦) ٢ مـايو ١٩٦٥ .

(٢٧) نيمرود ، يورام ((الماء والذرة والنزاع)) مجلة العصور الحديثة ، باريس ١٩٦٧ ص ٨٩٢ .

(٢٨) الاهرام أول يونيو ١٩٧٢ .

(٢٩) آوت (مجلة اسرائيلية) آول يونيو ١٩٧٢ .

(٣٠) انظر صحيفة ديلى ستار ، بيروت ١٥ ، ٢٢ ، ٢٦ نوفمبر ١٩٧٣ .

(٣١) لاكير ، والتر . الطريق الى الحرب ، وايدنفلد ونيكولسون ، لندن ، ١٩٦٨ ص٧٥ .

(٣٢) جانسن ، المرجع السابق .

(٣٣) نفس المرجع .

(٣٤) نفس المرجع .

(٣٥) أنظر ص ٢٠٨ .

(٣٦) جيروساليم بوست ١٦ يونيو ١٩٦٧ .

(٣٧) ديلى تلجراف ١٢ يونيو ١٩٦٧ .

(٣٨) فيدال ناكيه ب ، لوموند ١١ ــ ١٢ يوتيو ١٩٦٧ .

(٣٩) ميتو حسن انحطاط اليهودية فى عصرنا ، المرجع السابق ص ٥٠٠ .

(٤٠) نوعان ((المطبوع السنوى للشريعة اليهودية) ١٩٦٨ ص ١٨٣ ــ ١٨٤ .

(٤١) بيجين ، تل أبيب ، ١٦ يونيو ١٩٦٧ .

(٤٢) مطبوعات وزارة الدفاع الاسرائيلية ، رقم ٢٠٤ يناير ١٩٧٠ ص ٢٣ .

(٤٣) هاآرتز ٤ أبريل ١٩٦٩ .

(٤٤) هاعولام هازه ٨ يوليو ١٩٦٨ .

(٤٥) مُعاريف ١٩ يوتيو ١٩٦٨ .

(٤٦) معاريف ٣٠ أبريل ١٩٦٨ .

(٤٧) لوموند ٦ ــ ٧ يوليو ١٩٦٩ .

(٤٨) كابيليوك ، عمنون ، اسرائيل : نهاية الاساطير ، مطبوعات البان ميشيل ، باريس ١٩٧٥ ، ص ٢٨ ، ١٨٣ ــ ٢٢٢ .

(٤٩) جيروساليم بوست ١٣ يوليو ١٩٦٧ .

(٥٠) زيف شاريف ، وزير الاسكان ، مجلسة تايم آول مارس ١٩٧١ .

(٥١) لوى ، باريس ١٩٧٢ .

(٥٢) ايجال اللون ، القدس ، ١٣ أبريل ١٩٧٢ .

(٥٣) أنظر ص ٦٥ .

(٥٤)

(٥٥) اسرائيل امبيريال نيوز ، لندن ، مارس ١٩٦٨ .

(٥٦)

(٥٧) المصدر السابق ص ٢٠ .

(٥٨) والمصدر السابق ص ٤١ .

(٥٩) مـارس ١٩٦٨ .

(٦٠) معاريف ، ٨ فبراير ١٩٧٢ .

(٦١) الامم المتحدة ، تقرير قدمته اللجنة الخاصة بفلسطين التابعة للامم المتحدة الى الجمعية العامة ٣١ اغسطس ١٩٤٧ الفصل السادس . الجزء المبرر رقم ٥ .

(٦٢) روحى الخطيب ، تهويد القدس ، عمان ، ١٩٧١ ص ١٣ .

(٦٣) وليد خالدى ، خطاب فى الجمعية العامة للامم المتحدة . وثيقة ا / ب ف١٥٥٣ ، ١٤ يوليو ١٩٦٧ .

(٦٤) الخطيب ، المصدر السابق ص ١٣ .

(٦٥) الجارديان ، ٢٦ أبريل ١٩٧٢ .

(٦٦) اذاعة اسرائيل اول يوليو ١٩٧١ .

(٦٧) روحى الخطيب ، ضم اسرائيل للقدس ، عمان ، ١٩٦٨ ص ٧ .

(٦٨) على هاميشمار ، ٧ أبريل ١٩٧١ .

(٦٩) نشرت معهد الدراسات الفلسطينية (بالعربية) بيروت ، ملحق أول يونيو ١٩٧٢ .

(٧٠) معاريف ٢٣ مارس ١٩٧١ .

(٧١) الخطيب ، تهويد القدس ، المصدر السابق ص ٧٨ .

(٧٢) ريان ، جوزيف (اسقف العبادات) « بعض الافكار عن القدس » ، مجلة لنك ، نيويورك سبتمبر ــ اكتوبر ١٩٧٢ .

(٧٣) المرجع السـابق .

(٧٤) جريس ، العرب فى اسرائيل ، المرجع السابق ص ١٥١ ــ ١٥٥ .

(٧٥) ٣١ اكتوبر ١٩٦٩ .

(٧٦) جيروساليم بوست ١٣ ابريل ١٩٧٣ .

(٧٧) هاارتز ٢٣ اكتوبر ١٩٦٩ .

(٧٨) الاجارديان ٢٨ ديسمبر ١٩٦٩ .

(٧٩) كابيليوك ، المرجع السابق ص ٢٤ .

(٨٠) جريس ، « تشريع الكنيست الاخير والعرب فى اسرائيل » ، المرجع السابق ص ٦٦

(٨١) انظر ديان ، شيلا ، السياسة الاقتصـادية الاسرائيلية فى المناطق المحلية : اسس امبريالية جديدة ــ تقارير ام . اى . ار . بى . رقم ٢٤ يناير ١٩٧٤ .

(٨٢) ٥ مايو ١٩٦٩ .

(٨٣) دافار ٨ نوفمبر ١٩٧٢ .

(٨٤) معاريف ٢ فبراير ١٩٧٣ .

(٨٥) ميدل ايست انترناشيونال ، لندن ، ديسمبر ٧٣ ص ٢٢ .

(٨٦) انظر ص ٢٦

(٨٧) هاآرتز ١٣ ديسمبر ١٩٧٤ .

(٨٨) ميدل ايست انترناشيونال ، المرجع السابق ص ٢٢ .

(٨٩) معاريف ١٧ أبريل ١٩٦٩ .

(٩٠) كابيليوك ، المرجع السابق ص ٣١ .

(٩١) يدعوت احرونوت ٢٩ سبتمبر ١٩٧٢ .

(٩٢) ديلى تلجراف ٣١ اكتوبر ١٩٧٢ .

(٩٣) الاتحاد ، حيفا ، ٣٠ آبريل ١٩٧٣ .

(٩٤) ريان ، شيلا ، المرجع السابق .

(٩٥) الاتحاد ٣٠ آبريل ١٠٧٣ .

(٩٦) ايثاكابرين ، لندن ١٩٧٥ .

(٩٧) انتهاكات اسرائيل لحقوق الانســـان فى الاراضى المحتلة ، مؤسسة الدراســـات الفلسطينية . بيروت ١٩٧٠ ص ١٤٧ .

(٩٨) بيان الرابطة الاسرائيلية للحقوق الانسانية والمدنية ٢٣ يناير ١٩٧١ .

(٩٩) الجارديان ٢٦ يناير ١٩٦٨ الادبزورخر ٢٨ يناير ١٩٦٨ ، بن يوسه اميتاى نشرة خريجى الجامعة الامريكية العربية عدد رقم ٢ المرجع السابق .

(١٠٠) رويتر ٢٥ سبتمبر ١٩٦٩ .

(١٠١) تقارير وكالات ١٨ ديسمبر ١٩٦٧ .

(١٠٢) الرابطة الاسرائيلية ، المصدر السابق .

(١٠٣) صنداى تايمز ٢٣ نوفمبر ١٩٦٩ .

(١٠٤) هاعولام هازه ، رقم ٥٤ آبريل ١٩٦٩ .

(١٠٥) هاآرتز ، ١٢ فبراير ١٩٧٠ ، بن يوسا ، اميتاى ، المرجع السابق .

(١٠٦) الاذاعة الاسرائيلية ، استشهدت بها جريدة الاتحاد ٣١ اكتوبر ١٩٦٩ .

(١٠٧) انتهاكات اسرائيل لحقوق الانســـان فى الاراضى المحتلة ، مؤسسة الدراســـات الفلسطينية بيروت . ابريل ١٩٧٠ .

(١٠٨) لوريان لوجور ، ١٠ سبتمبر ١٩٧٢ .

(١٠٩) تقرير النهار العربى ١٨ سبتمبر ١٩٧٢ .

(١١٠) ديلى ستار ، بيروت ١٠ سبتمبر ١٩٧٢ .
(١١١) الديكونومست ، ٩ سبتمبر ١٩٦٧ .
(١١٢) معاريف ، ٣٠ مارس ١٩٧٣ .
(١١٣) معاريف ، ٥ يونيو ١٩٧٣ .
(١١٤) على هاميشمار ، ١٠ مايو ١٩٧٣ .
(١١٥) معاريف ، ٢٠ يوليو ١٩٧٣ ، هاآرتز ٢٠ سبتمبر ١٩٧٣ .
(١١٦) كابيليوك ، المرجع السابق ص ٦٨ .
(١١٧) المرجع السابق ص ٤٩ .

الفصل الثامن
الصهيونيون العرب

الزلزال ، أكتوبر سنة ١٩٧٣ :

« سنحيل نهاركم ليلا ، وسنريكم النجوم عند الظهر وسنمرغ انوفكم ووجوهكم فى الوحل . سنجعل زعماء العدو يدفعون ثمن هــذا غاليا وسنسحق عظامكم »

لقد بدت هذه المغالاة العدوانية الاسرائيلية مماثلة تماما ، لتعليقات الاذاعات العربية التى صورت للجميع فى يونيو سنة ١٩٦٧ ان الجيوش العربية تندفع نحو تل أبيب ، فى حين أنها كانت تتقهقر فى ارتباك تام أمام عدو ضمن النصر بالفعل . كانت تلك الأقوال صادرة من الاذاعة العربية لراديو اسرائيل خلال الأيام الاولى للحرب العربية الاسرائيلية فى أكتوبر ١٩٧٣ . « وان يسحق عظامهم » ، وهو ما تعهد به الجنرال ديفيد اليعازر، رئيس الأركان ، أمام المؤتمر الصحفى الذى عقد فى اليوم الثالث للحرب . وسارت الصحافة على نفس النغمة فقد كتب أحــد المحررين فى صحيفة معاريف يقول تحت عنوان « سنسحقهم » ، « يجب أن يكون هجومنا المضاد من العنف والتدمير وعدم الرحمة والقسوة بحيث يؤدى الى صدمة قومية حقيقية فى الوعى الجماعى للعرب ، لابد أن يدفع العرب ثمن مغامرتهم فى عيد «يوم كيبور» غاليا بدرجة تجعلهم يرتعدون خوفا لمجرد التفكير فى مغامرة أخرى ... يجب أن نوجه ضربة تشل التفكير حتى تضطرهم غريزة البقاء الى قبول اسرائيل (٢) كان هذا كله رد فعل عنيفــا ، ولكن ما كان المرء ليتوقع ردا أضعف من ذلك ، من قيــادة أظهرت طوال السنوات الست السابقة كل ذلك القدر من الثقة المفرطة فى قوتها المطلقة . وكان هذا ايضا هو ما يتوقع الجمهور الاسرائيلى سماعه من قادته الذين يثق بهم .

لقد كان العرب هم الذين سعوا الى ذلك اذ يبدو أنهم لم يتعلموا بعــد الدرس الذى يجب أن تكون ثلاث حـــروب كبيرة « قد لقنته لهم وعدد لا يحصى من الحروب الصغيرة وها هما دولتان عربيتان ـ مصر وسوريا ـ تشنان هجوما مفاجئا تماما ، هجوما خاطفــا على نطاق واسع بالأسلوب

الاسرائيــلى ، والادهى من ذلك أنهما تقومان بذلك فى أقدس يوم من أيام العام اليهودى » .

وأمكن اقناع الاسرائيليين بالفعل فى بداية الأمر بأن هذه الحرب ليست الا حــربا مختلفة عن حرب ١٩٦٧ . ونشرت صحيفة الجـيروزاليم بوست يوم الثلاثاء ، أى فى اليوم الرابع بعد بدء الحرب، تقريرا من الجبهة الشمالية تحت عنوان يقول « قوات الجـولان تأمل فى العودة الى الوطن فى اجـازة السبت الاسبوعية . » وكانت الرسوم الكاريكاتورية متفائلة بالمثل ، فقد صورت احداها الرئيس السادات وهو يهرول متراجعا فى اهتياج شـديد الى الضفة الأخرى لقناة السويس وقد انخلع حذاؤه من قدميه فى الطريق. أما عندما امتد أمد الصراع طويلا فقد بدأ القــادة العسكريون يتهامسون بأن هــذه ليست حربا « سريعة » وانه لا يمكن تحقيق انتصـــارا مبكرا وباهرا (٣) واستغرق الأمر فى النهاية ثلاثة أســـابيع ، قبــل أن يحقق الاسرائيليون التفوق بالفعــل ، وينجحوا فى طرد الســوريين الى ما وراء خطوط وقف اطلاق النار لسنة ١٩٦٧ وعبور قناة السويس الى «افريقيا»، وتهديد الجيش الثالث المصرى المحاصر بالدمار . ومع هذا لم يحققوا النصر الساحق الذى اعتادوا تحقيقه . وكان هــذا فى حـد ذاته نكسة خطيرة لفلسفة الأمن الاسرائيــلى بأسرها . فان العرب لم يجرءوا فحسب على تحدى فكرة عدم امكانية قهرهم — وهو أمر سيء فى حد ذاته — بل انهم ، باختراقهم لخط بارليف نجحوا فى توجيه ضربة مدمرة اليها والى السلسلة الكاملة من الافتراضات الواثقة التى قامت عليها .

كانت حرب اكتوبر بمثابة زلزال ، وكانت علامة على حدوث تحول جذرى على حساب اسرائيل — فى ميزان القوة بالشرق الأوسط . فلاول مرة فى تاريخ الصهيونية ، حاول العرب ونجحوا جزئيــا فى فرض أمر واقع بقوة السلاح .

ولم تكن النكسة مجرد نكسة عسكرية بل انها اصابت جميع العناصر ، السيكولوجية والدبلوماسية والاقتصادية التى تتكون منها قوة وحيوية اى أمة وقد دفع الاسرائيليون ثمنا غاليا لمجرد محافظتهم على حالة التعــادل بينهم وبين مهاجميهم وفقدوا فى ظرف ثلاثة أسابيع وفقا للارقام الرسمية، ٢٥٢٣ رجلا ، وهى خسارة تبلغ من حيث النسبة ما خسرته أمريكا خلال عشر سنوات فى حرب فيتنام مرتين ونصف مرة .

وقد أسفرت الحروب السابقة عن صـــدور سيل من الكتب المصورة المصقولة الورق تخليدا لذكرى النصر ، أما فى هـذه المرة فان أول كتـاب صدر كان يحمل اسم « المحدال » أى « التقصير » وفى ١٩٦٧ ألقى جنرالات اسرائيل ، وكلهم رفاق سلاح محاضرات على جمهورهم المعجب بهم ، حول حملاتهم المختلفة ، وما كادت حرب ١٩٧٣ تبدأ حتى أخـذوا يتبـادلون الاتهامات وأقسى الاهانات سواء كان ذلك فى الصحف المحلية أو العـالمية ، واستقبلت الأمهات الثكلى والأرامل فيما بعد ، موشى ديان ، المعبود الذى هوى بالهتافات التى تتهمه بأنه سـفاك وكانت الحـروب السابقة تعقبها استعراضات عسكرية مهيبة فى ذكرى عيد الاستقلال ، مع استعراض الغنائم التى تم الاستيلاء عليها من العدو أما فى هذه المرة ، فان شيئا من هـذا لم يحـدث بل على العكس سرعان ما عرف الاسرائيليون أن معرضـا كبيرا للغنائم قد افتتح فى القاهرة . ولأول مرة أيضا شاهد الاسرائيليون المنظر المخزى لأسراهم وهم يستعرضون ورؤوسهم منكسة على شاشات التليفزيون العربى .

وفى حين ان حرب سنة ١٩٦٧ انعشت من جديد اقتصاد اسرائيـل المنهار فان حرب ١٩٧٣ كادت فى هذه المرة ان تقضى عليه . وقال وزير المالية متباكيا « سندفع نحن وأبناؤنا واحفادنا وأحفاد أحفادنا ثمن هذه الحرب » (٤) وبعد تصريحاته هذه ، فرضت سلسلة من اجراءات التقشف الحادة ، التى أدت الى خفض مستوى المعيشة بقسوة ، وقد تعارض ذلك بصورة تدعو للتشاؤم الحاد فى عائدات الدول العربية الغنيـة بالبترول . وأصبحت اسرائيل تعتمد اقتصاديا بالكامل على الولايات المتحـدة ، التى أصبحت تمولها الآن بما يقرب من ٢٥٠٠ مليون دولار سنويا . وأصبحت عزلتها الدبلوماسية مخيفة حيث أصبحت بلا أى صديق فيماعدا الولايات المتحدة وحدها وعلى عكس توقعات اسرائيل ، نجح العرب فعلا فى استخدام سلاح البترول وقد اكتشف العرب بسرعة انهم عندما دعموا حججهم المعنوية والسياسية بالتهديدات المـادية أعارتهم دول أوربا الصناعية واليابان اذنا اكثر اصغاء .

غير ان أشد الأمور ازعاجا هو ان الحرب اثارت أسبابا عميقة ، ودائمة بلا شك ، للقلق حول مستقبل الصهيونية والدولة اليهودية . وكان أساسا خاصة الجنود العائدين ، هم الذين عبروا عن شكوكهم صراحة . وتساءلوا : هل لهـذه البـلاد مسـتقبل حقيقى ؟ وهل أمامهم اختيـار آخر سـوى اسرائيل . وكان من المفروض ان تؤمن الصهيونية وجود الشعب اليهودى

فى وطن ولكن اليس الوجود اليهودى ذاته أكثر عرضة للخطر فى اسرائيل ، من الناحية الفعلية والمادية ، منه فى أى مكان آخر فى العالم ؟ وقـد كتب جندى اسرائيلى بعد وقف اطلاق النار الى صحيفة هاآرتس يقول :

ولقد احتفلت وحدى بعيد ميلادى فى صحراء سيناء ، فى المخبأ تحت الارض .. وفكرت فى أبنـائى الثلاثة الذين اناضل لتربيتهم — من أجل الاشتراك فى حروب مستقلة : وفكرت فى زوجتى التى يمزقها القلق ، وفى مكتبى المهجور .. وامتلأت رأسى بأغرب الأفكار الفكرة الأولى : — متى سينتهى كل هذا ؟ الفكرة الثانية : لماذا ؟ لماذا حدث هذا ؟ والفكرة الثالثه : الم يكن من الممـكن منع وقوعه بأى ثمن ؟ اننى أحـاول أن أتهم أفكار كل رجال الدعاية ، واولئك المتشائمين الذين يعتقدون بغباء — ان قوة السلاح هى الشيء الهام الوحيد . لمـاذا لا يحاولون تفهم أفكار العدو . ؟

لمـادا لا يدركون ان العدو كان مضطرا الى خوض المعركة أو المذبحة لانه لم يكن أمامه طريق آخر ولانه لم يجد أمامه خيارا آخر : ماذا فعلنـا نحن بجديه خلال السنوات الست التى انقضت منـذ هزيمتهم الرهيبة والمخـزيه ابان حـرب الايام السـته لتطهير عقول أعدائنـا من النوايا الاجرامية : (٥)

ولقد ذهب استاذ جامعى الى أبعد من هذا بكثير :

« وان الخطأ لم يرتكب خلال السنوات المـاضية ، بل ارتكب خـلال الخمس والعشرين سنة الاخيرة ، ومنذ توقيع اتفاقيات رودس . لقـد كان الخط العريض لسياستنا دائما هو فكرة أن أفضل حالة بالنسبة لنـا هى استمرار حاله لا سلم ولا حرب المستترة ، وانه يجب المحافظة على هذه الحالة بأى ثمن .. وفيما يتعلق بالسياسة الخارجية وسـياسة الأمن ، كانت تقوم على أساس اننا نزداد قوة عاما بعد عام ، ونحن نعيش فى حالة من الصراع الداهم حيث يمكن أن ينشب خلالها ، من وقت لآخر ، قتال فعلى ، وان مثل هذه الحروب ستكون قصيرة عادة ونتـائجها مضمونة مقدما ، حيث ان الفجوة بيننا وبين العرب تتزايد اتساعا . وعلى هـذا الأسـاس سننتقل من احتلال الى مزيد من الاحتلال . وقد سادت هذه السياسة الاجرامية المؤذية ، كما توقع واضعوها لمدة خمسة وعشرين عاما ، وقد قادتنا هذه السياسة الى الأزمة التى نعيشها اليوم بعد ان انهـارت جميع الافتراضات التى تقوم عليها .. اننا لم نكن ننشد تحقيق السـلام طوال الخمسة والعشرين عاما الأخيرة — وأى تصريحات صدرت بهذا المعنى لم تكن الا تصريحات مفرضة أو أكاذيب متعمـدة . وبالطبع ليس هنـاك

ما يؤكد لنا اننا كنا نستطيع تحقيق السلام مع العرب لو اننا أردنا هذا غير انه يجب علينا أن نؤكد بشدة اننا لم نمتنع فقط عن القيام بأي محاولة للوصول الى السلام ، بل اننا تعمدنا مع سبق الاصرار ان نخيب أى امكانية لتحقيقه (٦) .

وقد ازعجت مثل هذه الآراء الزعامة الاسرائيلية . ورأت وزارة التعليم انه من الضرورى العمل على تعميق الوعى القومى فى المدارس (٧) ولكن هذه الآراء ظلت هى رأى الأقلية . أما الأغلبية فقد لجأت فى حالة انحرافها الى مناحم بيجين وتطرف أتباعه من التنقيحيين ، الى الشعار الصهيونى العتيق « لاخيار » وكالمعتاد لم تبد جولدا مائير ، رئيسة الوزراء اى ندم : لقد بذلنا ما من شأنه تجنب الحرب . وأستطيع القول بضمير نقى اننا لم نغفل أى فرصة لتحقيق السلام (٨) . وعندما تم تشكيل لجنة تحقيق رسمية استجابة للضغوط الشعبية لم نغص الا فى التحقيق فى نواحى القصور فى ادارة دفة الحرب الفعلية . والأمر الذى كان لابد وان تؤدى اليه المخاوف التى شعرت بها أقلية من المهتمين هو نفس ما تجنبته الحكومة اى التحقيق فى نواحى القصور الحقيقية ، أى النواحى السياسية التى أدت اصلا ، الى نشوب الحرب . ولكن هذا أكثر مما يستطيع المرء ان يتوقعه . لأن التساؤل : (ما الذى دفع العدو الى الدخول فى معركة ؟) كان سيؤدى الى التنقيب فى أعماق ماضى اسرائيل ، الى ابعد من حرب الأيام الستة ، بل الى ابعد من اتفاقية رودس ، والى اثارة تلك المسائل الأخلاقية التى تتشبث بها أقلية صهيونية صغيرة منذ عهد هرتزل ، والتى القت بها الأغلبية من أمثال جولدا مائير ، فى الـ « لاوعى » الذى من المحتمل انه يشعر بالذنب فأثارة أى أسئلة متعلقة حقيقة بالسبب الذى دفع المصريين والسوريين الذين لم تتعرض بلادهم اساسا لأى سوء ، الى شن الحرب ، يؤدى حتما الى سؤال آخر ، أصعب الى حد بعيد ما هو حافز الفلسطينيين ، الذين خسروا كل ما يملكونه ؟

« أليس هناك شيء اسمه فلسطينيون ؟؟ »

لم تكن حرب أكتوبر حرب الفلسطينيون فقد لعبت منظماتهم العسكرية الفدائيون وجيش التحرير الفلسطينى — دورا صغيرا جدا ، وان كان حماسيا فى هذه الحرب . بيد أنه كان من المقدر ان يتبعها اروع طفرة فى مصير الفلسطينيين منذ انطردوا من ديارهم ايان مأساة سنة ١٩٤٨ .

وكما رأينا (٩) بذل الاسرائيليون كل ما فى طاقتهم ، بعد ١٩٤٨ للقضاء على أى شعور بهوية فلسطينية ، ولازالة أى أفكار حول الوجود الفلسطينى المستقل .

فاضطهدوا مواطنيهم الفلسطينيين أى الفلسطينيين « بداخل اسرائيل الذين آثروا البقاء فيها ونجحوا من خلال سياستهم الانتقامية فى ارهاب العناصر الخارجية التى لجأت الى الدول العربية المجاورة .

وكان التفكير الذى يكمن وراء هذه السياسة هو ببساطة شديدة ، أن الفلسطينيين سيختفون فى نهاية الأمر عن الوجود . أو أن اتفاقات الهدنة سيحل محلها فى النهاية تسوية نهـائية لا يكون فيها مكان للفسطينيين كشعب — يتمتع بالصفات التاريخية والحضـارية والاقليمية التى تضفى عليه صفة الشعب . اذ أن شعبا آخر قد احتل ذلك المكان . وقد اكتسب الاسرائيليون بمرور السنين تأييدا دوليا متزايدا من أجل تحقيق مثل هذه التسوية . وأصبح كل شيء معلقا بمسألة اللاجئين الفلسطينيين فان عودتهم ستعنى اعادة تكوينهم كشعب أما اعادة توطينهم فى مكان آخر ، فانه سيعنى اختفاءهم كشعب . ويعتبر تاريخ مشكلة اللاجئين كما هو مدون فى سجلات الأمم المتحدة ، مقياسا واضحا لنجاح اسرائيل . وقد رأينا (١٠) أن الكونت برنادوت ، وسيط الأمم المتحدة الذى راح ضحية الاغتيال والذى كان أول من تفهم مشكلة لم تراوده أى شكوك حول حلها السليم . وكان هذا الحل يكمن فى حق اللاجئين غير المشروط فى العودة ، وانه جـزء ضرورى من « ايه تسوية معقولة » وكان مقتنعا بأنه صدرت قرارات سياسية حازمة عن الامم المتحدة ، فان كلا الجانبين « سيرضخ » لها ولكن مثل هـذه القرارات الحازمة لم تصدر . فبعد اغتياله ناقشت الأمم المتحدة مقترحاته ، وأثناء تلك المناقشة ، اشتبكت نفس المجموعة المتواطئـة بزعامة امريكا ، التى عملت قبل ذلك بعام واحد على سرعة اصدار الجمعية العامة المترددة ، لقرار التقسيم فى جدل لصالح اسرائيـل . حقيقة ان القرار ، رقم ١٩٤ (الدورة الثالثة) الصادر فى ١١ ديسمبر ١٩٤٨ ، نص على انه « يجب السماح بعودة اللاجئين الذين يرغبون فى العودة الى ديارهم والعيش فى سلام مع جيرانهم وذلك فى أقرب موعد ممكن » . ولكن اذا ما قورن هـذا بما سعى برنادوت الى تحقيقه فان القرار كان ضعيفا وغامضا ، وكان تنفيذه متوقفا على رضا اسرائيل ، كما انه لم يحـدد الوكالة التى ستشرف على عودتهم . وبالرغم من عدم فاعلية القرار أيدته اسرائيل شفهيا بالفعل على

الأقل فى البداية فان منفعتها كانت تتطلب ذلك . فاسرائيل ، وهى الدولة الوحيدة التى أقامتها الامم المتحدة ، لم تكن تتمتع بنفس نوع السـيادة الذى يتمتع به الولايات المتحدة أو بريطانيا أو مصر مثلا فقد فرضت قيود معينة على سيادتها فى ميثاق انشائها ذاته . وعنـدما تعرضت لضغوط اعترفت رسميـا بما نص عليه القرار ١٩٤ . ولم تحظ الدولة الجـديدة بعضوية الهيئة العالمية الا بعدما اعترفت فى الواقع ـ على لسان ابا ايبان ، ممثلها فى الأمم المتحدة بالاعترافات التى تضمنت حقها فى الوجود . وعندما سئل ايبان ، بعد الموافقة على انضمام اسرائيل الى عضوية الأمم المتحدة : هل ستتعاون اسرائيل مع الجمعية العامة فى تسوية المشاكل البـارزة مثل مشـكلة اللاجئين ؟ أم على العكس من ذلك سوف تستشهد بتلك المـادة الواردة فى ميثاق الأمم المتحدة الخاصة بحقوق السيادة التى تتمتع بهـا الدول المستقلة ؟ ، قال ايبان ان اسرائيل ستتعاون مع الجمعية العامة . واستطرد يقول « انى أشعر أنه من الخطأ أن تلجأ أى من الحكومات المعنيـة فيما يتعلق بمشكلة اللاجئين ، اذ أنها تستغل حقها القانونى فى طرد الأشخاص من أراضيها (١١) . وقال ممثل كوبا ، فى مجال تلخيصـه للمناقشات ان اسرائيل قد أكدت أنها تعتبر أن مشكلة اللاجئين تقع خارج نطاق قوانينها الداخلية .

ولكن هذا التأييد الشفوى لم يستمر دورة من دورات الجمعية العامة أكثر مما ينبغى وأصبحت عملية اعادة تأكيد القرار ١٩٤ واحدة من اشق عمليات التأكيد بالجمعية العامة تكرارا واستمرارا . فقد كان القرار يتكرر كل عام بدون أن تتحرك اسرائيل ، التى ظلت تدافع بغيرة عن « سـيادتها » واختصاصها الداخلى . ومنذ البداية لم تكن الولايات المتحـدة والدول الغربية الأخرى أكثر احتراما للقرار رقم ١٩٤ من اسرائيل ذاتها . وحاولوا جاهدين ادماج اللاجئين فى الدول التى تستـضيفهم . وقامت بعثـة تلو الأخرى ، طوال الخمسينيات وأوائل الستينيات ، بزيارة الشرق الأوسط لتقديم بلا جدوى مشروعات تضمنت جميعها افتراضا أساسيا مشتركا ، وان اختلفت من بعض النواحى . وهذا الافتراض هو أنه اذا ما حصـل اللاجئون على الحوافز المادية اللازمة ـ تعويضـات ومسـاعدات ماليـة ومشروعات للتنمية الاقليمية ـ فانه يمكن اقناعها بالموافقة على اعادة توطينهم خارج فلسطين التى يعتبرونها وطنهم وحققت اسرائيل سنة ١٩٥٢ نصرا آخر فى الأمم المتحدة ذلك ان المسألة الفلسطينية « كما كان يطلق عليهـا رسميا حتى تلك اللحظة فى جدول أعمال الجمعية العامة ـ انحدرت الى منزلة

« التقرير السنوى للمفوض العام لوكالة الغوث والعمل التابعة للامم المتحدة » . واستمرت « المسألة الفلسطينية لمدة اطول فى مجلس الأمن ، فقد استمرت مناقشة كل ما يمت بصلة الى الصراع العربى الاسرائيلى تحت هذا العنوان الرئيسى . ولم توجه اسرائيل الضربة القاضية الى المسألة الفلسطينية هناك أيضا ، الا فى أعقاب حرب سنة ١٩٦٧ ، فقد أصبحت المسألة الفلسطينية تعرف بعد ذلك باسم « الوضع فى الشرق الأوسط » . وساير قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ الشهير الصادر فى نوفمبر سنة ١٩٦٧ والذى تبنته بريطانيا ، والذى يعتبر شريعة مقدسة بالنسبة لصانعى السلام ، هذا التغيير الذى حول « المسألة الفلسطينية الى تسوية عادلة لمشكلة اللاجئين » (١٢)

كادت الآن عملية القضاء على الفلسطينيين تكتمل أو على الأقل هكذا بدأ الأمر بالنسبة للزعامة الاسرائيلية التى أسكرتها نشوة انتصاراتها . وأصبح بعضهم يؤكد أن الفلسطينيين لم يكن لهم وجود على الاطلاق . ولقد تفوهت جولدا مائير ، رئيسة الوزراء ، فى سنة ١٩٦٩ ، بهذه الكلمات فعلا : « لم يكن الأمر أن هناك شعبا فلسطينيا فى فلسطين يعتبر نفسه شعبا وجئنا نحن وطردناهم واغتصبنا وطنهم منهم . انهم لم يكونوا موجودين على الاطلاق » (١٣) . ولم يكن سلفهما ليفى أشكول ، الذى يعتبر معتدلا عموما ، أقل ازدراء منها اذ يقول من هم الفلسطينيون ، عندما قدمت الى هنا كان يوجد ٢٥٠ ألفا من غير اليهود ، معظمهم من العرب والبدو (١٤) . ان رؤساء الوزراء قد يدلون بملاحظات متهورة وغير حكيمة ، ولكن هذه التصريحات الغريبة كانت أبعد ما تكون عن هذا . كانت تعكس الحاجة الصهيونية الفطرية الى اعادة كتابة التاريخ . كانت تتفق تماما مع الخطوط العريضة التى يمكن أن يصنعها بكل جديد أى وزير تعليم ليسترشد بها المدرسون الاسرائيليون : انه من المهم أن يعلم شبابنا أننا عندما عدنا الى هذه البلاد لم نجد هنا اى أمة أخرى ومن المؤكد أننا أمة عاشت هنا مئات السنين . أما أولئك العرب الذين وجدناهم هنا لم يصلوا الى هنا الا قبل وصولنا ببضعة عقود فقط أى فى الثلاثينيات أو الأربعينيات من القرن الماضى ، بصفتهم لاجئين ، هربا من اضطهاد محمد على لهم فى مصر .

رؤيا العودة :

لم يتم بطبيعة الحال القضاء على الفلسطينيين ، وكانت تصريحات مائير وأشكول ، فى تطرفها الضيق الأفق ، تخفى بلا شك ادراكا قلقا للحقيقة

الساخرة ــ وهى انه فى اللحظة التى تبلغ فيها الصـــهيونية أوج قوتها وغرورها ، تواجه التهديد من جانب صهيونية عكسية . وقد استقرت هذه الحقيقة وقتا طويلا لتتبلور . ولكنها كانت دائما امرا متوقعا فما أن خرج الفلسطينيون من بلادهم حتى صمموا على العودة . وهذا هو السبب فى خيبة الجهود التى تبنتها أمريكا لاعادة توطين اللاجئين . ويقال احيانا ان فكرة العودة الغامضة قد غرستها فى الأذهان وغذاها بصـــورة مصطنعة سياسيون مجردون من الضمير وانهم أبقوا على معسكرات اللاجئين ، عن عمد ، لتكون مرتعا لكراهية اسرائيل . وربما كان صحيحا ان الفلسطينيين قاسوا أكثر من أى شعب آخر من سياسيين مجردين من الضمير من بينهم قادتهم أنفسهم ، وكان حتى ولو صح هذا ، ليس سليما للقول بأن النتيجة الطبيعية أن الأشخاص العاديين كانوا سيتخلون عن الأمل فى العودة لو انه تركت لهم حرية التصرف . ليس هذا القول سليما . ويمكن التأكيد بالمثل بأن السياسيين باستغلالهم للعودة ان صح هــذا ، قد حطوا من شـــأنها واضعفوها فى أذهان الناس . وما كان يصدق على القضية الفلسطينية قبل النكبة يصدق عليها بعدها ، بالمثل وهو : « ان الدافع الأساسى كان ينبع من نفوس الناس لا من السياسيين » .

وقد تركت المأساة حوالى مليون فلسطينى بلا زعامة ، مشتتين مغلوبين على أمرهم . وكان الاهتمام الأول بالنسبة لمعظمهم ، خلال تلك الأشـــهر الأولى للمحنة فى المنفى ، هو مجرد المحافظة على بقائهم . وحاول الذين يملكون المـال والمهـارات ، ومعظمهم من الطبقة الوسـطى الحضرية ، ان يعيدوا بناء حياتهم حيثما يستطيعون . أما الأغلبية المعدمة ، ومعظمها من الفلاحين ، فقد بقيت حيث استقر بها المقام فى فرارها المذعور من فلسطين وقد تم حشدهم فى مخيمات ، أقيمت تحت رعاية الأمم المتحدة فى لبنـان وسوريا والأردن وغزة ، حول الحدود الخارجية للدولة المنشأة حديثا . ولم يكن للفلسطينيين ، بل لم يكن من الممكن أن يكون لهم فى هذه الظروف ارادة جماعية حرة . ولم يكن من الغريب أن تكون سياسة المنفى ذات طابع سلبى فى بادىء الأمر . اذ كان معظم اللاجئين قد فروا من ديارهم معتقدين انهم عندما ينتهى القتال ، سيعودون اليها سريعا وعندما واجهوا عنـــاد اسرائيل المنتصرة استنبطوا فكرا عدائيا مضـــادا خاصـا بهم . وقالوا لأنفسهم ، حسنا ، قد لا نستطيع العودة الآن الى ديارنا ، ولكن فليعرف الجميع اننا لن نرضى عنها بديلا . ولم يكن معنى هذا انهم آثروا البقاء فى المخيمات عندما أتيحت لهم فرصة للعمل أو حياة أفضل ــ وهو ما حدث

بالنسبة لعشرين فى المـــائة من المجتمع الفلســطينى (١٦) . ولكنــه يعنى المعارضة العنيفة للمشروعات التى من الواضح انها وضعت لمصلحة اسرائيل، وتعتبر « منظمة تدمير برامج توطين اللاجئين » مثالا على هذا . وكان معناه أيضا ظهور معارضة من نوع أكثر بعدا عن المنطق . فكان اللاجئون ، الذين يسيطر عليهم جنون الشك ، يميلون تلقائيـــا الى رفض أى شىء ينم عن الاقامة الدائمة مهما كان ضارا أو مرغوبا فيه فى حد ذاته وازاء أى بادرة استفزاز كانوا يجدون أنفسهم يسيرون فى مظاهرات ضـــد أى محاولة لتخفيف من بؤسهم . وحتى عام سنة ١٩٥٨ كنا نجدهم يحتجون مثلا ضد غرس الأشجار ، التى كانوا يعلمون جيدا أنها ســتوفر لهم الظل المرغوب فيه ، الذى يقيهم حرارة شمس الصيف اللافحة .

وسرعان ما ظهرت رؤية كاملة للعودة . ولم يعد نزلاء المخيمات ، بوجه خاص ، يفكرون فيه أو يتكلمون عن شىء آخر تقريبا . واصبح هذا الحلم متسلطا على تفكيرهم . ولم تكن لديهم فكرة واضحة عن كيفية العودة . ولكنهم كانوا على ثقة من شىءواحد ، شىء واحد بديهى ، لا يقبل الجـدل وهو أن ما أخذ منهم بالقوة ، لا يمكن أن يسترد الا بالقوة .

وسيطرت فكرة العودة على كل شىء ، ولكن نغمة العنف ، وهو عنف عادل وضرورى كانت تكمن بالضرورة تحت هذه الفكرة وشكل حلم العودة كل شعائر وشعارات المخيمات ، وقد تم غرسه فى نفوس الأطفال منـــذ ولادتهم وزينت المدارس بصورة فلسطين وصور الشهداء الذين سقطوا فى ساحة النضال من أجلها . وأطلقت أسماء المدن الفلسطينية الشهيرة على الفصول وعلى فرق الجوالة . وتم وضع خريطة الوطن السليب فى اطار أسود ، يعلوها صور للمساجد واللاجئين فى معســـكراتهم ، وكتب بخط واضح عبر صحراء النقب اننا عائدون حقا « مع كلمات وضعت فوق صور خلفية لقوات المشاه والدبابات والطائرات .

ويبدأ اليوم الدراسى لأطفال اللاجئين وهم منتصبون فى وقفتهم يرددون القسم :

فلسطين وطننا
والعودة هدفنـــا
الموت لا يخيفنـــا
فلسطين لنـــا

أبدا لن ننساها
ولن نرضى وطنا سواها
فليشهد الله والتاريخ يا فلسطيننا
عهد بأن نفديك بدمائنا (١٨)

ونمت العودة الشعر الفلسطيني الذى تدفق بغزارة . وقد برر كمال ناصر وهو مسيحى ، بأسلوبه الخاص أعمال العنف المستقبلة ، التى راح ضحيتها فيما بعد بصفته المتحدث بلســـــان منظمة تحرير فلسطين الذى أغتاله الاسرائيليون قائلا :

اللاجئون أبدا ثائرون
فى مخيماتهم ، فى ذلك العالم من الظلام
جذوات الثورة
تستجمع قواها من أجل العودة
فقدوا ايمانهم بتعاليم الحب
حتى هنا ، فى أرض المحبة والسلام
تصرخ داخل أفئدتهم حقوقهم المسلوبة
ويثير البؤس والجوع غضبهم
وينتشر العدو المسموم والحقد فى الخارج
يقول « انهم شيوعيون ، آمالهم كاذبة
فنقتل آمالهم فى العودة »

وهو يفسر منطقه المسيحى فى رفض الحب والسلام فى ترنيمة الكراهية :
« انى أفعل ذلك نتيجة للمعاناة الحالية غير الانسانية فى وطنى »

او قدر لعيسى أن يراها
لنادى بالجهاد بحد السيف
فالأرض التى نشأ فيها
قد أنجبت مليون عبد
فلماذا لا يثور
ويسوى هذا الحساب ، سن بسن وعين بعين ؟

فبرغم كل ما بشر به
يقطر خنجر الغرب بالدماء
يا رسول الغفران فى شقائنا
لا جدوى من الغفران ولا من الحب » (١٩)

وكان حلم العودة فى ذاته مثلا عاطفيا ، ولكن كان هنـــاك شيء آخر يدعمه . فقد تنافست أنظمة الحكم العربية فيما بينها حول مدى اخلاصها للقضية الفلسطينية . وقد رددت موجات الاذاعات صـــدى خطبهم عن النضال وكانت اذاعة صوت العرب القاهرة تفتتح برنامج فلسطين اليومى بأغنية « عائدون » . ولكن تصرفات أنظمة الحكم لم تكن تتفق مع أقوالها . بل ان الفلسطينيين أصبحوا فى الواقع يشعرون بأنهم يعاملون باحتقـــار ولا يلقون الترحيب فى البلاد التى كانت تصفهم بأنهم اخوتهم . وقد وصف فواز تركى فى كتابه « المحرومون » شعور من شب فى معمـــكر للاجئين فى ضواحى بيروت .

« ومن سخرية الأقدار ان المأزق الذى واجهته أن مصدر خوفى ورعبى لم يكن اليهودى (بالرغم من الدعاية المستمرة التى كانت اذاعة القاهـــرة تفرقنا بها) كما انه لم يكن الصهيونى (هذا أن كنت أميز الفارق بينهما)، ولم يكن أيضا المستعمر أو المؤيدون فى الغرب لدولة اسرائيل أو جنـــاتها ، بل انه كان العربى الذى يقـــابلك فى الطريق ويســـألك ان كنت قـــد سمعت النكتـــة عن الفلسطينى الـــذى يعمل فى قسم الأجانب الذى يريد منك الانتظار فى خضوع حتى تحصل على تصريح العمل ، والعربى فى نقطة الشرطة الذى يشعر أنه يملك سلطة تامة لأن يسيء معاملتك ، والعربى الذى يرفضك والأخطر من هذا الذى يسلبك الشعور بالامل والشعور بالهدف . هذا هو « العفريت » الذى تشاهده كل صباح وكل مســـاء وفى كل عام جديد من كل عقد جديد وهو يعذبك ويحط من شأنك ويجردك من آدميتك وهو يؤكد تبعيتك . كان الاسرائيلى بالنسبة للفلسطينى ، الفلسطينى الشاب الذى يعيش ويشب فى مجتمع عربى ، هو العدو بالمعنى الدقيق ، ولم نره أبدا ، أو لم يعش تحت سيطرته أو بالنسبة للكثير منا ، لا نذكره عـــلى الاطلاق . وكنا نشعر ونحن نعيش فى مخيم للاجئين ونعـــانى الجوع ، ان أسباب مشكلتنا هى مجرد أسباب أما أســـباب استمرارها فهى أســـباب حقيقية (٢٠)

وقد أثارت أزمات النفي الجديدة الجذيرة بالازدراء شعوراً قديما بالحقد والشعور بأن الحكومات العربية ، بعدم كفاءتها الخرقاء وبرنائها كانت هي المسئولة أساسا عن وجودهم في المنفى .

وكما يقول الشاعر عن جامعة الدول العربية :

على أرض غريبة سقطوا
كالنجوم ، اخوتي اللاجئين
ليتهم ثبتوا في ساحة الوغى
في فلسطين ، بلا معين في نضالهم
لو انهم حملوا عبئهم
ولم يصدقوا جامعة الأوهام
لنالوا المجـد
بحد سيوفهم ، تحت راياتهم (٢١)

ولم يجد حلم العودة ، خلال العقد الأول أو أكثر من الوجود في المنفى، فرصته للتعبير الهادف الا في نزعة التعريقية المعذبة للذات التي استبدت باللاجئين في المخيمات وفي الطقوس الدينية المهنية والخيال الشعري . ولم يكن لحلم العودة مضمون سياسي أو عسكري وبدأ الشعر الغنائي ، الذي يعبر عن هذا الحلم ، غير واقعي بصورة ميئوس منها ، وكان يتحدى الحقائق ، ومع ذلك هل كان الشعراء خياليين فعلا ؟ أو على الأقل هل كانوا أقل واقعية من الصهيونيين انفسهم عندما بدأوا في ترويج آرائهم ازاء بعض الحقائق التي لا يمكن انكارها ؟ كان هذا هو السؤال الذي وجهه الباحث الفلسطيني أ.ل الطيباوي ، عندما تناول بالدراسة أدب العودة وتوصل الى ان مثل هذه المشاعر لا تقل عاطفية عن مزامير داوود التي تقول : ما نسيتك يا أورشليم » (٢١) وعلى أي حال ، فان الثورات العظمى تنبثق عن مثل هذه المشاعر الجياشة ، التي قد تبدو في البداية وكأنها مجرد تخيلات . ويرى الطيباوي أن « صهيونية عربية » قد بدأت تتكون .

ظهـور فتـح :

ولم يلتفت أحد الى مجلة مطمورة ذات اخراج فج تصدر شهريا في بيروت ، بدأت تشق طريقها في أنحاء العالم العربي في أواخر سنة ١٩٥٩ .

وكانت مجلة « فلسطيننا » هذه توجه حديثها دائما الى قرائها بقولها « أبناء النكبة » . وكانت تتألف من ثلاثين صفحة ولا تنشر اعلانات ، وكان توزيعها محدودا جدا . وكانت محتوياتها ــ الإفتتاحيات والمقالات ، والتقارير ، والاشعار والرسائل والشعارات ــ مكرسة للشئون الفلسطينية وحدها . ولم يدرك الاسرائيليون الا فى منتصف سنة ١٩٤٦ ، أن ما وراء هذه المجلة الغامضة ، أكثر بكثير ممايبدو للعيون (٣٢) .

وكانت مجلة « فلسطيننا » ــ واسمها الكامل هو « فلسطيننا ــ دعوة للحياة ــ » لسان حال منظمة تعمل من أجل تحويل حلم العودة الى حقيقة واقعة . وكان اسم المنظمة هو « حركة التحرير الوطني الفلسطيني وأصبحت الحروف الأولى من اسم الحركة ، اذا ما قرأت بالعكس ، تشكل الاسم الذى أصبح مشهورا فى جميع أنحاء العالم : فتح بالاضافة الى المعنى اللغوى لهذه الكلمة أيضا ، تعتبر هذه الكلمة كذلك اسم السورة الثامنة والأربعين من القرآن الكريم ، كما انها تنطوى على معان أعمق بالنسبة للعرب . وكانت المجلة تخصص كل شهر عمودا ، بعنوان « وجهة نظر » ، لمنظمة فتح . وكان كاتبه بالرغم من أنه كان بلا امضاء فى العادة هو خليل الوزير ، الذى كان هو وعرفات من الأعضاء المؤسسين للمنظمة ، والذى لايزال حتى يومنا هذا واحدا من أكثر زعمائها غموضا ونفوذا فى الوقت نفسه .

وكانت هذه المجلة ثمرة الشعور العميق بالاحباط . وكان أسلوبها يتسم بالغضب والمرارة ، وكانت تعوض ما تفتقر اليه من الحنكة والصقل ، بالحماس الاخرق المندفع وكان هدفها ، كما يدل اسمها هو مجرد دعوة الفلسطينين الى الحياة ، وأحياء هويتهم وهدفهم المشترك . اذ أن الفلسطينين فى الواقع ، وان لم يموتوا ، قد أصابهم السبات منذ النكبة . ومن سخرية الاقدار ، أنهم وجدوا أنفسهم مبعدين عن نضالهم الخاص أكثر من باقى العرب .

وأين أنت أيها الشعب المشتت .. يا أبناء النكبة أين أنتم ؟ هل أنتم مجرد حطام ونفايا مبعثرة فى كل مكان .. ؟ كيف تعيشون ؟ ماذا حدث لكم ؟ هل تعيشون مع أهلكم وعشيرتكم ، أم أنكم مشتتون فى كل مكان هل أصبحتم ، يا ابناء النكبة ، أثرياء ، أم مازالت السنوات تمضى بكم بخطى ثقيلة فى ظل الجوع والمرض ؟ يا أبناء النكبة .. لا يمكن أن تنسوا تلك النكبة الرهيبة بعد أن عايشتموها ، سواء كنتم أثرياء وتحبون حياة رغدة ، أو

تعيشون في بؤس بالمخيمات . أن فقد الارض والشرف يصهركم في بوتقة النكبة (٢٤) » .

إن مصيرنا يتحدد ولكن صوتنا لا يصغي اليه أحد يسألنا عن رأينا ، ولا أحد يهتم بما اذا كان أحدنا موجودا أم غير موجود ألم يسأل أحدكم لماذا .. ؟ نقول لكم أن صوتنا ، صوت شعب فلسطين ، لن يكون مسموعا ما لم يقف أبناء فلسطين صفا واحدا صف الحياة أو الموت ، صامدين ومتحدين . عندئذ فقط ، سيلتفت العالم الى اضعف همساتكم .. نعم مجرد الهمس (٢٥) .

وليس من المهم أنهم كانوا أبناء النكبة بشرط أن يصبحوا مدمريها (٢٦) وهذا ليس له سوى معنى واحد فقط وهو الاستعادة الكاملة لفلسطين ، لا التقسيم ولا اعادة التوطين ولا الهجرة ، وانما فلسطين كلها موحدة وعربية (٢٧) .

« هناك حقيقة واحدة أساسية لا تقبل التغيير وهي : رغبتنا الجوهرية في استعادة الأرض ، الأرض التي كانت ملكا لنا ، والتي نعتبر أن خسارتها ليست مجرد خسارة مادية بل انها قبل كل شيء اهانة وطنية وشعار للخزي والعار ولذلك الارض هي حريتنا .. الارض شرفنا وسعادتنا وسلامنا لقد صنعناها بأنفسنا . واذا ضاعت أو اذا انتزعت منا ، فان كل شيء يضيع ، وينتزع منا كل شيء ، كياننا وانسانيتنا وسمعتنا إن مطلب الشرف هو أن نعود الى أرضنا السليبة نعم ، أنه كل ما يعجل باختفاء اسرائيل ، ان الخير — الخير الوحيد هو ما يؤدي الى انهيار الدولة المغتصبة ، والسلام هو الاخذ بالثأر ، والانتقام من سفاحي « دير ياسين » من مجرمي « قبية » « ونحالين » .

« تلك هي الحالة النفسية التي نعيش فيها ، نحن أبناء النكبة وهذا هو قياسنا للاخلاقيات والمثل ، وهذا هو الميزان الذي نزن به الأحداث . لقد اصبحت هذه المشاعر من القوة بحيث أصبحنا لا نريد الحياة الا بالقدر الذي يمكننا بدء المعركة من أجل استعادة الأرض ، أرضنا وحريتنا وكرامتنا (٢٨) .

وبدا ان عودة فلسطين عربية وموحدة « معناها أن سكانها الحاليين لابد ان يرحلوا . ولم تبين مجلة « فلسطيننا » موقفا واضحا وحازما ازاء هذه المسألة . فقد كانت مشغولة تماما بمسألة التحرير ، حتى انها لم

تفكر بما فية الكفاية فيما سيحدث بعد ذلك ولكن يبدو أن كتاب المجلة المختلفين كانوا يعتقدون ان رحيل اليهود أمر مفروغ منه ــ كان هذا هو ما أصبحت عليه الاراء وآمنت به ولم تحاول تحديه ، وان كان هذا الاجماع ضمنيا معظم الوقت ، يظهر فى استخدام عبارات متكررة مثل « استئصال الكيان الصهيونى » أو تدمير الوجود اليهودى ؟ ولكنه أصبح صريحا فى بعض الاحيان : ماذا سنفعل باليهود وهم مليونان من المغتصبين اليهود ؟ سنقول لهم ما قاله صلاح الدين للصليبيين . عودوا الى البلاد التى جئتم منها . الا اذا اثبتم أنكم كنتم فى فلسطين قبل وعد بلفور الظالم الصادر سنة ١٩١٧ ، وفى هذه الحالة سنعتبركم جيراننا واخواننا فى الوطن ، بمالكم من ارض وممتلكات . وفى تلك الحالة سنرحب بكم نرحب بكم حقا لان الجزيمة التى أرتكبت لم تكن من صنع أيديكم بل كانت من صنع الصهيونية والاستعمار الشريرين (٢٩) .

وكيف يمكن تحقيق العودة ؟ ليس من المفيد الاعتماد على الغير . ولا على المجتمع العالمى الذى ظل يصدر عاما بعد عام قرارات زائفة لم يكن يتصرف على هديها . « فالعالم يتعاطف مع الثوار أكثر مما يتعاطف مع المتسولين (٣٠) » .

. لا يمكننا الاكتفاء بالنواح والصراخ . . لا يمكننا أن نكتفى بسرد آلامنا وترديد شكوانا يجب أن نعد عدتنا ــ وحدنا ــ لحل مشاكلنا بأسلوبنا . لا يمكن أن نكتفى بالاسراع الى الأمم المتحدة ، التى تسيطر عليها أمريكا والدول الاستعمارية الخاضعة لنفوذها . لا يمكن الاعتماد على الضمير العالمى المتمثل فى الأمم المتحدة ، التى تتكلم بلسان الصهيونية والاستعمار الكريهين (٣٨) . كما انه لم يكن مجدبا على الاطلاق ن يعتمدوا على الدول العربية التى كانت قد

« اكتفت . . بالاذاعات الهستيرية أو المخدرة ، والخطب المثيرة ، والتى نعرف كلنا مضمونها سلفا . . لقد اغلقت الحكومات العربية أفواه الفلسطينيين وكبلت أيديهم وحرمتهم من حرية العمل فيما تبقى من بلادهم ، وقاومت فكرة اعادة جمع شملهم وحولتهم الى جماعة من المنافقين تصفق لهذا وتسب ذاك (٣٢) . .

« لقد سايرتم كثيرا من الأحزاب ودافعتم عن كثير من القضايا . . فماذا كانت النتيجة ؟ هل استعدتم شرفكم ؟ أو شبرا واحدا من ارضكم ؟

هل نجح اى من الشعارات فى تخفيف محنتكم ؟ لقد ظللتم مشتتين بلاشرف او هوية شخصية أو جماعية . فلنرفع راية وحدتنا ، وراية الثورة فى فلسطين ، ولنضع هذا الهدف قبل كل هدف آخر ؟ (٣٢) » .

ولقد اعتمد الفلسطينيون ، بطبيعة الحال ، خلال السنوات الأولى فى المهجر ، على الدول العربية ولما كانوا بلا تنظيم خاص بهم منحوا ولاءهم الاساسى لعدد من القضايا العربية مثل قضايا اليمنيين واليساريين والماركسيين والاخوان المسلمين كوسيلة غير مباشرة لدعم قضيتهم لقد تميزت تلك الفترة بالقومية العربية العارمة ، عندما كان حلم الوحدة لازال فى ذروته البراقة ، وعندما كانت الاقليمية ـ أى المحافظة على التقسيمات المصطنعة فى العالم العربى ـ تعتبر وجهة نظر الرجعيين وكانت الوحدة تعنى القوة ـ القوة لمحاربة اسرائيل . وكان هناك شعار دارج آنذاك يقول أن « الوحدة هى الطريق الى تحرير فلسطين » . وكان الرئيس عبد الناصر هو الزعيم العربى الأوحد الذى تعقد عليه هذه الآمال . وبالطبع ، كان الفلسطينيون الذين لا يملكون « اقليما » خاصا بهم أكثر المتحمسين فى بداية الامر ، للوحدة . وكانوا يعلقون آمالهم كلها على عبد الناصر . ومع ذلك كانوا أول من ثار على العقيدة الناصرية التقليدية . فقد مضى عقد من الزمان ولم تتقدم قضيتهم شبرا واحداً . وكانت اسرائيل تحكم قبضتها على فلسطين وكان سكانها قد تجاوزوا المليونين ، وفتح عبد الناصر خليج العقبة أمام الملاحة الاسرائيلية . ولم يكن الزمن فى صالح العرب ، وكان مثل هذا الاعتقاد وهما خطيراً . صحيح أن الدول العربية أبدت ايماءات فى الاتجاه السليم . فقد أدمجت كل من سوريا والعراق وحدات فلسطينية خاصة فى قواتها المسلحة وكان عبد الناصر قد اقترح فى سنة ١٩٥٩ أن تقوم كل دولة مضيفة بتشجيع ضيوفها من الفلسطينيين على أن ينشئوا « منظمة تمثيلية جماهيرية » تندمج فى النهاية فى كيان واحد هو الكيان الفلسطينى الذى تمنحه الجامعة العربية وضعا شبه حكومى . ثم وافق الزعماء العرب فى مؤتمر قمة عقد فى يناير سنة ١٩٦٤ ، على اقامة منظمة تحرير فلسطينية بهدف تنظيم الشعب الفلسطينى حتى يستطيع الاضطلاع بدوره فى تحرير وطنه وتقرير مصيره . ولكن كل هذه الايماءات كانت مثار شكوك الفلسطينيين المتطرفين . ولم تكن منظمة التحرير الفلسطينية تمثل فى رأيهم ، ما نادت به اطلاقا ، بل على العكس ، كان هدفها ـ كما حدده لها الذين انشأوها عبد الناصر وزعماء الأنظمة العربية الأخرى ـ هو اعادة

الوصاية على القضية الفلسطينية وهي تلك الوصاية التي كادوا يفقدونها بعد أن بدأ صبر اللاجئين ينفد .

واتهم الفلسطينيون الذين تمردوا على معتقدات عبد الناصر التقليدية، حتى من جانب مواطنيهم ، بالعودة الى بدع الاقليمية . ولكن ساعدت حادثتان على تأصيل هذه البدع . احدهما هي انفصام عرى الوحدة المصرية السورية سنة ١٩٦١ ، وكانت الحادثة الأخرى هي انتصار الثورة الجزائرية سنة ١٩٦٢ ضد الفرنسيين ، وقد كان لهذا الانتصار تأثير كبير على الفلسطينين ، الذين آمنوا بأنه يجب عليهم أن يحذوا حذو الجزائريين دون أن يحترموا وصاية العالم العربي الغامضة . وأصبحت شعارات الوحدة والتغير الثوري ، بالنسبة لمجلة (فلسطيننا) مجرد ذريعة للتلكؤ والتأجيل ولذلك عملت على قلب هذه الشعارات . وأصبح شعارها هو : تحرير فلسطين « هو الطريق الى الوحدة » ، وعن طريق الولاء الثوري ، الثورة الفلسطينية ، ثورة الشعب المشرد ، سأحرر فلسطين وأوجد أمتي العربية ؟ (٢٤) وسخرت مجلة فلسطيننا من الجدل السياسي التقليدي ، فلم تكن يسارية ولا يمينية ، ولم تكن لها اتجاه رسمي بالنسبة للتنظيم المجتمع . فتلك مسألة يجب معالجتها بعد « التحرير » — الى أن يحين ذلك الوقت — وأهم ما يشغل الشعب الفلسطيني هو أن يكون ، أو لايكون .

وكانت كل صفحة من صفحات المجلة تنضح بنفاذ الصبر من المراوغة العربية :

« أن الأيام تمر ، والمؤتمرات تعقد ، فقد اجتمع الخبراء العسكريون العزب ، وانعقد مؤتمر الموارد العربية ، ومؤتمر وزراء الخارجية العرب ، ومؤتمر وزراء الاعلام العرب ، ومؤتمر القدس . ومع كل هذا يجري تحويل الأردن ، وتنتظر صحراء النقب وصول المياه ، ليأتي في أعقابه المليون الثالث من المهاجرين الاسرائيليين ، ثم المليون الرابع من اليهود المغتصبين . واذا القينا — نحن الفلسطينيين نظرت على أنفسنا ، فسنجد أننا ندور في حلقة مفرغة من المنافسات العربية... وهذا الوضع يذكرنا بقصة الأطفال : «من الذي سيعلق الجرس؟ وهي القصة التي تدور حول أسرة من الفئران تزعجها قطة فتشاوروا فيما بينهم للتوصل الى طريقة تخلصهم من القطة اللعينة . وبعد مناقشة طويلة قرروا أن يعلقوا جرسا حول رقبة القطة ، ليدق كلما تحركت . وبذلك يتلقون تحذيرا عند اقترابها فينجون من الخطر الا أن مشكلتهم الكبرى كانت هي من الذي يعلق الجرس وهذه هي

مشكلتنا ايضا . والمهزلة المأساوية هى أننا ثلاثة عشر فأرا ممثلا فى الجامعة العربية ، ولا يتقدم واحد منها لتعليق الجرس فى رقبة القطة الاسرائيلية » هل يمكن أن نسمح باستمرار هذا الوضع .. ؟ ان احدا لن يتقدم لتعليق الجرس سوى الفدائيين الفلسطينيين (٣٥) ..

وتعرف الفدائيين انهم الرجال الذين يضحون بأنفسهم والعنف المسلح أو حرب تحرير شعبية . هذا هو الطريق الوحيد . ان شعبنا ، شعب النكبة ، يعرف بغريزته أن اسرائيل لن تختفى نتيجة لكارثة طبيعية ، أو عن طريق الاقناع ، أو عن طريق القرارات العربية أو الدولية أو عن طريق السياسات غير المجدية والعقيمة (٣٦) . والواقع أن اسرائيل نفسها قد أوضحت الطريق . فاسرائيل تقول « اننى هنا بحد السلاح » . ويجب أن نكمل العبارة : «ولن تطرد اسرائيل الا بحد السيف (٣٧) » . وبالانخراط فى صفوف الفدائيين كان شباب هذا الجيل يثبت انه جدير بالأجيال السالفة :

ايها الأبطال :
اين ثوار الامل ؟
أين الرفاق المجاهدون ؟
اين ابناء الشيخ القسام ؟
اخوان عبد القادر ؟

وكل ما كانت تطالب به « فتح » الحكومات العربية هو الا تضع اسرائيل فى طريق الفلسطينيين — وان تقيم نطاقا من الدفاعات حول حدود اسرائيل للحماية من الانتقام الحتمى . الا أن فتح لم تكن تشعر بثقة كبيرة فى الحكومات العربية ، أو فى رغبتها فى القتال ، أو قدرتها على كسب تلك الحرب التقليدية التى كانت هذه الحكومات تستعد لها فى ظاهر الامر ولذلك كان هدف منظمة فتح هو اجتذاب الشعوب العربية ؛ — بدلا من حكوماتها الى حرب شعبية يمكنها كسبها . وكانت تعتقد أن العمليات الفدائية التى تزداد عددا وعنفا والتى تدار دفتها من قواعد داخل الأراضى المحتلة وخارجها سوف تلقى تأييد العرب فى كل مكان . وان رجل الشارع لايسعه الا أن يتخذ موقفا واضحا من عمليات الفدائيين ، وسيرى أن من الوطنية تأييدها ، وأن من الخيانة معارضتها وسيحكم على حكومته وفقا لهذا المعيار . وستظهر الى الوجود تلقائيا جبهة عربية مؤيدة سينضم اليها كل

الوطنيين من بينهم الجنود والموظفون المدنيون ولذلك تعهدت فتح الا ترفع السلاح على اى جندى أو حاكم عربى ، وان تترك للشعوب العربية نفسها أمر مواجهة اى شخص يقف فى وجه الثورة المسلحة .

وبحلول عام ١٩٦٤ ، كان عرفات ورجاله قد نجحوا فى أن يجمعوا حولهم نواة منظمة فدائية . ووافق النظام البعثى المتصرف فى سوريا — لاسباب عقائدية الى حد ما ولكن فى المقام الأول لاحراج عبد الناصر الخصم اللدود لنزعة المغامرات العسكرية ، على منح منظمة فتح ، قاعدة آمنة ، ومنحها الى حد ما المساندة العملية التى تحتاجها للانطلاق . وساندت القوات الضاربة العسكرية شبكة بدائية من المتعاونين والمتعاطفين الذين انتشروا فى أنحاء المهجر الفلسطينى . وأبدى رجال الأعمال الفلسطينيون الذين حققوا نجاحا فى الامارات الغنية بالبترول فى الخليج الفارسى حيث عمل عرفات فى وقت ما كمهندس استعدادهم لتخصيص جزء من ثروتهم الجديدة لمساندة القضية ، أو حتى لان يكرسوا لها كل وقتهم . وأصبحت الجماعات الطلابية الفلسطينية فى الدول الاكثر تقدما وازدحاما بالسكان ، وفى أوروبا — خاصة ألمانيا الغربية — ، وفى أمريكا ، تشكل أرضا خصبة لتجنيد طاقة العقول الشابة وللحماس ، أما مخيمات اللاجئين فقد كانت المصدر الرئيسى للمقاتلين العاديين وبمرور تلك السنة ، زالت الغشاوة عن الاعين فيما يتعلق بموقف عبد الناصر والحكومات العربية وزاد تصميم « فتح » على التصرف . ووافق كل قادتها على ضرورة بدء العمليات فى أقرب وقت ممكن . وكان السؤال الهام هو تحديد الموعد فاذا ما وجهت ضربتها قبل الأوان فان هذا سيعرضها لمخاطر المطاردة والقمع من جانب الحكومات العربية دون أن تحقق شيئا مقابل ذلك ، لان فتح كانت لا تزال ضعيفة ، وكان تدريبها — الذى يتم الجانب الأكبر منه فى الجزائر — غير كاف وكانت تفتقر الى المال والسلاح « والكوادر » . ولكن عرفات ، الذى كان يحبذ القيام بعمل فورى نجح فى اكتساب تأييد الأغلبية لموقفه اذ أن الفلسطينيين كانوا قد ضاقوا ذرعا بالكلام . ألم يبدأ الجزائريون ثورتهم عشية عيد جميع القديسين ، وهم لا يملكون سوى موارد ضئيلة وكتبت مجلة (فلسطيننا) فى عدد سبتمبر سنة ١٩٦٤ تقول :

« ان شعبنا يتساءل متى سنبدأ ؟ . وهو يشعر أن الوقت قد حان للقيام بعمل ما ، وان يلقى بنفسه — بكل ما يعتمل بداخله من غضب ، وبكل

ما فى طاقته من قوة قتالية ، وبكل الغضب الذى يشعر به حتى أعماقه ــ فى المعركة .. ان شعارنا اليوم هو فلنبدأ الثورة » .

بدء عمليات الفدائيين :

فى اليوم الاول من يناير سنة ١٩٦٥ قد عمت سرا منشورات على مكاتب صحف بيروت المحتلفه . وذكر البيان العسكرى رقم واحد للقياده العليا لقوات العاصفة بعد مقدمة نوعا ما ، انه : « فى ليله الجمعه ٣١ ديسمبر ١٩٦٤ ــ ١ يناير ١٩٦٥ ، أشتبكت فصائل من قواتنا الضاربه فى معركة وادت المهام المسنده اليها فى الاراضى المحتله وعادت سالمه الى قواعدها . ثم وجه البيان الكلام الى الاسرائيليين ، محذرا اياهم من القيام باى اجراء ضد المدنيين العرب الآمنين ، أينما كانوا ، لان قواتنا التى تعتبر مثل هذا العمل جريمه حرب ، سترد عليه بالمثل . وحذر البيان أيضا جميع الدول (اى العربية) من التدخل بأى شكل لصالح العدو ، لانها أينما كانت ستعرض مصالحها لانتقام قواتنا اذا كان رؤساء تحرير الصحف فى ذلك اليوم يجهلون شخصية قوات العاصفة ، فان هذا كان المقصود بالتحديد لان الاقلية التى عارضت البدء فورا فى العمليات نجحت فى كفالة احتياط واحد وهو : ان تتم العمليات الأولى لفتح تحت اسم مختلف ، حتى اذا ما فشلت ، لا تضار مكانة المنظمة منذ البداية .

وليس بمستغرب ان تحاط مغامرة فتح الأولى بنوع من الغموض الرومانسى لانه يبدو أنها منيت بفشل ذريع . وان البيان العسكرى رقم واحد وصف غارة لم تقع على الاطلاق (٣٩) . فقد تلقى جهاز الأمن اللبنانى معلومات عن العملية المدبرة واعتقل الذين كانوا سيقومون بالغارة قبل أن يبدأوا فى تنفيذها . وأصبح هذا الوضع التقليدى الذى تعانية فتح فيما بعد من أنظمة الحكم العربية ــ لا يقل ازعاجا عن اسرائيل ذاتها . بل ان الأمر اتضح بدرجة أكبر ابان احدى الغارات التى وقعت فى تلك المرحلة . فقدت الحركة الجديدة أول شهيد لها . ولكن أحمد موسى ، (المتسلل المحنك) ، لم يسقط صريع الرصاص الاسرائيلى ، بل سقط لان الأردنى أطلق عليه الرصاص اثناء خروجه من أرض العدو (٤٠) . وياسر عرفات نفسه قضى فترة فى أحد السجون اللبنانية بعد قيامه باحدى تلك الغارات الأولى .

بيد أن العمليات التالية حققت نجاحا أكبر . وقد كان نطاقها محدودا بالضرورة ــ حيث اقتصرت على تخريب المنشآت المعزولة وقنوات المياه

وما شابه ذلك . ولم تكن فتح تملك موارد تمكنها من القيام بأكثر من ذلك ولم تكن المسألة مجرد مسألة طاقة بشرية متوفرة لمنظمة وليدة مضطرة لان تعمل سرا فى عزلة عن جماهير شعبها لأنه — خلافا للفلاحين الذين اشتركوا فى ثورة ١٩٣٦/١٩٣٩ — لم يكن فدائيو هذا الجيل يعرفون طبيعة الأرض التى يتحركون فوقها ، وكان لابد لهم من استخدام رجال يعرفون المنطقة — كالمهربين مثلا — ليعملوا كمرشدين لهم . ووفقاللمعلومات اللاحقة ، وقع أول أسير ، وهو محمود حجازى فى يد العدو ، نتيجة لان بندقيته كانت صدئة وغير ذات نفع له (٤١٠) .

غير أن الاصطلاح المفهوم الذى اتصفت به العمليات التى نفذتها « فتح » فى المرحلة المبكرة كان يصعب تمييزه من خلال البلاغات الصادرة آنذاك . بل على العكس ، اذا ما حكمنا عليها من خلال تلك البلاغات نجد أنها تثبت منذ البداية براعتها فى حرب العصابات فقد كانت وحداتها جريئة ، متعددة المهارات ومنتشرة فى كل مكان . فهى تشن هجماتها فى المنطقة الممتدة من النقب حتى الجليل ضد الدوريات الاسرائيلية وتنسف العربات العسكرية ومستودعات الأسلحة والسدود وخطوط الأنابيب والقنوات . وكانت مهامها تكلل دائما تقريبا بالنجاح التام . ويبدو أنه من النادر أن قوات العاصفة ، عندما تشتبك مباشرة مع قوات العدو ، لاتلحق به خسائر تتراوح بين خمسة وعشرة قتيلا وجريحا ونادرا ما تعود غير سالمة الى قواعدها ومن الطبيعى أن تقوم الجيوش بالمبالغة فى وصف عملياتها ، وكثيرا ما يكون ذلك مفيدا ، ولكن المبالغة التى تنطوى على تبجح وتتحدى جميع الاحتمالات تكون نتيجتها عكسية فى نهاية الامر . ومن المؤكد أن المتاعب الخارجية ، سواء كانت عربية أم اسرائيلية التى كانت تواجهها منظمة فتح خلال هذه المرحلة الأخيرة من النضال الفلسطينى ، كانت مثبطة للعزيمة ، ولكن عادة الشديدة ، كانت تشير منذ البداية الى وجود متاعب داخلية أيضا من صنع المنظمة ذاتها .

ومع ذلك ، وبصرف النظر عن المبالغات ، كان نشاط فتح — أو ربما ما يرمز اليه هذا النشاط — كان من الأهمية بحيث دفع اسرائيل الى الرد عليه وذلك عن طريق توجيه تحذيرات الحكومات العربية المجاورة واحتجاجات الى الأمم المتحدة ، وفى النهاية والى شن هجمات انتقامية واسعة النطاق . وكان لهذا الرد الاسرائيلى معنى بالنسبة لمكانة فتح ، أكثر من أى عمل قامت به بنفسها ، أو أعلنت انها قامت به . وقد ترك أثرا على

الرأى العام الفلسطينى والعربى ولم يكن هذا الرأى العام على درجة كبيرة من الفطنة . فقد ظل سنوات طويله ، يغذى بدعاية مبالغ فيها عن « معركة المصير » القادمة مع اسرائيل . ومع ذلك بدأ أن المعركه لن تأتى أبدا . بل ان الدول العربية لم تستطع حتى ان تتفق على استراتيجية جماعيه لمنع اسرائيل من المضى قدما لتنفيذ مشروعاتها الخاصة بتحويل روافد نهر الأردن . وفى هذا الجو كان لابد ان يكسب اى شخص يقوم بأى عمل ضد اسرائيل ، مهما كان تافها ، مكانة كبرى . وربما كانت محاولات فتح لتخريب مشروع اسرائيل لتحويل نهر الأردن لاتزيد عن كونها عمليات ازعاج طفيفة ، ولكنها على الاقل ، وبالمقارنة بالدول العربية كانت تقوم بالمحاولة . وبذلك أصبحت فتح العامل الحفار الذى كانت تنوى أن تكونه — وان لم يكن ذلك بالطريقة التى كانت تنويها ، اذا ما قسناه بنص نظرياتها . اى أنها لم تنجح فى التعجيل بتورط عربى متزايد دائما فى حرب تحرير شعبية . كانت فتح تعتبر نفسها قوتها الطليعية . ولم تحدث زيادة هامة فى نطاق وفاعلية الغارات الفدائية خلال حدة العامين ونصف العام التى سبقت حرب يونيو سنة ١٩٦٧ والظروف الجوهرية الجديدة التى خلقتها . ووفقا للاسرائيليين الذين كانوا يميلون الى المبالغة فى تصوير الغارات لاستغلالها فى اغراضهم العدوانية اسفرت الغارات فى تلك الفترة عن مقتل احد عشر شخصا فقط ، واصابة ٦٢ آخرين بجراح . وزعم الاسرائيليون أيضا أنهم قتلوا سبعة فدائيين فقط وأسروا فدائيين . وحددوا قوة فتح فى يونيو سنة ١٩٦٧ بأنها مائتا رجل فقط . ولكن منظمة فتح كانت تشكل بالفعل تحديا كبيرا بالنسبة لمؤيدى الصيغ الأخرى لتحرير فلسطين . وكان هذا يعتبر أساسا تحديا لعبد الناصر وكل أولئك الفلسطينيين ، الذين يساندون التفكير الناصرى التقليدى الذى ينادى بالتحرير بعد تحقيق الوحدة العربية واتمام الثورة الاشتراكية وفيهم الفلسطينيون (٤٢) .

وقد ادرك هذا التحدى على الفور ، فعلى أثر استلام ذلك البيان العسكرى الأول فى ٢ يناير بادرت صحيفة الأنوار البيروتية التى كانت آنذاك لسان حال الناصرية الرئيسى إلى تكوين أكثر الآراء انتهازية — وربما أكثر الآراء احراجا — فى تاريخها الحافل بالانتهازية فقد نددت بصحيفة بفتح ووصفها بأنها أداة « لمؤامرة تحيكها الدوائر الاستعمارية والحلف المركزى والدوائر الصهيونية » . وقالت الصحيفة أن فتح — أو « حتف » كما أطلقت عليها بجهل فى بادىء الامر ، صحيفة الأنوار وغيرها — « مجموعة صغيرة جدا من الفلسطينيين الذين يقومون بعمليات فردية ، محدودة جدا

بهدف توفير ذريعة لاسرائيل لمهاجمة جيرانها واحباط مشروعهم المضاد لتحويل مياه الأردن . لقد كانت هذه الأقوال ملكية أكثر من الملك : اذ أن صحف القاهرة اكتفت فى بداية الامر بالاشارة الى نشاط فتح بلا تعليق ولكنها كانت ايذانا بنضال طويل بين الفكر الناصرى وفكر « فتح » . وزعمت فتح بقوة أنه لا يوجد تناقض بين الاتجاهين ، وذلك فى نفس الوقت الذى أعلنت فيه أننا لن نلقى بأسلحتنا حتى نحقق النصر (٤٣) . ولكن من الواضح انه كان هناك تناقض أن بيروت الأخرى اتخذت موقفا معارضا تماما، فانحازت مجلة الأسبوع العربى الاسبوعية ، الى جانب منظمة فتح . وقالت أنه يجب السماح للفلسطينين بأن يموتوا وهم يقفون على أقدامهم على الأقل ، ونصحت الناصريين بأن يقتدوا بالصهيونيين :

« ان من يضحى بدمائه فى سبيل بلاده ، لا يطلب الاذن . واذا لم تكن الدول العربية تريد أن تبدو بمظهر المعتدى فلنترك الفلسطينيين يستفزون اسرائيل أولا ، أما اذا لم تكن مستعدة بعد ، فانها تستطيع التنصل منهم تماما ، وتعهد اليهم بالدور الذى لعبته عصابتا الارجون وشتيرن . فأن الوكالة اليهودية كانت تندد فى المذكرات الدبلوماسية (بأعمال الارهابيين) ولكنها فى الواقع كانت تباركهم ــ وكانتمن الناحية العملية تنسق معهم (٤٤)

وكان الناصريون يخوضون معركة دفعية . ولم يلجأ الرئيس عبد الناصر الى الدوران حول الموضوع . وانما تعمد أن يختار منبرا فلسطينيا ليلقى واحدة من أكثر الخطب صراحة فى تاريخ حكمه : اذا لم نكن مستعدين اليوم للدفاع فكيف نتكلم عن الهجوم ؟ .. لابد من قيامنا أولا بتوفير دفاع عربى ثم نبدأ فى الاعداد من أجل تحقيق هدفنا النهائى . ولا يمكن أن يتحقق هذا الا عن طريق العمل الثورى (٤٥) . ولكن عبد الناصر لم يستطع بشخصه ، أو بواسطة الضغط المباشر ، أن يؤثر على موقف فتح وفرض جهاز الدعاية المصرى القوى كبتا فعليا على أنباء نشاط الفدائيين . ووجهت القيادة العسكرية العربية الموحدة التى كانت قد انشئت لمواجهة (مشروع اسرائيل لتحويل حياة الأردن) تعليقاتها الى الحكومات العربية لمنع الفدائيين من التسلل الى اسرائيل ولم تكن الأردن ولبنان بحاجة الى من يحثها للامتثال لهذه التعليمات ، ففى لبنان تم تقديم الذين ينوون التسلل الى المحاكمة بتهمة حيازة أسلحة بصورة غير مشروعة ، ويبدو أن احدهم لقى حتفه نتيجة للتعذيب : أن السوريين ، وهم المناصرون الوحيدون لفتح

لم يتورعوا عن فرض قيود مرغوب فيها ، وذلك مما أثار اشتباكات وصلت احيانا الى درجة التصفية الجسدية (٤٦) .

ولقد عانى بالطبع ، الناصريون الفلسطينيون ، نزاعا مؤلما للغاية بين القلب والعقل . وكانت منظمة التحرير الفلسطينية هى المؤسسة التنظيمية التى تعبر رسميا عن وجهة نظرهم . وكان رئيس منظمة التحرير الفلسطينية أحمد الشقيرى ، رجلا سياسيا محترفا يميل الى احترام رغبات الآخرين رغم ديماجوجيته ، وكان يسيطر على المجلس التشريعى للمنظمة ، اعيان ذوو سلوك طيب نصفهم من الأردن . وقد يبدو اليوم أمرا بعيد الاحتمال الى حد ما انه نعرف أن الدكتور جورج حبشى الذى اصبح بصفته رئيسا للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين اليسارية ــ رمزا للعنف الثورى فى أقصى درجاته تشددا ، كان فى واقع الأمر فى ذلك الحين واحدا من أبرز نقاد الغارات الفدائية المتهورة . وكان حبشى آنذاك رئيسا لحركة القوميين العرب ، التى انبثقت عنها فيما بعد الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين) ، وهى حركة متطرفة لها فروع فى كثير من الدول العربية وكانت ترى فى عبد الناصر أداة لتحقيق الوحدة العربية ولتحرير فلسطين عن طريق حرب تقليدية يقوم بشنها فى الوقت الملائم من وجهة نظره ، وكان حبشى يضيق ذرعا بالشقيرى ومدرسته السياسية التى تنزع الى التصريحات المنمقة الرنانة ، الا أن كلا الرجلين كان له مصلحة مشتركة فيما يتعلق باحتواء حماس منظمة فتح الزائدة عن حده وكان الشقيرى يقول أن فتح تؤدى دورا رائعا جدا ولكن توقيتها غير ملائم وانه سيحاول وضعها تحت رعاية منظمة تحرير فلسطين . وأدلى أحد المسئولين التابعين لمنظمته بتصريح لصحيفة بيروتين ، يفيد بأن « الحرب ليست تسلية تنغمس فيها عناصر فدائية معينة .. لاشباع الرغبة فى الانتقام (٤٧) . وقد ساعد الفرع الفلسطينى لحركة القوميين العرب على تأسيس « لجنة تحضيرية لتوحيد العمل الفلسطينى » ، واصرت صحيفتها الاسبوعية ، التى تصدر تحت اسم « فلسطين ، على انه من غير المقبول على الاطلاق أن يتم توريط القوات العربية المجردة من أى قوة عسكرية حقيقية ، بكل ما يتضمنه هذا التوريط من مخاطر وعواقب (٤٨)، واعربت فتح عن ازدرائها ، فان منظمة التحرير الفلسطينية تتكلم ولكنها لا تعمل ــ وتجمع الأموال من أجل عقد الاجتماعات الغوغائية (٤٩) . أما عن العمل الموحد فان الوحدة الوحيدة التى تؤمن بها على الاطلاق هى الوحدة فى ميدان المعركة » . ويجب أن تكون المعركة اليوم ، لا غدا .

ولم يكن فى وسع (الشقيرى) أو (حبشى) تجاهل مشاعر الجماهير ، وقبل مرور وقت طويل ، بدأ هذان الحليفان غير المنسجمين ، واللذان يلعن أحدهما الآخر سرا ويتعاونان فى الوقت نفسه ، يشكلان بسرعة وبطريقة مرتجلة حركات فدائية خاصة بهما . ومن الواضح أنهما حصلا على موافقة مترددة من جانب الرئيس عبد الناصر ، الذى لا شك أنه قدر ما سمح لأتباعه بالدخول فى منافسة من أجل اكتساب رضاء الجماهير سيكون أفضل من عدم سماحه لهم ، اذ ستكون أمامه فرص أفضل لاستعادة سيطرته التى أصابها الضعف على الميول التحررية الوحدوية للفلسطينيين ، وكانت حركة أبطال العودة ، التى اشتبكت فى أول معركة فى أكتوبر ١٩٦٦ من خلق (حركة القوميين العرب) ، بينما كانت منظمة تحرير فلسطين تقدم لهما المساندة المالية والدعائية . واعلن شقيرى فى ٣١ نوفمبر وهو يرتدى الزى العسكرى الذى أصبح يرتديه بعد ذلك ، بانتظام — أمام اجتماع شعبى عقد بغزة ان « الرصاص والدم سيصبحان الآن الحوار الوحيد بيننا وبين العدو » . واعلنت مجموعات فدائية أخرى — وقد ظهر خلال هذه الفترة التى تميزت بالغليان ما لا يقل عن اربعين من هذه المجموعات — انها هى ايضا ستدفع بمقاتليها الى الميدان .

. . الا ان عبد الناصر كان قد أساء التقدير . فقد تم دفعه فى الواقع الى دخول الحرب . واذا كان لحرب العصابات جاذبية كبرى قبل النكبة الثانية التى وقعت فى يونيو سنة ١٩٦٧ ، فانها أصبحت امرا لا يمكن مقاومته تماما بعد الحرب اذ أصبح هذا النمط من الحروب بالنسبة للفلسطينيين والعرب على السواء « بلسما » لا غنى عنه لكبريائهم الجريحة . وسرعان ما اعلنت فتح انها ستنقل مقر قيادتها الى الأراضى المحتلة ، وعبر عرفات وبعض معاونيه نهر الأردن لوضع الاستراتيجية الجديدة الجزئية التى تبنوها وكان الفدائيون حتى ذلك الوقت قد أعدوا عملياتهم على القيام بغارات خاطفة عبر خطوط الهدنة . أما الآن فقد أتيحت لعرفات فرصة لتشكيل حركة فدائية قائمة بذاتها من بين افراد ذلك القطاع من شعبه ، الذى يزيد عن مليون نسمة ، والذى أصبح يخضع للحكم الاسرائيلى المباشر . وسيصبح الفدائيون الآن ، على حد قول مأثور لماوتسي تونج مثل سمك لديه بحر ثورى يعوم فيه ، وسيضعون قدمهم على الطريق الصحيح لتنمية « حرب تحرير شعبية » واسعة النطاق . وحذا الشباب ، الذى حصل على دورات تدريبية فى سوريا ، حذو قادته ، وخاطر بعبور نهر الاردن

بمساعدة المرشدين المحليين ونقلت الأسلحة والمتفجرات أيضا عبر النهر ، واخفيت فى الكهوف والآبار وفى بيوت المتعاطفين مع فتح . وظل عرفات فى الضفة الغربية حتى نهاية العام . وعلى الرغم من أنه كان يتنقل احيانا تحت سمع وبصر الاسرائيليين ، الا أنه كان يختبىء معظم الوقت فى منطقة الحارات القديمة التى تتكون منها قصبة نابلس . وكان يقوم من هناك بتجنيد الأفراد وتنظيم الشبكات ، ووضع « التكتيكات » ، وتحديد الأهداف ، وتخطيط العمليات . وكان عملاؤه يتسللون الى القرى محاولين اثارة الفلاحين ويوضح ، الى حد ما ، منشور سرى وقع فى أيدى الاسرائيليين ، مدى وطبيعة آمال عرفات :

« الى أبطال الشعب العربى فى الأرض المحتلة . إننا نناشدكم باسم أبطال العروبة ، عمر وصلاح الدين ، أن تثوروا ضد الاحتلال الأجنبى وأن تمنعوا المحتل الصهيونى من أن يطأ أرضنا المقدسة . ان مقاومة الجزائر الإسطورية التى فقدت اكثر من مليون شهيد ستكون هاديا لنا على طريقنا .. أن الاحتلال الصهيونى ليس الا ظهور حملة صليبية جديدة . وسنستمر فى ثورتنا حتى يتم تحقيق النصر فى النهاية . ولابد لنا من أن نقاطع كل المؤسسات الاقتصادية والثقافية والقانونية الصهيونية .. ويجب أن تكون خلايا للمقاومة السرية فى كل شارع وفى كل قرية وفى المناطق المجاورة . وحتى لو وجدت خلية مقاتلة واحدة فى أى منطقة ، لاستطاعت ، الحاق خسائر فادحة بالعدو . ودحرجوا صخورا ضخمة من فوق المرتفعات لتسدوا بها خطوط المواصلات أمام تحركات العدو . واذا تصادف وقوفكم بجوار عربة للعدو فاملأوا خزانات الوقود بالرمل أو السكر لتعطيلها عن العمل . حاولوا أن تشعلوا النيران فى عربات العدو مستخدمين البترول أو إى شيء آخر (٥١) وبعد فترة قصيرة لالتقاط الأنفاس ، استأنفت فتح عملياتها على نطاق واسع من الفترة السابقة للحرب . وزعمت أنها قامت بتنفيذ ٩٢ عملية قبل نهاية العام ـ وقد وصف الاسرائيليون بعض هذه العمليات التى وقعت داخل الحدود السابقة لسنة ١٩٤٨ ، بانها اجراء عمليات تمت حتى تلك اللحظة (٥٢) .

وقد شهد شهر ديسمبر تشكيل المنظمة اليسارية المنافسة لفتح ، وهى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين برياسة الدكتور حسن ، والتى اعلنت فى بيانها الأول ان « اللغة الوحيدة التى يفهمها العدو هى العنف الثورى » وان « المهمة التاريخية » فى تلك اللحظة هى بدء نضال ضبار ضده ،

و « بذلك تتحول الأراضي المحتلة الى جحيم تلتهم نيرانه المغتصبين » وقد تمكنت الجبهة الشعبية من تثبيت اقدامها في قطاع غزة الذى ينتشر فيه الفساد السياسي .

وبدأ الفدائيون فى كسب تأييد حماسي فى العالم العربى ، بل وحتى من تلك الصحف الناصرية مثل الانوار التى تناست ارتباط فتح المزعوم مع الدوائر الاستعمارية والحلف المركزى والدوائر الصهيونية ، واصبحت تردد ان المقاومة الفلسطينية أصبحت صوتا استطاع الوصول الى أسماع المجالات العربية والدولية (٥٣) . وكان من المحتم أن يشعر الفدائيون بسرعة بالقوة والجرأة التى تمكنهم من الاستيلاء على منظمة التحرير الفلسطينية وهى المؤسسة التى حاولت أنظمة الحكم المختلفة السيطرة عليهم من خلالها . وطالبوا باستقالة الشقيرى ، الذى يحميه عبد الناصر ، والذى هاجمه مسئول فلسطينى فى القاهرة ووصفه بأنه « أنانى وقاسى ومحب متهور للدعاية (٥٤) » . وطلب سبعة أعضاء باللجنة التنفيذية ، من الشقيرى الاستقالة « بسبب الاسلوب الذى يدير به المنظمة » (٥٥) . وحقق الفدائيون فى فبراير سيطرة فعالة على المجلس الوطنى — وأصبحت المسألة مجرد مسألة وقت قبل أن يتولى عرفات رئاسة منظمة تحرير فلسطين .

معركة الكرامة :

غير ان الفلسطينيين لم يحرزوا اى تقدم الا عندما وقعت معركة الكرامة . وليس هناك اسم أنسب من هذا بالنسبة للفلسطينيين ، لتخليد ذكرى كبرى المعارك « الصغيرة » التى خاضها الاسرائيليون ضدهم . ففى خلال الأشهر القليلة التى سبقت المعركة ، أصبح من الواضح بشكل متزايد أن عرفات ورجاله يعدون الأردن لتصبح القاعدة الرئيسية التى يشنون منها حربهم التحريرية ، وان سوريا ستظل دائما الدعامة الرئيسية لهم — ولكنها تخضعهم لأشد القيود الرسمية ، اما فى الأردن التى كان نصف سكانها من الفلسطينيين ، فقد كانوا يملكون وجودا عسكريا وسياسيا لا يخضع تماما لسلطان حكومة الملك حسين وجيشه اللذين اوهنتهما الحرب . وكان الملك قد بذل قصارى جهده للحد من النمو المزعج لقوة الفدائيين ولم يتغير هذا نتيجة لحرب يونيو سنة ١٩٦٧ . وكانت عملية تسلل « ما يسمى بالفدائيين مازالت تعتبر جريمة لا نظير لها (٥٦) » ؟ وأعلن فى فبراير أنه اتخذ اجراءات حازمة ومشددة لمقاومتهم ، وانه لا شأن لهم بالعالم العربى (٥٧) . ولكن رئيس الوزراء بهجت التلهونى اضطر بعد

ذلك بثلاثة أيام ، الى التنصل من هذه السياسة واعلان تنظيم « مقاومة شعبية » . وحدثت بعد ذلك موجة اخرى من الاشتباكات الخطيرة نتيجة لغارات الفدائيين ، أستخدم فيها الاسرائيليون الدبابات والمدفعية والطائرات ضد المواقع الأردنية . وقتل أبان هذه الهجمات عدد كبير من المدنيين . وفر حوالى ٧٠ الف من سكان وادى الأردن الى الامان النسبى فى الجبال . وفى ١٨ مارس مرت سيارة مدرسية اسرائيلية فوق لغم ، فأسفر ذلك عن مقتل طبيب واصابة عدد من الأطفال بجراح . وأعلن الاسرائيليون ان هذه هى قمة عمليات التخريب والقتل التى بلغ عددها حوالى ٣٧ عملية ، والتى لقى نتيجة لها ستة أشخاص مصرعهم واصيب ٤٤ بجراح . واصبح من الواضح للفدائيين الموجودين فى الوادى ان عملية انتقام واسعة النطاق أصبحت وشيكة الوقوع . وبينما كانوا يراقبون استعدادات العدو ، أخذوا يتناقشون فيما يفعلون ، ووفقا لأصول حرب العصابات ، لم يكن أمامهم سوى سبيل واحد ممكن فقط ، وهو أن ينسحبوا الى المرتفعات وأن يعملوا على ازعاج القوات المهاجمة والبالغة التفوق ، من هناك . هذا هو ما حثت عليه الكتيبة الصغيرة التابعة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، والتى يبلغ قوامها حوالى ثلاثين مقاتلا . وربما كانت فتح ضليعة بالمثل فى أساليب (شى جيفارا) و (وماوتسى تونج) و (هوشى منه) ولكن رجالها مع ذلك أصروا على سلوك الطريق العكسى . وعلى بقاء الفدائيين فى منكانهم — فى مخيم اللاجئين بالكرامة وحوله وان يواجهوا العدو مباشرة . وكان عددهم لا يزيد عن ثلثمائة أو اربعمائة ، وكان هذا العدد يشكل تقريبا القوة الشاملة للفدائيين آنذاك ، وكانوا مسلحين بالمدافع الرشاشة الخفيفة المتوسطة ، ومدافع آربى جيه المضادة للدبابات والقنابل اليدوية وكان منطق فتح فى هذا ، سياسيا أكثر منه عسكريا : وان هناك حقيقة أساسية أصبح الجميع يعرفونها وهى ان العدو كان يتقدم طوال سنوات مواجهتنا معه دائما ، فى حين كنا نحن نتقهقر . واذا كان لابد لنا من التقهقر فليس أمامنا الا تقهقرنا الى ، عمان أو دمشق . ولكننا نرفض هذا . والأمة العربية تقف تتفرج علينا . فلا بد لنا اذن أن نتحمل مسئوليتنا كرجال ، بشجاعة وكرامة . ولابد أن نغرس فكرة الصمود فى نفس هذه الأمة . لابد لنا من أن نقضى « على أسطورة الجيش الذى لا يقهر » (٥٨) . ولم تستمع (فتح) الى نصيحة الأردنيين ، والقوات العراقية المرابطة فى البلاد . وقالوا انهم مصممون على « اقناع الأمة العربية بأنه يوجد بينهم أناس لا يتقهقرون ولا يفرون . فلنمت تحت جنازير الدبابات ، وسنغير مجرى التاريخ فى المنطقة . ولن يلومنا أحد على ذلك » (٥٩) .

ووجه الاسرائيليون فجر ٢١ مارس ضربتهم عبر نهر الاردن . واشترك خمسة عشر الف جندى واسطول من الدبابات ، فى هذه الغارة التى تعتبر أكبر غارة انتقامية فى تاريخ اسرائيل . وعلى الرغم من ان الهجوم شمل جبهة عرضها ٥٠ ميلا ، اتجهت القوة الرئيسية فوق المنحدرات القاحلة ، الى الكرامة ، بينما دارت قوات المظلات المحمولة بالطائرات الهليكوبتر حول المدينة من الخلف وقال أحد جنود المظلات فيما بعد ان « الكرامة » كانت مثل مدينة الاشباح .

ووجهنا نداء عن طريق مكبرات الصوت الى السكان بالخروج مرفوعى الأيدى والاتجاه الى الميدان أمام الجامع ، ولكن بدا لنا أننا نوجه كلامنا الى الجدران .. وأحطنا بمبنى كنا نعرف أنه معسكر للارهابيين . وفجأة تعرضنا لوابل من النيران . ووضعنا الألغام تحت الأبواب واقتحمنا المكان . ووجدنا فى الداخل حوالى عشرين فدائيا مختبئين ، وعلى صدورهم شعار العاصفة . وكانوا مسلحين بمدافع رشاشة وحاولوا شق طريقهم الى الخارج باطلاق النار ولكنهم قتلوا جميعا (٦٢) .

واصيب الفلسطينيون بخسائر جسيمة ، حيث فقدوا نصف قواتهم المقاتلة (٦٣) . وقدر الجيش الأردنى ، الذى اشترك فى القتال ، خسائره بـ ١٢٨ قتيلا وجريحا ومع ذلك فان معركة الكرامة كانت من وجهة نظر منظمة فتح ، نصرا عظيما ونقطة تحول فى مصيرها . فلاول مرة أصيب الاسرائيليون بخسائر كبيرة ، بعد أن اعتادوا على الانتصارات السهلة المريحة غالبا . وقد واجهوا مقاومة عنيفة طوال الوقت . وأصيبوا بما يعتبر بالنسبة لهم خسائر فادحة لأنهم بلد صغير تطحنه الحروب، والخسائر الفادحة ، لا يستطيعون تحملها ، وقد فقدوا ٢٨ قتيلا و ٩٠ جريحا (٦٤) . وتركوا وراءهم فى الميدان عدة دبابات مدمرة وعربات أخرى . وبالاضافة الى هذا لم يحققوا أى شىء . بل على العكس نجح قرار الاستشهاد « الرومانسى الذى اتخذته فتح نجاحا باهرا يفوق كل تصور . وأصبح الفدائيون محاطين بهالة من البطولة وقد أشاد بهم اللواء مشهور فى حديثه ، قائد القوات الأردنية التى اشتركت فى المعركة ، بصفته جنديا محترفا ، حيث قال : لقد أدى الفدائيون واجبهم فى (الكرامة) على خير وجه حتى المراحل الأخيرة من الاشتباك بالأيدى . ويقدر عدد شهدائهم بحوالى مائة وخمسين شهيدا . وبعد أن شاهدتهم ورأيت ان جراحهم كلها كانت فى الصدر أصيبوا بها فى المواجهة ، أجد لزاما على ، من أجل التاريخ ، أن أسجل أنهم قاتلوا قتال الأبطال (٦٥) . ووجد المراسلون الأجانب الذين زاروا

الكرامة بعد المعركة بيومين ، ان الفدائيين تجمعوا هناك بكامل قوتهم مرة أخرى وهم أكثر ثقة بالنفس وأكثر تحديا . وأعرب بعضهم عن اعتقاده بأن اسرائيل ارتكبت خطأ استراتيجيا ضخما (٦٦) . وأصبح موضع القدم المحفوف بالمخاطر الذى يسيطر عليه الفدائيون على الحدود الشرقية لاسرائيل ، دولة حقيقية داخل الدولة . واذا كان الملك حسين قد فكر فى سحقهم يوما ما فقد تخلى الآن عن تلك الفكرة ، حيث ان رعاياه لن يقبلوا هذا . ولما كان لا يستطيع سحقهم فقد تظاهر بالانضمام اليهم . اذ قال فى مؤتمر صحفى شهير : « ربما تحولنا كلنا الى فدائيين » . واحتفلت مخيمات اللاجئين فى جميع أنحاء العالم العربى « ببعث الشعب الفلسطينى من جديد » (٦٧) . وأقيمت جنازات ضخمة للشهداء . وبدأ المتطوعون يتدفقون على مراكز التطوع التابعة لفتح . ولم يكونوا من الفلسطينيين وحدهم ، اذ أنه بحلول شهر مايو ، كان قد تقدم عشرون ألف مصرى للتطوع ، و ١٥٠٠ عراقى ، وذلك خلال اسبوع واحد (٦٨) . وبدا أن الفدائيين فى لبنان قد أصبحوا قوة توحيد عظيمة . وسادت صحافة هذا البلد ، الذى يعتبر أقل البلاد العربية عروبة ، أنباء الشباب المصمم على التطوع مثل نبأ وهيب جواد البالغ من العمر ١٩ عاما ، الذى عارضه أهله فهاجم متجرا للحصول على أجر سفره الى عمان ، ولم يأخذ الا ٢٥ جنيه لبنانيا فقط من مبلغ قدره ٣٠٠ جنيه لبنانى قدم اليه ، وسار ، بعد شهر من معركة الكرامة ، وقد اشترك عشرات الألوف من المسلمين والمسيحيين فى تشييع جنازته وهو أول شهيد لبنانى وعندما وصل موكب الجنازة الى قرية « كحالة » وهى معقل حزب الكتائب المسيحى اليمينى على الطريق الرئيسى بين دمشق وبيروت ، أصر سكان القرية على حمل النعش بأنفسهم بينما كانت أجراس الكنيسة تدق . ووصفت صحف بيروت هذا العمل بأنه بمثابة استفتاء وانه الوجه الحقيقى للبنان الخالى من « آثار التعصب الدينى » (٦٩) . وفى الأردن ، بعد أشهر قليلة من هذا الحدث قام وصفى التل ، رئيس الوزراء على تحويل بلاده الى قرطاجة حديثة . وتعبئة البلاد كلها وراء الفدائيين الذين يجب عليهم تصعيد عملياتهم « مائة مرة » لتصبح مصدر ازعاج حقيقى للعدو . وان تطور الأردن دفاعاتها الى الدرجة التى تمكنها من الترحيب بالغارات الانتقامية كوسيلة لاستنزاف جهد العدو : فكلما زادت المعارك على نمط معركة الكرامة ، كلما كان ذلك أفضل (٧٠) . وبدا الأمر وكأن نظرية فتح قد أثبتت جدارتها العملية ، وكأن الطلائع الثورية « نجحت بالفعل عن طريق سلسلة من أعمال العنف العفوية ، فى

تجميع الجماهير العربية خلفها ، وفى خلق الجبهة العربية المؤيدة التى ستسقط أى حاكم يقف فى طريقها . »

ولم تقتصر آثار معركة الكرامة على العرب وحدهم . اذ بدأ العالم الخارجى ينتبه الى ظهور قوة جديدة فى الشرق الأوسط . وقد وضحت تلك القوة ـ كما جاء فى الكتاب السنوى الفلسطينى لعام ١٩٦٨ من خلال :

« .. تقدم المتطوعين الأجانب للانضمام الى الحركة ، من أمثال الفرنسى روجيه كورداى الذى استشهد فى يونيو .. من خلال المظاهرات المؤيدة للعرب والاضطرابات التى استقبلت وزير خارجية اسرائيل ، أبا ايبان ، أثناء زيارته للنرويج فى ٧ مايو ، ومن خلال الهتاف بحياة فتح الذى استقبله فى استوكهلم ، ومن خلال الرسائل التى نشرتها صحيفة التايمز اللندنية بعد ٥ أيام من معركة الكرامة ، وكانت تحمل توقيع ثلاث شخصيات بريطانية بارزة ، من بينها ليدى فيشر ، زوجة كبير أسقفه كانتر بيرى ، التى قالت انه من المؤكد ان العرب « انما يقومون بما يقوم به دائما الرجال البواسل عندما تقع بلادهم تحت سيطرة المحتل .

ملاحظات ومراجع الفصل الثامن :

(١) مجلة نيوزويك ، ٢٢ اكتوبر ١٩٧٣

(٢) ٩ اكتوبر ١٩٧٣

(٣) مجلة نيوزويك ٢٢ اكتوبر ١٩٧٣

(٤) صحيفة دافار ٨ فبراير ١٩٧٤

(٥) صحيفة هاارتز ١١ نوفمبر ١٩٧٢ .

(٦) ليبوفيتش ، يشعياهو ، ٢٠ نوفمبر ١٩٧٣

(٧) كابيليوك ، نهاية الاساطير نفس المرجع ص ١٠٦

(٨) اذاعة اسرائيل أول ديسمبر ١٩٧٣

(٩) من ص ١٧٣ الى ص ١٩٣

(١٠) ص ١٤٩

(١١) تقرير وسيط الامم المتحدة عن فلسطين ، نفس المرجع ص ٤

(١٢) السجلات الرسمية للدورة الثالثة للجمعية العامة الجزء الثـــانى ، اللجنة السياسية ١٩٤٩ من ص ٢٨٦ الى ص ٢٨٧ .

(١٣) انظر جورج طعمة « عندما تخلت الامم المتحدة عن المسالة الفلسطينية يوميات الدراسات الفلسطينية باوت ، المجلد الرابع ، رقم ١ ، ١٩٧٤ من صفحة ١٥ الى ص ٣٠

(١٤) الصنداى تايمز ، ١٥ يونيو ١٩٦٩

(١٥) نيوزويك : فبراير ١٩٦٩

(١٦) هاارتز ٩ سبتمبر ١٩٧٤

(١٧) دافيز ، جون . السلام الراوغ ، جون موراى . لندن ، ١٩٦٨ ص ٦٢

(١٨) انظر الطيباوى ، رؤى العودة : اللاجئون الفلسطينيون فى الشعر والفن العربى ميدايست جورنال المجلد السابع عشر ، ١٩٦٣ ص ٥٢٣ .

(١٩) كما ناصر ، جراح تغنى ، ١٩٦٠ ، انظر الطيباوى نفس المرجع ص ٥١٦

(٢٠) تركى ، فواز ، المحرومون ، يوميات مغترب فلسطينى : ١٩٧٢ ص ٥٣

(٢١) انظر الطيباوى ، المرجع السابق ، ص ٥١٤

(٢٢) نفس المرجع ، ص ٥٠٨

(٢٣) يعارى ، احود ، اضربوا الارهاب ، قصة فتح ، كتب الصابرا ، نيويورك ١٩٧٠ ص ٤٩

(٢٤) فلسطيننا ، يناير ١٩٦٤ ص ٧

(٢٥) نفس المرجع يناير ١٩٦٤ ص ٣
(٢٦) نفس المرجع ، يناير ١٩٧٤ ص ٣
(٢٧) نفس المرجع ، يناير ١٩٦١ ص ٢٧
(٢٨) نفس المرجع سبتمبر ١٩٧٤ ص ٣
(٢٩) نفس المرجع نوفمبر ١٩٥٩ ص ٣٠
(٣٠) نفس المرجع ابريل ١٩٦٤ ص ٣
(٣١) نفس المرجع يونيو ١٩٥٩ ص ٢٦
(٣٢) نفس المرجع مايو ١٩٦١ ص ٥
(٣٣) نفس المرجع مارس ١٩٦١ ص ٥
(٣٤) نفس المرجع اغسطس ١٩٦٣ ص ٢٤
(٣٥) نفس المرجع اغسطس ص ٣
(٣٦)نفس المرجع سبتمبر ١٩٦٤ ص ٣
(٣٧)نفس المرجع سبتمبر ١٩٦٤ ص ٣
(٣٨) نفس المرجع مارس ١٩٦١ ص ٩
(٣٩) صحيفة الانوار ٢ يناير ١٩٦٥
(٤٠)دراسات وتجارب ثورية (بالعربية) مطبوعات فتح ص ٤٢
(٤١) نفس المرجع ص ٤٢
(٤٢) يعارى ، المرجع السابق ص ١٠٨ ، ١١٢
(٤٣) مشاغل الثورة على طريق العودة (بالعربية) مطبوعات فتح ١٩٦٥ ، ١٩٦٦ ص ١٠
(٤٤) ٢٥ يناير ١٩٦٥
(٤٥) خطاب أمام المجلس الوطنى الفلسطينى ٣١ يونيو ١٩٦٥
(٤٦) فواز الشرقاوى ، فتح ١٩٦٥ ــ ١٩٧١ (بالعربية ، لم ينشر جامعة القاهـــرة ١٩٦٥) .
(٤٧) الصياد ٤ يونيو ١٩٦٥
(٤٨) ٢٤ فبراير ١٩٦٦
(٤٩) الجريدة ، بيروت ، ٥ يونيو ١٩٦٥
(٥٠) رسالة الى مؤتمر القمة العربى الثالث : ٧ سبتمبر ١٩٦٥
(٥١) يعارى ، المرجع السابق من ص ١٣٣ ــ ١٣٥ .
(٥٢) مجلة جويش اوبزرفر ، لندن ، ١٢ اغسطس ١٩٦٧
(٥٣) ١١ ديسمبر ١٩٦٧

(٥٤) ١٠ أكتوبر ١٩٦٧

(٥٥) الانوار ٢١ يناير ١٩٦٧

(٥٦) المحرر ١٩ ديسمبر ١٩٦٧

(٥٧) وكالة الانباء الاردنية ٥ سبتمبر ١٩٦٧

(٥٨) صحيفة الجارديان ١٨ فبراير ، ٥ سبتمبر ١٩٦٧

(٥٩) الشرقاوى المرجع السابق ص ٣٤٦ - ٣٤٧

(٦٠) اربع معارك كبرى لقوات العاصفة (بالعربية) مطبوعات فتح ، ورد فى مقال منير شفيق المنشور بمجلة شئون فلسطينية بيروت ، مارس ١٩٧٣ ص ١٠٧

(٦١) هانى حسن « الذكرى الرابعة لمعركة الكرامة » مجلة شئون فلسطينية ، ابريل ١٩٧٢ ص ٥٦

(٦٢) التايمز ٢٣ مارس ١٩٦٨

(٦٣) الشرقاوى ، المرجع السابق ص ٤٣٧

(٦٤) هاركابى ، يهود شافاط ، العمل الفدائى والاستراتيجيــة العربيــة ، أولفى بيبرز ، رقم ٥٣ ، معهد الدراسات الاستراتيجية ، لندن ١٩٣٨ . ص ٢٨ .

(٦٥) هادى أبو أسوان « شهادات من معركة الكرامة » شــئون فلسطينية ، بيروت ابريل ١٩٧٢ ص ٢١٠

(٦٦) موريس ، جو اليكس ، صحيفة نيويورك هيرالد تريبيون ، ٢٥ مارس ١٩٦٨!

(٦٧) لوموند ٢٣ مارس ١٩٦٨

(٦٨) الكتاب السنوى الفلسطينى (بالعربية) معهد الدراسات الفلسطينية بيروت ١٩٦٨ ص ١٠٩

(٦٩) الانوار ، النداء ٢٨ ابريل ١٩٦٨

(٧٠) الجديد (مجلة بيروتية) ١٦ اغسطس ١٩٦٨

(٧١) المرجع السابق ص ٨١

الفصـــل التاســع
البندقيــة وغصن الزيتــون

دولة فلسطين الديمقراطية :

رغم كافة انجازات الفدائيين التى لا شك فيها ، فانهم لا يزالون بعيدين كثيرا عن تحرير فلسطين ــ الواقع انهم ابعد بكثير مما يظنون هم أنفسهم ــ الا أن النجاح والاعتراف قد أفرزا تغيرات عميقة فى المنظور ، وأفرزا ، على وجه الخصوص ، محاولة جد مطلوبة لتحــديد ما يعنونه ب « التحرير » فحتى ذلك الحين ، كانت « الشقيرية » ــ وهو الاسم الذى صارت تعرف به ــ تتمتع بالغلبة . لقد تنصل الرئيس السابق لمنظمة تحرير فلســطين بشدة من التصريح سيىء الصيت ــ « اننى لا أتوقع أن يبقى أى فرد منهم (من الاسرائيليين) على قيد الحياة » ــ الذى نسبته اليه وكالات الأنبــاء عشية حرب ١٩٦٧ (١) . الا أنه ليس من الأهمية الكبرى فى الواقع ما اذا كان قد قال هذا أم لا ، لأن بلاغته الخطابية الضارية المرتبطة باسمه قــد أدت دورها بالفعل . ومن المؤكد ان الشــقيرى لم يكن المهاجم الوحيــد . وقد تحدى كريستوفر مايهيو ، عضو البرلمان البريطانى ، مؤخرا مؤيدى اسرائيل أن يأتوا بأى تصريح لزعيم عربى يمكن وصــفه بأنه ينطوى على نية « الابادة » . وعرض جائزة تقدر ب ٥٠٠٠ جنيه استرلينى ولم يأت أحــد بتصريح كهذا ، رغم ان أحد المتحدين المثابرين قد اضطر أن يخسر قضية قبل أن يسلم بالهزيمة . لكن اللغة التى استخــدمها العرب ، على وجه العموم كانت جد فعالية فى عدوانيتها ، بحيث يصعب توجيه اللوم على رجل الشارع اذا ما توصل الى أنهم كانوا يعترفون بالفعل «القاء اليهود فى البحر»

وقد كتب الباحث السورى صادق العظم ان مفهوم « التحرير » كان محل تقديس وتبجيل بدرجة كان محظورا معها مناقشة جادة ، أواخضاعه للنقد الموضوعى أو حتى تفسير المعنى الذى سوف يؤول اليه فى الممارســة العملية . وأعتقــد أن « التحرير » فى تصــور الغــالبية الســاحقة من الفلسطينيين ، يعنى نوعا ما من العودة الحرفية والميكانيكية الى الوضــع الذى كان سائدا حوالى سنة ١٩٤٨ . أعنى ان الناس يتخيلون صــورة لجيوش عربية غازية تعود الى فلسطين ، ثم ينفض كل فلسطينى الغبار عن

وثائقه واوراقه ، ويقدم نفسه الى الفاتح العربى ، ويطلعه على الحجج التى تثبت ملكيته لهذه القطعة أو تلك من الأرض ، ثم يعيد الغازى كل شيء الى صاحبه الاصلى ، وكأن شيئا لم يكن . أى أن التحرير يعنى عودة المالك العقارى الى ضيعته ، والبورجوازى الكبير الى تجارته وصناعته ، والبورجوازى الصغير الى حانوته ، والعامل الى كوخه والفقير والمعوز الى فقره وعوزه .

وكان التكرار الذى لا ينتهي للشعار ، دون أى تحليل أعمق له .. محض ديماجوجية .. وكان مصحوبا بصمت رسمى متخوف فيما يتعلق بمستقبل الجماهير اليهودية في فلسطين . فشعار التحرير ، بالشكل المطروح به ، لم يكن يقدم لها بديلا واضحا للموت والتشتت ، لم يكن يقدم لها ضمانة راسخة بالنسبة لمستقبلها كجماعة بشرية كبيرة فى منطقة من العالم العربى . ولم تكن تملك لا هى ولا الرأى العام العالمى ، معيارا آخر تقيم به معنى التحرر بشكل مختلف عما كانت تقصده أجهزة الاعلام العربية سيئة الذكر ، وخطباؤنا من أمثال الشقيرى ، بحيث صار لا يعنى بالنسبة للعالم الخارجى (بالنسبة لليهود وغير اليهود) غير مذبحة عظيمة » (٢) .

وفى موجة « النقد الذاتى » الرسمى التى اجتاحت العالم العربى عقب الكارثة الثانية فى سنة ١٩٦٧ ، كان من المتفق عليه بشكل عام ان «الشقيرية» وكافة التجاوزات اللفظية المماثلة يجب أن تستبعد . لكن الفلسطينيين أنفسهم مضوا الى ما هو أبعد من ذلك ، فقد رأوا أنه لابد أيضا لا استبعاد « الشقيرية » وحدها ، بل وبعض الأفكار التى كان يتبناها الشقيرى — وكثيرون غيره . وقد بدأت فتح ، فى أوائل ١٩٦٨ ، بصياغة مفهوم جديد لـ « التحرير » . واصبح من المفهوم ان الثأر لا يصلح دافعا لحرب شعبية اذ ينبغى تأسيس التحرير على تصور يتعلق بالمستقبل ، لا على كابوس البارحة . لقد كان من الطبيعى ، وان كان من المؤسف ، أن يتصرف الفلسطينيون فى السنوات الأولى للنفى بالطريقة التي تصرفوا بها — ان يمقتوا اليهود وكل ما هو يهودى . فرغم التمييز الذى كان يجرى عادة بين اليهود والصهيونيين ، كان معظم اللاجئين لفرط شعورهم بالمرارة — أو لفرط بساطتهم — لا يحملونه محمل الجد . لقد كانوا يميلون الى قبول الدعاية الصهيونية على علاتها — وهذه الدعاية كانت تؤكد ان كافة اليهود صهيونيين وانهم من الممكن ان يكونوا اسرائيليين . الم يطردوا لكى يتوافر متسع للوطن القومى اليهودى ؟ أليست الأموال اليهودية ، والضغط اليهودى

فى الولايات المتحدة ، هو الذى يخلد شقائهم ونفيهم ؟ وقد اتخذت كراهيتهم ، وكراهية العرب عموما لاسرائيل ، صبغة معـادية للسـامية وباستلهامهم لبروتوكولات حكماء صهيون والكلاسـيكيات الأخرى للعنصرية الأوربية ، البسوا اسرائيل والكارثة ثوبا شيطانيا عصريا من صنعهم والواقع انه كان هناك فلسطينيون مؤثرون ومتعلمون وكانوا يروجون لفكرة انه من الأهمية القصوى عدم التمييز بين الصهيونية واليهودية انجورج حبشى ، بوصفه رئيسا للجبهة الشعبية لتحرير فلسـطين وبوصفه ماركسـيا — لينينيا مخلصا ، يتعلق الآن بأهمية «الثورة العالمية» لكنه فى سنوات النفى الأولى ، وبوصفه الروح المحرك وراء جراة القوميين العرب ، كان يعتقد أن العـدو الحقيقى ليس هو الامبرياليـة الغربيـة وانما اليهودية العالمية » ، جميع اليهود من أقصى اليسار الى أقصى اليمين » ؟ ولم يكن ير من خيـار أمام العرب غير مواجهة التحدى الصهيونى بنفس الأساليب التى حددها اليهود : الطرد أو الابادة . وكان شعاره الذى تعرض لكثير من النقد حتى فى حينه، « وحدة تحرر ، ثأر » (٣) غير ان مواقف جديدة قد انبثقت بمرور الوقت ، خاصـة مع تزايد الفدائيين . واكتسب التمييز بين اليهود والصهيونيين معنى بالفعل :

« فقـد انخرط القادة الثوريون فى دراسة ومناقشة جادتين حول الموضوع .. وانبثقت حقائق قديمة . لقد عانى اليهود من الاضطهاد على أيدى المجرمين العنصريين فى ظل النـازية ، كذلك عانينـا « نحن » من الاضطهاد فى ظل الصهيونية . واكتشفت مقارنات موحية . كان الثوريون يقولون « كيف يمكن لنا أن نكره اليهود لمجرد كونهم يهودا ؟ » كيف يمكن لنـا أن نقع فى نفس المصـيدة العنصرية ؟ وبدات دراسـة التاريخ والفكر اليهوديين وتم التعرف على المساهمات اليهودية والمعضلات اليهودية سواء بسواء . ان غالبية الذين قدموا الى فلسطين كانوا فارين من معسـكرات الاعتقال الالمانية وقد قيل لهم انهم شعب بلا أرض — سيذهب الى ارض بلا شعب . وعندما وصلوا الى هنـاك ، قيل لهم ان الفلسطينيين تركوا فلسطين بمحض ارادتهم ، انصياعا لأوامر من الحكام العرب فى خطوة غادرة لتدبير مذبحة لليهود الباقين .

ثم اكتشف ان الجهاز الصهيونى قد ابلغ المهاجرين اليهود الجـدد ، شأنهم فى ذلك شـأن المستوطنين القدامى ، ان عليهم أن يقاتلوا اذا كانوا يريدون النجاة، وان البديل الوحيد لـ « اسرائيل » ، آمنة هو مذبحة أو فى

أحبتى الأخوال زورق غارق صغير فى البحر المتوسـط . بل ان اليهود العرب ــ الذين يسميهم الصهيونيون باليهود الشرقيين المعرضين للتمييز فى « اسرائيل » من جانب الأقلية الصهيونية الأوربية الحاكمة عليهم أن يقبلوا هذا الادعاء وان يقاتلوا فى سبيل ما يعتبرونه حيـاتهم نفسها . وكشفت محاولة الصهيونى قوى وحدود الطابع « اليهودى » فاليهود ليسوا وحوشا أو سوبر مانات أو اقزام وأخذ الثوريون يقرأون ويعيدون قراءة مارتن بيوبر واسحق دوينشر والربيرجر وموشيه مينوهين ، وكلهم مفكرون يهود روحيون انسانيون .. » (٤).

ان تصور فتح للمستقبل هو « دولة فلسطين الديمقراطية وطبيعى ان اليهودى الصهيونى يظل هو العـدو وسوف تواصـل فتح « ثورتها حتى النصر » ضده وضد كل ما يمثله . ان التحرير الكامل يظل هو الهـدف . ويظل معنى التحرير الكامل هو « القضاء على الدولة الصهيونية المعتدية ــ سياسيا وعسكريا وأجتماعيا وايديولوجيا » (٥) .

ولا يمكن أن يدور حديث عن قبول نوع معين من دويلة تقام فى أراضى قد أجبرت اسرائيل على الانسحاب منها ، بموجب تسوية شاملة ، فالضفة الغربية وغزة لا يشكلان معا أكثر من ٢٣ فى المائة من فلسطين الأصليـة ، ويقول منظر فتح أنها سوف تكون مجرد دمية ــ بانتوستان تابع لاسرائيل . ان الفلســطينيين لا يمكنهم تحقيق حقهم المشروع فى العودة الا من خلال التحرير الكامل ، فعن هذا الطريق وحده يمكنهم أن يكفلوا لأنفسهم كشعب حياة حرة ولائقة . لكن هذه الدعوة لم تعد دعوة الى عدالة حرفية ومطلقة، لم تعد دعوة الى مجرد استعادة الوضع السابق . فهى رغم عدم اعترافها بالأمر الواقع الصهيونى نفسه ، تعترف بالنتيجة الأساسية له ، أى بوجود يهودى مادى فى فلسطين ويشكل ذلك قفزة كبرى الى الأمام فى تفكيرهم ، فلسنوات قليلة خلت كان مجرد « مناقشة هذا الاقتراح عرضة للاتهـام بالخيانة العظمى » (٦) وقد حدث ذلك « لأن الشعب الذى يقاتل يمكنه أن يكون أكثر تسامحا » (٧) أن « فلسطين الغد » سوف تكون « فلسـطين تقدمية ، ديمقراطية ، لا طائفية ، يمارس فيها المسيحيون والمسلمون واليهود عباداتهم ويحيون فيها آمنين ويتمتعون فيها بحقوق متساوية » والثورة الفلسطينية تمد « يدها المرحبة لكل البشر الذين يريدون النضال من أجل فلسطين ديمقراطية متسامحة والعيش فيها بصرف النظر عن العنصر أو اللون أو العقيدة الدينية « وليس ذلك » حلما مثاليا أو وعدا زائفا ، فقد عشنا دائما فى سلام مسلمين ومسيحيين ويهود فى الأرض المقدسة لقد وفر

العرب الفلسطينيون ملجأ ومأوى آمنا وعونا لليهود الفارين من الاضطهاد فى أوربا المسيحية ، وللارمن المسيحيين الفارين من الاضطهاد فى تركيا المسلمة ، كما وفروا كل ذلك لليونانيين والقوقازيين والمالطيين ضمن سواهم » ويقول الداعون الى هذا التصور ان الشيء الذى جد هو أن هؤلاء العرب أنفسهم الذين طردوا من ديارهم على أيدى اليهود الصهيونيين مازال بوسعهم — وهم فى خضم نضالهم من أجل العودة — أن ينادوا بمجتمع يتمتع فيه المعتدون السابقون والمضطهدون اليهود بمكانة متساوية . أما نظام الحكم الذى سوف تقره دولة فلسطين الديمقراطية والفلسفة الاجتماعية — السياسية التى سوف تتقرر وتتبناها فانها مسائل سوف تتقرر بعد التحرير ، لكن فتح لا تسمح بأى شكوك فيما يتعلق بالمثل العليا للاخوة الانسانية التى قامت عليها . فكل اليهود الموجودين الان فى فلسطين وليس أولئك الذين كانوا هناك بالفعل قبل ١٩١٧ أو ١٩٤٨ أو فى أى وقت يحسبه الفلسطينيون بداية « الغزو الصهيونى » . سوف يكون لهم الحق فى البقاء هناك » وطبيعى أنه سوف يتعين عليهم التخلى عن معتقداتهم الصهيونية . ولا يمكن لفلسطين الغد ان تكون دولة ذات قومية مزدوجة ولا يمكن لها أن تكون مجرد لبنان آخر ، بنظامه الطائفى الذى بدلا من أن يؤدى الى تقليص ولاءات متناقضة يقوم بتخليدها ضمن اطار تعايش هش عرضة لانهيارات متكررة ودموية . ذلك من شأنه فقط يشجع اليهود ، مثلما هو الحال مع مسيحيى لبنان الموارنة ، على انتهاج سبيل عزلة خاصة بهم . وسيكون هناك بطبيعة الحال متعصبون عديدون ، من أمثال بيجين وديان وجولدا مائير ، يحتمل الا يتكيفوا مع نظام جذرى جديد كهذا — وسوف يضطرون الى النزوح ، الا أنه ينبغى أن نتذكر ان من يسميهم الاسرائيليون باليهود الشرقيين ، هم فى معظمهم يهود عرب ، وهم يؤلفون نصف السكان على اقل تقدير ، ولن يكون التكيف بالنسبة لهم صعبا للغاية . وبمجرد ان ينجحوا فى ذلك ، فانهم لن يجدوا أنفسهم ضحايا لأية تفرقة من أى نوع . بل انه يمكن انتخاب يهودى لرئاسة الدولة شأنه شأن أى عربى . ويمكن توفير تسويات متبادلة ، مؤقتة أو دائمة ، بين عنصرى الدولة الديمقراطية العربى واليهودى . وستكون هذه التسويات ثقافية ولغوية بصفة رئيسية وسوف تصبح العبرية والعربية على حد سواء لغتين رسميتين فى المدارس الحكومية . الا أنها يمكن أن تستوعب أيضا السياسات العليا للدولة على سبيل المثال ، يمكن قصر الهجرة ، فى المرحلة الانتقالية ، على الفلسطينيين الراغبين فى العودة الا أنه فيما بعد ، وبناء على تقديرات متفق عليها فيما

يتعلق بقدرة البلاد على الاستيعاب ، سوف تكون مفتوحة للجميع دون تمييز .

والحقيقة ان الدولة الديمقراطية ، كما تصورها فتح ، لن توفر التحرير للفلسطينيين فحسب ، وانما لليهود أيضا – أى لمن تعتبرهم ، من بين ضحايا عقيدة تزعم مساعدتهم ، وانها توفر لهم فلسطين مفتوحة وآمنة ومتسامحة بدلا من انعدام أمن دولة يهودية مهددة دوما من جيرانها . ومن المأمول فيه ان يأتى فى نهاية المطاف وقت يناضل فيه اليهود جنبا الى جنب مع الفلسطينيين فى النضال التحررى . ولكن شعار الدولة الديمقراطية لم يلق من الفلسطينيين قبولا لا مباشرا ولا شاملا . فقد عارض البعض الفكرة برمتها معارضة تامة ، اذ اعتبرت تنازلا لا يغتفر للعدو . واعتبرها البعض مجرد خطوة دعائية تاكتيكية تستهدف التأثير على الرأى العام العالمى . واعترض البعض على خلق دولة عربية أخرى علاوة على الدول الموجودة ، وآثروا الحديث عن « مجتمع ديمقراطى » يمتزج بالعالم العربى الأوسع وكان البعض يخشون من أن يكون التفوق العددى فى دولة كهذه لليهود الاكثر تقدما من الناحية التكنولوجية ، الذين سوف يستغلون وضعهم للهيمنة على العالم العربى وتقويض وحدته . وانتقدوا البعض التصنيف الدينى للمواطنين فى دولة المستقبل . الى مسلمين ومسيحيين ويهود – وقال البعض أن الاقتراح سابق لاوانه من حيث أن ميزان القوة فى الشرق الأوسط لا يزال يميل بقوة فى كفة الاسرائيليين وقال البعض ان من شانه أضعاف روح الفلسطينيين النضالية . لكن الفلسطينيين على وجه العموم انتهوا الى قبول المبدأ ، وان كانوا قد اختلفوا على تحديده تحديدا دقيقا ، ثم تمت الموافقة عليه رسميا فى سنة ١٩٧٠ من جانب المجلس الوطنى لمنظمة تحرير فلسطين ، وهو « برلمان » الشعب الفلسطينى .

لا انتفاضة فى الأراضى المحتلة :

كانت معركة الكرامة أسعد ساعات الفلسطينيين لكن نجاحهم نفسه كان يتضمن بذور فشل آخر . بل أن مجرد نشوب معركة الكرامة فى حد ذاته كان فى جانب منه على الأقل نتيجة لفشل سابق ، قدمت له ، على أى حال ، تغطية مثيرة ، وان كانت غير مجدية فى نهاية المطاف . فقد فشلت فتح ، فى الأشهر الستة الأولى التى تلت حرب ١٩٦٧ فى بدء « حرب التحرير الشعبية » ، داخل الاراضى المحتلة التى كانت تراهن عليها . وفشل الفدائيون فى أن يصبحوا سمكا فى بحر ثورى صحيح أنه كان هنالك تحمس عظيم ، خاصة فى الريف ، للجيل الجديد من الفلسطينيين المقاتلين وكان من المأمول فيه ان سكان الضفة الغربية وغزة استلهاما لمثلهم ، سوف

يلجأون هم أنفسهم الى النضال المسلح فى الوقت المناسب لكنه أصبح من الواضح ، خلال الأشهر الستة الأولى المذكورة ان هذا ليس واردا . لقد كانت غزة تتمتع بالفعل بتقاليد نضالية لها وزنها ، لكن سكان الضفة الغربية على وجه العموم كانوا غير مستعدين لتضحية عظيمة بالنفس فى قضية كانوا يشكون فى نجاحها . لقد كان الفدائيون نتاجا لمجتمع اللاجئين الذين فقدوا كل شيء ، ما هم فكانوا ما يزالون يملكون ما يمكن أن يفقدوه لذا كانوا مهتمين بصورة مباشرة بتحقيق الجلاء عن الأراضى المحتلة حديثا أكثر من اهتمامهم بتحرير فلسطين ، وكانوا يأملون فى أن تحقق الدول العربية ذلك لهم ، بالسبل السياسية أو العسكرية . ويمكن القول على وجه العموم أن القيادة المحلية ــ العمد واعيان المدن والمخاتير ــ قد نهروا السكان عن اللجوء الى السلاح . وهكذا ، فخلافا لمقاتلى انتفاضة ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩ الكبرى ، نجد ان المقاتلين ، رغم كونهم فلسطينيين كانوا فى معظمهم غرباء . وكان من الصعب عليهم الاختفاء بين السكان المحليين . وكانت هذه التجربة تجربة مريرة فالنشوة التى كانوا يشعرون بها عند عبورهم نهر الأردن كانت تخلى سبيلها فى نهاية المطاف للتفسخ فى الاغوار والمخابىء غير المرحبة فى تلال يهودا والسامرة .

وتتحمل فتح جانبا من اللوم ، ايضا ، لاساليبها المتسرعة والارتجالية فى التنظيم والتجنيد بلا تمييز وتدابير الأمن غير المدروسة . وتكلفت بالباقى فعالية اسرائيل وقسوة اجراءاتها الانتقامية ضد السكان المحليين . وقد قدرت فتح خسائرها بستة واربعين من بينهم ستة وعشرين ضابطا ــ من خيرة رجالها (٨) ، وذلك خلال الأشهر الثلاثة الأولى لجهودها الرامية الى اقامة « قاعدة آمنة » فى الأراضى المحتلة . وبحلول أوائل مارس ١٩٦٨ ، زعم الاسرائيليون انهم قد فوضوا آمال فتح فى تطوير حركة مقاومة «جادة» فقد ذكر الجنرال ديان انهم قتلوا تسعين فدائيا منذ حرب يونيو ، خمسين منهم فى الشهرين السابقين ، واسروا ألفا . بل أن عرفات نفسه ، الذى أوقظ من نومه فى بيت أحد المتعاطفين فى رام الله ، قد افلت بأعجوبة من القوات الاسرائيلية (٩) . وعبر نهر الأردن للمرة الأخيرة . وبعد أشهر قليلة فقط من قرار نقل مقر قيادة الفدائيين الى الأراضى المحتلة ، أعيدت هذه القيادة مرة أخرى ــ الى بلدة الكرامة فتح تحرز تقدما سياسيا .

لقد صمدت التغطية الرائعة لبلدة الكرامة لفترة ، فمن الذى كان يمكنه فى مواجهة المظهر الخارجي بقوة فتح المتزايدة بسرعة ، ان يولى كثير انتباه لـ « المرض الداخلى » الذى كان هذا النمو السريع نفسه سببا أساسيا فيه (١٠) واذا كانت خسائر الكرامة فادحة ، فقد تم تعويضها بمائة ضعف

قبل مرور وقت طويل (١١) لقد تدافع مجندون جدد الى معسكرات التدريب التي انتشرت فى المناطق الريفية الواقعة غربى عمان ؟ وتجاوبت التلال والوديان الوادعة مع أصداء طلقات المدافع التى لم تألفها من قبل . أما التدريب المتقدم والمتخصص فقد تقرر القيام به فى الجزائر ومصر والصين وفيتنام الشمالية . وتزايد حجم القوات المقاتلة التابعة لفتح . والتى كانت تتكون من حوالى ٣٠٠ مقاتل قبل الكرامة ــ والتابعة لمنظمات يسارية أقل قوة ، تزايد ليصل بعد ذلك بسنتين الى أكثر من ٣٠،٠٠٠ مقاتل . كما تشكلت الميليشيا الفلسطينية ، وهى تنظيم الدفاع الذاتى الأهلى ، التى أضيفت الى الفدائيين المتفرغين . وتشكلت فصائل الأشبال، المؤلفة من فتيان تتراوح أعمارهم بين العاشرة والخامسة عشر عاما ،والذين كان يجرى اعدادهم لكى يكونوا فدائيى المستقبل أما فيما يتعلق بالأموال والأسلحة ، فقد سجلت زيادة متفجرة قوامها ٣٠٠ فى المائة (١٢) .

وانبثقت الى الوجود سلسلة كاملة من الخدمات المساعدة ــ العيادات والمستشفيات والمدارس وملاجىء الأيتام لابناء « الشهداء » وانتقل موظفو الثورة المدنيون الى مكاتب فى الأحياء السكنية والتجارية المحترمة فى عمان وعواصم عربية أخرى . وازدانت حوائط بيوت أبناء الطبقة المتوسطة فى الأحياء المجاورة بملصقات وشعارات نضالية أما عربات الفدائيين ، المحملة بالرجال المسلحين الذين يضفون عليها مظهر الصرامة ، فقد أخذت تتدافع عبر الشوارع وبنفس الطريقة التى تتدافع بها التاكسيات وأدى الانبثاق المفاجىء من حالة المنسيين المضطهدين الى حالة المرموقين على صعيد عالمى الى توليد شبكة من ادارات العلاقات العامة المتخصصة فى نشر أدب المقاومة بلغات عديدة ، واستقبال واطلاع السياسيين والصحفيين الأجانب، ،الفضوليين والمتعاطفين وكان بوسع المرء أن يرى فى كافة الفنادق والمطاعم والحانات الكبرى الزبائن المعتادين من رجال الأعمال وعلية القوم، الا أنه كان يوجد بينهم عادة، ودون اختلاف ملموس عنهم فى أغلب الأحوال ، مجموعة من مسئولى المقاومة المستضيفين لزوارهم الأجانب (١٣) وكما تزايد حجم حركة الفدائيين وعدد منظماتها المتنافسة فيما بينها فقد تزايد أيضا عدد عملياتها . وقد قامت فتح بمعظمها ــ ٦١،٥ فى المائة فوفقا لتقديراتها ، تزايدت من مجرد ١٢ عمليةشهريا فى سنة ١٩٦٧ الى ٥٢ عملية فى سنة ١٩٦٨ ، و ١٩٩ عملية فى سنة ١٩٦٩ ، و ٢٧٩ عملية فى الأشهر الثمانية الأولى من سنة ١٩٧٠ (١٤). تطورت عمليات بث الالغام والتخريب ضيقة النطاق التى شهدتها الأيام القليلة التى سبقت سنة ١٩٦٧ لتتحول الى عمليات هادفة أكثر جسارة وأكثر طموحا ، تسنى لها القيام بها ــ تم الفشل فى الضفة الغربية ــ بفضل

القوة البشرية والموارد التى حازت عليها الحركة والتى اتسعت اتســاعا هائلا . لقد وضع الفدائيون القنابل فى الاسواق الكبرى فى القدس ومواقف الأتوبيسات فى تل أبيب . وقذفوا الصواريخ على كيريات شمونة فى الشمال وايلات فى الجنوب . وشنوا هجمات أمامية على المواقع الواقعة على الحدود، مســتهدفين العديد منها فى بعض الأحيــان فى آن واحــد ورفعوا العلم الفلسطينى لساعات رمزية قليلة على قطع من الأرض التى استولوا عليها .

وكان ذلك مزعجا بالنسبة للاسرائيليين . وقد قال موشيه ديان وزير الدفاع « اننى لم أستهن قط بهــذا الأمر منــذ البداية »(١٥) وكان ليفى اشكول رئيس الوزراء يعتقد ان الحملة ضد الفدائيين تعد من نواحى عديدة اكثر عنفا من حرب ١٩٦٧ . لكن الشىء الذى كان يستدعى القلق بالفعل هو الدلالات السياسية لظهور الفدائيين لا فعاليتهم العسكرية ، وان كانت هذه الدلالات نتيجة لهذه الفعالية فى جانب منها . فمن الناحية السياسية، واصل الفدائيون الاعتماد على ما حققوه فى الكرامة . و لا يعنى ذلك، بداهة، ان هدفهم النهائى ، وهو دولة فلسطين الديمقراطية ، فقد مثاليته التى كان يتميز بها حتى ذلك الحين . فعلى الصعيد الدولى ، كسبوا احتراما معينا بفضل ما أخذ الناس ينظرون اليه على أنه طرح أكثر تحضرا ، وان كان ما يزال غير واقعى بصورة تدعو للرثاء ، لقضيتهم . أما فى اسرائيل نفسها فان قلة فقط هى التى أبدت ميلا للعيش فى فلسطين الغد » التى كان يتحدث عنها عرفات .

ولم يكن ذلك غريبا بأية حال لأن اسرائيل بحكم تعريفها نفسه هى دولة لليهود ، وقــد عمل اليهود الصهيونيون على طرد العرب لكى يتمكنوا من خلقها فى البداية ولكى يتمكنوا من توطيد أركانها ، وهم يقومون الآن بتوسيع نطاق الأمر الواقع فى الأراضى المحتلة ومن البديهى أنه كان هناك «حمائم» من مختلف الاشكال . لكنهم كانوا مع ذلك صهيونيين ، وقد دعوا الى اعادة « للاراضى المحتلة — بل وليس كلها ، كما هو معتاد — فى مقابل اعتراف عربى بالدولة اليهودية بجميع خصائصها الصهيونية . وقــد أقر البعض بالحاجة الى وجود « كيان فلسطينى » معين . ودعا أكثرهم « حمائمية » كالنائب يورى افنيرى ، الى اتحاد فيدرالى بين دولة يهودية وأخرى عربية فى فلسطين . وكان هناك آخرون كافحوا الاحتلال اســتنادا الى مبررات اخلاقية وروحية أكثر من كونها سياسية . وقد توصل رجال مثل اسرائيل شاهاك ، وهو سجين سابق فى معسكر اعتقال نازى الى قناعة مؤداها ان اسرائيل تعتبر الآن دولة مضطهدة تنتهك ، فى معاملتها لعرب الأراضى المحتلة

واسرائيل الأصلية ، لا المعايير الدولية المتحضرة وحدها ، بل والتعاليم السامية لليهودية أيضا . وقد تصدى ، بوصفه رئيسا للرابطة الاسرائيلية من أجل الحقوق المدنية والانسانية ، وقلة من الذين يشاطرونه أفكاره ، تصدوا للاهانات والعداوة قوبلوا بها من جانب مواطنيهم وهم يحملون على الظلم الذى يقترف باسم اسرائيل . لكن المعادين السامرين للصهيونية وحدهم ، المعتقدين بهدف القضاء على الدولة اليهودية ، هم الذين يمكنهم تمثل تصور الفلسطينيين لما سيحل محلها، والحال ان المعادين للصهيونية، بوصفهم قوة سياسية منظمة ، كونوا حفنة ضئيلة ، مجرد مجموعة صغيرة كما يقول الفرنسيون ذلك ان « ما تزين » ، أو المنظمة الاشتراكية الاسرائيلية، كانت تقف عند الهامش المتطرف من الطيف السياسى الاسرائيلى ، متهمة بالخيانة حتى من جانب أولئك الذين كانت تصلهم بها ولو صلة قرابة واهية ، مثل افنيرى ان مناضلى ماتزين ، خلافا « حمائم » التقليديين، لم يقيموا تمييزا ارتجاليا بين اسرائيل الأصلية والأراضى المحتلة ، فقد كانوا يعتقدون أن ما هو خطأ فى الخليل أو نابلس لابد وأن يكون خطأ فى تل أبيب أيضا ، فالظلم الأصلى الذى اقترف فى سنة ١٩٤٨ وما قبلها ليس أقل أحقية فى التصحيح من ظلم اضافى أقترف فى سنة ١٩٦٧ ـ وما بعدها. ان تصفية الصهيونية وأقامة مجتمع يحيا فيه اليهود والعرب الذين تجب عودتهم معا دون تمييز هى وحدها ألتى يمكنها أن تجلب السلم الى الشرق الاوسط ولما كان مناضلو ماتزين ثوريين اشتراكيين ، فقد آمنوا بأن الاطاحة بالصهيونية ، بالنسبة للاسرائيليين ، يجب أن تكون لها الأولوية على النضال البروليتارى الكلاسيكى ، وينبغى للعرب واليهود ، داخل اسرائيل وخارجها ، أن يوحدوا قواهم لأجل تحقيق هذا الهدف . وقد أقروا بـ « حق وواجب كل شعب مغلوب ومضطهد فى مقاومة الاحتلال والنضال من أجل حريته .. أننا نعتقد أن مقاومة الاحتلال طبيعية ومشروعة .. أما فيما يتعلق بالوسائل المستخدمة فى النضال ـ حتى عندما لا توافق عليها ـ فهى لا تشكل المعيار الرئيسى الذى نحدد موقفنا تبعا له » (١٩) وقد أجرى قادة ماتزين ، الذين يقيم بعضهم فى المنفى ، اتصالات مباشرة مع الفدائيين. وحضروا مؤتمرات فلسطينية . وروجت مطبوعات المقاومة آراءهم فى العالم العربى . الا أنه حتى ماتزين لم تقطع شوطا طويلا بما يكفى بالنسبة للفلسطينيين ، الذين كانوا ميالين الى التردد ازاء اصرارها على أن يهود فلسطين ، شأنهم فى ذلك شأن العرب ، لهم كيان قومى لا يتعارض صونه ، ضمن اطار دولة مزدوجة القومية، مع أسترداد الحقوق العربية وقد أصرت

ماتزين على أنه « بالرغم من أن الأمة العبرية قد خلقتها الصهيونية ، فانها موجودة الآن فى فلسطين بكل ما تعنيه كلمة الأمة . وهى من هذه الناحية لها الحق فى تقرير مصيرها بنفسها ، لا بالمعنى الصهيونى بالتأكيد ، وانما ضمن اطار اتحاد فيدرالى اشتراكى للشرق الأوسط » (١٧) .

بيد أن الغالبية العظمى من الاسرائيليين وألفت على التشهير الرسمى بالفدائيين وبمنظمة تحرير فلسطين التى يتحركون تحت رعايتها بأنهم ليسوا أكثر من « عصابات ارهابية » و « قتلة » و « مخربين » اذ كيف يجدون الجرأة التى تسمح لهم بالاعلان عن رغبتهم فى تعايش سلمى فى « فلسطين الغد » مع ضحاياهم الحاليين ؟ ومن ثم ينبغى محاربة فكرة الدولة الديمقراطية ، أو حتى الفكرة المتعلقة بايجاد « كيان فلسطينى » معين ، بنفس القسوة التى يحارب بها الارهابيون أنفسهم . وقد تمت فلسفة هذا الرفض العاطفى للطموحات الفلسطينية من جانب الجنرال يهوشافاط هاركابى ، الرئيس السابق للمخابرات العسكرية ، الذى حاول اثبات ان الدولة الديمقراطية لا تعدو أن تكون حيلة دعائية تستهدف اضفاء مظهر الاحترام على نضال مازال « ابادبا » من حيث مقاصده . وقد ساعده فى ذلك الأدعاء الفلسطينيون انفسهم الذين ، كما يقر بذلك أحد منظريهم البارزين ، أتاحوا للصهيونيين « فرصة نادرة » للتشكيك فى صدق نواياهم ، ولتصوير الدولة الديمقراطية بوصفها مناورة تكتيكية أمسكتا بهم متلبسين بـ « قول كلام معين بالانجليزية وقول كلام آخر مخالف له بالعبرية » (١٨) . ونتيجة للنزاعات المذهبية حول الطبيعة المحددة لهذه الدولة ، خاصة علاقتها ببقية العالم العربى ، فقد عجز المجلس الوطنى الفلسطينى عن ادخال تعديل هام وعد بادخاله على الميثاق الوطنى الفلسطينى ، وهو تعديل كان من شأنه الموافقة على مذهب لتح القائل بأن جميع اليهود ، لا مجرد أولئك الذين وصلوا الى فلسطين قبل تاريخ معين (١٩١٧ أو ١٩٤٨) ، سوف يتمتعون بحق المواطنة الفلسطينية .

لكن الفلسطينيين ، رغم كل ما أصابهم من خيبة الأمل ، كانوا قد تمكنوا من اثبات وجودهم مرة والى الابد كقوة سياسية ، وكمدافعين عن قضيتهم الخاصة التى زادوا عنها ليس فقط فى مواجهة اسرائيل ، وانما أيضا فى مواجهة النظم العربية حيثما كانت الضرورة تفرض ذلك . وقد حولوا ادعاء جولدا مائير بأنهم غير موجودين الى محض كلام أجوف . وانتهى الى الابد اعتبار النزاع مجرد نزاع عربى اسرائيلى . فقد جرى الاعتراف بهم فى العالم الثالث بوصفهم حركة تحرر حقيقية أما الكتلة

السوفيتية ، التي كانت معارضة لهم في بداية الأمر على صعيد أيديولوجي، فقد احست في نهاية الأمر بأنها ملزمة ، لاسباب سياسية ، بمنحهم مشاعرها المتعاطفة وتمكنوا في الغرب من تحقيق تغلغلات متصلة وان كانت متواضعة، في رأي عام كان سيئا من قبل لاعتبار اسرائيل مخفرا أماميا للمدينة وحصنا للديمقراطية في الشرق الأوسط . وقد قال ياسر عرفات : « ان ما فعلناه ، هو اننا جعلنا العالم ... يدرك ان الفلسطيني لم يعد لاجئا يحمل هذا الرقم أو ذاك ، وانما هو فرد من أفراد شعب يمسك ناصية مصيره بيديه وان هذا الشعب قادر على تقرير مصيره . وطالما كان العالم ينظر الى الفلسطينيين بوصفهم ليسوا أكثر من شعب يقف في طابور للحصول على جرايات الأمم المتحدة ، فلم يكن من المحتمل أن يحترمهم . أما وانهم يحملون البنادق الآن فان الوضع قد تبدل (١٩) . لقد كانوا لا يملكون قوة كافية لفرض مشيئتهم على أحد . لكنهم كانوا يتمتعون بقوة اعتراض لها وزنها فكلما كانت تظهر أقل علامة على أن نظاما عربيا معينا على استعداد لفرض « تسوية استسلامية » معينة عليهم ، كانوا يردون معربين عن سخطهم بصورة صارخة . وكانت احدى بالونات الاختبار التي كانت تطلقها جهات غربية مختلفة بصورة منتظمة في ذلك الوقت تتمثل في الدعوة الى اقامة دويلة فلسطينية ، متعايشة مع اسرائيل . وكان اطلاق بالون الاختبار هذا في حد ذاته علامة مشجعة على نجاحهم ، لكنهم مع ذلك كانوا يسقطونه بصورة تثير المقت كذلك الفشل العسكري و « المرض الداخلي » .

ومن الناحية العسكرية ، لم يكن الفدائيون قط أكثر من مجرد شيء مثيرا للازعاج بشكل خطير ومن المؤكد أنه كان لعملياتهم أثر سلبي في مجالات عديدة . فقد مات بسببها جنود ومدنيون اسرائيليون . أما اجراءات التصدي للمقاومة فقد كانت تكلف اسرائيل الكثير من المال والقوة البشرية. وقد أصيب بالذعر أقل الناس رغبة في المغامرة كالراغبين في الهجرة والسياح والحجاج . بيد أن « حرب التحرير الشعبية » لا يمكنها أن تقف في مكانها اذ لابد من تصعيدها . ولم يكن بوسع فتح تحقيق ذلك ، لأبعد من مستوى منخفض نوعا ما والواقع ان الفدائيين كانوا يمرون فعلا بمرحلة افول ، وهم في ذروة نجاحهم .

وقد حاولوا ، عن وعي أو عن غير وعي ، اخفاء هذه الحقيقة عن العالم وعن أنفسهم . صحيح ان عدد العمليات قد ازداد لكن النجاح الاسرائيلي المصاحب لهذا الازدياد في دفع الفدائيين في اتجاه الشرق بصورة أبعد قد أبطل مفعول هذا الازدياد بما لا مزيد عليه لأن الازدياد لم يحدث في العمليات

المنفذة داخل اسرائيل الأصلية ، ولا حتى فى الاراضى المحتلة . لقد حدث فيما يصعب وصفه بحرب عصابات بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة ، على الاطلاق — اذ حدث فى القنص والقصف عبر خطوط وقف اطلاق النار ، وبعيدا فى وادى الأردن على وجه الخصوص . وقد ذكرت وكالة أبناء عربية ان ١ر٢ فى المائة فقط من العمليات تحدث فى اسرائيل الأصلية (بالاستثناء الجليل الأعلى) و ٤ر٣ فى المائة فى الجليل الأعلى ، و ٥ر٣ فى المائة فى الضفة الغربية ، و ٧ فى المائة فى صحراء النقب و٧ فى المائة فى مرتفعات الجولان ، و ١٠ فى المائة فى غزة — بالمقارنة مع ٦٧ فى المائة كاملة فى وادى الأردن (٢١) ان المعيار الرئيسى للفعالية العسكرية هو الخسائر ، وتعتبر أرقام الاسرائيليين مشوشة ومتناقضة بصورة صارخة (٢١) . الا أنه اذا كانوا قد هونوا من حجم خسائرهم الناجمة عن عمل الفدائيين — وهم لم يعترفوا قط بمصرع أكثر من مائة فى السنة — فان هذا التهوين لم يكن صارخا بالدرجة التى كانت عليها مبالغة الفدائيين فيها فالواقع ان خسائر اسرائيل على جميع الجهات ، ناهيك عن الخسائر الناجمة عن عمل الفدائيين ، كما أشار الى ذلك فيما بعد باحث فلسطينى، لم تقترب قط من « المستوى الحرج » الذى كان يمكن أن يدفعها الى حرب شاملة . ومع ذلك فلم يكن من الأمور النادرة أن تعلن فتح أنها قد تمكنت،

فى عملية واحدة ، من قتل واصابة خمسين أو ستين أو حتى سبعين من جنود العدو دون أن تلحق بجنودها هى سوى أتفه الخسائر . وكان الاسرائيليون يهزأون بهذه الادعاءات بوصفها « خيالات شرقية » (٢٢) . ومن الواضح أن روح الشقيرى تلك الركيزة الحقيرة لماضى كان من المتصور أن الفلسطينيين قد نبذوه ، كانت ما تزال بعيدة عن المدن . وكانوا يكشفون أحيانا مبالغتهم بمحاولة اثباتها . ففى احدى المناسبات ، عرضت فتح ، اصرارا منها على أنها قد أسقطت ست طائرات حربية اسرائيلية فوق الأردن ، عرضت بضع كتل ضخمة محطمة من آلات معينة على أنها تمثل الدليل على ما حدث » . وتكرر ادعاء منظمات متنافسة مسئوليتها عن عملية واحدة واذا ما اتفق وحدث شىء عادى أو عرضى تماما — مثل النوبة القلبية المميتة التى أصيب بها ليفى أشكول رئيس الوزراء أو اصابة موشيه ديان جرح عند تنقيبه عن أحد الآثار — فقد كانوا يندفعون مدلين بمزاعم سخيفة يقولون فيها ان الذراع الطويلة للثورة الفلسطينية قادرة على أن تصل الى كل شىء . وكما لو أن مزاعمهم لم تكن مفرطة بما يكفى ، فان رجال الدعاية العرب ، الذين كانوا يسخرون من الفدائيين ، قبل حرب

يونيو ، قد اخذوا في تعديل موقفهم واللجوء الي التمجيد التام واثارة الآمال العريضة . وقد أدى ذلك الى اصابة بعض المتعاطفين معهم بالهلع ؟؟

« انني خائف على الثورة الفلسطينية ، وأنا لست خائفا من أعدائها بل من بعض أصدقائها المخلصين « الدرب الصحيح » والمتعلقين بالثورات في العالم العربي .. لكن الدرب طويل ، وهو ليس مفروشا بالانتصارات كما يتخيل مغاوير الثورة . إن صورة الفدائي المدرب على عبور خطوط العدو لا تعني أنه قد عبر فعلا ذلك الخط ووصل الى حيفا انه يعني فقط ان عربيا جديدا قد ولد وان أخاه ـ اذا ما قضى نحبه ـ لابد وأن يلحق به الى قافلة الفدائيين وربما الى قبر الشهداء ـ الى أن يتمكن احدهم ، بعد عبوره خط العدو ، من الوصول فعلا الى حيفا والي عسقلان أجرى » (٢٣) .

لقد كانت المبالغة ، ومنذ البداية ، كما اشرنا أحد أعراض « المرض الداخلي » لحركة المقاومة وقد تمثل عرض آخر ، ولدته جزئيا تلك الهوة المحرجة بين الأداء الفعلي والأداء المزعوم في ظهور استعداد متزايد أسياء الى سمعة المبدأ الأخلاقي الذي أعلنوا أنهم يناضلون التزاما به . ففي بيانها الصادر في أول يناير ١٩٦٥ ، والذي أعلنت فيه اتمام عملياتها الأولى ، حذرت فتح العدو من الثأر من « المدنيين العرب المسالمين » . وفيما بعد ، اكدت فتح بصورة منتظمة أن الجيش و « المؤسسات الصهيونية » هي هدفها ، لا المدنيين ، خاصة النساء والأطفال ، « وإنما هاجمتهم بالفعل يكون ذلك أساسا ردا على هجمات اسرائيلية على المدنيين العرب وكانت تقوم بذلك على أساس انتقامي » ، كلما يتم اختيار هدف مدني ، تبذل كل الجهود من أجل تقليل الخسائر في أرواح المدنيين الى ادنى حد ممكن وإن كان من الصعب التمييز بين المدنيين وغير المدنيين في هذا المجتمع الإسبرطي الحديث الذي يجند فيه كل بالغ من أجل الحرب . ان ضرب المناطق شبه المدنية يهدف الى احداث الأثر النفسي الذي يتمثل في اصابة الاسرائيليين بالصدمة التي تجعلهم يدركون ان الدولة العنصرية ـ العسكرية لا يمكن أن توفر لهم الأمن بينما هي تخوض حرب ابادة ضد الجماهير الفلسطينية المنفية والمضطهدة » (٢٤) . ولكن هذا المبدأ لم ينفذ بدقة . صحيح ان الاسرائيليين ، بفضل مواردهم الاكبر ، قد قتلوا من المدنيين العرب عددا أكبر من عدد المدنيين الاسرائيليين الذين قتلوا على أيدي الفدائيين . وان هذه الحقيقة قد قدمت مبررا لما فعلوه . الا انه لا يخامرنا شك كبير في أنه ، حتى دون هذا المبرر فان عدم فعالية الملاحقة اليومية للجنود الاسرائيليين ، والشهرة

الباهتة التي جلبتها ، كانت تدفع فتح الي الارهاب المباشر الذى كان يهدف، من خلال تكتيكات الاصابة بالصدمات ، الى تحقيق أقصى حد من الأثر بأدني حد من الموارد . وبالاضافة الي ذلك ، فان المبدأ رغم الاعلان النبيل عنه ، لم يكن متأصلا بعمق في الممارسة اليومية الحية . وعلى سبيل المثال، فان فكرة الثأر العنيفة المنبوذة علي الصعيد الرسمي قد أخذت فيما يبدو تحظى بالتأييد فى يناير ١٩٦٨ من حيث كونها حافزا لقتل المدنيين وذلك فى مجلة « فلسطين الثورة » الشهرية المتحدثة بلسان فتح ، عندما روت ما قاله فدائى اسير مسئول عن مصرع طفل عمره ثلاث سنوات أمام محكمة اسرائيلية فقد قال شارحا ان الأوامر التي صدرت اليه تتمثل فى الانخراط فى صفوف داوريات تخريب كل ما تصل اليه يداه . وعندما سئل عما اذا كان ذلك يعنى قتل الأطفال أيضا ، أجاب بقوله : « نعم ، تدمير كل شيء ، فنحن لم ننس دير ياسين (٣٥) » . وبعد ذلك ببضعة أشهر استبعد مقال فى « فلسطين الثورة » الحاجة الى التمييز الدقيق عند اختيار الأهداف :

« اذا كان العمل العسكري في حروب العصابات المعروفة قد تركز على القوات المسلحة للعدو واستبعد الشعب الذي كانت الثورة تريد كسبه الى صفها فان الثورة الفلسطينية لا تقرهـذا التمييز بين قوات العدو المسلحة والشعب نظرا لطبيعة المجتمع الصهيوني فالمجتمع الصهيوني الاستيطاني مجتمع عسكري من قمة رأسه الي اخمص قدميه ولا يمكن ان يكون هناك تمييز بين العسكريين والمدنيين (٣٦) » . لقد كانت الغالبية العظمى من عمليات الفدائيين موجهة ضد العسكريين الأصليين ، الا انه عندما كان المدنيون يقتلون كانت البيانات المعلنة عن العمليات تتضمن عبارات أسف قليلة عن هذا الاضطرار المؤسف الى خطف الطائرات من جانب الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين .

حاولت فتح على الأقل قصر النضال الفلسطينى على أرض فلسطين نفسها أما الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، منافستها اليسارية ، فانها لم تحاول ذلك فالدكتور جورج حبشي ، الذى كان فى السابق خصما للنشاط الفدائى قد أصبح الآن أكثر المارسين تطرفا لقد تصور أيديولوجيو الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين أنفسهم فى طليعة نضال عالمى بين القوتين العظميين لعصرنا . وقد اعتبروا ان العدو فى شكل الصهيونيين والامبرياليين والرجعيين المحليين — واحد وكلى الوجود . ومن ثم فان أى شيء تقريبا يعد هدفا مناسبا فمن المشروع لا اختطاف طائرة مدنية اسرائيلية وحسب،

وانما اختطاف طائرات مدنية أمريكية وبريطانية بل وسويسرية أيضـــا .
وانها لمساهمة فى القضية ان يتم نسف خط أنابيب ينقل البترول العربى ــ الذى ســاعدت الدخول التى تتحقق عن طريقه فى تمويل المجهــود الحربى العربى ــ لان البترول تستخرجه شركة أميريكية ، هى شركة ارامكو ، باسم ملكية عربية « اقطاعية » « هى ملكية آل سعود اما وضع القنابل الحارقة فى محلات ماركس اندسبنسر ، وهى مؤسسة تجارية بريطانية وواحدة من جامعى التبرعات لاسرائيل فهو ينسجم دون مشقة مع نفس هذا التصور المادى للامور أما فيما يتعلق بالأخلاقيــات مثل خطف الطائرات ، والتهمة الموجهة الى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بأنها تهدد أرواح مدنيين غير اسرائيليين أبرياء فقد كانت الجبهة ترد عليها ردا سريعــا : لا تلقوا اللوم علينا وجهوا اللوم الى الطاقم الاسرائيلى الذى يحاول احباط الشكل المشروع الذى تتخذه فى الحرب وعندما سئلت ليلى خالد ، أشهر ارهابيى الجو فى العالم ، فى مؤتمر صحفى عن النصيحة التى يمكن أن توجهها لطيــار عربى يواجه بمختطفين اسرائيليين ، كان جوابها الوحيد ابتسامة صــارمة وقد بررت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين اطلاق النار على طائرة اسرائيلية فى مطار اثينا ــ ومصرع واصابة شخصين على متنها ــ بأن شركة العال جزء لا يتجزأ من جهاز الحرب لدى العدو وعندما رد الاسرائيليون بنسف ثلاث عشر طائرة فى مطار بيروت دون أن يقتلوا أحـــد وصفت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين هذا العمل بأنه « عدوان بربرى » وقرصــنة خسيســة لا تستند الى أى مبدأ كما ان الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين لم تعد أذنا صاغية لتحذيرات فتح حول الأخطار الواضحة التى تتعرض لهـــا حركة الفـدائيين كلهـــا من جراء خلق أعداء دون مبرر خاصــــة بين العرب ، ومما لاشك فيه ان « العمليــــات الخارجية » كتلك التى بادر بها جورج حبش ، قد جلبت بالفعل الشهرة للقضية الفلسطينية ، وكان أشد ذلك اغراض ذلك الهدف ، الكامن وراء ستار الايديولوجية هو :

« عندما تختطف طائرة، يكون أثرها أكبر مما لو قتلنا مائة اسرائيلى فى ساحة القتال . ولم يكن الرأى العام العـــالمى لعشرات السنين بمؤيد أو بمعارض للفسطينيين . فقد كان يتجاهلنا فقط أما الآن فان العالم يتحدث عنا على الأقل (٣٧) . وعلى أية حال ، ربما كان الدافع الرئيسى الى اللجوء الى شــكل الارهاب الذى لم تكن فتح توافق عليه هو الضعف العســكرى للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والذى دفعها ، بصــورة طبيعية ، الى

سلسلة من الأعمال المثيرة ، الجسورة رغم سهولتها من حيث جوهر الأمر، بعيدا كل البعد عن ساحة القتال الحقيقية .

كان «الضعف الداخلي» أكثر من مجرد مرض عسكرى لقد كان تنظيميا وسياسيا . وكانت بعض أعراضه غير ظاهرة نسبيا ، واضحة للمنخرطين فى الحركة وحدهم ويذكر احدهم أن ارتجالية الحركة ، من الناحية النظرية والعملية على السواء : « .. تفوق كل تصور ، فمن نظرة سريعة الى محاضرة اجتماعات اللجنة المركزية لمنظمة تحرير فلسطين ، مثلا بكل ما فيها من تشوش ذهنى وتكرار وصدامات وتناقضات ، يجد المرء أن من الصعب تصور انها صادرة عن منظمة مشتركة لها هدف مشترك ، ولم يكن ثمة أى شيء منسجم أو بناء فى عملية اتخاذ القرار ونادرا ما كان القرار الصادر اضافة أو استكمالا لقرار سابق ، وكانت كل جلسة تبدأ من لا شيء (٣٨) » .

وكانت هناك أعراض أخرى واضحة للجميع . لقد كان ظهور الفدائيين عملا من أعمال تأكيد الذات الفلسطينية ، فى مواجهة العرب والاسرائيليين على حد سواء ، الا أنه من سخريات القدر ، ان الحركة كانت لا تكادتتخلص من شكل معين من أشكال « الوصاية » العربية حتى يحل محله شكل آخر . فبدلا من معارضة العمل الفدائى برمته ، أخذت النظم فى منافسة احدها الآخر فى تأييد هائل . ولما كانت غير قانعة بتوددها الى فتح المهيمنة ، أو الى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين المنافسة لها ، فقد أخذت فى تفريخ منظمات جديدة كاملة خاصة بها . وكان للبعثيين السوريين منظمة تتمتع بالحماية خاصة بهم — طلائع حرب التحرير الشعبية (الصاعقة) — وهكذا كان من الطبيعى أن يضطر البعثيون العراقيون ، منافسوهم العنيدون ، الى خلق منظمة تتمتع بالحماية خاصة بهم هم أيضا — جبهة التحرير العربية ؛ ورغم ان كلا من المنظمتين كانت حريصة على الشكليات فيمايتعلق بالمبرر الايديولوجى لوجودها فانها لم تكن فى الواقع أكثر من امتداد ، فى شكل فلسطينى خارجى للنظامين اللذين بادرا بخلقهما . لقد كانت السياسات الفلسطينية عالما عربيا مصغرا ، أكثر ديمقراطية بكثير ، دون شك ، لكنه مصاب بنفس الانقسامات والاندماجات والتحالفات سريعة التبدل . ولا غرابة فى أن عرفات قد اضطر الى الجهر بأنه ، رغم عدم وجود خلافات ايديولوجية حقيقية « فاننى أشعر بان صعوبات العمل من أجل الوحدة الكاملة أشق من النضال نفسه » (٣٩) .

وكان ذلك عامل ضعف خطير للحركة ككل رغم ما بذلته فتح من

مساع دؤوبة من أجل الحفاظ على استقلالها . لقد كان ابتذالا لتلك « الجبهة العربية المساندة » التلقائية ، ذات الأساس الشعبي ـ التي تعتبر بمثابة بلاء للحكومات المنحرفة . التي كانت تحلم بها . لقد فشل الفدائيون ، رغم كل ما حظوا به من شعبية في بادئ الأمر ، فشلوا في ترجمتها الى المساندة المنظمة ، القادرة وحدها فى النهاية ، على حمايتها من الدسائس الرسمية . والواقع انهم حتى فى أكثر البيئات تعاطفا معهم ، شرقى الأردن ، حيث كان نصف السكان فلسطينيين ، قد بدأوا يخسرون التأييد بدلا من أن يكسبوه وكانت الدولة التى أقاموها داخل الدولة التي تتزايد قوة من حيث مظهرها الخارجى ، آخذة فى الواقع في التآكل من الداخل . فما هو السبب فى أن عديدا من القرى الأردنية ، التى ربما كانت فى يوم من الأيام تقدم الغذاء وحسن الضيافة للفدائيين المجاورين دون أن يطلب اليها ذلك سوف تأخذ الآن فى اطلاق النيران عليهم اذا حاولوا الدخول اليها وكيف ساءت الأمور في لبنان الي الحد الذى جعل الناصريين فى صيدا ينخرطون فى حرب شعواء ضد الفدائيين القادمين من أحد مخيمات اللاجئين المجاورة أو الي الحد الذي جعل قرية كحالة المسيحية ، التى حيث فى ١٩٦٨ أول « شهيد » لبناني بذلك الاجلال الرائع ، تنصب كمينا مميتا لموكب جنائزى فلسطينى ؟ لقد كانت أسباب الاغتراب عديدة . وكان أحد الأسباب الواضحة وضوحا مباشرا هو العناصر الهامشية المتصعلكة من الفدائيين المزيفين والتى كان الناس ينظرون اليها علي انها ممثلة لكل الفدائيين وكان سبب آخر يتمثل في الاساءة الى احترام النظامية لنفسها . وكانت هذه مشكلات اعترف بها دائما القادة الأكثر شعورا بالمسئولية خاصة فى فتح ، لكنها لم تكن تصحح الا بهمة فاترة ـ الا أنه كانت هناك مشكلات أخرى ، أكثر تعقيدا بكثير ، نابعة من طبيعة البيئة العربية بوجه عام ذلك ان فتح رغم محاولاتها الشاقة المتكررة لكسب ود السكان المحليين قد سقطت فى المصيدة بصورة معينة ، بينما سقط فيها منافسوها اليساريون بصورة أخرى . فبالنسبة لفتح ، كانت البراجماتية السياسية التي تخدم النضال العسكري هي مصدر الفعالية الأسمى ، وكانت تميل الى الاعتقاد بأن السلوك الحسن البسيط وتوزيع الهبات ـ كمزيد من البنادق للقبائل ـ سوف يكون كافيا . لكن كل ما كان على الحكومة الأردنية ، الأكثر تمرسا بهذه الممارسات التى اكتسبت احتراما على مر الأزمنة ، أن تفعله هو مواجهة ذلك بما هو أكثر وأحسن منه . ومن ناحية أخرى كان من الطبيعى

أن ينظر اليساريون الى دورهم بوصفه دورا تربويا ، تحريرا . لكنهم كانوا يبالغون فى ذلك مبالغات حمقاء . فالجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين التى يتزعمها نايف حواتمة ، مخمورة بأصالتها الخاصية ، قد أساءت اساءة شديدة الى القدسيتين التقليديتين للمجتمع العربى : الدين وشرف المرأة لقد فعلت الجبهة ما فعلته على نطاق ضيق جدا لكن أخبار زيارات الفدائيين الليلية لخيام الفدائيات واذاعة شعارات ماركسية من مئذنة أحد المساجد احتفالا بالذكرى المئوية لمولد لينين كانت من النوع الذى يمكن للنظام الهاشمى أن يستغله استغلالا تاما ، وقد استغله بالفعل . ولم يكن الأمر بحاجة الى جهد كبير حتى يشعر فلاحو وقبائل الأردن بالصدمة لكنهم تعلموا ، أو بعضهم ، بمساعدة امداد مذهبى محسوب ، أن يكرهوا الفدائيين ، بوصفهم مجدفين ومنحلين (٣٠) ولم يكن « المرض الداخلى » هو السبب الوحيد فى نقائص الفدائيين العسكرية . فقد كانت هناك أسباب خارجية أيضا . ولم يكن أقلها القبضة المستمرة وكفاءة العدو . لقد استوعب الاسرائيليون درس الكرامة فمنذ تلك اللحظة فصاعدا أخذوا يستخدمون تفوقهم الجوى الكامل فى سحق لا يرحم — هم وجمهور عظيم من المدنيين فى معاقلهم فى شرق الأردن . فقد اشتكوا مر الشكوى من غياب الدفاعات العربية المضادة للطائرات . وقد أقام الاسرائيليون فى الوقت نفسه حول حدودهم الجديدة حزاما صحيحا حديثا ومعقدا بصورة رهيبة من حقول الألغام وأجهزة الكشف الالكترونية ودوريات سريعة الحركة . وقد أعلنوا فى فترة مبكرة ، فى مارس ١٩٦٨ انهم تمكنوا من أسر وقتل خمسة وثلاثين فدائيا من بين خمسين كانوا قد عبروا نهر الأردن فى الأيام العشرة السابقة (٣١) وكان ذلك مجرد بداية . كما كانت هناك عقبات أخرى أيضا لا مهرب منها ، لقد كان الفلسطينيون متأثرين تأثرا عظيما بالنضال الجزائرى ضد الفرنسيين — الا أنه اذا كان الدافع واحدا ، فان الظروف الجغرافية والسكانية لم تكن كذلك . ففلسطين خلافا للجزائر ، لم تكن بلدا صالحا للنشاط الفدائى . وعلاوة على ذلك ، فان السكان الأصليين فى الجزائر ، لم يكونوا متفوقين بكثير على المستوطنين من الناحية العددية وحسب وانما كانوا أيضا يعيشون كلهم بين ظهرانيهم ، أما فى فلسطين ، على النقيض من ذلك فان الاسرائيليين لا يتفوقون على العرب من الناحية العددية وحسب وانما يحيون ، فى غالبيتهم ، فى مناطقهم الخاصة المنعزلة التى يسهل حمايتها — الا أنه لولا « المرض الداخلى ، لكان من المحتمل أن تتغلب حركة المقاومة على المشكلات الخارجية — أو أن تتجنب على الأقل كارثة « أيلول الأسود » عام ١٩٧٠ ،

الحرب الاهلية فى الاردن :

هناك رواية تقول ان الملك حسين ، عند تفقده لفوج دبابات فى أوائل سبتمبر ١٩٧٠ قد اكتشف خرقة غريبة الشكل ، متدلية من هوائى جهاز راديو . وكانت هذه الخرقه عبارة عن قطعة من الملابس الداخلية لامرأة وكان جنوده البدويون الموالون له يهدفون من وراء ذلك الى القول بأنه لم يعد بوسعهم الاستمرار فى التصرف « مثل النساء » فقد اضطروا الى تحمل ما فيه الكفاية من هؤلاء المناضلين المزعومين من أجل الحرية الذين، بدلا من « تحرير فلسطين » يختالون زهوا عبر شوارع العاصمة الملكية أو ما اختاروا تسميته « هانوى العربية » والذين يعبرون علانية ، من خلال ادخال بعض التغييرات على شعار «كل السلطة للشعب الباشيفى»، عن تطلعهم الى احلال نظامهم الثورى الخاص محل المملكة الهاشمية . وكان صبر الملك هو الآخر ، قد أخذ فى النفاذ . ولم يكن الأمر بحاجة الا الى استعراض القوة الكبيرة الاخيرة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، والذى تمثل فى عمليات اختطاف مضاعفة ، حتى ينفذ عن آخره . لقد فشلت ليلى خالد ، فى ثانى مغامرة لها من هذا النوع ، فى السيطرة على طائرة اسرائيلية ، وقد تم أسرها فى مطار لندن . بيد أن مشهد الطائرات الثلاث الأخرى — الامريكية والبريطانية والسويسرية — التى أجبرت على الهبوط فى القفار الصحراوية لشرقى الاردن ، وتهديدا بأن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بنسفها بكل من عليها ما لم يتم الافراج عن ليلى ورفاق آخرين ، ومنظر الجمال الهائمة على وجوهها ، والمفاوضات الدولية المحمومة التى دارت وسط المواعيد المتغيرة التى تحدد كموعد أخير يتم عنده عملية الإفراج النهائى للطائرة الذى تم فى مشهد احتفالى — كل ذلك بمثابة دراما غريبة الأطوار وأخاذه بما يكفى .

لكن دراما أضخم منها قد تفوقت عليها عندما قام الملك حسين ، فى ١٧ سبتمبر بعد تردد طويل واعداد طويل أيضا — باطلاق العنان لمواطنين من البدو الذين نفذ صبرهم . وقد تمكنوا فى غضون عشرة أيام من الصراع بين الأشقاء من قصم ظهر قوة الفدائيين فى الأردن . وفى ساعة حاجتهم الماسة ، تعرض الفدائيين للخيانة من جانب الجبهة التى كانت تعلن بصوت اعلى من الآخرين تضامنها معهم : فقد تركتهم القوات العراقية فى الأردن يحاربون بمفردهم أمام النظام السورى فقد أرسل قوات مدرعة من جيش التحرير الفلسطينى لمساعدتهم لكن الفريق حافظ الأسد ،

وزير الدفاع والذى صار فيما بعد رئيسا للجمهورية قد رفض تقديم غطاء جوى لها خوفا منه من تدخل اسرائيلى أو أمريكى ، قد رفض تقديم غطاء ومن ثم فقد هزمت هذه القوات . وخلافات لآمال الفدائيين فان الجيش الأردنى ، رغم غلبة العنصر الفلسطينى فيه ، لم يتفكك فى عملية تنازع للولاءات وفى غضون سنة من كارثة « أيلول الأسود » كما أسماها الفدائيون تم طردهم من الأردن كله وقد قام رئيس الوزراء وصفى التل، وهو نفس الرجل الذى كان قد حث الملك ، قبل ذلك بثلاثة أعوام على تحويل مملكته الى « قرطاجة » معاصرة ، قام بتنفيذ الهجوم الأخير الذى لا يرحم ضد قواعدهم الأخيرة فى شمالى البلاد . وكان هذا الهجوم وحشيا بدرجة جعلت عشرات الفدائيين ، عندما بلغ بهم الارهاق الشديد واليأس منتهاه يعبرون نهر الأردن موثرين ذلك على السقوط فى أيدى قوات الملك المدفوعة بشهوة الانتقام . وقد ذكر أحدهم لسرية الاسرائيليين المتهللين من شدة البهجة : « انى مستعد للانخراط فى صفوف الجيش الاسرائيلى والقتال ضد الأردن وسوريا لأنهما أشرس عدوين للفلسطينيين » . وهكذا خسر عرفات أهم قاعدة سياسية وعسكرية له . لقد كان الجيش العربى وليس الاسرائيليين ، هو الذى أعلن ، فى سنة ١٩٦٥ مصرع أول — « شهيد » فلسطينى . ومما له دلالته ان هذا الجيش نفسه هو الذى وجه للآن لحركة المقاومة كلها أقسى ضربة فى تاريخها . وكان ذلك بالنسبة لعرفات ، هو الخيانة النهائية ،من جانب العرب ، لأقدس قضاياهم ، ولم يكن الأردن غير رأس حربة «لمؤامرة عربية» (٢٢) مؤامرة لن يكشف أبعادها الكاملة والمذهلة والغادرة سوى المستقبل .

ايلول الأسود

لقد دخلت الحرب الأهلية الاردنيـة مرحلة جديدة تماما من العنف الفلسطينى الارهابى المحض وكان وصفى التل أول ضحاياه . ففى ٢٨ نوفمبر ١٩٧١ ، اغتاله أربعة شبان باطلاق النار عليه عند مدخل فندق شيراتون فى القاهرة ، حيث كانوا ينتمون لشىء يسمى نفسه بمنظمة أيلول الأسود ، وقد تصرفوا كذلك بناء على مبادرتهم الخاصة الى حد بعيد . فقد قال أحدهم انه باع سيارته ليجمع نقودا للعملية وقال آخر انه دفع ٣٠٠ جنيه لبنانى مقابل سفره السورى المزور . لقد جمعتهم رغبة مشتركة فى الثأر . فقد ذكر أحدهم أنه رأى جنود الملك حسين البدويين يغتصبون أخته ويقطعون حلقوم طفلها وكانت جثة على أبو اياد ، أحد قادة فتح العسكريين قد سحلت — أو هكذا يعتقد الفلسطينيون —

خلف دبابات سنتوريون تعبيرا عن الانتصار . ولم يبذل المقاتلون الأربعة أية محاولة لمقاومة القبض عليهم .

وبينما كان الأسى والغضب يجتاحان الاردن ، أو يجتاحان بالأحرى النصف الأردني الشرقي الموالي للحكم من السكان وبينما كان الملوك والرؤساء العرب يبعثون برسائل العزاء الواجبة ، فان الجماهير الفلسطينية لم تخف مشاعرها في تلك الأماكن — الموجودة خارج الأردن — حيث كان بوسعهم التعبير عنها بحرية ؛ ففي لبنان رددت مخيمات اللاجئين أصداء طلقات الرصاص المعبرة عن الفرح . وفي اليوم نفسه ، ناشد اتحاد الطلبة الفلسطينيين ، ومنظمات شعبية أخرى ، الرئيس السادات الافراج عن الرجال الأربعة « لأنهم كانوا يؤدون واجبهم القومي » وبعد ذلك بثلاثة أيام ، قالت « صوت العاصفة » لسان خال فتح ، ان « الأبطال الأربعة الذين نفذوا حكم الشعب الفلسطيني في وصفي التل هم أبناء للشعب الفلسطيني ويمثلون ارادة الثورة الفلسطينية » ، وقد شاطر عرب كثيرون الفلسطينيين مشاعرهم وتطوع عشرات المحامين للدفاع عن المقاتلين عند محاكمتهم . لكنهم لم يحاكموا قط فقد أفرجت عنهم محكمة أمن الدولة في القاهرة بكفالة : اذ استشهد محام بارز بتقارير فحص للمسدسات ليثبت أن رجلا خامسا ، أفلت من القبض عليه ، هو الذى أطلق فعلا الرصاصة القاتلة ، وأضاف انه « حتى لو كانوا مسئولين فان عملهم ليس جريمة بل عملية فدائية . لقد كان الأربعة في حالة دفاع مشروع عن أنفسهم وعن وطنهم » (٢٣) وقد غادروا مصر في نهاية الأمر دون عقاب .

ان أيلول الأسود خلافا لفتح قد احتمت بسرية من نوع متطرف وتآمري لكن الاردنيين سارعوا بشجبها بوصفها مجرد ذراع سرى لفتح ومما لاشك فيه ان فتح منذ البداية كانت متورطة تورطا عميقا في العنف من الحديث أما اكتشاف المسئول الخفى الفعلى ، من بين قادتها الذى يقف وراءها فقد أصبح بمثابة لعبة تكهنات عقيمة انخرطت فيها الصحافة العالمية وأجهزة المخابرات وطبيعي ان فتح ، أو أولئك الذين لهم علاقة بالموضوع من بين قادتها لم يكن بوسعها الاعتراف بوجود صلة لها مع أيلول الأسود فذلك من شأنه أن يخلق تعارضا مع سياستها الرسمية . فقد عارضت دوما نمط « العمليات الخارجية » التى كانت الجبهة الشعبية قد بادرت بها . وكانت عماد منظمة تحرير فلسطين ، التى كان عليها ، طموحا منها الى أن تكون ممثل الشعب الفلسطيني المعترف به على الصعيد الدولى ،

ان تحتفظ بمظهر خارجي لائق . كما لم يكن بوسعها احراج الحكومات العربية والحكومات الأخرى التي كانت بحاجة الى صداقتها . ومن ناحية اخرى ، لم يكن بوسعها ان تخنق الحافز الذي مثلته أيلول الأسود بأكثر مما كان بوسع الوكالة اليهودية والهاجانه فى الأربعينيات ، وقف متطرفيها . وقد شبههم بعض العرب بهؤلاء المتطرفين . فقد علقت صحيفة لوريون لوجود البيروتيه اليومية قائلة : « ان الفلسطينيين فى نضالهم ضد الاستعمار الصهيونى ، قد احتاجوا الى ٢٧ عاما حتى يتمكنوا من الاقتراب من أساليب الأرجون وشتيرون : فهل يسعنا لومهم لسعيهم الى الانتقام لدير ياسين ؟ (٣٤) وكان الشعور هو أن سبعة وعشرين عاما من الزمن تعد فترة طويلة وقد كتب باحث فلسطينى فقال ان أغلب الأجانب المطلعين على القضية قد اعتادوا الاعراب عن دهشتهم ــ بعضهم من باب الثناء وبعضهم الآخر من باب التأنيب ــ ازاء الغياب النسبى لهذا النوع من العنف » (٣٥) .

وكان التعريف الكلاسيكى لايلول الأسود ، فى ذلك الوقت ، انها حالة ذهنية أكثر من كونها منظمة « فليس بمقدورة أحد تحديدها بدقة أو ملاحقتها أو سحقها . انها لا تملك اسما ولا علما ولا شعارات ولا مقر قيادة أو قاعدة انها لا تحتاج ألا الى رجال يملكون الاصرار على النضال والنجاح والخسارة أمام الموت » (٣٦) هكذا وصفها شاب متحمس . ورغم كونها ذراعا لفتح ، فقد كانت فى الوقت نفسه ظاهرة لها جذورها ، عفوية ، وتعمل ذاتيا لقد كانت رد فعل شعبى على أخطاء القيادة الفدائية الرسمية ونفوذها الآدبى الآخذ فى التدهور . كانت تعويضا عن الهبوط الذى حدث ــ من حوالى ٣٠٠ شهر قبل الحرب الأهلية الاردنية الى حوالى خمسين بعدها (٣٧) فى عدد العمليات الفدائية التقليدية وكانت فوق كل شىء نتيجة لاحباط ويأس بالغين لاحساس بانه عن طريق اصابة العالم بالصدمات يمكن ان تتاح للفلسطينيين الفرصة لتصحيح الظلم الذى اقترف فى حقهم ، أو اعتباره ظلما على الاقل وكانت أيلول الأسود تطلب من اتباعها الاستعداد لمجازفات أنتحارية بيد ان الاستشهاد لم يكن القصد فيه مجرد الاعلان عن القضية الفلسطينية أمام العالم بأعنف الأشكال الممكنة درامية ، فقد كان يقصد بها اعادة تحريك الفلسطينيين انفسهم وتفجير لانعكاسات الشعورية لدى الجماهير بحيث يمكن أن تؤدى فى نهاية المطاف توجيهها فى اتجاهات أكثر جدوى ان تؤدى الى احياء النضال فى المطاف الى توجيهها فى اتجاهات أكثر جدوى فى أن تؤدى الى احياء النضال فى المكان الذى كانت فتح قد بدأته فيه ، فى فلسطين نفسها ميونيخ ١٩٧٢ .

كانت أشهر عمليات أيلول الأسود ـ التى بلغت مستوى الارهاب الذى يعد نوعا من العلاقات العامة فى أكثر مظاهرة اثارة ـ هى العملية التى أحدثت اضطرابا فى دورة الألعاب الأولمبية فى ميونيخ فى سبتمبر ١٩٧٢ . ولم يكن من المبالغة فى شىء ما قاله متحدث فلسطينى من أن :

« انفجار قنبلة فى البيت الأبيض ، أو انفجار لغم فى الفاتيكان أو موت ماوتس تونج أو حدوث زلزال فى باريس لم يكن من شأنه أن يحدث فى وعى كل انسان فى العالم الصدى المماثل للصدى الذى خلفته عملية ميونيخ .. لقد كانت أشبه ما تكون بنفس اسم فلسطين على قمة جبل يمكن رؤيتها من جهات الأرض الأربع » (٣٨) .

لقد اشترك فى تغطية ألعاب ميونيخ ٦٠٠٠ صحفى وأحدث أجهزة تليفزيونية اليكترونية تظهر حتى الآن وبغض النظر عن الدعاية المكفولة لأكثر المناسبات الرياضية ضخامة من الناحية العالمية كان الارهابيون يتمتعون بفائدة اضافية أخرى ، عرضية . فبالنسبة للغرب خاصة الضيوف الألمان كان المقصود من هذه الألعاب هو دفن الماضى البغيض رسميا . وفى سنة ١٩٣٦ فى برلين أجريت الالعاب الالمبية على الارض الالمانية وقد حولها هتلر الى مهرجان لحكمه النازى وللنزعة العسكرية وللمذاهب العنصرية المعادية للسامية التى كانت يعلى من شأنها أما دورة ألعاب ميونيخ فكان المقصود من ورائها أن يتذكرها الناس بوصفها « ألعابا مبهجة ، واذا كانت قد تميزت بلمسة من اللمسات التى تتميز بها أجازة على احد ثغور البحر المتوسط ، فلم يكن ذلك من قبيل المصادفة اذا لم يكن محظورا على أحد أن يمشى فوق العشب . وكان المحظور محظورا ، وبطبيعة الحال كانت ميونيخ هى المدينة التى وضعت هتلر على الطريق المؤدى الى السلطة المطلقة ولم يكن معسكر أعتقال داخاو بعيدا عنها بكثير بيد أن هذا أيضا قد طواه النسيان الى أن تركزت العدسة أعلى برج التليفزيون فى صبيحة اليوم الحادى عشر ، متنقلة من ساحة الألعاب الأولمبية على البلوك رقم ٣١ فى قرية الرياضيين وظلت كما لو كانت مسمرة ، عند تلك « اللقطة » وحتى انتهت الدراما التى أعقبت ذلك . ففى الساعة ٤٫٤٠ من صبيحة ٥ سبتمبر شاهد مهندسو البريد جماعة من الرجال فى ملابس رياضية يتسلقون بمشقة حاجز الأسلاك المتشابكة الذى يبلغ ارتفاعه ثمانية أقدام، لكنهم لم يلقوا بالا لذلك فهكذا كان عديد من الرياضيين يعودون الى مساكنهم بعد قضاء ليلة فى المدينة . وقد دخلت جماعة ارهابيى أيلول الأسود الثمانية المسلحون ببنادق كالاشنيكوف الهجومية والقنابل اليدوية

دخلوا الى الجناح الاسرائيلى فى البلوك رقم ٣١ عبر باب مفتوح واندفعوا صوب موشيه فاينبرج وهو رافع أثقال وجوزيف روما رومانوا ، وهو مدرب مصارعة حاول مقاومتهم لكن فاينبرج قتل وأصيب رومانو بجراح. وخلال الاضطراب الذى حدث تمكن رياضيون اسرائيليون عديدون من الهرب لكن تسعة آخرين تم أسرهم أما رومانو الذى حرم من العناية الطبية فقد مات .

وبعد الخامسة صباحا بقليل ألقى الارهابيون قائمة بمطالبهم من خلال نافذة فى الطابق الأول انهم يريدون الافراج بحلول الساعة التاسعة صباحا، عن مائتين من رفاقهم المحتجزين فى سجون اسرائيلية واذا ما تمت الاستجابة للمطالب فسوف يتم الافراج عن الرهائن : أما اذا لم تتم فسوف يقتلون رميا بالرصاص وفى الساعة الثامنة صباحا بدأ البوليس الألمانى فى وضع الاستعدادات لانقاذ الرهائن بالقوة . وخلال المفاوضات مع السلطات يرفض الارهابيون مبادلة الرهائن بمتطوعين المان لكنهم يوافقون على تمديد الموعد النهائى الى منتصف النهار ويتم استدعاء الرماة الماهرين وفى الساعة الحادية عشرة صباحا يبلغ السفير الاسرائيلى الألمان أن حكومته ترفض انذار الفلسطينيين أو أى نوع من المفاوضات معهم : « اذا ما رضخنا مرة واحدة للابتزاز فان عمليات خطف الطائرات واختطاف الأشخاص سوف تتضاعف بصورة جهنمية . ان مواطنينا يعرفون ذلك ويسلمون به وقد نبه كل واحد منا تنبيها صريحا اننا لا يمكننا فى أى حال من الأحوال أن نكون طرفا فى عملية مساومة . ونحن على أى حال فى حالة حرب . وكل اختطاف لشخص وكل هجوم فدائى ينظر اليه بوصفه اشتباكا عسكريا نتعرض فيه نحن الاسرائيليين عسكريين ومدنيين ، لخطر فقد أرواحنا . اننا لا نساوم بل ينبغى لنا الدفاع عن انفسنا . وهذا يعنى فى هذه الحالة ، أنه لابد من هجوم مضاد فورى . ولن تقبل حكومتى سوى ذلك » (٤٤) . وبعد ذلك ينضم رجال أمن اسرائيليون تم ارسالهم من تل أبيب الى السفير لكى « يسدوا النصح » للبوليس الألمانى وهم أيضا يؤكدون لا مساومة . هكذا لا يجد الألمان من خيار أمامهم غير العمل على كسب الوقت واستكمال خططهم من أجل الدخول فى مواجهة انهم يعرضون على المختطفين خروجا سالما من البلاد ومقدارا ضخما من النقود ، بل وقضاء ليلة مع « شقراوات جميلات من ميونيخ » (٤٥) . ويلعب السفراء العرب الذين لا يعرفون نوايا الألمان الحقيقية يلعبون هم أيضا دور الوسطاء . لكن الرجال الثمانية يظلون ثابتين على موقفهم انهم

يقولون « ان النقود لا تعنى شيئا بالنسبة لنا وحياتنا لا تعنى شيئا بالنسبة لنا » وغاية ما يقبلونه هو الموافقة على مد آخر لمواعيدهم النهائية . وتمر مواعيد الواحدة ظهرا والخامسة عصرا والسابعة مساء دون ان يقتلوا أيا من رهائنهم ويبدو انهم على استعداد للدخول بأرجلهم الى المصيدة التى يعدها البوليس لهم انهم على استعداد للسفر الى القاهرة مع أسراهم على متن طائرة المانية وهذه خدعة ، ان رئيس الوزراء المصرى، الذى اتصل به المستشار فيلى برانت قد رفض بالفعل اقتراحا بان يعمل المصريون عند وصول الطائرة الى القاهرة ، على اعادة الرهائن الى ميونيخ أو الى تل أبيب ان الهدف الحقيقى هو دفع الارهابيين الى ترك الجناح الاسرائيلى الذى يصحب شن هجوم مسلح عليه ويشك الارهابيون فى الأمر كثيرا لكنهم يغامرون ويتركون الباوك رقم ٣١ فى الساعة ٠٦ر١٠ مساء هم ورهائنهم متلازمين ثم يستقلون طائرتين عموديتين تهبطان بعد ذلك بعشرين دقيقة فى مطار فيوشتينفيلد بريوك العسكرى . وهناك نجد خمسة من القناصة فى مواقعهم وتكفل الأضواء المبهرة للنظر رؤية ممتازة على مدى ثلاثين مترا . ويتم تعزيز القناصة برجال شرطة مزودين بالرشاشات ويحاصر ٦٠٠ رجل من حراس الحدود المحيط الخارجى للمطار . ويقفز طيارا الطائرتين العموديتين — وكذلك يفعل اثنان من الارهابيين اللذين قاما بتغطيتهما عن طريق تصويب مسدسيهما اليهما عن كثب ويتحرك ارهابيان آخران واحدا من كل طائرة عمودية لتفقد الطائرة البوينج المنتظرة المضاءة تماما والمتخذة مظهر الاستعداد للاقلاع على بعد ١٥٠ مترا فوق الممر الأسفلتى لكنه لا يوجد طاقم على متنها وعند عودة الرجلين يطلق القناصة نيرانهم عليهما وينبطح الرجلان الحارسان لطيارين أرضا . ويعدوا الآخران ويصاب أحدهما أما الثانى ولعله القائد فقد تمكن من الاختفاء أسفل طائرة عمودية ويرد رفاقه الذين كانوا لا يزالون على متن الطائرتين باطلاق الرصاص فيقتلون أحد القناصة . وفى الساعة ٥٠ر١ يدعو البوليس من خلال مكبر صوت الارهابيين الناجين الى الاستسلام ويخاطبونهم بالالمانية والانجليزية ، ويخاطبهم رجل أمن اسرائيلى بالعربية . ولا يرد احد فكل ما هناك هو الصمت الذى يسبق الكارثة وتحين النهاية فى الساعة ٠٥ر١ صباحا ويطلق البوليس النار مرة اخرى ويقفز ارهابى من طائرة عمودية ويقذف قنبلة يدوية ويطلق آخر الرصاص على الطائرة العمودية الأخرى وبينما تقترب العربات المدرعة بموت جميع الرهائن وارهابيان آخران .

وقد أعلن العالم فى بداية الأمر من جراء خطأ واضح ان الكمين قد نجح نجاحا تاما وان الرهائن بخير لقد ساد اليوم بأكمله الأخطاء وسوء التقدير وكانت السلطات الألمانية قد قللت ضمن جملة امور من عدد الارهابيين ولم يكن قناصوها الخمسة كافين للمهمة كما قللت ايضا من اهمية مهارة واصرار رجال لم يقترفوا هم انفسهم خطأ تكتيكيا واحدا وكانوا مستعدين للموت فى سبيل قضيتهم .

وقد اقتيد الناجون الثلاثة الى السجن لكن عملية أخرى من عمليات أيلول الأسود قد كفلت الافراج عنهم بعد ذلك بأسابيع قليلة . وفى « وصيتهم » التى نشرتها وكالة الأنباء الفلسطينية فى دمشق اعتذار رفاقهم الخمسة القتلى لرياضيى العالم . « لكننا نود أن يعرفوا أن هناك شعبا احتلت بلاده لمدة اربع وعشرين عاما وديست كرامته بالأقدام .. وليس هناك ضرر فى أن يفهم شباب العالم مأساته لساعات قليلة . ولذا فلتتوقف الألعاب لساعات قليلة ، أما فى حديثهم الى شعبهم ، الى الفلسطينيين ، فقد ناشدوهم قائلين : « لا تتخلوا أبدا عن بنادقكم ، رغم المشاق والمؤامرات المحيطة بالنضال ان بلادنا سوف يحررها الدم والدم وحده ؛ ان العالم لا يحترى سوى الأقوياء . ونحن لن نكون أقوياء بالكلمات وحدها وانما بالتصرف وفقا لها فقط اننا لا يهمنا المكان الذى توارى فيه اجسادنا لأنه كما يقول اجدادنا ، لا يضير الشاه سلخها بعد ذبحها . اننا نود من الشبيبة العربية ان تعرف كيف تموت فى سبيل شعبها وبلادها .. وعندما يسقط شهيد من بيننا ، فان ألف رجل يحاون محله .. » وقد نقلت أجسادهم بالطائرة الى ليبيا ، حيث شيعوا تشييع الأبطال ووصفت وكالة الأنباء السمية المشهد بأنه « مشهد مهيب » .

وبعد ذلك بثلاثة أيام ، شن سلاح الطيران الاسرائيلى واحدا من أعنف غاراته الانتقامية ، على سوريا ولبنان ، مات فيه ما بين ٢٠٠ و ٥٠٠ شخص على الأقل معظمهم من المدنيين (٤٦) .

لقد صدمت ميونيخ العالم . وطبيعى ان اى شعب آخر ، فيما عدا الاسرائيليين انفسهم ، لم يتملكه الغضب الذى تملك الضيوف الألمان . فقد أثار غضبهم فى أكثر أشكاله فجاجة ، مرة أخرى ذكريات أشياء غير سارة مضت وان كان الرجل الذى صوره رسامو الكاريكاتير الشعبيون بأنف معقوفة وبشرة داكنة اللون وعينين زائغتين ، لم تكن هذه عادته على هذا النحو كما نشر فى جريدة بويلز فولكبستشير بيوباتشتير . لقد كان

عربيا وكان من غير المرجح أن تسمع كلمة اونترمينشبين (انهم دون مستوى البشر) ، لكن اللافتة التى حملها جمع من المتظاهرين كانت تتساءل : « هل هؤلاء الناس آدميون ؟ » أما فى المقاهى فقد علقت لافتات تقول « ممنوع دخول العرب » وخلال الأسابيع التالية ، طرد مئات من المقيمين العرب من المانيا على وجه السرعة ، واشتكى العرب الذين كانوا يحاولون دخول البلاد من الاستقبال غير الودى الذى قوبلوا به فى المطارات والمراكز الواقعة على الحدود . وأدينت عملية ميونيخ ، بصرامة غير عادية ، فى ارجاء العالم العربى . وظهرت فى كبريات الصحف رسائل من القراء نادرة فى خبثها كتلك التى ظهرت فى مجلة تايم : (٤٧)

« أن رعاع ايلول الأسود هم فعلا نفاية الأرض نظرا لما صنعوه فى ميونيخ انهم لا يظهرون فى أى ساحة من ساحات القتال ، ومع ذلك فان هؤلاء « الشهداء ، « أبطال البالوعات » المنحلين هؤلاء يهللون لانتصاراتهم الهستيرية على الأبرياء العزل من السلاح ، على النساء والأطفال وركاب الطائرات ، ثم يسرعون بالعودة الى المزابل التى أتو منها « لقد نظر الى عملية ميونيخ بوصفها مثلا بغيضا بشكل خاص لنوع من الارهاب ، البربرى « العشوائى ، الأخرق ، الذى تحول الى وباء عالمى ، وقد أعلنت رسالة أخرى فى تايم أن القتلة العرب قد ساروا فى ركب مفجرى القنابل الفاشتين واللصوص الباكستانيين . وكان هذا انتهاكا « للسلام الاولمبى » باضافة الى ذلك ، نوعا من الدنس ، واقحام نزاع انسانى فى واحد من الطقوس العالمية للانسان الحديث والذى كان من المفروض باعلائه له أن يساعد على منعه واعتبر الموقف من عملية ميونيخ معيارا للتمييز بين المتحضرين وغير المتحضرين . وسعى الرئيس نيكسون الى كسب تأييد الأمم المتحدة لحملة عالمية ضد « الارهاب الدولى » . ومع ذلك فقد كان هناك اتجاه من اتجاهات الرأى معاكس بوضوح لهذا الاتجاه، وقد ذهب الى أنه بالرغم من بربرية عملية ميونيخ ، أو ربما بسببها فان الأشخاص البائسين لابد وأن تكون لديهم مبررات يائسة لما يفعلونه وكان ذلك هو نوع رد الفعل الذى كان يأمل فيه رجال أيلول الأسود . وكان ما عبرت عنه رسالة أخرى فى مجلة تايم (٤٨) بعيدا عن أن رأيا غالبا بيد أن الرسالة قد نشرت على الأقل . وكان ذلك يعتبر تصرف بالنسبة للفلسطينيين :

« هل ينبغى للانتقام أن يعقب دائما الوحشية فى عذاب الشرق الأوسط المروع ؟ ان الانتقام الشديد لم يؤد الا الى تحويل الوطنيين الى

ارهابيين ودفعهم الى الخروج الى العالم من اجل تقويض السلم . فليتك يا اسرائيل تسمحين لهؤلاء الناس بالعودة الى أرض آبائهم اظهرى للعالم طيبتك العظيمة قوضي السبب الذى يعد الارهاب عرضا من اعراضه .

« اما الادانة الصريحة الوحيدة فى العالم العربى فقد جاءت من الملك حسين ، الذى وصف عملية ميونيخ بأنها « جريمة دبرتها عقول مريضة لا تجمعها بالانسانية جامعة » وكانت هذه الادانة متوقعة . فقد كان هو نفسه لكونه عدوا عنيدا لحركة المقاومة ، على راس المستهدفين فى قائمة اغتيالات أيلول الأسود وعلى النقيض من ذلك فقد عمت البهجة مخيمات اللاجئين الفلسطينيين عند وصول الأنباء الاخيرة من ميونيخ ، ولم يكن ذلك بسبب مصرع الرهائن بقدر ما كان بسبب حسن بلاء رجال أيلول الأسود الثمانية ، الذين أحبطوا « الخيانة » الألمانية ـ كما وصفها فيما بعد واحد من الناجين الثلاثة ـ واثبتوا بصورة قاطعة ان الموت لا يعنى بالفعل شيئا بالنسبة لهم . وفى بقية العالم العربى ، تم الاعتراف على نطاق واسع ـ وان كان دون قناعة كبيرة ـ بأن المذبحة تدعو للاسف . ولم يكن الهجوم الفعلى للادانة العربية موجها ضد الارهابيين ، وانما كان موجها بنوع خاص للسلطات المانية التى حمل العرب « خداعها » و « غدرها » المسئولية الرئيسية عن النتيجة المحزنة . ومالت الصحافة والأذاعة العربيتان الى الموافقة على حجج أيلول الأسود التى ذهبت الى أن رجالها كانوا اكثر من مستعدين للتفاوض مع السلطات الالمانية وانهم عاملوا الرهائن « معاملة انسانية » وعزفوا بصورة متكررة عن قتلهم عندما يحين الموعد النهائى لذلك وكان آخر ما يريدونه هو حدوث مذبحة لاناس ابرياء ، أو اذا كان ذلك قد حدث فان من يتحمل المسئولية هو الطرف الآخر وكان ذلك منطقا ارهابيا معروفا وكان ما يجعله منطقا اكثر التواء هو أن اسرائيل كما يعرف ذلك كل فلسطينى لا تقبل المساومة ففلسفتها الامينة كلها ـ بل ووجودها كما يعتقد ذلك الاسرائيليون أنفسهم ـ قائمة على عدم استعداد ذراعها الايمن القوى للمساومة .

وكان من الأشرف أن يقال كما فعل بعض المدافعين أن الارهاب هو سلاح الضعفاء ـ والمضطهدين ، هو سلاح شعب لا يمتلك وسائل أخرى للنضال . لقد كان العرب يرون مثل نيكسون ، ان الارهاب شىء سىء الا أن من الضرورى الانتباه الى الاعمال نفسها وانما الى الاسباب التي تكمن وراءها وكانت تلك هى القضية التي دافعوا عنها بتأييد من العالم الثالث فى الامم المتحدة لكنه ايا كان الأمر ، فانه لم يكن من حق اسرائيل ، أو

مؤيديها الغربيين ان يفرطوا فى التعبير عن سخطهم ازاء شكل من اشكال الحرب كانت اسرائيل نفسها رائدة فيه . « بعد خلق دولة اسرائيل أخلى الارهاب الكلاسيكى مكانه للارهاب الذى يبدو ظاهريا أكثر احتراما والمقصود به ترويع واخضاع الفلسطينيين والمتعاطفين معهم من العرب وباستطاعة الدولة بكل مواردها أن تصعده وعلى العكس من ذلك فان العنف الفلسطينى ، يتميز بأنه انفعالى وضيق النطاق ولكنه عرضة لأن يوصم بالبربرية بسهولة . وقد تكون لدينا والواقع ان بعضنا لديه بالفعل شكوك فيما يتعلق بهذا النوع من الارهاب لكننا نشجب أيضا ارهاب اسرائيل التى قامت على الارهاب والتى تواصل تمجيد ارهابييها الى اليوم : انظروا الى القادة الارهابيين السابقين الذين يتمتعون بمكانات مرموقة فى الحياة العامة انظروا الى مارسيل نينيو (٤٩) . لكن الحجج الشريفة لم تكن مسموعة أكثر من غيرها وكان رجال أيلول الأسود يريدون ضرب عصفورين بحجر واحد وذلك بتوجيه اللوم وعدم قتل المدنيين ومن ناحية اخرى ، اعتمدت عملياتهم لكى تحقق أثرها الكامل ، على الاستهانة بالأخلاقيات التقليدية ، وكانت استهانة كل عملية بهذه الاخلاقيات أكثر فظاعة من سابقتها لقد كان الارهاب الفلسطينى والارهاب الاسرائيلى المضاد مشتبكين فى دائرة حلزونية عنيدة لقسوة متصاعدة أبدا وهكذا فاذا كان رهائن ميونيخ قد لقوا حتفهم فان ذلك كان فى جانب منه على الأقل بسبب نجاة رهائن سابقين من الموت .

فقبل ذلك بثلاثة أشهر ونصف ، كان أربعة من رجال ايلول الأسود قد اختطفوا طائرة بلجيكية وأجبروها على الهبوط فى مطار « اللد » الاسرائيلى . وكانت هذه العملية أجرأ عملية من نوعها حتى ذلك الحين ، اذ لأول مرة يغامر مختطفون ــ رجلان وامرأتان ــ باقتحام عرين الأسود . وقد طالبوا بالافراج عن ١٠٦ سجين فلسطينى فى السجون الاسرائيلية والا نسفوا الطائرة وجميع ركابها . وبعد احدى وعشرين ساعة من التردد والحيرة اقتحم الكوماندوز الاسرائيليون الطائرة ، وقتلوا الرجلين وأسروا المرأتين . وقد أصيب ستة من الركاب المائة بجرح ، ثم مات أحدهم فيما بعد . وكان مسئولو الصليب الأحمر قد اشتركوا فى المفاوضات وفى انتهاك لحسن النوايا ، استغل الكوماندوز وجودهم لتوفير المفاجأة الكاملة لهجومهم ووفقا لبيان صدر عن أيلول الأسود فان المختطفين الأربعة كانوا قد تلقوا تعليمات مشددة بعدم نسف الطائرة ، كما كانوا قد وافقوا على السماح بدخول الغذاء والماء الى الطائرة . وهكذا كانت الاعتبارات « الانسانية »

هى السبب فى فشل العملية ، وقد حذرت من أن مثل هذه الاخطاء لن تتكرر فى المستقبل . لكن المناسبة التالية لم تكن تخص ايلول الاسود بل كانت تخص الجبهة الشعبية التى يقودها جورج حبشى وكانت هذه المنظمة السياسية تفتخر بدورها الثورى العالمى وقد تسنى لها ، من خلال صلاتها الدولية تجنيد ثلاثة شبان من اعضاء « الجيش الاحمر » اليابانى لخدمتها وفى ٣٠ مايو وبعد مرحلة من التدريب فى لبنان ، وصل الثلاثة الى مطار اللد على متن طائرة تابعة لشركة ايرفرانس قادمة من روما ، ودخلوا مع المسافرين الآخرين ، الى قاعة الجمرك لانتظار أمتعتهم وبمجرد وصولهم سحبوا مدافعهم من طراز كلاشنيكوف وقنابلهم اليدوية واطلقوا نيرانهم على الجمهور . وقد قتلوا خمسة وعشرين شخصا واصابوا ثمانية وسبعين ويبدو أن اثنين من الفدائيين الانتحاريين قد انتحروا ، بينما تم التغلب على « الثالث » وهو كوزو أوكاموتو قبل أن يتسنى له الانتحار هو الآخر . ولم يكن حجاج بوبرتوريكو هدف الخطة فحظهم العاثر هو الذى قادهم الى هذه الرحلة لقد كان هدف الخطة الركاب الهابطين من احدى طائرات شركة العال والاصدقاء والاقارب الذين جاءوا لاستقبالهم وعلاوة على ذلك فان الفكرة كانت تتمثل فى « قتل اكبر عدد ممكن من الناس فى المطار ، خاصة اذا كانوا من الاسرائيليين ، وكذلك كل من يتفق وجوده هناك » (٥٠) وقد وصفت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين « عملية دير ياسين » التى دبرتها بأنها « رد ثورى » على « الخدعة الرخيصة » التى تمكن « الجزار » موشيه ديان ورجاله عن طريقها من احباط عملية الاختطاف التى كانت ايلول الاسود قد قامت بها قبل ذلك بثلاثة أسابيع . وكان ذلك أكثر من ثأر كاف لكنه كان له عيبه فقد كان « نضالا بالوكالة » (٥٢) أدى بصورة طبيعية الى اثارة الشعور بالاستهزاء بأنه عندما تكون المسألة مسألة تضحية سامية بالنفس فان الفلسطينيين يضطرون الى البحث عن أجانب للقيام بها وقد أدى هذا الى تزيز الاقتقاد الذى يعتز به الجنرال ديان بأن أعصاب الانسان العربى تخور عادة فى نهاية المطاف . وكانت تلك هى الخلفية التى كان لابد معها لارهابيى ميونيخ ، الذين خدعهم الألمان أن يقتلوا رهائنهم ويقتلوا أنفسهم أثناء القيام بهذه العملية اذا لزم الأمر .

ارهاب لا حدود له :

بعد ميونيخ لم يكن من شأن أى عمل قامت به أيلول الاسود أن

تحقق نفس الأثر . فقد بدأ قانون الغلة المتناقصة فى العمل ومع ذلك فقد واصلت أيلول الأسود محاولاتها . وكانت العملية الكبرى التالية فاشلة تماما ففى هذه المرة على ما يبدو خارت أعصاب العرب بالفعل ففى ٢٨ سبتمبر احتجز رجال أيلول الاسود ستة من الديبلوماسيين فى السفارة الاسرائيلية فى بانجكوك وطالبوا بالافراج عن ستة وثلاثين سجينا فلسطينيا . الا أنه فى غضون ساعات قلائل تمكن وزيران تايلانديان والسفير المصرى من اقناعهم بالخروج من السفارة وأفرج عن الديبلوماسيين وتم ترحيل الارهابيين بالطائرة الى القاهرة . وذكرت صحيفة بيروتية انه قد يتم تشكيل « محكمة ثورية » لمحاكمة الرجال بسبب عدم انصياعهم للأوامر .

وكان معنى الفشل المخزى فى بانجوك وقوع عملية قتل وحشية فى الخرطوم فقد ذكر أحد مصادر أيلول الاسود لصحيفة بيروتية ان العالم يجب أن يتعلم « النظر الينا نظرة جادة » (٥٢) وفى أول مارس استولى ثمانية من الرجال المسلحين على السفارة السعودية فى العاصمة السودانية وأسروا كورتيس مور ، القائم بالأعمال الاميركى الذى كان فى حفل توديع له ، وسفير كليونويل ، والقائم بالأعمال البلجيكى ، جى ايد والسفير السعودى والقائم بالاعمال الاردنى وطالبوا بالافراج ضمن آخرين عن أبى داوود ، أحد قادة فتح وستة عشر رفيقا من المحكوم عليهم بالاعدام فى الأردن وكان أبو داوود قد ادين بتهمة ارتكاب أعمال تخريبية ضد النظام : ثم اعترف فيما بعد فى الاذاعة الاردنية — دون مبالغة زائدة — بأنه « لا وجود لشىء اسمه ايلول الأسود » وقال ان عملياتها يدبرها ثلاثة رجال : أبو اياد ، المعروف على وجه العموم بأنه رجل فتح القيادى الثانى وأبو يوسف ، رئيس المخابرات ، وأبو حسين ، مساعده وبعد تحديدين لموعدهم النهائى ، أخذ رجال أيلول الاسود موونويل وايد الى الدور الأسفل من السفارة متجاهلين النظرات المتقدة من رهينة « متطوعة » هى زوجة السفير السعودى ثم ترددت أصداء طلقات عديدة لمدافع رشاشة . وقد ذكرت زوجة السفير ان الارهابيين عندما عادوا للظهور « لم يكن يبدوا عليهم أنهم رجال مارسوا القتل من قبل . »

وقد سلموا انفسهم فى نهاية الأمر للسلطات السودانية رافعين أيديهم باشارات النصر عند مغادرتهم المبنى وانتابت الرئيس السودانى نميرى

حالة من الغضب . فهو لم ير « أية بطولة فى احتجاز أناس لا يملكون الدفاع عن أنفسهم ـ بينما أنت نفسك مسلح تسليحا كاملا وقد أخذت يساومون بأرواحهم على مطالب مستحيلة ، وذبحهم ذبح الخراف ، وترك جثثهم تتعفن لمدة ٢٤ ساعة » وقد وافقه كثيرون من أفراد شعبه على ذلك . وقد شجب ملصق على جدران جامعة الخرطوم هذه العملية « هل يمكن لأى عقل سليم تبريرها ؟ هل تبرر لا انسانية اسرائيل التخلى عن كافة القيم الانسانية ؟ (٥٣) » . وكانت العملية عملا سخيفا وجاحدا أيضا . لقد كان وراء حادث القتل فرع من فتح تؤيده ليبيا ، أو هكذا بدا النميرى ، وقد قدم دلائل كثيرة لتأييد زعمه . إذ يبدو أن برقية شفرية (النهر انبارد ـ اسم مخيم لاجئين فى شمالى لبنان ، كان الاسرائيليون قد أغاروا عليه قبل ذلك باسبوعين ، مما ادى الى مصرع أربعين شخصا اغلبهم من النساء والأطفال) اذيعت من محطة اذاعة فلسطينية ربما فى طرابلس ، هى التى أمرت رجال أيلول الأسود بقتل ضحاياهم (٥٤) . وبدا أنه لاشك هناك على الاطلاق فى أن رئيس ونائب رئيس مكتب فتح فى الخرطوم قد قاموا بالتخطيط المحلى كله . وكان ذلك اساءة لا تغتفر لكرم الضيافة السودانية ـ خاصة وأن نميرى هو الذى كان قد ذهب الى عمان خلال حرب أيلول الأسود ١٩٧٠ الأهلية الأردنية ، معرضا نفسه لمجازفة عظيمة ، وابلغ الزعماء العرب عند عودته أن الملك حسين يعتمد سحق الفدائيين .

وبعد القتل ، جاء التبرير فقد قال أحد البيانات أن عمليتهم لم تكن تهدف بأى حال الى اراقة الدماء بل وكانت تستهدف فقط الافراج عن أبطالنا الذين يتعرضون للتعذيب والارهاب انتهاكا لكل القيم الانسانية . وقد قيل أن كورنيس مور عندما كان دبلوماسيا فى عمان ، قد ساعد الملك حسين فى شن الحرب على الفلسطينيين والواقع ان مور لم يذهب قط الى عمان اما لماذا استحق جن أيد الدبلوماسى البلجيكى ، نفس المصير فهذا ما لم يفسره البيان . عندما صدق الملك حسين على الحكم باعدام أبى داوود ورفاقه الستة عشر ، ثم قال انه لن يرجى تنفيذ الحكم الا اذا تخلت حركة المقاومة عن كل نشاط تخريبى ضد نظامه ، اتهمته منظمة تحرير فلسطين بـ « الابتزاز » ومن المؤكد أن ذلك كان ابتزازا ، أما لماذا لا تعد عمليات أيلول الأسود فى هذه الحالة ابتزازا هى الأخرى ومن أكثر أنواع الابتزاز فذلك شىء لم تهتم منظمة تحرير فلسطين قط بتفسيره .

ففى الخرطوم ، لم يقطع الارهابيون الفلسطينيون شوطا أبعد من ذى قبل وحسب فى احتقارهم للأخلاق التقليدية ، وانما فعلوا ذلك بعد أسبوع

من اثبات اسرائيل لقدرتها على نفس الشيء عندما اسقطت طائرة مدنية ليبية كانت قد ضلت طريقها فوق سيناء . لقد محوا بضربة واحدة الرصيد الذى كان عدوهم قد حققه فى ميزان الرأى العالمى كما استغل عملهم العدو فى المؤخرة فقد اصبح بوسع الملك حسين والآخرين أن يقولوا دون أن يجانبهم الصواب أن فتح تشكل تهديدا لكل نظام عربى .

هكذا مضى الارهاب الذى يغذى نفسه بنفسه ولم تعد المسألة مسألة أيلول الأسود ان شئنا الدقة فى التعبير فقد اصبحت مسألة جمهرة من المقلدين بها . لقد كان الفدائيون دوما مصابين بداء التشرذم وكانوا غير منظمين لكنهم مع انطلاق الجن من القمقم قد افرطوا فى ذلك ، مفرجين منظمة لكل عملية . واصبحوا أسرى أهواء متزايدة فى اختيارهم للأهداف واكثر ابتعادا عن ساحة القتال الفعلية الفلسطينية ، واكثر افتقارا الى الانسجام ان لم نقل الى المنطق فيما كانوا يأملون فى تحقيقه ففى يوليو سيطر « أبناء الأرض المحتلة » على طائرة يابانية فى أوديسا دامت تسعين ساعة حول الشرق الأوسط وبعد افلات ١٤٠ من المسافرين المرهقين تم اشعال النار فيها فى نهاية الأمر فى مطار بنغازى . وكان الهدف من هذه العملية ـ وفقا لبيان مكتوب على الآلة الكاتبة وزع من تحت أبواب مكاتب الصحف البيروتية هو معاقبة الحكومة اليابانية التى كانت قد دفعت لاسرائيل تعويضا قوامه ستة ملايين من الدولارات عن مذبحة مطار اللد قبل ذلك بسنة . وفى اغسطس ، هاجم اثنان من اعضاء « الفرقة الانتحارية السابعة » ركابا فى قاعة الترانزيت فى مطار أثينا بالمدافع الرشاشة والقنابل اليدوية مما اسفر عن مصرع ثلاثة أشخاص واصابة خمسة وخمسين آخرين بجراح وكان الركاب على وشك ركوب طائرة من طائرات شركة الخطوط الجوية العالمية متجهة الى نيويورك . وقد اجتازت الفرقة الانتحارية السابعة ، فى بيانها ، عتبة جديدة فى منطق العنف الفلسطينى : « لقد انتهينا الى استنتاج مؤداه انه لابد لنا .. لكى تتفهمونا وتقدروا حقنا فى العيش .. ان نتبع اساليبكم الاجرامية .. وبمجرد توصلنا الى هذا الاعتقاد قمنا بعملياتنا ضدكم أيها الأمريكيون ، ضد رجالكم ونسائكم واطفالكم . وهذه ليست أساليبنا العادية ، بل انتم الذين أمليتموها علينا » وقد تدافعت جماعات معادية حول الرجلين المسلحين وهما فى طريقهما الى احد محاكم اثينا وهتفت صارخة « الموت للقتلة » . وفى سبتمبر جاء الدور على « منظمة العقاب » لكى توجه ضربة للرجعيين « العرب » ، فقد استولى رجالها على السفارة السعودية فى

باريس وطالبوا بالافراج عن أبى داوود الذى كان ينفـــذ حكما صدر عليه بالحبس مدى الحياة بعد أن خفف الملك حسين حكم الاعدام ضده . وبعد يومين من المحـاصرة المحمومة للســـفارة تمكن الارهابيون من تأمين ركوب طائرة سورية توجهت بهم الى الكويت وفيها استقلوا طائرة كويتية توجهت بهم الى العربية السعودية وكان آخر ما لوحوا به هو التهديد الذى لم ينفذ بالقاء رهائنهم السعوديين الأربعة من الطائرة أثناء تحليقهـا فوق الصحراء وفى نوفمبر اختطفت « منظمة الشبيبة القومية العربية » طائرة هولندية ، وخلال رحلة دامت يومين حول الشرق الأوسط والبحر المتوسط هبطوا فى خمسة مطارات مختلفة ورفض هبوطهم فى ثلاثة مطارات أخرى وقد طلبوا ، ضمن أشـــياء أخرى باغلاق المعسكرات المؤقتة التى كانت قد انشئت فى هولندا لاستقبال اليهود الســوفيت المهاجرين الى اسرائيل وفى ديسمبر شق خمسة من العرب طريقهم بالرصاص الى آخر نهاية مطـار روما مما أسفر عن مصرع شخصين والقوا قنابل حارقة على طائرة من طراز بوينج ٧٠٧ تابعة لشركة بان أميريكان مما أدى الى مصرع تسعة وعشرين شـخصا حرقا من بينهم أربعة موظفين من المغرب واحتجزوا سبعة من رجال الشرطة الايطالية كرهائن وشقوا طريقهم بالقــوة الى طائرة مجاورة من طراز بوينج ٧٠٧ تابعة لشركة لوفتهانزا وأمروا طاقمها بالاتجاه الى أثينا وعند وصولهم الى أثينا طالبوا بالافراج عن الرجلين المسلحـين التابعين للفرقة الانتحـارية السابعة واطلقوا الرصاص على أحد رهائنهم والقوا بجثته من الطـائرة ثم اقلعوا صفر اليدين الى دمشق والكويت ، حيث أفرجوا عن رهائنهم وسلموا أنفسهم وباستثناء بيانين غامضين موقعين باسم « الشعب الفلسطينى » فان هذا الاختطاف ، الأكثر دموية من كل عمليات الاختطاف الأخرى لم يجـد من يعلن مسئوليته عنه الا أنه التهور الذى حدث فى النهـاية والذى يعتبر دليلا غير مباشر لاســلوب تفكير المختطفين قد تحقق بعد ذلك بأحـد عشر شهرا عندما سيطرت « مجموعة الشهيد أبو محمد » على طائرة من طراز فى سى ١٠ تابعـة لشركة الخطوط الجوية البريطانيــة وطالبت الحكومـة البريطانية بـ « اعلان مسئوليتها عن أكبر جريمة فى التاريخ الا وهى جريمة اقامة الكيـــان الصهيونى والتنصل من تصريح بلفور الملعون الذى جر على منطقتنا المـآسى والنوائب .

وكان حادث اختطاف الطائرة التابعة لشركة الخطوط الجوية البريطانية هو القشة التى قصمت ظهر البعير بالنسبة لياسر عرفات واتجاه قيادة فتح الرئيسى فوسط حملة ملامية ضخمة شـنوا ما وصف بأنه هجـوم عـلى المختطفين « المرتدين » والمرتزقة بين صفوفهم واعلنت منظمـة تحـرير

فلسطين فى بيروت انه قد تم اعتقال ستة وعشرين شخصـــا وانهم سوف يواجهون محاكمة علنية . واذا كانت المحاكمة قد جرت فمن المؤكد انها لم تكن علنية وعلى اى حال فقد زعمت منظمـــة تحرير فلسطين فيما بعد أن مختطفى طائرة شركة الخطوط الجوية البريطانيـــة قد حوكموا وصـــدرت ضـــدهم الاحكام . وجىء بالصحفيين للتعرف على « مركز تأديبى » فى دمشق أدين سجناؤه بتهمة العمل « ضد مصالح الثورة » كما تم اطلاعهم على مدونة القانون الجنائى لمنظمة تحرير فلسطين المعدلة حديثا وقد نصت هذه المدونة على أن الخطف الذى يسفر عن خسائر فى الأرواح يعتبر جناية تستحق عقوبة الاعـــدام .

موافقون ورافضون :

كان ذلك ابعد من أن يكون مجرد تطهير روتينى فما كان محل رهان فى نهاية الأمر هو السياسة العليا بل ما يبرر وجود حركة المقاومة نفســـها . وبطبيعة الحال ان القيادة فتح كانت دوما غير موافقة على عمليـــات خطف الطائرات وعلى « العمليات الخارجية من ذلك النوع » ولا يرجـــع ذلك الى أنهم كانوا عمليين فى مواقفهم منها فهم لم يشجبوا عملية ميونيخ أو عمليـــة الخرطوم . والواقع انه ان لم تكن فتح أو احد اجنحتهـــا هو الذى تكفل فعلا بهاتين العمليتين فقد كانت هناك مباركة ضمنية لهما فى غياب الانتقادات الجادة فرغم انهما جرتا خارج أرض فقد استهدفتا الاسرائيليين على الأقل فى الحالة الأولى وممثلين رسميين للوغد الخبيث أميركا المؤيدة لاسرائيل فى الحالة الثانية اذا ما صرفنا النظر فى جى ايد سىء الحظ كما بدا أن القيادة تشعر أن مثل هذه العمليات فى بعض الظروف التى يتخيرونها هم أنفسهم ، يمكنها أن تدفع بالقضـــية الى الأمام اذا لم يبـــالغ فيها لكنـــه سواء كانت التجاوزات المتهورة، الفوضوية التى اعقبتا عملية ميونيخ كان لها اية اهمية على صعيد العلاقات العامة فقد محيت محوا شديدا من جراء الاشـــمئزاز الذى ولدته هى أيضا وعلاوة على ذلك فان الهجمات على أهداف عربيـــة كالسفارة السعودية فى باريس كانت انتهاكات صـــارخة لمبدأ فتح المقدس الخاص بعدم التدخل فى الشئون العربية الكن عمليات الاختطـــاف كانت بسبيلها الى التحول الى تحد من جبهة جديدة من العدو الداخلى وهذا هو الأهم لقد كان ذلك باديا قبل حـــرب أكتوبر ١٩٧٣ لكنـــه تكشف بالكامل بعدها لقد كانت تلك الحرب كما رأينا نقطـــة تحول كبيرة فى تاريخ النزاع العربى ـ الاسرائيلى . كانت زلزالا اسفر بين عشـــية وضحاها عن حـــدوث تبدل ضخم فى ميزان القوة فى الشرق الأوسط لمصلحـــة العرب لقد كان العرب يدركون دائما وهم يشعرون بالحزن انه من الناحيتين السياســـية

والعسكرية تفوق امكانياتهم الكامنــة والمتمثلة فى عدد وافر من الســكان وأراضى واسعة وذات موقع استراتيجى وثروة بتروليـــة ظهرت مؤخـرا وتتجاوز أحلام الجشعين ـ تفوق كثيرا قوتهم الفعلية فلو تسنى لهم مجرد تعبئة الموارد التى يحوزونها لتوصلوا سريعـــا الى اذلال اسرائيل لكنهم لم يتسن لهم ذلك قط فالنزاع بين الأشقاء والثورات التى لا نهـــاية لها قد أصابتهم بالاحباط وكانت نظمهم عديمة الكفاءة أو فاسدة وكانت مجتمعاتهم متخلفة وسيئة التكيف مع العالم الحديث وكانوا يفتقرون الى نظام مؤسسى صانعى القرار بشكل جماعى ومع ذلك فقد كانت هذه الامكانيات من الضخامة بحيث لم يتطلب الأمر أكثر من الحد الأدنى من الاتفـــاق على الهدف لكى تتحول الى قوة مروعة وذلك هو ما حققه الرئيس السادات وسط حماس حرب أكتوبر التلقائى لقد قرر الزعيم المصرى استغلال ميزان القوة الجديد لا من أجل مواصلة النضال بل من أجل انهـــائه وكانت تلك الخطوة خطوة متطرفة فبالنسبة لكل العرب لا للفلسطينيين وحدهم تعد فلسطين عربيــة بنفس الدرجة التى تعد بها اكسفورد شتير انجليزية وبنسيلفانيـا أميركية تلك بديهة لا تحتاج الى مناقشة لقد حرموا منها فى أزمنة ضعف وانقسام ، من جانب غزاة غرباء لم يكن لهم فيها حق بأكثر مما كان للصليبيين قبلهم يقرون ، ان الصهيونيين شأنهم فى ذلك شأن الصليبيين سوف يطردون منها فى نهاية المطاف ومع ذلك نجد الرئيس السادات يعبر عن استعداده للسلام مع اسرائيل ويدعو بقية العـالم العربى وثقل مصر من ورائه الى أن تحذو حذوه أن مصر وسوريا والأردن والفلسطينيين يجب عليهم جميعا الآن أن يوجهوا الاسرائيليين عبر مائدة المفاوضات فى جنيف ومن الواضح أن هــذا السلام سوف يتطلب تنازلات اسرائيلية اقليمية وغير اقليمية ، لكن العرب لا الاسرائيليين فى التصور التاريخى الحقيقى هم الذين سيندمون للتنــازل الفعلى الأساسى المتصل الرسمى من « تحرير » فلسطين كهدف قومى أنهم سوف يعترفون بوجود اسرائيل كدولة مستقلة مما يشكل تكريسا لكسب صهيونى خالص فى مواجهة خسارة عربية خالصة وسوف يكون ذلك عمـلا من أعمال المروءة التاريخية وحتى يتمكن السادات من اقناع العـرب بهذا السلام فان الحد الأدنى الذى كان السادات بحاجة اليه فى مقابل ذلك هو تخلى اسرائيل عن كافة الأراضى المحتـلة ولا يمكن أن يدور حديث عن شىء لـ « السلام الاقتصادى الكامل الذى يبـدو أن الاسرائيليين يريدونه فقـد قال السادات ذات مرة أن الفكرة القائلة بأنه ينبغى أن يكون بوسع السيدة جولدا مائير النزول الى القاهرة بسيارتها لشراء حاجيـاتها هى أمل زائف كما انه لا يمكن أن تكون ثمة سفارات اسرائيلية فى البلدان العربيــة أو أى

شيء مماثل وقد تتحقق مثل هذه الأمور فى نهاية الأمر الا انه بعد عقود من الكراهية والمرارة ، فانه ليس بامكان الاسرائيليين أن يتوقفوا أن يتحقق كل ذلك بهذه السرعة . وسوف يكون على الأجيال القادمة ان تقرر هذه الأمور اما ما فعله فهو انه قد اتخذ الخطوة الأولى ذات الأهمية القصوى فى ذلك الاتجاه » .

ومن الطبيعى أن اقناع الفلسطينين بهذا السلام كان اصعب مهمة يواجهها السادات فقد كان الفلسطينيون كلهم تقريبا يعتقدون أن الموجه قد انقلبت الآن فى وجه المتدخلين الصهيونيين . وان الخطر قد تم احتواؤه وان الامور الواقعة التى لا نهاية لها والتى تحققت على حسابهم قد أمكن كبحها لقد بلغت الصهيونية ذروتها فى ١٩٦٧ الا انه بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ بدات تظهر فى الصحف الفلسطينية مقالات تحمل عناوين مثل بداية الافول الصهيونى . وفى حد هذه المقالات تنبأ صبرى جريس وهو باحث مرموق قضى معظم سنى حياته فى اسرائيل وعرف البلاد معرفة عميقة تنبا بانه سوف تكون الحرب بالغة التأثير ايديولوجيا — وسياسيا — واقتصاديا — ونفسيا على عدو كان يبدو فى وقت من الأوقات عدوا لا يقهر اصداء لكن رد فعل الفلسطينيين ازاء هذا الواقع الجديد والمشجع كان متباينا . فقد وافق بعضهم على التوصل الى تسوية سلمية بينما رفض البعض الآخر ذلك ويمكن القول ببساطة شديدة ان أولئك الذين وافقوا عليها أو لم يعارضوا بشدة على الأقل ينقسمون الى مدرستين فكريتين أولاهما ترى انه كلما كان السلام تاما كان ذلك أفضل لأنه فى ظروف الأمن الكامل سوف يكون فى الامكان رغم ما قد يبدو فى ذلك من غرابة بالنسبة لغير المطلعين على مواطن الامور الكشف عن عدم المشروع الصهيونى برقية للتطبيق وهكذا ففى مقال ثان عنوانه « اسرائيل فى خطر السلام » قال جريس انه على المدى القصير والمدى الطويل على السواء سوف يكسب العرب لا الاسرائيليون من التسوية وقال أن الدولة اليهودية أو على الاقل الدولة التى يعرفونها بالانعزالية التوسعية ، العدوانية — سوف تتلاشى ببساطة فى الواقع وسوف يؤدى قيام ثورة الى كسر السيطرة على الحياة السياسية للبلاد التى يتمتع بها كرادر الحرس القديم — سواء كانوا من اليمين التصحيحى الذى يقوده مناحم بيجين أو الأحزاب الدينية او حكومة حزب العمل الحاكم وسوف يتفاقم النزاع الاجتماعى خاصة بين اليهود الاوروبيين والشرقيين وسوف تتقلص الهجرة وسوف تؤدى العلاقات العادية مع العرب الى تفويض الغرائز الانعزالية التى ترسخت الى هذا الحد بين الشعب بل ان جريس

مضى الى حد القول بان العرب لن يجدوا ما يدعوهم الى الخوف من « سلام اقتصادى » مع اسرائيل ففكرة السيطرة الاقتصادية الاسرائيلية هى فكرة بعيدة الاحتمال . ان اسرائيل ، بسبب ندرة قوتها البشرية ومواردها الاقتصادية ، سوف تكون محتاجة للعرب بدرجة تفوق احتياجاتهم لها .
وقد أشار الى أن الحديث عن تسوية سلمية كان يثير دائما فى السنوات الأخيرة مسألة ما هى الضمانات التى ينبغى للعرب تقديمها للاسرائيليين فى مقابل انسحابهم من الاراضى المحتلة . لكنه يبدو الآن ان اسرائيل فى حالة اجراء مفاوضات او عقد صلح معهم هى التى ينبغى لها تقديم ضمانات للعرب لا العكس .. واذا ما التزمت اسرائيل بالغاء كل تلك الخصائص التى تكرس طابعها الصهيونى فلن يؤدى ذلك فى نهاية المطاف الى اختفاء ذلك الطابع وانبثاق دولة ديمقراطية علمانية (٥٥) محلها اما المدرسة الفكرية الثانيه والتى تعبر عنها غالبية قيادة المقاومة فقد رأت أن على الفلسطينين تبنى « برنامج مرحلى » ساعين الى « المكاسب المباشرة » التى يمكنهم الحصول عليها عن طريق التسوية دون التفريط فى الحقوق « التاريخية » فى فلسطين كلها فعلى الصعيد الايديولوجى كان من المستحيل على الفدائيين التخلى عن هدفهم الرسمى الخاص بالتحرير الكامل حتى النصر عن طريق الثورة لكنه كان صعبا عليهم ايضا بصورة بالغة أن يقاطعوا عملية صنع السلام . صحيح انهم قد شعروا الآن بانهم أقوى فى العلاقة مع اسرائيل مما كانوا فى اى وقت مضى لكن القوة الجديدة كانت عربية بالاساس وليست فلسطينية خاصة اذا ما عرفنا أن الفدائيين بعد انتكاستهم فى الأردن كانوا فى الوقت نفسه أضعف فى العلاقة مع العرب الآخرين مما كانوا فى أى وقت مضى وكان العرب ممثلين فى شخص الدولتين اللتين تحملتا القسط الاوفر من عبء القتال كانوا يريدون استخدام هذه القوة من أجل تحقيق السلام واذا ما نجحوا فى ذلك فلابد للاراضى المحتلة من أن تعود الى طرف من الأطراف وكان هناك خطر داهم فى أن يكون ذلك الطرف هو الملك حسين مرة أخرى ما لم تسارع منظمة تحرير فلسطين بالمطالبة بالقدس والضفة الغربية اذ لن يقل ذلك سوءا عن عدم استردادها بالمرة وهذا هو السبب فى أن رجلا مثل أبو اياد الذى ينظر على أنه أحد قادة فتح المفرطين فى تشددهم على نطاق واسع بسبب صلاته مع أيلول الأسود قد بدأ يلعب دورا رئيسيا فى اعداد القواعد لتبنى استراتيجية جديدة بدا أنها متفقة فى جوانب كثيرة مع « نظرية المراحل » التى كان الرئيس بورقيبة يدعو لها .
وعندما طرح الزعيم التونسى تلك النظرية سيئة الصيت لأول مرة من

مخيم لاجئين فلسطينيين فى ١٩٦٥ مبنيا أن على العرب الاعتراف باسرائيل والسعى الى استعادة حقوقهم الضائعة عن طريق المفاوضات بدلا من اللجوء الى الحرب التى من المرجح أن يخسونها فقد أحرقت دمى تمثله فى جميع ارجاء العالم العربى وقد قال أبو أياد « ان الرفض المطلق يكون فى بعض الاحيان مظهرا من مظاهر الهروب .. والى متى سوف نظل نقول لا .. اليس كسبا مرحليا أن نسترد جزءا من أراضينا يمثل ٢٣ فى المائة من فلسطين (٥٦) ؟ . ينبغى اقامة « سلطة وطنية » تحت هيمنة منظمة تحرير فلسطين فى الأرض المحررة أما ما يبدو أن ذلك ينطوى عليه فى الواقع فهو اقامة دويلة فلسطينية كاملة متعايشة مع اسرائيل لكن كلمتى دولة فلسطينية هما كلمتان محرمتان لا يسمح أبو أياد ورفاقه فى الفكر التفوه بهما لانهما تعنيان الدوام والنهائية والتخلى عن الحقوق التاريخية بل أن واحدا من أكثر الداعين حماسا للبرنامج المرحلى وهو نايف خواتمة زعيم الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين قد أكد على ان السلطة الوطنية « سوف تكون قادرة فى الواقع على » صون مدافعها ومواصلة النضال بكافة أشكاله . وكان التأييد الشعبى للاستراتيجية الجديدة اقوى ما يكون الأراضى المحتلة خاصة الضفة الغربية التى اصبحت معقل الاعتدال الفلسطينى فسكان الضفة الغربية بوصفهم مقيمين فى الداخل كانت لهم مصلحة أكبر من مصلحة « المقيمين فى الخارج » وخاصة لاجئى عهد ١٩٤٨ فى تحقيق الكسب المباشر الخاص بالاطاحة بحكم العدو لانهم كانوا ما يزالون مقيمين فى معظمهم فى أراضيهم وفى ديارهم أما فى حالات الهياج الحتمى الذى يصاحب المناداة بالثورة حتى النصر فانهم سوف يكونون عرضة لان يخسروا الكثير ثم هل يمكن اعتبار النصر على أى حال مضمونا لقد حثت منظمة تسمى نفسها الجبهة الوطنية للاراضى المحتلة منظمة تحرير فلسطين على الانضمام الى عملية صنع السلام الدولية لانه « من الواضح أن من المستحيل تحقيق هدفنا الاستراتيجى الكامل فى ظل الظروف الراهنة » أما ما آل اليه كل ذلك فهو التعبير شبه الرسمى عن شكل جديد وأكثر اعتدالا كلية من الصهيونية المضادة فقد قال أحد المندوبين أمام المجلس الوطنى الفلسطينى تذكروا ما قاله بن جوريون للمؤتمر الصهيونى الثانى والعشرين فى بال فى ١٩٤٦ أن الصهيونيين سوف يقبلون دولة فى جزء معقول من فلسطين دون أن يتخلوا عن حقوقهم التاريخية فيها كلها (٥٩) . وكان ذلك مساهمة أكبر فى اتجاه للمصالحة

العربية الاسرائيلية مما كان عليه مفهوم الدولة الديمقراطية الذى كان قد ظهر قبل ذلك بست سنوات .

لكن « الرافضين » ، وهو المصطلح الذى أصبحوا يعرفون به ، لم يقبلوا شيئا من ذلك . فهم عرب كما انهم فلسطينيون وقد أعلنت صحيفة المحرر البيروتيه ان « الأمة العربية » تقف الآن عند مفترق الطرق : فهى أما ان تذعن لحل استسلامى يكرس الكيان الامبريالى ــ الصهيونى فى صميمها ، ويوطده ويعززه ، بما يمكنه من القيام باعتداءات توسعية جديدة على العالم العربى ووضعه تحت رحمته الى الابد . واما أن نرفض مثل هذه الحلول المطروحة وتعتمد على ارادتها ، وتحشد كل مواردها ، وكل قدرتها البشرية والمالية والاقتصادية والعسكرية وهى قدرة أكبر بكثير مما كنا نتصور كما أثبتت ذلك حرب أكتوبر ــ ونستأنف النضال على جميع الجبهات ، حتى ولو أدى ذلك الى قلب حسابات الدول الكبرى . فيالَيْتنا ننفض أيدينا من التمثيل المسرحى فى جنيف (٦٠) . .

وقد شعر « الرافضون » بخيبة أمل شديدة عندما قبل الرئيس السادات وقف اطلاق النار الذى أنهى حرب أكتوبر ، والذى تبعه فيه الرئيس السورى حافظ الاسد على مضض بعد ذلك بيومين . وكان أعتقادهم انه لو كانت مصر وسوريا قد وأصلتا القتال لتسنى لهما ، من خلال عملية احتراق عفوى كانت متقدمة جدا بالفعل دفع العالم العربى برمته الى القاء موارد أكثر بكثير فى الصراع ولأمكن التغلب على اسرائيل فى نهاية الامر . فما الداعى الى « انقاذ » عدو من الممكن القضاء عليه الآن بمثل هذه السهولة ؟ وقد رفضوا مؤتمر جنيف وكل ما يرمز اليه . واذا كان العالم العربى بسبيله الى الانبثاق كقوة جبارة على المسرح العالمى فانه ينبغى له أن يتصرف بصورة موحدة . وليس من طبيعة الاقوياء نسيان ما خسروه فى أوقات الضعف ؟ لقد انتظرت فرنسا ثمانية واربعين عاما حتى تستعيد الالزاس واللورين . وقد رأوا أن الثروات البترولية العربية الخيالية يجب ان تتفق على الأسلحة بل والمزيد من الأسلحة . وكان المنح « الرافضين » العرب هو ذلك المجد والطفل الرهيب ، العقيد القذافى رئيس ليبيا ، الذى وجه رسالة نارية الى السادات ، قائلا له : « سيدى الرئيس ، كم كنت ستكون أعظم لو كنت قد قاتلت فى حرب بالسيوف وحدها ، ولو كنا قد عشنا ، خلالها ، فى الجبال والاحراش والأرض العراء دون بترول أو كهرباء دون مدن أو أندية ليل، دون سياسات وأننا بالشرف

والكرامة ، بالدين والعروبة فلتسقط الأرض والابنية ، ولكن ليبق الشرف (٦١) . وقد تبنى البعثيون العراقيون الحاكمون رسميا نفس وجهه النظر ، وفى أعماق كثيرين من « المراقفين » العرب كان يكمن « رفض مكبوت » . وبين الفلسطينيين ، كان الجبهة الشعبية التى يقودها الدكتور جورج حبش هى التى قادت معارضة البرنامج المرحلى . أنه لا ينبغى أن يكون ثمة انحراف عن شعار ثورة حتى النصر ، عن الموقف الذى تمسك به آباؤهم وأجدادهم منذ تصريح بلفور سنة ١٩١٧ — « الرفض الكامل للوجود الصهيونى ومحاربته حتى النهاية » . وقد رأى حبشى ان قيادة فتح، برفضها اتخاذ أى موقف واضح تماما انما « تدفن رأسها فى الرمال » لا اكثر ولا أقل أن « نظرية المراحل » ليست حلم من احلام اليقظة ، لان « ميزان القوة الفلسطينية والعربية والدولية يجعل من المستحيل خلق دولة أو سلطة وطنية ديمقراطية يمكن لجماهيرنا الاعتماد عليها فى مواصلة النضال (٦٢) . لقد كان ما كان . قادة فتح لا يملكون الشجاعة أو الشرف الكافيين للاعتراف به ، الا وهو ان أحد الاجزاء التى لا تتجزأ من اية تسوية هو الاخماد النهائى للقتال الفلسطينى . وفى أعقاب حرب أكتوبر ، واصل حبشى والرافضون « مضايقة قاسية كانت تهدف تمزيق حركة المقارنة كلها تمزيقا حادا اذا ما سارعت عملية صنع السلام الدولية الى السير الجاد لقد اتهموا فتح بانها اتبعت فى حين الطريق « الاستسلامى » الذى رسمته مصر ، والمحوا من طرف خفى الى اتصالات سرية بين عرفات والدكتور كيسنجر ، وانسحبت الجبهة الشعبية من اللجنة التنفيذية لمنظمة تحرير فلسطين وسط خطوات تهديدية باقامة منظمة منافسة ، ، توزية فعلا ، تابعة لها وبالنسبة للمتطرفين من رفاقهم كان الارهاب الدولى هو الرد الوحيد على عرفات وبرنامجه المرحلى والطريق الوحيد لتخريب مظهر الاحترام الذى أصبح يشعر انه بحاجة اليه . ولم يكن المتهم الرئيسى عن ذلك هو جورج حبشى بقدر ما كان أبو نضال ، زعيم جماعة منشقة عن فتح تتخذ من بغداد قاعدة لها ، أما أبو نضال ، المشكوك فى انه هو الذى دبر عملية خطف طائرة شركة الخطوط الجوية البريطانية وعمليات خطف طائرات سابقة ، فقد حذر بدوره من « حرب أهلية فلسطينية » .

مهمات انتحارية : كيريات شمونة ومعالوت لم تنشب الحرب الأهلية فمن ناحية لم تتطور عملية صنع السلام قط تطورا جديا بما يكفى بحيث يضطر عرفات المحاصر الى القيام بالاختيار الحرج — كالذهاب الى مؤتمر

جنيف للسلام والذى كان من المحتمل ان يؤدي الى اثارتها ومن ناحية اخرى فانه لم يتخل عن النضال المسلح . لقد كان مستعدا لمواجهة مع « الرافضين » بسبب الارهاب الدولى والواقع أنه انحسر بالفعل لكنه لم يكن لديه اعتراض على عمليات تستعير التقنيات الجوهرية للارهاب الدولى — اخذ الرهائن والابتزاز — وذلك بشرط واحد وهو أن تتم على أرض فلسطين الاصلية . وقد شهد ربيع ١٩٧٤ سلسلة من « المهمات الانتحارية » المثيرة التى نفذها موافقون ورافضون على حد سواء . ففى أبريل ، قام ثلاثة شبان ينتمون الى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين (القيادة العامة) التى يقودها أحمد جبريل ، وهى جهاز صغير وان كان يتميز بالكفاءة على الصعيد العسكرى بتوجيه ضربة الى الرافضين وقد لقوا مصرعهم هم وثمانية عشر اسرائيليا ، من بينهم ثمانية اطفال ، فى مجمع سكنى فى مدينة كريات شمونة المالية ويقول الاسرائيليون ان الارهابيين الثلاثة قلد قتلوا بصورة منظمة كل من تسنى لهم العثور عليه قبل انتحارهم . وتقول الجبهة الشعبية انهم احتجزوا رهائن وطالبوا بالافراج عن مائة سجين فلسطينى ، وعندما اقتحم الجنود الاسرائيليون المبنى نسفوا أنفسهم ورهائنهم . وقد قالوا لعرفات فى رسالة نشرت بعد موتهم « لقد ضحينا بأرواحنا واثقين من أن تضحيتنا ، وتضحية كل شهدائنا ، لن تباع على يديك ، لقاء حلول استسلامية » .

وبعد ذلك بشهر جاء دور « الموافقين » وكان فى مقدمة هؤلاء الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين وكان زعيمها نايف حواتمة ، قد أخذ يتصرف فى أغلب الأحيان بوصفه مقتفيا لاثر عرفات فى « الاعتدال » الذى أعقب أكتوبر . وكانت آخر « بداية » له عبارة عن حديث صحفى موجة الى الشعب الاسرائيلى نشرته صحيفة صادرة فى تل أبيب . وقد أكد له أن ما تريده الجبهة هو « علاقة سلمية بين الفلسطينيين والاسرائيليين » ففى الوقت الراهن يعد المثل الفلسطينى الرسمى الا وهو الدولة الديمقراطية غير الصهيونية للعرب واليهود فى كل فلسطين مثلا غير قابل للتحقيق ، والى أن يتسنى له التحقيق فان تحقيق بعض الحقوق الفلسطينية — اقامة « سلطة وطنية مستقلة » فى الضفة الغربية وغزة وعودة اللاجئين — سوف يمهد السبيل لحوار بين الفلسطينيين والاسرائيليين « التقدميين والديمقراطيين المعارضين للامبريالية والصهيونية (٦٢) » . وفى ليلة ١٣ مايو وبعد سبعة أسابيع من هذا الحديث الصحفى تسلل ثلاثة من رجال حواتمه عبر الحدود اللبنانية مشددة

الحراسة وقتلوا فى الأمسية التالية سيدتين عربيتين فى مؤخرة شاحنة خفيفة لنقل السلع وفى الثالثة من صباح الخامس عشر من مايو عيد استقلال اسرائيل ، اقتحموا شقة فى قرية معالوث . وقتلوا ثلاثة من سكانها . ثم احتجزوا حوالى تسعين من أطفال مدرسة مجاورة . ومن الواضح أن أختيار الأطفال كرهائن كان متعمدا (٦٤) . ومن الصعب أن يكون أحد الملابسات المخففة لما حدث انهم كانوا فريقا من اتحاد تلامذة المدارس العسكرية الاسرائيلية وقد طالب الارهابيون بالافراج عن ستة وعشرين سجينا واحد لكل سنة من عمر اسرائيل ومن بينهم اثنين من اليهود الاسرائيليين أدينا بتهمة العمل لحساب الفدائيين . ومن الواضح أن عزوف اسرائيل عن التفاوض مع الإرهابيين على أرواح أطفال المدرسة كان متعمدا بنفس الدرجة (٦٥) . وكان ذلك اصطداما مناخيا لمنطقين متشددين وقد انتهى بكارثة . لقد كان من المقرر أن يفرج الارهابيون عن رهائنهم عند شفرة ، عبر دمشق ، تعيد بوصول السجناء الستة والعشرين الى العاصمة السورية . لكن الشفرة لم تصلهم قط . ان استعداد الحكومة الاسرائيلية الظاهرى ، ولو لمرة ، للرضوخ للابتزاز الارهابى لم يكن أكثر من تعبير ظاهرى عن الشفقة بهدف التأثير على جمهور يتمزق ألما . فقد خططت على طول الخط لاقتحام المدرسة ، ودخلتها قوة الهجوم قبل هبوط الليل بقليل ومات خلال المجزرة عشرون طفلا والارهابيون الثلاثة واصيب حوالى سبعون بجراح .

وقد تصور الاسرائيليون ، فى البداية ، أن نفس المنظمة « الرافضة » التى كانت قد شنت غارة كيريات شمونة قبل ذلك بشهر هى التى دبرت هذه العملية أيضا . وهكذا كانت صدمة اضافية عندما تبين أنه اذا كان الفلسطينيون فى شخص عرفات وحواتمه ، فقد انتهوا الى تبنى أهداف « معتدلة » ، فان أساليبهم مازالت « متطرفة » كما كانت دائما والواقع أن فتح لم تعد بريئة كما كانت فى المرة الأولى — من الناحية الرسمية على الأقل من تهمة ضرب الأهداف العسكرية وحدها . وقد قال أحد مسئولى منظمة تحرير فلسطين : « أنه شيء محزن ، واننى لامقته ، لقد شربنا الاسرائيليون أفكارهم ونحن الآن نقاتل بأسلوبهم . أن الاسرائيليين هم الذين علمونا ، من خلال التجربة الدامية ، انه لايمكن أن يكون ثمة تمييز بين الجندى والمدنى (٦٦) » .

وكان باديا أن فعالية « المهمة الانتحارية » ليست محل جدال فقد كانت

اذا تحدثنا بلغة اقتصادية باردة كما فعل بعض الفدائيين ، ذات عائد مرتفع جدا بالقياس الى تكلفتها لقد كان الفارق بين مجازفة تقليدية وعملية فدائية انتحارية قفزة كمية في معدل قتل الافراد ومن ثم فقد كان ذلك على وجه العموم في مصلحة اسرائيل . لكن النتيجة في « أنجح » مهمتين في سلسلة « المهمات الانتحارية »كريات شمونة ومعالوت ــ كانت ثمانية وأربعين قتيلا اسرائيليا في مقابل ستة قتلى فلسطينيين ولم يتمكن الاسرائيليون من استعادة الميزان في صالحهم الا مع قصف مخيمات اللاجئين . وكان الفدائيون يعتقدون انه من الصعب بالنسبة للاسرائيليين تحمل مثل هذه الخسائر في حين أن شعبهم ، الذي لا يملك ما يخسره سوى مخيماته ، يمكنه استيعاب الموت والدمار بما بدا انه خلافا لذلك ، هدوء جبري ، وكانوا يعتقدون أن « المهمة الانتحارية » يجب في الوقت نفسه أن تكون شديدة الازعاج للاسرائيليين الذين لا يمكنهم الا أن يروا فيها دليلا على الاصرار الفلسطيني على عدم التخلي ابدا عن النضال والواقع انهم لم يكونوا بحاجة الى أن يمدوا أبصارهم بعيدا لاكتشاف دليل على « الهيستيريا » التي كانت تتخلل المجتمع الاسرائيلي ــ والتي اعترفت بها صحافة العدو نفسها . فقد سمعوا عن الجموع العادية ، في مدن الحدود المنكوبة ، وهي تتجمهر وتهاجم الجنرال دايان الذي كان يتعين على جنوده أن يقوموا بحمايته وقد اشار استفتاء للراى العام الى أن ٦٨٫٦ في المائة من الاسرائيليين لا يوافقون على سياساته المتشددة « الرافضة للمساومة » وانحطاط الروح المعنوية لليهود الشرقيين الذين كانوا الضحايا الرئيسيين للارهاب الجديد والذين كانوا ممتعضين بالفعل من وضعهم كمواطنين من الدرجة الثانية والقلق ازاء النزعة القومية الوليدة بين العرب الاسرائيليين الناطقين بالعبرية وتجنيدهم لحساب الفدائيين والرجل العجوز في معالوت الذي همهم قائلا : « لن يكون ثمة سلام أبدا في هذه الأرض الملعونة » عرفات يلقي خطابا في الامم المتحدة لقد ظهر ان الارهاب الجديد على وجه العموم قد جعل الاسرائيليين أكثر لا أقل تشددا وأخذ يظهر أن جماعة « الحمائم » الاسرائيلية الصغيرة ، التي كانت قد وجدت تشجيعا في مقترحات حواتمه التصالحية قد انحسر نفوذها عن ذي قبل . أين حواره الآن ؟ لقد تنهد يوري افنيري قائلا : « لقد انتكسنا مسافة عشر سنوات ، وفقد اليسار محل الأرضية التي كان قد كسبها . انني لا أصدق ان ينتهي الأمر بحواتمه الى خدمة جولدا مائير ومناحم بيجين » وفي ظل رئيس وزرائها الجديد ، اسحق رابين ، وجدت الحكومة الاسرائيلية كل حجم التشدد التي كانت بحاجة اليه فقد اثبتت عملية معالوت ان هدف عرفات ، رغم كل كلماته

الانسانية ، مازال خبيثا كما كان دائما : القضاء على اسرائيــل ولذلك لم تكن هناك حاجة بالنسبة لاسرائيل الى تغيير سياساتها هي الأخرى انها لن تعترف بوجود شيء اسمه « الشعب الفلسطيني » ، ناهيك عن الاعتراف بأن لمنظمة تحرير فلسطين حقا في تمثيله . أما الدولة الفلسطينية فسوف تكون « قنبلة زمنية » وقد وافقه على ذلك ما لا يقل عن٨ر٧٠ في المائة من الاسرائيليين لقد كانوا معارضين لمثل هذه الدولة حتى وان كانت ضمن اطار سلام شامل . الا انه لا يمكن أن يكون ثمة شك في أن التشدد الاسرائيلي كان غير واقعي بصورة متزايدة . وقد واصل الحمائم الاشارة الى ذلك . وقال احدهم ان قليلين من الاسرائيليين هم الذين مازالوا على اســـتعداد لادعاء عدم وجود شيء اسمه « المشكلة الفلسطينية » لكن الغالبية مازالت تأمل في أنه اذا ما انصرف الفكر عنها ، فانها سوف تتلاشى من تلقاء نفســـها وان الأرض سوف تنشق بمعجزة وتبتلع كل الفلسطينيين ونبه الى أن الوقت ليس في صالح اسرائيل . انها في يوم من الأيام ، سوف تستيقظ وتجـــد الفلسطينيين امام مائدة المفاوضات سواء شاءت ذلك أى أم أبت (٦٨) . وقد اشار الى ذلك العالم الخارجي أيضا والواقع أن هناك في الحلبة الديبلوماسية الدولية كان عرفات على وشك احراز سلسلة متصلة من النجاحات المثيرة التى عززت النجاحات العسكرية وألقت عليها ظلالا كثيفة ودفعت الحـرب الاهلية التى كان ابو نضال يهدد بها مسافة أبعد الى الخلف وكان المنتـــدي الرئيس هو الأمم المتحدة . لقد كان الصهيونيون قد كسبوا انتصارا مدويا في ١٩٤٧ مع قرار الجمعية العامة الخاص بالتقسيم . وقد تمســـكوا به بوصفه ميثاق شرعية اسرائيل : الا أنهم بالرغم من أنه كان بالفعل حـكما يميل في مصلحتهم بثقل خيالي فانهم قد انتهكوا بصورة منتظمة بنوده التى كانت تحاول تأمين حقوق الفلسطينيين وهكذا فاذا كانت هناك أية شرعية دولية يمكن للفلسطينيين عن طريقها تدعيم قضيتهم وتقوية يدهم في عمليـــة صنع السلام فان الأمم المتحدة هى التى كان عليها أن تقدم هذه الشرعية ـــ لقد كانوا يسعون الى تحديد لحقوقهم وتحقيق تقدم ملحوظ . ففى ١٩٤٧ كانت الأمم المتحدة التى كانت منظمة خاضعة لسيطرة الغـــرب أصغر بكثير مما آلت اليه فيما بعد ، كانت متحيزة الى جانب الصهيونيين أما الآن فقد تبدلت الأمور ، وأصبحت القضية الفلسطينية مستفيدة تلقائيا من تأييـــد أصوات الكتلة الافرو ـــ أســـيوية . وكان هدف الفلسطينيين هو كسب الاعتراف بأنفسهم لا كمجرد لاجئين يستحقون المساعدة لاعتبارات انسانية، بل كشعب له مطامحه السياســـية . وهكذا ففى ١٩٦٩ اكدت الجمعيـــة العـــامة للمرة الأولى حق « الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره بنفســـه

وقالت ان انكار هذا الحق هو السبب الجذرى فى مشكلة اللاجئين برمتها وقد أعيد تأكيد ذلك باصرار متزايد فى السنوات التالية الى أن أوجدت الجمعية العامة ، فى ١٩٧٣ صلة واضحة بين تقرير المصير وحق العودة حيث أعتبرت هذا الحق الأخير شرطا لا غنى عنه للاول وكان الاعتراف ب « الحقوق » مصحوبا بالاعتراف بحق « النضال » من أجل بلوغها ، وهكذا ففى قرار صدر فى ١٩٧٠ صنف الفلسطينيون مع شعوب افريقية الجنوبية المختلفة بوصفهم ضحايا « لسيطرة استعمارية وذخيلة » وهم بهذه الصفة يملكون الحق فى استعادة حقوقهم « بأية وسيلة يملكونها (٦٩) ».

ثم جاءت الذروة بعد ذلك فقد قررت الجمعية العامة للأمم المتحدة للمرة الأولى منذ ١٩٥٢ اجراء مناقشة كاملة للمسألة الفلسطينية ودعت منظمة تحرير فلسطين بوصفها ممثل الشعب الفلسطينى الى المشاركة فيها وحانت الذروة بصورة ملائمة ففى ١٩٤٧ ، كانت فرنسا قد صوتت الى جانب التقسيم ، لتصبح أحد أصدقاء اسرائيل شديدى الاخلاص فى سنواتها الأولى . الا أنه عندما قام وزير خارجيتها جان سوفاينارج فى أكتوبر ١٩٧٤ ، بزيارة رسمية الى لبنان حرص على تناول الافطار مع ياسر عرفات وقد تردد أنه صرح فيما بعد للمقربين له بأن عرفات يتحلى بمكانة رجل دولة ، وانه « معتدل » ، « يمثل ويجسد مطامح الفلسطينيين » (٧٠) أن المأدبة الودية التى تمت فى مقر اقامة السفير الفرنسى قد بدأت وانتهت مصحوبة بأزيز صوتى مرتفع من طائرات حربية اسرائيلية كانت تحلق على أرتفاع عال ــ ويبدو ان ذلك كان ايماءة الى عدم الأرتياح ازاء ما كان يعتبر أول اعتراف رسمى بمنظمة تحرير فلسطين من جانب دولة غربية كبرى وقد تم بعد ذلك بأيام قليلة « فرح عند الفلسطينيين » فهكذا وصف عرفات مؤتمر القمة العربى فى الرباط اذ كان يرى أن العرش الهاشمى يلى اسرائيل مباشرة كأداة للنوائب التى ابتلى بها الفلسطينيون . وقد رضخ الملك حسين ، فى الرباط ، لضغط عربى ساحق وتخلى عن نصف مملكته اذ تنازل لمنظمة تحرير فلسطين تنازلا قانونيا عن الضفة الغربية والقدس التى كان قد خسرها خسارة مادية أمام الاسرائيليين فى ١٩٦٧ وكان ذلك انتصارا ديبلوماسيا ثأر للهزيمة العسكرية التى حدثت فى أيلول الأسود سنة ١٩٧٠ .

وقد استقبل تمجيد عرفات ــ الذى جرى بعد ذلك بأسبوعين على منصة الجمعية العامة للأمم المتحدة ــ استقبل من جانب كل الفلسطينيين ، « الموافقين » و « الرافضين » على حد سواء ، بوصفه لحظة ثأر جميلة

بالفعل . ان الفلسطينيين ليســـوا موجودين وحسب ـ رغم أنف جولدا مائير ، بل ان زعيما لقى هنـا انتباها مشحونا بالعواطف ، وهو يخاطب العالم ، لم يلقه من قبله قط أي رجل دولة زائر مهما كان مرموقا أو مثـار خلافات . وقد ذكر الصحفيون العـرب من نيويورك أن الرجل الذى بدأ قبل ذلك بعشر سنوات التسلل عبر حدود إسرائيل فى مهمات تخريبية غير ملحوظة تقريبا يدشن الآن العملية الفدائيـة الأكثر اثارة فى تاريخه . ان نيويورك التى تضم عددا من اليهــود يفوق العدد الذى تضمه اسرائيل نفسها ، كانت أرض عدو بالتأكيد . وقد قال زعيم يهودى ان عرفات قد نظر اليه هناك بذلك النوع من الكراهية التي كان يختص بها هتلر فى وقت من الأوقات ، وقد ولد المناخ السائد قبل وصوله « نفس نوع التضامن الذى يولده تفجر حرب » (٧١) . لقد سبقته مظاهرة ضخمة . وتجمـع عشرات الآلاف فى ميدان همرشولد فى ظلال مبنى الأمم المتحدة للاستماع الى الزعماء الاسرائيليين وهم يدينون الجرم الذى كان على وشك أن يقترف وكان على راسهم أعضاء فى مجلس الشيوخ ورجال الكونجـرس من نيويورك ونصف زينه من الولايات الأخرى ، وأعضاء فى مجلس المدينة ، وعمدة المدينـة ، ومسئولون فى الدولة ، وزعماء نقابيون ومعظم المرشحين فى انتخابات نيويورك التاليـــة :

تلك هى أهمية اسرائيل فى السياسة الأمريكية الداخلية . وقد حمل المتظاهرون اليهود والمسيحيون البيض والسود ، حملوا لافتات تقـول : « الأمم المتحدة تتحول الى منتدى للارهاب » . « منظمة تحرير فلسـطين قتل دولي » . « نرفض مصافحة يد منظمة تحرير فلسطين الملطخة بالدماء». ومن بين المتحدثين ، كان السناتور هنرى جاكسون ، المدافع عن اليهـود السوفييت ، هو الذى حظى بأحر تصفيق : فقد أعلن أن قرار الأمم المتحدة الخاص بالاعتراف بمنظمة تحرير فلسطين « يهدد احتمالات السلام الباهتة بالفعل . ان الأمم المتحـدة تفوح منها رائحة الابتزاز » . وباسم اتحـاد العمال الأمريكيين ، دعا متحدث آخر الى فرض حظر أمريكى على «البترول العربى المسمم » . وزعم أن حلفاء أمريكا الأوروبيين قد «استسلموا» فعلا للعرب . واتخذ الاحتجاج مظهرا عنيفا أيضـا . فقـد قام مناضلو رابطة الدفاع اليهـودى التى يتزعمها الحاخام مائير كاهان بغـزو مكتب منظمة تحرير فلسطين فى وسط المدينة وضربوا المدير المساعد بماسورة مصنوعة من الرصاص . اما راسيل كيلنر ، « ضابط عمليات » الرابطة فقد دعـا الى مؤتمر صحفى ، وأعلن وأمامه مسدس على المنضـدة ؛ أن « قتلة »

منظمة تحرير فلسطين لا مكان لهم فى نيويورك وأن « رجالا مدربين » سوف يتكلفون بعدم مغادرة عرفات ومساعدوه فى نيويورك أحيانا (٧٢) وفى العادة يكون مبنى الأمم المتحدة خلال راحات نهاية الاسبوع الخريفية المشمسة ، مزدوجا باربعة آلاف أو خمسة آلاف زائر ويقوم سكان نيويورك بالتجول عبر حدائق مداخله التى تبلغ مساحتها ثمانية عشر اكرا والمطلة على ايست زيفر متمتعين بمشاهدة ورود الاقحوان أو آخر ازهار الصيف وتنزل العائلات المقيمة فى الضواحى الى محلات بيع الهدايا فى الادوار السفلية ويقوم محبو المشاهدة بجولات سياحية يرافقهم فيها المرشدون ولكن شيئا من ذلك لم يحدث فى يومى ١١ و١٢ نوفمبر ١٩٧٤ — ففى هذه الراحة الأسبوعية كان المكان كله معزولا بأحكام عن العالم الخارجي . اذ كان من المقرر ان يقوم عرفات بالقاء خطابه فى الجمعية العامة يوم الاثنين ، الموافق ١٣ نوفمبر وكانت تجرى حراسته باشد تدابير الأمن فى تاريخ الامم المتحدة فقد حملته هو والوفد المرافق له طائرتان عموديتان تابعتان للجيش الأمريكى من المطار ، وبينما كانتا تنزلانه فى الفناء ، كانت طائرات عمودية أخرى تحلق على ارتفاع فى داوريات حراسة وكانت الزوارق البخارية تطوف فى ايست ريفر وكان الرماة يقومون بالمراقبة من مبان مرتفعة وكان المئات من رجال بوليس نيويورك والحرس الاتحادى المكلفون بهذه المهمة بالتحديد يحرسون المتاريس الخشبية فى الشوارع وقبل الظهر بقليل ، دخل عرفات الى الجمعية العامة حيث قوبل بتصفيق المندوبين الواقفين اذ لم يبق جالسا سوى أعضاء الوفد الامريكى . وكانت القاعة غاصة عن آخرها ، ولم يكن هناك سوى مجموعتين من المقاعد الخالية ، هي مقاعد الاسرائيليين الذين لم يكن بوسعهم مواجهة هذا الانتصار الفلسطينى والافريقيين الجنوبيين ، الذين كانوا قد حرموا مؤقتا من حضور اجتماعات الجمعية فى الليلة السابقة . وقد رافق عرفات الى المنصة رئيس التشريفات واجلسه فى مقعد من الجلد الابيض مخصص لرؤساء الدول . وبموجب اجراء لم يطبق قبل ذلك الا مرة واحدة — وذلك مع شخصية عظيمة هى البابا — أصبح أول زعيم « لحركة تحرير وطنى » يحظى بشرف كهذا . لانه هو ، بدوره لم يفعل شيئا هاما للتظاهر بمظهر رئيس دولة . فقد كان كعادته ، يرتدى كوفيته ذات المربعات وبنطلونه الفضفاض وقميصه المفتوح على الرقبة وجاكتته غير اللائقة . وقد كشف جراب المسدس المعلق فى جنبه عندما رفع ذراعيه محييا تحية الثورة ، تعبيرا عن امتنانه للتصفيق . لكنه يبدو أنه كان قد حلق ذقنه بصورة ملائمة على الأقل ، وقد قيل ان الجراب كان خاليا

الا أنه من المؤكد اذا تحدثنا بصورة مجازية انه والشعب الذى يمثله لم يلقيا بالتأكيد سلاحهما — رغم أنهما كانا ينتظران بلهفة لليوم الذى يصبح فى مقدورهما أن يفعلا فيه ذلك .

« لقد جئت حاملا غصن زيتون وبندقية مقاتل فى سـبيل الحرية . فلا تدعوا غصن الزيتون يسقط من يدى » بهذا النداء ، انهى كلمته التى استغرقت مائة دقيقة وكان قد تحدث اثناءها بشغف عن فلسطين الغد التى يدعو اليها عن دولته الديمقراطية للمسلمين والمسيحيين واليهود . وقـد وصفها » بحلمه « ودعا اليهود المقيمين الآن فى فلسطين كافة ، الى الابتعاد عن الايديولوجية الصهيونية ، التى لم تقدم لهم غير اراقة دم مستمرة ، والى مشاركته حلمه .

وقد قوبلت الكلمة — وقرارات الامم المتحدة التالية لصلحة منظمة تحرير فلسطين بين اسرائيـل ومؤيديها بنفس الغضب الحالك الذى كان التقسيم قد قوبل به بين العرب ، قبل ذلك بسبع وعشرين سنة . وصدر عن المندوب الاسرائيلى تقريع مستفيض يتميز بقوة نادرة ليس فقط ضد عصابة عرفات المؤلفة من « القتلة وقاطعى الرقاب »الذين جروا الامم المتحدة الى « مثل وقيم سدوم وعمورة » بل ضد المجموعة الدولية التى سمحت لهم فى أيام الانحطاط والخزى ، أيام الاستسلام والذل » بان يفعلوا ذلك . اما بالنسبة لوزير الخارجية ، فان « صوت عرفات كان وما يزال صوت الارهاب العشوائى ، صوت البندقية المتبرىء من كل ماله علاقة بغصن زيتون السلام » فالوزير لم ينخدع بالبلاغة الكريمة كما لم تنخدع بها الصحافة الاسرائيلية . وقد قال أحد المعلقين انه من الواضح ان اية دولة فلسطينية فى الضفة الغربية أو غزة لن تكون أكثر من قاعدة لاستئناف الحرب ضـد اسرائيل مختزلة بصورة ملائمة ضمن حدودها السابقة الاكثر عرضة للخطر . « ولا يمكن لاى شخص عاقل — اذا كان ما يزال هناك اى شخص عاقل فى عالم متعطش الى البترول — ان يطالبنا بتسليم هذه المناطق لمنظمة تحرير فلسطين الا اذا كان ينتظر من اسرائيل أن تقدم على الانتحار » (٧٢) .

الا انه اذا كان الاسرائيليون لم يروا فى ذلك غير تكرار لمذهبية متشددة ، فى شكل خادع فان الفلسطينيين خاصة سكان الضفة الغربية ، قد رأوا فيه مزيدا من الاعتـدال الذى اعقب اكتوبر وكان « حلم » عرفات هو الشىء الوحيد الذى انتبه اليه الاسرائيليون أما الهدف العملى ، المباشر الذى طرحه وهو « السلطة الوطنية » فهو الشىء الذى اثار اهتمامهم ان الاسرائيليين لم يروا غير البندقية لكن الفلسطينيين رأوا غصن الزيتون وبالنسـبة لمعظم

الفلسطينيين كان الحلم مجرد ولاء كلامي لهدف التحرير الكامل وكان بديهيا ان عرفات كان مضطرا الى أبداء هذا الولاء اذ كان عليه أن يهدى أولئك « الرافضين » ، المؤمنين بان استراتيجية الثورة حتى النصر استراتيجية النضال المسلح المستمر هى الطريق الوحيد الى تحقيق ذلك الهدف الذى ما زال يتقاسمه وسميا عرفات « المعتدل » حديثا وجورج حبشى الذى لايلين لكن الحقيقة ان اقامة دولة فلسطينية لا يمكن أن تعنى الا النضال ، اذا استمر على الاطلاق ، سوف يكون نضالا سلميا وسياسيا فالتسوية النهائية لأزمة الشرق الأوســـط تجرم العنف . وسوف يتختم أن تجىء ضمانات صـــارمة من كل الاطراف دون اســـتثناء الفـــدائيين ، الذين حاربوا واستشهدوا ، طوال السنوات العشر الماضية وهم يؤمنون بأن العنف أو العنف الثورى المضاد كما كانوا يرونه ، هو السبيل الوحيد الى خلاص شعبهم . وقد فهم ذلك فلسطينيون كثيرون خاصة سكان الضفة الغربية ، وقبلوه وقد قال رئيس تحرير صحيفة الفجر المتشـددة التى تصدر فى القدس : « ان فلسطين الديمقراطية هى أيضا حلم بالنسبة لنا لكننا نعتقد انه لا يمكن للدولتين العربية واليهودية فى فلسطين أن تندمجا الا من خلال عملية سياسية تدريجية (٧٤) كما كان من المفهوم على نطاق واسع ان ذلك قد يكون بقدر فوق الصهيونية المضادة به على الاطلاق وان ما افترضـه عرفات كمرحلة انتقالية غير محددة الأجل سوف تكون هى المرحلة النهائية فعلا . وقال أستاذ من كلية بيروت « ان ٨٠ فى المائة منا يدركون ذلك ادراكا عميقا ومن الصعب بالنســبة لنـا أن نقول للاسرائيليين اننا على استعداد لأن نفعل ذلك اننا لم نعد نريد طردهم من الأرض التى طردونا منها ان بعضنا ما زال يريد أن يفعل ذلك لكنهم ليسوا الصوت الغالب . لكن على الاسرائيليين بالمقابل أن ينسحبوا من كل الأراضى المحتلة فى ١٩٦٧ على الأقل ولا يمـكن لأى شىء أقل من ذلك أن يكون عمليـا ــ وعليهم أن يفهموا ذلك » (٧٥) .

لكنهم لم يفهموه واكثر من ذلك ان الأستاذ لم يتوقع منهم فعلا أن يفهموه واذا كان الاسرائيليون لم يلحظوا تغيرا فى موقف الفلسطينيين من المؤكد انه ، شأنه فى ذلك شأن معظم مواطنيه، لم يلحظ تغيرا كبيرا فى موقفهم ومن الناحية النظرية ، كان عرفات ما يزال ممسكا بغصنه الزيتونى : لكنه سرعان ما ذبل من الاهمال وقد أدرك العرب ان الاسرائيليين عاجزون عجزا فطريا عن التخلى عن سياسة القوة التى كانوا يعتمدون عليها دائما وكلما ازدادت نهضـــة الفلسطينيين وضوحا كلما رفضوا الاعتراف بمزيد من العناد وقد أخـــذ

رسامو الكاريكاتير يصورون اسرائيل في صورة رجل يضع أصابعه في اذنيه ويرفض سماع اى شيء وأصبح الموضوع الرئيسي لكاتب المقالات الافتتاحية هو « رفضها قبول الحقائق » و (تماديها في السخافات) هذا بمثابة موقف تجد مبالغ فيه من حيث ان اسرائيل ، حسب تصويرهم لا تملك الموارد اللازمة لتحمل تبعاته وقد قالوا أن كل الدلائل تشير الى انه ، بصرف النظر عن الموقف العسكري الدقيق فان ميزان القوة الاساسى مستمر في التحول الى جانب العرب . وقد قالت صحيفة بيروتية انه منذ حرب اكتوبر اصبح الكيان الصهيوني فى حالة أزمة دائمة يصعب تماما التحكم فيها وقالت صحيفة اخرى ان اسرائيل ليس بوسعها أن تحلم بالعيش « كجسم غريب » في منطقتها باكثر مما هو بوسع روديسيا وجنوب افريقيا في منطقتيهما (٧٦) لكنهم نبهوا الى أن اسرائيل سوف تحاول على الارجح قلب الموائد على العرب في المجال العسكري الذى ما زالت لها فيه فرصة لان تفعل ذلك . وقد أشاروا الى أن مثل هذه المحاولة سوف تكون محاولة غير عقلانية من حيث ان السبب الرئيسى لأزمتها الراهن هو النتائج الاقتصادية والدبلوماسية والنفسية للحرب . الا أن صورة العدو شبه الهيستيرى ، صورة اسرائيل المسعورة ، اسرائيل القلعة المحصنة ، المستعدة للموت بالسيف الذى خلقت به ، هذه الصورة ايضا كانت في الوجدان العربي .

ومن المؤكد أن الاسرائيليين لم يلقوا البندقية . وبعد ستة ايام من تمجيد عرفات فى الامم المتحدة ، اقتحم اربعة رجال من الجبهة الشعبية الديمقراطية التى يقودها نايف حواتمة مبنى سكنيا فى مدينة بيت شيعا . وقد قتلوا اربعة اسرائيليين واصابوا عشرين آخرين بجراح قبل ان يقتلوا انفسهم . وقد استولى أناس مسعورون على جثث الارهابيين القتلى ، والقوا بها من النوافذ واشعلوا فيها النار وبلغ غضبهم حدا جعلهم لا يميزون بين الميت المحتضر من الاسرائيليين واجهزوا على أحد الارهابيين الذى كا يحتضر وكانت تلك « مهمة انتحارية » شنيعة بشكل خاص أثبت انه من المؤكد انه لم يلق بندقيته عندما رفع غصن زيتون باحدى يديه .

ملاحظات ومراجع الفصل التاسع :

(١) وثائق فلسطينية ، ١٩٦٧ ، معهد الدراسات الفلسطينية بيروت ، ١٩٦٨ ، ص ٢٩٤ ، ص ١٠٨٤ .

(٢) صادق العظم « دراسات يسارية في المشكلة الفلسطينية » ، دار الطليعة ، بيروت، ١٩٧٠ ، ص ٥٣ ، ص ٥٥ .

(٣) أنظر وليد فريحة « التحول الثوري في العالم العربي » ، تشارلز نايت ، لندن ، ١٩٧٥ ، ص ٥٢ ـ ٥٣ .

(٤) محمد راشد (نبيل شعث) ، نحو دولة ديمقراطية في فلسطين مركز ابحاث منظمة تحرير فلسطين ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ص ١٦ .

(٥) الشرقاوي ، منظمة فتح ١٩٦٥ ، ١٩٧١ ، مصدر سابق ، ص ١٨١ .

(٦) راشد ، مصدر سابق ، ص ١٥ .

(٧) المصدر السابق ، ص ٤٨ .

(٨) الشرقاوي ، مصدر سابق ، ص ٣٢١ .

(٩) يعاري ، ارهاب الهجوم ، قصة فتح ، مصدر سابق ، ص ١٥٠ .

(١٠) الخطيب ، حسام ، « الى اين تسير الثورة الفلسطينية ؟ » شئون فلسطينية ، بيروت ، اكتوبر ١٩٧١ ، ص ٥ ـ ٧ .

(١١) المصدر السابق ، ص ٧

(١٢) المصـــــدر الســـابق ، ص ٧

(١٣) الشرقاوي ، مصدر سابق ، ص ٣١٧ .

(١٤) المصدر السابق ، ص ٣١٧ .

(١٥) هاآرتس ، ٢٠ اكتوبر ١٩٦٨ .

(١٦) أور .أ. ، وماخوفير ، موشيه ، اسرائيل ، مارس ١٩٧٠ .

(١٧) اسرائيل الاخرى ، مصدر سابق ، ص ١٧٦ .

(١٨) يهوشافاط هاركابي الفلسطينيون واسرائيل ، دار نشر كيتير ، القدس ، ١٩٧٤ ، ص ٧٠ ـ ١٢٦ .

(١٩) نبيل شعث ، « فلسطين الغد » ، شئون فلسطينية بيروت ، مايو ١٩٧١ ، ص ٩

(٢٠) المحرر ، ١٩ نوفمبر ١٩٦٨ .

(٢١) الشرقاوي ، مصدر سابق ، ص ٣١٨ .

(٢٢) المصدر السابق ، ص ٣١٣ ـ ٣١٥ .

(٢٣) يوسف صايغ ((استنزاف اسرائيل نتيجة للنضال المسلح ، شئون فلسطينية ، سبتمبر ١٩٧١ ، ص ٥٨ .

(٢٤) المتحدث العسكرى ٧ أغسطس ١٩٦٨ .

(٢٥) عليماء الصلح ، النهار ، ٤ يونيو ١٩٦٨ .

(٢٦) ياسر عرفات ، تصريح لروز اليوسف ، ١١ نوفمبر ١٩٦٩ .

(٢٧) راشد ، مصدر سابق ، ص ٣٣ .

(٢٨) فلسطين الثورة ، يناير ١٩٦٨ ، ص ٢٥ .

(٢٩) المصدر السابق ، سبتمبر ١٩٦٨ ، ص ٢٩ .

(٣٠) دير شتيرن ، ١٦ سبتمبر ١٩٧٠ .

(٣١) الخطيب ، مصدر سابق ، ص ٨ .

(٣٢) الانوار ، ١٢ فبراير ١٩٦٩ .

(٣٣) أنظر الجارديان ، ٢٩ ديسمبر ١٩٧٠ .

(٣٤) يعارى ، مصدر سابط ، ص ٣٥٣ .

(٣٥) الجارديان ، ٢٠ يوليو ١٩٧١ .

(٣٦) افريكاازى ، باريس ، ٢٤ يناير ١٩٧٢ .

(٣٧) اديسمبر ١٩٧١ .

(٣٨) آراب ريبورت آند ريكورد ، لندن ، العدد ٤ ، ١٩٧٢ ص ١٠٤ .

(٣٩) ٧ سبتمبر ١٩٧٢ .

(٤٠) حسام الخطيب ((أفكار حول العنف الفلسطينى)) ، شئون فلسطينية مارس مارس ١٩٧٢ ، ص ٢٣ .

(٤١) اربزرفو فورن نيوزسيرفيس ، ١٥ سبتمبر ١٩٧٢ .

(٤٢) الشرقاوى ، مصدر سابق ، ص ٣١٧ .

(٤٣) الصياد ، ١٣ سبتمبر ١٩٧٢ .

(٤٤) لونوفيل اوبزرفاتور ، ١١ سبتمبر ١٩٧٢ .

(٤٥) النهار ، ٢٤ نوفمبر ٦٩٧٢ .

(٤٦) انظر ص ٢٥١ .

(٤٧) تايم ، ٢ أكتوبر ١٩٧٢ .

(٤٨) المصدر السابق .

(٤٩) الجارديان ، ٣ أكتوبر ١٩٧٢ ، أنظر ص ١٦٤ ــ ١٧٠ .

(٥٠) المصدر السابق ، أيونيو ١٩٧٢ .

(٥١) محمد هيكل الاهرام ، ٩ يونيو ١٩٧٢ .
(٥٢) المحرر ، ٣ مارس ١٩٧٣ .
(٥٣) الجارديان ، ٢٢ مارس ١٩٧٣ .
(٥٤) صاندار تايمز ، ٢٩ ابريل ١٩٧٣ .
(٥٥) النهار ، ٧ و ٨ و ٩ نوفمبر ١٩٧٣ .
(٥٦) الجارديان ، ١٧ يناير ١٩٧٤ .
(٥٧) المصـــدر السابق .
(٥٨) المصـــدر الســـابق .
(٥٩) المصدر السابق ، ١٠ يونيو ١٩٧٤ .
(٦٠) ٥ ينـــاير ١٩٧٤ .
(٦١) الجارديان ، ١٨ يناير ١٩٧٤ .
(٦٢) المصـــدر الســـابق .
(٦٣) لوبوند ، ٢٣ مارس ١٩٧٤ .
(٦٤) صـــانداى تايمز ، ١٩ مايو ١٩٧٤ .
(٦٥) التـــايمز ، ٢٩ مايو ١٩٧٤ .
(٦٦) ديلى ســـتار ، بيروت ، ١٩ مايو ١٩٧٤ .
(٦٧) لونوفيل اوبزرفاتور ، ٢١ مايو ١٩٧٤ .
(٦٨) دافار ، ٣٠ يونيو ١٩٧٤ .
(٦٩) انظر هايث ارمنازى « حقوق الفلسطينيين » ـ التعريف الدولى ، « جورنال أوف باليستاين ستاويز » ، بيروت ، المجلد ٣ العدد ٣ ١٩٧٤ .
(٧٠) الجارديان ، ٢٢ أكتوبر ١٩٧٤ .
(٧١) انترناشيونال الهيرالديبيرون ، ١١ نوفمبر ١٩٧٤ .
(٧٢) التايمز ، ١٣ نوفمبر ١٩٧٤
(٧٣) يديعون احرونوت ، ١٤ نوفمبر ١٩٧٤ .
(٧٤) الجارديان ، ٢٧ ويسمبر ١٩٧٤ .
(٧٥) المصـــدر الســـابق .
(٧٦) المصـــدر السابق ، ١٤ نوفمبر ١٩٧٤ .

الخـــاتمة

كان خطاب ياسر عرفات فى الأمم المتحدة مرحلة خطيرة فى مصـــائر الفلسطينيين المتجددة لكن المستقبل كان يبشر بمزيد من النجاح . ففى دورتها التالية ، بعد ذلك بسنة ، وصمت الجمعية العامة الصهيونية رسميا بأنها « شكل من اشكال العنصريه والتمييز العنصرى » . وظهرت وطردت اسرائيل من اليونسكو احتجاجا على تهويدها للقدس العربية ، بينما قبلت منظمة تحرير فلسطين كمراقب فى منظمات تابعة للامم المتحدة كمنظمة العمل الدولية والبيئة بل ووكاله الطاقة الذرية الدولية . أما رأى اسرائيل ومعظم أصدقائها الغربيين فى القرار الذى يساوى بين الصهيونية والعنصرية ، ومثل ذلك من النتاجات الاخرى لتصويت كتلة العالم الثالث ، فقـــد انعكس فى الخطب الهادرة لدانييل موينيهان ، المندوب الامريكى لدى الامم المتحدة ، الذى أعلن ان معاداة السامية البغيضة قد اتخذت مظهر اقرار دولى . لكن اسرائيل وأصدقاءها الغربيين لم يكونوا متحدين دائما بهذه الدرجة ، فالواقع ان سمعة اسرائيل ، فى ساحة الرأى العام الغربى ، وان كانت ما تزال عالية كانت تمر بانحطاط متصل . وبالنسبة للرأى العام الامريكى الموله ، لم تعد « قلعة الديمقراطية فى الشرق الأوسط وبالتحديد مثال الفضيلة الذى كانت من قبل ، ولم تعد تلبية كل رغبة من رغباتها بالتحديد ضرورة ملحة بهذه الدرجة بالنسبة للحكومات الأمريكية . بل انه عندما كان موينيهان يعبر عن اشمئزازه من معاداة السامية الجديدة كان مسئول آخر فى وزارة الخارجية يبلغ مجلس النواب بأن على الولايات المتحدة ان تعمل فى اتجاه « تحديد معقول للمصـــالح الفلسطينية » ، ورأى الاسرائيليون فيما يسمى بـ « وثيقة ســـاندرز » أول أعتراف أمريكى بالحقيقة الواضحة : ان أية تســوية لأزمة الشرق الأوسط يجب أن تمنح الشعب الفلسطينى حق تقرير المصــير الذى سعوا دائما الى انكاره عليهم . وبعد ذلك بايام قليـــلة ، لـ « الم اسرائيل الشـــديد » ، صوتت الولايات المتحدة الى جانب اشتراك منظمة تحرير فلسطين فى مناقشة فى مجلس الامن . عندئذ فجر وليام سكرانتون خليفة موينيهان فى الأمم المتحدة ، احتجاجا رسميا على نقده الشـــديد لسياسات اسرائيل الاستيطانية فى الاراضى المحتلة ، وكان قد اقيم اكثر من ستين مستوطنة منذ حرب يونيو ١٩٦٧ .

ولم تعد الانتقادات الأمريكية الرسمية القاسية مثار نزاع شـــديد ، داخل امريكا نفسها ، كما كانت في وقت من الاوقات . وطـــوال سنوات عديدة، كانت سيطرة اسرائيل على اليهود الامريكيين، أقوى وانشط جماعات الضغط ، كاملة تقريبا . وبالنسبة للمنظمات اليهودية الرئيسية ، كانت المواقف الاسرائيلية الرسمية ـ حول الفلسطينيين والعالم العربى والطريق الى السلام ـ هى عين مواقفها . اما الاصوات التى كانت تعارضها فقــد كانت أشبه بصرخه فى البرية . الا أنه عندما زار (الحمائمى) الاسرائيلى ، اريه ايلياف ، امريكا فى أوائل ١٩٧٦ ، فانه قد لاحظ ان المشهد اليهودى الامريكى آخذ فى التغير . وقد قال « انه لمشهد خادع، انه اشبه ما يكون بنهر متجمد : فالسطح هادىء ولكن حذار مما يجرى تحت السطح (١) » .

والواقع ان رذاذا من المعارضة كان قد بدأ يبرز امام الانظار . ففى ديسمبر ١٩٧٥، عرف الحاخام هنرى سيجمان ، المدير التنفيذي لمجلس معابد أمريكا عرف السياسة الاسرائيلية بانها سياسة تسعى الى أن « تتجنب بأى ثمن ، أو تؤجل لاطول فترة ممكنة ، مواجهة المسألة الاشمل الخاصة بالســـلام النهائى » . وقد أعرب عن خوفه من أن مثل هذه السياسة « قد تتضمن بذور كارثة » لانه لا الولايات المتحدة ولا العالم سـوف يقبلان « الالحاق الدائم » لاجزاء واسعة من الارض العربية (٢) . وفى أوائل ١٩٧٦ اتخذت وحدة العمل الاجتماعى لاصلاح اليهودية قرارا رسميا ينتقد « الاعمـــال الاستفزازية » لاسرائيل فى الضفة الغربية ، وكانت الحكومة الاسرائيلية قد سمحت لمتعصبى حركة جوش ايمونيم التوسعيين بالاحتفال بعيد الفصح اليهودي من خلال مسيرة لمدة يومين عبر الضفة الغربية اعلنت « الحق الثابت لكل يهودي فى كل جزء من اجزاء اسرائيل » ، وقد فشلت فى اجلائهم عن المستعمرة « غير الشرعية » التى كانوا قد اقاموها فى ناحية نابلس التى كانت حتى ذلك الحين عربية خالصة . لكن شيئا لم يلحق الضرر باسرائيل كالاضطرابات العربية التى تفجرت فى النصف الاول من ١٩٧٦ . وكان أحد الاسباب الرئيسية وراء ذلك هو المظاهر الجديدة للشهوة الصهيونية النهمة الى الارض العربية . لم تكن هذه المظاهر قاصرة على الاراضي المحتلة . فداخل حدود ما قبل ١٩٦٧ الاسرائيلية ، كانت الحكومة تخطط لمصادرة ٠٠ر٦٠ اكر جديدة من الارض القليلة التى بقيت فى ايد عربية . وكانت دوافعها جلية العيان، ففى بعض مناطق الخليل ، اصبح عدد العرب ، مع معدل مواليدهم شديد الارتفاع ، متفوقا على عدد اليهود ، وقضد تقوى وقف

هذا التغير فى « التوازن السكانى » ــ كما وصفه التعبير الرسمى المخفف ــ الذى كان ينظر اليه ليس بوصفه مجرد تحــــد لا يفتقر للايديولوجيــة الصهيونية ، وانما بوصفه تهديدا لتكامل الدولة نفســه . وقــد أدت الاضطرابات الى تبديد الوهم الذى كان يغذى بعناية والذى كان يخلق تصورا بأن عرب اسرائيل ، أن لم يكونوا راضين عن المصير الذى حل بهم ، فانهم مستسلمون له على الأقل ، وقــد اثبتت ان حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، والانعطاف التالى الذى حدث فى ميزان القوة فى الشرق الأوسط لمصلحة العرب والنجاحات الدبلوماسية لمنظمة تحرير فلسطين قــد أثرت تأثيرا عميقــا لا على سكان الضفة الغربية وحــــدهم ، بل وعلى الفلسطينيين « المنســـبين » داخل اسرائيل الأصليــة . كما دفعت اسرائيــل الى الكشف عن ذلك الوجه القبيح الجائر لطبيعتها والذى كانت قد تمكنت على وجه العموم من حجبه عن العالم . وأصبح الفلسطينيون الان « اخبارا » ــ وهى علامة أخرى من علامات الفترة ــ ومع أن الحماس فى تقصى الحقائق لم يكن العلامة المميزة للصحفيين الغربيين فى اسرائيل ، فقد ابدوا ما يكفى منه فى هذه المناسبة نكاية فى حكومة لم تعتد على مثل هــــذا التدقيق المتميز بالاصرار على عدم المجاملة . وقد حاولت السلطات عرقلة مهمة الصحفيين ، واضطرت رابطة المراسلين الاجانب الى الاحتجاج على حملة افتراء زعمت ان الفلسطينيين قد تلقوا رشــوة من الصحفيين انفسهم من اجل القيــام بمظاهراتهم .

وكما قالوا ان الاضطرابات لم تكن ضارة بما يكفى ، اختارت الحكومــة الاسرائيلية ذلك الحين لاضفاء مظهر درامى جلى واحتفالى على أهم الصداقات الدولية المعاصرة ، وان كانت لم تلق من قبل دعاية كبيرة ، فالزيارة الرسمية التى قام بها الى اسرائيل جــون فورستر ، رئيس وزراء جنوب افريقيا ، والاستقبال الحار الذى لقيه ، قد كرسا التحالف الاكيد بالتعمق بين الدولتين كانت محنتهما وأساليب التعامل لديها متشابهة بصورة غير عادية منذ زمن طويل . وبعد زيارة فورستر ، ومنحه احدى وسائل الكثيرين الى جنوب افريقيا متجادلا : ماذا تعنى ، عندما تقول بعض أفضل أصدقائى ؟ قال بعض أصدقائى اليهود (٢) ... وفى سبتمبر جاء التصريح المعروف لدى « مذكرة كوينج » ، ففى هذه الوثيقة السرية الفائقة ، طرح مستشار كبير فى وزارة الخارجية مقترحات ذات نبرة عنصرية متزايدة ، حول « تخفيف » السكان العرب فى شمال اسرائيل . وبحلول أواخر ١٩٧٦ كان أكثر من نصف اليهود السوفييت الذين كانوا قد تمكنوا من الحصول على تأشيرات خروج الى اسرائيل يتوجهون مباشرة الى الولايات المتحدة وبلدان غربية اخرى بدلا

من ذلك ، وقد تعرضت المنظمات الخيرية اليهودية الأمركية لضغط شديد حتى تمنع المساعدة عن كل هؤلاء « الساقطين » غير الجديرين ، وقد احتجت جماعة من المهاجرين بانه اذا ما تمكنت اسرائيل من النجاح فى ذلك فان ذلك سوف يؤدى الى بروز موقف قوامه دعوة « يهود العالم الحر الى مساعدة لجنة أمن الدولة فى وقف هجرة اليهود السوفييت من الاتحاد السوفيتى (٤) .

وقد كان من شأن هذه الشوائب وغيرها ، تعميق شكوك اليهود الأمريكيين ، ولم يكن من شأن ذلك ، بدوره ، الا أن يساعد الرئيس جيمى كارتر وحكومته الجديدة فى استجماع الشجاعة الضرورية من اجل ديبلوماسية البحث عن السلام « المتوازنة » التى كانت اسرائيل قد تمكنت فى السابق من تخريبها دائما .

ولم يكن بوسع الفلسطينيين الا أن يتجهزوا ازاء مصاعب اسرائيل المتزايدة . ولكنهم سرعان ما تعرضوا لمتاعب بالغة هم ايضا . وكان مما يدعو الى السخرية العميقة ان يضربوا بقوة مدمرة من جانب العدو فى المؤخرة فى نفس الوقت الذى كانوا يحرزون فيه نجاحات باهرة ، فى الحلبة الديبلوماسية الدولية ، على العدو الرئيسى . وكان ذلك طورا غريبا آخر ، لا يكاد يصدق من أطوار ما كان عرفات قد وصفه فى وقت من الأوقات « مؤامرة عربية » (٥) .

لقد كانت الفرقة د ائماهى لعنة العرب . وكان الرئيس السادات قد استحثهم فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ الى درجة من وحدة الهدف اعلى مما كان قد تحقق من قبل فى أى وقت من الاوقات . وفى الصراع الديبلوماسى الذى اعقب وقف اطلاق النار كان دوره فى تقويض هذا الهدف اخطر من دور أى أحد آخر . ومع ان الحرب كانت زلزالا هز اسرائيل من اساسها ، لأسباب وصفناها (٦) ، فان جيشها كان ، فى النهاية ، قاب قوسين من كسبها ، وهكذا حرمت السادات من تحقيق ما كان قد أعلنه كأهداف لحربه ، خلال الانتصار الأولى لعبور قناة السويس ــ الجلاء الفورى عن الاراضى التى كانت اسرائيل قد احتلتها فى حرب يونيو ١٩٦٧ . وقد اتجه السادات الى امريكا والدكتور كيسنجر من اجل تحقيق « سلام عادل » واستماته منه فى إثبات ان العبور الذى حظى بتمجيد شديد كان هو الانتصار الذى استهدفه فعلا ، فقد أذعن فى إتفاقيتى الفصل الخاصتين بسيناء اللتين تفاوض عليهما « صديقه » هنرى فى اعمال ديبلوماسية المكوك المذهلة لقد تنازل الاسرائيليون عن اراض بالفعل لكنها لم تكن كثيرة ، وقد حصلوا جزاء تنازلاتهم على مكافأة ضخمة . وقد

أعقب الفصل الاول ، الذى تم التوصل اليه فى يناير ١٩٧٤ ، فصل مماثل فى مرتفعات الجولان ، بعد خمسة شهور ، لكن الفصل الثانى ، الذى تم التوصل اليه فى سبتمبر ١٩٧٥ ، قد أثار توبيخات عنيفة من جانب شريك السادات السورى فى وقت الحرب ، واتهامات من كل جهة بانه قد باع القضية العربية. لقد كان التعامل تعاملا منفردا مع جيران اسرائيل دائما هدفا موجها من أهداف السياسة الخارجية الاسرائيلية . لكن اتفاقية الفصل الثانية قد حققت فى الواقع ما هو اكثر من ذلك بكثير : لقد كرست افلاس نظام سياسى برمته .

فى فبراير ١٩٤٩ ، كانت مصر الملك فاروق أول دولة من دول «المواجهة» الاربع المهزومة تعقد اتفاقيات هدنة مع دولة اسرائيل الوليدة ، وفى غضون ستة أشهر من هذا الارتداد الأولى ، الذى شجب شجبا شديدا ، كانت الدول الثلاث الاخرى ، لبنان والاردن وسوريا ، قد حذت كلها حذو مصر . وقد فجرت اتفاقيات الهدنة موجة من الثورات العنيفة فى العالم العربى . وقد رد الرئيس عبد الناصر و «ثوريو» جيله النكبة الى تعفن النظام القديم ، الملكيات ، وانظمة البكوات والباشوات ، وكبار ملاك الاراضى والاقطاعيين ، الأنانيين ، التافهين ، الرجعيين ، التابعين لخالقى اسرائيل الغربيين — وكانت مهمتهم المركزية تتمثل ، ظاهريا على الاقل ، فى محو عار الهزيمة الا انه كان لابد لهم فى البداية من تحويل وتحديث مجتمعاتهم . وبينما التحويل مستمر تتمتع اسرائيل بفترة تلتقط فيها انفاسها ، وبمجرد استكماله ، ويجىء الدور على « تحرير » فلسطين ، أى ، كدليل تتويجى على نجاحاتهم . الا ان النظام « الثورى » الذى افرزته النكبة قد اثبت فشله بكل المعايير الممكنة باستثناء المعايير المتحيزة . فالعالم العربى لا يتمتع — اذا استخدمنا اشهر شعارات ربع القرن الماضى — لا بالوحدة ولا بالحرية ولا بالاشتراكية . أما فيما يتعلق بفلسطين ، فان « الثوريين » بدلا من تحريرها ، قد فقدوا المزيد منها . وقد وصف الرئيس عبد الناصر هزيمة ١٩٦٧ بانها نكسة ، لكنها كانت فى الواقع نكبة اخرى ، اكثر فداحة . وفى أكتوبر ١٩٧٣ ، استرد العرب جزءا من عافيتهم . لكن ذلك حدث برغم أنف الانظمة ، وذلك بنفس الدرجة التى حدث بها بسببها . وكان معنى ذلك انهم قد نجحوا اخيرا ، وبصورة متأخرة تأخرا فاضحا ، فى تحقيق حد أدنى من تعبئة تلك الامكانيات الضخمة التى اسبغها عليهم موقع بلادهم الاستراتيجى وقوتها البشرية وثرواتها الضخمة . لكن ها هو زعيم المعسكر « الثورى » ووريث عبد الناصر ، يعقد ، بعد ثمانى سنوات على النكبة الثانية ، صفقة مع اسرائيل قال زعيم

فلسطيني عنها « ان الملك فاروق لم يكن ليجد الجرأة على عقدها (٧) » . ان ١٩٤٩ تتكرر مرة أخرى ، أما الرئيس السورى حافظ الاسد ، رغم كل غضبه ، فقد كان متلهفا شديد اللهفة الى التصرف بطريقة مماثلة .

وقد دفع الفلسطينيون ثمن الافلاس العربى صحيح ان منظمات الفدائيين المعذبة من جراء « المرض الداخلى » (٨) الخاص بها تتقاسم جانبا من جوانب الافلاس ، لكن ذلك لا يكاد يقلل من فداحة ما تقترفه الانظمة ضدها الآن .

ان الحرب الأهلية اللبنانية ، التى بدأت فى ابريل ١٩٧٥ ، كانت داخلية الى حد بعيد فى الاصل ، لكنها تطورت بعد اتفاقية سيناء الثانية الى حرب اهلية عربية بالوكالة وفى التعليقات العربية على الحرب ، تكرر استخدام كلمة التحجيم . وهى تسمح بتغلغل اساسى فى استيعاب نزاع معقد ووحشى بصورة فريدة . لقد كانت كل الانظمة العربية الساعية الى السلام تتقاسم هدفا استراتيجيا واحدا ، لقد كانت كلها تريد تحجيم الفلسطينيين . الا أنه بسبب انقساماتها على الصعيد التكتيكى ، فان بعضها كان يريد تحجيم احدها الاخر ايضا . فقد كان الرئيس الاسد يسعى الى اقامة ركيزة قوة سورية كبرى يستطيع استخدامها ، فى اعقاب خيانة السادات ، من أجل استراتيجية مضادة خاصة به ، واذا كانت مصر سوف تصبح بوابة السلام الامريكى فى الشرق الاوسط ، فقد كان مصرا على أن تكون سوريا ، على اقل تقدير ، المفتاح الذى يفتح البوابة وكان قد تحالف لاجل هذا الهدف مع أردن الملك حسين من جانب وهو تحالف كان يمكن أن ينظر اليه قبل ذلك بسنوات قليلة على أنه تحالف شاذ للغاية، لأن حسينا ــ الذى اعتاد الأسد وصفه بأنه « أحد ركائز دولة العصابات (الاسرائيلية) (٩) » ــ كان أثرا ، بقى بمعجزة ، من آثار ذلك النظام « الرجعى » السابق على سنة ١٩٤٨ الذى كان « الثوريون » قد حاولوا تغييره . وكان الاسد يسعى الآن الى فرض سيطرته الحازمة على حركة المقاومة الفلسطينية ــ التى كان من المقدر لها فى وقت من الاوقات ، وفقا لتعبيره هو ، أن تساعد على « محو الوجود الصهيونى من الوطن العربى (١٠) » ــ فى ملجأها اللبنانى الأخير ــ من جانب آخر . وفى النصف الاول من الحرب ، عندما كان المصريون يشجعون المسيحيين اليمنيين القى بعظم ثقله ، وان كان بحذر، الى جانب الفلسطينيين وحلفائهم المسلمين اليساريين المحليين . وفى النصف الثانى ، عندما كان موقف المسيحيين موقفا يرثى له عقد تحالفا معهم كان الاكثر شذوذا بصورة صارخة من تحالفه مع الملك حسين . لان حليف المسيحيين الاخر كان اسرائيل .

وهكذا كانت سوريا ، التي تسمى بـ « قلب العروبة النابض » ، هي التي تتواطأ الآن مع الشيطان نفسه ضد التجسيد الفلسطيني ، الاسمي ، للقضية العربية ، هكذا كان نفس النظام البعثي الذي كان أول من ساعد الفدائيين في تهور شبابه الناري هو الذي ينقلب الآن عليهم في خبث أفوله المتشبث بالبقاء . وبين الفلسطينيين ، فان حزيران الأسود ، سنة ١٩٧٦ — عندما تكشفت الأبعاد الكاملة لـ « المؤامرة العربية » أخيرا — يتم تذكرة بوصفه نذالة أكبر من أيلول الأسود ، سنة ١٩٧٠ ، أما تل الزعتر ، مخيم اللاجئين الذي رمز حصاره وسقوطه المروعان الى ذروة الحرب الأهلية ، فان الفلسطينيين يتذكرونه بوصفه مرادفا للغدر الذي من المؤكد تقريبا أن المؤرخين العرب سوف ينظرون اليه بوصفه كذلك .

وقد أغدق النظام المصري السباب على البعثيين السوريين — بينما كان يكتم بهجته ازاء صنيعهم . وقد لحق بالرئيس الأسد الجانب الأكبر من عار تحجيم الفلسطينيين ، وقد تجاوز حدوده في سياق ذلك . وهكذا تمكنت مصر — بمساعدة العربية السعودية الغنية بالبترول ومتزايدة القوة — من تحجيم الأسد بدوره .

ومع تصالحهما — في مؤتمر القمة الذي انعقد في الرياض في اكتوبر ١٩٧٦ فوق جثث الفلسطينيين ، تحول شريكا زمن الحرب عن مبالغات الكراهية المتبادلة الى تجربة أخرى من تجارب « الوحدة » العربية العديدة . وأقاما قيادة سياسية مشتركة لتنسيق استراتيجيتهم في البحث عن السلام . واستهلا « هجوم سلام » ضخم يستهدف اثبات اعتدالهما .

ولم تكن فرص انهاء أخطر وأشرس نزاع في العالم من قبل افضل مما أصبحت عليه . وقد وصف الرئيس كارتر عام ١٩٧٧ ، بعد تنصيبه بقليل ، بأنه « أكثر آمال السلام التي يسعني تذكرها اشراقا » . ومما لا شك فيه ان الرصيد الأعظم للباحثين عن السلام كان يتمثل في المظهر المتبدل للعالم العربي ، فالرأي العام ، بقيادة الفلسطينيين أنفسهم ، كان أكثر استعدادا مما في أي وقت مضى لقبول التسوية — دويلة فلسطينية — الذي كان يبدو انه بسبيله الى التحقيق . وقد انبثق الاستعداد ، في شكله الأكثر ايجابية ، عن الاحساس بأن العرب ، مع الانعطاف الراهن لميزان القوة الرئيسي الى جانبهم ، يمكنهم ان يبدوا رحابة صدر . أما في شكله السلبي ، فقد انبثق من اللامبالاة ، فقد تعب الناس من النضال الذي خاضته حكوماتهم بهذه الدرجة من انعدام الكفاءة ، رغم انعطاف ميزان القوة . ويبدو أن تقدير الرئيس كارتر السامي لاسرائيل ينبع الى حد بعيد من معتقداته المعمدانية

الجنونية ، وقد قال بالفعل إن الدولة اليهودية ، في نظره تعد « تحقيقا لنبوءة انجيلية » . لكنه أقر في الوقت نفسه باعتدال العرب وقادتهم ، في الأشهر الأولى لتوليه مهام منصبه ، الى الامل في أن هذا الاعتدال قد يجد الاستجابة الأمريكية التي يستحقها ، في شكل ضغط حقيقي على اسرائيل. وقد بدأ في اتجاذ مواقف علنية بكل جرأة دبلوماسية العلنية جديدة الطراز وقد عرض مفهومه عن السلام النهائي . فقال أنه فيما عدا « بعض التعديلات الطفيفة » فان اسرائيل يجب أن تتخلى عن كل الأراضي التي كانت قد احتلتها في ١٩٦٧ ، ويجب ايجاد « وطن للاجئين الفلسطينيين ، الذين عانوا سنوات كثيرة ، كثيرة » . وكان ذلك مشجعا للفلسطينيين بنفس الدرجة تقريبا التي انزعج بها الاسرائيليون . وقد قال ياسر عرفات ، في اشادة لم يسبق بها مثيل برئيس أمريكي « ان كان ذلك صحيحا ، فانه يكون قد لمس صميم المشكلة التي لا يمكن التوصل الى تسوية دونها » .

لكن هل ذلك كافيا ؟ ربما كانت فرص السلام تبدو أفضل مما كانت في أي وقت مضى لكنها لم تكن جيدة . فبحلول ربيع ١٩٧٧ كانت الأنظمة العربية آخذة في الانحطاط، نتيجة لافلاسها المعنوي والسياسي ، وذلك تقريبا بنفس السرعة التي كان يتم بها احراز تقدم نحو التسوية التي كان من شأنها وحدها ان تنقذها . فالرئيس السادات — عماد السلام الأمريكي الناشيء — كان قد تزعزع مركزه من جراء أسوأ اضطرابات منذ انتفاضة الشعب المصري ضد السيطرة البريطانية في سنة ١٩١٩ . وكان الرئيس الأسد يجاهد من أجل احتواء عواقب مغامرته اللبنانية . لقد كانت قبضته أشد من قبضة السادات ، لكن المخاطر المحيطة به ، وان كان تحسسها أقل يسرا ، لم تكن أقل واقعية . وبعض الاشياء لا يمكن حجبها . وقد لجأ أعداؤه الى أعمال العنف والتخريب . وفي أكثر هذه الأعمال اثارة ، فان أبا نضال ، المرتد عن فتح الذي يتخذ من بغداد قاعدة له ، قد أرسل أربعة أشخاص لاحتلال فندق سميراميس في قلب دمشق ، وكانت « عملية تل الزعتر » — التي احتجز فيه عرب رهائن عربا — أشد عمليات ارهاب الملاقات العامة اثارة للصدمة . لقد كانت عرضا من أعراض الضغائن والاحباطات المسممة للهيكل السياسي العربي — والمهددة له بالانحلال الكامل . فبعد أربع سنوات من النكبة الأولى — مع الانقلاب الذي حمل حسني الزعيم الى السلطة في سوريا — كان النظام القديم قد بدأ في الانهيار وبعد عشر سنوات تقريبا من النكبة الثانية ، فان النظام « الثوري » الذي

حل محله ، والذى اجلت حرب أكتوبر ١٩٧٣ حكم الأعدام فيه ، كان مايزال قائما — لكنه انهياره النهائي كان يهدد بأن يكون أكثر درامية بما لا يقاس .

كما أن فرص السلام لم تكن جيدة لانه ، رغم أنه من المحتمل أن يكون العرب قد تغيروا ، فان الاسرائيليين قد أصبحوا أكثر عنادا مما فى أى وقت مضى . وكما رأينا ، فقد كان شيئا غريزيا دائما بالنسبة لاسرائيل ، اذا استخدمنا تعبير بن جوريون ، « ان تتمسك بما فى يديها » ، أن تبنى أمنها ، (لا على اتفاق مع جيرانها ، وانما على تفوق عسكرى سابق . وفى المدى القصير — وبالرغم من الحالة المزرية لاقتصادها — أصبحت اسرائيل تشعر بانها أقوى مما كانت فى أى وقت من تاريخها . وقد قال اسحق رابين ، الذى كان رئيسا للوزراء آنذاك ، ان اسرائيل هى الآن أقوى من جميع الدول العربية مجتمعة) ، ففى كل سنة منذ حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، تحصل على معدات حربية تبلغ قيمتها ١٫٥٠٠ مليون دولار أمريكى بالمقارنة مع معدات حربية تبلغ قيمتها ٣٠٠ مليون دولار فقط فى السنوات الثلاث التى سبقتها . ورغم كل الشكوك التى كانت تراود اليهود الأمريكيين ، فقد كانوا ما يزالون على استعداد لممارسة نفوذ ضخم بالاصالة عن محميتهم . وفوق كل شيء كان بوسع الاسرائيليين ان يشعروا بالارتياح ازاء ارتباك أعدائهم . وكانوا يشعرون أنهم ب « تمسكهم بما فى أيديهم لا يمكنهم الا تعميقه . لقد منحهم الاضطراب الذى أعقب النكبة الأولى سنوات عديدة من الراحة ، أما الاضطراب الأعظم الذى يهدد بأن ينجم عن النكبة الثانية فسوف يمنحهم فترة راحة أخرى . وكما بين رابين ، فان «كسب الوقت» هو هدف اسرائيل الرئيسى ، وهى بطريقة ما ، عليها أن تجتاز « سبع سنوات عجاف » ستظل أمريكا وأوربا فيها ، وفقا لتدبره (المتفائل بصورة مفرطة) معتمدين على البترول العربى (١١) .

وهكذا نكصت اسرائيل مرة أخرى على عقبيها . فمع استجماع الدبلوماسية الأمريكية الساعية الى السلام لقوة الدفع ، عاد قادتها الى احجامهم المتصلب القديم : أنهم لن يجلسوا ابدا مع منظمة تحرير فلسطين فى جنيف ، على الاقل قبل ان تعدل الميثاق الوطنى الفلسطينى الذى يدعوا الى « تدمير » اسرائيل ، ولن يسمحوا ابدا بظهور « دولة عرفات » . وفى الانتخابات العامة التى جرت فى مايو ، هزم ليكود اليمينى حزب العمل الحاكم ، وهكذا احتل الجناح المتعصب والتوسعى بشكل سافر من الحركة الصهيونية مكانته اللائقة احتلال الظافرين ، الن مناحم بيجين ، زعيم الارجون السابق ، والمكلف برئاسة الوزارة ، قد اعلن على الفور تمسكه

باسرائيل الكبرى ، أما ما وصفه بالأراضي « المحررة فلن يتم التخلي عنه في التسوية السلمية التي حث العرب عليها ، بنفس الحمية » .

لقد اثبت التشـــدد صلاحيته حتى الآن . أو على الأقل ، بالرغم من اربع حروب ، فان هذا هو الرأى الذى مازال يتقاسمه معظم الاسرائيليين بثبات . أما دعاة المصالحة ، الذين دخلوا مؤخرا في اتصالات مباشرة مع ممثلي منظمة تحرير فلسطين ، فمازالوا أقلية صغيرة وان كانت آخـــذة في التزايد . ولعل الأغلبية على حق : فالعرب ليس بوسعهم التصـــالح مع اسرائيل ١٩٦٧ . ولعل نصف رغيف ، نصف فلسطين (أو بالتحديد ، ٢٣ في المائة منها) هو نصف العدل الذى لا يمكنهم أبدا قبوله : فهم اذا استردوا نابلس وبيت لحم سوف يطالبون بيافا والناصرة أيضا . وبما . لكنه اذا كان هناك شيء مؤكد فهو ان ذلك التشـــدد لا يمكن أن يصلح الى الأبد . وقد أدرك الدكتور كيسنجر عواقبه النهائية . فقد قال للقادة الاسرائيليين في لحظة فشل مبرح : « انه لمن المؤلم الآن ترى أناسا يقودون أنفسهم الى تهلكة خطر لا يصدق(١٢) » . ان أحدا من أصدقاء اسرائيل لم يعمل بمثابرة أشد من مثابرته وبتفان أشد من تفانيه ، من أجل انقاذ اسرائيل من نفسها صحيح أن اتفاقيات الفصل التى ساعد على ترتيبها قد منحتها المزيد من الوقت ، لكن العرب لن يظلوا على ما هم فيه من ارتباك الى الأبد ، فسوف يظهر في نهاية الامر نظـــام جديد أقدر ــ في غياب تســوية سلمية ــ أكثر اصرارا على تعبئة الامكانيات الضخمة التى يحوزها .

ان غصن الزيتون لن يحل محل البندقية ما لم ينقذ العـــالم الخارجى اسرائيل من نفسها ، بل وبمعنى أعمق بكثير من ذلك الذى تخيله الدكتور كيسنجر . فدون ذلك الانقاذ ، سوف يكون آخر فصول العنف في الشرق الأوسط نوويا ، والميل الصهيونى الجبرى الى الحـــل المتطرف ، والذى رأيناه عمليا في كل مرحلة من مراحل هذا التاريخ ، لا يملك ان يؤكده . ان اسرائيل لم توقع معاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية ، وهى تملك القنبلة والتطوير التالى لطاقتها النووية هى الســــبيل الوحيـــد الذى يمكنها من موازنة قوة أعـــدائها التقليدية المتزايدة بلا انقطاع . ان منطق القوة الذى اعتمدت عليه دائما هو في نهاية الامـــر منطق انتحارى . الا انه اذا لم يتم التوصل الى تسوية سلمية فان شيئا لا يمكنه الوقوف في سبيل هـــذا الاغراء النووى :

ـ تتســاءل الحكومة الأمريكية بين حين وآخر ببراءة تامة عن السبب فى جشعنا المفرط . وتدعى الصمم بين حين وآخر وتتظاهر بأنها لا علم لديها بهذا الموقف المأساوى الذى يرغم فيه ثلاثة ملايين يهودى مرهقين بدأوا لتوهم فى بناء وطنهم فى الصحراء على الاحتفاظ بقوة عسكرية ضخمة شمال الأطلنطى . وتتصرف الحكومة الأمريكيــة كما لو كانت لا تعلم ان حوالى نصف ناتجنا القومى الاجمالى يرقد تحت الاغطية فى مستودعات الطوارىء العسكرية عندنا ، وانه لولا هذا العبء القاصم للظهر لما وقفنــا وقفة المتسولين ببابها .

ان هــذه المســاعدة الأمريكية السخية كلها ، حتى عندما تسمى اقتصادية ، انما تذهب بشكل مباشر أو غير مباشر الى دعم سباق تسلح الخاصـــة ـ فيما عدا اسرائيل التى لا يمكنها أبدا كسبه . ومن المؤكد أن الخاصة ـ فيما عـدا اسرائيل التى لا يمكنها ابدا كســبه . من المؤكد أن اسرائيل لن تهزم فى ســاحة القتال : لكنها ســوف تنهار ـ أقتصــاديا واجتماعيا ـ تحت الوطأة المرعبة لمشتريات الأسلحة التى لا نهاية لها . .

انها حلقة مفرغة مدبرة بصورة تامة : فعنــدما يكون لدى العرب ١٠٫٠٠٠ دبابة ، سوف نحتاج الى ٦٫٠٠٠ على الأقل ، وعندما يكون لديهم ١٠٫٠٠٠ سوف نحتاج الى ١٢٫٠٠٠ ، وهكذا الى ما لا نهاية ، وبصرف النظر عن التوصـــل الى اتفاقيات مرحلية أولا فان الســباق ســوف يستمر ، وسوف يستمر اعتمادنا الكامل على الولايات المتحدة .

وسوف يعنى هذا الاعتماد الكامل الانسحاب الكامل الى حدود ١٩٦٧ وغرز دولة فلسطينية فى حلقومنا ، دون سلام .

طبيعى ان الأمريكيين لا ينــوون التخلى عنا . فســوف يتمســكون بتعهداتهم . هكذا يجرى حوارهم التالى ليوم الغفران (حرب أكتوبر) معنا على النحو التالى . انهم يقولون لنــا : « ان لم تنضبطوا الى أقصى حـد فلن تحصلوا على أسلحة . لكنكم اذا انسحبتم وجعلتمونا القوة المهيمنة فى المنطقة فسوف نحمى وجودكم » . ونحن نقول « أى نوع من الوجود ذاك ، اذا كانت الصواريخ السوفيتية تبعد مسافة ١٢ ميلا عن تل أبيب و٢٠٠ ياردة فقط عن القدس ؟ اتسمون ذلك حدودا آمنة » ، « طالما هنا فسوف تحميكم » ، « وماذا ان لم تكونوا ؟ » ، « تلى مجازفة محسوبة ســيتعين عليكم اتخاذها ، والا فما هو بديلكم ؟ » .

ان بديلنا الواحد الاوحد لدمارنا التدريجى عن طريق سباق التسليح هو تطوير رادع نووى خاص بنا . انه فرصتنا الوحيدة لكى نقول لاعدائنا ولصديقنا الوحيد : تلك هى المسألة ، اننا لا نلعب بعد ، اننا نرفض الدوران الى الأبد فى الحلقات التى رسمتموها لنا . اننا لانريد بعد اسلحتكم ، اننا نريد شبكة تعليمية حديثة جدا .

وسوف يتعين علينا عاجلا او آجلا ان نقولها بصوت عال . سوف يتعين علينا عاجلا أم آجلا أن نعلن : اذا ما اجتاز جيش عربى هذا الخط الأخضر ، فاننا نحتفظ بحق استخدام الأسلحة الذرية ، واذا ما اجتاز الخط الاحمر فسوف نسقط القنبلة أوتوماتيكيا ، حتى ولو أدى ذلك الى نسف هذا البلد بأكمله عن طريق انتقام نووى . الا تصدقون ؟ جربونا اذن ! ..

ايصدمكم قول ذلك ؟ انه بالتحديد ما كان يقوله غرب ادنى قوة لكتلة سوفيتية جبارة طوال الثلاثين سنة الماضية . وهو ما أنقذ جلده ، وهو ما سيبقى العالم الحر حرا عندما تتحد قوى الصين والاتحاد السوفيتى ــ القنبلة الدموية .

وليس لاسرائيل من حليف أفضل منها .

نحن نعرف حجج معسكر السلام المنافق ، الذى يمقت أية قنبلة ليست فى ترسانته ونحن نعرف أيضا ان العرب سوف تكون لديهم قنبلة خاصة بهم فى النهاية ، سواء طورنا قنبلتنا أو لا . ومع ذلك فانها سوف تعنى بالنسبة لجيراننا التهديد الجديد بحرق شامل أما بالنسبة لنا فانها ستكون مجرد اختلاف فى الأسلوب لاننا نعيش تحت تهديد الابادة منذ لحظة انبثاق هذه الدولة ..

صحيح أن ميزان السلاح النووى قد يمحو كامل المنطقة أو قد لايمحوها ــ لكن سباق التسليح الراهن سوف يقضى علينا بالتأكيد (١٣) .

ملاحظـــات :

(١) ميدل ايست انترناشيونال ، لندن ، يونيو ١٩٧٦ ، ص ٤ .

(٢) المصـــــدر الســـابق .

(٣) النيويورك هيرالد تربيون ، ١٥ فبراير ١٩٧٧ .

(٤) الجارديان ، ١٠ نوفمبر ١٩٧٦ .

(٥) انظر ص ٣٠٨

(٦) انظر ص ٢٥٨ والصفحات التالية لها .

(٧) الجارديان ، ١٢ سبتمبر ١٩٧٥ .

(٨) انظر ص ٣٠٠ والصفحات التالية لها .

(٩) الثورة (صحيفة دمشقية) ، ١٤ فبراير ١٩٦٧ .

(١٠) البعث (صحيفة دمشقية) ، ١٢ مايو ١٩٦٧ .

(١١) هاآرتس ، ٣ ديسمبر ١٩٧٤ .

(١٢) انظر ، ادوارد شيهان « خطوة خطوة فى الشرق الاوسط » ، فورن بوليس ، مارس ١٩٧٦ .

(١٣) افرايم كيشوف ، الجيروزاليم بوست ، ٢٥ ابريل ١٩٧٦ .

فهرس الكتاب

جمهورية مصر العربية

الهيئة العامة للاستعلامات

القاهـــرة